دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة المجلد 1

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

الفقراء
المثل
قلب ضغيف

تصميم غلاف : علي مولا





الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الأول

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شيارو
ص. ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

- الفقراء
- المثل
- قلب ضعيف

مقدمة الطبعة العربية الثانية

دوستويفسكي : معاصرنا

تصدر هذه الطبعة العربيّة الجديدة لأعمال دوستويفسكي الأدبية الكاملة بعد انقضاء مائة عام ونيف على وفاة مؤلّفها (١٨٢١ ـ ١٨٨١) الذي يعتبره نقّاد الأدب ومؤرخوه واحداً من أعظم الروائيين الروس في القرن التاسع عشر. وغنيٌّ عن القول ان مترجم هذه الأعمال الكاملة، المرحوم الدكتور سامي الدروبي، كان رائداً في مجال تعريف القارىء العربي بروائع الأدب الروسي منذ ما يقارب الخمسين عاماً. ويعود الفضل في نشر الترجمات الأولى الى دار اليقظة العربيّة للتأليف والترجمة والنشر في دمشق. ثم جاء صدور الأعمال الأدبيّة الكاملة في ١٩ مجلّداً عن وزارة الثقافة في مصر عام ١٩٦٧ بالتعاون مع المؤسسة المصريّة العامّة للتأليف والنشر ودار الكاتب العربي للطباعة والنشر (القاهرة). وتأتي هذه الطبعة العربيّة الجديدة التي تقدّمها دار ابن رشد الى القارىء العربي لتؤكد على ضرورة الاهتمام بتراث الأدب العالمي عامّة، وعلى فائدة التعرّف عن كثب الى روائع الأدب الروسي بنوع خاص.

ويلاحظ القارىء اعتماد الناشرين منهج التسلسل الزمني في توزيع أعمال دوستويفسكي الأدبيّة على امتداد المجلّدات الكاملة. فالمجلّد الأول يضمّ باكورة النتاج الروائي لدوستويفسكي، وفي طليعته الرواية القصيرة **الفقراء** (١٨٤٦) التي اقترن صدورها بالنجاح السريع الذي أحرزه المؤلّف الشاب، وجاء بمثابة مؤشّر على اهتمامه الباكر بالكتابة الأدبيّة والروائيّة. وفي العام نفسه صدرت رواية **المثل** (أو الظلّ) لتطرح إحدى المسائل التي يتناولها المؤلّف في رواياته الكبرى (الجريمة والعقاب، الاخوة كارامازوف)، ونعني بها مسألة الصراع الداخلي بين الخير والشرّ.

ولقد جرت مراعاة مبدأ الترتيب التسلسلي الزمني في سائر مجلّدات المجموعة

ولسنا بصدد تقديم نبذة عن حياة دوستويفسكي، أو تناول أعما
بالدراسة في العمق. ولا تهدف هذه المقدّمة الى تقسيم مراحل حيات
والأدبيّة، علماً بوجود الرابط الوثيق بين التجارب والمعاناة والهواجس
الوراثي من جهة وبين الأفكار والمثل والمعضلات والمعتقدات التي
دوستويفسكي في رواياته وأضفاها على شخصيّاته الروائيّة من جهة أ
نكتفي بتنبيه القارىء الى فكرة تستحوذ على دوستويفسكي وتتغلغل في
النفسي والروحي لشخصيّاته الروائيّة، وهي اعتقاده الراسخ بحاجة الإنسان
والتوبة والتكفير، وقناعته بأن الألم والعذاب والمعاناة تؤلّف سبيل الخلاص
بالنقّاد والباحثين الى اعتبار تلك الفكرة بمثابة الهاجس المسيطر على
دوستويفسكي وشخصيّاته الروائيّة، فأرسى بالتالي دعائم الفهم الديني لرا

وثمّة ناحية تسترعي انتباه القارىء في رواية **الجريمة والعقاب**، مثلا
تتجلّى براعة الروائي في تصوير الحياة الداخلية للمجرم، وفي التركيز
الجوانب السيكولوجيّة للجريمة، وعلى التناقضات التي تعصف بالذات
وتشحذ الوعي المتنامي بحدوث شرخ أو انفصام يؤجّجه الصراع النفس
الشخص فيتجلّى على شاكلة ازدواج في الشخصيّة. وقد أدت هذه ال
تبلور المنظور النفسي في فهم أعمال دوستويفسكي الأدبيّة، وإلى وضع ا
مصاف علماء النفس البشريّة العظام.

ولا ينتمي دوستويفسكي الى مناخ القرن التاسع عشر فحسب.
معاصرينا من خلال أعماله الأدبيّة التي تطالعنا بمعزل عن أبعادها الزمنيّة و
ففي مطلع شبابه ارتبط مع مجموعة من الثائرين السياسيين وأصحاب
والتطلّعات الطوباويّة. وحين اكتشفت السلطات القيصريّة أمر هذه
التآمرية»، تعرّض دوستويفسكي للمحاكمة وصدر الحكم بإعدامه، ثم ص
القيصري بترحيله الى سيبيريا، حث أمضى خمس سنوات في الأشغال الش
يأتِ العفو النهائي إلاّ عام ١٨٥٩. وفي أواخر أيام حياته يبدو أن المدّ التمرّدي ؛

في نفسه بعض الشيء ليفسح المجال أمام تراجع صوب النزعة المحافظة. وللقارىء أن يحسم في هذه المسألة من خلال مطالعته هذه الأعمال الأدبيّة الرائعة. لكن المنحى التمّردي يظلّ طابعاً مميّزاً للشخصيّات الروائيّة، ولا مناص من اعتباره في فهم أبعاده.

ومما يجدر بقارىء دوستويفسكي تذكره على الدوام هو أن هذا الروائي العظيم سبَر أعماق النفس البشريّة وأفلح في كشف التناقضات التي تعصف بنفوس البشر وتستحوذ على أرواحهم وشخصيّاتهم. فقد سبق نيتشه الى القول ان دوستويفسكي هو «عالم النفس الأوحد الذي تعلّمت منه شيئاً». وجاء الروائي النمساوي ستيفان تسفايغ ليؤكد «إن دوستويفسكي هو أول إنسان أعطانا فكرة عن الناس الذين هم نحن...». وفي إحدى رسائله كتب فيودور دوستويفسكي يقول، في غمرة شعور بالاعتزاز و إحساس بالذنب واتهام الذات: «لقد تجاوزتُ الحدود في كل شيء، في كل شيء»!

وبشيء من مشاعر التجاوز الروحي والنفسي المطمئنّ نزفّ هذه الأعمال الأدبيّة الكاملة الى القارىء العربي في حلّة طباعيّة جديدة. ونرى ان صدورها، برغم الظروف الصعبة، قد جاء في الوقت المناسب واللحظة الحاسمة.

بيروت ٢٣ آذار (مارس) ١٩٨٥ **د. أسعد رزّوق**

مقدمة الطبعة العربية الأولى
لأعمال دوستويفسكي الأدبية الكاملة

بنشر أعمال دوستويفسكي الأدبية الكاملة ، تفتتح دار الكاتب العربي عهدا جديدا في تاريخ النشر باللغة العربية · ان بين خالقي التراث الانساني قمما يجب ان تنقل آثارها الى اللغة العربية كاملة ، وأن تنقل نقلا يتصف بالأمانه والدقة مثلما يتصف بنصاعة البيان ونقاء الأداء ، لتجيء الترجمة صورة تمثل الأصل تمثيلا صادقا ، ولتكون بذلك ترجمة أخيرة اليها يرجع وعليها يعتمد ، فلا حاجة بعد ذلك الى اعادة ترجمتها ، كلها أو بعضها ، مرة بعد مرة ، في هذا القطر او ذاك من اقطار الأمة العربية · واذا كانت الترجمة المثلى هي التي تنقل عن لغة الكاتب راسا بغير وسيط من لغة أخرى ، فليس بين أصحاب الاقلام في الوطن العربي الآن من يملك ناصية اللغة الروسية الى الحد الذي يكفل نقل عيون آثار الفكر الروسي عن اللغة الروسية بلسان عربي مبين ، فكان لابد من لغة أخرى يتم النقل عنها وسيطا بيننا وبين تلك اللغة . وكانت اللغة الفرنسية هي ذلك الوسيط الذي اعتمده المترجم في نقل أعمال دوستويفسكي الأدبية التي نقدمها الآن · ونحن نحسب مع ذلك أن الترجمة العربية تملك من مزيتي كمال الأمانة وجمال البيان ما يجعلها خليقة بان تعد نهائية ، ونحسب ان الكاتب العربي الذي سيجيء في المستقبل مؤهلا باتقان اللغتين الروسية والعربية لنقل امهات كتب الأدب الروسي سيشعر حين يضاهي بين هذه الترجمة وبين الأصل الروسي ، أنه ليس عليه أن يعيد الترجمة ، وأنه لا يحتاج الى أكثر من تنقيحات يسيرة يجري بها قلمه على كلمة هنا أو جملة هناك · ذلك أن الترجمة التي نقدمها الآن قد كان الوسيط بين صاحبها وبين الأصل الروسي ترجمات فرنسية اختارها الكسندروف سواوفييف ، وتمت مراجعتها على الأصل الروسي في الطبعة الروسية التي ظهرت سنة ١٨٨٩ في اثني عشر مجلدا ، وفي الطبعة

السوفياتية التى ظهرت بين ١٩٥٦ و ١٩٥٨ فى عشر مجلدات ، وتم تنقيحها وتصحيحها على ماتقتضيه الأمانة والدقة والمقدرة التى يتصف بها استاذ من كبار أساتذة الأدب الروسى فى العالم ، مثل سولوفييف ، الاستاذ بجامعة جنيف ، متعاونا فى هذا العمل مع عالم من أبرز علماء الأدب والنقد هو جورج هالداس . ولقد ظهرت الترجمة الفرنسية فى ستة عشر مجلدا عن دار النشر السويسرية **(Rencontres)** ، مصدرة بنبذة عن حياة دوستويفسكى اعتمدها المترجم ولكنه لم يقتصر عليها ولا تقيد بها كاملة ، وكذلك فيما يتصل بالمقدمات التى تمهد لكل عمل من الأعمال فى صدر كل مجلد . وقد رأى سولوفييف ان يتقيد بالطبعة السوفياتية التى صدرت فى عامى ١٩٥٦ ــ ١٩٥٨ ، فاقتصرت طبعته الفرنسية على « الأعمال الأدبية » ، لذلك لم ينشر من « يوميات كاتب » ، وهى مجموعة شتى من المقالات والكتابات ، الا ما هو أدب ، الا ما هو حكايات وأقاصيص ، مثل «بوبوك» و «الفلاح مارى» وغيرهما ، وكذلك لم ينشر « الدفاتر » التى تتضمن ما كان يخطه قلم دوستويفسكى اعدادا لكتابة أعماله المختلفة ، ولا نشر رسائل دوستويفسكى . ولكن المجلد التاسع عشر من الطبعة العربية التى ستنشرها دار « الكاتب العربى » تباعا ، سيشتمل على مختارات من رسائل دوستويفسكى ، وانما جاء الحرص على نشر مختارات من هذه الرسائل ، لما لها من قيمة أدبية أولا ، ولأنها تلقى أضواء على مؤلفات دوستويفسكى ثانيا ، ولأنها بعد هذا وذاك تسجل اطرافا من حياة دوستويفسكى الحافلة وترسم صورة لشخصيته الفنية ، وترتبط بأعماله انواعا من الارتباط على كل حال .

وتتسلسل أعمال دوستويفسكى الأدبية فى مجلدات هذه الطبعة العربية تسلسل ظهورها فى الزمان ، الا فى مواضع قليلة من المجلدات الأولى ، وذلك تغيير طفيف فى التسلسل الزمنى أملته ضرورة اخراج المجلدات فى حجوم متساوية ما أمكن التساوى . غير أن تاريخ ظهور كل عمل من أعمال دوستويفسكى مذكور تحت كل عنوان . فبذلك يتاح يتاح للقارىء أن يتتبع مراحل النمو والنضج فى شخصية دوستويفسكى ابتداء من أولى مبدعات شبابه « الفقراء » (١٨٤٦) وانتهاء بروايته الكبرى الأخيرة التى هى قمة انتاجه عمقا وقوة وكمالا : « الأخوة كارامازوف » .

دار الكاتب العربى

حياة دوستويفسكي

١٨٢١ ـ ١٨٨١



فيدور ميخائيلوفتش دوستويفسكي بموسكو في ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٢١ ، ومات بسان بطرسبرج في ٢٨ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٨١ . ولعل الظروف التي رأى فيها النور جديرة بأن تعد رمزا . فلقد جاء الى هذا العالم في مسكن صغير بمستشفى مريم الذي كان أبوه يعمل فيه طبيبا ، فكان القدر قد أراد له منذ خطا في الحياة أولى خطواته أن يكون مكانه بين الفقراء والمرضى



المستشفى الذي ولد فيه دوستويفسكي بموسكو

والمعذبين . لقد فتح عينيه على عالم لا فرح فيه ولا بهجة ، في جو تملؤه رائحة الأدوية ، بين أرجاء يسير فيها البشر عرجا أو كتعا أو عورا .. أو يرقدون على أسرة حجراتها البائسة مهزولين مصدورين .. وكانت أمه امرأة حزينة قلقة متطيرة تضنيها الهواجس وترهقها فئول الشؤم . وكان أبوه امرءا

مستبدا طاغية جهم المزاج ، شرس الطبع ، قاسيا خاشنا ، بخيلا شحيحا ، يفرض سلطانه على من فى المنزل باللسان السليط والقول الهاجر والسباب الجارح والصياح الحانق ، ولا ينى يتذمر من كثرة النفقات ، مرددا على مسامع أفراد الأسرة أنهم أناس فقراء فعليهم أن يقتصدوا ماأمكن الاقتصاد.



أبوه

وكان على الصبى دوستويفسكى أن يخطو خطواته الاولى فى التعلم والدرس خاضعا لهذا الأب ، قارئا عليه متعلما منه ، فكان يكرهه فى سره، وكانت صرخات الأب الغاضب تلاحقه حتى فى أحلامه ، ولعل الصبى كان يتمنى لأبيه الموت فى قرارة نفسه على غير شعور • ولكن الأب كان فى مقابل ذلك على جانب من ثقافة ، فكان يحلو له أن يقرأ لاولاده صفحات من عيون الأدب ، وكان يحب أن يقرأ لهم آثار بوشكين خاصة • واستطاع الأب بالتوفير والاقتصاد أن يحقق حلما من أحلامه فاشترى أرضا بمقاطعة تولا ، مساحتها خمسمائة هكتار واقنانها ثمانون • فكانت أيام الاجازات التى تقضيها الأسرة بالريف سعادة كبرى للأولاد • هنالك انما تعلم فيديا (فيدور) حب الفلاحين والارض ، وبقيت له من ذلك ذكرى مضيئة أودعها قصته القصيرة « الفلاح ماراى » • وفى عام ١٨٣٣ عهد الأب بفيدور وأخيه ميشيل (وهما أكبر أولاد الطبيب) الى معلم فرنسى اسمه سوشار ، ثم

عهد بهما بعد سنة من ذلك الى مدرسة داخلية يديرها رجل تشيكي اسمه تشرمان ، وهي مدرسة يسودها جو عائلي ، وتدرس فيها اللغات والآداب ، فكان شيلر ووالتر سكوت وديكنز هم الـكتاب الأثيرين على قلب فيديا خلال سنين ، حتى لقد أخذ ينظم أبياتا من الشعر سرا في أثناء ذلك .



أمه

فلما جاء الصيف من عام ١٨٣٦ ، مرضت أم دوستويفسكي مرضا خطيرا فماتت بالسل في السابع والعشرين من شهر شباط (فبراير) سنة ١٨٣٧ بعد مقتل الشاعر الكبير بوشكين بشهر واحد ، فكان للحادثين أثر عميق في نفس الفتى دوستويفسكي الذى كان يحب امه حبا رقيقا حنونا ، وكان يعبد الشاعر العظيم عبادة .

كذلك تحطم العش العائلي بوفاة الأم ، فانحدر الأب الى هوة اليأس وأدمن على الشراب وأخذ يفكر في ترك عمله ، والاعتكاف بعيدا في أرضه . وما هي الا فترة قصيرة حتى أرسل ابنيه الى سان بطرسبرج ليلتحقا بمدرسة الهندسة الحربية ، فأما فيدور فقد نجح في امتحان القبول بعد الاستعداد له ستة أشهر ، وأما ميشيل فلم يفلح ، بسبب سوء صحته ، فمضى الى ريفيل ينتسب هنالك الى ملحق يتبع « مدرسة الهندسة » .

هذا هو الفتى دوستويفسكي الذى لما يتجاوز السادسة عشرة من

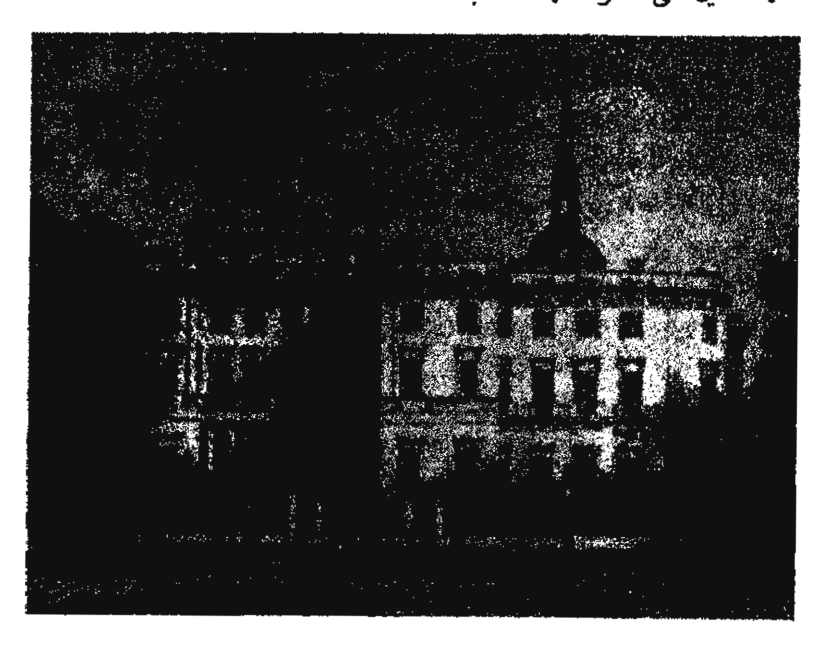
عمره يعيش اذن وحده في مدرسة عسكرية داخلية تفرض عليه حيـــاة قاسية لا يطيقها مزاجه الفني ، وتلزمه بدراسة صعبة لا تتفق وأذواقه الادبية ٠

ويجد الفتى في دراسته ويكد ، ولكن عالم الفنون يظل هو العـــالم الذي يخلو اليه سرا ، وها هو ذا يكتب الى أخيه قائلا « الحياة هنا كريهة مقيتة ٠ لا جمال عندى الا فيما هو مبرأ من اسفاف المادة وسعادة الارض» وهو يقبل على القراءة شرها نهما ، ويؤلف حلقة من الرفاق تعنى بالشعر والأدب تقرأ شيلر وهوفمان وبالزاك وجورج صاند وفكتور هوجو ، وتنعقد أواصر صداقة بينه وبين جريجوريوفتش الذى سيصبح كاتبا شهيرا بعد قليل ، وتنشــأ صداقة أخــرى بينــه وبين موظف شاب اسـمه ايفــان شيدلوفسكى ، وهو شاعر مثالى كان عاكفا على كتابة تاريخ للكنيسة ٠ لقد كتب دوستويفسكى بعد ذلك يقول « ان معرفتى بشيدلوفسكى هيأت لى ساعات اعدها من اجمل ساعات عمرى » ٠

وفى أثناء ذلك أحال الدكتور دوستويفســكى نفسه على التقاعد ، ومضى يعتكف فى أرضه مع بنتيه الصغيرتين ، (احداهما فى الثامنة من عمرها والاخرى فى الثانية) ، واستمر الارمل المعتزل يدمن هنالك على الشراب الى ان غدا من ذلك صاحب هواجس وهذيان ، وكان يسىء معاملة أقنانه ، فيثير حفائظهم ويخرجهم عن أطوارهم ، فما انقضت سنتان حتى وجد قتيلا فى الحقول عام ١٨٣٩ ، قد أجهز عليه نفر من الفـــلاحين كان يهددهم بجلدهم بالسياط ، وكتمت الفضيحة ، فلم يعاقب الجناة ٠

فهذه اذن مأساة أخرى هزت نفس الفتى هزا قويا ، صحيح أنه كان لا يطيق اسراف أبيه فى الشراب ، وامعانه فى الفجور ، وكان يأخذ عليه خشونته وقسوته وجبروته ، وكان يمقت فيه بخله وشحه خاصة ، فما اكثر ما كان الفتى يحتاج الى قليل من المال يضن به عليه أبوه ويمنعـــه عنه ٠ صـحيح أن الفتى كان يحقد على أبيه لهــذه الأسباب كلهــا ، وأن الرسائل التى كانا يتبادلانها كانت تفيض مرارة وعنفا ، وأنه كان فى قرارة نفسه يكرهه حقا ، ولكن هذا بعينه هو ما هز نفس الشاب هزا قويا فلقد أحس حين قتل أبوه أنه كان مجرما فى حق أبيه : ألم يحمل له بغضا وسخيمة ؟ ألم يتمن له الموت ؟ انه يتحمل اذن تبعــة مقتله ٠٠٠ انه هو الذى قتله ، ولكن لا بيديه بل بأيدى الفلاحين ٠

قضى دوستويفسكي أربع سنين ونصفا في « مدرسة الهندســـة » تخرج بعدها مهندسا برتبة ملازم ثان في صيف عام ١٨٤٢ ، فالحق بمكتب المهندسين في دائرة الهندسة بالعاصمة .



مدرسة الهندسة

وأصاب المهندس الشاب حظـــا من ثروة ، وكان صـــهره ، زوج اخته الكبرى ، الوصي على الأسرة ، يمده بشيء من المال من حين الى حين ، ولكن الضابط الشاب مبذر متلاف ، وهو الى هذا يتعاطى القمار فيخسر مبالغ طائلة ، وهو يستدين تارة ، ويسرق تارة أخرى . فما يشـــارف الشهر على نهايته الا ويكون خالي الوفاض لا يجد ما يتبلغ به من جوع ، وهو يختلف الى المسارح وحفلات الموسيقى ، بل هو يتردد على منـــازل مشبوهة قذرة يعقد فيها صلات مع سكارى ضائعين ، ولكن شغفه بالأدب وانصرافه اليه يزدادان أثناء ذلك يوما بعد يوم . حتى لقد كتب مسرحيتين لم تصلا الينا ، منذ كان طالبا في مدرسة الهندسة : « ماري ستيوارت » و « بوريس جودونوف » ، تقليدا ومحاكاة للكاتبين اللذين يؤثرهما على سائر الكتاب : شيلر وبوشكين .

فلما هبط بالزاك سان بطرسبرج ، وكان دوستويفسكي يقدره كثيرا ، أسرع يترجم كتابه « أوجينه جرانديه » ترجمة عجلى ، اختصر الناشر ثلثها عدا ذلك ، وكان دوستويفسكي يتمنى فى الوقت نفسه أن ينشر ترجمة كاملة لآثار شيللر .

ويضيق دوستويفسكي ذرعا بعمله ضابطا مهندسا ، فيقرر عام ١٨٤٤ أن يستقيل رغم أنه مثقل بالديون . وفى ذلك الأوان انما التقى برفيقه القديم جريجوريوفتش الذى كان قد بدأ حياته الأدبية كاتبا واقعيا ناجحا . فاستأجر الصديقان منزلا أقاما فيه معا ، وفى ذلك المنزل انما بدأ دوستويفسكي يكتب روايته الاولى « الفقراء » ، على غير علم من صديقه ، يعمل ليل نهار بحماسة شديدة واندفاع عظيم ، الى أن فرغ منها فى ذات مساء من شهر أيار (مايو) ١٨٤٥ ، فنادى صديقه وأطلعه على سره ، وأخذ يقرأ له روايته . ظل دوستويفسكي يقرأ فى نشوة تمازجها خشية ، وظل جريجوريوفتش يصغى فى اعجاب يبلغ حد الذهول، وفى حميا لا تدانيها حميا ، الى أن فرغا من القراءة فى ساعة متأخرة من الليل ، فاستولى جريجوريوفتش على المخطوطة . وحملها فى الغد الى نكراسوف ، الشاعر الوطنى ، الذى يتمتع بفكر عملى والذى كان قد أصبح مدير مجلة . لبث جريجوريوفتش الليل كله يقرأ الرواية على نكراسوف فلما انتهى الكاتبان من قراءتها فى نحو الساعة الرابعة من الفجر ، كانا قد بلغا ذروة الحماسة ، فقاما يقرعان باب دوستويفسكي فى تلك الساعة ويوقظانه من نومه ليهنئاه . كانت تلك اللحظة أجمل لحظة فى حياة دوستويفسكي ، لم تبارح ذكراها خياله . وبعد ثلاثة أيام ذهب دوستويفسكي الى الناقد الشهير بيلنسكي الذى كان قد تلقى المخطوطة من نكراسوف ، فما رأى بيلنسكي المؤلف الشاب حتى هتف يقول له متحمسا : « أأنت تفهم أيها الشاب ماذا كتبت » ؟ كان بيلنسكي يرى فى هذه الرواية أول محاولة فى كتابة رواية اجتماعية ، محاولة لا يقدر عليها ولا ينجح فيها الا فنان ، أى انسان لا يشعر بما سينشأ عنها ، ويترتب عليها .

ومنذ تلك اللحظة ، وحتى قبل أن تنشر الرواية ، طار صيت دوستويفسكي وذاعت شهرته ، فالاوساط الادبية تبحث عنه وتسعى اليه ، فيسكر دوستويفسكي من المديح يكال له بغير حساب ، ومن النجاح

يحققه بهذه السرعة ، ومن آيات الصداقة يغمره بها كبار الكتاب ، ويظهرها له الارستقراطيون من حماة الادباء ورعاة الفنانين فى ذلك الزمان. وتظهر الرواية أخيرا • ويكون دوستويفسكى عندئذ قد فرغ من كتابة روايته الثانية « المثل » ، فلا تصيب هذه الرواية الثانية ما اصابته الرواية الاولى من نجاح • فيسارع يكتب أعمالا أخرى ، ولكنه يسرف فى التعجل، فينشر «الجارة» وأقاصيص أخرى تخيب ظن بيلنسكى وتخيب ظن أنصار ظهور أدب « اجتماعى » يتجه الى الشعب ويفيد المجتمع • وأخذ الأدباء الذين احتفوا بدوستويفسكى أشد الاحتفاء فى « الصالونات » الادبية ، أخذوا يتندرون عليه ، ويسخرون من زهوه بنفسه ، ويضحكون على خراقته ، ويشمتون بسقوط موهبته بل ويهزءون بدمامة خلقه ، لم يبرأ من هذا حتى نكراسوف وتورجينف ، فها هما ينظمان قصيدة يهجوان فيها دوستويفسكى متفكهين هازئين • ويستبد الضجر والسأم والملل بدوستويفسكى ، وتتكاثر ديونه وتتراكم ، ويتشرد متنقلا من مسكن الى مسكن • ويبدل أصدقاءه واحدا بعد آخر ، وتنتابه « أهوال غيبية » ومخاوف غريبة ، ويخشى أن يفقد صوابه وأن ينتهى الى الجنون ، وتأخذ نوبات الصرعة توافيه منذ ذلك الحين ، وكان قد صار الى الالحاد بتأثير صديقه بيلنسكى ، فها هو ذا يحاول أن يسرى عن نفسه بالاختلاف الى اجتماعات « الجمعة » التى كان ينظمها بتراشفسكى ، الموظف الشاب بوزارة الخارجية ، وهو رجل مثقف كان يجمع اصدقاءه ليتحدثوا فى السياسة والاشتراكية وهم يحتسون الشاى ويدخنون الغليون ، ويقرأون الى ذلك كتبا منعت الرقابة تداولها •

على هذا انقضت من حياة دوستويفسكى سنة ١٨٤٨ كلها • وفى تلك الاثناء تشب ثورة شباط (فبراير) فتقلب عرش الأورليئان ، ويترجع صداها قويا فى ألمانيا والنمسا والمجر ، ويلقى باكونين خطبا نارية فى المؤتمر السلافى بمدينة براغ ، وتهب المجر فتنادى بالجمهورية فيقرر نيقولا الاول أن يتدخل فى المجر دعما لعرش فرانسوا جوزيف ، الذى اخذ يترنح وأوشك أن يتداعى •

وهذا جاسوس يقال له آنتونيللى يشى بحلقة بتراشفسكى ، واصفا اعضاءها بانهم شيوعيون يحلمون باقامة مجتمع اشتراكى كالذى نادى به فورييه ، وبانهم أناس مهووسون يهيئون لاضطرابات ومجازر ومذابح سياسية ، وبانهم اقاموا حفلة عشاء تكريما للاشتراكى فورييه قال فيها

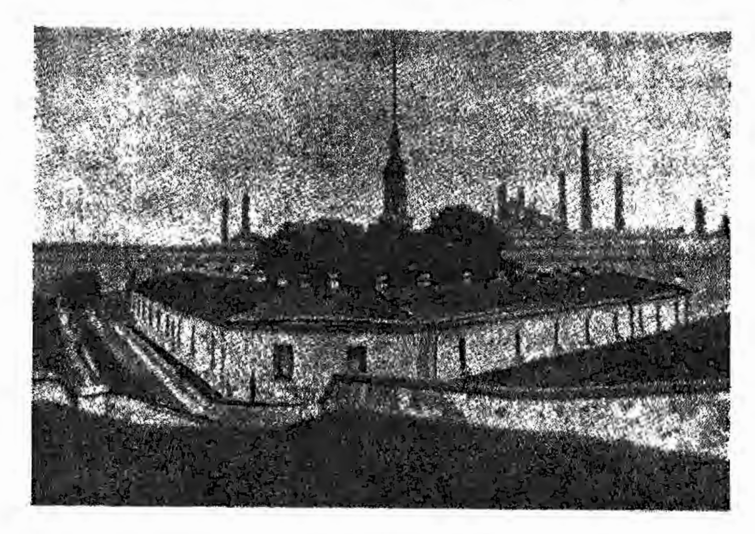
بتراشفسكى : « لقد حكمنا بالموت على المجتمع الحالى ، فيجب علينا الآن أن تنفذ الحكم » • فيقرر نيقولا الاول أن القضية خطيرة ويقول : « هب الأمر كله لا يعدو أن يكون كلاما وثرثرة ، فانه يظل جريمة لاتغتفر » • فيجب أن تظل الامبراطورية الروسية صخرة لا تتزعزع ، تتكسر عليها امواج الثورة التى تهدر فى الغرب ، ولا بد اذن من انزال العقـــوبة فى هؤلاء المجانين الذين يتحدثون عن ثورة تقوم فى روسيا •



دوستويفسكى فى السادسة والعشرين من عمره

فلما جاء فجر ليلة الثاني والعشرين من نيسان (أبريل) ١٨٤٩ ، قرع باب منزل دوستويفسكى من جديد ، ولكن القارع اليوم ليس رسولا

يحمل اليه نبوءة المجد والشهرة ، بل نفر من رجال الدرك يقودونه مكبلا بالاغلال الى قلعة بتروبافلوفسكايا (القديس بطرس وبولس) • لقد اقتيد الى هذه القلعة ثلاثة واربعون شخصا وضعوا فى زنزانات منفردة• وانقضت على سجنهم هناك ثمانية اشهر قاسية ، لم يسمح للسجناء خلالها بالقراءة والكتابة الا فى شهر تموز (يوليو) ، وعندئذ انما كتب دوستويفسكى قصته المشرقة الوضاءة (البطل الصغير) • ولم يمثل دوستويفسكى أمام المحكمة الا فى تشرين الاول (أكتوبر) وكانت التهمة الموجهة اليه أنه قرأ على جمهور من الناس الرسالة الحادة العنيفة التى وجهها بيلنسكى الى جوجول وفيها « يشتم الكنيسة الارثوذكسية » والسلطة العليا » ، وانه حضر قراءة « قصة جندى » ، وهى قصة تدعو الى الثورة وتحض على العصيان والتمرد •



القلعة

وفى ١٩ تشرين الثانى (نوفمبر) أصدر « المجلس العام » حكمه بالاعدام على اثنين وعشرين شخصا ، على رأسهم بتراشفسكى ، وقرر الافراج عن الآخرين ، ولكن الحكم يقترح تخفيف هذه العقوبة وابدالها بعقوبة الاشغال الشاقة ، وقد وافق نيقولا الاول على هذا الاقتراح وعرض على الامبراطور أن تكون عقوبة دوستويفسكى ثمانية أعوام ، فعدل

الامبراطور الحتم بجعله «أربع سنين سجنا وأربع سنين جندية في الجبهة» ولكن القرار ظل سرا مكتوما لم يذع فى الناس ولم يطلع عليه احد • وقد شاء أولو الامر أن يتسلوا بتمثيل مسرحية هزلية أبطالها بل قل ضحاياها هؤلاء الاشقياء الذين صدر الحكم باعدامهم •

السجناء لا يعرفون عن مصيرهم شيئا • وهاهم اولاء يوقظون من نومهم فى صبح الثانى والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر) ، فيقادون بعربات الى ميدان سيمينوفسكايا ، ويتلى عليهم هناك قرار المحكمة بانزال عقوبة الموت فيهم • صعق دوستويفسكى ورفاقه لهذه العقوبة التى ليس لها ما يسوغها • وقام الجلادون فشدوا ثلاثة من المحكوم عليهم الى عمد أحكموا ربطهم بها ، واصطفت أمامهم مفرزة من الجنود سددت بنادقها الى صدورهم وتأهبت لاطلاق النار • وهنا يصل أحد الضباط مسرعا يتلو القرار الجديد : يبدل حكم الاعدام بحكم بالاشغال الشاقة « رحمة ورأفة من صاحب الجلالة الامبراطور » • لقد أراد نيقولا الأول أن يلقن الشبان الطائشين درسا لن ينسوه • ولقد ظل دستويفسكى يذكر تلك اللحظات الرهيبة فعلا طوال حياته ، وقد استحضر صورتها وأفاض فى الكلام عليها فى كتابه « الاهبل » •

فى ليلة عيد الميلاد من سنة ١٨٤٨ أرسل السجناء مكبلى الأرجل بالأغلال الى سيبيريا على زلاقات ، فوصلوا الى توبولسك بعد ثمانية عشر يوما من السفر فى جو بارد لا يطاق ، وهناك قابلتهم نسوة «ديسمبريات» هن منفيات متطوعات بطلات ، فاعطين كل واحد منهم انجيلا وقليلا من المال •

ورحل دوستويفسكى الى أومسك يقضى فى معتقلها أربع سنين فى صحبة مئات من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، وجلهم من القتلة (كان الحكم بالاعدام على جناة الحق العام قد الغى فى روسيا منذ سنة ١٧٤١) وكانت الاشغال شاقة حقا ، فعلى المعتقلين أن ينقلوا حجارة ، وان يسحقوا صخورا ، وان يكنسوا ثلوجا ، بينما كعوبهم ترسف فى الأغلال •

ودوستويفسكى يعمل مع العاملين لا يخلو الى نفسه ولا ينفرد ساعة فلا يستطيع أن يقرأ أو أن يكتب الا اذا أصابه مرض فأدخل المستشفى ، وهو اذا قرأ أو كتب فعل خفية وفى غفلة من الرقباء • وقد أثرت فيه هذه السنون الأربع الرهيبة تأثيرا قويا بل بدلته تبديلا عميقا ، قال فى ذلك :

« المعتقل قتل فى نفسى أشياء كثيرة ، ولكنه فتح أشياء أخرى » ، فبعد ان كان اشتراكيا وبعد أن كان ملحدا ، عاد مسيحيا مؤمنا ، وفيلسوفا أخلاقيا ، ينصرف باهتمامه الى مشكلة الجريمة ، والى الصراع بين الخير والشر فى كل نفس انسانية ٠

واطلق سراح دوستويفسكي في اليوم الخامس عشر من شهر شباط (فبراير) سنة ١٨٥٤ ، وأرسل على مراحل مع آخرين من قدماء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الى سيميبا لاتفسك التى تبعد عن أومسك مسافة سبعمائة كيلو متر ، ليصبح هنالك جنديا فى لواء على الجبهة ٠ الرحلة شاقة مرهقة ، ولكن الاغلال قد سقطت ، فدوستويفسكي يتنسم هواء الحرية بعض الشيء ويشعر بالسعادة ٠ وبعد سفر دام قرابة شهر ، يصل دوستويفسكى الى تلك المدينة الشرقية التى يدين أهلها بالاسلام ويتناثر فيها موظفون وجند من الروس هنا وهناك ٠ الخدمة العسكرية قاسية ، ولكن دوستويفسكي لا يتذمر ولا يشكو ، حتى لقد كتب الى أخيه يقول: « ذلك صليبى وقد استحققته » ٠ وأمكن بفضل بعض الشفاعات فى أومسك أن يسمح له بالسكنى بالمدينة خارج الثكنة ٠ فها هوذا يتمتع أخيرا بغرفة له ، له وحده ، فى كوخ بائس تقيم فيه أرملة أحد الجنود ، ولكنه يستطيع فيه أن يخلو الى نفسه وأن يقرأ ويكتب على ما يشاء له هواه ٠ ان نفسه تفيض بالمشاعر ، وان رأسه يمتلىء بالمشاريع ، وان به لظمأ محرقا الى القراءة ٠

هوذا يكتب الى أخيه قائلا : « ارسل الى مجلات ، ارسل الى كتب المؤرخين الكلاسيكيين (فى ترجمة فرنسية) ، والاقتصاديين الجدد ، وآباء الكنيسة وتاريخ الكنيسة » ٠ أرسل الى القرآن ، وكتاب كنت (نقد العقل المحض) وأرسل الى كتب هيجل حتما ، ولا سيما كتابه ــ تاريخ الفلسفة ــ ان مستقبلى كله رهن بهذا » ٠ ان دوستويفسكى يريد أن يتدارك الزمن الذى ضاع فى المعتقل ، وان يملأ ثغرات ثقافته ، ويريد أن يكتب اشياء جادة ذات شان ٠

ولكنه يقول فى كثير من المرارة « آمل أن يسمح لى بالنشر بعد ست سنين » ٠ ولقد صدقت نبوءته : فما كان أصعب طريق العودة الى الادب على الجندى المسكين ٠

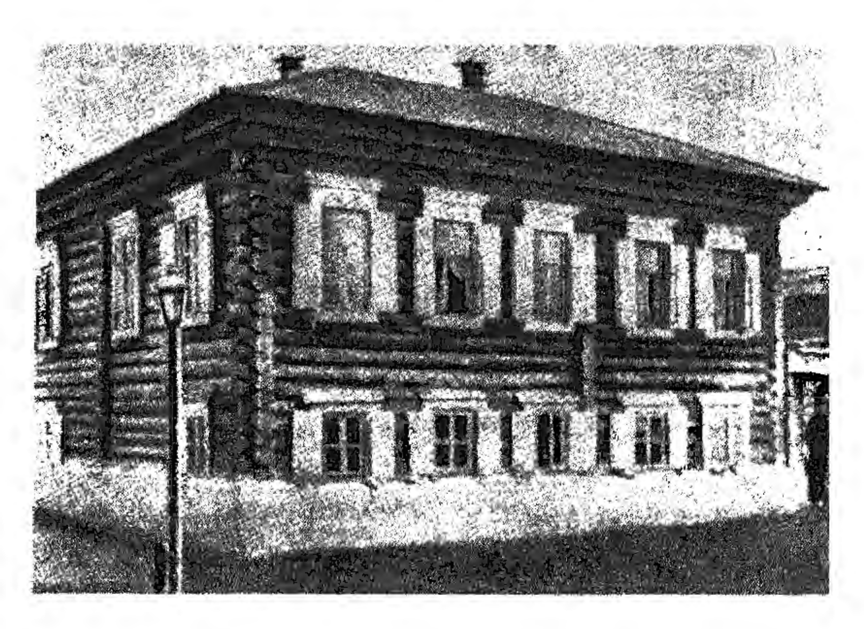
غير أن رسولا من السماء هبط على هذه المقاطعة النائية بعد ثمانية



أشهر : انه البارون الشاب الكسندر فرانجل الذى وصل من العاصمة نائبا عاما بمحكمة سيميبا لاتسك ، وقد زاره ميشيل دوستويفسكى قبيل مغادرته العاصمة وحمله لاخيه رسائل وكتبا ٠

وكان البارون قد شهد ، بمصادفة غريبة ، المهزلة التى مثلت فى ميدان سيمينوفسكايا ، أعنى مهزلة تنفيذ الحكم بالاعدام ، وكان قد قرأ مؤلفات دستويفسكى ، فكان لذلك يهتم بمصير الكاتب ، فما ان وصل الى سيميبا لاتنسك حتى أرسل يستدعيه ٠ فلما قرأ دوستويفسكى رسائل أخيه انفجر باكيا ، فاذا بالبارون يشاركه البكاء ، وتعانق الرجلان وأصبح النائب العام والجانى المحكوم عليه بالاشغال الشاقة صديقين حميمين ٠

وفعل فرانجل كل ما استطاع أن يفعله من أجل أن يحصل للكاتب على العفو كاملا ، فقدمه الى الحاكم العسكرى بالمنطقة ، وأدخله صالونات أخرى ، فسرعان ما تلقى الجندى البسيط رتبة صف ضابط ، وأصبح يقضى وقته كله حرا طليقا عند فرانجل ٠ وفى الصيف من عام ١٨٥٥ استأجر فرانجل منزلا ريفيا ذا حديقة على شاطىء ارلتش ، قضى فيه الصديقان الصيف كله معا ٠



منزل فى سيميبالاتنسك اقام فيه دوستويفسكى سنة ١٨٥٤

فى تلك الفترة اهتز قلب دوستويفسكى بحبه الأول الكبير ، وهو حب مرضى مفجع من نوع الحب الذى تحدثنا عنه رواياته • لقد تعرف بماريا ايساييفا ، وهى امرأة مثقفة أبوها ديمترى كونستان ، مدير الجمارك فى استراخان • كانت ماريا قد تزوجت معلما شابا اسمه ايساييف ، شاء سوء حظه أن يدمن على الشراب ، فما زال ينقل من مكان الى مكان حتى هبط تلك المدينة النائية التى فقد فيها وظيفته آخر الامر •

وانعقدت أواصر الصداقة بين دستويفسكى وبين السكير المسكين وامرأته الشقية التى شعر نحوها دوستويفسكى بشفقة كبيرة • وهاهو ذا يكتب اليها قائلا : « لقد سلخت خمس سنين من حياتى خارج المجتمع ، وحيدا ، ليس لى انسان أفتح له قلبى ، الى أن استقبلتنى كأننى واحد من أهلك • انك امرأة رائعة • ان لك نفسا فذة بين النفوس • انك طيبة كطفل • لقد كنت لى أختا • » ودام هذا الحب الذى يشبه أن يكون حبا أخويا سنة بكاملها ، ثم لم تلبث الشفقة أن استحالت الى هوى عارم جامح مستميت • واستطاع بعض أصدقاء ايساييف أن يحصلوا له على وظيفة صغيرة بمحكمة مدينة كوزنتسك التى تبعد عن سيميبالاتنسك مسافة سبعمائة كيلو متر • فتمزق قلب دوستويفسكى للفراق تمزقا •

ومات ايساييف بعد قليل ، تاركا لأرملته طفلا فى السنة السابعة من عمره • فأخذ دوستويفسكى وفرانجل يمدان الأرملة البائسة ببعض المال يرسلانه اليها من حين الى حين • ثم عرض عليها دوستويفسكى أن يتزوجها ، فوافقت ماريا رغم انها لا تشعر بالحب حقا نحو هذا الضابط الصغير ذى الوجه البائس الحزين •

ويترك البارون فرانجل سيبيريا الى العاصمة ، ويبقى دوستويفسكى وحيدا مع حبه المرضى ، ويظل عشرة أشهر يكتب الى ماريا التى بقيت فى كوزنتسك رسائل تفيض حبا محموما • وها هى ذى تحدثه فى ذات يوم عن معلم شاب اسمه فرجونوف قائلة انها هائمة بحبه • فيضطرب دوستويفسكى أشد الاضطراب ، ويسافر الى كوزنتسك ، ويلقى ماريا وغريمه الشاب فيجهش الثلاثة باكين • ولا يسع دوستويفسكى الا أن يذعن، ولكنه يريد أن يظل صديقا وفيا (كبطل قصة «الليالى البيضاء»)، ويقوم بمساع منأجل أن يحصل علىمساعدة لماريا ، ومن أجل أن يدخل ابنها فى مدرسة داخلية ، بل ومن أجل أن يمد يد العون لغريمه •••

وفى أثناء ذلك يرفع دوستويفسكى الى رتبة ملازم ثان فى ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) من سنة ١٨٥٦ ، ويسترد حقوق النبالة ، فيتغير بذلك وضعه ويتحسن مركزه ، فيسافر مرة أخرى الى كوزنتسك يعرض الزواج على ماريا من جديد ، فتوافق ماريا ، ويتم الزواج فعلا فى اليوم السادس من شباط ١٨٥٧ بتلك المدينة ٠

ويصاب دوستويفسكى بنوبة صرعة فى طريق عودته مع زوجته ، فيكون هذا خيبة له ولها معا ٠



ماريا ديمترينا الزوجة الأولى

هو ذا يعود الى سيميبالاتنسك ضابطا ، ومتزوجا ٠ وتهيىء له زوجته شيئا من رخاء العيش ، فيأخذ يكتب فى ساعات فراغه ، ولكنه لما يحصل على الاذن بنشر أعماله ٠ ويقوم أخوه ميشيل بطبع قصته « البطل

الصغير ، بسان بطرسبرج (كان دوستويفسكي قد كتب هذه
في السجن عام ١٨٤٩) ، فاذا بالقصة المليحة العذبة ، رغم
دون ذكر اســـم مؤلفها، ترد الناس في العاصـــمة الى اك
دوستويفسكي • وأظهرت مجلتان استعدادهما لنشر روايات
فيشرع دوستويفســكي قلمه ويسرع يكتب روايتين هما «
و «ستيبانشيكوفو وسكانها» • ويتلقى أثناء ذلك اذن الامبر
على التقاعد والعـــودة الى روسيا ، ولكن دون أن يكون له



دوستويفسكي ١٨٦٠

العـــاصمتين • فيترك دوستويفسكي في شهر تموز (يو
سيبيريا مع زوجته وابن زوجته ، ويعود الى روسيا ، الى أور

سنين قضاها في السجن فالمعتقل فالجندية بلنفي · ويقال ان فرجونوف عشيق زوجته ، قد تبعهما في عربة أخرى ·· ويختار دوستويفسكي لاقامته مدينة تفير الواقعة على الخط الحديدى بين بطرسبرج وموسكو ، فلا يشعر بالارتياح ، رغم أن حاكم المقاطعة نفسه الكونت بارانوف ، قد أحسن استقباله واحتفى به ودعاه الى صالونه · وينصحه الكونت بارانوف والبارون فرانجل الذى زار تفير بان يرسل الى الامبراطور الكسندر الثانى التماس عفو ، فيفعل دوستويفسكي ذلك ، ويتلقى فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٥٩ الاذن له بدخول العاصمة وبنشر مؤلفاته ، فيخف الى بطرسبرج حيث يستقبله في محطة القطار أخواه · وهنا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياته ·

ان روسيا الآن فى حالة فوران وغليان · الحكومة تعد قانون الغاء القنانة منذ تسنم الكسندر الثانى العرش · وهى تهيىء كذلك اصلاحات أخرى كثيرة · والناس يتناقشون فى أمر هذه الاصلاحات فيهاجمونها : الثوريون ، وهم لا يزالون قلة ، يريدون محو الماضى باسره ، والطبقة النبيلة تستاء وتستنكر أن يتم أى تنازل فى طريق اللبرالية · والرقابة قد ألغيت أو كادت ، وعدد كبير من الصحف والمجلات يصدر ويناقش شئون السياسة · فيقرر دوستويفسكي الذى يحس انه مؤهل للكتابة الصحفية أن ينشىء مع أخيه ميشيل مجلة جديدة يتولى أخوه ادارتها · ويظهر العدد الأول من المجلة « الزمان » فى كانون الثانى (يناير) ١٨٦١ ، أى قبل اعلان تحرير الاقنان بشهر واحد تماما · ان دوستويفسكي هو المدير الأدبى والسياسى للمجلة · انه يعتنق مذهبا لبراليا وسطا بين أنصار الغرب ودعاة السلافية · وها هو ذا يحدد هذا الموقف بقوله : « ان واجبنا أن نخلق لأنفسنا صورة جديدة للحياة ، صورة خاصة بنا ، صورة هى لنا نحن ، مستمدة من أرضنا ، نابعة من روحنا ، ممتوحة من تقاليدنا الشعبية · » واستطاع دوستويفسكي أن يحظى بمعاونة تورجنيف ونكراسوف وبيقولا ستراخوف والناقد آبولون جريجوريف · وفى هذه المجلة انما نشر دوستويفسكي كتابه « مذلون مهانون » ، الذى كتبه متعجلا ، ولم يكد ينهيه تماما والحق يقال · وقد أقبل الناس على قراءة الكتاب بنهم شديد ، ولكن بعض النقاد وجهوا اليه نقدا قاسيا · وفى النصف الثانى من سنة ١٨٦١ ، نشرت المجلة نفسها كتاب « ذكريات من منزل الموتى » · فنال الكتاب نجاحا كبيرا · ان اللوحة الصادقة التى

يرسمها الكتاب للمعتقل قد هزت ضمائر جميع القراء ، حتى الذين ينتمون منهم الى الطبقات العليا ، فكان له صدى كبير ، وكان لهذا الصدى فضل فى سن قانون الاصلاح القضائى الذى صدر سنة ١٨٦٤ ٠

ويصبح دوستويفسكى الذى كان سجينا سياسيا ، أكثر أدباء زمانه حظوة بتاييد النقاد من أقصى اليمين الى اقصى اليسار ، وأكثرهم حظوة حتى بين الشبيبة الثورية التى تزداد حماستها يوما بعد يوم ٠ وتسرى فى الناس منشورات سرية تمجد قيام «جمهورية اجتماعية ديمقراطية روسية»، وتدعو الى « اغراق الشوارع بدماء الأوغاد » ولكن دوستويفسكى يستاء من هذا « التطرف » ولا يشارك هؤلاء « المحمومين » آراءهم ، حتى ليتصور انهم قد طاف برءوسهم مس من « الجن » ٠ ويرهقه العمل الضخم الذى يقوم به كاتبا ومحررا ، فتزداد نوبات الصرعة التى تنتابه من حين الى حين٠

فيقرر أن يترك روسيا زمنا ليرتاح ويستجم فى الخارج ٠ فيغادر سان بطرسبرج فى حزيران (يونية) ١٨٦٢ ٠ ولكن أوربا الغربية التى يراها عندئذ لأول مرة تخيب ظنه وتبدد أحلامه ، فلا يقيم فى باريس ولندن الا فترة قصيرة ، يسرع بعدها عائدا الى ألمانيا ، ثم يصل الى جنيف حيث يجد صديقه ستراخوف ، فيذهب الصديقان معا الى ايطاليا ، فيمكثان فيها وقتا قصيرا يعود بعده دوستويفسكى الى روسيا ٠

هذه الرحلة التى قام بها دوستويفسكى الى أوربا ودامت شهرين قد أمدت الكاتب بمادة كتابه « مذكرات شتاء عن مشاعر صيف » الذى نشره فى مجلته ٠ ان الكتاب نقد حاد لعيوب الحضارة ، حتى لقد أصبح دوستويفسكى لا يحب سان بطرسبرج ، وها هو ذا يصف باريس بأنها « مدينة تعيسة تعاسة رهيبة » لا يفكر سكانها البورجوازيون الا بالمال ، وهو يحمل من لندن شعور الاشمئزاز فيقول عن « فوضاها انها النظام البورجوازى فى ذروته » ، ولا يرى فيها الا مئات من البغايا فى حى بيكاديللى ، والا السكان الذين يشبهون أن يكونوا عراة فى هوايتشابل ، انه يتصور أن أوربا الغربية قد وصلت بماديتها الى حافة المنحدر ، وانها بنسيانها الله ماضية الى الأفول ٠ فليس على روسيا المسيحية أن تتوقع من أوربا الغربية أى خير وعليها أن تتبع طريقها الخاص بها ٠ ويشتد ايمان دوستويفسكى بالأرض وتقوى الآمال التى يعقدها على الفلاح ، فيستحيل هذا كله الى مزيد من الحرارة فى الدعوة الى السلافية ٠ ويمضى دوستويفسكى يعبر عن آرائه هذه فى مجلته بحماسة قوية وعنف شديد ٠

ولكن ما تلبث أن تنزل بالمجلة مصيبة ، فان الثورة البولونية التى شبت سنة ١٨٦٣ قد حضت ستراخوف على أن ينشر فى المجلة مقالا بعنـوان « القضـية المحتومة » يعرض فيه المطـالب البولونية عرضا محايدا ، مع تظاهره برفضها والرد عليها ، فيصدر وزير الداخلية قرارا بوقف المجلة عن الصدور « لقيامها بحملات تناقض أهداف الحكومة » • فكان هذا القرار ضربة خطيرة للأخوين دوستويفسكى ، ضربة أدبية ومالية فى آن واحد •



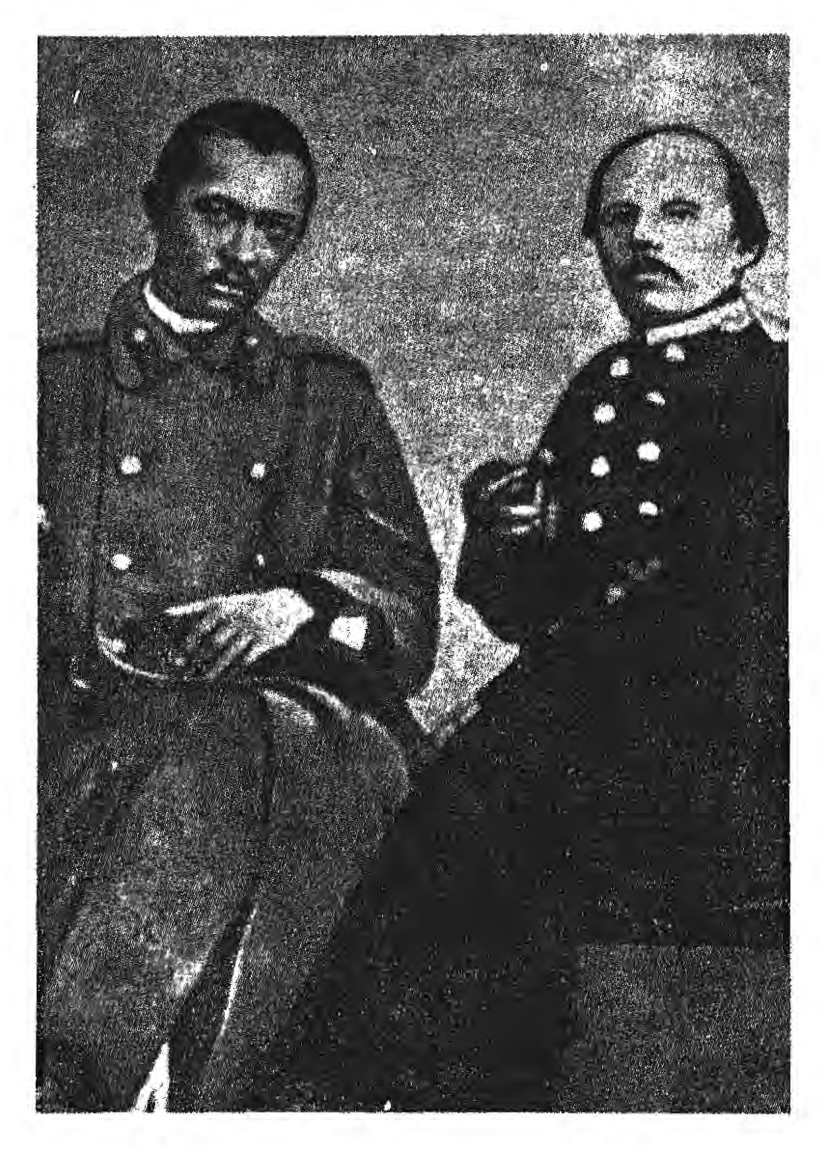
باولين

وكانت حياة دوستويفسكي العاطفية تمر فى ذلك الوقت نفسـه بمنعطف جديد • ان زوجته تمعن فى المرض يوما بعد يوم ، وان عصبيتها الهستيرية تتفاقم مزيدا من التفاقم ، وتظهر فى حياة الكاتب أثنـاء ذلك طالبة شابة اسمها باولين سوسلوفا ، فتاة تنتمي الى الجيل الجديد وتشبه

أن تكون بشخصيتها بطلة رواية من الروايات • هى ابنة رجل غنى صاحب مصنع (وكان فى الماضى قنا من أقنان أسرة تحمل لقب الكونت شيرمتييف) صبية بارعة الجمال ، متسلطة الطبع ، شديدة الحماسة ، قوية الاندفاع ، ملحدة تعتنق المذهب الفوضوى ، والعقيدة العدمية ، وتدعو الى الحب الحر الذى لا تقيده قيود ، تتوله بدوستويفسكى كاتبا شهيرا وثوريا قديما ، وتصارحه بحبها فى رسالة مشبوبة ، وتصبح من أعوانه فى المجلة لأنها تكتب قصصا • ولكن كان من الطبيعى الا يعمر حب كهذا الحب بين رجل فى الاربعين أهرمته المحن وأضناه المرض ، وبين فتاة فى غضارة الصبا تفيض نشاطا وحركة وتتقد اقبالا على الحياة • ان الطبعين مختلفان اختلافا شديدا • ومع ذلك يقرر دوستويفسكى وباولين أن يسافرا معا الى الخارج فى صيف عام ١٨٦٣ • ولكن تصفية شئون المجلة تمنع دوستويفسكى من السفر فورا ، فينفد صبر الفتاة ، فتسافر وحدها الى باريس ، فتمكث فيها خمسة أسابيع • ويغادر دوستويفسكى روسيا أخيرا ، ولكنه لخلو جيبه من المال يفكر فى أن يجنى ثروة من القمار ، فيتلبث فى فسبادن ، فيكسب مبلغا ضخما بالمقامرة على الروليت ، ثم يخسر نصف المبلغ فى الغداة ، ويصل بعد ذلك باريس ، ولكن « بعد فوات الأوان » كما صرحت له بذلك باولين فور التقائه بها ، فأن الفتاة الجميلة كانت قد أصبحت خليلة طالب اسبانى غنى ، ويعجز دوستويفسكى عن قطع صلته بها ، ويعرض عليها أن يمحضها « حبا أخويا » (وذلك دور سبق أن قام به ، وكثيرا ما وصفه فى كتبه) • ولكن الاسبانى ما يلبث أن يهجر باولين ، فترضى باولين عندئذ،وقد صعقها الحزن والالم ،أنتسافر مع دوستويفسكى الى ايطاليا • وتقودهما هذه الرحلة الى بادن بادن (حيث يندفع دوستويفسكى الى المقامرة بالروليت من جديد) ثم الى جنيف ، فروما ، فنابولى ، وتدوم هذه الرحلة ستة أسابيع ، تمثل باولين أثناءها دور « المرأة الجهنمية » ، فهى تعذب صديقها بجعله دائما على مسافة منها ، وفى غضون هذه الرحلة انما تصور دوستويفسكى خطة قصته « المقامر » التى تحتل فيها باولين الدور الاول •

واستحال حب الخليلين الى كره شيئا بعد شىء ، فليس يطيق أحدهما صاحبه ، فيعود دوستويفسكى الى بطرسبرج فيجد امرأته قد تفاقم مرضها ، واشتدت غيرتها ، واحتد هيجانها ، فيرسلها الى موسكو حيث المناخ أصح وأسلم ، ويبقى هو وحيدا فى بطرسبرج • ويحصل

أخوه ميشيل أثناء ذلك على الاذن باصدار مجلة جديدة يسميها «العصر» ، تبدأ بالظهور منذ مطلع سنة ١٨٦٤ ، فينشر فيها دوستويفسكى أثرا



الاخوان ميشيل وفيدور دوستويفسكى مديرا مجلتى «الزمان» و «العصر»

رائعا بعنوان « فی قبوی » ، يتجاهله النقاد فلا يتحدثون عنه ولا يشيرون اليه. وتتكاثر عليه المصائب فترهقه من أمره عسرا ، فالمجلة تسير متعثرة ، وأخوه ميشيل مريض ماينفك يدمن على الشراب مزيدا من الادمان ، وماريا ديمتريفنا تحتضر بموسكو فی ١٥ نيسان (ابريل) من سـنة ١٨٦٤ ، فيسهر دوستويفسكی على سريرها وقد طفحت نفسه ندامة وحسرة وعذاب ضمير ، وتموت زوجته ماريا ، فما هی الا أشهر ثلاثة حتى يصاب أخوه الحبيب بمرض فی الكبد يودی بحياته هو أيضا ، فيقبع الكاتب وحيدا « فی الصقيع والفراغ » على حد تعبيره .

وقد أورثه أخوه تركة شاقة : فالمجلة التی كان على دوستويفسكی أن يحررها لاتملك قرشا واحدا ، وهی الى ذلك مدينة بخمسة وعشرين ألف روبل ، والمال الذی جبی اشتراكات فی المجلة قد أنفق ، ولابد من ثمانية عشر ألف روبل لطبع الأعداد الستة الأخرى الموعودة الى ختـام العـــام .

وباندفاعة نبيلة كريمة هوجاء يتعهد دوستويفسـكی بسداد ديون أخيه كلها ، عدا كفالته امرأته وأولاده ، فكان لاينی يركض هنا وهناك من أجل أن يقترض مايستطيع اقتراضه من المال ، من أجل أن يواصل اصدار المجلة التی كان يصحح تجارب طبعها بنفسه ويكتب لها المقالات ويؤلف لها القصص ، عاملا طول الليل على عادته .

ولكن عدد المشتركين فی المجـلة ماينفك فی تنـاقص ، فيضطر دوستويفسكی الى وقف صدورها فی شـهر حزيران (يونيه) من عــام ١٨٦٥ ، وفی تلك اللحظـة ظهر له ناشر محتـال شره الى الربح يعرف اصطياد الفرص ، ويعرف من أين تؤكل الكتف (هو ستيلوفسكی) فيعرض على الكاتب أن يشتری منه بمبلغ تافه هو ثلاثة آلاف روبل حق طبع جميع مؤلفاته السابقة ، فی ثلاثة مجلدات ، بالاضافة الى رواية جديدة لم يسبق نشرها ، فاذا لم يقدم الكاتب مخطوطة الرواية الجديدة فی أول تشرين الثانی (نوفمبر) من سنة ١٨٦٦ فقد دوستويفسكی جميع حقوقه عن كتبه جميعها ، ما صدر منها وما لم يصدر ، فتصبح ملكا للناشر وحده لا شريك له فيها .

لقد وقع دوستويفسكی هذا العقد فی شهر تموز (يوليو) سـنة ١٨٦٥ ، ومن أجل أن نقدر الغبن الذی أوقعه هـذا الناشر المحتـال فی

دوستويفسكى يجب أن نتذكر أن تورجنيف كان يتقاضى فى ذلك الوقت خمسمائة روبل عن الملزمة الواحدة أى سبعة آلاف وخمسمائة روبل عن رواية واحدة مؤلفة من ٢٤٠ صفحة. قبض دوستويفسكى الآلاف الثلاثة، فسدد ما استطاع أن يسدده من ديون ملحة، ثم سافر الى فسبادن يجرب حظه مرة أخرى فى القمار، ولكنه لا يفوز بغير الخسار، واضطر أن يقترض بعض المال من تورجنيف. وتصل باولين من باريس، ولكن مواردها كانت قد نفدت هى أيضا. ويرفض صاحب الفندق الألمانى أن يقدم الى دوستويفسكى أى طعام، فيظل دوستويفسكى أياما يتبلغ بالشاى وحده. ففى هذه الفترة من البؤس والجوع انما تصور دوستويفسكى فكرة روايته « الجريمة والعقاب »، وتخيل شخصية الطالب الفقير الذى يقرر أن يقتل مرابية عجوزا فى سبيل أن يسعد أسرته. ويعرض دوستويفسكى على ميشيل كاتكوف، وهو محرر من دعاة السلافية، أن يبيعه روايته هذه متى فرغ من كتابتها، ويسأله أن يعطيه سلفة على ثمنها. ويتاح له أخيرا أن يعود الى سان بطرسبرج فى تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٦٥، بفضل معونة يسعفه بها صديقه القديم فرانجل. فما ان يصل الى سان بطرسبرج حتى تلاحقه الأعمال ويطارده الدائنون وتلازمه نوبات الصرعة من جديد. ومع ذلك يتقدم فى كتابة روايته، وتظهر الرواية تباعا فى مجلة « الرسول الروسى » بموسكو، من شهر كانون الثانى (يناير) الى شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٨٦٦، فتحظى هذه الرواية الكبيرة الأولى من « الروايات المآسى » بنجاح كبير جدا، وينال عليها أجرا مقداره أربعة آلاف روبل سبق انفاقها لأنه تقاضاها سلفا.

وكان عليه فى أثناء ذلك أن يسلم ستيلوفسكى الرواية الجديدة الموعودة. ولكن أول تشرين الأول (أكتوبر) يوافى ولما يكتب منها دوستويفسكى سطرا واحدا. ويحدثه صديقه ميلوكوف عن مختزلين بدءوا يظهرون فى روسيا، ثم يعثر له فى مدرسة أولخين على فتاة تجيد الاختزال اسمها آنا سنيتكينا، فيرسلها اليه فى الرابع من تشرين الأول. انها فتاة متواضعة فى العشرين من عمرها، أبوها تاجر روسى وأمها امرأة سويدية، تمتاز بالتعقل والروية والاجتهاد والروح العملية، وتختلف عن باولين الطائشة اختلاف النقيض عن نقيضه. أخذ دوستويفسكى يملى عليها روايته « المقامر ». فما انقضت خمسة وعشرون يوما الا وكانت الرواية قد تمت، فيمضى دوستويفسكى فى أول تشرين الثانى (نوفمبر)

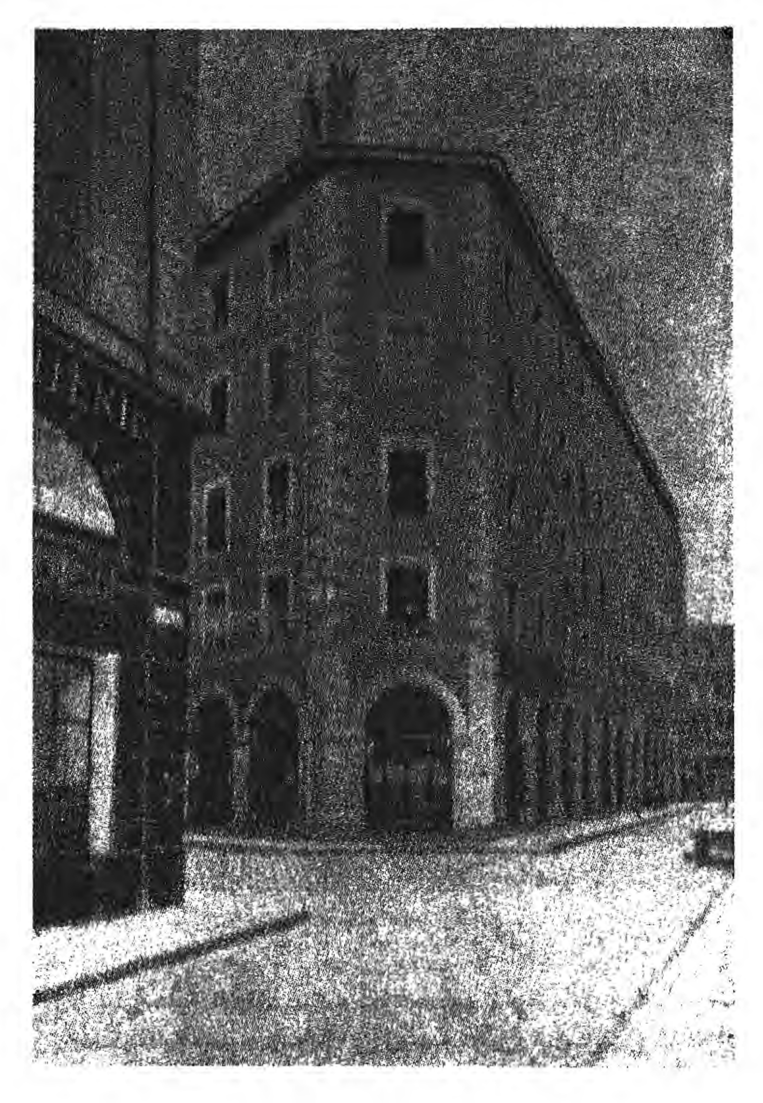
يحمل الى ستيلوفسكى الكتاب الموعود ، ولكن الناشر الماكر كان قد سافر، ورفض مدير مكتبه أن يستلم المخطوطة • فأوحت آنا الى دوستويفسكى عندئذ بفكرة موفقة ، هى أن يذهب الى دائرة الشرطة فيودعها المخطوطة لقاء ايصال وفقا للأصول • وبذلك أحبطت حيلة الناشر المحتال ، وتنفس دوستويفسكى الصعداء •



آنا ، الزوجة الثانية

ورجا دوستويفسكى الفتاة أن تعود اليه للعمل فى الفصل الأخير من روايته « الجريمة والعقاب » • فلما وصلت اليه أخذ يقص عليها قصة رسام فى مثل سنه ، يعيش وحيدا مبدد الاحلام مشرد العواطف ، ثم يلتقى عرضا بفتاة ذكية حساسة يخفق لها قلبه ، وتنتعش بصحبتها روحه • وأضاف دوستويفسكى يقول لآنا : « تصورى أن هذا الرسام هو انا ،

وضعى نفسك فى موضع الفتاة ، وتخيلى أننى صارحتك بحبى ، ورغبت اليك أن تقبلينى زوجا فماذا تقولين ؟ » .



فى جنيف : هنا اقام دوستويفسكى سنة ١٨٦٨

فاجابت الفتاة بقولها : « أقول انني أحبك وانني سأظل أحبك مدى الحياة » • ويتم الزواج بعــد ثلاثة أشهر فعلا ، فيكون لدوستويفسكي فاتحة عهد جديد ترفرف عليه السعادة الزوجية ، بعد الانواء العـاصفة والتقلبات المروعة التي تعرض لها •



في درسدن : هنا عكف على كتابة روايته « ألجن » سنة ١٨٧٠

ولا يبقى عليه الا أن يتغلب على مصاعب الحياة ، وعلى عداوة اسرته الكبيرة العدد ، ولا سيما عدواة ابن زوجته الأولى بول ايساييف ، الفتى التـافه الذى كان يعيش عالة عليه • ولئن حاولت زوجتـه الثـانية ، المقتصدة ، المجتهدة ، الفاضلة ، أن تسوى المصاعب وان تذللها ، فلقد

كانت تلك المصاعب أشد من أن يمكن تذليلها • وهاهم أولاء الدائنون يهـددون دوستويفسكي ، حتى ليخشى دوستويفسكي ان يودع السجن بسبب الديون ، فترهن آنا جهاز عرسها كله وأثاث منزلها كله ، ويسافر الزوجان الى الخارج في شهر نيسان (ابريل) ١٨٦٧ ، فرارا من ملاحقة الدائنين •

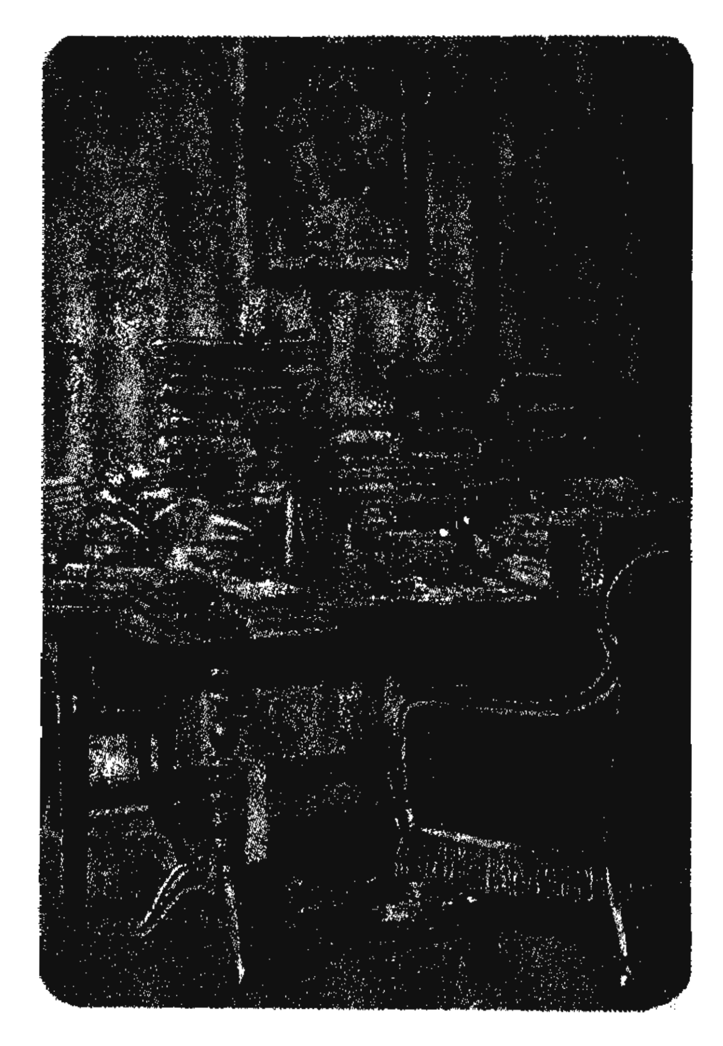
وتدوم الرحلة أكثر من أربع سنين • لقد ذهب الزوجان أولا الى درسدن ثم الى فسبادن حيث يحاول دوستويفسكي أن يربح بالقمار على الروليت مع عمله في كتابة روايته الجديدة « الاهبل » • لقد استبدت به حمى القمار فهو يجازف بكل شيء فيربح حينا ولكنه يخسر أكثر الأحيان ، فيعيش الزوجان من ذلك حياة مضطربة ، يبيعان معاطفهما ، ويرهنان حتى خاتمي خطبتهما ، ويلتمسان السلف بعد السلف من كاتكوف • ويقضي الزوجان بضعة أشهر من الشـتاء في جنيف • وتعاود دوستويفسـكي حالات المزاج القاتم والكآبة الحزينـة ، ويقامر على الروليت في ساكس ليبان ، فيبوء بمزيد من الخسار • وتولد له في جنيف ابنته سونيا التي يخطفها الموت بعد بضعة أشهر ، فيحزن دوستويفسكي لموتها حزنا شديدا يهدم قلبه تهديما ، وبعد اقامة شهر في فيفي يسافر الزوجان الى ايطاليا ، ويستقران في فلورنسه ، فيقضيان فيها سـنة بكاملها • فتهدأ هنالك حياتهما بعض الهدوء ، ويفرغ دوستويفسكي من كتابة روايته « الأهبل » وتنشر الرواية بموسـكو سـنة ١٨٦٨ • وفي خريف ١٨٦٩ يعـود دوستويفسكي وزوجته الى درسدن حيث تولد لهما ابنة ثانية يسميانها ليوبا (المحبوبة) وهي التي ستسرد في المستقبل قصة حياة أبيها الشهير سردا غير صحيح ولا دقيق •

ويمضي دوستويفسكي يعمل في كتـابة روايته « الزوج الابدي » ، فسرعان ما ينجزها وينشرها ، ثم سرعان مايشرع في كتابة رواية جديدة : « الجن » • لقد أوحى اليه بموضوع هذه الرواية أخو آنا الطالب بموسكو، الذي جاء يلحق بدوستويفسكي وزوجته في درسدن أثناء عطلة الصيف، فقص عليهما قصـة مقتل رفيق له على يد المنظمـة السرية التي يتزعمها نتشاييف ، أحد دعاة النظرية العدمية • ويقضي دوستويفسكي سنة ١٨٧٠ كلها عاكفا على العمل في كتابة روايته • ويجرب حظه مـرة أخرى في الروليت ، لكنه وقد باء بالخسران من جديد ، يحلف الا يقامر بعد ذلك أبدا ، ويبر هذه المرة بعهده ، ولا يحنث بيمينه ، ولا يقارب القمار قط •



المنزل الذى كتب فيه رواية « المراهق »

ولا تعود اسرة دوستويفسكي من درسدن الى بطرسبرج الا في شهر تموز (يوليو) ١٨٧١ ، وهناك تمسك أنا بيديها ادارة مصالح زوجها ، فتحسن المساومة مع الدائنين ، وتهيىء طبعات مستقله لروايتي «الاهبل» و « الجن » ، وتواصل العمل مع زوجها في تاليف رواياته الجديدة : هو



مكتب دوستويفسكي في بطرسبرج ١٨٧١ - ١٨٨١

يملي وهي تكتب اختزالا • ويصبح دوستويفسكي محرر مجلة « المواطن » التي يصدرها الأمير مشترسكي الصحفي المحافظ وفي هذه المجلة انما فتح دوستويفسكي زاوية أسماها « يوميات كاتب » فنالت الزاوية نجاحا كبيرا ، من حيث هي حديث يقوم بين كاتب كبير وبين قرائه • وفي أثناء ذلك يعرض عليه صديقه القديم نكراسوف أن يؤلف رواية لمجلة « حوليات الوطن » فيكتب دوستويفسكي رواية « المراهق » التي تحكي قصة شاب استبدت به فكرة ثابتة وحاصره هوى قوي هو أن يغتني نشدانا للقوة ، حتى اذا انقطع دوستويفسكي عن ادارة مجلة المواطن مضى الى مدينة صغيرة هادئة هي ستارايا روسا ، يقضي فيها سنتين كاملتين ، ولا يغيب عنها الى العاصمة الا نادرا • ولكنه يعود بعد ذلك الى العاصمة ليبدأ في كانون الثاني (يناير) ١٨٦٧ اصدار مجلته هو « يوميات كاتب » ، وهي



غرفة دوستويفسكي ستارايا روسا (متحف دوستويفسكي بموسكو)

يوميات شخصية باوسع معاني الكلمة ، «عرض لكل ماانصب عليه اهتمامي شخصيا ، ولكل ما عناني أكثر مما عداه » ، على حد تعبير دوستويفسكي• لقد حظيت « اليوميات » بنجاح لم يكن في الحسبان ، فالكاتب يتلقى سيلا من الرسائل يحاول أن يجيب عليها • وهو يعنى في هذه المجلة ببعض قضايا الاجرام (انه ما يزال يميل الى دراسة الجريمة ودوافعها) ، ولكنه يكتب في هذه اليوميات أيضا مقالات سياسية حماسية كثيرة ، ينادي فيها بضرورة تدخل روسيا من أجل تحرير سلافيي البلقان من ربقة الاحتلال التركي • وفي تلك المقالات انما يعبر دوستويفسكي عن آرائه الداعية الى السلافية ويعرب عن رأيه في أن القسطنطينية يجب أن تنتمي الى روسيا عاصمة الارثوذكسية • وتنشب الحرب أخيرا في ١٧ نيسان (ابريل) ١٨٧٧ ويقوم دوستويفسكي في شهر تموز (يوليو) برحلة الى الأراضي التي كان يملكها دوروفوبي ، فيتحدث هنالك مع الفلاحين الذين



دوستويفسكي ١٨٧٩

هم فى سنه والذين يتذكرون طفولته ويتذكرون مقتل أبيه ، ويجرى مع هؤلاء الفلاحين أحاديث مدارها على الحرب ، فيسره أن يدرك أن الشعب مستعد لبذل التضحيات فى سبيل « القضية المقدسة » ٠

ويصاب صديقه القديم الشاعر نكراسوف بمرض خطير يودى بحياته فيلقى دوستويفسكى على قبره خطابا أليما ، يبكى فيه « القلب الجريح الى الأبد ، القلب الذى ظل جرحه ينبوع شعره كله ، ومصدر حبه لكل من يتألم من الاضطهاد والعـذاب » ٠٠٠ تلك كلمات يمـكن أن تصدق على دوستويفسكى نفسه ٠

وفى أثناء ذلك يشترى دوستويفسكى فى ستارايا روسا ، بمبلغ زهيد ، المنزل الصغير الذى سبق أن أقام فيه ، فيصبح هـذا الطريد الأبدى ، هذا المتشرد الأبدى ، هذا المستأجر الأبدى ، يصبح مالكا ٠ فهو يملك لأسرته منزلا تحيط به حديقة ٠

وفى عشية عيد الميلاد سنة ١٨٧٧ يسجل دوستويفسكى فى دفتره هذه الأسـطر : (مفكرة ٠٠ للعمـر كله ١ ـ كتـابة « كانديد » روسى ، ٢ ـ كتابة كتاب عن يسوع المسيح ٠ ٣ ـ كتاب مذكرات ٠ ٤ ـ نظم قصيدة ٠ كل ذلك عدا انجاز الرواية الأخيرة ، وطبع « اليوميات » وهذا يقتضى عشر سنوات من العمل فى أقل تقدير ، وعمرى الآن ٥٦ عاما) ٠

ولكن لم يكن قد بقى لدوستويفسـكى من عمره الا ثلاثة أعوام ٠ كان دوستويفسـكى مصابا بمرض خطـير فى الرئة ، فهـو يذهب كل صيف الى مدينة امس طلبا للعلاج ، فلم يسـتطع أن يحقق من البرنامج الذى رسمه لنفسه الا كتابة روايته الكبيرة « الاخوة كارامازوف » التى تظل قمة انتاجه على كل حال ٠

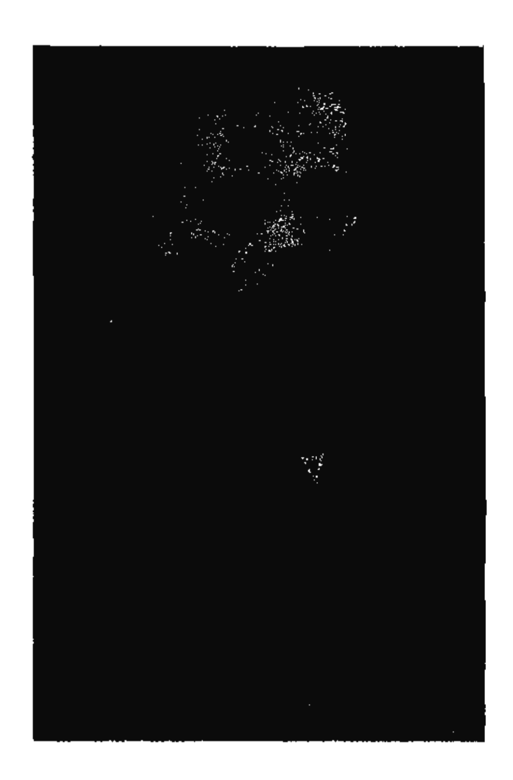
وهذه نازلة جديدة تلم به : ان ابنه الثانى ألكسى الذى لمايكد يبلغ الثالثة من عمره يموت أثناء نوبة صرعة : من المستحيل ان يوصف حزن الأب المسكين على موت ابنه ٠ وسوف يطلق دوستويفسكى اسم هـذا الابن على بطله الحلو الرقيق فى رواية الاخوة كارامازوف ٠٠٠ أليوشـا كارامازوف ٠

وفى تلك السنة يتعرف دوستويفسكى بالاستاذ الشاب فلاديمير سولوفيف الفيلسوف المثالى الذى يدعو الى المسيحية ويعلن أن المذهب

الوضعى الغربى فى أزمة · ويقوم الرجلان برحلة الى الدير الشـــهير فى أوبتينا ، قرب تولا ، فيدرس دوستويفسكى هنالك حياة الرهبان ويتبادل أحاديث طويلة مع الناسك أمبرواز ، نموذج البطل زوزيما فى رواية الاخوة كارامازوف ·

ويقضى الـــكاتب سنة ١٨٧٩ كلهـــا فى انجاز رواية « الاخوة كارامازوف » التى تظهر فصولا فى مجلة كاتكوف « الرسول الروسى » ·

ويشارك دوستويفسكى فى سهرات أدبية يقرأ أثناءها مقتطفات من أعماله ، فيعجب به الجمهور وما ينفك يصفق له·ويختلف الى الصالونات وينتخب عضوا مراسلا فى « الاكاديمية » ونائب رئيس « لجمعية اللطف



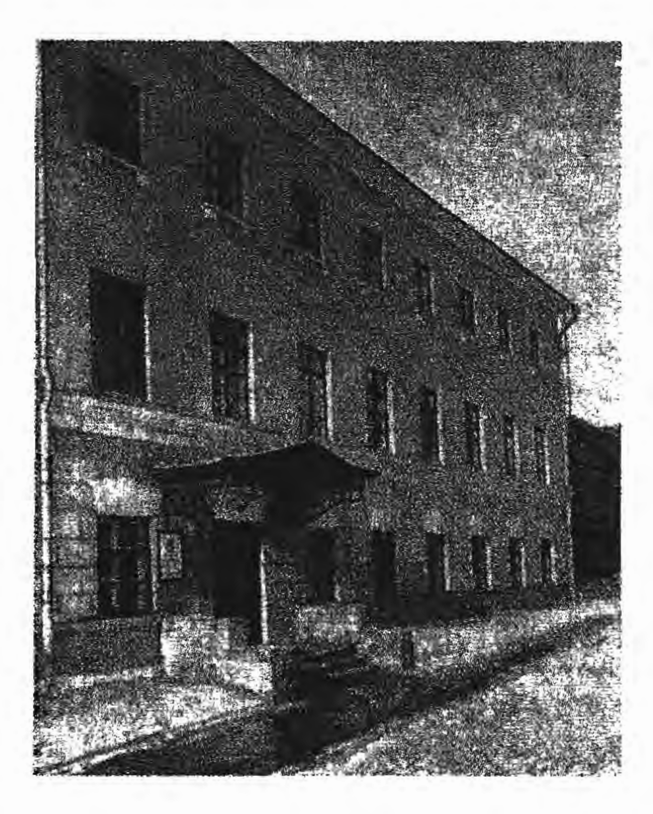
دوستويفسكى ١٨٨١

السلافيـة » • وتنتدبه هـذه الجمعية فى شـهر أيار (مايو) ١٨٨٠ للمشاركة فى تدشين النصب التذكارى الذى شيد بموسكو تخليدا لذكرى الشاعر بوشكين • فتحقق له اقامته بموسكو نصرا مبينـا : يحتفل به



ضريح دوستويفسكى ، بطرسبرج ، مقبرة دير ألكسندر نفسكى

رجال الأدب احتفالا كبيرا ، ويلقى فى الثامن من حزيران (يونيه) بعد تورجنيف ، خطابه الشهير عن شاعره الاثير • كان خطابه خطابا رائعا تحدث فيه حديث أصحاب الرؤى ناشرا فى القاعة جوا مفعما بعطر الحماسة وروعة الخشوع ، وجلال النبوة • فى ذلك الخطاب تكلم دوستويفسكى على رسالة روسيا التى يجب أن تحقق مصالحة بين الغرب والشرق ، قائلا ان بوشكين يجسد الروح القومية الروسية ، لأنه أوتى قدرة خارقة على ادراك عبقرية الشعوب الأخرى ، وعلى فهمها ، فهذا « التجاوب » ظاهرة نبوة تتفق وخصائل الشعب الروسى كل الاتفاق •



متحف منزل دوستويفيسكى بموسكو

ويشيد دوستويفسكي بالاصلاح الذى حققه بطرس الاكبر ، فيرى انه يلبي التيار العميق الذى يترقرق فى أعماق الروح القومية الظمأى الى صعيد الاخوة الانسانية ، والقانون المسيحى .. « نحن نسلم بأن بلادنا والعالم ، فلاداعى الى عداوة بين دعاة الغرب وانصار السلافية ، فما هذه العداوة الا سوء تفاهم يؤسف له . ان روسيا مدعوة الى أن تنطق بالقول الفصل فى انسجام البشر انسجاما شاملا واتفاق جميع الشعوب على صعيد الاخوة الانسانية ، والقانون المسيحى .. » نحن نسلم بأن بلادنا فقيرة ، ولكن هذه البلاد هى التي زارها المسيح عبدا فباركها ، فكيف لا نستطيع أن نحقق قوله الفصل ؟ » .

لقد حاول دوستويفسكي فى هذا الخطاب الذى ينادي بالانسان الشامل والانسجام العام ، أن يوفق بين الآراء المتعارضة ، بين الصفوة المثقفة والشعوب ، بين روسيا وأوروبا ؛ وتلتهب القاعة التى يلقى فيها الكاتب خطابه ، وتصيح فيما يشبه الهذيان من فرط الحماسة ، وهذا تورجنيف يعانق دوستويفسكى والدموع تترقرق فى عينيه ، كان معجزة أخوة تتحقق .

وهؤلاء فتيات يغمرنه بالأزهار ، ويقبلن يديه ، وهذا طالب يقع مغشيا عليه بين قدميه . أحس دوستويفسكى انه فى حلم . لقد سدد ديونه ، واشترى بيتا صغيرا يعيش فيه حياة مريحة . تحيطه رعاية . حنون حبيبة .. وآلاف المعجبين يقرءونه ويفهمونه . لقد انتصر على قدره بالصبر وحده . وهذا هو يكتب الى أحد أصدقائه قائلا له : « اسمح لى أن لا أودعك . انت تعلم انني أريد أن أعيش وأن اكتب عشرين سنة أيضا » .

ويعود دوستويفسكى الى ستارايا روسا يعكف على انجاز روايته « الاخوة كارامازوف » متحملا عناء كبيرا ، باذلا جهودا مضنية .

كان يحس أنه قوى معافى ، وكانت نفسه طافحة بالآمال ، وكان ذهنه فياضا بالمشاريع . انه يضع القسم الثاني من «الاخوة كارامازوف» القسم الذى يجب أن يظهر فيه أليوشا بعد عشرين عاما . ولكن هاهى صحته تنهار فجأة ليلة السادس والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٨٨١ : الدم يتدفق من فمه ويتجدد تدفقه من حين الى حين ، خلال

يومين · ويشعر دوستويفسكي أن منيته قد اقتربت ، فيتناول القربان المقدس ويستعد للقاء وجه الله ·

وينطفىء دوستويفسكي في ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٨٨١ ، بعد أن يبارك امرأته وأولاده ·

ان روسيا كلها تحزن لموت الانسان الكبير الذي ظل مجهـولا مدة طويلة ، والذي تنكرت له الاقدار ذلك التنكر · ان نعشه يسير نحو اللحد تحت غابة كثيفة من الرايات · أمراء ورهبان وعمال وضباط ومتسولون، يحيطون بالنعش المهيب عابرين به المدينة · وامام القبر المفتوح يتناوب الكلام ، كتاب صالحت بينهم الفجيعة ، فاذا هم يتحدثون عن دوستويفسكي حديثهم عن شهيد · وينفض المشيعون · فتعود المقبرة التي يغطيها الثلج الى الصمت ، وتبـــدأ في تلك اللحظة حياة دوستويفسكي الجـــديدة ، لا بجسمه على الارض بل بمؤلفاته الخالدة ، فوق الزمان وفوق المكان ، في قلوب الذين يقرءونه فيغوص بهم الى أعماق النفس ، بل الى اعمـاق الوجود ·

س · د

تقديم



هذا المجلد الأول من أعمال دوستويفسكي الأدبية ثلاث قصص كتبها في السنين الثلاث الأولى من نشـاطه الأدبي • ولعلها تتفاوت نوعا وقيمة ، وقد استقبلها النقـاد اسـتقبالا مختلفا على كل حال • ولكنها تجتمع أولا على وصف شخصيات قلقه ورسم وجوه معذبة لا يرجع ما تعانيه من قلق وعذاب الى طبيعتها وحدها ، وانما يرجع كذلك الى الظروف القاسية التي تحيط بها والى الظلم الاجتماعي الذي يثقل على صدورها • واذا كانت هذه الشخصيات لا تكاد من فرط انسحاقها أن تشكو أو تتذمر ، فان القارىء يشكو ويتذمر نيابة عنها ، بل يستحيل شكواه ويستحيل تذمره الى تمرد وثورة • وتجتمع هذه القصص ثانية على العمق في النفاذ الى أغوار النفس ، وسبر تناقضاتها ، والنقاط أخفى خلجاتها كسائر آثار دوستويفسكي من جهة أخرى •

الفقراء

١٨٤٦

« المجد والشرف للشاعر الشاب الذي تحب آلهة وحيه سـكان السقوف والأقبية وتقول عنهم لأصحاب القصور المذهبة : هؤلاء بشر أيضا ، هؤلاء اخوتكم » •

بهذه العبارة حيا بيلنسكي ، سنة ١٩٤٦ ، قصة الفقراء • والحق أن حماسة الناقد الروسي الكبير في محلها : لقد ظهرت عبقرية دوستويفسكي الخلاقة في أول عمل من أعماله الأدبية ، وهو لما يزل في السادسة والعشرين من عمره ، ولئن لم تتفتح هذه العبقرية عن عامل مكنوناتها بعد ، ولئن

لم تصل الى الآماد البعيدة التى ستصل اليها ، فقد كشفت منذ أول عمل عن السمة التى ستظل تميزها : حبها وعطفها وحماستها للمغمورين المغلوبين على أمرهم ، لأولئك الذين سيسميهم دوستويفسكى فى عمل مقبل من أعماله « المذلين » و « المهانين » ٠

ولئن تأثر دوستويفسكى فى كتابة هذه الرواية بقصة « المعطف » التى كتبها جوجول والتى أثرت فى الأدب الروسى كله ، ولئن كان دوستويفسكى يقول هو نفسه : « لقد ولدنا جميعا من معطف جوجول » ، فما أعظم الفرق بين القصتين ! ان دوستويفسكى فى قصته هذه يتمرد على روح الهجاء التى تتجلى فى قصة جوجول ٠ ان آكاكى آكاكيفتش ، بطل « المعطف » انسان يبعث فى نفسك الضحك الى جانب الشفقة ٠ لقد كان مثله الأعلى كله أن يحصل على معطف ٠ حتى اذا ضاع المعطف هوى الى اليأس فالموت ٠ ولا كذلك المثل الأعلى الذى يحرك ماكار ديبيفوشكين : انه الحب والرحمة والايثار والتفانى ٠ ان ماكار يضحى بنفسه فى سبيل الفتاة المسكينة التى لا يكاد يراها ، ولا يجرؤ أن يزورها مخافة النمائم ، وما ينفك يرسل اليها هداياه الصغيرة بالحرمان يتحمله تلو الحرمان ٠ وقد أقرأ دوستويفسكى بطله « معطف » جوجول ، فأجرى لسانه بتعبير عن استيائه من هذه القصة الساخرة التى لا تراعى مشاعر الفقراء الخبيئة ، بل تعريها أمام أبصار الناس ٠ ثم أقرأه قصة بوشكين « ناظر المحطة » ، فاجرى لسانه بتعبير عن الاعجاب بها ، والرضى عنها ٠ ان الحب العميق الذى يحمله « ناظر المحطة » فيرين لابنته الوحيدة ، يشبه العواطف الأبوية الرقيقة التى يحملها ديفوشكين للفتاة البائسة فارنكا ٠ وان المصير الحزين الذى ينتهى اليه ناظر المحطة بعد أن خطف ابنته ضابط متكبر غنى فلم يرها أبوها بعد ذلك ، تشبه مصير ديفوشكين الذى سيبقى وحيدا فى هذا العالم ، بعد أن ارتضت فارنكا أن تتزوج السيد بيكوف الرجل الثرى الذى سبق أن أغواها ، ثم تزوجها ومضى بها الى أملاكه البعيدة ٠وتنتهى قصة دوستويفسكى بصرخة أليمة حادة تعلن أنه يستحيل أن تكون هذه الرسالة هى الأخيرة ، مستحيل تكون هذه الرسالة هى الأخيرة ! » ولكن القارىء يتنبأ بأن تلك الرسالة هى آخر رسالة ، وأن ديفوشكين الذى بقى وحيدا سيندفع الى الادمان على السكر ، وسيموت حزنا وألما ، مثل « ناظر المحطة » بطل بوشكين ٠ ولكن قصة دوستويفسكى أغنى كثيرا من قصتى صاحبيه جوجول وبوشكين ٠ ان هذه القصة

المتواضعة التى تحدثنا عن حب بين شخصين تستحيل الى لوحة تصور الظلم الاجتماعى فى أقسى أشكاله ٠

البطلان كلاهما مضطهدان معذبان مذلان مهانان ، يوقع فيهما الأشرار أنواع الظلم ، ويتحملان من الفقر ما لا يطاق ٠ ان الفقر الذى يعـانيه ماكار ديفوشكين يكشف له عن كل الفقر الذى يحيط به ، وقد هم الرجل أن يشكو ويتذمر ، وأن يتمرد ويثور متعجبا فى سذاجة من العذاب الذى يقاسيه الخيرون فى هـذا العالم ٠ واذا كان ، لبسـاطته ، يتراجع عن الشكوى والتذمر ، ويرتد عن التمرد والثورة ، مسلما بالواقع ، مذعنا لمشيئة القـدر ، فان فيه شيئـا من « المتمردين » الذين سيصفهم لنا دوستويفسكى فى رواياته المقبلة ٠

ان الوجوه التى نراها فى هذا العمل الأول من أعمال دوستويفسكى سنقع عليها فى أعماله الأخرى ، انها وجوه « الفقراء » نشاركهم عذابهم ونحيا حياتهم ٠ ولكننا فى هذه القصة مانزال بعيدين عن الأغوار العميقة التى سينفذ اليها دوستويفسكى ، وما زلنا بعيدين عن الأعماق الميتافيزيقية التى ستنزل اليها رواياته المآسى ٠

المثل

١٨٤٦

نشرت رواية « المثل » بعد صدور « الفقراء » بشهر واحد ٠ فلم يستقبلها النقاد والكتاب والقراء بمثل ما استقبلوا به قصة « الفقراء » من حماسة ٠ فبعضهم يشكو من اطناباتها واسهاباتها ، وبعضهم لا يرى فيها الا تقليدا واضحا لجوجول ٠ ولكن الناقد الروسى الشهير بيلنسكى حرص على ابراز دلالتها الاجتماعية ، فعقد مقالا قال فيه عن بطلها جوليادكين : « انه واحد من أولئك الناس الحساسين الذين نجد أمثالهم فى الطبقـات المتوسطة والدنيا ، فهو سريع التأذى ، شديد الطموح ، يتراءى له دائما أنه مستهدف ببعض الكلمات وبعض النظرات وبعض الحركات، وأنه يحاصر وتدبر له المكائد ٠٠٠ » ٠ حتى لقد قال بيلنسكى انه يرى فى هذه القصة « من الموهبة الخالقة ومن عمق الفكر ما لم ير مثله فى قصة الفقراء » ٠ وختم بيلنسكى مقاله بنبوءات تتناول دوستويفسكى فقال : « سـوف

تظهر أثنــاء حياته مواهب كثيرة تعارضه ، ولكن هــــذه المواهب كلها سيطويها النسيان ، أما موهبته فتظل فى ذروة المجد » ٠

صدق بيلنسكى ٠٠ لســوف يطوى النسيان مواهب كثيرة ٠. أما موهبة دوستويفسكى فستظل فى ذروة المجد ٠ ولكن بيلنسكى كان ينظر الى كل أثر من آثار الأدب من زاوية ضيقة خاصــــة ، هى زاوية الأدب الاجتماعى الجديد الذى ينادى به ويدعو اليه ٠ ولم يكن مهيئا اذن لأن يرى كل ما فى رواية « المثل » من عمق نفسى ٠ فلئن كان جوليــادكين ضحية ظلم اجتماعى من بعض النواحى ، وبمعنى من المعانى ، فان هــذا ليس كل جوليادكين ٠٠ واذا كانت رواية « المثل » تفضح هذا الظلم الاجتماعى ، فان هذا ليس كل رواية « المثل » ٠٠٠ ان جوليادكين انسان « تنفصم » شخصيته على حد تعبير علماء النفس الحديثين ٠٠٠ انه يزدوج ٠٠٠ فمن رآه من خارج سماه مجنونا وكفى ٠٠ وقد يضحك اضافة الى هذا ٠ وما كذلك يفعل دوستويفسكى ٠٠٠ فانه يراه من داخل ، أو قل انه يعيش معه تجربته النفسية ، وهو لذلك لا يكاد يضحك عليه ، ولايكاد يحمل القارىء على الضحك عليه ٠ بالعكس ، إنه يبرز جانب المأساة من حياة انسان يتعذب ، لا عن ظلم اجتماعى فحسب ، بل عن مرض نفسى قد يتصل بالظلم الاجتماعى ، وقد لا يتصل به كثيرا ٠ فمن لم يكن قادرا بحد أدنى من تجربة شخصية على أن يرى ما يراه دوستويفسكى فى بطله من داخل ، فلن يستطيع أن يعرف كل العمق النفسى فى تصوير شخصية هذا البطل بالعين البصيرة .والريشة البارعة ٠

ولذلك رأينا بيلنسكى يعود الى الكلام عن كتاب « المثل » فى مقالة يكتبها بعد سنة ، فاذا هو فى هذه المرة ، مع اظهار اعجابه بموهبة المؤلف، يأخذ على الكتاب « طابعه الخيالى غير الواقعى » ، ويعيب فيه غمـــــوض حبكته ، وطول اسهاباته وتكراراته ، وينصح دوستويفسكى باختصار هذه الرواية عند اعدادها للنشر فى طبعة جديدة ٠

وقد شعر دوستويفســكى بمرارة شديدة من سوء تقدير النقــاد لكتابه ، وعبر عن هذه المرارة فى بعض رسائله ٠ ومع ذلك رأيناه ، عنــد عودته من سيبيريا ، وشروعه فى اعداد طبعة جديدة لمؤلفات شبابه ، يتأثر برأ النقاد والقراء فى كتابه ، فيأخذ فعلا فى اعادة كتابة «المثل» ، ولكن وقته لم يتسع لهذا العمل ٠ وفى عام ١٨٦٥ نشر طبعة جديدة للكتاب لا تختلف

عن الطبعة الأولى الا فى أمور يسيرة فهو لا يزيد عن أن ينقح هنا عبارة ، ويختصر هناك فقرة ، ويحذف هنالك رسالة ، غير أن نيته كانت منصرفة، كما تدل على ذلك مسودات يرجع عهدها الى ١٨٦١ ــ ١٨٦٤ ، الى احداث تغييرات كبيرة فى هذه الرواية ، وتدل هذه المسودات على أنه كان يريد أن يجعل من بطله جوليادكين الأول واحدا من أنصار النزعة الاشتراكية ينتمى الى فورييه وينضم الى حلقة بتراشفسكى ويطمع فى قيادة ثورة ، وأن يجعل من «المثل» ، من جوليادكين الثانى جاسوســا يشى بالثوريين ويفضح أمرهم ٠

على أن دوستويفسكى يظل شاعرا بما تحمله قصته من نفاذ وعمق متأثرا مع ذلك برأى النقاد والقراء فيها ، فها هو ذا يكتب فى « يوميات كاتب » سنة ١٨٧٧ قائلا : « اننى لم أوفق فى هذه القصة كل التوفيق ولكن فكرتها كانت واضحة وضوحا كافيا ، وما أحسب أننى أضفت الى الادب فــكرة أكبر منها خطرا وأعلى شأنا ، ولكننى لم أوفق فى صياغة الشكل » ٠

قلب ضعيف

١٨٤٨

وهذا بطل آخر من صغار الموظفين ، شاب يفيض مزايا وخيرا ومحبة، راض عن مصيره ، رغم أن راتبه لا يزيد على خمسة وعشرين روبلا فى الشهر ٠ ان رئيسه ، جوليان ماستاكوفتش يستغله ، عاهدا اليه بأعمال اضافية لا يدفع له أجرها خلال أربعة أشهر ٠ ولكن فاسيا ينهض بالعبء فى جد واجتهاد وحماسة ، حتى اذا كافأه رئيسه بخمسين روبلا فاض قلب الفتى شعورا بالشكر والامتنان ٠ والفتى سعيد ، لأن له صديقا عزيزا عليه هو أركاد ، ولأنه خطب فتاة يحبها حب العبادة ، ولأنه ينعم بالحظوة لدى رئيسه ٠ ولكن «قلبه الضعيف» ينوء بحمل كل هذه السعادة ٠ لقد أهمل انجاز العمل الذى عهد به اليه رئيسه ، لأنه قضى أوقات فراغه كلها عند خطيبته فها هو ذا يشعر من ذلك بأنه آثم فى حق رئيسه ، وهاهو ذا الجنون يستولى عليه شيئا بعد شىء مهربا من العمل الذى أصبح لا يطيق انجازه ، ومهربا من الحب الذى يرى أنه لا يستحقه ، ومهربا من الشعور بالاثم الذى يمضه ويرهقه أشد الارهاق ٠ وما أروع المشهد الذى يصوره

دوستويفسكى حين يرينا الفتى المسكين وقد استولى عليه جنونه ، فهو يجرى ريشته سريعة على الورق بغير حبر ، ويقلب الأوراق واحدة بعد أخرى بيضاء لم يخط عليها سطرا ... ظانا أنه يعجل قيامه بالعمل رجاة انجازه فى الموعد المضروب لتقديمه الى رئيسه . انه مشهد مؤثر يكوى النفس حزنا .

لقد ضخم الفتى المسكين خطيئة تقصيره تضخيما شديدا ، فأحس فى اطار النظام القاسى الذى كان يسود عهد نيقولا الأول ، أنه يرتكب جريمة التمرد وعدم الخضوع للرؤساء ، وتوقع أن ينزل فيه العقاب الذى ينزل فى المجرمين السياسيين ، وهو ادخال المجرم فى الجيش جنديا بسيطا لسنوات طويلة . ترى الا يمكن أن يقال ان دوستويفسكى ، حين صور هذا الفتى الحالم الذى انتهى الى الجنون ، كان يعبر عن مخاوفه من الوقوع فى هوة الجنون ، وعن احساسه بأنه سيعاقب هو أيضا بالنفى والجندية لسنين ؟

س . د

الفقراء
١٨٤٦

« الفقراء » (Béonie Lioudi) ،
كتبت سنة ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥ ، ونشرت
فى شهر كانون الثانى «يناير» سنة
١٨٤٦ ، فى «مجموعة سان بطرسبرج»
التى كان يصدرها نكراسوف .

يا لهؤلاء الكتاب القصاصين ! انهم بدلا من أن يقصوا علينا شيئا نافعا ممتعا ، مريحا ، يهتكون جميع أسرار الحياة على هذه الارض ويزيحون الحجب عن جميع مبائس الوجود ! ... لو كان الامر لى لنهيتهم عن الكتابة ! فكروا فى النتائج التى يؤدى اليها هذا ! ان المرء يقرأ ما يكتبون ، فاذا هو ، على غير ارادة منه ، يأخذ يتأمل ..... واذا بجميع أنواع الافكار العجيبة المستحيلة تغزو رأسه . حقا لو كان الامر لى لنهيتهم عن الكتابة ، أو لمنعتهم من نشر ما يكتبون .

الامير ف. ف. أودويفسكى

٨ نيسان (ابريل)

عزيزتي فرفارا ألكسييفنا ، الصديقة الغالية !

كنت أمس سعيدا ، سعيدا سعادة كبرى ، كنت أفيض سعادة . مرة في حياتك على الأقل ، أيتها العنيدة الصغيرة ، رضيت أن تلبى طلبي. لقد استيقظت مساء أمس فى الساعة الثامنة تقريبا (وأنت تعلمين يا ماتوشكا، انني أحب أن أغفوساعة أو ساعتين عند عودتي من عملي) ، فأشعلت شمعة، وهيأت ورقا ، وبريت قلما ، ثم اذا أنا أنهض رأسي مصادفة ، فيأخذ قلبي يخفق في صدري سريعا سريعا . لقد أدركت اذن ماكنت أتمناه ، ما كان يتمناه قلبي البائس! لقد لاحظت حين أنهضت رأسي أنك شددت طرفا من ستارة نافذتك فثبته بأصيص الأزهار ، تماما كما أوحيت اليك بذلك ايحاء غير مباشر في المرة الماضية . حتى لقد خيل الى أنني ألمح في تلك اللحظة وجهك الأخاذ من وراء النافذة ، وكأنك كنت تنظرين الى من غرفتك ، كأنك كنت تفكرين فى . وما كان أشد أسفي، ياملاكي الصغير، حين لم أستطع أن أميز قسمات وجهك الحلو العذب تمييزا واضحا ! لقد كنت في زمن من الأزمان أملك بصرا قويا أنا أيضا ، ياماتوشكا . ولكنها الشيخوخة يا صديقتي اللطيفة ... انه ليحزن قلب المرء أن يدلف الى الشيخوخة . انني في هذه اللحظة مثلا لا أرى رؤية واضحة. ولكن يكفي أن أعمل قليلا في المساء ، يكفي أن أكتب بضعة أسطر ، حتى تصبح عيناي في صباح الغداة حمراوين ، وحتى تسيل منهما الدموع ، فأكاد أستحي أن أظهر للناس . ولكنني يا ملاكي قد رأيت ابتسامتك، ابتسامتك الصغيرة الفاتنة ، رأيتها في خيالي ، فكانت كالضوء في نفسي ، وشعرت بذلك الانفعال نفسه الذي شعرت به يوم قبلتك يافارنكا ، هل تذكرين ذلك ياملاكي العزيز ؟ حتى لقد خيل الى — هل تصدقين يا عزيزتي ؟ — انك

تهددينى بأصبعك من وراء النافذة • أهذا صحيح أيتها الحمقاء الصـغيرة ؟
يجب عليك حتما أن تقصى علىّ هذا كله مفصلا فى رسالتك القادمة •

ولكن قولى : ما رأيك فى اختراعنا هذا بشأن ستارة النافذة ، الم تكن فكرة لطيفة فىالواقع ؟ لسوف أعرف ، حين أعمل أو حينأضطجع، وحين أستيقظ أيضـا ،لسوف أعرف فورا أنك تفـكرين فىّ ، وأنك لم تنسينى، وأنك أنت أيضا جيدة الصحةمشرقة المزاج• فاذا أسدلت الستارة عرفت أن هذا يعنى أنك تقولين : « وداعا يا ماكار ألكسييفتش ، فقد آن أوان النوم» • حتى اذا عدت فرفعت الساره فهمت أنك تقولين : «نعمت صباحا يا ماكار ألكسييفتش ، هل نمت نوما طيبا ؟ » أوفهمت أنكتسألين: « كيف حالك اليوم يا ماكار ألكسييفتش ؟ أما أنا فانى بحمد الله فى صحة حسنة ، وكل شىء يجرى عندى على ماأحب» • هلرأيت كيفأحسنت تخيل هذا الاختراع ؟ لاحاجة بنا الى التكاتب من أجل التخاطب ، أليس كذلك ؟ وكانت تلك فكرتى ، فكرتى أنا • فاعترفى اننى حاذق فى مثـل هذه الأمور ، ألا ترين هذا الرأى يا فرفارا ألكسييفنا ؟

يجب أن أقول لك يا عـزيزتى فرفارا ألكسـييفنا أننى قضيت ليـلة رائعة ، على خلاف ما كنت أتوقع ، فملأنى ذلك غبطة وبهجة • ان المـرء لا ينام نوما طيبا فى الليلة الأولى من اقامته بمسكن جديد • فهو لا يشعر بالارتياح ، اذ لا بد أن يكون أمر من الأمور على غير ما يجب أن يكون ! ولكننى نهضت من فراشى فىالصباح جم النشاط شديد الفرح أشبه بصقر• انها لمتعة حقا ! وماكان أجمل الصباح فى هذا اليوم ، ياماتوشكا ، لقدفتحت النافذة فى مسكننا : فكانت الشمس تسطع ، وكانت الطيور تغرد ، وكان الهواء مفعما بأشذاء الربيع • الطبيعة تعود الى الحياة ، فاذا كل شىء يفعل

ما تفعله الطبيعة ، ويجرى على ما يريده الربيع • حتى لقد أخذت أحلم أحلاما جميلة لذيذة ؟ وكانت أحلامى تنصرف اليك يا فارنكا ، فأشبهك بطائر صغير من طيور السماء خُلق فرحةً للبشر وجمالا للعالم • وحلمت عندئذ ، يافارنكا ، أننا معشر الذين نعيش فى هموم الحياة على الأرض ونضطرب في أعاصيرها ، يجب علينا أن نحسد طيور السماء ـ وكانت سائر أحلامى من هذا القبيل ، ومن هذا النوع ؟ أعنى اننى ظللت فى أحلام اليقظة هذه ، أعقد مقارنات عجيبة وأنشىء تشبيهات خارقة • ان عندى ، يا فارنكا ، كتابا يقول هذه الأشياء نفسها ، ويستعمل ألفاظا كهذه الألفاظ• واذا كدت أكتب اليك فى هذه اللحظة ، فلأن أحلامنا قد تبلغ هذا المدى من التنوع ياماتوشكا • نحن فى الربيع ، والخواطر التى توافينى ممتعة جدا ، وتتدفق حياة وتفيض قوة ، وتحمل الىَّ معانى رقيقة مفعمة بالحنان• كل شىء يبدو لى ورديا • لذلك أكتب اليك هذا كله • والأصح أننى قرأت هذا كله فى كتابى الذى يعبر مؤلفه عن هذه العواطف نفسها شعرا فيهتف قائلا :

الا ليتنى طير الا ليتنى صقر

الخ ••••

هناك أفكار أخرى كثيرة فى هذا الكتاب • ولكن ما فائدة نقلها اليك الآن ؟ الأحرى أن تقولى أنت أين ذهبت فى هذا الصباح يا فرفارا ألكسيفنا . لم أكن قد تركت منزلى الى عملى حين خرجت أنت من غرفتك كطائر صغير من طيور الربيع ، واجتزت فناء المنزل وقد بدا فى وجهك ذلك الفرح كله • ما كان أشد سعادتى حين تأملتك فى تلك اللحظة ! آه يافارنكا ، لاتبكى ولاتنتحبى • ان الدموع عاجزة عن دفع الشقاء • أنا أعرف ذلك بالتجربة ياماتوشكا • لقد هدأت حياتك الآن كثيرا، وتحسنت

صحتك بعض التحسن • بالمناسبة ، كيف حال صاحبتك فيدورا ؟ يا لها من امرأة طيبة شهمة ! •• اكتبى لى يافارنكا : كيف تعيشين معها الآن ، وهل انت راضية عن كل شيء • ان فيدورا شرسة بعض الشراسة ، أنا اعرف ذلك ، ولكن لا تعبئى ولا تحفلى يا فارنكا ، واغفرى لها ، لأنها طيبة جدا •

سبق أن حدثتك عن تيريز هذه التى تخدمنا هنا ، والتى تملك هى ايضا قلبا طيبا ، وتستحق الثقة • كنت شديد القلق بشأن رسائلنا ، لا أعرف كيف أوصلها اليك • فاذا بالرب يرسل الينا تيريز هذه من أجل سعادتنا• امرأة ممتازة ، رقيقة الحاشية ، دمثة الطبع ، وليست بثرثارة أبدا • ولكن صاحبة بيتنا لا يعرف قلبها الرحمة ولا الشفقة فى الواقع • فهى ترهقها بالعمل وتعاملها أسوأ مما تعامل خرقة بالية •

ليتك تعرفين هذا المسكن المضحك الذى وقعت عليه يا فرفارا ألكسييفنا ! يا له من مسكن ! تعلمين أننى قد عشت حتى الآن حياةشديدة العزلة كثيرة الهدوء • كان كل شيء عندى صامتا صمتا يبلغ من الاطباق أن لو طارت ذبابة لسمع صوت طيرانها • أما هنا فالصخب جهنمى : صراخ لا ينتهى •• اننى لم أصف المنزل حتى الآن • هناك ، أولا ، دهليز طويل ، شديد العتمة والظلمة ، كثير الوساخة والقذارة ؟ فعلى اليمين جدار عار كل العرى ، وعلى الشمال غرف تتتابع تتابع الحجرات فى فندق • هذه هى الغرف المؤجرة ورب غرفة يسكنها شخصان أو ثلاثة أشخاص • أما الترتيب فما ينبغى أن يخطر على بال • نحن هنا فى سفينة نوح • ولكن يجب الاعتراف بأن الأشخاص الذين يقيمون فى هذه الغرف لطاف ظرفاء ، وهم جميعا على جانب من الثقافه ومن العلم • أحدهم موظف (مستخدم فى ادارة أدبية) يملك ثقافة واسعة الى أقصى حدود السعة ، فهو مثلا يتكلم عن هوميروس وعن برامبيئوس

وعن كثير من الكتاب أيضا ، لانه يعرف كل شيء • رجل ذكي جدا • وهناك ضابطان لا يزيدان على أن يعلبا بالورق طول الوقت • ثم هنالك ملازم بحار ، وانجليزي يعطي دروسا • اسمعي : سأحاول ، من اجل أن أسليك وأسري عنك ، أن أصفهم لك وصفا لاذعا في رسالتي المقبلة • اي انني سأصفهم لك على حقيقتهم تفصيلا • اما ربة المنزل فهي عجوز قصيرة جدا ، وسخة ، تظل تتبختر طول النهار بالبابوج وثوب المنزل ، لا تعمل شيئا غير تقريع تيريز من الصباح الى المساء • وانا أسكن في المطبخ ، أعني ••• لا ••• اليك كيف يجب شرح الأمر : هنالك غرفة الى جانب المطبخ (جدير بالذكر ان عندنا مطبخا نظيفا جدا ، مضيئا ومريحا) غرفة صغيرة ، ركن صغير متواضع •• او قولي على وجه أدق ان المطبخ قاعة واسعة ذات ثلاث نوافذ وضعوا حاجزا على طول جدارها فأصبح هنالك غرفة جديدة ، غرفة اضافية ان صح التعبير• هي غرفة واسعة جدا ، مريحة جدا ، لها نافذة ، ولها كل ما يجب ؛ كل شيء فيها جيد : ذلك هو ركني • ما ينبغي يا ماتوشكا أن يبدو لك هذا غريبا ، ولا أن تجدي فيه شيئا غامضا أو شيئا من سر • لماذا أسكن في المطبخ؟ صحيح انني أسكن الآن في هذه الحجرة ، أقصد وراء الحاجز ، ولكن لا ضير في هذا • انني أعيش في هذه الحجرة منعزلا ، بعيدا عن الآخرين ، أحيا حياة هادئة • وقد وضعت في الركن سريرا ومنضدة وخزانة وكرسيين ، وعلقت أيقونة • صحيح أن من الممكن العثور على مساكن تفضل هذا المسكن ، وربما كان هنالك مساكن تفضله كثيرا • ولكن الراحة هي الأمر الهام قبل كل شيء • ومن أجل الراحة انما جئت الى هنا ، اياك أن تتخيلي انني جئت لسبب آخر من الأسباب • ونافذتك الصغيرة تقع أمام نافذتي تماما ، وفي الجهة الأخرى فناء العمارة ، وهو فناء ضيق جدا أراك فيه حين تمرين ، فهكذا تصبح الحياة أكثر

بهجه عند هذا البائس الشقى ، انا . ثم ان الاجـــر ابخس كلفة . ان اجر أحقر غرفة هنا يبلغ مع ثمن الطعام خمسة وثلاثين روبلا ورقا . وذلك مبلغ باهظ بالنسبة الى . أما ركنى فاننى أدفع أجره سبعة روبلات. فاذا أضفت الى ذلك خمسه روبلات فضة ثمن الطعام ، بلغ المجموع اربعـة وعشرين روبلا ، ونصف روبل ، ولقد كنت آنفق قبل ذلك ثلاثين روبلا مع حرمان نفسى من أشياء كثيرة . كان يندر أن أشرب شيئا من شاى آما الآن فقد أصبحت أملك ما أشترى به شايا وسكرا . اذا لم أشرب الشاى هنا شعرت بحرج كبير ، يا عزيزتى . ذلك أن جميع المستأجرين أناس ذوو يسار ، فيخجلنى أن لاأشرب الشاى وأنا بينهم . فبسببهم اذن انما أشرب شيئاً من الشاى يا فارنكا ، حفاظا على المظهر ، ولولا ذلك مافعلت، لاننى لاأحرص على الشاى نفسه حرصا شديدا . لست من شاربيه المولعين به . هناك عدا هذا بعض النفقات النثرية ، لابد من بعض النفقات النثرية، لا بد من بعض النفقات رغم كل شىء ... وثمة نفقات أخرى لا منـاص منها لحذاء أنتعله ومعطف أتدثر به . فماذا يبقى بعد ذلك ؟ هذا راتبى كله قد طار سريعا . لست أشكو ولا أتذمر . فأنا سعيد ، وراتبى كاف. ثم اننى أتقاضى بعض المكافآت من حين الى حين . والآن ، وداعا ياملاكى العزيز . لقد اشتريت لك أصيص عصيفرة ، وغرنوقاً ليس باهظ الثمن. أتراك تحبين زهرة البليحـــاء أيضـــا ؟ يوجد بليحاء فى مخزن أصص الأزهار . فاكتبى الى اذا أردت أن أشترى لك منهـا . واذكرى لى فى رسالتك كل شىء تفصيلا . بالمناسبة ، أحب أن أرجوك أن لاتقلقى على ، فتظنى الظنون ياماتوشكا، لاتحملى سكناى فى حجرة كهذه على غير محمله لا .. لا .. اننى لم أفعل ذلك الا نشدانا للراحة . الراحة وحدها هى التى أغرتنى . ذلك أننى أدخر بعض المال ياماتوشكا : اعرفى هذا . اننى أملك الآن بعض المال على سبيل الاحتياط . لا تخطئى فى التقدير فتظنى

انني مسكين بائس يمكن أن تقلبه بعوضة بلطمة من جناحها • لا ياماتوشكا، لست بالرجل التافه الذى لا قيمة له ••• ان لى ارادة تليق برجل صلب العزيمة رابط الجأش هادىء النفس • وداعا يا ملاكى الصغير • كتبت لك هذه المرة صفحتين كاملتين ، وقد آن أن أمضى الى عملى • أقبل أناملك الرقيقة الجميلة العزيزة ، وأظل ياماتوشكا ، خادمك الذليل الأمين :

ماكار ديفوشكين

حاشية : أتوسل اليك خاصة يا ملاكى الطيب أن تردى على رسائلى ماضـــية فى سرد التفاصـــيل الى أبعد حد ممكن • وأبعث اليك مع هذه الرسالة برطل من المربب هنيئا مريئا ، لا تقلقى على ، ناشدتك الله ، ولا تغضبى • والآن وداعا يا ماتوشكا •

٨ نيسان (ابريل)

عزيزى السيد ماكار ألكسييفتش

هل تعلم أننا قد ننتهى الى التخاصم والتشاجر ؟ أقسم لك يا عزيزى الطيب ماكار ألكسييفتش ، انه يشق على نفسى أن أقبـــل هداياك • أنا أعرف كم تكلفك هذه الهدايا ، وأعلم مدى التضحيات التى تقدمهـا فى سبيلى حارما نفسك من أشياء لا غنى عنها • سبق أن قلت لك مرارا اننى فى غير حاجة الى شىء ، فى غير حاجة الى شىء البتة ، واننى غير قادرة على أن أرد اليك احسانا باحسان ، وأن أقابل جميلك المنهمر علىّ انهمار المطر بجميل مثله • ما عسانى صانعة بجميع أصص الزهر هذه ؟ هبنى ارتضيت العصيفرات الصغيرة ، فلماذا الغرنوق أيضا ؟ أيكفى أن تفلت منى كلمة

واحدة ، كما حدث في أمر هذه الزهرة ، حتى تسارع الى شراء ما جاء ذكره على لساني سهوا وغفلة ؟ لا شك أنها كلفتك نفقة باهظة . ولكن ما أروع هذه الازهار بشكلها المتصالب ولونها الأحمر . ومن أين حصلت على هذا الغرنوق الاخاذ الفتان ؟ لقد وضعت الاصيص وسط النافذة في أبرز مكان، ووضعت على أرض الغرفة مقعدا سأصف عليه أزهارا أخرى: انتظر أن أصبح غنية أنا أيضا . ان فيدورا في ذروة السعادة. لكأن غرفتنا أصبحت جنة حقا .. كل شيء فيها مضيء نظيف . ولكن لماذا بعثت الى بالمربب ايضا ؟ ولقد أدركت منذ قرات الاسطر الاولى من رسالتك ان هناك اشياء لا يجرى على مايرام . انك تتكلم عن الربيع والاشذاء والطيور التي تغرد . لم يبق الا أن ينظم أشعارا ، هذا ما قلته لنفسي وأنا أقرأ رسالتك . اسمع ياماكار ألكسيفتش : اما عن العواطف الرقيقة والاحلام الوردية فهي متوفرة في رسالتك ، وأما عن ستارة نافذتي فانني لم يخطر ببالي قط أن أشدها ، ولا شك أنها علقت مصادفة حين كنت أزحزح أصيص الازهار . أقول هذا من باب ذكر الواقع .

آه يا ماكار ألكسيفتش ، مهما تقل من كلام ، ومهما تكن طريقتك في اجراء حسابات مواردك من أجل أن تبرهن لي زورا على انك تستعملها في قضاء حاجاتك أنت ، فلن تصل الى اخفاء الحقيقة عني . انه لواضح كل الوضوح انك تحرم نفسك من الأشياء الضرورية في سبيلي . لماذا تقيم في مسكن كهذا المسكن مثلا ؟ انك لا تترك في هذا المنزل هادئا مرتاحا ، بل تزعج في كل لحظة .

لا شك في أنك متضايق ، ولا شك في أنك لا تتمتع بشيء من أسباب الراحة . أنت تحب العزلة ، وها أنت ذا في خان يعج بالناس . كان في وسعك أن تعيش في ظروف أفضل كثيرا من هذه الظروف ، بالقياس الى راتبك . ان فيدورا تؤكد أن مسكنك السابق أفضل من

مسكنك هذا كثيرا ، وأن الثانى لا يقارن بالاول على أية حال • هل يمكنك حقا أن تكون قد قضيت حياتك كلها على هذه الصورة ، فى العزلة والحرمان ، بلا فرح يشرق فى قلبك ، بلا كلمة رفيقة من صديق ، دائما بين غرباء ، فى غرفة مؤثثة ؟ لشد ما أرثى لحالك يا صديقى الطيب، هلا راعيت صحتك على الأقل يا ماكار ألكسييفتش ! تقول ان بصرك يضعف : عليك اذن أن تتجنب الكتابة على ضوء الشموع • وفيم الكتابة أصلا ؟ لا شك أن رؤساءك قد أصبحوا يعرفونك ويعرفون حماستك لعملك ونشاطك فى أداء واجبك •

أضرع اليك مرة أخرى : لا تنفق فى سبيلى كل هذا الذى تنفقه• أنا أعرف أنك تحبنى كثيرا ، ولكنك لست غنيا ••• لقد استيقظت أنا أيضا مشرقة المزاج فى هذا الصباح • فكنت أشعر بأننى قوية الجسم سعيدة النفس • وحين استيقظت كانت فيدورا قد بدأت، تعمل منذ مدة طويلة • وقد جاءت بشغل لى أنا أيضا ، فخرجت أشترى حريرا ، ثم شرعت أعمل على الفور • ولبثت الصباح كله أشعر بالغبطة والبهجة • ولكن ها هى ذى الخواطر السود الحزينة تعود فتستبد برأسى وتهصر قلبى •

ما عسى يقع لى يا رب ؟ ما عسى أن يكون مصيرى ؟ انه لأمر قاس على نفسى أن أجدنى حائرة هذه الحيرة ، قلقة هذا القلق ، لا أرى أمامى مستقبلا ، ولا أستطيع أن أتخيل ، ولو من بعيد ، ما قد يحدث لى بعد • أما النظر الى خلف ، فلا شجاعة لى عليه • ما من شىء فى هذا الماضى الا آلام مبرحة وعذاب شديد • ان قلبى ليتمزق تمزقا متى تذكرت • ان عينى لا تملك من الدموع ما يكفى للبكاء الى آخر أيام حياتى مما نالنى به الأشرار من أذى ، وما ألحقوه بى من ضر •

المساء يهبط • يجب أن أستأنف شغلي • كنت أود لو أقول لك أشياء أخرى كثيرة • ولكن وقتي لا يتسع ، لأن على أن أسلم الشغل في تاريخ محدد ، فلا بد من الاسراع فيه • صحيح أن الرسائل شيء رائع ، وانها تحسن الى وتسرى عني • ولكن لماذا لا تجيء الى بنفسك زائرا ؟ لماذا لا تجيء يا ماكار ألكسييفتش ؟ ان مسكنك قريب جدا الآن ، وانه ليتفق لك أن تملك لحظات من فراغ • فأرجوك أن تجيء • لقد رأيت صاحبتك تيريز • أعتقد أنها مريضة جدا • أشفقت عليها ورق قلبي لها فأعطيتها عشرين كوبكا • ها ••• نعم ••• نسيت : يجب قطعا أن تكتب الى واصفا لى حياتك ذاكرا كل ما تستطيع ذكره من تفاصيل ، من هم الناس الذين يحيطون بك ؟ هل أنت على وفاق معهم ؟ أحب أن أعرف شيئا عن كل هذا • سوف أرفع زاوية الستارة عامدة متعمدة في هذا اليوم • ثم انى أرجوك ألا تتأخر في النوم • أمس رأيت ضوءا في غرفتك حتى منتصف الليل • وداعا الآن • ان كل شيء يبدو لى اليوم حزينا عابسا داعيا الى الشجن باعثا على اليأس • وداعا •

المخلصة لك
فرفارا دوبروزيولوفا

٨ نيسان (ابريل)

سيدتي العزيزة فرفارا ألكسييفنا

حق ما قلته يا ماتوشكا ، يا صديقتي العزيزة، حق ما قلته وا أسفاه: لقد كان يوما مشئوما أضيف الى أيام حياتي الشقية ومصيري البائس • نعم ••• لقد سخرت مني سخرا جميلا يا فرفارا ألكسييفنا ، سخرت مني ، أنا العجوز المسكين • هي غلطتي على كل حال ، واني لأستحق أن

ألام . ما حاجتي ، وأنا في هذه السن وليس على رأسي من الشعر الا خصلة ، ما حاجتي الى الاندفاع في غراميات واشكالات ... يجب ان نعترف يا ماتوشكا أن الانسان كائن غريب عجيب في بعض الساعات ، غريب جدا ، عجيب جدا . رباه رباه ، أي شيطان يدفع الانسان الى الكلام أحيانا ؟ وما جدوى هذا الكلام ؟ لا يخرج من هذا الكلام شيء ، لا يخرج منه شيء البتة ، ولا يؤدي الا الى مواقف سخيفة ، حمانا الله منها ووقانا شرها . لا ياماتوشكا ، لست غاضبا ، ولكنني أشعر بغضاضة حين أتذكر ما كتبته لك ، وأحس بالخجل من اندفاعي في التعبير على ذلك النحو الغبي بذلك الأسلوب المصور . لقد مضيت الى عملي في هذا الصباح ممتلئا بحماسة خاصة . كنت قد عنيت بزينتي وهندامي ، وكان كل شيء في نفسي مشرقا . كانت نفسي فيما يشبه العيد بهجة وحبورا ، دون ما داعي الى ذلك . كنت فرحا . وأخرجت أضابيري بهمة ونشاط. فماذا أعقب ذلك كله ؟ لا شيء . ألقيت نظرة حولي ، فرأيت كل شيء في هذا المكتب كالحا حزينا على عهدي به . بقع الحبر نفسها ، الأدراج نفسها ، القراطيس نفسها . وأنا أيضا ما تغيرت ، ما زلت كما كنت ، فمالي وما للشعر اذن ؟ من أين طلع لي هذا الكلام ؟ ألأن الشمس كانت أكثر دفئا ، ولأن السماء كانت أسطع ضياء ؟ أيكون هذا هو السبب ؟ وكيف أمكنني أن أتكلم عن الأشذاء والهواء المعطر ، والله يعلم كم كان في فناء المنزل من قاذورات ، تحت نوافذ شقتنا تماما . لقد توهمت اذن أنني أتنشق تلك العطور من جنون أصابني في تلك اللحظة . أوهام ، انه ليتفق للمرء أن يخطىء تقدير ما يشعر به هو نفسه ، وأن يسترسل في ترهات سخيفة . والذنب في ذلك كله انما هو ذنب هذا الطيش في قلبنا المندفع . وعدت الى منزلي ، بل قولي : جررت نفسي جرا حتى بلغت منزلي . كان في رأسي صداع شديد أصابني فجأة من غير سبب .

هي القصة نفسها (لاشك أن هواء باردا لفح ظهري) • كنت قد انتهجت بالربيع ، فلم أرتد ملابس دافئة • ألا ما أغبـانى ، ولكنك قـد أخطأت تقدير حقيقة عواطفي قليلا ، يا صديقتي العزيزة ، فالحق أن اندفاع قلبى كان له اتجاه آخر غير ما تصورت انت له من اتجاه • ان عاطفة أبوية هي التى كانت تهزنى ، يا فرفارا ألكسييفنا ، عاطفـة أبوية محضـة ، ولا شيء غير ذلك • اننى الآن بمثابة أب لك أيتها اليتيمـة البائسة ! أكلمك هنا بصراحة كاملة ومودة خالصة ، كما يفعـل انسان يمت اليك بقربى وثيقة • ثم اننى أمت اليك ببعض القربى : هي قربى بعيدة جدا ، أعلم ذلك ، قربى تشبه الغلية السابعة للشاى ، على ما يقـول المثـل الروسى • لكننى قريبك مع ذلك ، وأنا أعد نفسى فى هذه الساعة قريبك وحاميك الأقرب ، ما دمت لم تعرفي الا الخيانة والغدر لدى من كان يجب أن يقدموا لك العون والحماية فيما أنت فيه من شـقاء • أما عن الأشـعار فيجب أن أقول لك يا ماتوشكا انه من غير الحشمة في مثـل سنى أن ينظم المرء شعرا •• ما الشعر الا هذر ولغو • وفى أيامنا هـذه يجـلد الصبيان فى المدرسة اذا هم تعاطوه •• ذلك •• فيما يتعلق بهذه النقطة يا ماتوشكا •

ولمـاذا تحدثيننى يا فرفارا ألكسييفنا عن راحة مسـكنى وهـدوء حياتي وعن أشياء أخرى من هذا القبيل ؟ لست بالانسان الكثير المطالب ياماتوشكا ، ولم تكن ظروف حياتي في ماضيات أيامى خيرا منها الآن•ففيم تكون لى مطامع ومطامح وقد بلغت هـذه السن ؟ اننى أطعم اذا جعت ، وأملك ما أشترى به كساء وحذاء • فماذا يريد أمثالنا فوق ذلك ؟ انا لم نولد أبناء كونت • لم يكن أبى من طبقة النبلاء ، ولقد عاش مع أسرته كلها حياة أفقر من حياتى ، لأنه لم يكن يكسب ما أكسب • لست بالولد الذى أفسده الدلال • ومع ذلك ، ومن أجل أن أذكر لك الحقيقة كاملة،

أعترف أن كل شيء في مسكني القديم كان خيرا من كل شيء في مسكني الآن ، ولا وجه للمقارنة بين الاثنين • كنت أشعر هناك بحرية لا أشعر بمثلها هنا • صحيح أن مسكني الحالى ليس سيئا هو أيضا ، وربما كان يوجد من البهجة هنا ما لم يكن يوجد منها هناك ، ان ها هنا شيئا من التنوع في أقل تقدير ، فلست أتذمر اذن من المسكن الجديد ، ولكني أشعر بشيء من الأسف والحسرة على القديم • اننا ، معشر الشيوخ او الذين طعنوا في السن قليلا ، نتعلق بالأشياء القديمة تعلقنا بأصدقاء قريبين كل القرب • لقد كانت الشقة الأولى ضيقة ، كما تعلمين ، وكانت جدرانها ـ ما فائدة الكلام على هذا ؟ ـ شبيهة بسائر الجدران •• ليس هذا ما أعنيه •• ولكن ذكرى الماضي تملأ نفسي حنينا وتبعث في قلبي حزنا وكآبة •• ألا ما أغرب هذا الأمر : ان قلبي منقبض ، ومع ذلك تبدو لي هذه الذكريات ممتعة • حتى ما كان يسوؤني أيامئذ من عيوب تلك الحياة الماضية بل وما كان يحنقني ويثير غيظي من تلك العيوب في بعض الأحيان، يبدو في الذكرى مبرأ من جوانبه المظلمة وينبجس في خيالي صورة مغرية جذابة • لقد عشنا هناك حياة هادئة ساكنة يا فارنكا ، أنا وصاحبة الدار ، تلك العجوز الشهمة الطيبة التي توفيت • هأنذا أعود فأشعر بالحزن حين أتذكر تلك العجوز • كانت امرأة ذات نخوة ، ولم تكن تتقاضى مني أجرا باهظا • كانت لا تني تحيك أغطية بابر طويلة ، وتضمها بعضها الى بعض قطعة قطعة • كان ذلك شغلها الوحيد • وقد اشتركنا في نفقات التدفئة ، فكان في وسعنا أن نعمل على منضدة واحدة • وكانت حفيدتها ماشا تعيش الى جانبها : لقد عرفتها طفلة ، ويجب أن تكون الآن في الثانية عشرة من عمرها • كانت صبية « عفريتة » لا تنقطع لحظة عن المرح ، وكانت تسلينا كثيرا • هكذا كنا نعيش نحن الثلاثة • وماأكثر ما كنا نتحلق حول المائدة المدورة في ليالي الشتاء الطويلة نشرب الشاي

ثم نستأنف العمل • وكان يتفق للعجوز أن تتوقف عن الحياكة أحيانا ، فتاخذ تقص على « العفريتة » بعض الحكايات لتضمن بقاءها هادئة ساكنة• ما كان أجمل الحكايات التي تعرفها ! ان رجلا ناضجا عاقلا يستطيع أن يصغى اليها بلذة لاتقل عن لذة الطفل • نعم ••• كان يتفق لى أن أشغل غليونى وأن أصيخ بسمعى الى هذه الاقاصيص حتى لينسينى ذلك عملى • أما الصغيرة ، عفريتتها اللطيفة ، فتصبح ساهمة شاردة اللب ، وقد أسندت خدها المتورد على ذراعها الدقيقة ، وفتحت فمها الصغير الجميل ، حتى اذا أخافتها القصة قليلا شدت جسمها الى جسم العجوز شدا قويا • ما كان أعظم متعتنا بالنظر اليها ! وكنا من فرط استغراقنا فى بعض الأحيان لا نلاحظ أن الشمعة توشك أن تضمحل ، ولا نسمع هبات الريح فى فناء الدار ولا اعصار الثلوج • كانت حياتنا ممتعة هنالك ، نحن الثلاثة ، يا فارنكا • قضينا معا قرابة عشرين عاما • ولكن هأنذا أثرثر خارج الموضوع •• لعل هذه الأمور لاتهمك • ثم ان هذه الذكريات تثير أشجانى وتجعلنى حزين النفس ، لا سيما فى هذه اللحظة ، ساعة الغسق •• ان تيريز تذهب وتجيء ، والصداع يحطم رأسى ، وفى ظهرى آلام أيضا • يضاف الى ذلك أن الخواطر التى تغزو فكرى غريبة شاذة ، وكأنها مريضة هى أيضا • أنا اليوم حزين يا فارنكا •• فى رسالتك نقطة تدهشنى يا صديقتى العزيزة • كيف تستطيعين أن تطلبى منى أن أجيئك زائرا ؟ ما عسى يقول الناس ، يا ملاكى الصغير ؟ هل فكرت فى هذا ؟ سيكون علىّ أن أجتاز الفناء من أجل أن آتى اليك ، فيلاحظ جيراننا ذلك، ويأخذون يطرحون الاسئلة تلو الاسئلة ، فيؤدى هذا الى ثرثرات ثم الى نمائم واشاعات ، لأنهم سيسيئون تأويل العلاقات التى بيننا•• لا ، لا ياملاكى الصغيرة ، الأفضل أن أراك غدا فى الكنيسة عند الصلاة فى الغروب • ذلك أقرب الى العقل والحكمة ، وأبعد عن المخاطر لنا كلينا ••• لا

تؤاخذيني، ياماتوشكا ، على هذه الرسالة المضطربة المشوشة • لقد أدركت حين أعدت قراءتها انني خبطت فيها خبط عشواء • ما أنا ، يا فارنكا ، الا رجل عجوز بلا ثقافة ! لم يتح لى أن أحصل فى صغرى قسطا كافيا من العلم ، وما في مثل سني يستطيع المرء أن يثقف نفسه : ففي هذه السن لا تدخل الأشياء رأس الانسان بسهولة • أنا أعلم يا ماتوشكا أنني غير حاذق في فن الكتابة ، ولست أجهل ، دون أن ينبهني أحد الى ذلك ساخرا مستهزئا ، أنني لا أزيد على أن أراكم السخافات فوق السخافات حين أنقطع لكتابة عبارات أرفع قليلا ••• رأيتك اليوم في النافذة ، رأيت كنت أسدلت الستارة • وداعا وداعا • أسأل الله أن يكلأك برعايته ، وداعا يا فرفارا ألكسيفنا •

صديقك المخلص
ماكار ديفوشكين

حاشية : لست أهجو أحدا يا صديقتي العزيزة • أنا رجل عجوز يا ماتوشكا ، يا فرفارا ألكسيفنا ••• وهل لعجوز أن يتسلى بأن يكون شريرا بغير داع ولا سبب ! ثم انني لو فعلت لسخر الناس مني ، على حد قول المثل الروسي القديم « من حفر حفرة لغيره وقع فيها •• » •

عزيزي السيد ماكار ألكسييفتش

كيف لا تستحي يا ماكار ألكسييفتش ، يا صديقي الطيب ، يا من تحسن الي وتنعم علي ، كيف لا تستحي أن تغضب هذا الغضب كله وأن تستاء هذا الاستياء كله دون ما سبب ؟ هل صحيح أنني جرحت شعورك ؟ واأسفاه ، انه ليتفق لى أن أكون طائشة قصيرة النظر ، قليلة التروي ، ولكن لم يخطر ببالي أبدا أنك ستحمل أقوالي محمل الغمز والسخر •

ثق اننى لن اسمح لنفسى يوما بان أمزح فى امر سنك وطبعك • ان مرد هذا كله الى خفتى وطيشى ، ولا سيما الى الضجر الرهيب الذى أشعر به ، الى السأمة المضنية التى تاخذ بخناقى ••• وانت تعلم الى اين يمكن ان يدفع بالمرء ضجره وسامه • وكنت قد قدرت ، من جهتى ، انك انت أيضا كنت تمزح فى رسالتك • ولكننى حزنت حزنا شديدا بعد ذلك ، حين أدركت أنك استأت منى • لا يا صديقى الطيب ، يا من تحسن الى ، وتنعم على ، انك تخطىء اذا ظننتنى عديمة الاحساس عاقة قليلة الوفاء • اننى فى اعماق قلبى أعرف كيف أقدر كل ما فعلته من أجلى ، حين حميتنى من الاشرار ، حين نجيتنى من اضطهادهم ومن بغضهم وكرههم • لسوف أظل أدعو لك الله ما حييت ، فاذا وصل دعائى الى السماء واستجاب الله له ، عشت سعيدا •

أشعر اليوم بأننى مريضة جدا • ان بى حمى تتخللها قشعريرات • فيدورا قلقة علىّ أشد القلق • تخطىء اذا تحرجت من زيارتنا • هذا أمر لا شأن لأحد من الناس به • أنت صديق لنا وكفى ••• وداعا يا ماكار ألكسييفتش • ليس عندى ما أقوله الآن غير هذا ، ولا أستطيع الآن أن أكتب أكثر مما كتبت ، لأننى مريضة متعبة جدا • أرجوك مرة أخرى أن لا تؤاخذنى ، وأن تثق كل الثقة بالاحترام الذى ستشرف بالشعور به نحوك دائما خادمتك الوفية المخلصة :

فرفارا دبروزيولوفا

١٢ نيسان (ابريل)

ماذا جرى لك يا ماتوشكا ؟ انك تسببين لى قلقا لا يهدأ ولا ينقطع ، اننى أضرع اليك فى كل رسالة من رسائلى أن تعتنى بنفسك ، وأن

تتدثري بملابس دافئة وألا تخرجي في غير أيام الصحو وأن تكوني محاذرة في كل أمر من الأمور ، ولكنك لاتريدين أن تطيعيني يا ملاكي الطيب ، حقا انك لطفلة يا حمامتي الصغيرة • ان جسمك ضعيف واهن ، انك اشبه بعصافة قش ، أعلم ذلك ، يكفي أن تهب عليك نسمة هواء حتى تمرضي • لذلك يجب أن تداري نفسك ، وأن تراعي صحتك ، وأن لا تتعرضي للخطر ، وأن لا توقعي أصدقاءك في الحزن والشجن والألم • تقولين لي يا ماتوشكا انك ترغبين في معرفة مجرى حياتي معرفة دقيقة صحيحة ، وفي معرفة كل ما يحيط بي • انه ليسعدني أن أسارع الى تلبية رغبتك يا صديقتي العزيزة • وسأبدأ بالبداية ، اذ لا بد من شيء من الترتيب • هذا مدخل المنزل أولا : انه ملائم جدا ، والسلالم لا مأخذ عليها ، ولا سيما السلم الخاص بالسادة ، فهو نيِّر واسع عريض ، لا يقع بصرك فيه الا على معدن وخشب من شجر الاكاجو • أما سلم الخدمة فمن الخير ألا أقول عنه شيئا : انه لولبي ، وهو الى ذلك رطب قذر ، ودرجاته مهشمة نصف تهشيم • يضاف الى هذا أن جدرانه تبلغ من انطلائها بالدهن أن اليد تلتصق بها اذا هي استندت عليها • وعلى كل فسحة من فسحاته بقايا أثاث قديم ، فالحقائب والكراسي والخزائن مبعثرة فوضى ، والخرق البالية منثورة هنا وهناك ، وزجاج النوافذ محطم ، وفي الأركان صناديق ملأى أوساخا ونفايات وقشور بيض وأحشاء سمك • رائحة كريهة • الخلاصة : شيء ليس بالجميل جدا •

وقد سبق أن وصفت لك وضع الغرفة • لا مأخذ على الغرفة • انها مريحة جدا والحق يقال • ولكن المرء يشعر فيها بشيء من الاختناق • كيف أصف لك ذلك ؟ ليس معنى هذا ان الرائحة كريهة • غير أن المرء يحس بشيء من عفونة ، بشيء من نتن حاد • فيضيق ذرعا بهذا الاحساس في أول الأمر • ولكن هذا الاحساس ما يلبث أن يزول بعد بضع دقائق

من المكوث فى المنزل ، دون أن يشعر المرء بزواله • ذلك أن الرائحة التى أحدثك عنها سرعان ما تنفذ الى الشخص نفسه • فاذا رائحته كلهـا هى هذه الرائحة نفسها ، فملابسه ، ويداه تصبح لها هذه الرائحة ذاتها، فلا يلاحظها بعد ذلك لأنه يألفها • البلابل تموت فى منزلنا واحدا بعد آخر • اشترى الضابط البحار بلبلا خامسا منذ قليل • ولكن هذه الطيور لا تستطيع أن تعيش فى هواء منزلنا • فى الصباح تمتلىء الدار بالدخان طبعا ، وذلك حين يقلى اللحم أو يطبخ السمك • ثم ان أرض المنزل مبللة فى مواضع كثيرة ، بالماء تارة ، وبالمرق تارة أخرى • أما فى المساء فمنزلنا جنة حقا • وهناك حبل فى المطبـخ يعلق عليه غسيل عتيق • ولمـا كانت غرفتى غير بعيدة عن المطبـخ ، او مجـاورة للمطبخ ، فان رائحة هـذا الغسيل تضايقنى أحيانا • ولكن ذلك كله لا قيمة له • فان المرء يعتاده بمضى الزمن شيئا فشيئا •

ومنذ الساعات الأولى من الصباح يقوم المنزل ويقعد يافارنكاه الناس ينهضون ويسيرون ويحدثون ضجة كبيرة • جميع الذين يجب أن يذهبوا الى العمل يسرعون • والاخرون يستيقظون ايضا • وهم يشربون الشاى جميعا فى هذه اللحظة • وأباريق الشاى (السماور) تملك صاحبة البيت أكثرها ، ولما كان عددها قليلا ، فنحن نحتسى الشاى واحدا بعد آخـر • فاذا تقدم أحدهم بفنجانه قبل أن يجىء دوره تلقى لطمات تلو لطمات • وهذا ما حدث لى فى اليوم الأول ، لأننى لم أراع هذا النظام فيما يظهر ••• ولكن فيم الكلام على هذا الآن ؟ لقد تعرفت على جميع جيرانى ، عقدت حديثا فى أول الأمر مع الضابط البحار • انه انسان صريح جدا حكى لى قصة حياته ، حدثنى عن أبيه ، عن أمه ، عن أخته التى تزوجت قاضيا من تولا ، ووصف لى مدينة كرونشتاد . وعد بمساعدتى وحمايتى فى كل أمر ، ودعانى الى تنـاول الشاى فى غرفتـه • ذهبت إليـه • انها

الغرفة التي اتخذت مقرا للعب بالورق في منزلنا • قدموا الى شيئا من الشاي ، وأرادوا أن يدفعوني الى مشاركتهم في اللعب دفعا • لا أدري هل كانوا يسخرون مني آنذاك • ولقد ظلوا يلعبون طوال الليل بغير توقف • كان اللعب في أوج اشتداده حين دخلت الغرفة : فما رأيت في أول الأمر الا الطباشير وورق اللعب ، لأن الغرفة كانت ملأى بدخان السجائر ، حتى لقد أحسست من ذلك بألم في عيني • وحين رفضت أن أشاركهم اللعب وصفوني بأنني أتفلسف ، ثم لم يخاطبني أحد منهم بعد ذلك بكلمة واحدة ، والحق أن ذلك لم يسوءني • لن أذهب اليهم في المستقبل • هؤلاء أناس مقامرون لا يخطر ببالهم شيء غير القمار ، ولا يفكرون في شيء غير هذا اللعب الذي يقوم على المصادفة • وفي غرفة الموظف في الادارة الأدبية تنعقد اجتماعات في المساء أيضا ، ولكن كل شيء هنالك طيب محتشم بريء يفيض رهافة وذوقا وسموا •

يجب أن أذكر مع ذلك عابرا يا فارنكا ، أن صاحبة البيت امرأة شريرة بل ساحرة شمطاء • لقد رأيت تيريز • ان منظرها يثير الرحمة ويبعث على الشفقة حقا : انها من فرط هزالها تشبه أن تكون دجاجة مصدورة نتف ريشها • وفي البيت خادمان فقط : تيريز ، وفالدوني خادم صاحبة البيت • ربما كان له اسم آخر ، لكنني لا أعرفه ، لأنه ينادى بهذا الاسم دائما • جميع من في المنزل ينادونه بهذا الاسم • انه أحمر اللون ، عجيب الجسم ، معقوف القامة ، أفطس الأنف ، شرس الطبع ، فظ الخلق ، لا يني يتشاتم مع تيريز ، حتى ليصل الأمر بهما الى حد التماسك بالأيدي • بوجه عام ، لا أستطيع أن أقول ان حياتي هنا ممتعة من جميع النواحي ••• أما عن الليل ، فلا يتفق لى أبدا أن أستطيع النوم فورا في هدوء وراحة • لا يخلو المنزل لحظة من ضجة تقوم هنا أو هناك ، فتارة يأتي الصخب من غرفة المقامرين ، وتارة ينبعث من أمور

اخرى تجري هنا ويستحي المرء ان يرويها • لقد تعودت بعض التعـود الان ، ولكن يدهشني حقا ان يستطيع اناس لهم اولاد ان يعيشوا فى هذا المكان الذى يشبه مدينة سودوم • ان هناك اسرة بكاملها من البؤساء قد استأجرت غرفة من صاحبة الدار • غـير أن غرفتهم لا تقع الى جانب الغرف الأخرى • فهى فى آخر الدهليز ، فى ركن يشـــبه أن يكون منعزلا • انهم أناس هادئون كل الهدوء ، لا يسمع لهم صـوت قط • يعيشون جميعا فى غرفة واحدة شطروها بحاجز شطرين • يبــدو أن الأب موظف بلا عمـــل ، صرف من الخدمة لسبب أجهــله • اسمه جورشكوف • انه قصير القامة ، أشيب الشعر ، يرتدى ملابس تبلغ من القذارة والبلى ان منظرها يؤلم النفس • ملابسه خلقة بالية أكثـر من ملابسى ، ان هيئته الرثة تبعث على الشفقة ، وتدل على انه مريض (يتفق لى أن أصادفه فى الدهليز) • ركبتاه تصـطكان ، ويداه ترتعشـــان ، ورأسه يرتجف ، كأن به مرضا خاصا • الله أعلم • وهو خجول شديد الخجل ، يخشى لقاء الناس ، ويمشى محاذرا لا يجب أن يلمحه أحد • أنا أيضا خجول ، ولكن هذا الرجل أشد خجلا منى • تتألف أسرته من امرأة وثلاثة أولاد • أكبرهم صبى هو صورة أبيه ، لا يقل عنه نحولا وهزالا • أما المرأة فيبدو أنها كانت فى المـاضى على جانب من جمـال ما يزال يلمح الى الآن ، ولكنها رثة الثياب رثاثة تثير الشفقة • وقد قيل لى انهم اقترضوا مالا من صاحبة البيت ، وهى قاسية عليهم غير لطيفة فى معاملتهم • وسمعت أيضا أن جورشكوف يعـانى من مصـاعب هى سبب بطالته • الأمر أمر دعوى أو ملاحقة قضائية ، بل هو أمر تحقيق ادارى فيما يبدو • غرفتهم هادئة دائما ، تبلغ من الهدوء أن المرء لا يخطـــر بباله أن يكون فيها سكان • حتى الأطفال لا يحدثون صخبا ، فما يسمعهم أحد يصرخون أو يركضون ، وتلك علامة سيئة • لقد اتفق أن مررت

أمام بابهم ذات مساء • كان ذلك في لحظة هدأ فيها المنزل على غير عادته• فسمعت تأوهات كأنها دشيج مخنوق ، ثم سمعت همسات ، فنشيجا من جديد • كان هناك أحد يبكي ولكن بصوت خافت مزق قلبي أسى وشفقة وقبض صدرى شجى وحزنا ، ثم لم تفارق صورة هؤلاء البؤساء خيالى لحظة طول الليل ، ولم أستطع أن أنام الا بعد لأى •

الوداع يا صديقتى الغالية • يا صغيرتى فارنكا • لقد وصفت لك حياتى كما استطعت • اننى لم أزد على أن أفكر فيك طوال النهار • قلبى يتحطم يا عزيزتى الغالية حين استعرض الوضع الذى انت فيه • انك تفتقرين حتى الى معطف تتدثرين به ، أنا أعرف ذلك يا حياتى • آه من ربيع بطرسبرج هذا ! •• آه من هذه الرياح وهذه الأمطار التى يخالطها ثلج ! ••• تلك لعنة يا فارنكا • هذا جو لا يطاق • وقانا الله شر هذا المناخ الردىء • لا تؤاخذينى يا روحى ، يا صغيرتى ، اذا رأيت رسالتى مضطربة هذا الاضطراب • ان أسلوبى ركيك يا فارنكا ، ركيك جدا • ألا ليتنى أجيد الكتابة بعض الاجادة • اننى أقول ما أقول عفو الخاطر••• لا هم لى من ذلك الا أن أسليك قليلا ••• ولو كنت قد تعلمت فى صغرى اذن لاختلف الحال • ولكن أين كان فى وسعى أن أتعلم ؟ ••• كنت أفقر من أن أستطيع الدراسة •

صديقك المخلص الوفى ، صديقك الى الأبد

ماكار دييفوشكين

٢٥ نيسان (ابريل)

عزيزى السيد ماكار الكسيفتش !

التقيت اليــوم بابنة عمي ساشا ، يا للهـول ! انها تدلف الى الذبول والهــلاك هي أيضا ؟ ولقد علمت كذلك من جهـــات مختلفــة ان أنا فيودوروفنا ما تزال تسأل عني وتستطلع أخباري • ترى ألن تكف هذه المرأة عن تعذيبي واضطهادي ؟ هي تدعي أنهـا مستعدة أن تصـفح عني وتغفر لي ، أن تنسى الماضي ، وأن تأتي تزورني بنفسها • وهي تؤكد أنك لا تمت اليّ بأية قرابة ، وانها أقرب اليّ منـك ، وانك لا تملك حـق التدخل في علاقاتنا العائلية ، وان من العار عليّ بل من المشــين لي أن أعيش على برّك واحسانك بقبولي معونتك المادية ••• انها تصفني بأنني نسيت خيراتها عليّ ، ونسيت الخبز الذي طعمته في بيتها ، وتقول انهـا أنقذتنا أنا وأمي يوم كنا نوشك أن نموت جـوعا ، وانها آوتنا وأطعمتنـا وأرهقت نفسها في سبيلنا طوال عامين ونصف عام ، وانها فوق ذلك كله قد أعفتنا من سداد المال الذي ندين لها به • انها لا تراعي حتى حرمة أمي ! آه لو اسـتطاعت أمي المسـكينة أن تعـلم بكل ما صنعوه بي ••• وتدعي آنا فيدوروفنا أيضا انني لم أعرف كيف أحافظ على سعادتي ، وان حماقتي هي السبب في ذلك ، وانها أرادت أن تسعدني ، ولكنها غير مذنبة في ماحدث بعد ذلك ، لأنني لم أعـرف وربما لم أشـأ أن أحمي شرفي وأدافع عنه • من المذنب اذن يارب ؟ انها تؤكد أن بيكوف على حق تماما ، وأن الرجل لا يتزوج أول امرأة تعرض له • ولكن فيم أنقل اليك هذا الكلام ؟ انه ليشــق على نفس المرء أن يســمع مثل هــذه الأقوال الظالمة يا ماكار ألكسيفتش • لا أدري ماذا ينتــابني الآن ، ان جســمي كله يرتعش ، وانني أبكي وأنتحب • أنفقت ساعتين في كتابة هذه الرسالة

لك . كنت أحسب ان هذه المرأة ستعترف على الأقل بما ارتكبته من أخطاء في حقي ، فانظر كيف تتصرف الآن ! ناشدتك الله لا تقلق ولا تعذب نفسك يا صديقي ، يا صديقي المخلص الوحيد . ان فيدورا تبالغ دائما : فما أنا بمريضة . كل ما في الأمر ان بردا أصابني آمس فسبب لي زكاما فيما كنت ذاهبة الى فولكوفو لحضور صلاة الموتى التي أقيمت احتفالا بذكرى أبي . لماذا لم تجيء معي ؟ ألم أتوسل اليك أن تجيء ؟ أماه ، أماه المسكينة ، ليتك تستطيعين أن تخرجي من قبرك فتعرفي وترى ما صنعوه بي ...

ف.د

٢٠ أيار (مايو)

حمامتي ، عزيزتي الصغيرة فارنكا !

أبعث اليك بقليل من العنب يا يمامتي . يقال ان أكل العنب مفيد أثناء النقاهة ، ثم ان الطبيب ينصح به ارواء للظمأ ، فكليه ارواء للظمأ وحده ؛ ولقد اشتهيت منذ أيام قليلا من الخبز الصغير الأبيض . فهأنذا أرسل اليك منه أيضا يا ماتوشكا . هل تشتهين الطعام يا حياتي ؟ هذا هو الأمر الهام . على كل حال لقد انتهى المرض والحمد لله ، انقضى ، وستزول جميع آلامنا زوالا تاما . فلنشكر لله نعماءه ، أما عن الكتب فقد استحال عليّ أن أحصّل شيئا منها حتى الآن . يقال ان في منزلنا كتابا رائعا كتب بأسلوب جميل . يزعمون انه كتاب شائق جدا . لم يتح لي أن أقرأه . ولكنهم يمدحونه كثيرا هنا . وقد وعدوني به . ولكن هل ستقرئينه ؟ انني أعرفك يا ملاكي ، وأعرف انك صعبة في هذا المجال ، فليس يسهل الوصول الى ارضاء ذوقك دائما . لا شك انك تنشدين

شعرا وآهات وغزلا ••• فليكن لك ما تريدين ••• سأحصل لك على قصائد ، سأجد ما أنت فى حاجة اليه • لقد رأيت فى أحد الأماكن دفترا مليئا قصائد شعر • حياتى ممتعة جدا • لا تقلقى على يا ماتوشكا ، أرجوك• ان ما روته لك عنى فيدورا ليس الا هذرا • قولى لها انها كذبت ، قولى هذا الكلام حتما لهـذه النمامة ••• لم يخطـر ببالى أبدا أن أبيع ردائى الجـديد ، وعـلام أبيعـه ؟ فكرى فى الأمر ، ماحاجتى الى بيعـه ؟ اننى سأتقاضى مكافأة قدرها أربعون روبلا فيما يقال • فعلام أبيع ردائى والحالة هذه ؟ لا تقلقى يا ماتوشـكا • فيدورا انسانة متشـائمة ، تحمل كل شيء محمل الفاجعة والمأساة • لسوف نعيش سعداء يا يمامتى • شريطة أن تبلى من مرضك • ناشدتك الله الا أبللت ••• لا تحزنى رجلا عجوزا • من ذا الذى زعم لك أننى قد هزلت ونحلت ؟ باطل هذا الكلام ، باطل ، ان صحتى جيدة جدا ، حتى لقد سمنت ، وبلغت من السمنة ما يجعلنى أخجل من نفسى • اننى أطعم متى جعت ، وأنا مسرور مبتهج ، وعندى وفرة من كل شيء • المهم أن تبلى من مرضك يا ملاكى الصغير ! الوداع الآن ! أغمر بالقبل أناملك الصغيرة وأبقى الى الأبد :

صديقك الوفى ، صديقك المخلص

ماكار دييفوشكين

حاشية : ما هذا الذى كتبته لى يا حياتى ؟ ذلك طيش يا عزيزتى ! كيف تراك تفكرين فى الأمر ؟ كيف يمكننى أن أكثر زياراتى ياماتوشكا الى الحد الذى تتصورينه ؟ قد أستطيع زيارتك ليلا بحيث لا يرانى أحد• ولكن أين الليل فى هذا الفصل ؟ ثم اننى لم أكد أترك سريرك ، ياملاكى الطيب ، طوال مدة مرضك ، ولا سيما أثناء الغيبوبة التى كنت فيها • اننى

لا أدرى كيف استطعت أن أرتب أمورى بحيث وصلت الى ذلك. ولكننى آثرت أن أقطع زياراتى بعدئذ . لقد بدأ الناس يستطلعون ويلقون الأسئلة ، حتى لقد أخذت الألسنة تلوك بعض الاشاعات هنا . اننى أعتمد على تيريز ، فهى امرأة كتوم لا تفشى الأسرار . ولكننى أحتكم اليك أنت يا ماتوشكا ، ما عسى يحدث اذا عرفوا كل شيء عن علاقاتنا ؟ ماعساهم يظنون وما عساهم يقولون ؟ عليك بالصبر اذن يا ماتوشكا ، وتجملى بالشجاعة ، وانتظرى حتى تبلى من مرضك ، وبعد ذلك نرتب أمورنا بحيث نلتقى فى مكان خارج المنزل .

١ حزيران (يونيه)

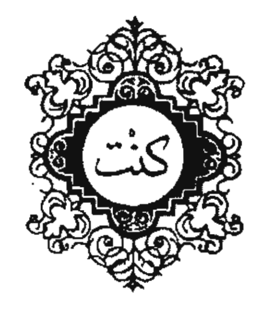
عزيزى الغالى جدا ماكار الكسييفتش !

لرغبتى الشديدة فى أن أفعل شيئا يسرك ، جزاء ما تحملت فى سبيلى من عناء كبير ، وما عانيت من هم شديد ، وجزاء ما محضتنى من عاطفة صادقة ، فقد قررت أخيرا فى لحظة من فراغ أن أنبش دروج خزائنى لأعثر فيها على هذا الدفتر الذى أرسله اليك الآن ، والذى سجلت فيه بعض ذكرياتى . لقد بدأت كتابة هذه الذكريات فى عهد كان مايزال سعيدا من حياتى . لطالما سألتنى عن حياتى الماضية وعن أمى وعن بوكروفسكى ، وعن اقامتى فى منزل آنا فيدوروفنا ، وعما لقيت أخيرا من شقاء ، وقد بلغت من شدة شوقك الى قراءة هذا الدفتر الذى لايعرف الا الله كيف خطر ببالى ان أروى فيه قصة بعض ساعات حياتى ، انك

واجد فى قراءته ريا لظمئك ما فى ذلك ريب ؛ لذلك أبعث به اليك •
أما أنا فقد شعرت بحزن شديد حين أعدت قراءته • يخيل الى أن سنى قد تضاعفت مرتين منذ كتبت آخر سطر من سطوره الى الآن • ان المشاعر التى يتحدث عنها هذا الدفتر قد سجلت فى فترات مختلفة • وداعا ياماكار ألكسيفتش • اننى أشعر بسأم شديد وضجر رهيب ، وكثيرا ما أظـل مسهدة طوال الليل لا يعرف جفنى سبيلا الى النـــوم • ألا انها لنقاهة حزينة شجية •

ب• د

١



قد أتممت الرابعة عشرة من عمري حين مات ابي •
كانت طفولتي أسعد فترات حياتي • لقد بدأت
طفولتي في مكان بعيد عن هنا ، بعيد عن هذه
المدينة • بدأت في مقاطعة نائية من الريف • كان
أبي ناظرا على أملاك الأمير ب ، في حكومة ت • كنا نعيش في قرية من
تلك القرى التي يملكها الأمير ، وكانت حياتنا في تلك القرية تجرى على
هون هادئة سعيدة ••• كنت عندئذ صبية جمة النشاط كثيرة الحركة ،
أقضي وقتي راكضة بين الحقول ، مطوفة في الغابات والآجام ، أو متنزهة
في الحديقة • ولم يكن أحديهتم بي أو يلتفت الي •• فأبي دائم الانصراف
الى أعماله وأمي تستغرق عنايتها بالمنزل وقتها كله • ما كانوا يعلمونني
شيئاً ، بل كانوا يدعونني وشأني حرة طليقة ، وكنت سعيدة بذلك كل
السعادة • وكان يتفق لي في بعض الأحيان أن أهرب من البيت في ساعة
مبكرة من الصباح فأمضي الى الغدير أو الى الغابة، أو أذهب أرى الأعلاف،
أو أجري الى الحصادين أختلط بهم وأشاركهم عملهم ، غير عابئة بالشمس
التي تحرقني غير خائفة أن أضل طريقي اذا ابتعدت عن القرية ، أو أن

تخدشني أشواك العوسج وأن تمزق ثوبي • ولهذا كانوا يؤنبونني ويقرعونني حين أعود الى البيت ، فلقد كنت لا أبالي ذلك ولا أحفل به •

يخيل الى أنني لو أتيح لى أن أبقى في الريف طول حياتي وأن أعيش في ذلك المكان عمري كله لكنت سعيدة كل السعادة • ولكنني اضطررت أن أترك تلك المراتع الجميلة العزيزة على نفسي وأنا ما أزال طفلة • كنت في الثانية عشرة من عمري حين سافرنا الى بطرسبرج • ما أشد الحزن الذي أشعر به الآن حين أتذكر استعداداتنا الشاقة الاليمة للسفر ! ما أكثر ما ذرفت من دموع حين ودعت كل ما كان حبيبا الى قلبي ! أذكر انني ارتميت على عنق أبي أضرع اليه والدموع تترقرق في عيني ، أن يدعني في القرية بعض الوقت • فغضب مني أبي ، وأخذت أمي تبكي ، وقالت لى ان سفرنا أمر لا بد منه ، فأعمالنا توجبه وتقتضيه ، فلا مناص من السفر • لقد مات الأمير العجوز ب ، ففسخ ورثته العقد الذي كان مبرما بينه وبين أبي • وكنا نملك شيئا من مال عهد به أبي الى بعض الأفراد في سان بطرسبرج • ولما كان يأمل أن يحسن وضعه ، فقد رأى أن من اللازم أن يسافر الى تلك المدينة بنفسه • ذلك كله قد علمته من أمي • واستقر بنا المقام على الشاطىء الأيمن ، ولبثنا مقيمين هنالك الى أن مات أبي •

لشد ما لقيت من عناء حتى أتلاءم مع حياتنا الجديدة • وصلنا الى سان بطرسبرج في أوج الخريف • كان الجو في القرية يوم غادرناها رائعا ، فالهواء رائق ، والمناخ دافىء ، والشمس مضيئة • وكانت أعمال الحصاد تشارف على النهاية • فبيادر القمح تتجمع أكواما كبيرة ، وأسراب الطيور تحوم حولها مزقزقة • كان كل شيء يبدو مرحا فرحا ينبض سعادة • حتى اذا وصلنا سان بطرسبرج استقبلتنا الأمطار وصقيع الخريف والضباب والوحل وهذا الجمهور من الناس الذين لا نعرفهم يجرون في

الشوارع عابسين مقطبين مزورين مستائين ، واستقررنا كيفما اتفق ••• ما زلت أذكر كيف كنا فى الأيام الأولى نذهب ونجيء بغير توقف ولا انقطاع اذ كان علينا أن نهيىء مسكننا الجديد •

كان أبى فى خارج البيت دائما ، وكانت أمى لا تملك من وقتها دقيقة واحدة ، و نسيت أنا نسيانا تاما • ماأشد الحزن الذى اعترانى حين نهضت من نومى بعد الليلة الاولى التى قضيناها فى منزلنا الجديد ! ان نوافذ المنزل تطل على سياج أصفر اللون ، والشارع قذر دائما ، لا يمر به الا قليل من الناس ، وهم يرتدون جميعا ثيابا دافئة ، ويظهر فى وجوههم أنهم مقرورون •

وفى منزلنا يرين الضجر وتسود الكآبة من الصباح الى المساء • لم يكن لنا أصدقاء أو أقرباء • أما آنا فيدوروفنا فكان أبى تشاجر معها (كان يدين لها بمبلغ من المال) ، وكثيرا ما كان يجيئنا زوار لأعمال • فكان هؤلاء الزوار يحملون الى المنزل شجارا وصياحا وزعيقا • وكان أبى بعد كل حديث من الأحاديث التى تجرى بينه وبينهم يصبح مكفهر الوجه سريع الغضب ، ولا ينى يسير من أول الغرفة الى آخرها ذاهبا آيبا ساعات طوالا ، وقد قطب حاجبيه ، وصمت صمتا مطبقا لا يتجه الى أحد بكلمة • وكانت أمى لا تجرؤ أن تخاطبه فى مثل تلك اللحظات ، فهى تلزم الصمت ولا تنبس بحرف • وكنت أنا أجلس فى ركن مع كتاب من الكتب ، لا أتحرك مخافة أن ألفت الانتباه اذا أنا تحركت •

وبعد وصولنا سان بطرسبرج بثلاثة أشهر أدخلت مدرسة داخلية فما أشد ما شعرت به من حزن فى أول الأمر بين غرباء ! كان كل شيء يبدو لى هنالك باردا معاديا • فالمربيات لا يزدن على أن يصحن طول الوقت ، والبنات لا ينقطعن عن الاستهزاء بى والسخر منى ، وأنا بين هؤلاء وأولئك فى تلك الآونة متوحشة شديدة التوحش • انهن قساة عتاة،

يندفعن الى التوبيخ والتقريع لأتفه الأمور وأيسر الأسباب • وكل شيء يجرى هنالك على نظام دقيق ومواعيد ثابتة جامدة • والطعام مشترك والاساتذة مملون مضجرون • شعرت في الأشهر الأولى بأنني مصعوقة كانني أسحق سحقا • أصبحت لا أستطيع أن أنام • وكان يتفق لى أن أظل أبكي طوال الليل ••• وكانت الليالى تنقضي طويلة كئيبة باردة • مازلت أرانى فى بعض الأماسى ، ساعة تحضّر التلميذات دروسهن للغد، جالسةً أمام دروسى لا أجرؤ أن أتحرك ، وقد انصرف ذهنى الى غير ذلك ، ورحت افكر فى منزلى ، فى ابى ، فى امى ، فى مرضعتى العجوز، فى الحكايات الجميلة التى كانت تقصها على ••• آه ما أشد الحزن الذى كان ينتابنى فى تلك اللحظات ! ان أيسر أمر من الأمور التى لها صلة بحياتى فى المنزل كان يبدو لى جميلا أخاذا حين أتذكره فجأة • كنت أحلم قائلة لنفسى : ما اجمل الحياة فى منزلنا الان ! ما أجمل أن أكون الآن مع أهلى فى الحجرة الصغيرة أمام السماور ! ما أجمل ان أقبل امى قبلات حارة وأن أشد جسمى اليها شدا قويا ! هكذا كنت أحلم ثم أطفق أبكى من الحنين بكاء صامتا ، فأخنق النشيج لا أدع له أن ينطلق من صدرى • ولم أكن أستطيع أن أحفظ دروسى •• « لن أستطيع الاجابة غدا اذا ألقى علىّ الاستاذ سؤالا » وكنت أظل أحلم طول الليل بالاستاذ، و « المدام » والبنات ، وأكرر دروسى وأنا نائمة ، حتى اذا جاء الغد ودخلت الصف رأيتنى لا أعرف شيئا ولا حفظت شيئا • فكنت أعاقب بالركوع والحرمان من الطعام • وصرت فتاة حزينة أشد الحزن ، برمة بالحياة أشد البرم • كانت التلميذات فى أول الامر يهزأن بى ويسخرن منى ، ويماحكننى ، ويتسلين ببث الاضطراب فى نفسى حين أتلو دروسى، ويقرصننى حين نصطف لنذهب الى الغداء أو العشاء ، ويشكيننى الى الناظرة بغير ذنب اقترفته وبغير داع الى ذلك • وفى مقابل هذا ، ما كان

أروع الجنة التي أحس أنني أدخلها حين كانت تجيء الى مرضعتي في مساء يوم السبت لتقودني الى المنزل ! كنت أكاد أختنق وأنا اضمها الى صدري فرحا ... يا لها من عجوز رائعة ! ... كانت تلبسني ثيابي ، وتدثرني بما يقيني البرد ، ثم تتحمل عناء كبيرا من أجل ان تستطيع مجاراة خطواتي في الشارع بينما أنا أثرثر بغير توقف قاصة عليها جميع تفاصيل حياتي . وكنت أصل معها الى البيت فرحة مرحة سعيدة ، فأقبل أهلي مندفعة أشد الاندفاع كأنني لم أرهم منذ عشر سنين . ويأخذ الجميع يتكلمون ويسألون ويحكون . وآخذ أحييهم واحدا واحدا ، وأضحك مقهقهة ، وأركض هنا وهناك ، وأقفز وأتواثب في كل ركن من أركان الغرفة . وكان أبي يسألني في أمور هامة ، ويكلمني عما أحرز من تقدم في اللغة الفرنسية ، وعن كتاب قواعد اللغة الفرنسية (من تأليف لومون) فكنا نشعر في مثل تلك الأمسيات بكثير من الفرح والبهجة . ما زلت حتى اليوم أغتبط حين أستحضر هذه الذكريات . كنت أبذل قصارى جهدي من أجل أن أنجح في دراستي ارضاء لأبي . كنت أرى انه ينفق في سبيلي آخر ما يملك من دريهمات ، مع أن حالته المالية كانت تتدهور وتتعقد . وكان هو يزداد عبوسا وتجهما يوما بعد يوم ، ويزداد سرعة الى الاهتياج والغضب والحنق ، حتى فسد طبعه وساء مزاجه تماما . كانت ديونه تتكاثر تكاثرا رهيبا . ان أمي تخشى في بعض الأيام أن تبكي مخافة أن تزيده اهتياجا ، بل انها تمتنع حتى عن الكلام ، وسرعان ما أصبحت تبدو مريضة ، فهي تهزل هزالا واضحا ، وهي تسعل سعالا سيئا لايخطىء المرء تفسيره . فكنت في تلك الفترة حين أجيء من المدرسة الداخلية زائرةً أهلي، لا أرى الا وجوها حزينة : أمي تبكي في رفق وهدوء ، وأبي يثور ويغضب . وأصبحت هذه الزيارات لا تشتمل الا على ملامات وتقريعات . فأبي يصرح بأنني لا أحمل اليه أي فرح أو أي عزاء ، ويقول

انهما ، هو وأمي ، يحرمان نفسيهما من كل شيء في سبيل تعليمي ، ثم أنا لا أتعلم الكلام باللغة الفرنسية ! الخلاصة ان أبي أصبح يلقي على ظهرنا ، أنا وأمي ، تبعة كل ما يلقى من ضروب الاخفاق ، وكل ما يعاني من صنوف الشقاء . كيف كان يستطيع أن يعذب أمي هذا التعذيب كله ؟ كان قلبي يتمزق تمزقا حين أنظر اليها في بعض الأحيان ! لقد خسف خداها وغارت عيناها وأصبح لون وجهها ينم عن مرض السل . ولكن غضب أبي كان ينصب عليّ أنا خاصة : يبدأ في أول الأمر من أجل أمور تافهة ، ثم لا يزال يشتد ويشتد الى أن يبلغ اقصى حدود الغيظ والحنق. حتى لقد كنت في بعض الأيام لا أفهم ما الذي يحنقه هذا الحنق كله . ما أعجب ما كان يسمعني من كلام في مثل تلك المناسبات ! كان يقول ان تعلمي اللغة الفرنسية لا يسير سيرا حسنا ، وانني غبية بلهاء ، وان مديرة مدرستنا الداخلية ليس في رأسها دماغ وانها لا تعنى بتربية أخلاقنا وتهذيب نفوسنا ، وانه – أي أبي – يبحث عن عمل فلا يجد عملا ، وان كتاب قواعد النحو (من تأليف لومون) لا يصلح ، وان كتاب زابولسكي يفضله كثيرا ، وان الأسرة تنفق المال في سبيل تعليمي سدى ، وانني ابنة ليس لها احساس حتما ، فقلبي قد قُدَّ من صخر ... والحق انني كنت أبذل قصارى ما أملك من جهد في تعلم دروسي ، ولكن هذا لا يمنع أبي من أن يعدني مسئولة عن جميع أنواع الشقاء التي تحيق بالأسرة ، وان يراني مذنبة آثمة في كل شيء . ليس معنى هذا ان أبي لم يكن يحبني. فلقد كان يحيا من أجلي ومن أجل أمي ، ولكن طبعه أصبح على هذه الحال وا أسفاه ! كانت الهموم والأحزان وضروب الاخفاق تأكل نفس أبي وتهدمها تهديما رهيبا . أصبح كثير الشك ، شديد الوسواس ، سريع الغضب . وكانت تمر به في كثير من الأحيان حالات هي الى اليأس أقرب. وأخذ يهمل صحته ، وأصابه برد في أحد الأيام ، فسقط مريضا على حين

فجأة . ولم يطل مرضه ، فما هي الا أيام حتى خطفه الموت بغتة على غير توقع ، فصعقنا ذلك صعقا ، ولبثنا أياما لا نفيق من ذهول هذه الضربة التى نالنا بها القدر . وما ان انطفأت روح أبى ، حتى تكاثر الدائنون كأنهم يخرجون من تحت الارض ، واخذوا يتوافدون على منزلنا أفواجا ، فاضطررنا ان ندع لهم كل ما كنا نملك ، اضطررنا أن نبيع الدارالصغيرة التى اشتراها ابى على الضفة اليمنى بعد اقامتنا فى بطرسبرج بستة أشهر . لا أدرى كيف استطعنا ان ندبر أمورنا فيما عدا ذلك ، ولكننا اصبحنا بلا مسكن ، بلا مأوى ، بلا ما يقيم الأود . وكان المرض ما ينفك يضنى أمى . وكان يستحيل علينا أن نغذيها بما يقوى جسمها ويحميها من الموت . كنا لا نملك ما يطعمنا من جوع .. كنا أمام هاوية .. وكنت أنا قد بلغت الرابعة عشرة منذ قليل . وفى تلك البرهة انما جاءت الينا آنا فيدوروفنا فقالت : انها تملك أطيانا وأنها تمت الينا بعض القربى . وكانت أمى تقول ان بيننا وبين آنا فيدوروفنا قربى ، ولكنها قربى بعيدة. لم تكن آنا فيدوروفنا قد زارتنا يوما أثناء حياة أبى . وهى تزورنا الآن مؤكدة ، والدموع فى عينيها ، أن مصيرنا يهمها كثيرا بل يقض مضجعها. وراحت تبكى منتحبة على ما أصابنا من خسران ، وعلى ما آل اليه حالنا من شقاء ، مضيفة الى ذلك أن أبى كان سبب ذلك كله ، فقد أراد أن يعيش فى مستوى لا يناسب موارده ، وكان كثير الطموح مسرفا فى الاعتماد على قواه الخاصة . وأعربت عن رغبتها فى أن تعرفنا مزيدا من المعرفة ، واقترحت أن ننسى الجروح القديمة . فلما قالت لها أمى انها لم تشعر نحوها بشىء من العداوة فى يوم من الأيام ، مسحت آنا فيدوروفنا عينيها بمنديلها ، ثم قادت أمى الى الكنيسة فأمرت بصلاة على روح أبى المسكين (كذلك قالت) وتصالحت مع أمى على هذه الصورة من الفخامة والأبهة .

وبعد انواع من المواعظ والارشاد ، وبعد سلسلة طويلة من ابداء

الآراء واسداء النصائح ، صورت لنا آنا فيدوروفنا الوضع اليائس الذى نحن فيه بألوان حية وتهاويل صارخة ، مبرهنة على أننا مهجورون عاجزون، لا أمل لنا فى الخروج من المأزق ، ثم دعتنا الى أن نلجأ الى دارها على حد تعبيرها ، فشكرت لها أمي ذلك ،ولكنها ترددت طويلا . ومع ذلك أدركت أمي انه ليس هنالك حل آخر ، وان ليس هنالك مخرج غير هذا المخرج. فأعلنت لآنا فيدوروفنا اننا نقبل دعوتها شاكرين ممتنين . ما زلت أذكر صباح تركنا منزلنا الى حى فاسيليف ، كأن ذلك حدث بالامس . كان صباحا من أصباح الخريف مضيئاً جافا صاقعا .

كانت أمي تبكى ، وكنت انا أشعر بحزن رهيب واحس أن قلبى يوشك أن يتمزق فى قلبى ، واحس بكآبة ثقيلة تجثم على صدرى ، كآبة توشك أن تكون نبوءة لا تفسير لها ولا تعليل .. لقد كانت فترة أليمة ..

٢

في الأوقات الأولى، أيام لم نكن قد ألفنا بعد أناوأمى مسكننا الجديد، كنا نحس عند أنا فيدوروفنا بكثير من الضيق والغم • كانت آنا فيــــدوروفنا تعيش فى منزل تملـكه بالحى الســـادس ، وهــو مبنى يتألف كله من خمس غرف ، تحتل آنا فيدوروفنا منهــا ثلاثة هى وساشا ابنــة عمى الصــبية اليتيمـــة التى ليس لهـا أب ولا أم ، والتى كانت آنا فيدوروفنا قد ضمتها اليها ؛ ونحتل نحن الغرفة الرابعة • أما الغـرفة الأخيرة ، المجاورة لغرفتنا ، فكان يسكنها طالب فقير اسمه بوكروفسكى ، استأجرها من آنا فيدوروفنا • كانت مضيفتنا تعيش حياة عريضة ، وكانت تبدو أغنى كثيرا مما كنا نظن قبل ذلك • ولكن مصدر مواردها ظل لغزا بالنسبة الينا ، كسائر مشاغلها التى لا نعلم عنها شيئا من جهة أخـرى • انها فى حركة دائمة لا تنقطع ، يبــدو أن لها مشــاغل مســتمرة ، فهى تخرج من المنزل أو تركب العربة مرات فى اليوم • أما ماذا كان نشاطها، وبماذا كانت تهتم أو بمن كانت تهتم ، فذلك أمر لم أستطع أن أعرفه • وكانت علاقاتها كثيرة متنوعة • ففى كل لحظة من اللحظات يجيئها ناس ، لا يعلم الا الله من هم ، يجيئونها لأعمال ولا يمكثون الا لحظات •

كانت أمي تقودني الى غرفتنا متى رن جرس باب المدخل • وكان موقف أمي هذا يسوء انا فيدوروفنا ، فهي لا تنفك تكرر أننا مسرفون في التكبر ، وأننا أكثر زهوا وصلفا مما يسمح به وضعنا وتتيحه أحوالنا، وهي ما تنفك تضيف الى ذلك قولها « وليت هنالك ما يدعو الى التكبر والعجرفة » ، وتسترسل في حذلقات لا أول لها ولا آخر • لم أكن افهم يومئذ معنى هذه الملامات التي تاخذ علينا الكبرياء والغطرسة • ولكنني أفهم ذلك اليوم أو أحزر السبب الذي جعل أمي تتردد ذلك التردد كله قبل أن ترضى السكنى عند انا فيدوروفنا •

كانت آنا فيدوروفنا امرأة سيئة • كانت تسومنا سوء العذاب بغير انقطاع • تلطفت معنا أول الأمر ، ولكن طبعها لم يلبث أن ظهر على حقيقته سافرا ، منذ لاحظت أننا لا نملك أن ندافع عن أنفسنا اطلاقا ، وأننا لا نعرف أين نذهب • وزاد تلطفها معي فيما بعد ، فكان تلطفا مزعجا ، مفرطا ، يذهب في المبالغة الى حد التملق • ولكنني في الاشهر الاولى تعذبت مثلما تعذبت أمي ، اذ كانت آنا فيدوروفنا لا تكف عن تقريعنا لحظة من اللحظات ، وتذكرنا باحسانها الينا وتعطفها علينا في كل مناسبة من المناسبات • وكانت تقدمنا الى الغرباء على اننا من ذوي قرباها الفقراء : أرملة وابنتها ، لا سند لهما في هذه الحياة ، ضمتهما اليها من باب الشفقة الانسانية والبر المسيحي • فاذا جلسنا الى المائدة راقبت كل لقمة نأكلها ، حتى اذا لم نأكل كانت لها معنا قصة أخرى ، فهي تأخذ تسفهنا عندئذ مدعية اننا نحتقر ما يؤكل في بيتها عادة ، قائلة : « انها لا تستطيع أن تطعمنا غير ما تملك ، وانها تتمنى لو تقدر أن تأكل هي نفسها خيرا مما تأكل » ، ولا يفوتها عندئذ أن تتهجم على أبي فتقول انه كان يحسب نفسه أعلى قدرا من الناس ، وانه لذلك انتهى الى ما انتهى اليه من سوء ، وانه ترك امرأته وابنته بلا موارد ، فلولا أن أسعفنا الحظ فتداركتنا قريبة

كـريمة سـخية ذات روح مسـيحية رحيمة شفوق اذن لنفقنا جوعا فى أحد الشوارع ، والله أعلم • كنا نصغى الى كلامها لابمرارة فحسب ، بل باشمئزاز أشد من المرارة • وكانت أمى لا تكف عن بكاء • وكانت صحتها تزداد سوءا يوما بعد يوم • كان واضحا انها تذوب وتفنى، وكان علينا مع ذلك أن نعمل من الصباح الى المساء • فلقد سعينا الى أن نوصى بخياطة بعض الثياب من خارج المنزل، وكان هذا يسوء آنا فيدوروفنا كثيرا فما تنفك تردد أن بيتها ليس صالون أزياء • ولكن كان لا بد لنا من كسب ما يكسونا ، وكان لا بد لنا من ادخار بضعة قروش لما قد يقع من طوارىء ليست فى الحسبان • لقد صممنا تصميما جازما على أن نملك بعض المـال لأنفسنا • فكنا ندخر شيئا كلما استطعنا الى ذلك سبيلا ، أملا فى أن يتيح لنا ذلك أن نترك هذه الدار ونمضى نستقر فى مكان ما ، فكانت قوى أمى تنهك من هذا العمل ، فهى تزداد هزالا ونحولا فى كل يوم : كان المرض يقضم حياتها كالسوس ، ويسير بها نحو القبر خطوة بعد خطوة • كنت أرى ذلك وكنت أحس ذلك ، فما كان أشد ألمى وعذابى ! كان ذلك كله يجرى على مرأى منى ، والأيام تتلاحق متشابهة رتيبة حزينة ، ونحن نعيش فى عزلة تامة ، كأننا انفصلنا عن المدينة ، فلسنا منها • وهدأت آنا فيدوروفنا بعض الهدوء ، اذ شعرت بكمال قدرتها وتمام قوتها شـعورا مليئا • ولم يكن ليدور فى بال أحد أن يعارضها على كل حال • وكان الدهليز يفصل غرفتنا عن الغرف التى تسكنها ، وكان جارنا هو الطالب بوكروفسكى كما أسـلفت • كان بوكروفسكى يعطى ساشا دروسـا فى الفرنسية والالمانية والتاريخ والجغرافيا ، كان يدرّسها جميع العلوم على حد تعبير آنا فيدوروفنا ، لقاء سكناه وطعامه فى الدار بالمجان • وكانت ساشا على جانب عظيم من الذكاء ، رغم انها كثيرة الحركة شديدة الخبث والمكر ••• كانت أيامئذ فى الثالثة عشرة من عمرها • قالت آنا فيدوروفنا

لامي ذات يوم ان من المستحسن أن أنتفع أنا بهذه الدروس ، لأن القسط الذى نلته من التعليم فى المدرسة الداخلية لا يكفي • فقبلت أمي ذلك راضية فرحة، فدرست مع بوكروفسكى وساشا سنة كاملة•ان بوكروفسكى شاب فقير شديد الفقر ، لم تتح له صحته أن يتابع دراسته متابعة منتظمة مطردة ، واذا كان لا يزال يسمى طالبا فمن قبيل العادة •

انه يعيش حياة متواضعة منزوية صامتة ، حتى أننا لم نسمع صوته يخرج من غرفته يوما • وكان يبدو غـريبا : فهو يمشي مشـية رقلاء ، ويحيي تحية خرقاء ، وانه خجول شديد الخجل ، فاذا تكلم تكلم على نحو عجيب يلفت النظر ويثير الدهشة • كنت فى أول الأمر لا أملك الا أن أضـحك حين أنظـر اليه • وكانت ساشا تكيـد له وتمكر به وتدبر له « المقالب » ، ولا سيما أثناء الدروس • وكان هو الى ذلك سريع التأذى شديد الاهتياج ، ما يلبث أن يغضب وأن يزعل ، خارجا عن طوره لأتفه الأسباب ، صارخا ماضيا يشكونا الى أهلنا من حين الى حين ، عائدا الى غرفته يحبس نفسه فيهـا قبل أن ينتهى الدرس • وكان ينفق وقتـه فى غرفته قارئا كتبا • فقد كان يملك عدداً كبيرا من الكتب ، بل كان يملك كتبا غالية الثمن نادرة • ان الدروس القليلة التى يعطيها لبعض التـلاميذ فى المدينة تدر عليه شيئا من مال ، فما ان يتقاض أجره حتى يسارع الى شراء كتب •

واستطعت مع الزمن أن أعرفه على حقيقته • ان له قلبا من ذهب • انه فتى جدير بأعظم الاحترام • انه خير رجل أتيح لى أن ألقاه فى هذه الحياة • وكانت أمي تقدره كثيرا ، وقد أصبح بعد ذلك خير صديق لى بعد أمي طبعا •

أنا أيضا ، رغم اننى أصبحت فتاة كبيرة ، كنت فى أول الأمر أتسلى مع ساشا باغاظته • كان يتفق لنا أن نمضى ، أنا وابنة عمى ، ساعات برمتها

نكد ذهننا في تخيل طريقة نستطيع بها ان نناكده مزيدا من المناكدة وان تخرجه عن طوره • انه يصبح مضحكا جدا حين ينفجر غاضبا ، فكان ذلك يسلينا كثيرا (انى لأشعر اليوم بالعار وانا اعترف بذلك) • وفي ذات يوم مضينا بأمازيحنا السخيفة الى حيث راينا الدموع ترورق في عينيه ، وسمعناه يقول مدمدما «أطفال شريرون» • فلما سمعته يقول هذه الكلمات شعرت فجاة بخجل شديد ، واحسست بالعار ، وانقبض صدرى، واهتزت نفسى شفقة عليه • أذكر أن وجهى تخضب يومئذ بحمرة قانية حتى الاذنين ، وتوسلت اليه شبه باكية أنا أيضا أن يهدىء روعه وأن لا يؤاخذنا على أمازيحنا السخيفة • ولكنه طوى الكتاب فجأة قبل أن ينتهى الدرس ومضى يعتكف في غرفته • ظللت نهارى كله معذبة من تأنيب الضمير وألم الندامة ، لا أطيق أن أتصور أننا ، نحن الطفلتين ، قد دفعناه بقسوتنا الى البكاء دفعا • اذن لقد كنا ننتظر أن نرى هذه الدموع ••• اذن لقد كنا نتمنى أن نرى هذه الدموع ••• اذن لقد اشتهينا أن نراه باكيا ••• واستطعنا أخيرا أن نفقده صبره ••• لقد حملناه بالقوة ، هو التعس البائس ، على أن يزداد شعورا بحظه الشقى وقدره الظالم • لم أستطع سبيلا الى النوم ليلتى كلها ، من فرط الأسف وشدة الحزن وعذاب الضمير • يقال ان تأنيب الضمير يخفف عن النفس ••• ألا ان هذا لخطأ تماما ••• ولقد خالط حزنى شيء من الشعور بأن كبريائى قد جرحت ••• لقد أغاظنى أنه عدنى طفلة • وكنت يومئذ في الخامسة عشرة من عمرى •

يجب أن أقول الآن بضع كلمات عن هذا الانسان الذى كان بين من لقيتهم في حياتى من الرجال أغربهم وأدعاهم الى العجب وأبعثهم على الشفقة • ولئن كنت أتكلم عنه هنا ، في هذا الموضع بعينه من مذكراتى،

السنة العاشرة من عمره آنذاك ، فكرهته زوجة أبيه كرها شديدا ، وسامته سوء العذاب ، ولكن الحظ واتاه ، فان رجلا من كبار الملاكين اسمه بيكوف كان قد عرف أباه في الماضي ورعاه وحماه ، فتكفل بالاهتمام بالصبي وأدخله احدى المدارس الداخلية • وقد اهتم الرجل بالصبي لأنه كان يعرف المرحومة أمه التي كانت تتمتع في أيام صباها بنعم آنا فيدوروفنا وحسناتها، وآنا فيدوروفنا هي التي قدمتها زوجة للموظف بوكروفسكي• وقد وهب السيد بيكوف ، وهو صديق حميم لآنا فيدوروفنا ، وهب للمخطيبة بائنة قدرها خمسة آلاف روبل ، شهامة منه وكرما • ولا يعلم أحد أين ذهب هذا المال • لقد عرفت هذه التفاصيل من آنا فيدوروفنا • أما الطالب بوكروفسكي فكان لا يحب كثيرا أن يتحدث عن أسرته • يقال ان أمه كانت على جانب عظيم من الجمال • وانه ليدهشني انها ارتضت زواجا مشئوما كهذا الزواج برجل تافه كل التفاهة ••• وقد ماتت المرأة وهي في ريعان الشباب ، بعد زواجها ببضع سنين ؛ وانتقل الفتى بوكروفسكي من المدرسة الداخلية الى المدرسة الثانوية ثم دخل الجامعة • وظل السيد بيكوف الذي كان يتردد كثيرا على سان بطرسبرج ، ظل يحميه ويرعاه • ولكن بوكروفسكي اضطر الى الانقطاع عن الدراسة بسبب اعتلال صحته • وعندئذ عرفه السيد بيكوف بآنا فيدوروفنا ، وأوصاها به كثيرا في كثير من الحرارة ، فآوته في منزلها ساكنا طاعما لقاء اعطائه ساشا دروسا في جميع الفروع اللازمة •

أما العجوز بوكروفسكي فان الحزن الذي كان يسببه له خبث زوجته الثانية قد دفعه الى أرذل الرذائل دفعا ، فما تكاد تراه الآن الا سكران • كانت زوجته تضربه ضربا مبرحا ، وتجبره على أن يبيت في المطبخ ، وبلغت من التسلط عليه انه انتهى الى قبول الضرب المبرح بغير احتجاج ، والى احتمال أنواع الأذى بغير تذمر أو شكوى • انه في الواقع أقل

شيخوخة مما يبدو • ولكن ميوله السيئة قادته الى حافة الجنون • وكانت العاطفة الرقيقة الوحيدة التي بقيت له هي ما يشعر به نحو ابنه من حب ليس له حدود • ويقال ان الفتى بوكروفسكي يشبه امه كما تشبه قطرة من الماء قطرة من الماء • فلعل ذكرى الزوجة الاولى التي أحسنت معاملة زوجها وكانت معه في غاية الطيبة ، هي التي ولدت في نفس العجوز المتدهور هذا الحب الكبير نحو ابنه • كان العجوز ممتلىء الفم بذكر ابنه، لا يدور لسانه بكلام الا عنه • وكان يزوره مرتين في الاسبوع ، على نظام مطرد بغير انقطاع • انه لا يجرؤ أن يجيء أكثر من مرتين ، لأن الفتى كان يكره حضور أبيه • لا شك أن عدم احترامه أباه هو أكبر عيب فيه • ولكن يجب الاعتراف بأن العجوز كان يصبح في بعض الأحيان ثقيلا لا يطاق ولا يحتمل • فهو أولا شديد الفضول ، وهو ثانيا ما ينفك يعوق ابنه عن العمل بالحديث فيما هب ودب من نافل القول وهاذر الكلام، وهو ما ينفك يلقي عليه الأسئلة تلو الأسئلة سخيفة تافهة غبية ، وهو بعد هذا وذاك يجيئه سكران في كثير من الأحيان • وقد حاول ابنه أن يحمله على الاقلاع عن هذه العيوب ، عن هذه الثرثرة التي لا تنتهي ، عن هذا الفضول الذي لا يعرف شيئا من القصد ••• فاستطاع أن يبلغ هذه النتيجة ، وهي أن يصغي أبوه الى كلامه فاغر الفم كأنه يستمع الى كلام عراف من العرافين ، ثم لا يجرؤ أن ينبس بعد ذلك بكلمة دون استئذان •

كان العجوز المسكين لا يكل ولا يمل من الاعجاب بابنه العزيز بانتكا • (هكذا كان يسمي ابنه) ، ولا يتعب من الشعور بالنشوة والوجد حين يراه • كان اذا جاء يزوره يبدو كالخجلان أو كالمهموم ، ربما لأنه غير واثق من أن ابنه سيحسن استقباله • وكان في العادة يتردد كثيراً قبل أن يدخل ، فاذا وُجدتُ مصادفةً هنالك ، طفق يسألني ، خلال خمسة

عشرة دقيقة ، أو عشرين في بعض الاحيان ، عن ابنه : ماذا يعمل؟ كيف صحته ؟ ما حالته النفسية ؟ أهو بسبيل القيام بعمل هام من الاعمال ؟ ما الذي يشغله في هذه اللحظة على وجه الدقة ؟ أهو يكتب شيئا ؟ أم هو منصرف الى تفكير عميق ؟ حتى اذا طمأنته وشجعته بما فيه الكفاية ، قرر أخيرا أن يدخل ، فشق باب غرفة ابنه في رفق وحذر ، ومد رأسه أولا ، فاذا لاحظ أن ابنه ليس غاضبا ، وانه يومىء اليه أن يدخل ، نفذ الى الغرفة بخطى لا يُسمع لها صوت ، فنضا عنه معطفه البائس وخلع قبعته المجعدة دائما ، المثقبة في مواضع عدة ، المنزوعة الأجنحة تقريبا ، وعلق ذلك كله بكلاب ، محاولا في كل حركاته أن لا يحدث الا أقل ضجة ، فانه يخشى أن يلفت النظر أو يثير الانتباه . ثم يجلس محاذرا على كرسي ، ويثبت بعد ذلك بصره على ابنه لا يحوله عنه لحظة من اللحظات ، متابعا كل حركة من حركاته ليدرك الحالة النفسية التي يكون فيها عزيزه باتنكا ، فاذا لاحظ لدى ابنه أيسر علامة تدل على أنه معكر المزاج شجي البال ، نهض عن كرسيه على الفور ، قائلا انه انما جاء عابرا : « لقد قمت بجولة طويلة لقضاء عمل من الاعمال يا باتنكا ، فلما مررت أمام منزلك ، دخلت عليك لأستريح لحظة » ، ثم تناول معطفه وقبعته في مذلة دون أن ينبس بكلمة وفتح الباب في هدوء وصمت كما فتحه حين دخل ، وانصرف وهو يتكلف الابتسام كتماً للحزن الذي يفيض به قلبه ، واخفاءً لهذا الحزن عن ابنه .

ولا كذلك حين يحسن الابن وفادة أبيه ، فان العجوز يشعر عندئذ بفرح لا يوصف . فالسعادة تتلألأ في عينيه ، وتترقرق في اشاراته وحركاته . حتى اذا خاطبه ابنه بكلمة عرضا نهض عن كرسيه وأجابه بصوت رقيق ذليل خاضع متملق متزلف يشيع فيه احترام يشبه أن يكون احتراما دينيا ، وحاول جهده أن يستعمل ألفاظا « منتقاة » تخرج من فمه

باعثة على الضحك في الواقع • كان العجوز لا يجيد التعبير عن ذات نفسه ، فاذا هو ينتهي الى ان يدمدم ويجمجم مرتبكا اشد الارتباك ، واذا هو يخفي يديه ، ويصغر جسمه ، ويظل دقائق طويلة يهمهم بكلمات غير متميزة كأنه يريد أن يصلح جوابه الاخرق • اما اذا اتفق مصادفة أن جاء جوابه مناسبا رأيته يتجرأ ويتجاسر ، فيعدل صديرته ويقوم ربطة عنقه ويصلح رداءه ويبدو أنه يسترد في هذه اللحظات شعوره بكرامته • كان يستعيد عندئذ ثقته بنفسه ، ويبلغ من الجسارة في بعض الأحيان أن ينهض عن كرسيه بلا ضوضاء فيدنو من رف الكتب ويستل منه كتابا ، أي كتاب ، حتى لقد يأخذ يقرأ في الكتاب فقرة من الفقرات على غير هدى أيا كان الموضوع • يفعل ذلك كله متظاهرا بالهدوء مصطنعا عدم الاكتراث كأن من الطبيعي ومن المسموح له به في أي وقت أن يتصرف في كتب ابنه ، وكأن لطف باتنكا في معاملته أمر لا يدعو الى الدهشة ولا يبعث على الاستغراب • ولكنني لاحظت ، في ذات يوم ، الذعر الذي استولى على الشقي المسكين حين رجاه بوكروفسكي أن لا يمس كتبه • لقد غاب يومئذ عن رشده ، وأسرع يعيد الكتاب الى مكانه مضطربا ، فاذا هو يخطىء فيضعه مقلوبا ، فما كان منه الا أن سحبه ثانية ثم أعاده الى مكانه ، لكنه في هذه المرة جعل ظهر الكتاب الى الحائط • وكان يبتسم ويحمر ولا يدري كيف يكفر عن جريمته •

استطاع بوكروفسكي بنصائحه أن يصرف أباه عن ميوله السيئة شيئا بعد شيء • فاذا اتفق أن رآه ثلاث مرات متالية معتدلا دس في يده خمسة وعشرين كوبكا أو نصف روبل عند انصرافه ، أو اشترى له حذاءين أو ربطة عنق أو صديرة • ليتك ترى الأب عندئذ كيف كان يختال بحليه اختيال الديك • وكان يدخل علينا في بعض الاحيان حاملا الينا ، أنا وساشا ، بعض الفطائر أو بعض التفاح ، متحدثا عن عزيزه

باتنكا حديثا لا ينتهي • وكان في هذه المناسبات يضرع الينا أن ننتبه الى دروس ابنه ، أن نصغي اليها وننتفع بها ، مؤكدا أن باتنكا ابن طيب ، ابن فذ ، وانه الى ذلك ابن عالم • وكان حين ينطق بهذه الكلمات الاخيرة يغمز بعينه اليسرى غمزا يبلغ من الوضوح ، ويتلوى بجسمه تلويا يبلغ من الغرابة اننا نعجز عندئذ عن كبح جماح نفسينا، فاذا نحن ننفجر مقهقهتين أمام أنفه • وكانت أمي الطيبة تحبه كثيرا • ولكن العجوز كان يكره آنا فيدوروفنا كرها شديدا، مع محافظته في حضورها على المذلة والخضوع والصمت وطأطأة الرأس • ولم ألبث أن انقطعت عن تلقي الدروس من من بوكروفسكي • فلقد كان ينظر الي « نظرته الى طفلة ، الى صبية طائشة ، ويساوي في المعاملة بيني وبين ساشا، فكان ذلك يؤلمني كثيرا ، لأنني كنت أحاول أن أمحو من نفسه آثار سلوكي الماضي، فلايلاحظ هو هذه الجهود ، فكنت اغتاظ من هذا غيظا ما ينفك يزداد بعد يوم ، وصرت لا أكادأخاطبه بكلمة واحدة في غير أوقات الدروس ،ولا أملك من الشجاعة ما يمكنني من مخاطبته ، فاذا رأيته أحمر وجهي واضطربت ، ثم مضيت أختبىء في ركن من الاركان لأبكي ألما وحسرة •

لا أدري كيف كان سينتهي هذا كله لولا أن ظرفا عجيبا ساعد في التقريب بيننا • ففي ذات مساء ، بينما كانت أمي عند آنا فيدوروفنا ، دخلت غرفة بوكروفسكي على رؤوس الأصابع • كنت أعلم أنه خرج ، فخطر بالي ، لا أدري حقا لماذا ، أن ألقي نظرة على غرفته • لم أكن قد دخلت هذه الغرفة يوما قط ، رغم أننا جيران منذ أكثر من عام • أخذ قلبي يخفق هذه المرة في صدري خفقانا يبلغ من القوة انني أحسست انه سينفجر• ألقيت على ما حولي نظرات مستطلعة شرهة • ان أثاث الغرفة فقير والفوضى تشيع في كل ركن من أركانها : هذه أوراق مبعثرة على المنضدة وعلى الكراسي ، ولا تقع العين في كل موضع الا على كتب وقراطيس • راودتني

فكرة غـريبة بينما كان يعتريني في الوقت نفســه شـعور مرير بالحسرة والاسف : بدا لى انه لن يستطيع ان يرضى بصداقتى وبما يحمله له قلبى من حب ، فهو رجل واسع العلم كثير الاطلاع جم الثقافة ، أما أنا ففتاة بلهاء لا أعرف شيئا ، ولا قرأت كتابا • ألقيت عندئذ نظرة شوق الى هذه الرفوف الطويلة التى تحمل الكتب حتى لتكاد تتداعى من ثقل ماتحمل • وتوزعتنى مشاعر شتى ، فأنا فى آن واحد نهب الحــزن وخيبــة الامل والشوق الى أن أعمل شيئاً • وتمنيت فجأة أن أقرأ جميع كتبه ، أن أقرأ كتبه كلها الى آخرها ، وأن أفعل ذلك بأقصى سرعة ممكنة • وما لبثت أن عزمت أمرى • لعلنى تخيلت فى تلك اللحظة اننى اذا علمت كل ما كان يعلم ، فسأصبح أجدر بصداقته واخلق بمودته • فأسرعت الى أول رف ، وبدون أن أفكر أو أن اختار ، تناولت أول كتاب وقع عليه بصرى ، وهو كتاب قديم أغبر ، فحملته الى غرفتى وأنا احمر وأصفر وأرتجف انفعالا وخوفا ، حملته كما يحمل السارق غنيمته ، وأنا أنوى أن أقرأه طوال الليل على ضوء السراج الصغير بعد أن تنام أمى •

ولكن ما كان أشد خيبة أملى حين وصلت الى غرفتى ففتحت الكتاب مسرعة فلم أجد فيه الا نصا لاتينيا مبسوطا على أوراق كادت تتلف وكاد العث يقضم نصفها • لم أدع للوقت أن يضيع سدى ، فأسرعت أعود الى غرفة بوكروفسكى • فما كدت أتهيأ الى اعادة الكتاب الى موضعه من الرف حتى سمعت ضـجة فى الدهليز وسمعت وقـع أقدام تقترب • فأسرعت ما أمكننى الاسراع أحاول أن أدس الـكتاب فى مكانه ، ولـكن الكتاب الخبيث كان قد بلغ من شدة ترصصه بالكتب الاخرى أن هذه الكتب قد تمددت تمدد النابض حين سللته من بينها فهى الآن تحتل المكان كله غير عابئة بزميلها الغائب ، فلم أقو على دسه فيها من جديد ، ولكننى حاولت أن أدفع الكتب بكل ما أوتيت من قوة ، فاذا بالمسمار الصدىء الذى كان

يمسك الرف والذي لعله كان لا ينتظر الا مثل هذه اللحظة حتى يسقط، اذا بهذا المسمار ينكسر فجأة ، واذا بالرف يهوى على أحد طرفيه ، واذا بالكتب تتدحرج على أرض الغرفة محدثة ضجة كبيرة • وانفتح الباب في هذه اللحظة ودخل بوكروفسكي الغرفة •

يحسن أن أذكر هنا أنه كان لا يطيق ان يمس احد أشياءه • وويل لمن يسمح لنفسه بأن يضع يده على كتاب من كتبه • تصوروا اذن ماشعرت به من دعر حين رأيت هذه الكتب المختلفة الحجوم والاشكال والأبعاد (فبعضها دقيق وبعضها سميك ، بعضها صغير وبعضها كبير) حين رأيتها تهاوى عن الرف ، وتتدحرج على أرض الغرفة ، وتأخذ ترقص تحت المنضدة وتحت الكراسي وفي الحجرة كلها • أردت أن أهرب ، ولكن اوان الهروب كان قد فات • قلت لنفسي : « انتهى كل شيء ، انتهى كل شيء ، لقد ضعت ، ضعت تماما • انني أتسلى بارتكاب حماقات كطفلة في العاشرة من عمرها • ما أنا الا طفلة بلهاء ، ما أنا الا غبية كبيرة »

غضب بوكروفسكي غضبا رهيبا وصاح يقول : « ما كان ينقصني الا هذا ، ألا تستحين أن تسلكي هذا المسلك ؟ متى تراك تعقلين ؟ » وأخذ يحاول أن يلم الكتب • فملت على الارض أساعده • فصاح مرة أخرى يقول : « لا داعي ، لا داعي ••• خير لك ألا تدخلي مكانا ما دعيت اليه » •

لكنه ، وقد رق قليلا لموقفي الذليل ، تابع يقول بلهجة أقل غضبا ، بلهجة هي لهجة الناصح التي اعتاد أن يستعملها أثناء الدروس ، مستفيدا من الحق الذي يخوله اياه أنه كان أستاذي منذ وقت قصير ، تابع يقول : « متى تعقلين اذن ؟ هلا فكرت فيما تصنعين ؟ ما أنت الآن بطفلة ، ما أنت الآن بالبنية الصغيرة ، لقد بلغت من العمر خمسة عشر عاما » •

وكأنما أراد أن يتحقق من أنني شببت عن الطوق فما أنا الآن بطفلة ، فألقى عليّ نظرة ، فاذا هو يحمر احمرارا شديدا حتى الأذنين. لم أفهم ما حدث له . كنت واقفة أمامه أحدق اليه بعينين واسعتين مدهوشتين . ونهض فاقترب مني زائغ النظرة شارد اللب ، واضطرب اضطرابا شديدا ، ودمدم ببضع كلمات كأنه يعتذر لي عن شيء ما ، ربما عن أنه لم يكن قد لاحظ الى ذلك الحين انني أصبحت فتاة كبيرة . فهمت على الفور . ثم لم أعرف ماذا جرى لي في تلك اللحظة . لقد اضطربت وفقدت سيطرتي على نفسي واصطبغ وجهي بحمرة أشد من الحمرة التي اصطبغ بها وجه بوكروفسكي ، فغطيت وجهي بيدي وأسرعت أهرب من الغرفة راكضة .

كنت لا أعرف ماذا أعمل ، ولا أين أختبيء من شدة شعوري بالخجل والعار . أيجدني في غرفته ؟ ان هذا وحده يبدو لي الآن أمرا لا يغتفر . لبثت ثلاثة أيام لا أستطيع حتى أن أنظر اليه . أصبحت أحمر خجلا حتى لأكاد أبكي متى لمحته . ان زوبعة من الخواطر الرهيبة تدور في رأسي ، وتخالطها أفكار مضحكة . من هذه الافكار العجيبة التي راودتني أن أذهب اليه لأشرح له كل شيء ، وأعترف له بكل شيء ، ان أقول له الحقيقة صريحة ، أن أقنعه بأنني لم أتصرف تصرف طفلة صغيرة حمقاء ، وأن الامر الذي دعاني الى فعلي وحضني عليه ينطوي على نية طيبة حسنة. وقد قررت أن أذهب اليه فعلا ، لولا أن خانتني شجاعتي في آخر لحظة من حسن الحظ ، ولله الحمد . انني أتصور الآن كيف كان يمكن أن يكون موقفي لو ذهبت ، وأية سخافات وترهات كان يمكن أن ينطلق بها لساني متدفقا . ما زلت حتى هذه الساعة أشعر بخجل شديد وعار كبير حين أتذكر تلك اللحظات .

بعد ذلك ببضعة أيام ، مرضت أمي مرضا خطيرا • فلزمت فراشها يومين ، وانتابتها في الليلة الثالثة حمى شديدة يصحبها هذيان • كنت قد قضيت الى جانبها ليلة بكاملها لم يغمض لى خـــلالها جفن ، فأنا جالسة قربها أحيطها بالعناية والرعاية ، وأسقيها ماء وأجرعها أدويتها في مواقيتها المحددة • فلما جاءت الليلة التالية شعرت بانهيار في قواى • فالنعـاس يستبد بي في بعض اللحظات فيضطرب أمام بصرى كل شيء ، ويدور رأسي ، وأحس انني أوشك أن أسقط اعياء من لحظة الى أخرى ، وكانت تأوهات أمي توقظني في كل مرة ، فأنتفض مذعورة ، وأفتح عيني خلال ثوان قليلة ، ثم ما ألبث أن أرتد الى الوسن • لا أدرى ولا أذكر هـل غفوت بضع ثوان • ولكنني أذكر أن قد وافاني حلم رهيب ، أذكر أن رؤيا مفزعة انبجست في دماغي المرهق الذي استولى عليه النعاس وكان يقاومه • فتحت عيني جزعة هلعة • كانت الغرفة غارقة في الظلام • ان لهب السراج الصغير يحتضر ، فكانت أشعة من الضياء تنزلق على الجدران، فتارة تتسع فتغمر الغرفة ، وتارة تضعف حتى لتزول زوالا تاما •

شعرت بخوف مباغت ، واستبد بي ذعر لا أعرف كيف أفسره أو أعلله • كان خيالى مضطربا أشد الاضطراب من ذلك الحلم الرهيب ، وكان قلبي منقبضا أشد الانقباض من فرط الجزع ••• نهضت منتفضة ، وانطلقت من صدري صرخة وأنا فريسة احساس باختناق مذعور وخوف غامض رهيب • واني لكذلك اذا بالباب يفتح ، فيدخل بوكروفسكي الى غرفتنا •

كل ما أذكره انه كان يسندني من ذراعي حين ثبت الى شـعورى ، وانه أجلسني في رفق واحترام وحذر على مقعد، ومد الىّ كأسا من الماء وأخذ يمطرني بوابل من الأسئلة • لاأدرى بماذا أجبته • ولكنني أذكر انه قال لى وهو يمسك بيدي: « انت مريضة •• أنت أيضا مريضة جدا •

ان بك حمى • انك تهدمين صحتك تهديما ، ولا تدارين نفسك • هدئى روعك الآن واضطجعى ، ونامى وسأوقظك بعد ساعتين » • ثم أضاف دون أن يدع لى فرصة الاعتراض بكلمة واحدة ، أضاف يقول : « اهدئى ••• تمددى ، استريحى قليلا » • كان التعب قد حرمنى كل قدرة على المقاومة ، فأطبقت أجفانى • استلقيت على المقعد نصف استلقاء وأنا أنوى أن لا أسهد الا نصف ساعة • ولكننى نمت حتى الصباح ولم يوقظنى بوكروفسكى الا حين آن أوان تجريع أمى الدواء •

استرحت أثناء النهار فى اليوم التالى ، وفيما كنت أتهيأ للسهر على أمى فى الليل جالسة قربها ، عازمة فى هذه المرة على أن لا أغفو البتة ، اذا بباب غرفتنا يقرع • انها الساعة الحادية عشرة • فتحت الباب فاذا أنا أمام بوكروفسكى •

قال : « قدرت أنك ستشعرين بالسأم ساهرة وحدك هنا • فجئتك بهذا الكتاب تقرئينه عسى أن يساعدك على تزجية الوقت » • تناولت منه الكتاب • لا أذكر ماذا كان عنوانه • بل أشك فى أن أكون قد فتحته ، رغم اننى ظللت ساهرة طول الليل • ان اضطرابا نفسيا غريبا كان لايتيح لى أن أنام • كنت لا أقوى على البقاء فى مكان واحد • فكثيرا ما أترك مقعدى وأطفق أسير فى الغرفة • ان نوعا من فرح عميق ملأ نفسى وأغرق وجودى كله • تأثرت أشد التأثر من التفاتة بوكروفسكى هذه • شعرت بالفخر من اهتمامه بى هذا الاهتمام ، ومن تحمله هذا العناء فى سبيلى • لبثت الليل كله لا أزيد على أن أتأمل وأحلم • ولم يعد بوكروفسكى • وكنت أقدّر على كل حال انه لن يعود هذه المرة ، وكنت أحاول أن أتصور ما لعله سيحدث فى المساء القادم •

وفى مساء الغد ، بعد أن رقد كل من فى البيت ، فتح بوكروفسكى

باب غرفته فوقف على العتبة يبادلني الحديث • لم أحفظ شيئا من الكلام الذي تبادلناه في تلك المرة • كل ما أتذكره أن الخجل قد شلني وانني كنت مضطربة ، وانني كنت في الوقت نفسه غير راضية عن نفسي ، حتى لقد كنت أنتظر انتهاء هذا الحديث بصبر فارغ ، رغم انني تمنيته من أعماق قلبي ، ورغم انني كنت أحلم به منذ الصباح ، وأهيىء له الاسئلة والاجوبة سلفا ••• كان ذلك المساء بداية الصداقة التي انعقدت بيننا • فاصبحنا ، طوال مرض أمي ، نجتمع في كل ليلة عدة ساعات • استطعت ان أنتصر على خجلي شيئا بعـــد شيء ، رغم أن كل حـــديث بيني وبين بوكروفسكي كان يخلف أمرا من الامور يثير عدم رضاي عن نفسي • على أنني كنت ألاحظ بفرح خفي وارتياح مبعثه حب الذات ، انه اصبح يهمل من أجلي كتبه المقيتة • وفي ذات يوم وقع الحديث ، من قبيـل المزاح ، على حادثة الرف الذي هوى والكتب التي تدهورت على الارض • كانت لحظة غريبة ، أظهرت فيها صراحة مفرطة ، وصدقا بالغا • ان حميا عجيبة وحماسة شـديدة قد دفعتاني الى أن أقـــول له الحقيقة كلها ••• اعترفت له بكل شيء : اعترفت له بأنني أردت أن أثقف نفسي ، أن أملأ فكري ••• وانه كان يحنقني أشد الحنق أن أعد صبية صغيرة ، وأن أعامل كما تعامل طفلة ••• أعود فأقول انني كنت في حالة نفسية غريبة ••• كان قلبي يضعف ، وكانت الدموع تترقرق في عيني ••• لم أخف عنه شيئا •• بحت له بكل شيء ، بكل شيء ••• بالصداقة التي أشعر بها نحوه ، برغبتي في أن أحبه ، في أن أحيا على صلة به ، في أن أكون له عزاء وسلوى ، في أن أشجعه وأشد أزره • فكان ينظر الي نظرة غريبة ، وقد ذهل عن نفسه ، واضطرب وجهه ، وعُقل لسانه فما يقول كلمة • وأحسست فجأة بمرارة عميقة وحزن كبير • خيل الي انه لايفهمني وانه ربما كان يسخر مني ويهزأ بي • فطفقت أبكي ، وانفجرت أنشج كما

تنشج طفلة ، عاجزة عن كبح جماح نفسى مزيدا من الكبح • واعترتنى تشنجات كأنها تشنجات نوبة عصبية • فامسك بوكروفسكى بيدى واغرقهما قبلا ، وضمنى الى صدره ، وقال لى كلاما عذبا بصوت مواس رقيق • كان هو نفسه متأثرا أشد التأثر • لا أذكر ماذا قال لى • ولكننى أعرف أننى كنت أبكى وأضحك على التوالى ، وأن وجهى قد تخضب بحمرة قانية ، وانى شعرت من شدة فرحى باننى لا أستطيع أن أنبس بكلمة واحدة • وكنت أشعر مع ذلك ، ورغم انفعالى ، بأن بوكروفسكى لايزال يحس بشىء من الحيرة والحرج والضيق • انه لم يفق من دهشته التى اثارها فيه اندفاعى وأثارتها فيه حماستى حين أدرك عندى ما أدركه من هذه الصداقة المفاجئة التى تبلغ هذا المبلغ من العنف والجموح والقوة • لعل شيئا من التعجب قد سيطر عليه فى أول الامر • لكن تردده زال بعد ذلك ، فاذا هو يرد على صداقتى بمثلها بساطة وصراحة وانطلاقا ، واذا هو يستجيب لكلماتى العاطفية وتملقى وحفاوتى ، فيقابلنى بعاطفة كعاطفتى، ويعاملنى معاملة صديق مخلص وأخ حق • تفتح قلبى فى هذا الجو الدافىء ، وشعرت ببهجة كبيرة وسعادة عظيمة ••• لم أكتم عنه شيئا ، ولم أخف عنه شيئا ، وأصبح يلاحظ هو ذلك ، فيشتد تعلقه بى يوما بعد يوم •

لا أتذكر ، على وجه الدقة ، الأحاديث التى جرت بيننا ، لا أتذكر جميع ما قاله كل منا لصاحبه خلال ساعات كانت شاقة ممتعة فى آن واحد، ساعات طويلة قضيناها معا فى الليل على أضواء السراج المهتزة قرب أمى المسكينة المريضة ••• هل هناك شىء لم نتحدث فيه ؟ كنت أقول له كل ما كان يخطر ببالى ، كل ما كان ينبجس عفوا من قلبى ، كل ما كان يخرج من فمى دون أن أستطيع له دفعا ••• وكنا قريبين من السعادة كل القرب فى تلك اللحظات ••• آه ما كان أملأ ذلك الوقت بالحزن والسعادة

معا ! انني حتى هذه الساعة أشعر بالسعادة والحزن كليهما حين أتذكر ذلك الأوان . والذكريات حزينة دائما سواء أكانت ذكريات فرحة أم كانت ذكريات مرة . ذلك شأني أنا على كل حال . غير أن هذا الحزن عذب كذلك . ففي الساعات التي ينوء فيها القلب بعبء الشقاء ، حين تستبد كآبة ثقيلة بالنفس التي صارت من المحن في ظلام ، تأتي الذكريات فتنعش النفس وتحييها ، مثلها كمثل تلك القطرات من الندى التي تضعها رطوبة المساء على الازهار بعد نهار خانق ، فتبعث الحياة في هذه الاوراق الحزينة التي كادت تصوحها أشعة الشمس المحرقة .

وأبلت أمي من مرضها ، ولكنني ظللت أسهر الليل كله قرب سريرها . كان بوكروفسكي يجيئني ببعض الكتب أحيانا كثيرة . فكنت في أول الامر أقرأ من أجل ألا أنام ، ثم صرت أقرأ بشيء من الاهتمام والشغف ، ثم أصبحت في النهاية أقرأ بنهم شديد وشراهة قصوى . ان عالما جديدا كنت أجهله قبل ذلك ولم يخطر لي ببال ينبجس الآن أمام بصري . ان القراءة تفجر في نفسي أفكارا ومشاعر تزدحم الآن في قلبي هادرة صاخبة . وكلما كان الجهد الذي يجب أن أبذله من أجل تمثل هذه الأفكار الجديدة أكبر ، وكلما كان الاضطراب الذي تبثه في نفسي أشد ، كان تقديري لهذا الاغتناء الروحي الذي يقلبني رأسا على عقب أشد . أمور كثيرة انبجست في قلبي وتراكمت فيه تترى . لقد قام في نفسي سديم غريب يتسلل الى أعماق كياني . لكن هذا العنف الروحي لم يستطع أن يخل بتوازني تماما . كنت فتاة حالمة ، وهذا ما أنقذني .

ولما شفيت أمي من مرضها ، انقطعت لقاءاتنا الليلية وأحاديثنا الطويلة التي كنا نتبادلها على خلوة . اننا لا نزال نستطيع أن نتبادل بعض الكلمات من حين الى حين ، وهي كلمات تافهة ليست بذات قيمة أو دلالة . ولكن

كان يحلو لى أن أهب لها قيمة خاصة وأن أحملها معاني مضمرة • كانت حياتي غنية ملأى ، وكنت أنا هانئة مطمئنة ، وكانت روحي تفيض سعادة عذبة هادئة • وانقضت على هذه الحال أسابيع ••

وفي ذات يوم جاء يزورنا العجوز بوكروفسكي ، فثرثر معنا مدة طويلة • كان يبدو أكثر ابتهاجا وأشد نشاطا وأغزر تدفقا في الكلام مما عهدناه فيه • كان يفيض حياة ، ويضحك بغير توقف ، ويتندر على طريقته في التندر • وكشف لنا أخيرا عن سبب حماسته ، فأنبأنا أن عيد ميلاد باتنكا سيكون بعد أسبوع تماما ، وانه سيجيء يزور ابنه في هذه المناسبة• وأسر الينا انه سيرتدى لهذا العيد صديرة جديدة ، وأن امرأته قد وعدته بأن تشترى له حذاءين جديدين • كان العجوز يطفح سعادة ، ويلقى الكلام على عواهنه طولا وعرضا •

عيد ميلاده ! أصبحت فكرة عيد الميلاد هذه لا تدع لى راحة فى نهار ولا فى ليل • قررت أن أجدد صداقتى مع بوكروفسكى بتقديم هدية له مهما كلف الامر • ووقع اختيارى على الكتب • كنت أعرف انه يتمنى الحصول على المجموعة الكاملة لمؤلفات بوشكين في طبعتها الأخيرة ، فأردت أن أشتريها له • انني أملك ثلاثين روبلا لنفسى هى ثمرة أعمالى فى الخياطة • لقد ادخرت هذا المبلغ لأشترى ثوبا جديداه فما لبثت أنأرسلت الطاهية العجوز ماترينا تسأل لى عن ثمن مجموعة مؤلفات بوشكين • ويلاه ! ان المجلدات الأحد عشر تكلف مع نفقات التجليد ستين روبلا فى أقل تقدير • فمن أين آتى بهذا المبلغ ؟ فكرت طويلا دون أن أهتدى الى حل • لا أحب أن أسأل أمى شيئا من المال ، ولو سألتها أن تعطيني ما أنا فى حاجة اليه لما منعته عنى حتما ، ولكن جميع من فى المنزل سيعلمون عندئذ بنبأ هذه الهدية ، وستعد الهدية عندئذ مكافأة لبوكروفسكى على

الدروس التى أعطانيها سنة كاملة • اننى أحب أن أنفرد بتقديم هدية له على غير علم من الآخرين • أما ما تحمله فى سبيلى من عناء ، فكنت أرغب فى أن أظل ممتنة شاكرة له اياه ما حييت ، دون أن أهب له أى مكافأة عليه عدا صداقتى • واكتشفت آخر الأمر وسيلة للخروج من المأزق •

كنت أعرف أن فى امكان المرء أن يحصل ، لدى بعض بائعى الكتب القديمة تحت قناطر جوستينى ، على كتب بنصف ثمنها بعد شىء من المساومة •• وقد يُعثر عندهم فى بعض الأحيان على كتب بحالة جيدة حتى لتكاد تكون جديدة • فقررت قرارا حازما أن أذهب الى هنالك فى أول فرصة • وما لبثت هذه الفرصة أن عرضت فى الغداة • هنالك أشياء كان يجب شراؤها للمنزل ، فأما أمى فكانت متعبة لا تقوى أن تخرج لشرائها ، وأما آنا فيدوروفنا فقد انتابتها يومئذ نوبة كسل من حسن حظى ، فعهد الى بالخروج لشراء الأشياء • فذهبت الى القناطر تصحبنى ماترينا •

وواتانى الحظ فسرعان ما وقعت على مؤلفات بوشكين مجلدة تجليدا جميلا جدا ، فاخذت اساوم البائع على ثمنها • حدد لها فى أول الأمر ثمنا يفوق ما يدفعه المرء فى المكتبات ثمنا لكتب جديدة ، ثم توصلت بالمساومة، وفى غير قليل من العناء والحق يقال ، وبعد أن تظاهرت بالانصراف غير مرة ، أن أحمل البائع على انزال السعر ، بتخفيض بعد تخفيض، الى عشر روبلات فضة • ألا ما كان أشد فرحى بمناقشته ! وكانت ماترينا المسكينة تتساءل ماذا دهانى ولماذا خطر ببالى فجأة أن أشترى مثل هذا العدد الكبير من الكتب • غير اننى لا أملك ، وأسفاه ، الا ثلاثين روبلا ورقا ، والبائع يرفض أن يبيعنى الكتب بسعر أقل من السعر الذى نزل اليه آخر الأمر • فتوسلت اليه ، وألححت فى التوسل ، فاستطعت أخيرا أن أثنيه عن عزمه • غير أنه رفض أن يزيد التخفيض الجديد على روبلين ونصفا ، وحلف أنه

ما كان ليتنازل هذا التنازل كله لأحد غيرى ، فهو قد خفض السعر الى هذا الحد الأقصى مراعاة لى ، لأننى فتاة لطيفة . لا يزال ينقصنى اذن روبلان ونصف روبل حتى أتم الصفقة . وأوشكت أن أبكى أسفا وحسرة . غير أن ظرفا لم يكن فى الحسبان لم يلبث أن أنقذنى من الورطة .

فغير بعيد منى ، على طرف منضدة أخرى مثقلة كتبا ، لمحت العجوز بوكروفسكى وقد خف اليه واحتشد حوله أربعة أو خمسة من بائعى الكتب القديمة . كانوا قد حيروه بعروضهم المتناقضة ، فهو يبدو تائها كأنه فقد البقية الباقية من عقله . كان كل واحد من البائعين يطرى له بضاعته ، ولا يعلم الا الله ما الذى كانوا يعرضونه عليه ، وما الذى كان يمكن أن يشتريه . كان العجوز المسكين يبدو ضائعا فى وسطهم لا يعرف من يجيب ولا من يصدق . فاقتربت منه وسألته ماذا يفعل هنا ، فما كان أشد ابتهاجه برؤيتى ! .. لقد كان يحبنى حبا لا حدود له ، حبا لعله لا يقل عن حب ابنه باتنكا . قال لى شارحا : « أريد أن أشترى كتبا يا فرفارا الكسيفنا .. كتبا لابنى باتنكا . ان عيد ميلاده قريب ، وهو يعبد الكتب عبادة ، لذلك جئت أشترى له بعض الكتب .. » .

ان طريقة العجوز فى الكلام طريقة مضحكة فى العادة ، فكيف اذا أضفت اليها ما كان فيه من اضطراب حينذاك ؟ كان أى كتاب يقع عليه اختياره ، يطلب البائعون ثمنه روبلا فضة ، أو روبلين ، أو ثلاثة ، حتى أصبح لا يجرؤ أن يسأل عن أسعار الكتب الكبيرة بل يكتفى بأن يلقى عليها نظرات تنم عن الرغبة فيها ، ويقلبها بين يديه قبل أن يردها الى موضعها ، ويدندن قائلا بصوت خافت : « لا ، لا ، هذه باهظة الثمن ؛ لعلنى واجد شيئا آخر هناك » ، ثم يأخذ ينبش بين دفاتر الموسيقى والأضابير والتقاويم المكدسة أكواما تباع جملة .

قلت له :

ـ لماذا تفكر فى شراء مثل هذه الضبار ؟ انها ليست بذات قيمة •

فأجاب :

ـ لا ، لا ، لن أشترى منها • انظرى هناك• ثمة كتب صغيرة رائعة، كتب صغيرة لطيفة جدا •

قال هذه الكلمات الأخيرة بصوت يبلغ من البطء والحـزن والوهن انى أحسست أنه يوشك أن يبكى أسى لان الكتب الجميلة باهظة الثمن • حتى لقد رأيت عبرة تنهمر من عينيه وتسيل على خديه الشاحبين وأنفه الأحمر • فسألته كم معه من المال ، فأخرج المسكين جميـع النقود التى كان يملكها ملفوفة بورقة قذرة من أوراق الجرائد ، وقال : « هذا مامعى : خمسون كوبيكا ، ثم خمسة وعشرون كوبيـكا ، ثم ما يسـاوى عشرين كوبيكا من النقود النحاسية » •

فأسرعت أجره نحو بائع الكتب القديمة التى كنت أساومه على شراء مؤلفات بوشكين • وقلت له : « هذه الكتب الأحد عشر لا يساوى ثمنهـا مجتمعة الا اثنين وثلاثين روبلا ونصف روبل ورقا • معى أنا منها ثلاثون روبلا ، فاذا أضفت اليها أنت روبلين ونصفا اشتريناها كلها هدية مشتركة الى باتنكا » •

جن العجوز فرحا ، ووضع على المنضدة جميع النقود التى كانت معه ، فحمّله البائع مكتبتنا المشتركة • دس العجوز الطيب بعض الكتب فى جيوبه ، ووضع بعضها الآخر تحت ابطيه ، وحمل الباقى بيديه ، ومضى بها الى داره واعدا أن يجيئنا بها فى الغد سرا دون أن يراه أحد •

وجاء يزور ابنه فى اليوم التالى ، ولبث عنده قرابة ساعة على عادته ،

ثم دخل علينا وجلس قربى وقد لاحت فى وجهه امارات مضحكة تعنى أنه يكتم سرا ويخفى أمرا • كان يبتسم ويفرك يديه ، فرحا كل الفرح بأنه يحمل سرا ، ثم شرح لى أنه نقل الكتب الى منزلنا دون أن يراه أحد ، وأنه خبأها فى ركن من المطبخ بحراسة ماترينا • وانتقل الحديث بعد ذلك الى عيد الميلاد الذى ننتظره • فأطنب العجوز فى الكلام على الطريقة التى سنعمد اليها فى تقـــديم الهدية لابنه ، فكان كلما ازداد توغلا فى هـــذا الموضوع ظهر عليه أن قلبه مثقل بأمر لا يستطيع أن يتكلم فيه ، ولا يجرؤ أن يتكلم فيه ، كأن شيئا من الخشية يصده عنه • فكنت أنتظر صـامتة • لقد اختفى ذلك الفرح الخفى ، وذلك الرضى النفسى اللذان كنت أقرؤهما حتى ذلك الحين واضحين كل الوضوح فى حركات يديه وجعدات وجهه وغمزات عينه اليسرى ، وأصبح قلقه وحزنه يزدادان دقيقة بعد دقيقة ، ثم لم يستطع أن يكظم ما فى نفسه ، فبـدأ يقول خائفـا بصـوت متردد متلعثم :

ـ اسمعي يا فرفارا ألكسييفنا •• هل تعـــرفين ماذا يا فـــرفارا ألكسييفنا ؟ ••

انه مضطرب أشد الاضطراب •

ـ اليك الأمر : حين يجيء عيد ميلاده ، تأخـذين أنت عشر كتب فتقدمينها هدية منك اليه ، منك وحدك ، وآخـذ أنا الكتاب الحادى عشر فأقدمه هدية منى ، منى أنا وحدى • فبهذه الطريقة تقدمين أنت هدية اليه ويتاح لى أن أقدم أنا أيضا هدية •

هنا اضطرب العجوز وصمت • ونظرت اليه : انه ينتظر قرارى على خجل ولهفة وهم فى آن معا •

قلت له :

ـ ما الذى يحملك على العدول عن هدية نشترك فى تقديمها معا يا زاكار بتروفتش ؟

ـ ذلك .. يا فرفارا ألكسيفنا .. ذلك .. اننى قدّرت .. اننى .. لاننى ...

وازداد اضطرابه ، فاحمر وجهه وتلعثم لسانه وجمد لا يتحرك .

وقال أخيرا يشرح رأيه :

ـ اسمى يا فرفارا الكسيفنا ... انه يتفق لى احيانا ان اسير فى طريق الضلال و ... اريد ان اقول ان من واجبى ان انبئك باننى اسير دائما فى طريق الضلال ... دائما ... على وجه التقريب .. فما أكاد اكف عن السير فى هذا الطريق حتى أعاود السير فيه ... انا سجين عادات سيئة ... أفعل ما ينبغى ألا أفعله ... هل فهمت ما أريد أن اقول ؟ ... يكون الجو باردا جدا فى بعض الايام ، وأكون انا مثقلا بأنواع الهموم والاحزان ، بل قولى ان الحزن يعترينى على حين فجأة ، فيكفى أن يقع لى شىء مزعج حتى أفقد قدرتى على ضبط نفسى ... فاذا أنا أسير فى طريق الضلال ... أشرب كأسا أو كأسين زيادة . ويستاء منى بتروشا عندئذ استياء شديدا ، ويغضب غضبا قويا يا فرفارا ألكسيفنا، ويأخذ يلومنى ويقرعنى ويعظنى وينصحنى بغير انقطاع ... لذلك أريد أن أبرهن له الآن ، بهذه الهدية التى سأهديها اليه ، اننى قد أصلحت ما فسد من أمرى ، واننى بدأت أسلك فى الحياة سلوكا حسنا . أريد أن أريه اننى وفرت بعض القروش لأشترى كتابا ، أريد أن أريه اننى ظللت أدخر زمنا طويلا حتى جمعت ما أشترى به كتابا . ذلك أننى

لا أملك من المال الا ما يعطينيه بتروشا من حين الى حين ، وهو يعلم ذلك، فسيرى اذن ماذا أفعل بالدريهمات التي ينفحني بها ، وسيرى أنني فعلت ذلك من أجله .

شعرت نحو العجوز بشفقة كبيرة . ولم ألبث أن عزمت أمري . وكان ما يزال ينظر الىّ قلقا . فقلت له :

ـ اسمع يا زاكار بتروفتش ، ستعطيه أنت الأحد عشر كتابا كلها .

ـ كيف هذا ؟ كل الكتب ؟ أعطيه الكتب كلها ؟

ـ نعم ، كلها .

ـ مني أنا ؟

ـ نعم منك أنت ؟

ـ أي هدية اليه مني أنا ؟

ـ نعم هدية اليه منك أنت ، منك أنت .

أحسب انني قلت ما قلت واضحا كل الوضوح ولكنه لم يفهم الا بعد زمن . فعاد يقول ساهما شارد اللب :

ـ طيب ! سيكون هذا شيئا عظيما ، عظيما حقا . ولكن أنت يا فرفارا ألكسييفنا ... ماذا تفعلين في هذه الحالة ؟

ـ الأمر بسيط . لن أهدى اليه شيئا !

صاح العجوز كمن اعتراه ذعر على حين فجأة :

ـ كيف ؟ كيف ؟ لاتهدين شيئا الى باتنكا ؟ ألا تحبين اذن أن تقدمى اليه هدية ؟

كان العجوز مدهوشا أشد الدهشة ، حزينا أبلغ الحزن ، وأحسب انه كان مستعدا للتراجع عن اقتراحه أصلا من أجل أن أستطيع أنا أن أهدى الى ابنه شيئاً . يا لقلب هذا العجوز ما أطيبه ! فطمأنته قائلة انه يسعدني أن أقدم الى ابنه هدية ولكنني لا أريد أن أحرمه من فرحته . قلت : « اذا سر ابنك بالهدية ، وسعدت أنت بذلك ، فسأكون أنا أيضا سعيدة ، لأنني سأشعر ، في قرارة نفسي ، بأنني أهديت اليه هذه الكتب حقا » . اقتنع العجوز بكلامي أخيرا . ولبث في منزلنا ساعتين أيضا ، لا يستقر في مكان ، بل ينهض ويتحرك ويصخب ويلاعب ساشا لعب الأطفال ، ويقبلني خفية أو يقرصني في ذراعي ويجعد وجهه مستهزئا بآنا فيدوروفنا خلسة دون أن تراه ، حتى طردته آنا فيدوروفنا آخر الأمر . الخلاصة أن العجوز جن جنونه حماسة كما لم يقع له ذلك يوما من قبل .

وحل اليوم العظيم ، فجاء العجوز في الساعة الحادية عشرة تماما ، بعد الصلاة رأسا ، مرتديا ثيابا أحسن ترقيعها ، مع صديرة جديدة وحذاءين جديدين حقا ، ممسكا في كل يد بحزمة من كتب . كنا جميعا في تلك اللحظة عند آنا فيدوروفنا نحتسي قهوة (كان اليوم يوم أحد) . وطفق العجوز يتكلم على بوشكين فيما أظن ، قائلا عنه انه شاعر ممتاز . ثم اضطرب وارتبك وقال فجأة ان على الانسان في هذا العالم أن يسلك سلوكا لائقا ، فاذا سلك أحد سلوكا سيئا كان لنا أن نستنتج من ذلك أنه يتبع طريق الضلالة . وأضاف يقول ان الميول السيئة تقود الانسان الى الضياع والدمار . حتى لقد استشهد بحالات من الافراط والانحلال تستحق أن تكون عظة وعبرة ، وأعلن في ختام كلامه أنه قد أصلح نفسه منذ زمن ، وان سلوكه أصبح سلوكا سليما لا غبار عليه ولا عيب فيه ، سلوكا يمكن أن يعد قدوة ، وانه كان قد أحس من قبل بصدق مآخذ

ابنه عليه ، وأدرك منذ زمن طويل أنها صحيحة كل الصحة ، فعزم أمره على اتباع وصاياه ، فاستطاع أن يصل الى ذلك حقا ، فهو الآن قد كف عن الشراب لا قولا بل فعلا ، والدليل على ذلك انه يهدى الى ابنه هذه الكتب التي اشتراها بما ادخر من مال خلال مدة طويلة •

كنت أصغى الى كلام العجوز فما أستطيع أن أمسك عن الضحك والبكاء معا الا فى كثير من العناء • انه يعرف كيف يحسن الكذب عند الضرورة •• حُملت الكتب الى غرفة بوكروفسكى ، ووضعت على أرضها • وحزر بوكروفسكى الحقيقة فورا • ودعى العجوز الى تناول طعام الغداء معنا • فكنا جميعا سعداء كل السعادة طوال ذلك اليوم • وبعد الغداء لعبنا بالورق • وأكثرت ساشا من الحركة منقادة لطبعها الحى ، ومزاجها العنيف •

وجاريتها أنا فى ذلك • وأظهر بوكروفسكى اهتماما خاصا بى ، حتى لقد حاول مرارا أن يكلمنى على انفراد ، ولكننى لم أستجب له • كان ذلك اليوم أسعد أيام حياتى فى تلك السنين الاربع •

أصل الآن الى ذكريات حزينة موجعة • ان كل ما تلا ذلك كان أليما شاقا • سأتكلم الآن عن الأيام السود من حياتى • وربما كان هذا هو السبب فى أن قلمى يقاوم فيتحرك على الورق تحركا أبطأ ، كأنه يرفض أن يكتب مابقى علىّ أن أقوله • ولاشك أن هذا هو ما خصنى على الاسترسال ، بكل ذلك الانفعال وذلك الحب ، فى سرد أدق تفاصيل حياتى المسكينة فى ذلك العهد الذى كنت فيه سعيدة • كان عهدا قصيرا جدا ثم تتالت المصائب بعد ذلك ، سوداء سوداء لا يعلم الا الله هل تنتهى فى يوم من الأيام •

ابتدأت مصائب حياتى بمرض بوكروفسكى وموته • لقد مرض

بوكروفسكى بعد انقضاء شهرين على الحوادث التى أتيت على وصفها . كان فى الأسابيع الأخيرة قد بذل جهودا كبيرة ، ذاهبا هنا وهناك من أجل أن يكفل لنفسه موردا يعيش منه ، لأن وضعه لم يكن على شيء من الاستقرار والاطراد . وظل الى آخر لحظة كسائر المصدورين يأمل أن يعيش طويلا . وقد عُرض عليه أن يوظف معلما فى مكان ما، ولكن هذه المهنة كانت ترعبه . وحرمه سوء صحته من أن يعيَّن لوظيفة من وظائف الدولة ، ولو قد عين لوظيفة من هذه الوظائف لكان عليه أن ينتظر زمنا طويلا قبل ان يتقاضى شيئا من راتبه على كل حال . الخلاصة انه لم يلق الا اخفاقا بعد اخفاق فى كل جهة من الجهات ، فساء طبعه وفسد مزاجه ، وكان مرضه يتفاقم أثناء ذلك ولكنه لم يشعر بهذا التفاقم. وجاء الخريف. فكان يخرج كل يوم بمعطفه الرقيق الخفيف الذى كان يرتديه طالبا، يحاول أن يحسن أحواله بالتماس وظيفة فى أى مكان ، واستعطاء عمل من الأعمال أيا كان ، فكانت هذه المساعى تعذب نفسه عذابا مريرا . وكان الماء ينفذ فى حذائه ، وكان يعود الى البيت مبللا بالمطر ، الى أن جاء يوم اضطر فيه أن يلزم فراشه ، ثم لم يبارحه بعد ذلك الا الى القبر ... مات فى وسط الخريف قبل نهاية شهر تشرين الاول (أكتوبر) .

أستطيع أن أقول اننى لم أكد أترك غرفته طوال مدة مرضه، أعتنى به وأسهر عليه ، حتى لقد اتفق أن أنفقت ليالى بأسرها قرب سريره . كان يندر أن يفيق من غيبوبته . انه يهذى فى كثير من الأحيان ، ويقول كلاما لا يعلم الا الله ما هو . يتحدث عن الوظيفة التى يبحث عنها ، وعن كتبه ، وعن أبيه ... وبهذا عرفت عن حياته تفاصيل كنت أجهلها الى ذلك الحين ، بل ما كان يمكن أن تخطر لى على بال . كان جميع من فى المنزل ينظرون الىَّ نظرة غريبة فى أول عهده بالمرض ، وكانت آنا

فيدوروفنا تهز رأسها استنكارا واستياء ، ولكنني لم أغض بصري ، فسرعان ما كفوا عن لومي على اهتمامي بالمريض ، ولا سيما أمي .

وكان بوكروفسكي يعرفني في بعض اللحظات ، ولكن ذلك لايحدث الا نادرا ، فلقد كان في أكثر الأحيان غائبا عن نفسه . وسمعته في بعض الليالي يناقش شخصا في خيـاله مناقشة طـويلة . ان كلامه غامض مبهم لا يتميز ولا يبين ، وان صوته الذي يشبه أن يكون صادرا من كهف يدوي في الحجرة الصغيرة دويّه في قبر . كنت في تلك اللحظات أشعر بخوف . وفي الليلة الأخيرة خاصة ، كان بوكروفسكي في حالة غريبة من الهياج . كان يعاني آلاما مبرحة ، فهو يئن ويتأوه ، فتمزق شكاواه قلبي تمزيقا . وظهر الذعر في وجوه جميع من في المنزل . حتى لقد أخذت آنا فيدوروفنا تدعـو الله أن يأخـذه اليه بأقصى سرعة . ودعي الطبيب ، فقال ان المريض سيموت في نحو الصباح حتما .

قضى العجـوز بوكروفسكي الليـل كله في الدهليز أمام باب غرفة ابنه ، حيث فرشوا له بساطا على الارض . كان يدخل على ابنه في كل لحظة مستطلعا . ان منظـره مخيف حقا . كان الحـزن يسحقه سحقا ، حتى ليبدو من شدة الانسحاق فاقد الاحساس بليد الشعور . وكان رأسه يترنح جزعا . وكان جسمه كله يرتجف ويرتعش . وكان يدندن هامسا بغير توقف كأنه يجـادل نفسه . قدرت انه سيصـبح مجنـونا من فرط الأسى .

حتى اذا جاء الفجـر نام العجـوز على البساط وقد أرهقه العـذاب وأنهك قواه . وأخذ الابن يحتضر في نحو الساعة الثانية ، فأيقظت الأب . كان بوكروفسكي صاحيا صحوا كاملا في تلك اللحظة ، فودعنا جميعا . شيء غريب ! لم أستطع أن أبكي ، ولكن روحي كانت تتمزق .

واللحظات الأخيرة هي التي عذبتني أكبر العذاب • ان بوكروفسكي يطلب بلسانه المتلعثم المختلط شيئا ما ، فلا أستطيع أن أفهم ماذا يريد • كان قلبي يتحطم ألما ويأسا • ظل بوكروفسكي يتحرك ويضطرب ساعة كاملة وقد تملكته رغبة عجزت عن فهمها ، فهو يحاول أن يفصح عنها باشارات من يديه الباردتين أولا ثم يأخذ يتوسل بصوت منطفىء شاك أصم تخالطه حشرجات منذ ذلك الوقت ، ولكن الكلمات التي يلفظها ما هي الا أصوات متقطعة مبهمة أظل عاجزة عن ادراكها • أتيته بجميع من في المنزل واحدا بعد آخر ، وعرضت عليه ماء لعله يريد أن يشرب ، ولكنه كان يهز رأسه بالنفي هزا حزينا •

وأدركت أخيرا قصده • كان يطلب مني أن أزيح ستارة النافذة وأن أفتح مصراعيها • لعله كان يريد أن يلقي نظرة أخيرة على ضوء النهار ، على خليقة الله ، على الشمس • فأزحت الستارة ، ولكن ضوء النهار كان شاحبا حزينا ، كالحياة التي تنطفىء في المسكين المحتضر •

لم يكن ثمة شمس ، فالغيوم تغشى السماء بحجاب صفيق كثيف ، والجو ممطر ، وكل شيء يبدو قاتما مظلما حزينا • هذا رذاذ من مطر ينقر الزجاج ويتزحلق عليه خيوطا من الماء باردة متسخة • ان ضوء النهار لا يكاد يدخل الغرفة ، ولا يكاد يستطيع أن يكبي ضوء المصباح الصغير المشتعل أمام الأيقونة • وألقى عليّ المحتضر نظرة أخيرة مثقلة بحزن كبير ، وهز رأسه • فما هي الا دقيقة واحدة حتى كان ميتا •

اتخذت آنا فيدوروفنا الاجراءات اللازمة للجنازة • اشترى تابوت بسيط ، واستؤجرت عربة صغيرة • ومن أجل أن تعوض آنا فيدوروفنا خسارتها استولت على جميع الكتب وعلى الأمتعة الشخصية التي تركها المتوفى • فاحتج العجوز وشاجرها شجارا صاخبا ، واسترد ما استطاع أن

يسترد من مجلدات حشا بها جيوبه وحشا بها قبعته ولم يشأ أن ينفصل عنها خلال الايام الثلاثة التالية ، وظل يحملها حتى حين آن أوان الذهاب الى الكنيسة • كان يبدو أنه أصبح أبله ، فهو ما ينفك يضطرب حول التابوت غبيّ الحركات كأنما هو يريد أن يحيط التابوت بعنايته ، فتارة يعدل العصبة على جبين المتوفى ، وتارة يشعل الشموع أو ينقلها من موضعها • كان واضحا أن فكره لا يستطيع أن يثبت على شيء• ولم تحضر أمي ولا آنا فيدوروفنا صلاة الجنازة فى الكنيسة • أما أمى فلأنها كانت تحس انها مريضة ، وأما آنا فيدوروفنا فلأنها تشاجرت فى اللحظة الاخيرة مع العجوز بوكروفسكى ، بعد أن كان فى نيتها أن تحضر الصلاة ، فآثرت بعد تلك المشاجرة أن تبقى فى البيت • حضرت اذن صلاة الجنازة وحدى مع الاب • واعترانى أثناء القداس نوع من الغم والخوف ، كأننى أوجس شرا سيقع فى المستقبل • ولم ألبث فى الكنيسة الى آخر القداس الا وقد خارت قواى • وأغلق التابوت أخيرا ، وسمر ، ووضع على العربة ، فسرعان ما سارت به فورا • لم أرافق العربة الا الى آخر الشارع ، ذلك ان الحوذى لكز الحصان هنالك فأخذ يجرى عدوا• فكان العجوز يركض وراء العربة باكيا بصوت عال ، وكانت سرعة الركض تقطع انتحاباته • وقد سقطت قبعة العجوز عن رأسه فلم يرض أن يتوقف عن الركض لتناولها ، فكان المطر يبلل رأسه ، وهبت ريح قارسة ، فكان البرد الشديد يلسع وجهه التى تصفعه الرياح • ولكن العجوز لا يشعر بشيء ، ولا يحس شيئا ، ولا ينفك ينتقل وراء العربة من جانب الى جانب باكيا • ان أذيال « ردنجوته » الرث تطير وترتفع فى الهواء كالأجنحة ، وان الكتب تخرج من جيوبه وتسقط على الارض، ولكنه ممسك بيديه كتابا ضخما منها يبدو متشبثا به تشبث الغريق بقارب النجاة • كان المارة يرفعون قبعاتهم ويرسمون اشارة الصليب ، وكان

آخرون يتوقفون ويأخذون ينظرون الى العجوز البائس مدهوشين • وفى كل لحظة تفلت من جيوب العجوز كتب فتسقط على وحل الطريق ، فكان الناس يستوقفونه وينبهونه الى سقوط الكتب فيتناولها ويستأنف ركضه ليلحق بمركبة الميت • وقد انضمت اليه عند ناصية الشارع امرأة فقيرة أشبه بشحاذة عجوز ، فشاركته السير وراء هذه الجنازة التى لم يتبعها أحد غيرهما • وانحرفت العربة فغابت عن بصرى أخيرا • فقفلت راجعة الى المنزل ، فما ان وصلت حتى ارتميت على صدر أمى وأنا أشعر بحزن عميق لا يوصف • ضممت أمى فى ذراعى ضما قويا ، وأغرقتها بالقبل باكية منتحبة ، وشددت جسمى الى جسمها خائفة جزعة ، كأننى أحاول أن أحبس فى حضنى آخر صديق بقى لى فى هذا العالم ، لأدفع عنه الموت ••• ولكن ملاك الموت كان يحوم منذ ذلك الحين حول أمى المسكينة •

١١ حزيران (يونيه)

كيف أشكر لك ، ياماكار ألكسيفتش ، نزهة الأمس فى الجزر ؟ ما أحلى طراوة الجو هنالك ، وما أجمل خضرة الطبيعة ! اننى ما رأيت خضرة منذ زمن ! كنت أعتقد طوال مدة مرضى اننى سأموت ، وكنت أعد موتى قريبا محتوما لا مناص منه . فلك أن تقدر اذن ماذا كان شعورى أمس أثناء تلك النزهة . لا تؤاخذنى على اننى كنت حزينة ذلك الحزن كله طول الوقت . والحق اننى كنت مسرورة جدا سعيدة جدا . ولكن أجمل لحظات سعادتى لا بد أن يخالطها دائما شىء من حزن . ولئن بكيت قليلا فلا تعبأ بهذا ولا تلتفت اليه : أنا نفسى لا أدرى لماذا أبكى فى بعض الأحيان . اننى حادة الشعور ، سريعة الاهتياج ، وجميع مشاعرى يمازجها ألم . لعل شحوب الجو ، وصفاء السماء ، وغياب الشمس ، وهدوء الأفق ، لعل ذلك كله قد ساهم فى هذا ... لا أدرى ... وأغلب الظن اننى كنت بالأمس مهيأة لأن أحس الأشياء بنفس حزينة وقلب مثقل ، حتى لتوشك روحى أن تنفجر فى بعض اللحظات ، فتنهمر الدموع من عينى على حين فجأة . ولكن لماذا أكتب لك هذه الاشياء ؟ تلك الاشياء مؤلمة ، والتعبير عنها مؤلم أكثر منها أيضا . لعلك تفهمنى مع ذلك : لقد كنت فرحة حزينة فى آن واحد . ما أطيبك يا ماكار ألكسيفتش ! كنت بالأمس لا تنى تنظر فى عينىّ بغية أن تقرأ مشاعرى ، وكانت نفسك تفيض حماسة اذا رأيت حماستى . عند كل غابة صغيرة نراها ، وفى كل شعب نسير فيه ، وأمام كل غدير نقف عليه ، كنت دائما تتقدمنى معتزا كل الاعتزاز ، وتنظر الى عينىّ بغير انقطاع ، كأنك تطوف بى فى أراضيك ، تظهرنى على جمالها وتحملنى على الاعجاب بها . هذا كله يشهد بأن لك قلبا طيبا نبيلا يا ماكار ألكسيفتش . وذلك بعينه هو ما يجعلنى أحبك .

وداعا الآن • لقد عاودني المرض اليوم • فان قدمي تبللتا أمس فأصابني برد • وفيدورا متوعكة أيضا • ان بيتنا يضم الآن مريضتين اثنتين • لا تنسني وأكثر زياراتك •

المخلصة لك : ب•د

١٢ حزيران (يونيه)

عزيزتي فرفارا ألكسييفنا ، يا يمامتي

كنت أتوقع يا ماتوشكا ، أن أقرأ لك قصائد طويلة من شعر في وصف ذلك النهار الذي قضيناه معا بالجزر ، ولكنك لم تكتبي الا صفحة واحدة صغيرة • واذا كنت أقول هذا ، فلأن ما كتبته قليل حقا ، ولكن ما كان أجمل ما قلته ، وما كان أروعه ! لقد ضمت رسالتك كل شيء : وصفت الطبيعة ، وصورت مناظر الريف ، وعبرت عن أنبل المشاعر والعواطف ، هل هناك شيء لم تضمه هذه الرسالة القصيرة ؟ لقد وصفت كل شيء وصفا يبعث على الاعجاب ، أما أنا فليس لي موهبة • فمهما اسودّ من صفحات وصفحات ، فانني لا أعبر عن شيء ، ولا أصل الى شيء • لقد حاولت فما ظفرت •

تقولين ، يا صديقتي العزيزة ، انني انسان شهم طيب القلب ، وانني عاجز عن ايذاء أحد من الناس، وانني أقدّر ماأودع اللهخليقته من صنوف الجمال ، وتكيلين لي كل أنواع المديح والاطراء • هذا كله حق ياماتوشكا هذا كله صدق• أنا كما تصفين فعلا ، أعرف ذلك بنفسي • ولكن حين

أقرأ أشياء كالتي تقولينها في رسالتك ، فان قلبي يرق على غير ارادة مني ، ثم تغزوني خواطر سود وأفكار حزينة • اسمعي يا ماتوشكا ، هناك ما أحب أن أقصه عليك أنا أيضا يا صديقتي العزيزة •

اعلمي أولا انني حين عينت موظفا لم أكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمري ،فخدمتي في الوظيفة تقارب ثلاثين عاما ، وسأستطيع أن أحتفل قريبا بمرور ثلاثين عاما على عملي في هذه الوظيفة • آه ما أكثر ما أبليت من أردية رسمية خلال هذه المدة ! ولقد تقدمت في السن ، وأمعنت في الجد ، ونضج فكري ، وتعلمت معرفة الناس • لقد عشت ، نعم لقد عشت؛ أستطيع أن أقول انني عشت في هذا العالم ، حتى لقد أوشكت أن أرشح لنيل وسام • قد لا تصدقين كلامي ولكنني أقول لك الحقيقة • ومع ذلك وجد أناس أشرار آساءوا الى ونالوني بأذى • لا أكتمك يا صديقتي الطيبة انني رجل مغلق ، رجل محدود من غير شك ، ولكن قلبي لا يقل طيبة عن قلب أي انسان آخر ••• هل تعلمين يا فارنكا ما صنع بي أولئك الأشرار ؟ ولكن فيم الكلام على ما صنعوه بي ! الأحرى أن تسأليني لماذا صنعوا بي ما صنعوه ؟ لأنني انسان بسيط رقيق هادئ• طيب القلب لم يرق لهم أن أكون كذلك ، فكان لا بد أن أدفع الثمن • وهجموا عليّ • قالوا في أول الأمر : « أنت كيت وكيت يا ماكار ألكسييفتش »• ثم قالوا « أما ماكار ألكسييفتش ، فلا داعي الى الكلام عنه » ، وانتهوا الى أن يقولوا : «.هو ماكار ألكسييفتش ما في ذلك ريب » • أرأيت ياماتوشكا كيف وقع هذا كله ؟ كل شيء يقع على ماكار ألكسييفتش • وجدوا أن خير ما يفعلونه أن يشهّروا بي في المنطقة كلها ، حتى صار ماكار ألكسييفتش مضرب المثل ، ثم لم يكفهم أن يصبح اسمي مضرب المثل ، وأن يصبح شتيمة وسبة تقريبا، بل راحوا يهاجمون حذاءي وردائي‌الرسمي وشعر رأسي ، وحتى وجهي• لم‌يرضهم شيء فيّ، فكان‌عليّ أن أبدل كل

شيء على مايرضون . وهذا كله يستمر منذ زمن سحيق ، ويتكرر كل يوم. ولقد تعودت في آخر الأمر، لأنني أتلاءم مع كل شيء ، لأنني انسان مسالم، لانني انسان بسيط متواضع ، ولكن لماذا هذا كله ، لماذا ؟ قولي لي : لماذا هذا كله ؟ بمن ألحقت أذى ؟ هل منعت أحدا أن يرفع ؟ هل وشيت بأحد الى الرؤساء ؟ هل نلت مكافآت لا أستحقها ؟ هل دبرت مكائد ؟ هل هيأت دسائس ؟ حرام أن يظن بي ذلك ... وهل في وسعي أن أفعل شيئا من هذا ؟ احكمي بنفسك يا صديقتي العزيزة : هل لي من الذكاء ما يمكنني من الغدر والمكر والوقيعة . فلماذا يهاجمونني اذن ذلك الهجوم الشرير ؟ غفر الله لي ! أنت ترين انني رجل محترم ، فأنت خير منهم جميعا يا ماتوشكا . ولنتساءل : ما أفضل الفضائل المدنية ؟ لقد صرح أوستاش ايفانوفتش مؤخرا ، أثناء حديث خاص له ، ان أفضل الفضائل المدنية هي أن يعرف المرء كيف يكدس المال . قال ذلك مازحا (أنا أعلم انه قال ذلك مازحا) ، ولكن العبرة التي يجب أن نستخرجها من قوله هي ان من واجب الانسان أن لا يكون عالة على أحد في هذا العالم . وأنا امرؤ لا أعتمد على أحد . انني أملك ما أضمن به لنفسي كسرة خبز . هي كسرة خبز بسيطة ، أعترف بذلك ، والخبز جاف يابس أحيانا ، هذا صحيح ، ولكنه لي ، كسبته بعملي حلالا وآكله محافظا على شرفي. فماذا يريدون مني أكثر من ذلك ؟ أنا أعلم حق العلم انه ليس بالمزية الكبيرة أن أعمل ناسخا طول النهار ، ولكنني فخور بعملي . انني أقوم به جادا مخلصا ، وأتعب في سبيله وأعرق . أهي خطيئة أن يعمل امرؤ ناسخا ؟ يخيل الي أنهم ماينفكون يهزأون بي قائلين « هه ... هه ... هذا ناسخ .. هذا ناسخ » . فهل في النسخ مايشين ، هل فيه ما يلطخ الشرف ؟ ان خطي واضح جلي يسر الناظرين ، وصاحب المعالي راض عنه كل الرضى . انني أنسخ لصاحب المعالي وثائق هي على جانب عظيم

من خطورة الشأن ، صحيح انني لست بذي أسلوب • لست أجهل ذلك، أعلم انني لا أملك شيئا من أسلوب ، لعن الله الأسلوب • لذلك لم أرتق في وظيفتي • ولذلك أيضا أكتب اليك في هذه اللحظة يا صديقتي العزيزة ببساطة تامة ، لا أنمق العبارات بل أقول ما أقول عفو الخاطر كما أحسه في قلبي • أنا أعرف كل هذا • ولكن قولي : لو كان كل انسان يكتب من نفسه ولنفسه فمنذا الذي سيقوم عندئذ بعمل النسخ ؟ ذلك هو السؤال الذي أطرحه عليك ، وأطلب منك أن تقولي أأنا على حق فيه أم لا ؟ انني أدرك اليوم أن هناك حاجة الىّ ، وانني لا غنى عني ، وانه ليس من الخير أن يحاول الناس ازعاج انسان شريف دون ما داع الى ذلك ، وأن يناكدوه في أمور سخيفة تافهة • فليعدوني فأرا ما داموا قد وجدوا بيني وبين الفأر شبها • أسلم لهم بذلك • ولكن للفأر ضرورته أيضا ؛ ان له نفعا في هذا العالم ، وقد يُحرص على الفأر أحيانا ، وقد يعطى الفأر مكافآت ••• أنا فأر من هذا النوع • كفاني الآن كلاما في هذا الموضوع ياصديقتي العزيزة ! وعلى كل حال فليس هذا ما كنت أريد أن أكتب اليك فيه • غير أنني تحمست قليلا • ومن الممتع مع ذلك أن ينصف المرء نفسه من حين الى حين • وداعا يا صديقتي العزيزة ، يا يمامتي ، يا عزاء قلبي • سأجيء اليك • سأزورك حتما ، يا شعاع ضيائي ، يا نور عيني • لا تسأمي كثيرا بانتظار ذلك • سأحمل اليك كتابا • وداعا الآن يا فارنكا•

صديقك المحب المخلص

ماكار ديفوشكين

عزيزى السيد ماكار ألكسييفتش !

أكتب اليك على عجل ، لأن على أن أسرع ، فهناك شغل يجب أن أنجزه اليوم لأقدمه الى أصحابه . اسمع ما سأقوله لك : هناك فرصة مواتية لصفقة مغرية . لقد قالت لى فيدورا ان لدى أحد معارفها رداء كاملا من أردية الموظفين يريد أن يبيعه ، وهو جديد تقريبا ، مع سروال وصديرة وقبعة ، ويظهر انه معروض للبيع بسعر زهيد . لست الآن فى عوز ، فلديك قليل من مال ادخرته ، قلت لى هذا أنت نفسك فلا تمانع ولا تكن بخيلا . ذلك أمر لا بد منه . انظر الى نفسك ، انظر الى ثيابك كم أصبحت خلقة بالية رثة ؟ ألا تخجل أن ترتدى هذه الثياب التى لايخلو موضع فيها من ترقيع ؟ وليس عندك رداء رسمى جديد . أنا أعرف ذلك رغم أنك تنفيه وتدعى نقيضه . الله يعلم أين ذهبت به ، أين ذهبت بالرداء الجديد ، أين بعته ! فاسمع كلامى ، واتبع نصيحتى ، واشتر هذا الرداء، أرجوك . افعل ذلك من أجلى . اذا كنت تحبنى فبادر الى شرائه .

لقد بعثت الىّ بقمصان هديةً منك . فلماذا تدمر نفسك هذا التدمير يا ماكار ألكسييفتش ؟ لا شك أن القمصان قد كلفتك ثمنا باهظا . كيف تستطيع أن تبذل كل هذه النفقات فى سبيلى ؟ حقا انك تجد متعة فى التبذير وتبديد المال سدى . لم أكن فى حاجة الى هذه القمصان . كل هذا زائد عن الحاجة . أنا أعلم حق العلم انك تحبنى ، لا شك فى ذلك قط . صدق انك لست فى حاجة الى تذكيرى به عن طريق الهدايا . انه ليشق على نفسى قبول هذه الهدايا منك . فأنا أعلم انها تكلفك نفقات باهظة . كفى هدايا . أقول لك هذا مرة واحدة . هل تفهمنى؟ أرجوك، أتوسل اليك أن تكف . وتسألنى يا ماكار ألكسييفتش أن أبعث اليك بتتمة ذكرياتى . انك تتمنى أن أنجز كتابتها كاملة . لا أدرى كيف فعلت حتى كتبت ما سبق أن بعثت به اليك لتقرأه ، ولكننى أعتقد اننى لن أملك من

القوة ما يمكنني من الرجوع الى الماضي • انني أوثر أن أنسى هذا الماضي• تلك ذكريات أخاف منها • أما أمي المسكينة التي تركت ابنتها الشقية فريسة لهؤلاء الشياطين فان الكلام عنها يشق على نفسي أكثر من الكلام عما عداها أيضا • ان دمي يفور في قلبي حين أفكر فيها • كل هذه الأمور ما تزال حية في نفسي • لم يتسع وقتي لأن أثوب الى رشدي تماما بل ولا أن أهدأ بعض الهدوء رغم أن سنة بكاملها قد انقضت منذ ذلك الحين • ثم انك تعلم كل شيء على كل حال •

حدثتك عن أحوال أنا فيدوروفنا الآن • انها تصفني بالعقوق ، وتتنصل من كل تبعة ، وترفض اتهامها بأنها كانت شريكة بيكوف في ذنبه• وهي تدعوني أن أعود الى منزلها ، قائلة ان تظاهري بأنني ضحية لايخدعها عن أمري ، وانني أسير في طريق الضلال • وهي تعد بأن تصلح الأمور مع السيد بيكوف ، وأن تجبره على اصلاح أخطائه نحوي اذا أنا عدت الى منزلها • وقد أكدت ان السيد بيكوف على استعداد لأن يفحني بائنة • انني أوثر أن أتجاهله • انني مرتاحة هنا ، معك ، ومع فيدورا الطيبة التي يذكرني اخلاصها بالمرحومة مربيتي • أما أنت فانك تحميني بسلطة اسمك ، رغم انك لاتمت الي الا بقربى بعيدة • انني أعرف أولئك الناس على حقيقتهم • سأحاول أن أنساهم اذا استطعت ذلك • ماذا يريدون مني بعد كل ما فعلوا ؟ فيدورا ترى أن ذلك كله ليس الا أقاويل يتقولونها ، وانهم سيدعونني وشأني هادئة آخر الأمر • أسأل الله أن يصدق رأيها •••

ب • د

يا يمامتي ، يا ماتوشكا !

أريد أن أكتب اليك ، ولكنني لا أعرف من أين أبدأ • أليس غريبا يا ماتوشكا أن نحيا الآن هذه الحياة أنا وأنت ؟ أقول هذا لأنني لم أعش

طوال حياتي الى الآن أياما حافلة بسعادة كهذه السعادة ، كأن الله قد شاء أن يهب لى بيتا وأسرة . ولكن ياابنتى، ياابنتى الصغيرة المعبودة، ما هذا الذى تقولينه بصدد تلك القمصان الأربعة الصغيرة التى أرسلتها اليك ؟ انك فى حاجة اليها ، علمت ذلك من فيدورا ، وانها لسعادة كبيرة لى يا ماتوشكا أن أستطيع تلبية رغباتك وتحقيق أمنياتك . فلا تحرمينى من هذه السعادة، لا تحزنينى ، لا تثيرى الاعتراضات تلو الاعتراضات طول الوقت . لم أعرف فى حياتى كلها فترة كهذه الفترة ، ولا عهدا كهذا العهد . لقد بدأت أعرف ما هى الحياة ، وأخذت أسير قدما فى هذا العالم : فأنا أشعر أولا بأننى أعيش حياة مضاعفة لأنك تسكنين على مقربة منى فيعزينى هذا كثيرا . وثانيا فان ساكنا من سكان منزلنا قد دعانى الى احتساء الشاى معه اليوم . انه جارى راتازايف ، الموظف الذى ينظم السهرات الادبية فى غرفته . سيُعقد اجتماع فى هذا المساء ، وسنتحدث فى الأدب . هذا ما نفعله الآن يا ماتوشكا ، هكذا نحن الآن ، ووداعا الى حين . أكتب هذا كله عفوا ، لغير ما غاية ، لا لشىء الا أن أعلمك اننى بخير ، ان صحتى حسنة . أبلغتنى ، ياروحى اللطيفة ، بواسطة تيريز ،انك فى حاجة الى قليل من الحرير المصبوغ لأشغالك فى الخياطة . سوف أشتريه لك يا ماتوشكا . سوف أشتريه لك . وسوف أشترى حريرا أيضا . سوف يسعدنى أن ألبى طلبك منذ الغد . ثم اننى أعرف أين تباع هذه الأشياء .
بانتظار ذلك أظل :

صديقك المخلص

ماكار ديفوشكين

٢٢ حزيران (يونيه)

عزيزتي السيدة فرفارا ألكسييفيينا !

يجب أن أبلغك ، يا صديقتي العزيزة جدا ، أن مصيبة كبيرة قد وقعت في منزلنا ، وهي حادث يثير أعمق العطف والشفقة . في نحو الساعة الخامسة من هذا الصباح خطف الموت أحدَ أولاد السيدة جورشكوف . لا أعلم المرض الذي أصيب به ، لا أدري أهو الحصبة أم هو مرض آخر ، وقد زرت أسرة جورشكوف هذه : أناس تعساء يا ماتوشكا . ما أقسى البؤس الذي يعيشون فيه ! وما أشد الفوضى في غرفتهم أيضا ! على أن هذا ليس بالأمر الذي يثير الدهشة : ان الأسرة كلها تعيش في غرفة واحدة ، قسمت قسمين بحاجز بسيط من قبيل الحشمة . لقد استطاعوا أن يحصلوا على تابوت صغير ، بسيط جدا لكنه جميل : اشتروه جاهزا . ان الولد المتوفى صبي في العاشرة من العمر كانوا يعقدون عليه آمالا كبارا . ان رؤيتهم تؤلم النفس حقا يا فارنكا . الأم لا تبكي أبدا ، ولكن من يراها يحس ان حزنا رهيبا يسحق قلبها سحقا . مسكينة . لعل موت الصبي قد خفف عنهم عبء اطعام شخص . ولكن ما يزال عندهم اثنان ، رضيع وبنت صغيرة عمرها ست سنين أو تزيد قليلا . أية بهجة يمكن أن يشعر بها المرء حين يرى طفلا يتألم ، وحين يكون هذا الطفل فلذة كبده ، ثم هو لا يستطيع أن يدفع عنه الأذى وأن يساعده في شيء ، أما الأب فقد كان جالسا على كرسيه المهتز ، بثيابه المهترئة القذرة ، لا يتحرك من مكانه ، ولكن الدموع تسيل على خديه . لعله لا يبكي حزنا بل يبكي هكذا ، من قبيل العادة ، لأن عينيه تخضلان من فرط ما أفسدهما البؤس والضعف . انه غريب جدا ، هذا الرجل ، ما يكاد المرء يخاطبه بكلمة حتى يحمر ويضطرب ويرتج عليه فما يستطيع

جواباه ورأيت البنت الصغيرة ، بنته ، متكئة على التابوت بوجه صغير مهموم حزين . مسكينة ! لاأحب ياعزيزتي فارنكا ، لاأحب أن أرى الاطفال مطرقين مفكرين ، هل تعلمين ؟ ليس منظرهم عندئذ بالمنظر الذى يسر القلب ! وكان ملقى على الارض شيء يشبه أن يكون «عروسا» من خرق، ولكن البنت لا تلعب بها، ظلت هنالك واقفة لا تتحرك، وقد أسندت احدى أصابعها الصغيرة الى فمها . أعطتها صاحبة البيت قطعة سكر ، فلم تأكلها، منظر حزين يا فارنكا ، أليس كذلك ؟

ماكار دييفوشكين

٢٥ حزيران (يونيه)

أرد اليك الكتاب الذى أعرتنيه ، هذا كتاب تستحيل قراءته . ان المرء ليخجل أن يمسكه بيده . أين وقعت على هذه الجوهرة الثمينة ؟ دعنا من المزاح ، هل تحب الكتب التى من هذا النوع حقا يا ماكار ألكسيفتش؟ لقد وعدونى هنا منذ حين بأن يأتونى بشيء أقرؤه . سأعيرك الكتاب اذا شئت . أما الآن فالى اللقاء .

حقا ان وقتى لا يتسع لكتابة مزيد .

ب . د .

٢٦ حزيران (يونيه)

عزيزتى فارنكا !

الواقع انني لم أكن قد قرأت هذا الكتاب يا ماتوشكا . وانما طافت عيناى على بضعة أسطر منه ، فبدا لى مسليا ، وقدرت أن صاحبه كتبه

ليضحك الناس ، وقلت لنفسي عندئذ : لا بد أن يكون مضحكا جدا ، وقد يحظى باعجاب فارنكا • فلذلك أرسلته اليك •

لقد وعدني راتازاييف بأن يعيرني أدبا شائقا ذا قيمة • هكذا سيكون عندك كتب يا ماتوشكا • ان راتازاييف يفهم أمور الأدب • انه رجل على جانب عظيم من العلم • وهو نفسه يكتب • ان له قلما سريع الحركة نشيطا • ويا لأسلوبه ما أجمله ! انه لذو أسلوب في كل كلمة يقولها • شيء لا يصدقه عقل • في أبسط جملة ، في الجملة المبذولة ، في جملة من الجمل التي يمكن أن أقولها أنا مثلا لفالدوني أو تيريز ، يستطيع هو أن يبث أسلوبا جميلا • انني أحضر سهراته أيضا : ندخن الغليون ، ويأخذ يقرأ لنا ، وتستمر القراءة أحيانا خمس ساعات متتالية ونحن نصغي اليه • لذة كبيرة ، متعة عظيمة ، جمال رائع ، أزهار ، أزهار طول الوقت: في كل صفحة تستطيعين أن تجمعي باقة من أزهار • ثم ان الرجل لطيف طيب القلب ، دمث الخلق • ما أنا أمامه ؟ لا شيء ، لا شيء البتة ، انه ذو شهرة ، أما أنا فماذا أنا ؟ لا شيء ! أنا لاوجود لي قط • ومع ذلك فهو لطيف جدا في معاملتي • انني أنسخ له بعض الاشياء • ولكن اياك أن تتخيلي يا فارنكا أن وراء هذا غرضا ، وانه يلاطفني لأنني أنسخ له هذه الاشياء • أبدا ، لا تصدقي وشايات كهذه الوشايات يا ماتوشكا •

لا تصدقي وشايات دنيئة كهذه الوشايات ، لا ، لا ، انني أقوم له بهذا العمل من تلقاء نفسي ، بملء ارادتي ، أنسخ كتاباته لأسره ، فاذا لاطفني فليسرني هو أيضا • هذا أكيد • انه رجل طيب ، طيب جدا ، وهو كاتب لا مثيل له •

الأدب شيء حسن يا فارنكا ، شيء جميل ، عرفت هذا اول أمس • وهو شيء عميق ، انه يثبت القلب ، ويثقف العقل ، وما الى ذلك • لا أذكر

كل ما قالوه عن هذا الموضوع في كتابهم • كان كتابا جيد الاسلوب ، الأدب لوحة أعني لوحة ومرآة ، يجد فيه المرء أهواء وتعبيرا ، ونقدا مرهفا غاية الزهافة ، وتعاليم تقوّم الاخلاق ، ووثائق •• تعلمت هذا عندهم ، هذا كله تعلمته عندهم • أعترف لك بصراحة يا ماتوشكا انني حين أجلس بينهم مصغيا اليهم (مدخنا غليونا مثلهم) فأسمعهم يتناقشون ويتكلمون في أمور شتى ، أحس فجأة أنني مضطرب جدا ، خجل جدا يا ماتوشكا • لا نملك أنا وأنت الا أن نصمت في مثل هذه الظروف • أشعر عندئذ انني غبي ، فأخجل من نفسي ، وأحاول خلال ساعات أن أوفق الى كلمة صغيرة ، الى نصف كلمة ، أقولها في المناقشة ، ولكن الكلمة لا توافيني كأنما على عمد • ما أشد الحسرة التي تعتريني في مثل تلك اللحظات يا فارنكا ! ما أشد الأسف الذي أشعر به حين أدرك انني لست من مستواهم ، وحين أتصور ، على حد تعبير المثل ، أنني كبرت ناسيا أن أحمل معي عقلي • في أي شيء أقضي أوقات فراغي مثلا ؟ أنام ، بغباء ، مع أن في امكاني أن أشغل نفسي بأمور ممتعة جميلة بدلا من هذا النوم الذي يزيد عن الحاجة • في امكاني مثلا أن أجلس الى منضدتي فأكتب شيئا • ويكون في هذا متعة لي ، ومتعة لغيري من الناس • ليتك تعلمين يا ماتوشكا كم يتقاضى هؤلاء الكتاب ثمنا لكتاباتهم سامحهم الله ! انظري الى راتازاييف هذا ! انه يقبض مالا كثيرا ، مالا كثيرا ! ماذا تكلفه كتابة صفحة ؟ ان في وسعه أن يكتب خمس صفحات في اليوم ، وقد قال لي انه يتقاضى عن كل صفحة ثلاثمائة روبل • فاذا اتفق له أن يضيف حكاية مضحكة أو شيئا طريفا حصل على خمسمائة روبل • انه يحصل عليها ، ولا مناص •• حتى لقد يُدفع له في بعض الأحيان ألف روبل•• ولكن هذا نادر ••• ما قولك في هذا يا فرفارا ألكسييفنا ؟ وليس ذلك كل شيء ••• ان عنده دفترا كتب فيه قصائد شعرية ، ليست بالقصائد

الطويلة ، وهو يطلب ثمنا لها سبعة آلاف روبل يا ماتوشكا ! تخيلي هذا ! ... ان هذا المبلغ يساوي ثمن عمارة ، ثمن منزل فخم ! قال لي انهم عرضوا عليه خمسة آلاف ، ولكنه رفض . أردت أن أرده الى الصواب فقلت له : « اقبل خمسة آلاف روبل من هؤلاء الناس يا أخي ، أقبل ما يعرضونه عليك ، اضحك عليهم ثم دعهم وشأنهم ، ثم ان خمسة آلاف روبل ثروة » ، فأجابني قائلا : « لا بل أريد سبعة آلاف ، وسيدفعونها لي أخيرا ، هؤلاء الأوغاد » . حقا انه لرجل فذ .

وما دمت أحدثك عنه يا ماتوشكا ، فلماذا لا أنقل اليك هنا جزءا من كتابه « أهواء ايطالية » ؟ ذلك هو عنوان أحد الكتب التي ألفها . اقرئي يا فارنكا ، ثم احكمي بنفسك .

« ... ارتعش فلاديمير ، وانطلقت أهواؤه جامحة عارمة غاضبة ، وأخذ الدم يغلي في عروقه ..

صاح يقول :

« ــ أيتها الكونتيسة ، أيتها الكونتيسة ، انك لا تعرفين مدى هذه العاطفة الرهيبة ، ولا تدركين مدى جنوني . لا ، لا ، ان أحلامي لم تكذبني الخبر . انني أحب ، أحب حانقا ، أحب منتشيا ، ساخطا ، أحب كما يحب رجل فقد عقله ، كل دم زوجك لن يكفي لاطفاء جذوة الحماسة الهاذية ، ولتهدئة النار التي تلتهمني . لن تستطيع حواجز تافهة وعقبات مسكينة أن تصد الامواج العارمة التي تهز قلبي هزا قويا لا سبيل الى مقاومته ، ولا أن تطفيء النيران الجهنمية التي تضطرم في نفسي المتعبة الظمأى . آه يا زنيائيد ، آه يا زنيائيد ! ..

« قالت الكونتيسة مدمدمة وهي تلقي رأسها على كتف الفتاة :

« ــ فلاديمير !

« فصاح سميلسيكى بالغا أوج الفرح والسعادة :

« ـ زنائيد !

« وانطلقت من صدره آهة . لقد أشعل الحريق أشعة ساطعه هيكل الحب ، وأرعش صدر العشيقين الشقين .

« عادت الكونتيسة تدمدم نشوى ، بينما كان صـــدرها ينهض وبينما كانت عيناها تلتمعان ، وبينما كان خداها يحمران :

« ـ فلاديمير !

« وتم زفاف جديد رهيب !

« وبعد نصف ساعة دخل الكونت العجوز مخدع زوجته ، فقال لها وهو يقرص خدها :

« ـ ألا يحسن ، يا غزالتى ، أن نطلب سماورا لضيفنا العزيز ؟

ما رأيك يا ماتوشكا ، صحيح ان فى هذا الكلام شيئا من الجرأة... أسلم لك بذلك ... ولا سبيل الى انكاره ... ولكن ما أجمله كلاما ، وما أعذبه أسلوبا ! ما هو جميل فهو جميل لا يمكن جحوده . وان شئت نقلت أيضا جزءا من قصة عنوانها : « أرماك وزليخة » .

تصورى يا ماتوشكا : ان القوزاقى ارماك ، الرجل الوحشى الشرس المخيف الذى غزا سيبيريا ، قد هام بحب زليخة ، ابنة القيصر السيبيرى كوتشوما ، التى وقعت أسيرة فى يده . هى قصة من عهد ايفان الرهيب كما ترين . اليك الحوار الذى قام بين ارماك وزليخة :

« ـ أأنت تحبيننى اذن يا زليخه ؟ ألا رددى هذا ، ردديه ...

« قالت زليخه مدمدمة :

« ـ أحبك يا ارماك .

« ـ ايه أيتها السماوات ، ايه أيتها السماوات ، لك الحمد والشكر! انني سعيد !

«لقد وهبت لي كل ماحلمت به نفسي الحارة العنيفة منذ أيام المراهقة. الى هنا قدتني يا كوكب مصيري ، ومن أجل هذا اذن انما دفعتني الى ه المكان البعيد وراء الحدود ، لسوف أجعل الناس جميعا يعجبون ب زليخة ، ولن يستطيع الرجال ، لن يستطيع هؤلاء الشياطين الغضا يلومونى ، آه ••• آلا ليتهم كانوا قادرين على أن يفهموا آلام رو الرقيقة ، وأن يروا القصيدة التي تضمها عبرة واحدة من عبرات حبيبتي زليخة ، آه ••• دعيني أكفكف هذه العبرة بقبلاتي ، دعيني أشرب هذه الدمعة المباركة ، هذه الدمعة الالهية ••• أيتها المخلوقة السماوية » •••

« قالت زليخة :

« ـ الناس أشرار ياارماك ، الناس ظالمون ، لسوف يضطهدوننا ، ويسوموننا سوء العذاب ، لسوف يستنكرون فعلتنا ويحكمون علينا ، يا عزيزي ارماك • ما عسى أن تصير اليه ، في مجتمعك البارد المتجمد المتغطرس الذي لا قلب له ، الفتاة المسكينة التي شبت وترعرعت بين ثلوج سيبيريا ، مسقط رأسها ، ولم تعش أبدا الا تحت خيمة أبيها • لن يفهمني الناس يا معبودي ، يا فارس أحلامي •

« فزأر ارماك يقول وقد جنت عيناه :

« ـ لسوف يهوى السيف القوازقي على رؤوسهم عندئذ صافرا ••

وتخيلي الآن يا فارنكا ، كيف سيكون اضطراب ارماك هذا حين يعلم أن زليخة قد قتلت ، ان الملك العجوز الاعمى كوتشوما قد استغل

ظلمة الليل ، فتسلل في غيبة ارماك الى معسكره وقتل ابنته هو ، بغية أن يضرب ارماك ، الذي سلبه نور عينيه وتاج ملكه ، ضربة قاضية .

« صاح ارماك يقول وهو في حالة غضب وحشي جنوني ، وقد أخذ يسن خنجره على مسن من حجر :

« ـ أحب صليل الحديد على الحجر . أحب الدم . أحب الدم . يجب أن أقتلهم جميعا ، يجب أن أذبحهم جميعا ، يجب أن أقطع أجسادهم اربا اربا ... » .

وبعد ذلك ، لما أدرك ارماك انه لن يقوى على أن يعيش بعد موت حبيبته زليخة ألقى بنفسه في نهر ارتيش ، وانتهت بذلك القصة .

اقرئي أيضا هذا المقطع القصير . لقد كتب بروح الوصف الهزلي ، للاضحاك لا أكثر :

« هل تعرفون ايفان بروكوفييفتش بولتوبوزوف ؟ ذلك الذي عض ايفانوفتش في ساقه ؟ ان ايفان بروكوفييفتش رجل خشن الطبع قليلا ، لكنه وهب مزايا كبيرة . ولا كذلك بروكوب ايفانوفييتش ، فانه يعبد أكل اللفت مع العسل . ذلك حين كان ما يزال متعلقا ببيلاجيا أنطونوفنا ... ولكن لعلكم لا تعرفون بيلاجيا انطونوفنا ؟ انها تلك المرأة التي تلبس تنورتها مقلوبة دائما ... » .

هذا للفكاهة يا فارنكا ، وما أجملها فكاهة ، كنا نمسك خواصرنا بينما هو يقرأ لنا هذه القصة . ولكنه فتى سفيه ، غفر الله له ! انني أسلم يا ماتوشكا بأن هذا الكتاب بذيء قليلا ، وأنه أيضا ماجن ، ولكنه من ناحية أخرى سليم جدا ليس فيه شيء من الحاد أو ليبرالية . يجب أن نلاحظ يا ماتوشكا ان سلوك راتازاييف سلوك ممتاز ، وهذا هو السر في انه كاتب رائع ، لا كغيره من الكتاب .

تخطر ببالي في بعض الاحيان فكرة غريبة : ماذا لو أخذت أنا أيضا، نعم أنا أيضا ، في كتابة شيء ؟ ما عسى يحدث عندئذ ؟ لنفرض مثلا انه ظهر في المكتبات ذات يوم ، دون سابق انذار ، كتاب بهذا العنوان : « قصائد ماكار ديفوشكين » ما رأيك يا ملاكي الصغير ؟ كيف تجدين هذا ، وما عسى تفكرين ؟ اما أنا يا ماتوشكا ـ يجب أن أعترف لك بالحقيقة ـ فانني متى نشر الكتاب لن أجرؤ أبدا على أن أضع قدمي في شارع نيفسكي ، بل لا يمكن أن يخطر ببالي أن أضع قدمي في هذا الشارع • ذلك ان كل واحد من الناس سوف يشير الي باصبعه قائلا : هذا هو ، هذا هو المؤلف ، هذا هو الكاتب ديفوشكين ، الشاعر ، انه هو بعينه ، انه ديفوشكين بدمه ولحمه » • ما عسى يحدث في تلك اللحظة يارب ! ما عسى يحدث بسبب حذاءي ؟ يجب أن أسر اليك عرضا ياماتوشكا ان حذائي مرقعان دائما • أما النعلان فكثيرا ما يتفق أن يفغرا على نحو غير لائق • فما عسى يحدث حين يعلم جميع الناس ان الكاتب ديفوشكين ينتعل حذاءين مرقعين ؟ لابد أن تعلم بذلك كونتيسة أو دوقة ما ، فما عساها تقول يومذاك ؟ انني أطرح عليك هذا السؤال ، لأنني أتخيل الكونتيسات لا ينتبهن الى الاحذية ، ولا سيما أحذية صغار الموظفين (ذلك أن الاحذية تتفاوت) ، ولكن لابد أن يروي الناس للكونتيسة ان حذاءي مرقعان • ان أصدقائي أنفسهم سيخونونني عندئذ ، وعلى رأسهم راتازاييف ••• لسوف يكون راتازاييف أول من يفضحني ••• انه يختلف الى الكونتيسة في أحيانا كثيرة • وهو يدعي انه يزورها بغير كلفة متى خطر بباله أن يفعل ، ويصفها بأنها امرأة فذة ، ضليعة في الأدب ، وانها سيدة حقا • يا له من نموذج عجيب راتازاييف هذا ! ••

ولكن حسبي ما كتبته الى الآن حول هذه الأمور •• انني أكتب اليك يا ملاكي لا لشيء غير أن أسليك •• أكتب اليك عفو الخاطر لأسري عنك

قليلا . وداعا يا يمامتي ، رسالتي اليك طويلة هذه المرة ، ومرد ذلك خاصة الى انني رائق المزاج . لقد تغدينا عند راتازاييف ، فما أعجب الأشياء التي تخيلتها هنالك ! (انهم صبية أشقياء مغترون ، يا ماتوشكا) ما أكثر الاشياء التي تخيلناها .. ولكنك لست من أستطيع التحدث اليه في تلك الاشياء ! أرجو أن لا تظني بي سوءا يا فارنكا . فانما ذكرت لك هـــذا عرضا .. سأبعث اليك بكتب حتما . انا نتداول هنا كتابا بعنوان « بول دوكوك » ، ولكن هذا الكتاب لم يخلق لمثلك يا عزيزتي . هو كتاب لا يناسبك ولا يليق أن تقرئيه . يقال ان هذا الكتاب قد أثار استياء نبيـلا لدى جميـع النقاد في سان بطرسبرج . أرسل اليك الآن رطلا من المربب اشتريته لك خصيصا . كليه يا روحي العزيزة واذكريني كلما قضمت قطعة منه . أما قنود السكر فلا تقضميه قضما بل مصيه مصا ، والا أوجع القضم أسنانك. لعلك تحبين مـسكر الشعير أيضا ؟ اذا كنت تحبينه فاذكري لي ذلك ، وداعا الآن ، وداعا . كان الله معك يا يمامتي . أما أنا فسأظل .

صديقك المخلص

ماكار ديبفوشكين

٢٧ حزيران (يونيه)

السيد العزيز ماكار ديبفوشكين

تؤكد فيدورا أن هناك أناسا يحبون أن يهتموا بأمري ، فيكفلوا لي عملا طيبا لدى أسرة من الأسر كمربية . فما رأيك يا صديقي ؟ أيجب أن أقبل أم لا ؟ واضح انني لن أبقى عالة عليك في هذه الحالة ، والأجر

حسن فيما يظهر • ولكنني من جهة أخرى أخاف قليلا أن أسكن لدى غرباء • هم أسرة من مالكي الأطيان • سوف يستعلمون عني ، وسوف يأخذون يلقون عليّ الأسئلة تلو الأسئلة ، سوف يستطلعون أمري فماذا أجيبهم عندئذ ؟ ثم انني عدا ذلك متوحشة كثيرا ، أحب الأركان التي عشت فيها زمنا طويلا ولا يروق لي أن أبارحها • ان المرء يشعر بالراحة والطمأنينة في الأماكن التي ألفها واعتادها ، مهما يكن قد لاقى فيها من شقاء • ثم ان هؤلاء الناس يقيمون في مكان بعيد • و لايدري الا الله ما الذي يتوقعونه مني ! لعلهم لا يريدون الا أن أكون خادمة للأطفال • وعدا ذلك ، فانهم لا يوحون اليّ بالثقة • لقد غيروا معلمة أولادهم ثلاث مرات في غضون سنتين • فما هي نصيحتك يا ماكار ألكسييفتش ؟ أرجوك أن تسدي الي بنصيحتك ، أيجب أن أقبل هذا العرض أم يجب أن أرفضه ؟ ••• ولكن قل لي : لماذا لا تجيء اليّ أبدا ؟ انه لينذر أن تضع قدميك عندي • فلا أكاد أراك الا يوم الأحد في الصلاة ! يالك من متوحش ! انك مثلي تماما ، ألست قريبتك ؟ أنت لا تحبني يا ماكار ألكسييفتش ، وكثيرا ما أشعر بحزن شديد حين أكون وحدي • ويتفق لي في بعض الأيام ، ولا سيما عند الغسق أن أحس بأنني وحيدة ، وحيدة تماما في هذا العالم • لقد ذهبت فيدورا لشراء بعض الأشياء • وها أنا ذا جالسة أحلم وأحلم ، الى غير نهاية : أستعرض الماضي ، الساعات الحزينة والساعات السعيدة • ينبجس كل شيء في ذهني ، كأن الذكريات تنبع من خلال ضباب • أرى بخيالي الوجوه المألوفة (وأحسب أحيانا انني أراها بعيني فعلا) ، ولا سيما وجه أمي ، فانني أراه أكثر مما أرى غيره من الوجوه ••• وما أكثر ما أحلم أيضا ••• انني أحس أن صحتي مضعضعة • انني ضعيفة شديدة الضعف • في هذا الصباح مثلا ، حين نهضت من فراشي ، شعرت بأوجاع • ثم انني أسعل سعالا سيئا • أنا أعلم

انني سأموت في القريب ، أحس بذلك منذ الآن ، فمن ذا الذى سيهتم بدفني ؟ من ذا الذى سيسير وراء نعشي ؟ من ذا الذى سيبكيني ؟ ... هل يجب أن أموت في منزل غرباء ، لدى أناس لا أعرفهم ، بمدينة بعيدة ؟ ... رباه ! ما أشقى الحياة وما أكثر أحزانها ! ويا ماكار ألكسييفتش ، الى متى ستظل تمطرني بسكاكرك ؟ انى لأتساءل حقا من أين جاءك كل هذا المال ؟ يا صديقي ، ادخـر مالك ، ناشدتك الله ، لا تتلفه ولا تبذره سدى ! ان فيدورا تبيع الآن سجادة فرغت من تطريزها . سنأخذ ثمنها خمسين روبلا ورقا . هذا سعر حسن جدا ما كنت أطمع في الحصـول على مثله . سأعطي فيدورا ثلاثة روبلات فضة ، وأصنع لنفسي بالباقي ثوبا ، ثوبا بسيطا ، ولكنه دافيء يدفع عني غائلة البرد . وسـأصنع لك صديرة أيضا ، أشتغلها بنفسي بعد أن أختار لها قماشا جيدا .

حصلت لى فيدورا على كتاب « حكايات بيلكين » ، وها أنذا أرسله اليك اذا كنت تحب أن تقـرأه . لكني أرجوك أن تعنى بالكتاب ، وأن لا تحتفظ به عندك طويلا ، لأنه ليس لى . والكتاب من تأليف بوشكين . لقد قرأت هذه الأقاصيص منذ سنتين بصحبة أمي ، فلما أعدت قراءته الآن شعرت بحزن شديد . اذا كان لديك كتب أخرى فارسلها الىّ ، شريطة أن لا تأتي من راتازاييف . ذلك أنه لن يفوته أن يعطيك كتبا من تأليفه ، اذا كان قد نشر شيئا حتى الآن . كيف تستطيع أن تتذوق ما يكتبه ياماكار ألكسييفتش ؟ ان ما يكتبه لهو ترهات وسخافات ... وداعا الآن . لقـد أطلت الثرثرة معك . حين أكون حزينة يحلو لى أن أتحدث عن أي شيء .. ذلك دواء مفيد أحس بعده بشيء من الراحة ، لا سيما اذا استطعت أن أقول ما كان يثقل على صدرى . وداعا يا صديقي ، وداعا .

المخلصة لك

ب . د

۲۸ حزيران (يونيه)

عزيزتي ماتوشكا ، عزيزتي فرفارا الكسييفنا !

متى تكفين عن تعذيب نفسك هـذا التعـذيب كله بدون داع ؟ ألا تخجلين ؟ هلا عقلت يا ملاكي الصغير ؟ كيف يمكن أن تدور في رأسك خواطر كهذه الخواطر ؟ ما أنت بمريضة يا روحي ، ما أنت بمريضـة قط . بالعكس ... أؤكد لك انك كالزهرة نضارة وتفتحا . صحيح انك شاحبة بعض الشحوب ، ولكنك كالزهرة نضارة مع ذلك . ثم ما قصـة تلك الأحلام أو الرؤى التي تسترسلين فيها ؟ دعي عنك هذه السخافات يا يمامتي ، ولا تفكري فيها بعد الآن قط ، هل تفهمين ؟ لماذا لا أسترسل أنا في مثل تلك الأحلام ؟ هل ترين أنني أحلم ، هل ترين أن لي رؤى كتلك الرؤى ؟ أجيبي ! هلا اقتديت بي يا ماتوشـكا ! انني أعيش حياة هادئة ، أنام نوما مريحا ، وأتمتـع بصحة جيـدة . ذلك شيء يسر القلب يا عزيزتي . انسي هذه الخزعبلات يا حياتي ، انسيها ، أنا أعرف رأسـك الصغير يا بنيتي ، يكفيك أيسر شيء حتى تسترسلي في الأحلام ، فسرعان ما يغزو قلبك الحزن . ناشدتك الله لا تفعلي هذا بعد اليوم . أما أن تعملي في منزل غرباء فهذا مستحيل . لا ، لا ... ما هذه الفكرة السخيفة التي راودتك ؟ ماذا دهاك فجأة ؟ وفي مكان بعيد عن هنا ؟ يا ماتوشـكا ، لن أسمح بذلك ، سأعارض هـذا المشروع بكل ما أوتيت من قوة . سـأبيع ردائي القديم فأخرج الى الشـارع بقميص اذا اقتضى الأمر ، ولكن لن يعوزك شيء عندنا . لا يا فارنكا ، لا ، انني أعرفك . تلك خواطر سخيفة ، تلك أفكار مجنونة . لا شك أن فيدورا وراء ذلك كله . انها امرأة غبية بلهاء ، ولا شك انها هي التي أثرت فيك . لعلك لم تعرفي فيدورا هـذه بعد ، هي امرأة حمقاء تحب الشجار ، وتهرف بما لا تعرف ، وتخبط في

كلامها خبط عشواء ••• بهذا انما أودت بحياة زوجها المسكين وأرسلته الى القبر • ألعلها أوحت اليك بشيء من عدم الرضا عن حياتنا الراهنة ؟ لا ، لا ، يا ماتوشكا ، مستحيل ! ما عساني أصبح اذا ابتعدت أنت ، ماذا يبقى لي أن أفعله في هذه الحياة ؟ لا يا فارنكا ، لا يا حياتي ، اطردي من رأسك هذه الأفكار ؟ ماذا ينقصك عندنا ؟ ان وجودك ينبوع فرح لنا ، ينبوع دائم لا ينضب • انك تحبيننا ، فعيشي اذن هادئة حيث أنت الآن • اعملي في الخياطة أو فالتفتي الى القراءة ••• لابل دعي الخياطة اذا شئت، سيان أن تخيطي وأن لا تخيطي ••• ولكن ابقي معنا • والا فأين نذهب نحن ؟ •• قولي أين نذهب نحن ؟ سآتيك بكتب ، وقد نقوم بنزهة جديدة بعد زمن ، ولكن اتركي تلك المشاريع يا ماتوشكا ، اتركيها ، اعقلي ، ودعيك من هذه السخافات التي تندفعين فيها لغير ما سبب • سأجيء اليك، سأجيء قريبا جدا ، ولكن اسمحي لي أن أقول لك بصراحة واخلاص ان ما تقولينه عن راتازاييف ليس صحيحا • أنا أعلم انني رجل لا ثقافة له ، أعترف بذلك ، فانني لم أتابع الدراسة ، وليس هذا ما أريد أن أتكلم فيه على كل حال ، لست أنا موضع الكلام الآن • ولكنني لا أسمح أن يمس راتازاييف ، وقد أردت أنت أن تمسيه • هو صديقي ولذلك أدافع عنه • ان ما يكتبه جد جدا ، بل ممتاز ، بل رائع • لست أوافقك على رأيك فيه ، ولن أستطيع أن أحبذ حكمك عليه • ان له أسلوبا مزهرا ، رشيقا ، مفعما بالصور ، زاخرا بالمعاني • انه كاتب ممتاز في الواقع • لعلك ، حين قرأت تلك الفقرات ، كنت في لحظة ذهول أو خدر يافارنكا، لعلك قرأتها موصدة القلب دونها ، أو لعلك كنت معتكرة المزاج ، أو لعلك كنت غاضبة من فيدورا ، أو لعل حادثا مزعجا آخر كان يشغل بالك في تلك اللحظة • يجب أن تعيدي قراءتها يا فارنكا ، حين تكونين رائقة المزاج ، راضية النفس أو فرحة القلب ، حين تكونين بسبيل قضم مربة

أو مص سكرة : فى لحظة كهذه انما يجب أن تعيدى قراءة تلك الفقرات. لا أنكر (ومن ذا الذى ينكر ذلك ؟) أن هناك كتابا اعظم من راتازايف، وان هناك كتابا أعظم بكثير . ولكن اذا كان أولئك الكتاب مشهورين ، فان راتازاييف كاتب ممتاز أيضا . انهم يجيدون الكتابة جدا ، ولكن الكتابة هو أيضا . انه يختلف عنهم ، انه يكتب بطريقته الخاصة ليحسن صنعا اذ يكتب . وداعا الآن يا ماتوشكا، لا أستطيع أن أفيض مما أفضت ، وأن أطيل هذه الرسالة مزيدا من الاطالة . انني مسن هناك أعمال تناديني . ولكنني أتوسل اليك يا ماتوشكا ، أضرع اليك يا طائرى الجميل ، أن تهدئى روعك ، أن تطمئنى بالا ، وأن تطيبى نفسا. كان الله معك وسأظل :

صديقك الأمين الوفى
ماكار دييفوشكين

حاشية : أشكر لك ارسالك الكتاب الى . سأقرأ بوشكين أيضا مادمت ترغبين فى ذلك . وسأجىء اليك فى هذا المساء ، أعدك بهذا .

عزيزى ماكار الكسييفتش

لا يا صديقى ، لا ، لا أستطيع أن أستمر على العيش بينكم . لقد غيرت رأيى ، وأدركت أننى أسيىء صنعا اذا أنا رفضت عملا مجزيا الى هذه الدرجة . سيكفل لى هذا العمل رغيفا على الأقل . سأبذل ما أملك من جهد ، وسأتحمل ما أستطيع تحمله من عناء ، وسأحظى برضاء هؤلاء الغرباء عنى وحبهم لى ، بل سأحاول أن أغير طبعى اذا اقتضى الامر ذلك. صحيح ان من الصعوبة والمشقة والالم بمكان أن يعيش المرء لدى غرباء ،

وأن يكون رهنا باحسانهم اليه وعطفهم عليه، وأن يكره نفسه على مالاتحب، وأن يخفي عواطفه ويكتم مشاعره ، ولكن الله سيمدني بعون من عنده . يستحيل أن أبقى متوحشة طول عمري على كل حال . لقد سبق لى أن مررت بظروف من هذا النوع . تلك كانت حالتي في صغرى حين كنت أعيش في مدرسة داخلية . كنت اذا جئت الى البيت يوم الاحد أظل أقفز وأثب طول النهار ، حتى أن أمي كانت تؤنبني على ذلك ، ولكنني لم أكن أحفل بالتأنيب ، فان نفسي تكون في تلك اللحظات طافحة سعادة ومرحا . حتى اذا جاء المساء استبد بي حزن رهيب ، لأن عليّ أن أعود الى المدرسة الداخلية في الساعة التاسعة ،حيث كل شيء بارد ،غريب عني ، قاس عليّ . كانت المربيات تظهر كثيرا من الشراسة في معاملتي ، فكان قلبي ينقبض انقباضا أليما ، وكنت أحس بالدموع توشك أن تطفر من عيني ، فأذهب أختبيء في ركن مظلم ، فأذرف العبرات صـامتة وحيـدة ، أخفيها عن الآخرين ، حتى لا يظنوا بي الكسل . والحق انني لم أكن أبكي لهـذا السبب ، لم أكن أبكي لأن علي أن أستأنف العمل والدراسة . ثم تعودت . نعم تعودت ، بل بلغت من هذا التعود أنني حين جاءت لحظة ترك المدرسة الداخلية بكيت أيضا وأنا أودع صديقاتي . انني أسيء صنعا اذا عشت عالة عليكما . ان هذه الفكرة تعذبني عذابا شديدا . أقول لك هذا بصراحة ، لأنني صريحة معك دائما . هل تظن أنني لا ألاحظ أن فيدورا تستيقظ مبكرة في كل صباح تغسل الغسيل ثم تظل تعمل الى سـاعة متأخرة من الليل ، مع ان عظامها الهرمة في حاجة الى شيء من راحة ؟ وهل تظن انني أجهل انك تدمر نفسك في سبيلي ، انك تخرج آخر كوبك تملكه لتنفقه عليّ ؟انك لا تستطيع أن تفعل هذا بمواردك وحدها يا صديقي .لقد قلت لى في رسالتك انك ستبيع آخر متاع من أمتعتك في سبيل أن لا يعوزني شيء . انني أصدقك يا صديقي وأؤمن بشـهامتك وطيب قلبك ، ولكنك

تلقى الكلام على عواهنه يا صديقي • انت تملك الآن شيئا من مال لم يكن في الحسبان ، هو تلك المكافآت التي نلتها • ولكن ما عساك فاعلا بعد ذلك ؟ انني دائما مريضة ، أنت تعرف ذلك ، فلست قادرة على أن أعمل مثلك ، رغم انني أتمنى ذلك • ثم انني لا أجد شغلا بالقدر الذي يجب لي • فماذا الذي بقي عليّ أن أحاوله والأمر كما ترى ؟ ماعساى أصنع هنا ؟ أأضني نفسي بطول الانتظار حزينةً بينما أنتما تعملان يا صديقي العزيزين ، يا صديقي الطيبين ؟ كيف يمكن أن أنفعكما في شيء ، في أى شيء ، وأنا على ما أنا عليه ؟ ولماذا تتصور أنك لا غنى لك عني يا صديقي ؟ أى جميل صنعت لك ؟ أى خير قدمت اليك ؟ صحيح انني متعلقة بك من أعماق نفسي ، صحيح انني أحبك كثيرا ، كثيرا جدا ، ولكن قدرى قاس مر حزين • أنا أعرف أن أحب ، وأستطيع أن أحب ، ولكن هذا هو كل شيء وا أسفاه ، لأنني عاجزة بنفسي عن أن أصنع لك خيرا ، وعاجزة عن أن أرد لك جميلا • فلا تتشبث بي مزيداً من التشبث ، بل فكر في الأمر مليا ، وأبلغني كلمتك الأخيرة • وبانتظار ذلك أظل :

صديقتك المخلصة

ب • د

أول تموز (يوليو)

عبث يا فارنكا ، عبث، كل هذا عبث • متى انقطع المرء عن مراقبتك ، وضعت في رأسك لا أدرى ماذا ، ووجدت ما تتعللين به فقلت : هذا الأمر لا يجرى كما يجب أن يجرى ، وهذا الأمر الثاني أيضا ، وذاك الثالث

كذلك ، الخ . انني أرى الآن ان هـــذا الـكلام كله هراء . ماذا تبغين يا ماتوشكا ؟ مم تشكين يا عزيزتي ؟ قولي لنا ماذا ينقصك هنا ؟ انك تحبيننا، وانا نحبك، فنحن اذن جميعا سعداء راضون؟ ماذا تريدين أكثر من ذلك؟ هل تتخيلين أن ما ينقصك هو ان تعيشي لدى غرباء ؟ انك لتجهلين ما هم الغرباء ! اسأليني أجبك . انما أعرف ما رجل غريب يا ماتوشكا ! أعرف ذلك حق المعرفة . لقد اتفق لي أن أكلت من خبـز رجـل غريب . انه شرير يا فارنكا ، شرير يا عزيزتي ، يبلـغ من الشر أن قلبك الصـغير المسكين سيذوي عنده ، لأنه لن يكف لحظة عن اضنائه باللوم والتقريع ، لن يكف لحظة عن ايذائه ... ثم ان نظرته نظرة سيئة . أنت عنـــدنا بخير ، أنت عندنا في دفء ، كأنك في عش صغير بمنجى من كل أذى . فاذا سافرت كنت كأنك تهجريننا وتأخذين حياتنا . ما عسى نصـبح هنا بدونك ؟ ما عسى أفعل أنا الشيخ المسكين في هـذه الحالة ؟ تزعمين أنك لا تفيديننا في شيء ... أأنت لا تفيدين في شيء ؟ ما هـذا الكلام ؟ لا يا ماتوشكا ... هلا فكرت في الأمر بنفسك ؟ كيف يمكن أن لانكون في حاجة اليك ؟ كيف يمكن أن نستغني عنك ؟ أنت تفيدتني جدا يافارنكا ، ان وجودك يحسن اليّ كثيرا يا عزيزتي ! ... في هـذه اللحظة مثلا ، أفكر فيك فيمتلىء قلبي فرحا . وفي بعض الأيام أكتب اليك رسالة أودعها ما أحس به ، وأودعها كل نفسي ، فأتلقى منك جوابا عليها ، جوابا مفصلا، فهل هذا قليل ؟ لقد اشتريت لك خزانة ملابس ، وأوصيت لك بقبعـــة صغيرة . وانت تعهدين اليّ أحيانا بشراء شيء من الأشياء فافعل...فكيف يمكنك أن تقولي بعد هذا انك لا تفيدينني في شيء ؟ ما عساي أفعل بدونك وحيدا في شيخوختي ، ولأي شيء يمكن أن أصلح ؟ لعلك لم تفكري في هذا حتى الآن يا فارنكا ! لا ، لا ، يجب عليك أن تفكري في هذا حتما ، يجب عليك أن تتساءلي : « في أي أمر يمكن أن يكون مفيدا بعدي ؟ » .

لقد تعودت عليك يا صديقتي العزيزة • فماذا عسى يقع لو سافرت ؟ لسوف أمضي الى شاطىء نهر نيفا وينتهي الامر ، نعم ، هكذا ستجري الامور يا فارنكا، ماذا تريدين أن أصبح بدونك؟ آه يا فارنكا، يا فارنكا، ياحياتي، يا روحي ، أتراك تتمنين أن تحملني عربة موتى الى مقبرة فولكوفو في يوم قريب ، وأن تسير وراء نعشي امرأة فقيرة شحاذة بأسمالها البالية الخلقة ، وحدها في الجنازة ، وأن يهيل عليّ بعض الرجال بضع مجارف من تراب ، ثم ينصرفوا الى شأنهم ويتركوني وحدي هناك ••• انه لاثم ، انه لاثم أن تقولي ما قلته يا ماتوشكا ••• شهد الله انه لاثم ! ••• أعيد اليك كتابك يا بنيتي ، يا فارنكا العزيزة ، فاذا أردت يا طفلتي أن تعرفي رأيي في هذه الأقاصيص ، فاعلمي انني لم أقرأ في حياتي كلها كتابا يبلغ هذا المبلغ من الروعة • انني لأتساءل اليوم يا ماتوشكا ، كيف أمكنني أن أعيش حتى الآن في مثل الجهل الذي عشت فيه ، يا لغبائي !••• سامحني الله !••• ماذا صنعت ؟ من أي غابة خرجت ؟ انني لا أعلم شيئا يا ماتوشكا ، لا أعلم شيئا قط • أقول لك بكل بساطة يا فارنكا : انني انسان بلا ثقافة • لم أقرأ حتى الآن الا قليلا ، قليلا جدا ، يشبه أن لا يكون شيئا • قرأت كتاب « أخلاق الانسان » وهو كتاب عميق ، وقرأت « الصبي الصغير الذي يلعب بالأجراس » وقرأت « طيور ايبيكوس » ، ذلك ما قرأته ، ولم أقرأ شيئا آخر غيره في حياتي • وقد فرغت الآن من قراءة « ناظر المحطة » في كتابك • يجب أن أعترف لك بالحقيقة يا ماتوشكا : انه لأمر عجيب أن يستطيع امرؤ أن يعيش في هذا العالم دون أن يخطر بباله أن هناك على مقربة منه كتابا يقص فيه قصة حياتنا كلها شاهد عيان ! ان أمورا من حياتي كانت خافية عليّ غامضة في نفسي ، فاذا هي تظهر لي شيئا بعد شيء منبثقة من ذاكرتي أثناء قراءة هذه القصة ، واذا أنا أراها من جديد ، واذا أنا أفهمها أول مرة • ثم ان هناك سببا آخر جعلني أحب كتابك هذا • ان ثمة

كتبا لا شك أنها عظيمة ، ولكن المرء منا يستصعب فهمها مهما تكن قيمتها ، ومهما يبذل في سبيل ذلك من جهد ، لأنها مسرفة في العمق ، مسرفة في الذكاء . أنا مثلا غليظ الذهن ... كان ذهني غليظا دائما على أي حال ، ذلك شيء ولد معي حين ولدت ... فلا أستطيع أن أقرأ الكتب التي تفوق قدرتي على الفهم ... أما كتابك هذا ، فانني أقرؤه كما لو كنت كتبته بنفسي ... كأن مؤلفه قد تناول قلبي أنا - اذا جاز التعبير - تناوله كما هو في واقعه ، فأظهر عليه الناس ، مقلبا اياه على جميع وجوهه، ليصفه وصفا دقيقا بجميع تفاصيله ، نعم بجميع تفاصيله . انه في غاية البساطة ، أجل في غاية البساطة ... هذا حق ، ولعله كان في وسعي أن أكتب مثله ، ولماذا لا أكتب مثله ؟ انني أحس هذه الأشياء نفسها تماما ، وقد اتفق أن وجدت في ظروف تشبه كل الشبه ظروف صمصون فيرين الشقي مثلا .. ذلك أن كثيرا منا هم أمثال صمصون فيرين هذا ... أناس طيبون بؤساء ! الا ما كان أحذق المؤلف في كتابة هذا الكتاب ! لقد أوشكت الدموع أن تنهمر من عيني يا ماتوشكا حين قرأت أن هذا الخاطيء العاثر الحظ قد ظل يشرب الى أن فقد الذاكرة ، فنام مع حزنه المر طوال النهار بفرائه المصنوع من جلد الخراف . حتى اذا استيقظ شرب كأسا صغيرة لاغراق أحزانه ، ثم ما لبث أن عاد يبكي بكاء يثير الشفقة، ويجفف دموعه بأكمامه القذرة ، لأنه تذكر عنزته ، شاه المسكينة الصغيرة الضائعة ، ابنته دنياشا. ألا ان هذا كله لطبيعي جدا ، وصادق جدا ! ... حق ما أقول ياماتوشكا، أعيدي قراءة الكتاب بنفسك : ان ما يصفه الكتاب لهو الصدق عينه ، لهو الحياة نفسها ... رأيته أنا نفسي ، لأن ذلك كله موجود أمام عيني . أنظري الى تيريز مثلا . ليس بالمرء حاجة الى الذهاب بعيدا من أجل أن يقع على أمثلته . وهذا الموظف الفقير الذي يسكن عندنا ... قد يكون هو أيضا انسانا مثل صمصون فيرين ... لكنه لا يسمى صمصون فيرين

بل يسمى جورشكوف • هذا مصير مشترك بين الناس جميعا يا ماتوشكا ، وهو شقاء يمكن أن ينزل علينا نحن ، يمكن أن ينزل علىّ أنا••والكونت أيضا ، الكونت المتغطرس الذى يسكن فى شارع نفسكى أو على شاطىء نهر نيفا ، ان من الممكن أن يصيبه هذا المصير نفسه • قد يبدو الأمر عندئذ مختلفا حين يقع لكونت ، لأن كل شىء يجرى لدى الناس الذين هم من نوعه على نحو آخر ، على نحو أرفع ، ولكن الأمور تستوى فى الحقيقة •• لأن كل شىء يمكن أن يقع ، قد يقع هذا لى أنا ••• قد أسقط فى الاثم يا فارنكا ، قد أسقط فى هوة الشقاء • سوف تضيعين نفسك يا صديقتى العزيزة ، وسوف تجريننا نحن الى الضياع أيضا • هلا طردت من رأسك الصغيرة هذه الأفكار المتمردة يا عزيزتى ؟ هلا أرحتنى من هذا العذاب فى غير طائل ؟ ألا فكرى أيها الطائر الصغير المسكين الذى لم ينبت ريشه بعد ، ما عساك صانعة من أجل أن تتعهدى نفسك بنفسك ، من أجل أن تصونى نفسك من الضياع ، من أجل أن تحمى نفسك من شر الأشرار ؟ كونى عاقلة يا فارنكا ، وعودى الينا • لا تلقى بالا بعد الآن الى النصائح الغبية التى ينصحونك بها ، لا تصغى الى هذا الهذر السخيف • واقرئى كتابك مرة أخرى ، اقرئيه بانتباه وامعان • ان قراءته ستنفعك وستسرى عنك •

تحدثت عن « ناظر المحطة » الى راتازاييف • فقال ان هذه الاشياء كلها قد انقضى زمانها وأصبحت بالية ، وان الكتاب يؤلفون الآن كتبا تضم لوحات وأنواعا شتى من الوصف • يجب أن أعترف على كل حال بأننى لم أفهم شروحه حول هذه النقطة فهما جيدا•وقد خلص من كلامه الى أن بوشكين كاتب جيد ، وانه صنع أشياء كثيرة لمجد روسيا المقدسة ، وقال لى كذلك أشياء أخرى عنه ••• نعم يا فارنكا ، انه كتاب جيد حقا ، جيد جدا • فأعيدى قراءة هذا الكتاب ، ولكن اقرئيه بانتباه وامعان • اتبعى

نصيحتى ، فاذا فعلت أفرحت قلب هذا الشيخ المسكين ، أنا • واسأل الله يا حمامتى أن يجزيك عنى خير الجزاء فى هذه الحال ، ولا شك فى أنه سيجزيك خير الجزاء •

صديقك المخلص

ماكار دييفوشكين

السيد العزيز ماكار الكسييفتش

جاءتنى فيدورا اليوم بخمسة عشر روبلا فضة• ما كان أشد ابتهاجها هذه المسكينة ، حين أعطيتها عن هذا المبلغ ثلاثة روبلات • أكتب اليك الآن مستعجلة • اننى بسبيل تفصيل صديرة لك ••• انه نسيج رائع : زهرات صغيرة على أرضية صفراء • وأرسل اليك كتابا يضم أقاصيص شتى • لقد قرأت بعض هذه الأقاصيص ، وأنصحك خاصة بقراءة القصة التى عنوانها « المعطف » • اقرأ هذه القصة • أراك تلح على اصطحابى الى المسرح • ألا يكلف الذهاب الى المسرح نفقات باهظة ؟ اللهم الا أن نشترى تذاكر فى المشى • منذ مدة طويلة لم أذهب الى مسرح • حتى اننى لا أتذكر الآن متى ذهبت آخر مرة• كل ما أخشاه أن يكلف الذهاب نفقة باهظة : ذلك ما يشغل بالى • ان فيدورا تهز رأسها طول الوقت ، مؤكدة انك تنفق الآن أكثر مما تكسب • وأنا أدرك هذا بنفسى على كل حال • ما أكثر ما أنفقت من أجلى مثلا ! حذار أن يسبب لك هذا بعض المكاره ! لقد حدثتنى فيدورا عن اشاعات مفادها انه قام بينك وبين صاحبة الدار شجار بسبب تأخرك فى دفع أجر الغرفة • اننى قلقة عليك جدا •

الوداع الآن. يجب عليّ أن أسرع . هناك عمل مستعجل يجب أن أنجزه: يجب أن أغير أشرطة قبعة .

حاشية : تخطر على بالي فكرة : اذا ذهبنا الى المسرح فسأضع على رأسي قبعتي الصغيرة الجديدة، وسأسدل على كتفي خمارا أسود . أتحسب أن هذا سيكون جميلا عليّ ؟

٧ تموز (يوليه)

عزيزتي السيدة فرفارا ألكسييفنا !

أعود الى ما قصصته عليك أمس . نعم يا ماتوشكا ، لقد عرفت أنا أيضا ، في ذلك الزمان ، ما هو فقدان الصواب ، واختلال الرشد . لقد تولهت بتلك الممثلة الصغيرة ، وهمت بحبها هياما شديدا . وليس هـــذا بشيء على كل حال . فالأنكى من ذلك انني لم أكن قد رأيتها تقـريبا ، وانني لم أكن قد ذهبت الى المسرح الا مرة واحدة ، ومع ذلك استطعت أن أفتتن بتلك المرأة . كنت في ذلك العهد أعيش في منزل جيراني فيه خمسة شبان لا يكاد يفصلهم عني حائط ، وهم شبان لهم رؤوس مجنونة ، انعقدت أواصر الصلة بيني وبينهم دون أن أريد ذلك ، ورغم أنني حاولت جهدي أن أظل على مسافة منهم . وعندئذ ، من أجل أن لا أكون متخلفا عنهم ، أخذت أجاريهم ، أخذت أقلدهم جميعا . ما أكثر ما حدثوني عنها . وكلما أقيمت حفلة تمثيل في المسرح ذهبت الجماعة كلها الى المسرح . كانوا لا يملكون حتى للطعام والشراب ما يكفي من مال . ولكنهم يذهبون الى المسرح ، يشترون تذاكر بالمشي ، ويأخذون يصفقون هنالك ما شاء

لهم هواهم أن يصفقوا ، حتى لتكاد تدمى أيديهم من شدة التصفيق كأنما قد مسهم جن ، ويأخذون يهتفون باسم الممثلة فى غير انقطاع . فاذا عادوا الى المنزل بعد ذلك ، لم يكن هناك سبيل الى النوم ، فهم لايزيدون على أن يتحدثوا عن تلك الممثلة طول الليل ، فيناديها كل واحد منهم باسمها . انهم هائمون بها جميعا فقلوبهم جميعا تخفق بحب واحد .

وانتهى الأمر بأن أدخلت حكاياتهم الاضطراب فى قلبى المسكين ، وكنت فى ذلك العهد فتى فى ريعان الشباب ، فرأيتنى أذهب معهم ذات مساء الى المسرح ، لا أدرى كيف تم ذلك ، وكانت أماكننا هنالك فى آخر الممشى ، فكنت لا أستطيع أن أرى من هنالك الا ركنا من الستارة . ولكننى كنت أسمع كل شىء . كان لهذه الممثلة صوت عذب حقا ، كان له جرس صاف كأنه رنين الفضة ، حتى ليشعر المرء حين يسمع صوتها انه يسمع تغريد هزار صغير. صفقنا جميعا، حتى شعرنا من فرط التصفيق بألم فى الأيدى ، وكانت هتافاتنا تتعالى صراخا من شدة الحماسة . ولا أدرى كيف لم توقفنا الشرطة بسبب هذا الصخب الذى أحدثناه . ومع ذلك فقد أُخرج أحدنا من المسرح . فلما عدت الى البيت كنت كمن هو فى حلم . لم يكن قد بقى فى جيبى الا روبل واحد من فضة ، وكان علىّ أن أنتظر عشرة أيام حتى أقبض راتبى . فهل تعرفين ماذا فعلت ياماتوشكا؟ فى صباح الغد ، قبل أن أذهب الى المكتب ، دخلت مخزن عطور فرنسية، فاشتريت عطورا واشتريت صابونا معطرا ، فأنفقت فى ذلك آخر كوبك أملكه . اننى ما أزال أتساءل حتى اليوم لماذا اشتريت تلك الأشياء جميعها ! الحق اننى لا أدرى أنا نفسى لماذا فعلت ذلك . ولم أعد الى بيتى للعشاء فى ذلك اليوم ، بل قضيت وقتى كله أتجول تحت نوافذ منزلها . كانت تسكن فى شارع نفسكى ، بالطابق الرابع . ومضيت الى بيتى بوثبة لأرتاح ساعة قصيرة ، ثم ما لبثت أن عدت الى شارع نفسكى ، أستأنف تجولى

تحت نوافذ منزلها • وظللت أعيش على هذا النحو شهرا ونصف شهر • أمشي في اثر الممثلة وأتبع خطاها ، فأستأجر عربات وراءها ، مختارا من الحوذيين من أراه أسرع من غيره جريا • بددت دراهمي ، وتراكمت عليَّ الديون ، ثم رأيتني في يوم من الأيام وقد كففت عن حبها : سئمت القضية • أنظري يا ماتوشكا ماذا تستطيع ممثلة أن تفعله برجل لائق • ولكن يجب أن أذكر أنني كنت في ذلك العهد شابا صغيرا ، صغيرا جدا •

م • د

٨ تموز (يوليو)

السيدة العزيزة جدا فرفارا ألكسييفنا !

أسارع فأرد اليكِ الكتاب الذي أعرتنيه في اليوم السادس من هذا الشهر • وأبادر فأنتهز الفرصة لأصارحك في هذا الأمر • انه لسيىء يا ماتوشكا ، انه لسيىء منك أن تدفعيني الى مثل هذا البعد دفعا لا هوادة فيه • اسمحي لي ان أقول لك ان الله العلي القدير هو الذي يحدد مصير كل انسان ويعين وضع كل انسان في هذا العالم • ان الله تعالى هو الذي تقضي مشيئته أن يكون فلان من الناس جنرالا ، وأن يكون فلان الآخر موظفا وضيع الشأن هين المنزلة من موظفي الحكومة • هذه ارادة الله • ان ارادة الله هي التي تشاء أن يكون فلان من الناس آمرا ، وأن يكون فلان الآخر محكوما عليه أن يطيع باحترام دون أن يدمدم بكلمة • ذلك كله انما نظم وفقا لاختلاف البشر في الاستعدادات والكفاءات • فبعض الناس مؤهلون لبعض الأمور ، وبعضهم الآخر غير مؤهلين لهذه الأمور ،

ولكن لهم كفاءات أخرى فى مقابل ذلك • ومواهب البشر هذه انما هى من صنع الله •

بعد قليل أكون قد سلخت من عمرى ثلاثين سنة فى خدمة الحكومة• لقد قمت بواجباتى دائما خير قيام ، فلا يستطيع أحد أن يأخذ علىّ شيئا فى هذا المضمار • وكان سلوكى حسنا ، فما أدمنت على شراب ولا تدخلت يوما فى الاضطرابات السياسية • صحيح ان لى بعض العيوب كمواطن ، اننى أعترف بذلك ولا أخفيه قط ، ولكننى أملك بعض المزايا أيضا • اننى أحظى بتقدير رؤسائى ، حتى أن صاحب المعالى نفسه راض عنى • ولئن لم يظهر لى حتى الآن ما ينبىء عن تقدير خاص ، فأنا أعلم أنه راض عنى • ان خطى واضح جلى ، رشيق رشاقة كافية ، لا هو بالضخم جدا ولا بالدقيق جدا ، قريب من الكتابة المعتادة ، مقروء دائما ، مرض دائما • وليس فى دائرتنا أحد غير ايفان بروكوفييفتش له خط كخطى ، ومع ذلك فهو لا يضاهينى • ولقد وخط الشيب رأسى من طول ما جهدت فى عملى• وليس هنالك من خطيئة ذات بال يمكن أن تؤخذ على • صحيح اننى ارتكبت بعض الخطايا الصغيرة ، ولكن مَن المعصوم عن ارتكاب بعض الخطايا الصغيرة أحيانا ؟ اما أن أكون قد قارفت ذنبا كبيرا أو جريمة من الجرائم ، كمخالفة للنظام أو كاقلاق للراحة العامة ، فذلك أمر لم يخطر ببال أحد أن ينسبه الى • لم يؤخذ علىّ شىء من هذا فى يوم من الأيام ، لم تعرف حياتى شيئا من هذا قط • حتى لقد أوشكت أن أنال وساما • حسبى أن أقول ذلك ••• كل هذا كان يجب أن تعرفيه فى الواقع يا ماتوشكا • وكان يجب عليه هو أن يعرفه أيضا ، انه منذ قرر أن يصفنى كان ينبغى له أن يعرف الحقيقة كاملة • لا ياماتوشكا ، ماكنت أتوقع منك هذا ! ••• ما كنت أتوقع منك هذا يا ماتوشكا ، منك أنت خاصة على كل حال ••

كيف ؟ ألن يستطيع المرء أن يعيش في ركنه العادي ، أيا كان هذا الركن من جهة أخرى ؟ هل أصبح من غير الجائز للمرء أن يحيا دون أن يعكر ماء جاره ، على حد قول المثل ، دون أن يؤذي أحدا ، حانيا ربه مهتما بنفسه ، حتى لا يؤذيه أحد أيضا ، حتى لا يدخل احد الى ركنه الصغير فيحشر أنفه في شئونه الداخلية ؟ هل من الضروري أن يعرف كيف اعيش في بيتي ، وهل أملك صديرة ، وهل عندي ما أحتاج اليه من ملابس تستر جسمي ، وهل لي حذاءان ، وهل حذاءاي جيد نعلهما ، وهل أطعم اذا جعت ، وما طعامي وما شرابي ، وما هي النصوص التي أنسخها ؟ أي ضير يا ماتوشكا في أن أجتاز الطريق ماشـــيا على رؤوس الأصابع اذا لم تكن الطريق مرصوفة ، حتى لايهترىء حذاءاي؟ ماحاجتهم الى الكتابة عن أخيهم ؟ انه يتفق له أن يمر بأيام بؤس وحرمان وأن لا يحتسي قليلا من الشاي ، فهل من الضروري أن يشرب جميع الناس الشاي ؟ هل أنظر أنا الى فم كل انسان لأعرف ماذا يدخل الى بطنه ؟ مع من سلكت هذا السلوك ؟ ومن أهنت هذه الأهانة ؟ لا ياماتوشكا ، عيب علينا أن نجرح انسانا لم يمسسنا بسوء . اسمعي يا فرفارا ألكسيفنا على ســـبيل المثال : انني أقوم بواجبي كل يوم بهمة ونشاط واخلاص ، والرؤساء راضون عني ، وهم يحترمونني (مهما يقولوا فهم يحترمونني ، هذا أكيد) ، فاذا بانسان يأخذ يكتب عني ويشهر بي ويسيء الي دون سبب ظاهر ودون أي عذر مقبول . نعم انه يتفق لي أنا أيضا أن أصـنع لنفسي رداء جديدا أو أن أشتري حذاءين ، فأبلغ من فرحي بذلك أن لا أنام الليل ، ذلك شيء يبهج النفس . انها لمتعة حقا أن ينتعل المرء حذاء رشيقا جديدا . هذه لذة . هذا شـــعور شعرت به ، اعترف بذلك ، والوصف هنا صادق . ومع ذلك يدهشني ان رئيسنا فيدور فيودورفتش قد سمح بصدور هذا الكتاب ، عن غفلة منه ، لأن الكتاب ينال منه أيضا .

صحيح أن هذا الموظف الكبير ما يزال شابا ، وانه يحب أحيانا أن يرفع صوته . ولكن لماذا يجب أن لا يصرخ قليلا ؟ هل من الضرورى أن لا يؤنب أحدنا تأنيبا شديدا حين يجب التأنيب ؟ أنا أسلم بأنه يغضب أحيانا بدون سبب ظاهر . ولكن هذا أمر لا غنى عنه ، احتفاظا بالمهابة وتهذيبا للناس . ان من الواجب أن يوحى اليهم بهذا الاحترام المفيد . ذلك اننا معشر البشر ـ أقول هذا بنى وبنات ـ لا نفعل فعلا حسنا الا اذا شعرنا بشىء من الخشية . ما من أحد يفكر فى غير مصالحه ، وفى غير تقدمه ، فهو يريد أن يذكر هنا ، وأن يشاد به هناك ، أما أن يعمل فذلك ما يحاول أن يتملص منه ما وسعه التملص . ثم ان الموظفين ليسوا جميعا فى رتبة واحدة ، فبعضهم فوق بعض درجات ، ولا غرابة والحالة هذه أن يختلف بعضهم عن بعض لهجة وحذلقة على حسب الرتبة . ذلك فى طبيعة الأمور . وكذلك بنى العالم ياماتوشكا . ان الحياة الاجتماعية تعتمد على مظاهر السلطة التى يصطنعها بعضنا تجاه بعض ، وعلى الطريقة التى يتخاطب بها بعضنا مع بعض لوما وتأنيبا . وبدون هذه الاحتياطات لا يمكن أن يوجد العالم ، ولا يمكن أن يقوم نظام فى أى مكان . لذلك يدهشنى حقا أن يسمح فيدور فيودوروفتش بنشر هذا الكتيب الجارح المؤذى سهوا أو اهمالا .

وأى شيطان دفع هذا الكاتب الى الكتابة ؟ ما نفع هذا الذى كتبه ؟ هل سيرسل الىّ أحد القراء معطفا جديدا بعد أن يقرأ هذه القصة ؟ هل سيشترى لى حذاءين جديدين ؟ لا يافارنكا ، ان الناس سيقرأون القصة ، ثم لا يزيدون على أن يرغبوا فى معرفة تتمتها . يحاول المرء أن يختبىء ما وسعه الاختباء ، ويجهد أن يكون صغيرا ما أمكنه ذلك ، ويبذل قصاراه فى سبيل أن لا يلتفت اليه أحد ، حتى ليخشى أحيانا أن يظهر أنفه فى الخارج لأنه لا يحب أحكام الناس ، لأنه يخشى أن يجعله الناس

أضحوكة لغير سبب ، ثم اذا هو يرى حياته المدنية والعائلية كلها معروضة مبسوطة في الأدب بلا خجل ولا حياء ولا حشمة ولا عـذار ، واذا كل شيء مذاع مطبوع مكشوف معرى ، يحكم عليه الناس ويضحكون منه ويهزأون به ! لن يستطيع المرء أن يخرج بعدئذ الى الشارع ، لأن كل شيء قد بلغ من دقة الوصف في الكتاب أن النـاس سيعرفونه حتى من مشـــيته • وكان يهـون الأمر لو أن الكاتب قد كفر عن كتابه بتخفيف الخاتمة ، باضافة شيء يلطف القصة • كان في وسع المؤلف مثلا عنـدما وصف كيف قصف الرجل المسكين بالقراطيس ، أن يذكر أن هذاالرجل كان انسانا فاضلا ، وانه كان مواطنا صالحا ، وانه كان لايستحق أن يعامله زملاؤه هذه المعاملة ، لأنه كان يحترم دائما من هم أكبر منه سنا (كان في وسع المؤلف هنا أن يضرب مثلا صالحا) ، وأنه لم يؤذ أحدا طـوال حياته ، وانه آمن بالله وانه حين مات (اذا أصر المؤلف اصرارا مطلقا على أن يميته) حزن جميع الناس وبكوه • وكان من الأفضل أيضا أن لايموت المسكين ، وانما يُعمل مايجب من أجل أن يُعثر له على المعطف، أو أن يستدعيه فيدور فيدوروفتش ـ لا ••• ماذا أقول ؟ ـ أقصد أن يستدعيه الجنرال حين علم بفضائل هذا المرؤوس ، فيبلـغه انه نال ترقيـة ، وانه سيعطى راتبا حسنا • بذلك كان يمكن انقاذ كل شيء : يعـاقب الأشرار وتكافأ الفضيلة ، ويرتدع الزملاء الخبثاء • بهذه الخاتمة كان يمكن أن أختم أنا القصة • ماذا في هذه القصة من خير ، ماذا فيها من جمال خارق؟ ان المؤلف لم يزد على أن حكى واقعة مبتذلة ، لم يزد على أن وصف شيئا مستمدا من الحياة اليومية ! كيف خطر ببالك يا عزيزتي الغالية أن ترسلي اليَّ كتابا كهذا الكتاب ؟ انه كتاب مغرض يا فارنكا • ثم انها قصة غـير

معقولة • لأنه لا وجود لموظفين من هذا النوع • لا ، لا ، سوف أشكو أمرى الى السلطات يا فارنكا ، سوف أشكو أمرى ، قررت ذلك •

خادمك المخلص

ماكار دييفوشكين

٢٧ تموز (يوليو)

ان الأحداث الأخيرة ، وكذلك رسائلك ، قد أذهلتنى وأفزعتنى ، ولكننى فهمت أخيرا كل شىء بعد الذى روته لى فيدورا • لماذا بلغ بك الحزن واليأس هذا المبلغ ؟ لماذا ألقيت بنفسك الى الهوة التى تضطرب فيها الآن ؟ هلا قلت لى لماذا يا ماكار الكسييفتش ؟ ان الشروح التى قدمتها لم تقنعنى أبدا • ألم أكن على حق حين أصررت على قبول العمل المجزى الذى عرض علىّ ؟ ألا تعترف بأننى كنت على حق ؟ ثم ان حادثتك الأخيرة قد أخذت تقلقنى حقا • لقد كنت أشعر طبعا اننى مدينة لك كثيرا منذ كنت تؤكد لى ان ما تنفقه فى سبيلى ليس الا مدخرات ادخرتها للطوارىء• ولكننى أعلم الآن انك لم تكن قد ادخرت شيئا ، وانك حين عرفت عرضا ما أعانى من بؤس ، رق قلبك لى فقررت أن تساعدنى بانفاق رواتب عدة أشهر قبضتها سلفة ، واعلم أيضا انك مضيت بعد ذلك تبيع ملابسك أثناء مرضى • ان اكتشافى هذه الحقيقة قد جعلنى فى وضع أليم جدا ، حتى صرت أتساءل الآن كيف يمكن أن أقبل كل هذا ، وماذا يجب أن يكون رأيى فيه ! لماذا لم تكتف يا ماكار ألكسييفتش بحسناتك الأولى التى دفعتك اليها الشفقة ومشاعر القرابة فحسب ، بدلا من الاندفاع فى انفاق المال فى أمور لا فائدة منها ولا طائل تحتها كما فعلت بعد ذلك ؟ لقد خنت صداقتنا

يا ماكار ألكسيفتش حين لم تكن صريحا معى فأخفيت عنى الحقيقة . اننى اليوم وقد أدركت أن دريهماتك الأخيرة قد ضاعت فى شراء ادوات زينة لى وتبعثرت ثمنا لسكاكر ونزهات وتذاكر مسرح وهدايا كتب ، أكفّر تكفيرا باهظا عن تلك اللذات بعذاب الضمير من فرط الندم على خفتى التى لا تغتفر (لأننى كنت أقبل منك ذلك كله دون أن أراعى وضعك) . ان كل ما فعلته بغية ان تفرحنى يستحيل الآن الى عذاب لى ، ولا تبقى منه الا حسرات عقيمة . لقد لاحظت كآبتك منذ مدة ، ورغم انى توقعت فى كثير من الهم والقلق أن يحدث حادث أليم ، فان ما حدث ماكان ليخطر لى على بال . ما هذا ؟ كيف يمكنك أنت يا ماكار ألكسيفتش أن تستسلم لمثل ذلك اليأس ؟ ما عسى يقول عنك جميع أولئك الذين يعرفونك ، وما عسى يكون رأيهم فيك ؟ كيف يمكنك أنت يا من كنا نحترمك أنا وجميع الناس لطيب قلبك وتواضع نفسك ورجاحة عقلك ، كيف يمكنك أن تسقط فى تلك الرذيلة الممقوتة التى أحسب أنها لم تعهد فيك قط حتى الآن ؟ يا لهول ما شعرت به حين علمت من فم فيدورا انهم لموك من الشارع سكران ، وان الشرطة قادتك الى منزلك ! لقد صعقت من الدهشة وذهلت عن نفسى وتبله عقلى فى تلك اللحظة ، رغم اننى كنت أتوقع أن يحدث شىء غير عادى ، لأنك كنت قد غبت عنا أربعة أيام . هل فكرت يا ماكار ألكسيفتش فيما سيقوله رؤساؤك حين يعلمون سبب تغيبك ؟ تقول لى ان جميع الناس يسخرون منك الآن ، وان جميع جيرانك أصبحوا يعرفون صداقتنا ، وان سخرياتهم وأمازيحهم لا تنسانى أنا أيضا . لا تحفل بهذا يا ماكار الكسيفتش ، وهدىء روعك ، ناشدتك الله ! وانى شديدة القلق أيضا بسبب ذلك الذى وقع لك مع الضباط . لقد سمعت بهذا النبأ غامضا . قل لى ، أرجوك ، ما معنى هذا كله ؟ كتبت لى انك لم تكن تجرؤ على مصارحتى ، وانك كنت تخشى أن تفقد

باعترافاتك صداقتى ، وانك كنت فى ذروة اليأس ، لأنك لم تعرف كيف تساعدنى أثناء مرضى ، وانك بعت كل ما عندك حتى تجنبنى الذهاب الى المستشفى ، وتقول انك اقترضت مالا من جميع الجهات ، وان مناقشات كانت تقوم بينك وبين صـــاحبة البيت فى كل يوم • ولـكنك اذ أخفيت عنى الحقيقة قـد اخترت أسـوأ الحـلول • وأنا أعلم الآن كل شيء على كل حال • كنت لا تريد أن تضـطرنى الى الاعتراف بأننى السبب فى وضعك الحالى البائس ، ولكنك بسـلوكك الآن تحزننى حـزنا أشـد ، وتجعلنى أقاسى ألما أكبر • كل هـذا يقلقنى ويبث الاضـطراب فى نفسى يا ماكار ألكسييفتش • آه يا صـديقى ! ان الشـــقاء مرض معـد ، فيجب على الأشقياء والمساكين أن يتجنب بعضهم بعضا ، يجب عليهم أن يتحاشوا أى اتصال بينهم ، حتى لا تزداد آلامهم بعدوى متبادلة ، لقد جئتك بمحن لم تعرفها من قبل فى حياتك المتواضعة المنعزلة • انه ليعذبنى عـذابا شـديدا وانه ليقتلنى ان أدرك اليوم ذلك •

اكتب لى الحقيقة كلها صراحة ! قل لى ماذا حدث وكيف أمكن أن تعزم أمرك على القيام بمثل هذا العمل ! طمئنى اذا كنت تستطيع ذلك • ليست الأنانية هى ما يدفعنى الآن الى الكلام عن طمأنينتى وهدوئى ، وانما تدفعنى الى ذلك صداقتى لك ، وتحضنى عليه المودة التى محضتك والتى لا يمكن أن تمحى من قلبى يوما • انتظر ردك • لقد أخطأت الظن فىّ والحكم علىّ يا ماكار ألكسييفتش •

صديقتك المخلصة الودود

فرفارا دوبروزويولوفا

٢٨ تموز (يوليو)

عزيزتي الغالية فرفارا الكسييفنا

لك ما تشائين • أما وقد انتهى الآن كل شيء وأخذت الأمور تعود الى مجراها الطبيعي شيئا بعد شيء ، فسأقول لك يا ماتوشكا ما يلي : انك تخشين مما قد يظن بي ويقال عني ، لذلك أسارع فأصارحك يا فرفارا ألكسييفنا بأن سمعتي هي عندي أغلى شيء في هذا العالم ، لذلك أعتقد أن عليَّ وأنا أبلغك أنواع الشقاء التي عانيتها وضروب الفوضى التي وقعت فيها ، أن أذكر لك في الوقت نفسه انه ما من احد من رؤسائي علم بما حدث ، أو سيعلم به يوما ، وأن رؤسائي سيظلون يظهرون لي اذن نفس التقدير الذي كانوا يظهرونه لي من قبل • أمر واحد يقلقني ويرهقني : انني أخشى النمائم والاشاعات • في منزلنا ما تنفك صاحبة البيت تصيح وتصرخ ، وان تكن ، منذ دفعت لها جزءا من دينها عليَّ بفضل روبلاتك العشرة ، أصبحت لا تزيد على أن تتذمر • أما السكان الاخرون فليس هنالك ما أشكوه فيهم • ان سلوكهم معي حسن • كل ما في الأمر أن عليَّ أن أتحاشى اقتراض شيء من المال منهم ، فمتى لم أقترض منهم شيئا من المال كانوا في غاية اللباقة هم أيضا • وأحب في ختام هذه الشروح أن تعلمي يا ماتوشكا أن تقديرك هو أثمن ما أملك في هذا العالم ، وذلك ما يعزيني في هذه الساعة عن الفوضى العارضة التي ألمت بحياتي • لقد انجلت الغمة ولله الحمد ، وانقضت الضربة الأولى والاضطرابات الأولى من هذه المأساة • وقد أمكن أن تحتمليها دون أن تعديني صديقا خان الصداقة، أو رجلا أنانيا ، لأنني حاولت أن أحتفظ بك قريبة مني فخادعتك لعجزي عن الانفصال عنك يا من أحبك وأرى فيك ملاكي الصغير • لقد عدت الى العمل بهمة ونشاط ، وأنا أقوم بواجبي اليومي على خير وجه •

حتى ان أوستاش ايفانوفتش لم يقل كلمة واحدة حين مررت أمس أمامه. لا أكتمك يا ماتوشكا أن ديوني تعذبني وتضنيني وتقتلني قتلا ، وكذلك خلو خزانتي من الثياب ، ولكنني أعود فأقول ان هذا كله لا قيمة له ، فأرجوك بل أتوسل اليه يا ماتوشكا أن لا يحزنك هذا الأمر أيضا . لقد أرسلت الي نصف روبل آخر . ان نصف الروبل هذا قد طعن قلبي طعنا يا فارنكا . انظري أين أصبحنا ، انظري الى أين آلت أمورنا ! لست أنا من يساعدك الآن اذن ! يا لي من شيخ عجوز أبله !... بل أنت التي تهبين الى نجدتي يا عزيزتي اليتيمة المسكينة ! يجب أن نشكر لفيدورا انها استطاعت أن تحصل على شيء من المال . وليس لي الآن أي أمل من هذه الناحية ياماتوشكا، لن أقبض شيئا ، فاذا فتح باب الأمل، فلن يفوتني أن أبلغك ذلك تفصيلا . ولكن النمائم، النمائم المقيتة الكريهة، هي ما يعذبني أكثر من شيء آخر ، وداعا يا ملاكي الصغير . أقبل يدك الجميلة ، وأضرع اليك أن تبلى من مرضك . لست أفيض في الكتابة اليك الآن لأن علي أن أمضي الى عملي ، لأنني أحب أن أبرهن على همتي واخلاصي عسى أن أمحو خطيئتي وعسى أن ينسوا تغيبي . أرجيء الى المساء تتمة شروحي في موضوع جميع تلك الأحداث، وكذلك فيموضوع حادثتي مع الضباط .

صديقك الذي يحترمك ويحبك حبا عميقا

ماكار ديفوشكين

٢٨ تموز (يوليو)

آه يا فارنكا ، يا فارنكا ، الخطيئة هي الآن خطيئتك ! الذنب هو الآن ذنبك ! وسوف يظل هذا الذنب جاثما في ضميرك . لقد استطعت برسالتك أن تقلبي دماغي رأسا على عقب ، أن تلقيني الى اضطراب ما بعده اضطراب .. الآن ، الآن فقط ، انما أدرك ، حين أغوص هادئا الى أعماق قلبي ، أنني كنت على حق ، على حق تماما . ما عن استهتاري الأخير أتحدث هنا (دعينا من ذلك الاستهتار ، ولا تعودي الى الكلام عليه) ، وانما أتحدث عن حبي لك ، فأقول انه لم يكن جنونا مني أن أحبك ، لا لم يكن حبي لك جنونا قط . يجب أن أقول لك يا ماتوشكا انك لا تعرفين شيئا . ولو كنت تعرفين لماذا وقع ما وقع ، ولماذا كان حقا أن أحبك ، لقلت غير الكلام الذي قلته . ان جميع تلك الكلمات الحكيمة العاقلة التي تزجينها الي ، أنت لا تقصدينها . انك تكتبينها ، ولكن الذي في قلبك شيء آخر . أنا من ذلك على يقين . يا ماتوشكا ، لا أعرف الآن ولا أتذكر الآن تذكرا واضحا تلك القصة التي وقعت لي مع الضباط . ولكن يجب أن تعلمي يا ملاكي أنني كنت قد مررت قبل ذلك بفترة مضطربة أقصى الاضطراب . تخيلي انني كنت منذ شهر بكامله لا يكاد يمسكني عن الانهيار الا خيط واهن ان صح التعبير . كنت في وضع ينذر بأن الكارثة وشيكة . كنت أختبيء منك ، بل وأحاول أن لا يلمحني أحد في منزلنا أيضا ، ولكن صاحبة المنزل قامت بفضيحة وأخذت تصرخ . طبعا ليس يهمني أن تصرخ ، فلتصرخ ما شاءت ، ولكن المسألة أن صراخها أخجلني وأشعرني بالعار ... تلك نقطة أولى . والنقطة الثانية انها كانت قد علمت بصداقتنا، لا أدري كيف ، فأخذت تصيح في أرجاء المنزل كله مشهّرة بهذه الصداقة قائلة أمورا تبلغ من الفظاعة انني تجمدت ذعرا وسددت أذني حتى

لأسمع ماتقول • ولكن من المؤسف أن السكان الآخرين لم يسدوا آذانهم مثلي ، بل فتحوها واسعة وأرهفوا السمع ••• حتى صرت لا أعرف أين أختبيء •••

ذلك كله يا ملاكي الرقيق ، هذه المصائب التي تراكمت تراكما رهيبا ، هي ما أجهز عليّ وانتهى بتحطيمي تحطيما كاملا • وعلمت فجأة من فيدورا أمورا غريبة : علمت ان زائرا وقحا جاء اليك وألحق بك اهانة اذ عرض عليك أمرا شائنا مخزيا • لقد طعنك هذا الرجل طعنا أصاب أعماق قلبك يا ماتوشكا ، أنا أعلم ذلك قياسا على ما شعرت به أنا أيضا من انني طعنت • في تلك اللحظة ياملاكي ، في تلك اللحظة تماما انما زلت قدمي ، وترنحت وسقطت في الهوة • هرعت أخرج من المنزل يا فارنكا وقد عراني غضب جنوني لا يوصف ، غضب لا عهد لي بمثله من قبل • كنت أريد أن أذهب الى ذلك الشخص الحقير ، الى ذلك المجرم الذي لا حياء له ، دون أن أعرف ماذا أريد أن أصنع ، لأنني لا أطيق يا ملاكي الصغير أن يلحق بك أحد اهانة • آه ما كان أشد حزني ! ما كان أعمق تعاستي ! وكان المطر ينهمر غزيرا في ذلك اليوم ، فالوحل في كل مكان، والجو كالح جهم حزين • فكرت أن أعود الى المنزل وأن أعدل عما عقدت عليه النية ! ••• وفي تلك اللحظة انما وقعت يا ماتوشكا ••• التقيت باميل ، اعني ايميلين ايلتش ، وهو موظف في ادارتنا ، أو موظف سابق ، لأنه لم يعد موظفا ، فقد صرف من الخدمة ، ولا أدري ماذا يعمل الآن ، فانما هو يذهب هنا وهناك ليعيش • التقينا فسرنا معا ، ثم تبعته ، وهكذا حدث كل ما حدث ••• ثم ••• ولكن أية متعة يمكن أن تجديها يا فارنكا في قراءة قصة أنواع العذاب التي قاساها صديق ، وفي معرفة صنوف التدهور التي عاناها ، وألوان الغوايات التي تردى فيها ؟

المهم ان ايميلين هذا هو الذى دفعني وحرضني فى اليوم الثالث عند المساء : فذهبت الى ذلك الشخص ، الى ذلك الضابط • كنت قد حصلت على عنوانه من بواب عمارتنا • والحقيقة انني كنت أراقب هذا الشاب منذ مدة طويلة • كنت أراقبه منذ كان يسكن فى منزلنا ••• الخلاصة ••• انني أدرك اليوم انني قد ارتكبت خطأ ، لأنني لم أكن فى حالتي الطبيعية حين أعلموه بقدومي • يجب أن أقول يا فارنكا ، حتى أكون صادقا انني لا أتذكر على وجه الدقة ما حدث عندئذ • كل ما أذكره أنه كان فى بيته ناس كثير ، كان بيته يمتلىء ضباطا ، اللهم الا أن أكون قد رأيت الشخص شخصين ••• الله أعلم ••• لا ولا أتذكر أيضا ماذا قلت له ، ولكنني أتذكر انني تكلمت كثيرا ، يحضني على ذلك استياء شديد • وعندئذ ، نعم عندئذ ، انما أخرجوني ودحرجوني الى آخر السلم ••• لا! لم يدحرجوني، بل دفعوني دفعا فحسب• وأنت تعلمين البقية يافارنكا، تعلمين على أية حال عدت الى منزلى • هذا هو كل شيء • لا شك انني بهذا قد أهنت نفسي ، وضيعت كرامتي ، وهدرت مهابتي • ولكن ما من أحد علم بالأمر • واذن فكأن شيئا لم يحدث • ألا تظنين ذلك يافارنكا ؟ ومما أعلمه علم اليقين على كل حال هو أن هياسنت أوسيبوفتش قد هجم فى السنة الفائتة على شخص بطرس بتروفتش ، فى مكتبنا ، هجوما كهذا الهجوم ، ولكنه فعل ذلك سرا ، خفيةً ، على غير علم أحد • استقدمه الى غرفة الحارس • وكنت أنا أراقبهما من شق الباب • فرأيته يتصرف كما ينبغي التصرف في مثل هذه الحال ، ولكن بطريقة رفيعة نبيلة ، لان أحدا لم يره غيري • وما قيمة أن أراه أنا ؟ أنا لست شيئا ، أقصد انني لم أقصّ الحكاية على أحد • وبعد ذلك الحادث لم يتظاهر هياسنت أو سيبوفتش وبطرس بتروفتش بشيء البتة • لاحظي أن بطرس بتروفتش رجل معتز بنفسه ، حريص على سمعته أشد الحرص ، لذلك

لم يرو لأحد شيئا ، حتى انهما ما يزالان يتبادلان التحيات ويتصافحان أمام الناس • لست أنكر يا فارنكا ، ولن أحاول أن أنكر انني سقطت سقوطا مريعا • لا أجحد هذا ، والأنكى من ذلك انني فقدت اعتباري في نظر نفسي • لا شك أن هذا الشقاء قد كتب على منذ ولدت ، لا شك أن ذلك قدري ، وما من انسان في هذا العالم يمكن أن يفلت من قدره ••• أنت تعلمين ذلك • هذا هو يا فارنكا الشرح الكامل والسرد الدقيق لما قاسيت من مكاره وما عانت من تدهور • وهذه كلها أمور يمكن ان لا تقرأ • وفيم قراءتها وقد استوى كل شيء الآن ؟

انني أشعر بشيء من الاعياء يا ماتوشكا ، وقد فقدت كل بشاشة في النفس وكل فرحة في القلب • لذلك أكتفي بأن أؤكد لك ما أشعر به نحوك من تعلق وحب واحترام ، وأظل ، يا عزيزتي المحترمة جدا فرفارا ألكسيفنا :

خادمك المطيع
ماكار دييفوشكين

٢٩ تموز (يوليو)

السيد العزيز ماكار ألكسييفتش !

قرأت رسالتك ، فأوشكت أن أصيح من فرط الدهشة • أحد شيئين يا عزيزي : اما أنك تخفي عني شيئا ما ، وأنك لم تقص عليّ الا جانبا من المكاره التي وقعت لك ، واما أنك ، يا ماكار ألكسييفتش ، ما تزال تعاني اضطرابا نفسيا •••

ان رسائلك تدل على شيء من ذلك فى الحقيقة ... تعال الى ، ناشدتك الله ، زرنى فى هذا اليوم نفسه . اسمع ، تعال الينا للعشاء ، هكذا ، بغير كلفة . اننى أجهل جهلا تاما كيف تعيش فى مسكنك ، وهل تفاهمت مع صاحبة البيت أخيرا . انك لا تكتب الىّ شيئا فى هذا الموضوع ، كأنك تتعمد السكوت عن هذه المسألة . أودعك الآن يا صديقى . ولكننى أرجوك أن تأتى الينا اليوم ، تعال حتما . والأصلح على كل حال أن تتعشى كل يوم معنا . ان فيدورا تجيد الطهى . وداعا .

المخلصة لك

فرفارا دوبروزيولوفا

اول آب (آغسطس)

عزيزتى فرفارا السكييفنا !

انه ليسعدك يا ماتوشكا ان الله وهب لك فرصة الرد على الاحسان بالاحسان، وأن تبرهنى لى على الشكر والامتنان. اننى أقدر هذا يافارنكا، وأؤمن بطيبة قلبك الصغير ، قلب الملاك ، فلست أعتب عليك اذن ، ولكن لا تذكرينى ، كما فعلت فى المرة الماضية ، بأننى فى أواخر أيامى قد اندفعت فى أعمال طائشة كأعمال المجانين . لقد أثمت ، نعم أثمت ، اذا كنت تصرين على أن تصفى عملى بأنه اثم ... ولكن يشق على نفسى ، يا صديقتى الطيبة الشهمة النبيلة ، أن أسمع هذه الأشياء من فمك أنت. ذلك قاس على نفسى . لا تؤاخذينى اذا قلت هذا الكلام يا ماتوشكا . ان شيئا فى صدرى يتمزق . ان الفقراء أصحاب نزوات وبدوات . الطبيعة أرادت لهم ذلك . الفقير انسان متشدد كثير الشك والحذر . له طريقة

خاصة فى رؤية العالم ، فهو يلتفت نحو كل عابر سبيل ، ويلقى على ما حوله نظرات قلقة وجلى ، ويسترق السمع الى كل كلمة ، متسائلا : أتراهم يتكلمون عنه ؟ أتراهم يطلقون ملاحظة من الملاحظات عن مشيته المتعثرة المضحكة ؟ أتراهم أرادوا أن يقرأوا ما فى نفسه ساخرين ؟ ها هم أولاء ينعمون فيه النظر ، ليروا هيئته من الجهة اليسرى ، ثم ليدرسوا هيئته بعد ذلك من الجهة اليمنى ، ذلك انهم يعلمون يا فارنكا ان الانسان الفقير لا يساوى أكثر من خرقة بالية ، وانه لا يطمع لنفسه فى أى نوع من الاحترام ، مهما يقل القائلون ومهما يكتب الكاتبون ! آه من هؤلاء الكتاب الثرثارين ! آه من هؤلاء الذين ما ينفكون يسودون ورقا ! فمهما يتقنوا صف العبارات وتنميق الجمل ، سيظل الانسان الفقير ما هو ، ولن يتغير فيه شىء . أما لماذا سيظل ما هو لا يتغير فيه شىء ، فلأن هؤلاء الناس جميعا يرون أن كل شىء لديه يجب أن يكون مكشوفا مبسوطا أمام الأعين معروضا للابصار ، فلا شىء فى نفسه يجب أن يظل سرا أو أن تكون له حرمة . ليس له أن يكون ذا كرامة أو كبرياء .. حرام عليه ذلك ! خذى هذا المثال : لقد حكى لى ايميليان منذ مدة أن بعض الناس نظموا له اكتتاب تبرع من أجل مساعدته فكان جميع المكتتبين يعتقدون أن من حقهم أن يشرعوا فى تحقيق يشبه أن يكون رسميا ، يجلو لهم شخصه ويكشف لهم عن حياته . لقد ظنوا انهم يهدون اليه دريهماتهم . كذب هذا . الحق أنهم دفعوا ثمن رؤية رجل فقير . كل شىء فى هذا الزمان يتم على نحو عجيب يا فارنكا ، حتى البر والاحسان ... ولكن لعل الأمر كان كذلك فى جميع الأزمان ، من يدرى ! أحد أمرين لاثالث لهما : اما أن هؤلاء الناس لا يعرفون كيف يتصرفون من أجل أن يفعلوا الخير ، واما أنهم مسرفون فى المكر والحذق . تلك أمور لعلك تجهلينها يا ماتوشكا : ألا فلتعلميها اذن الآن . أنا جاهل فى كل ما عدا

هذا ، أما هذا فأعلمه حق العلم . قد تسألينني لماذا يعرف الفقير هـذا ؟ لماذا يفكر الفقير على هذا النحو ؟ هي التجربة يا عزيزتي ، التجـربة وحدها . هو يعرف مثلا ان ذلك السيد الذي يمشي في الشـارع على مسافة بضع خطوات منه متجها الى أحد المطاعم ، يقول لنفسه : « وددت لو أعلم ما عسى يأكل اليوم هذا الموظف البـائس . أما أنا فسـوف آمر لنفسي بطبق من شواء ، وأما هو فلا شك أنه سيكتفي بجريش مسلوق بلا زبدة » ، هناك ناس من هذا النوع يا فارنكا ، هناك بشر يقضون أوقاتهم كلها في تأملات من هذا القبيـل . ان أولئك الكتاب الوقحـين وأولئك المخربين الأوغاد الذين ترينهم يتنزهون في الشارع ، فلا يكون لهم من هم الا أن يلاحظوا هل يضع فلان على الأرض راحة قدمه كلها أم هو يمشي على رءوس الأصابع ، يحبون أن يعرفوا أليس في حذاءى ذلك الموظف البسيط ثقوب تخرج منها أصابع قدميه عارية ؟ أليس كمـاه مهترئين حتى الكوعين ؟ انهم يلاحظون ذلك ثم يصفونه وينشرونه كتبا كريهة مقيتة ! فيم يهمهم أن يكون كماى مثقوبين حتى الكوعين ؟ اغفري لي يا فارنكا اذا جئتك بتشبيه فظ فقلت ان الرجل الفقير يشعر في هذه الأمور كلها بنفس الحياء الذي تشعرين أنت به كفتـاة . فأنت لا تحبين طبعا ـ واغفري لي هذا التشبيه الثقيل أيضا ـ أن تتعرى أمام الناس . فكذلك الرجل الفقير ، لا يحب أن يحشر أحد أنفه في خدره ليرى كيف يعيش . لم يكن من الخـير اذن يا فارنكا أن أهان في المرة الماضية بالتواطؤ مع أعدائي الذين يحاولون أن ينالوا من شرف رجل فاضل ومن عزة نفسه .

كنت أشعر اليوم بضيق شديد في المكتب ، كنت أتجمع على نفسي كقنفذ أو كعصفور منتوف . خيل الى أن العار يلتهمني ويحـرقني من أخمص القـدمين الى قمـة الرأس . كنت متضـايقا من نفسي برما بهـا

يا فارنكا . وكيف لا يخجل المرء ولا يرتبك حين يظهر كوعه من كم قميصه وحين تتراقص آزرار ردائه على طرف خيط ؟ كان كل شيء في هندامي فوضى ، هذا الصباح ، كأنما على عمد . ان المرء يفقد شجاعته في مثل هذه الظروف . ثم ... لقد أخـذ ستيفان كارلوفتش نفسه يحدثني في بعض الاعمال اليوم . فما هي الا لحظه حتى انطلقت منه صيحة تعجب قائلا : « آ ... ياماكار أكسيفتش ، باتوشكا ... » . لم يكمل قول ما كان يدور في فكره ، ولكنني حزرت ذلك فورا ، فاصطبغ وجهي بالحمرة ، حتى لقد احمرت صلعتي . الحق أن صيحة التعجب تلك كانت تبدو عابرة لا شأن لها ، ومع ذلك فهي تقلقني ، وهي تثير في رأسي أفكارا لا حصر لها . أتراهم في الدائرة قد علمـوا بما جرى ؟ وقاني الله شر هذا ، ما عسى يقع لو علموا ؟ لا أكتمك أنني أشتبه في شخص معين . ان هؤلاء الأشقياء لا يعرف قلبهم الرحمة ولا الشفقة . سوف يفضحونني ، سوف يبيعون كل أسرار حيـاتي ، لا حرمة لشيء عندهم .

أنا أعرف الآن من الذي فضحني . ان راتازاييف هو الذي دبر هذه المكيدة . انه يعرف أحد الموظفين في دائرتنا ، فلا بد انه قص عليه الأمر عابرا أثناء حديث جرى بينهما ، مضيفا اليه أمورا من عنـده فيما أتخيل ، أو لعله تحدث عن الأمر في دائرته هو ، فتسربت الاشاعة من هناك الى دائرتنا . ذلك أن جميع سكان منزلنا ، بغير استثناء ، يعـرفون تلك القصـة ، ويومئون الى نافذتك بالاصبع . وأمس ، حين ذهبت أتعشى عندك ، وقفوا جميعا على النافذة ، وروت صـاحبة المنزل المثـل السائر الذي يتحدث عن الشيطان يحوم حول الطفل ، ثم قالت بعد ذلك كلمة نابية في الكلام عليك . ولكن هذا كله لا يعد شيئا اذا قيس بمـا يبيته راتازاييف من نية حقيرة ، وهي أن يضعنا أنا وأنت في الأدب ،

وأن يصفنا وصفا ساخرا • لقد صرح هو نفسه بذلك ، ونقل الى اقواله أناس شرفاء من سكان منزلنا • انقلب عقلى رأسا على عقب منذ سمعت هذا الكلام • أصبحت لا أستطيع أن أفكر فى شىء ولا أعرف أى قرار اتخذ • لماذا نخفى عن أنفسنا يا ملاكى اللطيف أننا بآثامنا قد أثرنا سخط الله علينا ؟ اقترحت يا ماتوشكا أن ترسلى الى كتابا أتسلى بقراءته • ألا سحقا لهذا الكتاب ! اننى لا أريد كتبا ، بئست الكتب كلها ! فهى لا تساوى شيئا وليس لها من قيمة • ما هى الا قصص غير معقولة ، ماهى الا حكايات سخيفة مستحيلة ! ليست الروايات الا بلاهات وغباوات كتبها أصحابها لتعطلهم عن العمل ، دون أن يكون لهم هدف الا أن يملئوا فراغهم ! ثقى يا ماتوشكا ، ثقى فى هذه الأمور بخبرتى الطويلة ! لاتلقى بالا الى أولئك الذين يحدثونك عن كاتب اسمه شكسبير ! ـ يظهر أن فى الأدب كاتبا بهذا الاسم ـ دعيك من شكسبير ومن غير شكسبير ! ان شكسبير هذا لا يساوى شيئا هو أيضا ••• ما ذلك كله الا ترهات وتفاهات ! • ما ذلك كله الا تلفيقات واختراعات تتخذ حجة لاصدار كراريس فى هجاء الناس والسخر منهم والضحك عليهم •

المخلص لك

ماكار ديفوشكين

٢ آب (أغسطس)

السيد العزيز ماكار الكسييفتش

لماذا تعذب نفسك هذا التعذيب ؟ لسوف يصلح كل شىء بمعونة الله • لقد جاءت فيدورا بشغل كثير ، لى ولها ، وشرعنا نعمل فورا فى

كثير من الهمة والنشاط والحماسة • لعلنا نستطيع بذلك أن نذلل جميع المصاعب • تعتقد فيدورا أن آنا فيودوروفنا ليست غريبة عن متاعبي الأخيرة • ولكن هذا لا يهمني الآن • انني أشعر اليوم بفرح خاص • تقول انك تنوي اقتراض بعض المال ! اياك ثم اياك ! فلن تستطيع الخروج من المأزق متى آن أوان السداد • الأفضل من هذا أن تزداد قربا منا ، وأن تكثر زياراتك لنا • أما صاحبة بيتك فلا تعبأ بها ولا تلق اليها بالا • وأما عن أعدائك ومضطهديك الأخر ، فأنا على يقين من أنك تعذب نفسك بشكوك لا محل لها ولا داعي اليها يا ماكار ألكسييفتش ! راقب نفسك ! قلت لك في المرة الأخيرة ان كلامك يدل على انك تعاني اضطرابا شديدا • أودعك الآن ، الى اللقاء • انتظرك عندي اليوم • لا تتخلف •

المخلصة لك

ب • د

٣ آب (أغسطس)

ملاكي اللطيف ڤرفارا ألكسييفنا !

أسارع فأنبئك ، يا شعاع ضيائي ، ان بعض الآمال قد أشرقت في نفسي • كتبت تقولين لي يا ملاكي الصغير ان عليَّ أن لا أقترض شيئا من المال• ولكنني يا حمامتي لا أستطيع أن أستغني الآن عن الاقتراض • ان حالتي سيئة منذ الآن ، فكيف اذا حصل لك شيء لا قدر الله • ان جسمك ضعيف • وأنا انما أكتب اليك في هذه اللحظة لأقول لك ان الاقتراض لا بد منه ولا غنى عنه • لذلك أتابع محاولة الاقتراض •

ان مكاني في المكتب يا ڤرفارا ألكسييفنا يجاور مكان ايميليان

ايفانوفتش . ليس هو ايميليان الذى تعرفينه . انه ايميليان آخر يعمل موظفا مثلى ، ونحن أقدم موظفى الدائرة : نحن عماداها ان صح التعبير. وهو انسان طيب النفس مخلص ، لكنه صموت يظل مبتعدا عن الناس ، منطويا على نفسه ، يوحى مظهره بأنه دب حقا . ولكنه فى مقابل ذلك رجل لا يكل ولا يمل من العمل . وله قلم ما أروعه ! .. خط انجليزى فخم ! يجب أن أعترف ، حتى أكون صادقا ، بأن خط هذا الرجل المحترم لا يقل جمالا عن خطى . لم تقم بيننا صلة قوية حتى الآن ، وكنا نقتصر على تبادل التحيات : « صباح الخير » ، « مع السلامة » ، الخ ... وكنت فى بعض الأحيان اذا احتجت الى موسى أبرى بها قلمى أتجه اليه قائلا : « أعرنى الموسى » .. الخلاصة أن كل شيء بيننا كان لا يزيد على التزام المواضعات التى تقضى بها اللباقة . وها هو ذا يسألنى فى هذا الصباح على حين فجأة : « ما بالك يا ماكار ألكسييفتش ؟ انك تبدو شارد اللب كثير التفكير » . أدركت أنه يريد لى خيرا . فقلت له : « والله ... يا ايميليان ايفانوفتش ، الأمر كيت وكيت » . طبعا لم أذكر له كل شيء ، معاذ الله ! لا ولن أذكر له كل شيء يوما . ولو أردت ذلك لما تجرأت على كل حال . كل ما هنالك اننى كشفت له عن بعض الأمور الجزئية، وأسررت اليه اننى فى ضيق ، الخ ... فأجابنى بقوله : « ولماذا لا تقترض شيئا من المال ما دام الأمر كذلك يا عزيزى ؟ اذهب الى بطرس بتروفتش ، فانه يقرض بفائدة . ولقد سبق أن أقرضنى بفائدة معتدلة محتملة . آه يا فارنكا ، لقد وثب قلبى من صدرى حين سمعت هذه الكلمات . وأخذت أفكر وأفكر . قلت لنفسى : من يدرى ؟ قد يلهم الله بطرس بتروفتش ، هذا الرجل المحسن ، أن يقرضنى أنا أيضا . وأجريت حسابى فقدرت أننى سأستطيع أن أدفع لصاحبة البيت دينا على ، واننى سأستطيع أن أساعدك أيضا ، واننى سأستطيع أن أحسن هندامى قليلا

آخر الأمر • ذلك أن المخجل أن يكون هندامي على ما هو عليه الآن • لقد أصبحت أشعر بضيق وحرج في المكتب ، ناهيك عن أولئك الساخرين الأشرار الذين لا ينتظرون الا حجة من أجل أن يستهزئوا • وهبني لا أحفل بهم بل أدعهم وشأنهم ••• ان من الممكن أن يمر صاحب المعالي بمكتبي ، وهذا يحدث من حين الى حين ، ومن الممكن ، لا قدر الله ، أن يلقي عليّ نظرة فيرى ملابسي غير لائقة ، وهو امرؤ يعتقد أن النظافة وحسن الهندام أهم من أي شيء آخر • صحيح انه لن يقول لي شيئا • ولكنني سأموت في مكاني من فرط الحياء والخجل والاضطراب • ذلك ما قد يحدث • لذلك استجمعت شجاعتي ، ودسست خجلي في جيبي المثقوبة ، وتوجهت نحو بطرس بتروفتش ممتلئا بالأمل مرتعشا من الخشية في آن واحد • لكن الأمور لم تنته الى ما أحب يا فارنكا • تخيلي أن ذلك كله لم يجدني نفعا • كان في تلك اللحظة مشغولا يكلم تادي ايفانوفتش ، فدنوت منه من جانب ، وشددت كمه قائلا : « بطرس بتروفتش ، هيه ••• بطرس بتروفتش » ، فالتفت الي ، فتابعت أشرح له انني في حاجة الى ثلاثين روبلا ، الخ • فلم يفهم في أول الأمر ما أريد• حتى اذا شرحت له الأمر مرة أخرى ، أخذ يضحك ، ولكنه لم يجب بشيء بل اكتفى بالصمت • وكررت طلبي ، فقال لي عندئذ : « هل عندك رهن ؟ » ثم أكبّ ينهمك في كتابته ، متابعا عمله دون أن ينظر الي • اضطربت قليلا • ثم أجبته قائلا : « لا ليس عندي رهن يا بطرس بتروفتش » • وحاولت أن أقنعه بأنني سأرد اليه القرض متى قبضت راتبي ، وانني لن أتأخر عن السداد لحظة ، فذلك عندي واجب مقدس• وناداه أحد في تلك اللحظة ، فمضى اليه • وأخذت أنتظر ، فلما عاد جعل يبري قلمه كأنه لا يلاحظ وجودي • فاستأنفت كلامي قائلا له : « أما من وسيلة يا بطرس بتروفتش ؟ أما من طريقة ؟ » • ولكنه ظل

صامتا لا يجيب ، متظاهرا بأنه لا يسمعنى . فانتظرت بضع دقائق أخرى واقفا قربه . ثم قررت أن أحاول محاولة أخيرة ، فشددت كمه مرة ثانية ، فلم ينبس بحرف ، حتى اذا فرغ من برى قلمه عاد ينهمك فى الكتابة ، فلم يسعنى الا أن أنصرف عنه . هؤلاء يا ماتوشكا أناس أخيار جديرون بالاحترام ما فى ذلك ريب ، ولكنهم مسرفون فى الكبر والصلف والزهو ، فلا يعرف المرء كيف يأخذهم . نحن صغار جدا بالقياس اليهم يا فارنكا . لذلك أكتب اليك هذا كله .

وقد أخذ ايمليان ايفانوفتش يضحك حين رويت له القصة ، وهز رأسه الى ذلك هو أيضا . ولكنه فى مقابل هذا بث فى نفسى بعض الأمل يا فارنكا . انه رجل طيب شهم . وعدنى بأن يوصى بى شخصا يعرفه ، يقيم ، يا فارنكا ، فى حى فيبورج ، ويقرض بفائدة أيضا ، وهو موظف بالدرجة الرابعة عشرة فيما يظهر . يدعى ايمليان ايفانوفتش . ان الرجل سيقرضنى المبلغ حتما . سأمضى اليه غدا يا ملاكى الرقيق .. سأمضى اليه ، ما رأيك ؟ ألست على حق ؟ لا غنى لى عن الاقتراض يا فارنكا . صاحبة البيت تقول انها ستطردنى ، وهى ترفض أن تقدم لى طعام العشاء . حذاءاى فى حالة يرثى لها يا ماتوشكا ، وأنا فى حاجة الى أزرار ، والى أشياء أخرى كثيرة أيضا . ما عسى يحدث لو لاحظ أحد من رؤسائى هندامى الرث ؟ سيكون ذلك مصيبة يا فارنكا ، سيكون ذلك مصيبة ، سيكون ذلك كارثة حقا .

ماكار ديفوشكين

٤ آب (أغسطس)

عزيزى ماكار ألكسييفتش

ناشدتك الله يا ماكار ألكسييفتش أن تحصل على مال بأية وسيلة ، أن تقترض مالا بأقصى سرعة . ما كنت لأرضى أن أطلب منك مساعدة فى الظروف الراهنة ، ولكنك لا تعرف الوضع الذى أنا فيه . يستحيل علينا أن نبقى فى هذا المسكن بأية حال . لقد أصابتنى مكاره رهيبة ، ولا تستطيع أن تتخيل مدى الاضطراب النفسى الذى أعانيه فى هذه اللحظة .

تصور يا صديقى أن رجلا لا نعرفه ، رجلا مسنا يشبه أن يكون شيخا عجوزا مع أوسمة كثيرة ، جاء الينا هذا الصباح . دهشت من مجيئه أشد الدهشة ، لأننى لا أعرف لزيارته سببا . كانت فيدورا قد خرجت منذ لحظة لشراء شيء . أخذ الرجل يلقى عليّ الاسئلة تلو الأسئلة ، فهو يسألنى عن معيشتى وعن مشاغلى ، ثم اذا هو يصرح لى فجأة قبل أن أفرغ من الاجابة على أسئلته ، بأنه عم ذلك الضابط ، وبأنه قد استاء كثيرا من السلوك السيىء الذى سلكه معى ابن أخيه فعرّضنى لسوء السمعة فى المنزل كله ، وقال ان ابن أخيه صبى غر طائش العقل ، وعرض عليّ أن أكون فى حمايته ورعايته ، وأكد فى الوقت نفسه أن عليّ أن لا ألقى بالا الى الشبان ، مضيفا الى ذلك انه يقدر ظروفى ويعطف عليّ عطف الأب على ابنته ، ويشعر نحوى شعور الأب نحو ابنته ، وانه على استعداد لأن يساعدنى فى كل أمر . فاحمر وجهى وتساءلت ماذا يجب أن يكون رأيى فى هذا الكلام ، ولكننى لم أتسرع فأشكره . وماهى الا لحظة حتى رأيته يمسك يدى عنوة ، ويلامس خدى ، ويقول اننى فتاة جميلة ، وانه افتتن حين لاحظ أن لى نقرتين فى وجنتى (الله أعلم ماذا قال فى هذا !) وأراد أخيرا أن يقبلنى بحجة أنه شيخ عجوز (ماكان

أبشعه !) وفى هذه اللحظة دخلت فيدورا • فاضطرب قليلا وعاد يؤكد مرة أخرى أنه يقدرنى ويحترمنى لما أتصف به من تواضع ولما يتصف به سلوكى من استقامة ، وانه يتمنى أن أثق فيه وأن لا أخشاه قط • ثم جذب فيدور الى ركن من الاركان واراد أن يعطيها بعض المال متذرعا بحجج غريبة • ولكن فيدورا رفضت أن تأخذ المال طبعا • وقرر الرجل أخيرا ان ينصرف ، لكنه جدد تأكيداته واعدا أن يعود مرة أخرى ، وأن يجيئنى بقرطين (كان يبدو مضطربا هو نفسه) ونصحنى أن أستبدل بشقتى شقة أخرى ، وأوصانى بمنزل وصفه بأنه جيد جـــدا وبأنه لن يكلفنى أجرا • وصرح بأنه يشعر بكثير من العطف نحوى لاننى فتاة شريفة عاقلة • ونصحنى بأن أتجنب الشبان الذين فســدت آخـلاقهم ، وذكر أنه يعرف آنا فيودوروفنا ، وانها كلفته بأن يبلغنى انها ستزورنى هى أيضا • فهمت فى تلك اللحظة كل شىء • فتملكنى غضب شـديد حتى أصبحت كالمسعورة • هذه أول مرة فى حياتى أتعرض فيها لمثل هذا الموقف • صرخت فى وجهه حانقة ساخطة • فاضطرب اضـطرابا شديدا • وهبت فيدورا فى تلك اللحظة الى نجدتى ، فأخرجته من البيت اخراجا يوشك أن يكون طردا • وخلصنا الى أن آنا فيودوروفنا هى التى دبرت الأمر كله ، والا فكيف له أن يعرفنا ! ••

أتوجه اليك الآن يا ماكار ألكسييفتش ضارعة أن تساعدنا • ناشدتك الله ألا تتركنا على مثل هذا الوضع ! اقترض مالا ، ولو مبلغا ضـئيلا ، لأننا لا نملك ما ندفعه نفقات انتقال ، ومن المستحيل علينا قطعا أن نمكث هنا بعد الآن • ذلك رأى فيدورا أيضا • لا بد لنا من خمسة وعشرين روبلا • سأردها اليك ، سأجنيها بعملى • ستأتينى فيدورا بأشغال جديدة بعد بضعة أيام ، فاذا كنت مترددا عن الاقتراض لأن الفائدة باهظة مثلا، فلا توقفنك هذه الصعوبة ، بل وافق على كل شىء • سأرد اليك المبلغ

كاملا ، ولكن ناشدتك الله لا تتركنى بلا سند • يحز فى نفسى طبعا أن أزعجك فى الظروف الحالية ، ولكنك الآن أملى الوحيد ، ولا أمل لى سواك • وداعا يا ماكار ألكسييفتش • فكر فىّ ، وليكلل الله مساعيك بالنجاح •

ب • د

٤ آب (أغسطس)

يمامتى ، عزيزتى فرفارا ألكسييفنا

ان هذه الضربات الكثيرة التى يباغتك بها القدر ترهقنى وتضنينى • ان هذه النوازل الرهيبة تهشم قلبى وتشل روحى • ان هذا الجنس من المتطفلين الذين تعددت أنواعهم ومن الشيوخ العجز الذين يبعثون على الاشمئزاز لا يشيعون الحزن واليأس فى قلبك وحدك يا ملاكى الرقيق، بل لقد آلوا على أنفسهم فوق ذلك أن يجهزوا علىّ أنا اجهازا كاملا • ولسوف يصلون الى مبتغاهم ، هؤلاء الطفيليون ، أؤكد لك ذلك • ذلك أننى أوثر الآن أن أموت جوعا على أن لا أهب الى مساعدتك • اذا لم أساعدك فذلك هو الموت عندى يا فارنكا ، الموت الاكيد ، الموت المحقق • واذا أنا ساعدتك فستبتعدين عنى ، ستطيرين الى بعيد يا طائرى الصغير ، ستهجرين عشك الصغير الذى باغتك فيه البوم الحقير يريد أن يقضى عليك ضربا بالمناقير • ذلك ما يعذبنى ويضنينى يا ماتوشكا • ولكن كيف أمكنك يا فارنكا أن تكونى قاسية هذه القسوة كلها أنت أيضا ؟ ما هذا الذى يدور فى خلدك ؟ انهم يضطهدونك ويهينونك ، فتتألمين وتتعذبين

يا طائرى الصغير ، ثم اذا أنت تزيدين على ذلك فتجعلين تلومين نفسك على أنك تزعجينني وتضايقينني • انك تعدين بأن تكدى فى العمل حتى تردى الدين ، فكانك تريدين أن تقتلى نفسك قتلا ، وأنت على ما أنت عليه من سوء الصحة ووهن الجسم ، فى سبيل أن تسدد المال فى مواعيده• هلا فكرت يا فارنكا فيما تقولين ؟ لماذا تقدرين أن عليك أن تضاعفى جهدك فيما تقومين به من أعمال الخياطة ، وأن ترهقى نفسك ، وتعذبى روحك بهذه الهموم كلها ، وأن تتعبى عينيك الجميلتين ، وتهدى البقية الباقية من قواك ؟ صحيح يا ملاكى أننى امرؤ لا يصلح لشىء ، ولكننى سأحاول أن أكون مفيدا لك على كل حال • سأذلل جميع العقبات • سأحصل على عمل اضافى فى خارج الوظيفة • سأنسخ لكتّاب كثر ، أفرض نفسى عليهم ، واجبرهم على أن يعهدوا الىّ بأعمال ، لأنهم فى حاجة الى ناسخين • ولكننى لن أسمح الك بأن تقتلى نفسك فى الشغل ، لن أرضى أن تنفذى مشروعك المقيت هذا • سوف أقترض مالا يا ملاكى الرقيق ، اطمئنى • تطلبين منى يا يمامتى أن لا يصدنى الربا الفاحش عن الاقتراض • ولكن ذلك لن يصدنى يا ماتوشكا ، لا لن أخاف ، لن يثنينى أى شىء بعد الآن• سوف أطلب قرضا مقداره أربعون روبلا ورقا يا ماتوشكا • ليس هذا بكثير يا فارنكا ، أليس كذلك ؟ هل تقدرين أنهم سيقرضوننى أربعين روبلا على الثقة ؟ هل يمكن أن يثقوا بى لأول وهلة ؟ هل أستطيع ، أعنى هل أستطيع فى رأيك أن أوحى بالثقة والاطمئنان دفعة واحدة ؟ أقصد : هل توحى بذلك هيئتى ، هل يوحى بذلك منظرى ؟ هل أحدث فى نفس من يرانى انطباعا حسنا ؟ حاولى أن تتذكرى يا ملاكى الرقيق هل أحدث فى نفس من يرانى أثرا حسنا من أول نظرة ؟ هل يرتاح الىّ الناس حين يروننى ؟ ذلك أننى أشعر بنوع من الرهبة حين ألقى على نفسى هذا السؤال ، أشعر بخوف مرضى والحق يقال • من هذه الروبلات الأربعين

سوف أحتفظ لك يا فارنكا بخمسة وعشرين ، ثم أعطي صاحبة البيت روبلين فضة ، أما الباقي فأنفقه على نفسي ، على حاجاتي أنا • صحيح أن من المستحسن أن أعطي صاحبة البيت أكثر من ذلك ، حتى لقد يكون هذا ضروريا لا غنى عنه • ولكن فكري في الأمر أنت نفسك يا ماتوشكا• احسبي النفقات التي لا بد لي منها ، ترى انه يستحيل على أن أنقد صاحبة المنزل أكثر من روبلين فضة • غير وارد اذن أن أفعل ذلك ، ومن الافضل أن لا تتحدث فيه • سوف أشتري حذاءين بروبل فضة • انني أتساءل : هل يمكن أن يتماسك حذاءاي القديمان حتى الغد ، هل يمكن أن أنتعلهما لأذهب بهما الى المكتب في الغداة • أحتاج أيضا الى عصبة للعنق ، ذلك أن العصبة العتيقة قد بليت منذ سنة • ولكن لمَّا كنت قد وعدتني بأن تفصلي لي عصبة من مآزرك العتيقة ، بل وصدرة أيضا ، فانني لا أفكر الأن في شراء عصبة ولا صدرة • حلت اذن مشكلة الحذاءين والعصبة•أحتاج عدا هذا الى أزرار، لأنني فقدت نصف أزرار سترتي • انني لأرتعش حين أتصور أن صاحب المعالي قد يرى ما انا فيه من فوضى ! ما عساه يقول عندئذ يارب ! على انني لن أسمع الملاحظات التي قد يبديها في هذه الحالة ، لأنني سأموت ، نعم سأموت على الفور ، سأموت خجلا وحياء وشعورا بالعار ! آه ما أقسى هذا يا فارنكا ! سيبقى لي اذن بعد كل هذه النفقات التي لا بد منها ثلاثة روبلات ورقاء وسيكفيني هذا المبلغ لأقيم أودي ، وكذلك لأشتري نصف رطل من التبغ ، لأنني لا أستطيع يا ملاكي الرقيق أن أعيش بلا تدخين : منذ تسعة أيام لم أضع الغليون في فمي مرة واحدة • في وسعي أن أشتري لنفسي هذا التبغ دون أن أقول لك ذلك ، ولكنني أخجل أن أفعل • أتعيشين أنت في مثل هذا البؤس ، وتحرمين نفسك من كل شيء ، ثم أبدد أنا المال في سبيل ملذات صغيرة تافهة ؟ لذلك تريني أحدثك في هذا الأمر الآن حتى

لا يرهقني عـــذاب الضمير • يجب أن أعترف لك بصراحة يا فارنكا ، انني الان في وضع هو الدمار بعينه ، وضع ما مررت بمثله في حيـاتي أبدا • ان صاحبة البيت تحتقرني ، وما من أحد يحترمني • مصاعب من جميع الجهات ، ثم ديون وديون ، وفي المـكتب ، حيث لم يكن زملائي يحبونني كثيرا حتى قبل الآن ، ساء وضعي مزيدا من السوء يا ماتوشكا • انني أحاول أن لا ينتبـــه الي أحد ، فأنكمش على نفسي ، وأختبيء عن الناس ، وأتسلل الى مكاني في المكتب تسـللا ، حتى أتحـاشى نظرات الآخرين وحتى لا أرى شيئا أنا أيضا • هـــذه أمور لا أكاد أملك من الشجاعة ما يمكنني من البوح بها ••• وما قولك اذا رفض أن يقرضني؟ لا ••• لا ••• الأفضل يا فارنكا أن لا أفكر في هذا ، وأن لا أهدم قلبي بمثل هذه الخواطر • ومن أجل ذلك انما أكتب اليك الآن •• لأجنبـك التفكير في مثل هذا الأمر ، ولأوقيك العذاب الذي سوف تعانينه اذا خطرت ببالك فكرة سيئة كهذه الفكرة • يا رب ، يا رب ! ما عسى يحدث لنا في مثل تلك الحالة ؟ ما عسى يحدث لنا اذا رفض أن يقرضني ؟ صحيح انك لن تستطيعي الانتقال من بيتك عندئذ ، وانك ستظلين في هـذا المنزل ، فتمكثين قريبة مني غير بعيدة عني • ولكن •• لا •• سوف أعجز حتى عن العودة الى بيتي اذا أخفقت في مسعاي ، سوف أهلك نفسي عندئذ في مكان ما ، سوف أموت • لقـد طالت رسالتي • ويجب علـي أن أحلق ذقني • ان من الأفضل أن يحلق المرء ذقنه ••• من المستحسن دائما أن يعنى المرء بمظهره • أسأل الله أن يعيننا ويشد أزرنا • وسوف أصلي الآن ثم أمضي الى مسعاي •

م • دييفوشكين

٥ آب (أغسطس)

السيد العزيز جدا ماكار ألكسييفتش !

ليتك لا تعذب نفسك هذا التعذيب كله على الأقل ! أليس ما بنا من شقاء كافيا بدون هذا التعذيب الذى توقعه فى نفسك ؟ أرسل اليك ثلاثين كوبكا فضة . يستحيل عليّ ان افعل أكثر من ذلك اطلاقا . فاشتر ما أنت فى أمس الحاجة اليه حتى تعيش الى غد على كل حال . لم يبق لنا شيء تقريبا ، ولا أدرى ما عسى يكون الغد . ذلك محزن ياماكار ألكسييفتش. ولكن ليس يفيد فى شيء أن تحزن هذا الحزن كله : لقد أخفق مسعاك، فما حيلتنا وماذا نستطيع أن نفعل ؟ فيدورا تؤكد أن ذلك ليس بكارثة . ان فى امكاننا أن نمكث فى هذا المسكن الى حين ، ولن يجدينا كثيرا أن ننتقل الى مسكن آخر على كل حال ، ففى وسعهم دائما أن يعثروا علينا اذا هم أصروا . ومع ذلك أرى أنه لا يستحسن أن نبقى هنا الآن . ولولا أننى حزينة جدا لكتبت اليك شيئا فى هذا الموضوع .

غريب طبعك يا ماكار ألكسييفتش ! انك تسرف فى الأسى لأحزان الآخرين . وعلى هذا سوف تقضى حياتك كلها شقيا تعيسا الى أبعد حدود الشقاء والتعاسة . اننى أقرأ كل رسالة من رسائلك بانتباه شديد ، فأدرك أنك تعذب نفسك من أجلى ، وأن الهموم تركبك فى سبيلى ، وأن حزنك عليّ أشد من حزنك على نفسك فى أى وقت من الأوقات . سيقول جميع الناس طبعا انك رجل طيب القلب . أما أنا فأرى أن هذا اسراف فى طيب القلب . ما أقوله الآن هو نصيحة من صديقة تخلص لك الود يا ماكار ألكسييفتش ، أنا شاكرة لك ، شاكرة لك جدا ، جميعَ الجهود التى بذلتها فى سبيلى . اننى أعرف هذه الجهود ، وأشعر ازاءها بأعمق الامتنان والتأثر . أنظر الى الأمر بنفسك واحكم فيه : انه ليحز فى

نفسي ويؤلمني أشد الالم أن ألاحظ ، بعد كل المصائب التي نزلت بك والتي كنت أنا سببها على غير ارادة مني ، أنك ما تزال حتى اليوم لاتعيش الا بي ولي ، فكأن العالم كله قد خلا الا من أفراحي وأتراحي ونفسي • لو كان على المرء أن يأسى هذا الأسى كله لما يقع لغرباء ، وأن يتعذب هذا العذاب لآلام كل انسان من الناس ، لأصبح أشقى أهل الارض طرا • حين جئت الى اليوم آيبا من مكتبك هالني منظرك • كنت شاحب الوجه ، مذعورا يائسا ، مشعث الهيئة غريب السحنة • لماذا ؟ لأنك كنت تخشى أن تروي لي اخفاقك في مســـعاك ، لأنك كنت تخاف أن أحزن وأن أقلق • حتى اذا لاحظت أنني مرتاحة تخففت من عبئك فجأة • لا تعذب نفسك يا ماكار ألكسييفتش ، لا تنحدر الى هوة الحــزن واليأس ، كن عاقلا ، أرجوك ، أضرع اليك • لسوف ترى أن جميع الأمور ستنحل ، وأن كل شيء سينتهي الى خير • والا فلن تستطيع أن تعيش متألما لآلام الآخرين هذا التألم دائما • وداعا يا صديقي • أضرع اليك مرة أخرى ان لا تسرف في القلق عليّ •

ب • د

٥ آب (أغسطس)

يمامتي ، عزيزتي فارنكا !

طيب ، يا فارنكا ، طيب • أنت ترين أن اخفاقي في الحصول على مال حتى الآن ليس بالكارثة الكبيرة • طيب طيب • هأنذا راض سعيد امتثالا لأمرك • واني لأفرح حين أتصــور أنك أصبحت لا تفكرين في

تركى أنا الشيخ العجوز الفقير ، وأنك باقية فى هذا المسكن • الحق ان قلبى طفح فرحا حين قرأت ما تقولينه فى رسالتك عن العواطف التى أكنها لك ، وحين رأيت انك تعرفين كيف تقدرين هذه العواطف حق قدرها • لا أتحدث عن هذا افتخارا ، بل لأننى أرى فيه برهانا على العاطفة التى تحملينها لى ما دمت تقلقين أيضا لما آلت اليه حالة قلبى • طيب يا عزيزتى ، ما لنا ولقلبى الآن • دعينا من قلبى الآن • انك تأمريننى بأن أتجمل بالشجاعة • طيب يا ملاكى الرقيق • أنا أعلم انه لا بد للمرء من الشجاعة • ولكن فكرى أنت فى الامر يا ماتوشكا ، واقطعى فيه برأى : ما الحذاءان اللذان أذهب بهما غدا الى العمل ؟ تلك هى المسألة يا ماتوشكا • هذا أمر يمكن أن يقتل المرء قتلا ، يمكن أن يدمره تدميرا كاملا ؟ لا سيما وأننى لا أتألم على نفسى فحسب ، ولا أتعذب من أجلى وحدى • ثم انه يستوى عندى أن أخرج بلا معطف ولا حذاءين فى هذا الجو البارد وهذا الصقيع المتجلد ، اننى قادر على احتمال ذلك ، مستعد لقبول كل شىء • فأنا انسان بسيط ، انسان صغير ، ولكن ما عسى يقول الآخرون ، يارب ، ما عسى يقول أعدائى ، ما عسى تقول هذه الألسنة الطويلة كلها ، حين أرى بلا معطف ؟ من أجلهم ، من أجل الناس ، انما يضطر المرء الى ارتداء معطف وانتعال حذاءين أيضا • من أجل الناس انما يتجمل المرء بهذه الأشياء ما فى ذلك ريب • فأنا اذن فى حاجة الى حذاءين ، يا روحى ، يا ماتوشكا ، صوناً لشرفى ومحافظة على سمعتى ؟ صدقى يا ماتوشكا أن الحذاءين المثقبين يسيئان الى سمعتى وشرفى كليهما ، صدقى تجربة عجوز عاش طويلا وعرف العالم وبلا الحياة وخبر الناس • صدقى ما أقوله لك أنا ، لا ما يكتبه أولئك المخربشون الذين يسودون صفحات طويلة ويسمون أدباء •

لم أقص عليك ، يا ماتوشكا ، تفاصيل ما جرى أمس • لقد تألمت

كثيرا ، وعانيت من عذاب النفس فى ذلك الصباح وحده أكثر مما عانيت خلال سنة برمتها • اليك ما حدث : نهضت من فراشى وغادرت البيت فى ساعة مبكرة جدا من الصباح ، حتى أستطيع أن أجده فى منزله وأن أصل الى عملى بعد ذلك دون تأخر • كان المطر يهطل ، وكان الشارع مليئا بالوحل • تدثرت بمعطفى • ومضيت أسعى فى الشارع وأنا أتمتم : « يا رب ، اغفر لى آثامى ، وهب لى النجاح فى مسعاى » ، حتى اذا مررت أمام كنيسة ن ، رسمت اشارة الصليب ، وأعلنت لله توبتى عن كل ماقارفت من شر ، وخطر ببالى فى تلك اللحظة أننى لا أستحق أن أخاطب الله • سرت منكفئا على نفسى ، لا أريد أن أنظر فيما حولى • سرت لا يعنينى الطريق الذى أسلكه • كانت الشوارع مقفرة وكان المارة القلائل الذين أصادفهم يبدون مهمومين منهمكين : ولا عجب فى ذلك ، فمن ذا الذى يخرج فى مثل هذه الساعة ومثل هذا الجو متنزها ؟ والتقيت بجماعة من العمال متسخى الايدى ، أقبلوا علىّ يدفعوننى عابرين ••• يا لهم من أفظاظ غلاظ ! تركتنى عندئذ شجاعتى ، واعترانى خوف ، حتى أصبحت لا أريد أن أفكر فى المبلغ الذى يجب علىّ أن أقترضه ، ولا أجرؤ أن أفكر فيه ، وانما أسير ضاربا فى الارض على غير هدى • وقرب جسر « الانبعاث » انفلت نعل أحد حذاءى حتى كاد ينفصل عن الحذاء ، ولكننى تابعت سيرى لا أدرى كيف ! وهأنذا ألمح النساخ ارمولاييف على حين فجأة سائرا فى اتجاه هو عكس الاتجاه الذى كنت سائرا فيه • وقف ارمولاييف أمامى ونظر الىّ وظل يتابعنى ببصره كأنه يتمنى لو يطلب منى بعض المال ليشرب به خمرا • قلت فى نفسى عندئذ « هذا هو الأوان حقا ! » وكنت أشعر بتعب شديد ، فتوقفت أستريح بضع لحظات ، ثم تابعت سيرى • بحثت فيما حولى عن شىء يمكن أن أقف عليه تفكيرى تشدانا للسلوى وسعيا الى بث شىء من الشجاعة فى نفسى • ولكننى لم

أستطع الى ذلك سبيلا : كان يستحيل ان اثبت افكارى على اى شىء • يضاف الى ذلك اننى كنت قد اتسخت بالوحل اتساخا شديدا حتى صرت استحى من نفسى • وأخيرا لمحت من بعيد بيتا خشبيا اصفر اللون له دربزين • قلت لنفسى : « ذلك هو البيت الذى وصفه لى ايميليان ايفانوفتش ، هنا يسكن ماركوف » (ماركوف هو الرجل الذى يقرض بفائدة يا ماتوشكا) • نسيت فى تلك اللحظة كل شىء • ورغم ثقتى بان منزل ماركوف هو هذا المنزل قطعا ، أردت أن أتحقق من ذلك ، فدنوت من البواب وسألته « أهذه دار ماركوف يا آخ ؟ » فأجابنى بفظاظة وغلظة كأنه كان غاضبا من أحد وكأنه كان يحسب كل كلمة يقولها : « نعم هى دار ماركوف » يالهؤلاء البوابين ما اشد عبوسهم وتجهمهم ! وعلى أن هذا كان لا يعنينى فقد خلف فى نفسى اثرا مزعجا • هذه حقيقة صادقة دائما : ان كل ما يقع لنا يناسب حالتنا النفسية ، فاذا كان المرء شجى النفس معتكر المزاج ، فلا تقع له الا احداث مزعجة • مررت امام الدار ثلاث مرات ، فكانت عزيمتى تخور مزيدا من الخور فى كل مرة • قلت لنفسى : « لا ، لا ، سوف يرفض أن يقرضنى ، فهو أولا لا يعرفنى ، وهو ثانيا لن يرضيه مظهرى » • وقلت أخيرا : « القدر هو الذى يقرر• على الأقل لن ألوم نفسى على أننى لم أحاول • وما يُقتل المرء لأنه حاول»• قررت آخر الأمر اذن أن أفتح الرتاج فى رفق • فما ان فعلت حتى انقضت علىّ نازلة جديدة : انه كلب شرير صغير • حيوان حقير غبى ، غضب منى ، فأخذ ينبح بكل ما يملك من قوة ، لا يتوقف عن العواء الحانق لحظة واحدة ! ••• يا له من كلب قذر ! ••• ان أمورا يسيرة من هذا النوع ، ان أشياء صغيرة تافهة كهذا الشىء ، يمكن أن تجهز على انسان ، ان تخرجه عن طوره أحيانا ، أن تبدد دفعة واحدة كل ما قد عقد عليه العزم ! ودخلت الدار أقرب الى الموت منى الى الحياة ، وهناك

واقتنى مصيبة جديدة • اجتزت عتبة باب المدخل فى ظلام دامس ، فكنت لا أعرف أين أضع قدمى ، وكانت هنالك امرأة ، نعم امرأة ، تصب دلوا من اللبن فى آنية ، فلما صدمتها أفلت الدلو من يديها ، فانسكب اللبن على الارض • طفقت المرأة تعول وتوعوع ! يا لها من حمقاء ! « هلا نظرت أين تسير يا عجوز ، عم تبحث هنا يا قرد ؟ » وانطلقت منها ألفاظ أخرى أيضا أخذت بعدها تنتحب فما تتوقف عن الانتحاب • أروى لك هذا كله يا ماتوشكا ، لأن هذه القصص تقع لى دائما فى هذا النوع من الشئون • لا بد لى دائما ، فى مثل هذه الحالة ، آن أنشب فى شىء او فى أحد • وهرعت الى المكان عجوز شمطاء سمعت الصراخ • انهـا صاحبة البيت ما فى ذلك ريب • تقدمت اليها رأسا ، وسألتها : « أهنـا يسكن السيد ماركوف ؟ » فقالت «لا» ثم نظرت الىّ من أخمص القدمين الى قمة الرأس ، فأضافت بعد ثانية أو ثانيتين : « ماذا تريد منه ؟ » ، فشرحت لها الغرض الذى جئت من أجله ••• قلت ان ايميليان ايليتش ••• الخ الخ • « فأنا أحب أن أكلمه فى عمل » • فنادت العجوز ابنتها، وهى صبية شبت عن الطوق ، لكنها حافية القدمين ، وقالت لها « اذهبى فنادى أباك ، انه هناك عند المستأجرين • تفضل أيها السيد » • دخلت الغرفة • انها حجرة لائقة ، قد علقت على جدرانها لوحات هى صـور جنرالات ، جنرالات فحسب ، وفيها ديوان ، ومنضدة مدورة ، وأصيص زهر • فلما لبثت وحيدا أخذت أفكر : « ماذا لو انصرفت ، ماذا لو ذهبت دون أن أنتظر التتمة ؟ » يمينا يا ماتوشكا لقد تمنيت أن أهرب ! قلت لنفسى : « خير لى أن أعود فى الغد ، فسيكون الجو فى غد أفضل • خير لى أن أصبر قليلا ، فان هذا النهار غير ملائم ولا هو بمشجع : لقد سفحت دلو اللبن على الارض ، وهؤلاء الجنرالات المعلقة صورهم على الجدران عابسون كثيرا • خير لى أن أعود غدا » وفيما كنت أتجه نحو

الباب أريد الخروج ، دخل عليّ الرجل • انه أشيب الشعر ، له عينا وغد ، يرتدى ثوبا من ثياب المنزل ملطخا بالدهن والوسخ ، ويسد على خصره حبلا اتخذه حزاما • سألنى عن الهدف من زيارتى ، فذكرت له ان ايميليان ايفانوفتش هو الذى ارسلنى اليه ، واننى فى حاجة الى أربعين روبلا ، واننى جئت اليه لأكلمه فى هذا العمل ••• ولكنه لم يدع لى أن أنهى كلامى ، وقرأت فى عينيه فورا ان كل أمل قد ضاع • قال : « لا داعى الى الكلام فى أعمال ، فليس معى مال • أتراك تملك رهنا تقدمه ؟ » فأجبته بأننى لا أملك ما أرهنه ، ولكن ايميليان ايفانوفتش••• الخلاصة قلت اننى فى حاجة ملحة الى المال • اصغى الى كلامى فى هذه المرة حتى النهاية • فلما انتهيت قال : « لا جدوى ، ليست القضيه قضية ايميليان ايفانوفتش • القضية أنه ليس عندى مال • هذا كل شيء ••• » قلت لنفسى : الامر اذن كما قدرت ، كما توقعت ، كما تنبأت، وددت فى هذه اللحظة لو تنشق الارض فتبلعنى • وشعرت بقشعريرة تسرى فى جسمى كله ، وأحسست بساقى تقصان ، وبظهرى ينمل • فنظرت اليه ، فرأيته ينظر الىّ هو أيضا وكأنه يقول : « مالك لا تنصرف؟ ماذا تنتظر بعد ؟ » لو كنت فى ظروف غير هذه الظروف لمت فى أرضى خجلا وعارا • وسألنى الرجل فجأة : « ما حاجتك الى هذا المال ؟ » (لقد تجرأ أن يلقى علىّ هذا السؤال يا ماتوشكا) ، ففتحت فمى أهم بالكلام حتى لا أبدو غبيا ، لكنه لم يشأ حتى أن يصغى الى ، بل كرر يقول : « لا ، لا ، ليس عندى مال ، ولولا ذلك لقدمت لك هذه الخدمة راضيا مسرورا » • حاولت أن أقنعه ، فتكلمت وتكلمت ، قائلا ان المبلغ ليس بالمبلغ الضخم ، واننى سأرده اليه فى موعده ، بل قبل موعده أيضا، وأضفت اننى أقبل الفائدة التى يفرضها ، واننى سأرد اليه كل شيء ، وحلفت له على ذلك• لقد انصرف ذهنى اليك فى تلك اللحظة يا ماتوشكا،

فكرت فيما تقاسين من شقاء وعذاب ، فيما تلاقين من مصاعب ، فيما تعانين من بؤس ، وتذكرت أيضا نصف الروبل ذاك الذى أرسلته الى • صاح الرجل يقول : « لا ، لا ، لا داعي الى الكلام على الفوائد ، كان يهون الأمر لو كان لديك رهن • أما بغير رهن فلا ••• وليس عندى مال على كل حال • يمينا ليس عندى مال ••• والا لكان يسرنى أن أقرضك شهد الله •• » تجرأ أن يحلف وأن يشهد الله ، يا له من لص ! •••

ذلك ما حدث يا ماتوشكا ، لا أتذكر الآن كيف خرجت من عنده ، ولا كيف قطعت حي فيبورج ، وانما وجدتني بعد حين على جسر « الانبعاث » • كنت أشعر باعياء رهيب ، فأنا خائر القوى متجمد مرتعش؛ ولم أستطع أن أصل الى مكتبى الا فى الساعة العاشرة • أردت أن أنظف نفسى قليلا فى الدهليز ، ولكن سينا جريف ، لخفير ، نبهني الى أن ذلك محظور ، فقد أتلف الفرشاة « والفرشاة ملك الدولة يا سيدى العزيز » هكذا قال • انهم يعاملوننى الآن على هذا النحو من المعاملة يا ماتوشكا ، أنا فى نظرهم أهون شأنا من حصيرة ، ذلك ما يرهقنى ويضنينى يافارنكا• ليست مصاعب المال هى التى تقتلنى ، وانما تقتلنى هذه الاذلالات ، وهذه الهمسات ، وهذه الابتسامات وهذه السخريات ؟ وقد أرى صاحب المعالى يبدى ملاحظة من الملاحظات فى شأنى فى يوم قريب ! آه يا ماتوشكا ••• لقد انقضت الايام الجميلة ••• أعدت اليوم قراءة رسائلك الى • ألا ما أتعسنى يا ماتوشكا ، ألا ما أشقانى ، وداعا ياصديقتى العزيزة ، والله أسأل أن يحميك ويرعاك •

م • ديبفوشكين

حاشية : حاولت أن أقص عليك المصيبة ساكبا فيها شيئا من فكاهة ودعابة • ولكننى لم أظفر بذلك فى هذه الساعة • لقد

أردت أن أعمل بنصائحك . سأجيء اليك يا ماتوشكا ، سأجيء حتما .

١١ آب (اغسطس)

فرفارا آلكسيفنا ، يمامتي ، ماتوشكا ، لقد ضعت ، ضعنا كلانا ، ضعت أنا وضعت أنت ، ضياعا لا خلاص منه ، ولا عودة عنه ، سمعتي ... كرامتي ... كل شيء انتهى الآن . سوف أهلك ، وسوف تهلكين أيضا يا ماتوشكا . سوف نهلك معا ، ولا أمل لنا في نجاة ، وأنا الذي قدتك الى هذه الهاوية ، نعم أنا ... انهم يستهزئون بي يا ماتوشكا ، انهم يحتقرونني ، انهم يجعلونني أضحوكة ... أخذت صاحبة البيت تهينني وتشتمني بلا حرج . صرخت في وجهي اليوم ، قذفتني بكل ما يخطر على البال من ألفاظ ، عاملتني كما لا تعامل الارض . وفي المساء أخذ أحد أصدقاء راتازاييف يقرأ بصوت عال مسودة رسالة كنت قد كتبتها لك ثم سقطت من جيبي سهوا . لا تستطيعين يا ماتوشكا أن تتخيلي السخريات التي سمحوا لأنفسهم بها في هذا الأمر . لقد ضحكوا ملء أشداقهم ، هؤلاء الخونة ، وقالوا عنا ما يقال وما لا يقال من غمزات ولمزات . هرعت الى غرفتهم أخجل راتازاييف . لمته على انه خان الصداقة . قلت له انه خائن . ولكن راتازاييف هذا أجابني بأنني أنا الخائن ، لأنني أقوم بغزواتي سرا . قال لي : « لقد أخفيت عنا الحقيقة ، فما أنت الا غاو عتيق ، ما أنت الا لوفلاس محنك ! » انهم جميعا يطلقون على الآن اسم لوفلاس ، ولا ينادونني الا بهذا الاسم ، ولا يعرفونني الا بهذا الاسم ، فهل تفهمين يا ملاكي الرقيق ، هل تفهمين ؟ انهم على علم

بكل شيء ، انهم يعرفون الآن كل شيء • يعرفون كل شيء عنك أنت أيضا يا صديقتي العزيزة ! يعرفون تفاصيل حياتك • فهموا كل شيء ، وهذا لله كان يمكن أن يهون • ولكن فالدوني ، الخادم ، يشاركهم • طلبت منه اليوم أن يذهب الى البقال ليشترى لى بعض الاشياء ، فرفض أن يذهب بحجة انه مشغول ، فلما قلت له « من واجبك أن تطيع » أجابني بقوله : « لا ، ليس من واجبى أن أطيعك أنت أيها السيد » • حتى اذا لم أطق احتمال هذه اللهجة الجارحة من هذا الفلاح الجاهل فوصفته بأنه غبى قال لى « اذا كنت أنا غبيا مرة فأنت غبى مرة ونصفا » • فقدرت انه سكران ، وأن الخمرة هي التى جعلته وقحا هذه الوقاحة كلها ، فقلت له : « لا شك أنك سكران أيها الوقح » فلم يتورع أن يجيبني بقوله : « أكان يمكن أن أشرب خمرا بمالك ؟ أنت لا تملك ما تشرب به كأسا صغيرة • أنت تستجدي دريهمات من امرأة » • وأضاف قوله : « ويعد نفسه بعد ذلك سيدا ! » • انظرى أين صرت الآن يا ماتوشكا • لقد أصبحت أستحى أن أحيا يا فارنكا • صرت كالمذنب الذى شد الى عمود تشهيرا به وفضحا له • هويت الى أدنى ما يهوى اليه متشرد بغير جواز سفر ! يا لها من محن ! يا لها من محن رهيبة ! لقد سقطت ، سقطت سقوطا كاملا ! ضعت، ضعت ضياعا لا عودة عنه •

م•د••

١٣ آب (أغسطس)

عزيزى الغالى جدا ماكار الكسييفتش !

جميع المصائب تهبط علينا • أصبحت لا أدرى ما الذى سأصير اليه• ما عساك صانعا الآن ؟ ذلك انني لا أستطيع أن أفيدك في شيء الآن • لقد

احترقت يدى اليسرى بالمكواة اليوم • سقطت المكواة منى غفلة فأحدرت يدى وأحرقتها ••• أحدرتها وأحرقتها فى آن واحد • يستحيل علىَّ أن أعمل الآن •

أما فيدورا فهى مريضة منــذ ثلاثة أيام • اننى قلقــة قلقا فظيعا • أرسل اليك ثلاثين كوبكا فضة • لم يبق لنا شىء تقريبا ، ومع ذلك ، يعلم الله كم أتمنى أن أساعدك على مصاعبك الراهنة • أكاد أبكى أســفا وحسرة • الوداع يا صديقى • لسوف يعزينى كثيرا أن تزورنا اليوم •

١٤ آب (أغسطس)

ماذا دهاك يا ماكار ألكسيفتش ؟ ناشــدتك الله قل لى ماذا دهاك ؟ أأنت لا تخاف الله اذن ؟ انك توشك أن تفقدنى عقلى تماما ، عار عليك ! انك تضيع نفسا تضييعا كاملا ، هلا فكرت فى سمعتك على الأقل ؟ أنت رجل شريف النفس نبيل القلب ذو أنفة وكبرياء • فما عسى يحــدث اذا عرف جميع الناس سلوكك ؟ لن يبقى لك عندئذ الا أن تموت خجلا وحياء وشعورا بالعار ! هلا رحمت شعرك الأشيب ؟ هلا خشيت الله ؟ لقد صرحت فيدورا بأنها لن تساعدك بعد اليوم أبدا • ولن أعطيك أنا قرشا واحدا فى المستقبل • انظر الى أين قدتنى يا ماكار ألكسيفتش ! أتظن أنه يستوى عندى أن تكون جيد السلوك أو سيىء السلوك ؟ انك ما تزال تجهل ما أعانيه بسببك ! لقــد أصبحت لا أجرؤ أن أظهــر على سلم الدار : فجميع الجيران يتفرسون فى وجهى ويومئون الىَّ بأصابعهم ويذيعون عنى أشياء فظيعة ، بل ولا يتورعون أن يقولوا « اننى هائمــة غراما بسكير » ! أتظن ان سماع مثل هذه الأقوال أمر ممتع ؟ حين يؤتى

بك الى البيت سكران فان جميع سكان المنزل يهزون أكتافهم احتقارا ويشيرون اليك قائلين : « هو ذا يعيدونه الى بيته ! » اننى أستحى عنك ، فلا أعرف ماذا أقول . يمينا لأتركنّ هذا البيت ، لأعملن خادمة فى أى مكان . أما أن أبقى هنا فمستحيل . كتبت اليك أرجوك أن تأتى الينا فلم تفعل . ان دموعى وآهاتى لا تأثير لها فيك اذن يا ماكار ألكسييفتش ! ومن أين حصلت على مال تشرب به خمرا ؟ ارحم نفسك ناشدتك الله ! لسوف تهلك ، لسوف تهلك هلاكا سخيفا ! ويا له من عار فوق ذلك ، يا له من تلطيخ للشرف ! ان صاحبة بيتك لم تدع لك أن تدخل فى مساء أمس ، فاضطررت أن تقضى الليل فى الدهليز . أعرف كل شىء . لا تستطيع أن تتخيل ما أعانى من آلام حين أعلم بهذه الامور . تعال الينا يا مكار ألكسييفتش ، لسوف تتسلى عندنا . سوف نقرأ معا ، وسوف نستحضر بعض الذكريات . ستقص علينا فيدورا قصص أسفارها الى الحج . ارحمنى يا صديقى العزيز ، لا تضيع نفسك ، ولا تقدنى الى الضياع أيضا . أنا لا أعيش الا لك . ومن أجلك انما أبقى هنا . اعلم هذه الحقيقة وتصرف على هديها . كن كريما على نفسك ، واصمد للشقاء . تذكر القول المأثور : ليس الفقر عيبا . وفيم اليأس على كل حال ؟ لسوف تنقضى هذه الهموم وهذه المتاعب . ولسوف تصلح الحال بعون الله . وانما يجب عليك الآن أن تصبر . أرسل اليك عشرين كوبكا ، فاشتر تبغا واشتر ما تشتهى ، ولكن لا تنفق هذا المال فى الاثم! ناشدتك الله ، تعال الينا ! تعال حتما ! قد تكون خجلان منا ، فما تحب أن تظهر أمامنا . تغلب على هذا الشعور . هذا خجل زائف . يكفى أن تتوب توبة صادقة . ضع أملك فى الله يصلح الله أمرك .

ب.د

١٩ آب (أغسطس)

فرفارا الكسييفنا ، ماتوشكا !

أنا أشعر بالخجل ، يا طائري الجميل ، يا فرفارا ألكسييفنا ، أنا أشعر بالعار . ولكن هل ما فعلته أمر خارق يا ماتوشكا ؟ أي ضير فيه ؟ لماذا يكون حراما على المرء أن يفرح نفسه قليلا ، وأن يتيح لقلبه شيئا من الانشراح ؟ انني حين أشرب أنسى التفكير في نعل حذائي . والنعل شيء تافه ، وسيظل الى الابد تافها وضيعا قذرا باليا . بل ان الحذاء نفسه شيء حقير ، كان حكماء اليونان لا ينتعلون أحذية . لماذا يجب علينا نحن أن نهتم كل هذا الاهتمام بشيء هين هذا الهوان ؟ هل في هذا ما يدعو الى نقدي واهانتي ؟ هل في هذا ما يدعو الى احتقاري ؟ ايه يا ماتوشكا يا ماتوشكا ! لشد ما أظهرت في رسائلك من قلق لهذا الامر ! أما فيدورا فقولي لها على لساني انها امرأة تافهة مضطربة مفتونة بالفضائح ، وانها الى ذلك غبية جدا ، غبية غباء لا سبيل الى مغالبته . كلمة أخرى في موضوع شعري الشائب : لقد أخطأت في هذه النقطة أيضا يا عزيزتي الغالية ، لأنني لست أبدا ذلك الشيخ الهرم الذي تتصورين . ايميليان يبعث اليك بتحياته . كنت تقولين في رسالتك انك حزنت حزنا شديدا وانك بكيت ، فاعلمي اذن انني حزنت حزنا شديدا أيضا وانني بكيت أيضا . وفي الختام أتمنى لك أن تكوني في صحة جيدة وأنت تكوني راضية مسرورة . أما أنا فانني في صحة جيدة وانني راض مسرور ، وما زلت يا ملاكي اللطيف صديقك :

ماكار ديفوشكين

٢١ آب (أغسطس)

سيدتي وصديقتي العزيزة فرفارا ألكسييفنا !

أحس بأنني مذنب ، أشعر بأنني آثم في حقك • ولكنني لا أرى أية فائدة في الاعتراف لك بذلك كله يا ماتوشكا ، مهما تقولى ! حتى قبل أن أرتكب الاثم ، كنت أعرف ذلك ، وكنت أحس ذلك • ولقد تدهورت وهويت الى الحضيض لشعورى بخطيئتي • ماتوشكا ! أنا لست شريرا ولا قاسيا ، ومن يشأ يا يمامتي أن يعذب قلبك الصغير المعبود ، لابد أن يكون نمرا كاسرا على الأقل • وأنا امرؤ لى نفس كنفس الحمل وداعة ، وليس بى ميل الى الوحشية الدموية كما تعلمين • ينتج عن ذلك ، يا ملاكى اللطيف ، أننى لست مسئولا عن سلوكى تماما ، فلا قلبى ولا فكرى يتحمل تبعة هذا السلوك • فاذا سألتنى من الجانى اذن ، قلت لك لا أدرى من الجانى فى حقيقة الامر • تلك قصة سوداء مظلمة، قصة غامضة ياماتوشكا • لقد أرسلت الى ثلاثين كوبكا فضة ، ثم أرسلت الى عشرين كوبكا بعد بضعة أيام : فأخذ قلبى يئن حين نظرت الى هذه القروش تتصدق علىّ بها يتيمة فقيرة • لقد احترقت يدك ، وبعد قليل لن يكون معك ما تسدين به رمقك ، ثم أنت تبكين طالبة الىّ أن أشترى لنفسى تبغا • فماذا كان يجب على أن أفعل فى هذه الحالة ؟ هل كان يجب علىّ أن أرضى بسلبك مالك كما يفعل لص من قطاع الطرق ، وأن آخذ هذا المال دون أن يعذبنى ضميرى أيتها اليتيمة المسكينة ؟ لقد فقدت عندئذ شجاعتى يا ماتوشكا ، وخارت قواى ، أعنى اننى أحسست فى أول الامر على غير ارادة منى ، اننى لا أصلح لشىء ، واننى أنا نفسى لا أفضل نعل حذائى ، فرأيت اذن انه من غير اللائق أن أقدر نفسى أى تقدير ، وأن أهب لنفسى أى اعتبار ، وأيقنت اننى أتفه من التفاهة ، وأننى شىء مخجل،

شيء حقير لا كرامة له • فلما فقدت احترامي لنفسي على هـــذا النحو ، واستسلمت لانكار مزاياي وكرامتي ، شعرت انني قد ضعت • وكانت تلك اللحظة هي لحظة السقوط ، السقوط الذي لا مهرب منه • ان القدر هو الذي أراد ذلك • نعم هو القدر • ولا يد لي في الامر ، ولا حيـلة لي فيه ، ولست أنا الجاني • خرجت من المنزل أنشد استنشاق الهـواء فحسب • ولكن كل شيء كان يساهم في دفعي الى الشقاء ذلك اليوم . الطبيعة تبدو شديدة الحزن والأسى والشجن ، الجو بارد ، والمطر ينهمر • وكان طبيعيا أن أجد ايميليان في طريقي ••• ذلك أمر لا مفر منه • كان ايميليان قد رهن كل ما يملك للحصول على قروض لم يلبث أن أنفقها • فلما التقيت به لم يكن قد أكل شيئا منذ يومين ، وكان يفكر في رهن أشياء لا يستطيع المرء حقا ان يرهنها ، فما هي بالاشياء التي ترهن • فماذا تريدين يا فارنكا ؟ لقد خضعت ••• خضعت لا استسلاما لميل شخصي ، بل رحمة بالانسان • هكذا سقطت في الاثم يا ماتوشكا ، ما أكثر مابكينا معا يا ماتوشكا ، أنا وهو ! ••• وتكلمنا عنك • انه انسان طيب ، انسان له قلب من ذهب ، انسان حساس جدا • انني أشعر بذلك شعورا قـويا
كثيرة تنزل بي ••• ان
س بالامور احساسا قويا ••• أنا أعـرف
بمنى • انني منذ عرفتـك أخذت أعرف نفسي معـرفة
، وأصبحت أحبك مزيدا من الحب يوما بعد يوم • كنت
، يا ملاكي الرقيق ، انسانا منعزلا ، انسانا لا يعيش حقا ،
ـا يشبه ان يكون نائما • كانوا جميعا ، أولئك التعساء ، يزعمون أن لي دماغا متحجرا ، وكانوا يهزءون بي ويسخرون مني صراحة ، حتى صرت أحتقر نفسي بنفسي • كانوا يؤكدون انني غبي أبله ، حتى صدقت انني كذلك فعلا • فلما ظهرت لي ، أضأت وجودي كله ، وغمرت بالنور

حياتي المظلمة القاتمة • صار كل شيء فيَّ عندئذ مضيئا : قلبي وروحي ؛ وأخذ كل شيء يشع • وفزت بالطمأنينة الداخلية حين أدركت بفضلك انني لست أسوأ من غيري • فليس يعوزني الا البريق الخارجي ، وشيء من اللمعان والمظهر ، ولكنني انسان بالقلب والفكر • حتى اذا أدركت أخيرا ، وا أسفاه ، أن القدر يهجم علي ويفتك بي رغم كل شيء ؛ حتى اذا اندفعت ، وقد أذلني القدر ، فأنكرت عزة نفسي وكرامتي ، غلبني الشقاء على أمري ، وأرهقتني الكوارث تتلو الكوارث ، فخارت عزيمتي وهويت الى قاع اليأس • أما وقد عرفت الآن كل شيء يا ماتوشكا ، وعرفت كيف حدث لي ذلك الامر ، فانني أضرع اليك دامع العينين أن لا تلحي مزيدا من الالحاح ، وأن لا تلقي عليَّ أسئلة جديدة في هذا الموضوع ، فان قلبي ليتمزق ، واني لأشعر بمرارة ثقيلة وحسرة لا تطاق •

وأنا اذ أعبر لك عن احترامي يا ماتوشكا ، أبقى صديقك الامين الوفي :

ماكار دييفوشكين

٣ أيلول (سبتمبر)

لم أكمل رسالتي السابقة يا ماكار ألكسييفتش ، لأنني كنت حزينة حزنا شديدا • لم أملك القدرة على مواصلة الكتابة • تمر بي لحظات أحب فيها أن أكون وحيدة أستسلم لحزني وكآبتي دون أن يراني أحد• وقد أصبحت هذه اللحظات تكثر في حياتي يوما بعد يوم • ان في ذكرياتي شيئا يصعب تفسيره وتعليله يجذبني اليها جذبا لا سبيل الى مقاومته ، جذبا

يبلغ من القوة انه يتفق لى فى بعض الاحيان أن أبقى ساعات طويلة لا أشعر بشيء مما حولى ، وأنسى الحاضر نسيانا تاما • ان كل شعور فى حياتى الراهنة ، سواء أكان بهيجا أم أليما أم كئيبا ، يوقظ فى نفسى العواطف التى تماثله من حياتى الماضية • والى عهد طفولتى ، الى عهد طفولتى الذهبى ، انما ينصرف ذهنى وتنصرف أحلامى عندئذ فى أكثر الاحيان ، وبعد هذه الاحلام أشعر دائما بارهاق شديد • لقد أصبحت ضعيفة ، فالاحلام النفسية تضنينى ، وذلك يفاقم ما أنا فيه من تضعضع الصحة ووهن العافية •

ولكن الصباح فى هذا اليوم مضيء نير تذهبه الشمس بأشعتها وقلما نرى له مثيلا هنا فى الخريف ؟ وقد بث هذا الحياة فى نفسى وأنعشها ، فاذا قلبى فرح منذ نهضت من فراشى • هو الخريف اذن قد وصل ! لشد ما كنت أحب هذا الفصل من فصول السنة فى الريف ! لقد كانت حياتى النفسية غنية غنى كبيرا فى ذلك الحين ، رغم اننى كنت ما أزال طفلة • كنت أوثر أماسى الخريف على أصباحه • أتذكر الآن بحيرة صغيرة كانت تقع فى سفح رابية ، غير بعيدة عن منزلنا • اننى أتذكر هذه البحيرة حتى لكأننى أراها بعينى فى هذه اللحظة : كانت واسعة كبيرة ، هادئة رائعة ، صافية مضيئة كأنها البلور ؟ كان سطحها يبدو ساكنا سكونا تاما فى بعض الاحيان متى كان المساء هادئا • ما من ورقة على الاشجار التى تحف بشطآنها تتحرك • الماء يشبه أن يكون غافيا ، فهو راكن كأنه مرآة • الهواء طرى ، يكاد يكون باردا • والندى يحط على العشب • وأضواء تشتعل فى الأكواخ عند الشاطيء • قطعان الماشية تئوب • تلك هى الساعة التى كنت أحب أن أتسلل فيها من المنزل فأمضى قرب بحيرتى أحلم وأغرق فى تأملات صامتة • هذه نار حطب جاف تحترق فى كوخ أحد الصيادين قرب الماء ، وهذا ضوء اللهب ينعكس سحائب سحائب على

صفحته • السماء تبدو باردة ، زرقاء زرقة عميقة ، تقطعها أخاديد متوهجة عند الأفق ، ثم تصفر الأخاديد شيئا بعد شيء • الهلال يظهر في السماء• الهواء يشبه أن يكون له رنين • يكفي أن يطير عصفور على حين فجأة ، أو أن تنزلق حصى تدفعها نسمة خفيفة ، أو أن تنبجس على سطح البحيرة سمكة تصفق الماء ، حتى يسمع المرء هذه الاصوات كلها • وكان الظلام يتكاثف شيئا فشيئا في بعيد ، فكل شيء يبدو كأنه يغرق هناك في ضباب، بينما يصبح للأشياء القريبة حواش أوضح وحدود أدق كأنها مقدودة قدا بسكين • ان كل شيء يظهر عندئذ بينا مجلوا : القارب الصغير المنسي قرب الشطئان ، الجزيّرات الصامتة المنثورة هنا وهناك ، البرميل المهجور في مكان على ضفة البحيرة • ومن حين الى حين تهب نسمة فتغضن صفحة البحيرة ، ويرتجف غصن من أغصان السيتس الصفراء الاوراق بين أعواد القصب • وهذا طائر متأخر من طيور السمج يطير على حين فجأة ، ثم يغطس في الموجة الباردة ليستأنف بعد ذلك طيرانه سافقا جناحيه الى أن يختفي في الضباب ••• كنت أتأمل حالمة ، وأصغي اصغاء شديدا • ما أعذب الجو في تلك اللحظات ! وما أعظم ما كنت أشعر به من سعادة ! كنت أيامئذ صبية صغيرة • كنت أحب الخريف حبا جما حين يتقدم الفصل فيجني الفلاحون قمحهم ويفرغون من أعمالهم في الحقول • ذلك أوان السهرات الطويلة الجميلة داخل الاكواخ بانتظار الشتاء الذي يقبل • الطبيعة تصطبغ عندئذ بألوان قاتمة ، والسماء الجهمة تغشاها غيوم مظلمة ، والأوراق الصفراء تتراكم فتشكل بسطا رخوة عند أطراف الغابات المعراة ؛ الحرج يزرق في أول الامر ثم يصير الى سواد ولا سيما عند المساء ، حين يسقط بخار رطب فتنبجس الاشجار من الضباب انبجاس عمالقة ، في منظر من أشباح مرعبة • كان يتفق لي أحيانا أن أتلبث أثناء نزهة من النزهات ، فاذا أنا أراني متخلفة وحيدة على حين

فجأة • كنت عندئذ أغذ الخطى خائفة ، وأرتعش ارتعاش ورقة فى مهب الريح ، وقد تملكنى ذعر شديد من تصور شبح رهيب أو عملاق شرير قد ينبجس من وراء جذوع الاشجار المخيفة بين لحظة وأخرى • وكانت الريح ترعش الغابة على حين بغتة فتملؤها همهمة صماء فى أول الامر ، ثم تتسع الهمهمة وتتكاثر مجتاحة أرجاء الغابة شيئا بعد شيء ، مثيرة فى جميع الجهات آهات حزينة وأنات غامضة • والريح فى جريانها المستميت تهوى على الاغصان المستدقة فتنزع عنها أوراقها الصغيرة بغتة ، وتجرفها أمامها فى زوبعات غضبى حانقة • وهذه أسراب من الطيور تهب على حين فجأة كأنها مذعورة ، فتجرى وراء الأوراق الميتة وهى تطلق صرخات حادة ، وتشكل جموعها الكثيفة سحائب طويلة تسوّد السماء وتحجبها تماما • ما أشد الخوف الذى كان يخنق صدرى فى تلك اللحظات ! كان يخيل الى عندئذ اننى أسمع صوتا يدمدم على مقربة منى قائلا : « اركضى، اركضى ، اهربى أيتها البنية ، لا تتلبثى فى هذا المكان ، لأن أمورا رهيبة تتهيأ هنا ، أركضى ، اسرعى ، فرى ، فكان الهلع يشلنى شلا ، وكان قلبى يأخذ يخفق خفقانا شديدا ، وكنت أطلق ساقى فى الريح مسرعة فى الجرى ما أمكننى الاسراع ، فما أصل الى المنزل الا وقد تقطعت أنفاسى من اللهاث • الغرفة ممتلئة صخبا ومرحا • الاطفال توزع عليهم أعمال سهلة ، فهم يقشرون الباسلاء أو يقشرون خضارا أخرى ؛ وعيدان من خشب طرى رطب تطقطق فى المدفأة • وكانت المربية العجوز أوليانا تحدثنا عن الزمان الماضى ، وتقص علينا حكايات مرعبة يدور فيها الكلام على ساحرات وعلى أرواح عائدات من العالم الآخر • فكنا نحن الاطفال نتراص ونتقارب متلاصقين، مبتسمين ابتسامة من يشعر بالامن والطمأنينة• ولكننا نصمت على حين فجأة قلقين : « هس ••• ما هذا الصوت ؟ كأن أحدا يقرع الباب » • ولكن لا شيء من ذلك ••• وانما هو مغـــزل

العجوز فلوروفنا يدمدم دمدمته الهادئة • ما كان أشد الضحك الذى ينفجر عندئذ فى رهطنا ؟ ثم كان يتفق لنا ألا نستطيع سبيلا الى النوم فى الليل ، لأن مخاوف عجيبة تستبد بنا أو لأن أحلاما مرعبة تلاحقنا • وكنا نستيقظ أحيانا فما نجرؤ أن نتحرك بل نظل ساكين تحت أغطيتنا مرتعشين • ولكننا ننهض فى الصباح نضرين نضارة الزهور • ونلقى نظرة نحو النافذة فنرى البرية فى خارج المنزل قد تجلدت ، ونرى صقيعا دقيقا قد تعلق بالأغصان العارية ، ونرى طبقة من الجليد رقيقة كالورق قد فرشت صفحة البحيرة ، ونرى بخارا أبيض يتصاعد على سطحها ، ونرى أسراب العصافير تطير فى السماء وتملأ الهواء زقزقات فرحة • الشمس ترسل أشعتها الساطعة فى جميع الجهات ، فتسقط على طبقة الجليد الرقيقة فتحطمها تحطيم الزجاج • كل شىء مضى فرح نير • وتعود النار تزفر فى الموقد • ونتحلق حول السماور ، ثم نأخذ نضحك متى ظهر لنا من وراء الزجاج ذلك البوز الاسود ، بوز كلبنا بولكان الذى ترتعد فرائصه من البرد لأنه قضى الليل فى الخارج ، والذى أخذ يحيينا محركا ذيله فى فرح • ويمرق أمام نوافذنا أحد الفلاحين مسرعا ، على عربة يجرها حصان قوى • انه ماض الى الغابة ليجىء منها بشىء من حطب • اننا نشعر جميعا برضى عظيم وسعادة كبيرة ! ••• لقد كان المحصول وافرا ، والقمح يتكدس فى الحقول حيث تسطع تحت ضوء الشمس بيادر ضخمة يغطيها القش • انها للذة أن يرى المرء هذه البيادر ؛ يشعر المرء عندئذ بطمأنينة وثقة وسعادة : لقد وهب الله لكل واحد رزقا طيبا • فالجميع يعلمون أن الخبز لن يعوزهم فى هذا الشتاء• الفلاح الصغير يعرف أن امرأته وأولاده لن يجوعوا فى أيام البرد الشديد • لذلك فالفتيات ما تنفك تطلق أغانيها الراعشة فى السهرات الطويلة مدوية بغير انقطاع ، وما تنفك جوقاتها تصاحب حلقات الراقصين

فى أحواش المزارع بلا توقف • ولذلك أيضا تخضل الأعين فى الكنيسة يوم الاحد شكرا للخالق على ما وهب وأعطى ••• ألا ما كان أجمله من عهد ، ذلك العهد الذهبى من طفولتى !

هكذا رأيتنى أبكى فجأة بكاء طفلة ، بعد استرسالى فى استحضار تلك الذكريات كلها • رأيت ذلك الماضى رؤية واضحة جدا ، جلية جدا ، دقيقة جدا ، وانبثق هذا الماضى فى نفسى مضيئا ذلك الضياء كله ، بينما الحاضر حالك هذه الحلكة ، مظلم هذا الظلام ••• ترى كيف ينتهى هذا كله ؟ كيف ينتهى هذا كله ؟ يراودنى فى بعض اللحظات يقين قوى يشبه أن يكون رؤية ، بأننى سأموت فى هذا الخريف • أنا فى الواقع مريضة جدا ، مريضة جدا جدا • اننى أفكر فى الموت كثيرا، ولكننى لا أريد أن أموت هنا ، لا أريد أن أدفن فى هذه الارض غير الكريمة • من يدرى ؟ قد اضطر الى ملازمة فراشى قريبا ، كما حدث فى المرة الماضية ابان الربيع ، مع أننى لما أبرأ من مرضى تماما بعد • فى هذه اللحظة مثلا أشعر بوهن شديد جدا • لقد غابت فيدورا طول النهار لشؤون تخصها ، فبقت فى البيت وحيدة • وقد أصبحت أخشى الوحدة ور دائما أن فى الغرفة أحدا لا أراه ،
، • يحدث لى هذا خاصة بعد أن استرسل فى
، ثم أرتد فجأة الى الواقع الراهن • ان غما ثقيلا يعترينى
ى ب مده اللحظات ، فأشعر بخوف شديد • لذلك ترانى أبعث اليك اليوم برسالة طويلة هذا الطول كله •

ان تلك المخاوف تتبدد وتزول حين أكتب • أودعك الآن خاتمة هذه الرسالة ، فلم يبق عندى ورق ، وليس يتسع وقتى لمزيد من الكتابة على كل حال • نفد ما حصلت عليه من بيع ثيابى وقبعتى الصغيرة ، فلم

يبق لى منه الا روبل واحد فضة • أحسنت اذ دفعت الى صاحبة البيت روبلين • ستهدأ الآن بعض الوقت •

يجب عليك أن تدبر أمرك بحيث تصلح رداءك قليلا • أستودعك الله • اننى متعبة مرهقة • لا أدرى لماذا أصبحت واهنة هذا الوهن كله • ان أيسر جهد يرهقنى • ماعسانى فاعلة اذا جاءنى شغل ؟ ان ذلك كله يقتلنى قتلا فى الواقع •

ب•د

٥ ايلول (سبتمبر)

يمامتى ، عزيزتى فارنكا !

عانيت اليوم مشاعر مختلفة • أولا : لم يفارقنى الصداع لحظة طول النهار • ومن أجل أن أخفف عن نفسى قليلا مضيت أتنزه على شاطىء فونتانكا • المساء مظلم رطب • لقد هبط الليل منذ الساعة الخامسة • ولم تكن السماء ممطرة ، ولكن الضباب لا يقل عن مطر غزير • ان سحابات كبيرة مستطيلة تنزلق على السماء • وكان رصيف القناة يزدحم بالناس• وكان جميع هؤلاء الناس يلوح فى وجوههم المرعبة حزن شديد وعبوس قاس ، فكان ذلك يغرق المرء فى جو من الكآبة والأسى : فلاحون سكارى، نساء ثرثارات فطس الأنوف ينتعلن أحذية لكن رؤوسهن عارية ، عمال، حوذيون ••• وهنا وهناك رجل يحث الخطى وراء عمل من الاعمال ، وصبية صـــغار ، وأجير قفال بمعطف مخطط ، له وجه ضـامر سوده الدخان ، يحمل فى يده قفلا • وبعد ذلك بقليل جندى محال على التقاعد

يشبه أن يكون عملاقا من العمالقة ، ينتظر فرصة أن يبيع لأحد المارة موسى أو خاتما من البرونز • ذلك هو الجمهور الذى رأيته هنالك • طبعا لم يكن الوقت الذى خرجت فيه الى النزهة هو الساعة التى يخرج فيها وجوه الناس • وما الفونتانكا أخيرا الا قناة لعبور المراكب • ياللفوضى التى يراها المرء هناك ! ان المرء ليعجب كيف يمكن لهذه الاشياء جميعا أن تجد متسعا لها فى ذلك المكان ••• أمر يصعب فهمه : فلاحات يقفن على الجسور أمام بسطاتهن التى تحمل حلوى رطبة وتفاحا يوشك أن يكون عفنا • انهن قذرات جدا ، هاته النساء ، مبللات الثياب • شىء يثير الحزن فى القلب ، هذه النزهة على فونتانكا • البلاط رطب تحت الاقدام ، وعلى الجانبين مبان عالية قاتمة سوّدها الدخان • أمامى الضباب • وفوق رأسى الضباب • مساء قاتم مظلم يبعث الكآبة فى النفس •

فلما انحرفت نحو شارع جوروخوفايا كان الليل قد أطبق ، فأخذوا يشعلون الفوانيس • منذ زمن لم يتفق لى أن وجدت فى شارع جوروخوفايا • ياله من شريان صاخب يعج بالضوضاء ! ما أغنى واجهات المخازن فى هذا الشارع ! كل شىء هنالك يسطع ويتلألأ : الأقمشة ، الأزهار وراء الزجاج ، القبعات الصغيرة المزدانة بأشرطة ملونة • قد يتوهم المرء ان هذه الاشياء كلها ليست الا للزينة • ولكن لا : هنالك أناس يشترون هذه الاشياء ليهدونها الى نسائهم • شارع مترف باذخ • وتوجد فى شارع جوروخوفايا مخابز ألمانية كثيرة ، أغلب الظن ان الذين يستغلون هذه المخابز أناس على جانب عظيم من الغنى والثراء • ما أكثر العربات التى تمر فى كل لحظة ! كيف تستطيع أرض الشارع أن تحتملها ؟ انها مركبات فخمة ، يتلألأ زجاجها كأنه مرايا ، وليس فى داخلها الا قطيفة وحرير ، وللخدم فيها مظهر ارستقراطى جدا ، على أكتافهم تلتمع الشارات المقصبة ، وعلى جنوبهم تتدلى سيوف • كنت أنظر

فی کل عربة من هذه العربات التی تمر • انها ملآی بسیدات یرتدین أجمل الثیاب ، لعلهن أمیرات أو کونتیسات • هی الساعة التی تخرج فیها هذه الصفوة من أبناء المجتمع الراقی ذاهبة الی حفلات الرقص أو اجتماعات السهر • لا بد أن تکون رؤیة أمیرة أو سیدة عظیمة ، عن کثب ، منظرا شائقا • أحسب أن هذا لا بد أن یکون ممتعا ، أما أنا فلم یتح لی أن أری هذا المنظر فی حیاتی ، اللهم الا من بعید ، کما رأیته فی هذا المساء وأنا ألقی نظرة الی داخل العربات • لقد انصرف خیالی الیك فی تلك اللحظة ـ آه یا یمامتی ـ یا صدیقتی العزیزة ! ان قلبی لینزف دما متی فکرت فیك • لماذا أنت شقیة هذا الشقاء کله یا فارنکا ، یا ملاکی الرقیق ؟ أهذه السیدات خیر منك ؟ أیة میزة لهن علیك ؟ أنت طیبة جمیلة مثقفة ، فلماذا یکون حظك هذا الحظ ؟ لماذا تعیش النفوس الطیبة النبیلة فی الشقاء والهجران ، بینما لا یحتاج غیرها حتی الی البحث عن السعادة لأن السعادة هی التی تلقی بنفسها بین ذراعیه ؟ أعرف یا ماتوشکا ان هذا التفکیر شر ، أعرف أن هذا التفکیر حرام ، فهو لبرالیة وزندقة والحاد • ومع ذلك فاننی أتساءل صادقا باسم الحقیقة المقدسة نفسها : لماذا خلق نساء للسعادة ، بقرار من القدر ، منذ کن فی أرحام أمهاتهن ، بینما نساء أخریات یرین النور فی ملاجیء أیتام ؟ ما أکثر ما تهبط السعادة علی ایفان ما ، ایفان غبی ، وکأن القدر یقول له : « ما أنت یا هذا الا ایفان ما ، ولکننی أرید لك أن تعیش فی رغد وفرح ، تتمتع بخیرات أجدادك ، تشرب وتأکل وتلهو • فاغرف من هذه الملذات ما شاء لك هواك • فمن أجل هذا خلقت یا عزیزی ، وهکذا یجب أن تکون » • أعرف، یا ماتوشکا أن هذه الأفکار اثم ، اثم کبیر ، ولکن المرء یسقط فی هذا الاثم علی غیر ارادة منه فی بعض الأحیان • لماذا لا تملکین أنت أیضا مرکبات فخمة یا طائری الجمیل الرقیق ؟ لو

ملكت مثل هذه المركبات لهب جنرالات يستجدون منك نظرات عطف حين تمرين ، جنرالات لا أناس تافهون مثلى ، وللبست حريرا وذهبا ، لا ثيابا عتيقة من غليظ القماش كما تلبسين الآن ، ولكنت أشبه بتمثال من الخــزف نضارة وامتــلاء وازدهار خــدين ، لا نحيلة هزيلة ضامرة الوجه كما تظهرين اليوم • لو كنت كذلك لكان حسبى أنا ، من أجـل سعادتي ، أن ألمحك في الشارع وراء نافذة ساطعة الاضواء ، وأن ألمح خيالك يتبختر على جدار ، حسبى عندئذ ، حتى تفيض نفسى بهجة ، يا طائرى الصغير الجميل ، أن أتصور أنك سـعيدة ، راضـية فرحة • فانظرى أين نحن الآن ؟ كأنما لا يكفيك أن أناســا أشرارا دفعـوك الى الشقاء ، فلا بد أن يجيء أيضا رجل حقير وقح سافل يهينك ويسيء اليك في عقر بيتك • يكفى أن يكون هذا الوقح مرتديا رداء أنيقا ، وأن ينظر اليك من خلال نظارة ذات اطار ذهبى ، حتى يظن ان كل شيء مباح له، وان عليك أن تصغى الى أحاديثه السفيهة متسامحة راضية ، أليس الامر كذلك حقا أيها الأصدقاء الطيبون ؟ ولماذا هذا كله ؟ لأنك يتيمة ، لأنك بلا سند ، لأنك محرومة من صديق قوى يستطيع أن يحميك ! ما هــذا الرجل السافل ، ما هؤلاء الناس الذين لا يخشون أن يهينوا طفلة فقيرة مثلك ؟ ليس هؤلاء الأوغاد ببشر ، انهم عدم ••• انهم يتظاهرون بالوجود حتى يُلتفت اليهم ويحسب حسابهم ، ولكنهم ليســوا في الواقع شـيئا ! أنا من هذا على يقين عميق • تلك هى حقيقة هؤلاء الناس ، وفى رأيى يا صديقتى العزيزة ان العازف على أرغن بربارياا الذى رأيته اليوم في شارع جوروخوفايا أجدر بالاحترام منهم • صحيح انه يجر نفســه في الشوارع من الصباح الى المســاء جاهدا أن يحصــل على بضــع كوبكات قديمة مهترئة تتيح له أن يأكل من جوع ، ولكنه سيد نفسه يكفل رزقه دون أن يستجدى أحدا • انه لا يريد صدقة • بالعكس : هو يجهد في

سبيل لذة الآخرين ، وكأنه يقول : « أنا مفيد بمقدار ما أطيق ، أحاول أن أسليك ما وسعني ذلك » • صحيح انه بائس ، وأن كبرياءه لا تخفف شيئا من بؤسه • ولكنه بائس ممتلىء النفس نبلا • صحيح انه متعب ، وانه يتجلد من شدة البرد ، ولكنه يعمل ، ويستمر يعمل ، على طريقته طبعا• هناك ناس كثير من هذا القبيل يا ماتوشكا ، هناك ناس كثير من هؤلاء الرجال الشرفاء ، من هؤلاء الرجال الذين لا يجنون مالا كثيرا (تبعا لمقدار العمل الذي يقومون به وتبعا لفائدة هذا العمل) ولكنهم لايدينون لأحد بشيء ، لا ينشدون عطف أحد ، ولا يأكلون من خبز أحد • أنا من هؤلاء الرجال يا صديقتي ، أنا مثل ذلك العازف على أرغن بربارياً • لا أقصد أنني مثله ، لا ، ليس هذا ما أردت أن أقوله ، لست مثله أبدا • ولكنني مع ذلك أشبهه بمعنى ما ، أشبهه من جهة نبل الجهد • أنا أجهد مثله على قدر ما تطيق قواي ، وأنا أعمل ما أستطيع أن أعمله • ليس ما أعمله بالكثير ••• أنا أعرف ذلك ••• ولكن ما من انسان يقدر أن يعطي أكثر ما عنده •

اذا كنت أحدثك عن العازف على أرغن بربارياً ، يا ماتوشكا ، فلأنني شعرت اليوم بثقل الفقر مضاعفا • لقد وقفت أنظر الى العازف • وافتني أفكار سود ، فجعلت نفسي أمامه ، عسى أن تزاولني تلك الأفكار السود• كان قد وضع آلته تحت نافذة من النوافذ • وتجمع حوله نفر قليل : أنا وحوذيون ، وفتاة كبيرة ، وبنية صغيرة قذرة شعثاء ، ثم صبي صغير في العاشرة من عمره ، كان يمكن أن يكون جميلا لولا ما يظهر في وجهه من مرض : انه هزيل شديد الهزال ، كل ما يرتديه قميص فوقه معطف صغير لا يكاد يغطيه ، وهو حافي القدمين تقريبا • كان الصبي يصغي الى الموسيقى فاغرا فاه ، تلك سنُّه • كان لا يستطيع أن يحول بصره عن الدمى التي تدور فوق الأرغن ، بينما يداه وقدماه تتجمدان

من شدة الصقيع . كان يرتجف من البرد عاضا بأسنانه طرف كمه . لاحظت انه كان يمسك ورقة صغيرة في يده المقبوضة . ومر سيد فقذف للعازف على الأرغن بقطعة صغيرة من النقد ، سقطت في درج يحجبه شبك من وراءه يرقص فرنسي وسيدات جميلات . فلما سمع الصبي رنين قطعة النقد ارتعش ونظر فيما حوله وجلا ، واذ حسب انني أنا الذي قذفت قطعة النقد هرع نحوي فمد الي الورقة مرتجف اليدين ، وقال لي مرتعش الصوت : « اقرأ » ففضضت الورقة وقرأتها . هي قصة معروفة . اليك ما كان مكتوبا في الورقة : « انا أمهم أيها المحسنون ، وأنا أحتضر . أولادي الثلاثة جياع . ساعدوهم اليوم ، فاذا مت تذكرتكم في العالم الآخر ودعوت لكم ، لأنكم رحمتم أولادي » . ماذا تريدين يا صديقتي العزيزة ؟ تلك حالة شائعة . الأمر واضح . ولكن ماذا كان يمكنني أن أفعل ؟ لم أعطه اذن شيئا . ولقد طعن قلبي أن أضطر الى رفض تقديم معونة . كان الصبي الصغير المسكين قد ازرق وجهه من شدة البرد ، ولعله كان جائعا ، ومن يدري على كل حال : ربما كان صادقا غير كاذب، بل لا شك في انه قال الحقيقة . أنا أعرف هذه الأمور . ولكن الأمر الذي يثير حفيظتي أن لا تراعي هاته الأمهات أولادهن ، فيرسلنهم الى الشارع بهذه البطاقات أشباه عراة في مثل هذا الجو البارد . لعلها امرأة حمقاء لا ارادة لها . أظن انها مهجورة لا يعنى بها أحد ، فهي تبقى في منزلها حزينة يائسة ، ولعلها مريضة فعلا . مع ذلك كان ينبغي لها أن تتجه الى أحد تطلب معونة . وقد تكون امرأة كاذبة ترسل ابنها الهزيل الجائع الى الشارع عامدة لتوهم الناس بأنها مريضة . فما عسى أن يتعلم هذا الصبي الشقي حاملا بطاقات من هذا النوع ؟ أي درس سيستمده من الحياة ؟ سوف يقسو قلبه ، هذا كل شيء . فهو يمشي ، ويركض ، ويستجدي ، والناس يمرون مسرعين لا يلتفتون اليه ولا

يسمعون كلامه • انهم قساة لا يحسون ، والعبارات التى يقذفونه بها جوابا على سؤاله تصيب قلبه بجروح عميقة : « امض ، ابعد ، اذهب ، أيها الولد البطال ••• أنت كذاب • هذه قصص معروفة » • ذلك مايسمعه من جميع الناس ، فيمتلىء قلبه حقدا على البشر • عبثا يرتعش من شدة البرد ، هذا الصبى الصغير الشقى ، المذعور ذعر عصفور صغير سقط من عش تداعى • لقد تجلدت يداه وقدماه من الصقيع • وتقطعت أنفاسه من القر • وسيأخذ يسعل فى ذات يوم • فما هى الا فترة قصيرة اذا بالمرض يتسلل الى جسمه تسلل الأفعى ليستقر فى صدره • ثم ينحنى الموت عليه فى ركن مظلم وسخ يتمدد فيه بلا من يعنى به أو يرعاه أو يمد له يد العون ••• تلك هى حياته • ذلك ما يمكن أن تصير اليه حياة انسان فى هذا العالم • آه يا فارنكا ! انه ليشق على قلب المرء أن يسمع أحدا يطلب صدقة ثم يكون مضطرا أن يمضى دون أن يعطى شيئا ، مكتفيا بأن يقول للسائل : « الله يعطيك » • ثمة استجداء يطيق المرء أن يسمعه دون أن يحفل به كثيرا (ذلك ان هناك طرقا شتى فى التضرع الى المارة يا ماتوشكا) فهناك ضراعات بطيئة منغمة يحس المرء حين يسمعها انها عادة مألوفة ولحن محفوظ ، ذلك هو الاستجداء المستمر المحترف • ففى مثل هذه الحالة لا يشعر المرء بألم شديد حين لا يعطى المستجدى شيئا : فهؤلاء متسولون مزمنون ألفوا هذه الحياة ، فيقول المرء لنفسه حين يلقاهم انهم قادرون على تذليل مصاعبهم ، فقد تعلموا كيف يدبرون أمورهم وكيف يخرجون من مآزقهم • غير أن هناك ضراعات لا يحس المرء حين يسمعها أن صاحبها قد ألفها حتى أصبحت عنده عادة من العادات فان لها نبرة خاصة ، وهى تتصف بأنها خشنة حتى لتكاد تكون قاسية مرعبة • فى هذا اليوم مثلا حين تناولت الورقة من يدى هذا الصبى ، لمحت على بعد خطوتين ، قرب سياج الاشجار ، بائسا آخر لم يكن يستوقف المارة ،

ولكنه اتجه الىّ على حين فجأة قائلا : « اعطنى خمس كوبكات أيها السيد من مال الله » • قال ذلك بصوت يبلغ من التقطع والقسوة اننى شعرت بما يشبه الرعب ، ولكننى لم أعط السائل شيئا ، لأننى كنت أنا نفسى لا أملك شيئا • يجب أن أقول أيضا ان الأغنياء لا يحبون أبدا أن يشكو الفقراء حظهم جهارا • يظهر أن هذا يؤذيهم ويزعجهم • والبؤس مزعج دائما على كل حال : كأن أنات الفقراء تعوق نوم الأغنياء • يجب أن أعترف لك يا صديقتى الغالية جدا اننى أكتب اليك هذه الأشياء كلها ، أولا لأخفف عن نفسى ، وثانيا لأظهرك بعض الاظهار على أسلوبى • لا شك انك لاحظت أن أسلوبى قد تحسن منذ زمن • لقد تعلمت الكتابة • ومع ذلك فاننى فى هذه اللحظة أشعر بكآبة تبلغ من القوة اننى أخذت أجد متعة فى العطف على نفسى رغم علمى بأن ذلك لن يغير من حالى شيئا ، ولكنه ينصفنى بعض الانصاف • ذلك واقع يا صديقتى العزيزة • انه ليتفق لنا أحيانا أن نصغر أنفسنا فى نظر أنفسنا ، أن نغض من قيمة أنفسنا ، فما نعد أنفسنا شيئا ، وان نهوى بذلك الى القاع من الشعور بالتلاشى • واذا جاز لى أن أعمد هنا الى التشبيه فلعلنى أستطيع أن أقول ان السبب فى ذلك هو اننى أنا نفسى أشبه ذلك الصبى الفقير الذى سألنى صدقة منذ حين • أحب يا ماتوشكا أن أعمد فى التعبير هنا الى الرمز والتشبيه ، فاستمعى الىّ : انه يتفق لى يا صديقتى العزيزة جدا ، وأنا ذاهب الى عملى فى الصباح المبكر ، أن أتأمل منظر المدينة التى تستيقظ وترتد الى الحياة بينما تتصاعد فى الهواء أدخنة المصانع وبينما تبدأ الشوارع تتحرك كمرجل يغلى ، وتضطرب فى صخب ما ينفك يتزايد حتى يشمل كل شىء ، انه يتفق لى أن أبلغ من الافتتان بالمشهد الذى ينتشر أمامى أن أحس عندئذ على حين فجأة بما يشبه أن يكون لطمة بالسبابة تسقط على أنفى المسرف فى الفضول ، فأغذ الخطى مبتعدا مسرعا،

شاعرا على حين بغتة بأننى صغير ، وأتابع طريقى قائلا لنفسى ان هـذه الحياة الصاخبة لم تخلق لى • ولكن ألا فكرى فى الأمر وتساءلى عمـا يجرى وراء الجدران المسودة بالدخان من هذه المبانى الحجرية الكبيرة • حاولى أن تنفذى الى أسرارها وقولى لى بعد ذلك ألست على خطأ حين أغض من قيمة نفسى على ذلك النحو ، وحين استسلم لذلك النـوع من التصاغر والتضاؤل ! لاحظى يا فارنكا اننى أتكلم هنا على سبيل الرمز ، فما يجوز أن يفهم كلامى بنصه • انظرى ماذا يختبىء وراء هذه المنازل الشامخة : هذا رجل بسيط من العاملين فى حرفة من الحرف يستيقظ من نومه ، فى ركن مظلم مملوء بالدخان ، فى جحر رطب موبوء يسمونه غرفة أو مسكنا لأنه لا مفر من تسميته كذلك : انه طوال الليل لم يحلم الا بالخدش الذى أحدثه مقصه فى الجلد أمس سهوا حين كان يقد منه حذاء ، كأن هذه النازلة يجب أن تلاحق الرجل حتى فى نومه • صحيح ان الرجل ليس الا صاحب حرفة ، ليس الا حذاء فقيرا ، فهو يعذر اذا اقتصر تفكيره واقتصرت أحـلامه على الشىء الذى يسـتأثر بمشاغله كل يوم ، فان أولاده ليصيحون ، وان امرأته لتتضور جوعا • وليس الحذاءون وحدهم هم الذين يستيقظون على هذه الحالة النفسية أيضا • وما كان ذلك ليعد شيئا ، وما كان ليستحق أن يذكـر لولا أمر آخـر يضاف اليـه يا ماتوشكا : ذلك الأمر الآخر هو أن فى ذلك المبنى نفسه ، فى الطابق الذى يقع فوق هـذا الطابق أو تحته ، يوجد بيت فاخر الأثاث أنيـق الرياش ؛ والرجل الذى يسكن هذا البيت قد حلم هو أيضا بحذاءين • صحيح انهما غير الحذاءين اللذين حلم بهما الحذاء • فلعلهما يختلفـان شكلا ، ويمتازان أناقة • ولكن ذلك لا يمنع أنهما حذاءان • ذلك هو الرمز فيما أقوله يا ماتوشكا : نحن جميعا حذاءون من بعض النواحى • وما كان ليعد هذا كله شيئا أيضا • وانما مصدر البلاء انه ما من أحـد

الى جانب الشخص الغبى يهمس فى أذنه قائلا : ألا تستحى يا فلان ان لا تفكر الا فى هذه الأشياء ، وان لا تشغل الا بذاتك ، أن تحيا لنفسك وحدها ؟ أنت لست حذاء • وأولادك فى كمال الصحة وتمام العافية ، وامرأتك غير جائعة • هلا نظرت فيما حولك عسى أن تقع على ما هو أكرم من هذه الهموم ، وعلى ما هو أنبل من الاحذية ؟ » ذلك ما أردت أن أقوله لك يا ماتوشكا على سبيل الرمز • قد أكون فى هذه اللحظة مسرفا فى جرأة التفكير واستقلال الرأى يا صديقتى • ولكنها فكرة تراودنى أحيانا وتلازمنى من وقت الى وقت ، فتخرج من قلبى عندئذ أقوال عنيفة على غير ارادة منى • لقد أخطأت اذن حين غضضت من قيمة نفسى ، وحططت من قدرها ، متأثرا بضجة المدينة وصخبها وهديرها • وفى الختام : لعلك تظنين يا ماتوشكا اننى أتجنى على نفسى ، واننى أخترع قصصا ، واننى أستسلم للكآبة ، أو اننى أنسخ هذا كله عن كتاب من الكتب • تخطئين يا ماتوشكا اذا وقع فى وهمك شىء من هذا • اننى لا أهبط الى الافتراء على نفسى ، ولا ألفق شيئا ، ولا أستسلم لأفكار سود ، ولا أنقل شيئا عن كتب • وانما هى الحقيقة •

عدت الى منزلى طافح النفس حزنا • وجلست الى منضدتى ، وسخنت ابريق الشاى على السماور وتهيأت لاحتساء كأس أو ربما كأسين فى هدوء ؛ وانى لفى ذلك اذا بذلك الرجل الفقير البائس الذى يسكن معنا فى المنزل ، أقصد جروشكوف ، يدخل علىّ • كنت قد لاحظت فى ذلك الصباح انه كان يحوم حول سكان المنزل الآخرين ، حتى لقد ظهر لى فى لحظة من اللحظات أنه يحاول الاقتراب منى • يجب أن أقول لك عابرا يا ماتوشكا ، انهم أشد فقرا وأكثر بؤسا منى ! تصورى : زوجة ! وأطفال ! لو كنت فى مكان جورشكوف لما عرفت ماذا أصنع حقا ! هذا جورشكوف يدخل علىّ اذن وقد علقت بأهدابه عبرة صغيرة

قذرة على عادته ، ها هـو ذا يحيينى ويقرع نعليـه ، ولكنه يبدو مرتبكا
مضطربا لا يستطيع أن ينبس بكلمة . أقعدته على كرسى . صحيح ان
الكرسى مكسور ، ولكن ليس عندى كرسى آخر . قدمت له كأسا من
الشاى . فاعتذر فى أول الامر ، ورفض ؟ ثم اعتذر ، وانتهى أخيرا الى
تناول الكأس الذى كنت أمدها اليه . أراد أن يشربه بلا سكر . فلمـا
أصررت على أن يحليه بشىء من السكر جعل يعتذر من جديد ، وظـل
يرفض مدة طويلة قائلا انه لا حاجة الى السكر . ثم رضى أن يلقى فى
الكأس قطعة صغيرة جدا من السكر ، قال بعدها ان الشاى حلو جدا جدا.
انظرى الى أى حد من المذلة يمكن أن يؤدى الفقر بالانسان ، قلت :
« ما عساك قائلا لى يا عم » . فقال : « اليك المسألة ! » وأخذ يشرح لى
ما هو فيه من عسر وضيق ... قال : « يا ماكار ألكسيفتش ، ناشدتك
الله ... ساعد هذه الاسرة البائسة . ليس عندنا طعام لزوجتى وأولادى.
ولا أطيق ، أنا الأب ، أن أحتمل هذا » . أردت أن أجيبه ، ولكنه لم
يدع لى أن أتكلم . قال : « اننى أخشى جميع من فى هذا المنزل يا ماكار
ألكسيفتش . ليس معنى هذا اننى أخاف منهم ، ولكننى ... أشـعر
بحرج . هم جميعا أناس متكبرون ، أناس ذو شأن . ولقد خشيت أن
أزعجك أيضا ، أيها المحسن ، لأننى أعلم أن لك متاعبك وهمومك أنت
أيضا ، وأنك لا تستطيع أن تهب كثيرا . ولكن اقرضنى مبلغا صـغيرا
على الأقل . لقد تجاسرت فطلبت اليك هذا ، لأننى أعرف انك انسـان
طيب شهم ، لأننى أعلم انك كنت أنت نفسك فى ضيق وعسر ، وانك
ما تزال تعانى متاعب كثيرة ، وان قلبك ، لهذا السبب نفسه ، يمكن أن
يتألم لآلام الآخرين وأن يشفق عليهم ، وأن يرحمهم ... » وختم كلامه
يرجونى أن أغفر له جرأته، وأن أعفو عن مخالفته الأدب فيما أقدم عليه.
أجبته بأننى أود لو أساعده ، ولكننى لم يبق معى شىء ، لم يبق معى شىء

البتة . فعاد يلح قائلا : « ماكار ألكسيفتش لست أطلب الكثير ... يكفيني ... » (قال ذلك واصطبغ وجهه في تلك اللحظة بحمرة شديدة بلغت شعره) « زوجتي وأولادي جياع ... ألا تستطيع أن تقرضني بضع كوبكات ؟ ... » انقبض صدري انقباضا رهيبا . قلت لنفسي : انهم يفوقونني بؤسا . لم يكن قد بقي معي الا عشرون كوبكا حصلت عليها سلفة ؛ وكنت أنوي أن أشتري لنفسي في الغد أشياء لا غنى عنها . قلت له تقريبا ما يلي : « لا ، لا ، يا عزيزي ، آسف ... مستحيل ... » قال : « ماكار ألكسيفتش . اعطني أي شيء ... اقرضني ولو عشرة كوبكات » . عندئذ لم أستطع أن أقاوم مزيدا من المقاومة . فأخرجت من الدرج كوبكاتي العشرين، وأعطيته اياها... هل أخطأت يا ماتوشكا؟ آه ... يا له من بؤس ! يا له من بؤس ، وتحدثنا بعد ذلك . سألته : « ماذا صنعت يا أخي ، ماذا صنعت حتى غرقت في هذا الشقاء كله ، ولماذا ظننت وأنت على ما أنت عليه من فقر ، ان عليك أن تستأجر غرفة بخمسة روبلات فضة؟» فشرح لي انه استأجر هذه الغرفة منذ ستة أشهر، وانه دفع أجرها عن ثلاثة أشهر سلفا ، ثم انبجست صعوبات ، وساءت حاله وتفاقم وضعه حتى أصبح لا يعرف الآن أين يضع رأسه ! .. مسكين ! .. كان يأمل أن تحل قضيته في هذه الاثناء .. وقصته قصة حرجة مزعجة .. تصوري يا فارنكا انه مضطر للمثول أمام المحكمة متقاضيا في أمر لا أعرف ماهو .. الدعوى قائمة بينه وبين تاجر سرق الدولة في مقاولة. واكتشف التلاعب والاختلاس ، فأحيل التاجر الى القضاء ، فجر معه جورشكوف ، وأقحمه في هذه الورطة ، مع أن المسكين لم يشارك في الامر .. اللهم الا ان تقول انه شارك فيه مشاركة غير مباشرة . فلا ذنب له الا انه كان مهملا بعض الاهمال ، ولم يكن على قدر كاف من الحيطة والحذر، فغابت عنه مصلحة الخزينة ، وذلك أمر لا يغتفر .. والقضية قديمة ينظر فيها

القضاة منذ سنين ولما يُفرغ منها ويبت فيها ، فهناك وقائع جديدة تظهر من حين الى حين بغير انقطاع ، فتزيد متاعب جورشـــكوف . قـال لى جورشكوف مؤكدا : « لم اقارف الفعل المشين الذى ينسب الىّ . لست مذنبا فى هذا الامر ، لم أرتكب أية سرقة ، ولا خنت الأمانة ولا أسأت استعمال الثقة .. ولقـد أصابته هذه القضية بضرر كبير . طـرد من الوظيفة ، ورغم انه لم تثبت عليه جناية معينة ، فانه يستحيل عليه قبل ان تثبت براءته تماما ان يحصل من هذا التاجر على سداد مبلغ ضخم يدين به التاجر له ولكنه ينكره عليه أمام القضاء . أنا أصدق كلامه . ولكن المحكمة لم تقتنـع وا أسفاه ، يجب أن أقـول ان القضـية معقدة جدا ، متشابكة كثيرا ، مفتولة الخيوط الى غير حد ، فلا سبيل الى فكها وحلها . وما ان يظن أن نقطة من النقاط قد اتضحت وظهرت الى النور حتى يعود التاجر الى التعمية والتضليل بحيل بارعة ومكر حاذق . اننى أشـــارك جورشكوف شقاءه يا صديقتى العزيزة ، وأشاطره الهه وعذابه ، وأشعر نحوه بعطف شديد . رجل بلا عمل ، ولا يمكن أن يجد عملا لأنه فقد ثقة الناس به . ولقد أنفق جميع ما سبق أن ادخره . والقضية تطـول وتطول ، وتزداد تعقدا يوما بعد يوم . وهذا ولد جديد يولد له ، فيزيد ميلاده الطين بلة ، وتزداد النفقات فى غير داع الى زيادة وهم على ما هم عليه . ويمرض الابن : فهذه نفقات اخرى . والام مريضة . والاب نفسه مصاب بمرض قديم لم يعالجه. لقد عانى هذا المسكين من العذاب مالا يتصوره خيال . لكنه يدعى ان القضية تقترب من الحل ، فما هى الا أيام وتثبت براءته ما فى ذلك ريب . لقد آلمنى وضعه كثيرا يا ماتوشكا ، آلمنى وضعه كثيرا .. اننى ارثى لحاله . ولقد عزيته وواسيته يا ماتوشكا ، حاولت أن أسرى عنه ، وأن أقوى عزيمته. انه انسان أعزل خائف. وهو فى حاجة الى أن يشعر بشىء من حماية . ولذلك تلطفت فى الكلام معه ،

فكنت دمثا رقيقا . أودعك يا ماتوشكا ، وأسأل الله أن يرعاك وأن ينعم عليك بالصحة والعافية . حين أفكر فيك ، فكأن بلسما يمس روحي الموجعة . ورغم اني أتألم لك ، فان تألمي هذا عذب في نفسي .

صديقك المخلص

ماكار دييفوشكين

٩ أيلول (سبتمبر)

ماتوشكا ، عزيزتي فرفارا الكسييفنا !

أكتب اليك وأنا في حالة نفسية فظيعة . لقد هزني الحادث المروع الذي وقع اليوم فقلب نفسي رأسا على عقب . ان رأسي يدور ، وان الاشياء تتراقص أمام بصري . آه يا صديقتي الغالية ! كيف أستطيع أن أقص عليك ما حدث ؟ ما كان لأحد أن يتصور ما وقع ، ماكان لأحد أن يتنبأ بما وقع . لا بل يستحيل أن لا أكون قد أوجست ما وقع ! بلى بلى ، لقد خمنته تخمينا غامضا ، حزره قلبي حزراً . بل انني لأتذكر انني رأيت حلما في يوم من الايام ، وأحسب أن ما وقع انما كان مدار حلمي عليه .

اليك ما جرى . سأقصه عليك ببساطة ، لا أتكلف أسلوبا ، ولا أصطنع زخرفة ولا تنميقا ، بل أرويه بالكلمات التي يلهمني اياها الرب. ذهبت الى عملي في هذا الصباح ، فجلست في مكاني وأخذت أكتب . يجب أن أقول لك يا ماتوشكا انني قد نسخت في الليلة البارحة أيضا . جاء تيموتي ايفانوفتش فاقترب من منضدتي وتفضل فأمرني بنفسه أن أعيد

نسخ نص هو وثيقة مستعجلة وهامة جدا فيما قال • أوصاني قائلا : « أعد نسخ هذا يا ماكار ألكسييفتش ، بأجمل خط تستطيعه ، أعد نسخه بعناية عظيمة وسرعة كبيرة ، فيجب أن تقدم الوثيقة في هذا اليوم للتوقيع » • يجب أن أسر اليك هنا ، يا ملاكي الرقيق ، انني لم أكن بالأمس مرتاح البال ، بل كنت مكدر النفس معتكر المزاج ، حتى لقد كنت أتحاشى أن أنظر فيما حولي : ان حزنا عميقا وكآبة قاتمة قد استبدا بنفسي • كان قلبي في صقيع ، وكانت نفسي في ظلام ، وكان التفكير فيك لا يبارحني لحظة يا طائري الصغير • أخذت أنسخ ، فنقلت النص نقلا جميلا جدا ، لا يمكن أن يؤخذ عليه عيب • ولكن كيف أشرح لك ما حدث ؟ هل الشيطان هو الذي دفعني الى ذلك ؟ أم هي قوة خفية من قوى القدر تدخلت في الامر ؟ أكانت المسألة محتومة لا مفر منها ؟ المهم انني أسقطت من النص عند النسخ سطرا بكامله • ونشأ عن ذلك أن معنى النص أصبح••• يارب يارب ! ••• لم يبق للنص معنى البتة •• ولم يتسع الوقت للحصول على التوقيع بالامس • وانما قدموه الى صاحب المعالي اليوم • ذهبت أنا الى مكتبي في الصباح كالعادة دون أن يخطر على بالي شيء ، واستقررت في مكاني الى جانب ايميليان ايفانوفتش • يجب أن أذكر لك يا صديقتي العزيزة انني قد أصبحت منذ زمن أشد خجلا من أي وقت مضى ، وانني أصبحت أشعر بشيء من الحرج والاضطراب والخشية بغير انقطاع • حتى، لقد غدوت في الآونة الاخيرة أتحاشى أن أنظر الى زملائي وأتجنب أن ينظروا الي • أصبح يكفي أن يصر كرسي أحد جيراني حتى أشعر فورا انني أقرب الى الموت مني الى الحياة من شدة الرعب • وعلى هذه الحالة النفسية انما كنت اليـــوم أيضا ، ملتصـــقا بمقعدي خافضا رأسي منكمشا انكماش قنفذ •حتى ان وليم كيموفتش (وهو رجل ماكد رهيب لانظير له في العالم بأسره) لم يسعه الا أن يقول لي بصوت عال يستطيع أن يسمعه

الجميع : « مابك في هذا الصباح يا ماكار ألكسيفتش ، ان لك لوجها عجيبا ، هيء هيء هيء ! ... » قال ذلك وجعد وجهه تجعيدا لم يملك معه جميع كانوا هنالك الى جانبه أو الى جانبي الا أن ينفجروا ضاحكين، عليّ طبعا ... لايشعرون باى حرج بل يمعنون فى القهقهة لا يثنيهم عنها شيء . اما انا فقد صغرت جسمي والتصقت اذناى براسي واغمضت عيني ولبثت في مكانى على هذه الحال لا أتحرك . تلك هى عادتى فى ظرف كهذا الظرف ، فانهم ما يلبثون عندئذ أن يدعونى وشأنى . وانى لكذلك اذا أنا أسمع ضجة ، وأسمع وقع خطوات سريعة فى الممر ذاهبة آيبة. وسمعت - أهذا حق أم أن أذنى تخدعانى ؟ - سمعت صوتا ينادينى ، سمعت صياحا ينطق باسمى . انهم يستدعون ديفوشكين ! أخذ قلبى يرتجف في صدرى ، واعترانى ذعر لا أستطيع له تعليلا . لا أدرى مم خفت فى تلك اللحظة ؟ . ولكننى أستطيع أن أقول اننى لم أشعر بمثل هذا الرعب يوما فى حياتى . التصقت بمقعدى مزيدا من الالتصاق ، كأننى لم أسمع شيئا ، وكأننى أتظاهر بأننى غير موجود ؟ ولكن الضجة تكبر وتقترب ، وها هى ذى تدوى فوق أذنى « ديفوشكين ، ديفوشكين، أين ديفوشكين ؟ » كذلك صاح صوت . وقال الصوت يخاطبنى «ماكار ألكسيفتش ... أنت مطلوب الى مكتب صاحب المعالى . هيا أسرع ، لقد جعلت من النص الذى نسخته كارثة » ذلك كل ما قاله الصوت ، ولكن هذا الذى قاله الصوت كان كافيا ... أليس كذلك يا ماتوشكا ؟ كان كافيا كل الكفاية . ألا ترين ذلك ؟ أحسست ان صاعقة أصابتنى ، تجمدت من شدة الذعر ، شعرت اننى فقدت حواسى . نهضت عن مكانى، وسرت كأننى آلة أتحرك ، وأنا أقرب الى الموت منى الى الحياة . اجتازوا بى حجرة أولى فحجرة ثانية ، فحجرة ثالثة ، الى أن بلغوا بى مكتب صاحب المعالى . رأيتنى فجأة هنالك ، واقفا أمامه . يستحيل عليّ أن

أصف لك الخواطر التى دارت فى رأسى فى تلك اللحظة . أظن اننى نسيت حتى أن ألقى السلام من فرط اضطرابى . كنت كالمعتوه ، وكانت شفتاى ترتجفان ، وكانت ساقاى تصطكان . ولهذا ما يبرره يا ماتوشكا . أولا كنت أشعر بالخجل والعار . لقد وقع بصرى مصادفة على مرآة كانت على يمينى ، فكان ما رأيته خليقا بأن يجعلنى مجنونا تماما ؛ وثانيا كنت قد بذلت دائما كل ما أستطيع من جهد حتى لا يلتفت الىّ أحد ، وحتى لا يرانى أحد ، متظاهرا بأننى غير موجود فى هذا العالم ، حتى ان صاحب المعالى لم يكن قد شعر بوجودى فى دائرته على أغلب الظن . لعله سمع عرضا باسم موظف اسمه ديفوشكين ، ولكنه لم يدخل حتما فى التفاصيل ، ولا اهتم بأمرى أى اهتمام .

بدأ صاحب المعالى يقول بصوت غاضب حانق : « كيف أمكن ان تفعل هذا أيها السيد ؟ أين كانت عيناك اذن ؟ تلك وثيقة خطيرة كنت فى حاجة ملحة اليها فها أنت ذا قد أفسدتها ! مابالك ساهما شارد اللب ؟ » قال صاحب المعالى هذا ثم التفت الى أوستاش ايفانوفتش . أدركت من خلال ضباب كلمات متقطعة تسقط على أذنى « اهمال ، غفلة ، أنت تجلب لنا متاعب » . فتحت فمى لا أدرى لماذا . أردت أن أستغفر ، أن أطلب الصفح والعفو ، ولكننى لم أستطع . أأهرب ؟ لم أجرؤ أن أحاول ذلك. وعندئذ ، عندئذ يا ماتوشكا ، حدث شىء يبلغ من القسوة ان قلمى فى هذه اللحظة يسقط من يدى خجلا وعارا حين أتذكره . ان زرى ، هذا الزر الذى لم يكن يشده الى مكانه الا خيط واهن ، قد انقطع فجأة ، لعنه الله (لعلنى صدمته من قلة الانتباه) فاذا هو يثب ويقفز ويدور ويتدحرج على أرض الغرفة محدثا صوتا كأنه صوت جرس ، ثم يتوقف أمام قدمى صاحب المعالى تماما . حدث ذلك كله والجميع صامتون واجمون . كان هذا هو التعليل الوحيد ، الاعتذار الوحيد ، الجواب

الوحيد الذى استطعت أن أقدمه بين يدى صاحب المعالى • لم أستطع أن أقول بعدئذ شيئا • وكانت نتائج ذلك رهيبة • فسرعان ما لاحظ صاحب المعالى هيئتى وانتبه الى هندامى • تذكرت فى تلك اللحظة ما كنت قد رايته فى المراة • وكاننى فقدت عقلى فاسرعت اريد أن اتناول الزر • أحسب اننى أصبحت لا أعرف ماذا أصنع • لقد ملت على الارض وأردت أن أمسك الزر ، ولكنه أفلت من يدى وعاد يدور ثم يدور ، فلم أستطع أن ألتقطه • الخلاصة : اننى لمعت أيضا بخراقتى • شعرت فى تلك اللحظة ان البقية الباقية من قواى تبارحنى ، وان كل شىء قد ضاع منذ الآن ، ضاع الى الابد ، فلا سمعة ولا كرامة • كل شىء قد انتهى وتحطم • أحسست اننى هويت • أخذت تدوى وتدندن فى أذنى جمل غريبة ، وخيّل الىّ اننى أسمع صوت تيريز وصوت فالدونى • واستطعت أخيرا أن ألتقط الزر بعد لأى ، فنهضت عن الارض وانتصبت قائما • ويا ليتنى بقيت بعد ذلك ساكنا ممسكا حزام سروالى بيدى ، ولكن لا ••• ليس هذا ما فعلته ، بل أخذت أربط الزر بالخيوط المقطوعة ، كما لو كان من الممكن أن يثبت الزر بهذا فى مكانه • وكنت أثناء ذلك أبتسم ، نعم أبتسم • حول صاحب المعالى بصره عنى فى أول الأمر ثم عاد ينظر الى ، وسمعته يقول عندئذ لأوستاش ايفانوفتش « ما هذا ؟ هل ترى هيئته ؟ ماذا اصابه ، لم هو كذلك ؟ » آه ياماتوشكا ! ماذا يمكن ان أصبح فى ظرف كهذا الظرف • وسمعت أوستاش ايفانوفتش يقول عنى : « لم يكن فى يوم من الأيام محل شكوى ، سلوكه ممتاز ، وهو يتقاضى مرتبا كافيا كما تقضى الأنظمة » فقال صاحب المعالى « ألا يمكنك أن تعطيه سلفة لتساعده قليلا ؟ » فقال أوستاش ايفانوفتش : « لقد تقاضى سلفا عن عدة أشهر ••• تقاضى سلفا حتى تاريخ كذا ••• » أغلب الظن ان له مصاعب شخصية ، ولكن سلوكه كان طيبا دائما • ولم

يلاحظ عليه شيء قط ، ولم يوجه اليه لوم يوما • أحسست بحر شديد يا ملاكي الرقيق ، كان لهيبا من جهنم يلفح وجهي ، وقدرت أنني سأموت في مكاني • قال صاحب المعالي : « طيب • أعيدوا نسخ النص ، ولكن بسرعة ! ديفوشكين ! تعال الى هنا ، ستعيد نسخ هذه الورقة ، ولكن بدون خطأ هذه المرة • وبالمناسبة ••• » هنا التفت صاحب السعادة نحو الاشخاص الآخرين وأصدر اليهم أوامر شتى ، فتفرقوا ، فما كادوا ينصرفون حتى أسرع صاحب السعادة يخرج محفظة نقوده ، ويسل منها ورقة مائة روبل « اليك هذا • انني أعطيك ما أستطيع ، فخذه بلا كلفة ، وسترده الي في المستقبل » • قال ذلك ووضع الورقة في يدي • ارتعشت يا ملاكي ، أحسست أن نفسي تهتز اهتزازا قويا • كنت لا أدري ماذا يحدث لي • أردت أن أتناول يده لأقبلها • فرأيت وجهه هو يحمر حتى الشعر • يمينا لا أبالغ • انني أقول لك الحقيقة دقيقة كاملة يا ماتوشكا : لقد أمسك يدي الوضيعة وهزها مصافحا ، هزها هكذا ، كما لو كنت نداً من أنداده ، كما لو كنت أنا أيضا جنرالا • ثم قال لي : « انصرف الآن ••• لقد عملت ما أستطيع ••• لا ترتكب أخطاء في المستقبل • أما هذه المرة فالله غفور رحيم » •

اليك الآن يا ماتوشكا ما عقدت النية عليه : انني أطلب اليك والى فيدورا كما كان يمكن أن أطلب ذلك الى أولادي لو كان لي أولاد ، أن تدعوا الله له • أقصد أن يكون الأمر كما يلي : لا تكون دعوات الأولاد وصلواتهم من أجل أبيهم بل يتوجهون بالدعاء كل يوم والى الأبد من أجل صاحب المعالي • هناك شيء آخر أريد أن أعبر عنه يا ماتوشكا ، وهأنذا أؤكده جهارا نهارا • اصغ الي يا ماتوشكا : انني أحلف صادقا أن ما أبهجني في هذه الحادثة ، رغم كل الآلام العظيمة التي عانيتها في الأيام الحالكة من بؤسنا ، ورغم كل الحزن العميق الذي كان يضني

قلبي حين كنت أفكر فيك أو حين كنت أرى شقاءنا أو حين كنت أدرك وضعي ومذلتي وعجزي ، أقول ان الذي أبهجني في هذه الحادثة ، رغم كل ذلك ، ليس هـــو المائة روبل بقدر ما هو تفضل صاحب الســـعادة بمصافحة يدي الوضيعة ، يدي أنا الذي لا أساوي قشة ، أنا السكير ! لقد رد اليَّ بذلك احترامي لنفسي ، وهو بهذه البادرة الكريمة قد أنعش روحي ، وجعل حياتي رضية الى الأبد • انني لعلي يقين قوي ، مهما تكن خطاياي عند الله العلي القـدير ، ان دعائي له بالســـعادة والهناء والنصر والتوفيق ، سترقى الى السماء وسيستجيب لها الرب ! ••

ماتوشكا ، أنا الآن في هذه اللحظة مضطرب اضطرابا رهيبا• أحس أن نفسي مهتزة أعمق الاهتزاز • قلبي يخفق خفقانا قويا كأنه يريد أن يثب من صدري • وأنا أشعر عدا ذلك بوهن شديد في جسمي كله • ارسل اليك خمسة وأربعين روبلا ورقا • وسأدفع لصاحبة البيت عشرين روبلا ، ثم أحتفظ بالباقي لنفسي : بعشرين روبلا أصلح ثيابي ، فيبقى لي خمسة عشر روبلا أصرفها في تدبير معاشي • ولكن جميع هذه المشاعر التي تراكمت طوال هذا النهار قد هزتني هزا عميقا وزعزعت كياني من الجذور • سأرقد لأستريح قليلا • على أنني الآن هادىء • كل ما هنالك ان نفسي تشبه ان تكون محطمة من الانفعال ، فأنا أحسها ، هنالك في أعماق كياني ، ترتجف وترتعش وتهتز • سأجيء اليك زائرا • أما الآن فانني مضطرب الفكر بعد هذه الانفعالات كلها فكأنني سكران ••• ان الله يرى كل شيء يا ماتوشكا ••• الله يرى كل شيء يا يمامتي المعبودة •

صديقك المحترم

ماكار دييفوشكين

١٠ ايلول (سبتمبر)

عزيزى الغالى جدا ماكار الكسييفتش !

انني مغتبطة أشد الاغتباط لسعادتك ، وانني أقدر المزايا الاخلاقية الرفيعة التي يتحلى بها رئيسك حق قدرها يا صديقي • هكذا نستطيع الآن أن تخلد الى شيء من الهدوء بعد تلك الآلام كلها • ولكنني أضرع اليك أن لا تستأنف تبديد المال يمنة ويسرة على غير هدى • عش حياة هادئة ، حياة متواضعة الى أقصى حد ممكن ، واعزم أمرك منذ اليوم على أن تدخر كل ما تستطيع ادخاره ، حتى لا تفاجأ مرة أخرى بمصاعب لم تكن في الحسبان • أما نحن فلا تقلق علينا • أرجوك لا تقلق علينا • سنعرف أنا وفيدورا كيف ندبر أمورنا وكيف نخرج من متاعبنا بوسيلة أو بأخرى • ما كان ينبغي أن ترسل الينا مبلغا ضخما هذه الضخامة ، يا ماكار ألكسييفتش • لسنا أبدا في حاجة الى مثل هذا المبلغ الضخم • نحن راضيتان بما عندنا لا نطلب مزيدا • صحيح اننا سنحتاج قريبا الى بعض المال لنترك هذا المنزل ، ولكن فيدورا تأمل أن تقبض في القريب مبلغا مستحقا لها منذ زمن • ومع ذلك سأحتفظ بعشرين روبلا للطوارىء • أما الباقي فأرده اليك • وفر دراهمك يا ماكار ألكسييفتش ، صدقني • تستطيع بعد اليوم أن تنعم بحياة هادئة ، فاعتن بصحتك وكن فرحا • كنت أود أن أطيل الكتابة ، ولكنني أشعر بتعب شديد • اضطررت الى ملازمة الفراش طول نهار أمس • أشكر لك وعدك بزيارتي • زرني يا ماكار ألكسييفتش ، فأسر بذلك سرورا كبيرا •

ب••د•

١١ أيلول (سبتمبر)

عزيزتي الغالية جدا فرفارا آلكسييفنا !

أناشدك الله يا صديقتي العزيزة جدا ، أتوسل اليك ، أضرع اليك ألا تتركيني الآن ، ألا تبتعدي عني في اللحظة التي أصبحت فيها سعيدا كل السعادة راضيا عن حياتي كل الرضى ! يمامتي ، لا تصغي الى نصائح فيدورا ، واعلمي انني سأتبع في سلوكي دائما الطريق التي تشيرين به وترغبين فيه . سأحسن سلوكي ، احتراما لصاحب السعادة على الاقل . سيكون سلوكي حسنا جدا ، سأكون مستقيما نشيطا . وسنظل نتبادل رسائل سعيدة هانئة ، يسر كل منا الى صاحبه بخواطره وأفكاره ، ويشاطر كل منا صاحبه أفراحه وهمومه ، اذا كان هنالك هموم سنقاسي منها أيضا . سنعيش معا فرحين منسجمين . وسنهتم بالأدب ... ياملاكي الرقيق ، هل توافقين ؟ لقد تبدل مصيري تبدلا كاملا ، تبدلا حسنا . صاحبة البيت مثلا أصبحت أكثر تسامحا . وأصبحت تيريز أقل حماقة وغباء مما كنت أتصور . حتى فالدوني أصبح يظهر خفة ونشاطا ومرونة. أما راتازاييف فقد تصالحت معه . ذهبت أراه قبل سائر السكان وأنا أفيض فرحا . انه فتى طيب جدا ... يا ماتوشكا . اعلمي انه فتى طيب جدا ... وليس ما قيل عنه من سوء الا ثرثرة ظالمة وتجنيا ! لقد اقتنعت أن ذلك كله لم يكن الا افتراء دنيئاً . لم يخطر بباله أبدا ، في يوم من الأيام ، أن يصفنا ، أن يتخذنا موضوع رواية يكتبها . أكد لي ذلك هو نفسه . وقد قرأ لي بضع صفحات من آخر كتاب له . أما ذلك اللقب الذي أطلقه عليّ ، أعني اسم « لوفلاس » فيظهر انه لا يشتمل على شيء من اهانة ، ولا هو بالاسم المعيب . لقد شرح لي معنى هذا الاسم . هو كلمة مستمدة من لغة أجنبية تعني شيئا من هذا القبيل « الفتى النشيط

الجرىء » ، أو قولى بتعبير أقرب الى الأناقة وأسلوب أدنى الى الأدب ، « السيد الذى يعرف ما يجب له » ذلك هو معنى تلك الكلمة . فليس فيها اذن شىء من غمز يجرح الشعور أو يسىء الى الكرامة . هى مزحة غير مؤذية يا ملاكى الرقيق . ما أنا الا جاهل ، لذلك ساءنى هذا اللقب . لكن كل شىء صلح الآن ، وقد اعتذرت الى راتازاييف .... ثم ان الجو جميل جدا اليوم يا فارنكا ... هو جو رائع عذب ... صحيح انه كان فى الصباح شىء من صقيع ، وان رذاذا من المطر والبرد قد خالط الهواء قليلا . ولكن ذلك لا يعد شيئا ... حتى أن الهواء قد تنضر من ذلك . ذهبت أشترى لنفسى حذاءين ، وقد عثرت فعلا على حذاءين مدهشين . ثم مضيت أتجول متنزها فى شارع نفسكى . وقرأت عددا من جريدة « النحلة » ها ... نسيت شيئا أساسيا ... يجب أن أرويه لك الآن : اليك المسألة :

فى هذا الصباح تحدثت مع ايميليان ايفانوفتش وهياسنت ميخائيلوفتش عن صاحب السعادة . نعم يا فارنكا : يظهر اننى لست الرجل الوحيد الذى حظى منه بكل هذا الكرم وهذا السخاء . لقد نعم آخرون باحسانه أيضا ، والناس جميعا يعرفون طيبة قلبه ونبل نفسه . كثيرون أولئك الذين يتغنون بفضائله ويمدحون مزاياه . وفى بيوت كثيرة تذرف دموع العرفان بالجميل حين يجىء ذكره ويدور الحديث عليه . لقد كفل فى بيته يتيمة مسكينة ، وعنى بمستقبلها ، وزوجها رجلا محترما من موظفى مكتبه . واهتم كذلك بابن امرأة أرمل ، فعينه فى وظيفة من وظائف الحكومة . وقام بأعمال أخرى كثيرة من أعمال البر فحين علمت ذلك يا ماتوشكا رأيت أن من واجبى أن أنشد أنا أيضا نشيدى الصغير فى مدحه ، فقصصت على الجميع بصوت عال قصة ما أغدقه علىّ صاحب

السعادة وما غمرني به • قلت لهم الحقيقة كلها ، فلم أخف عنهم شيئا • وضعت خجلي في جيبي • والامر في الواقع أمر خجل وكرامة شخصية ازاء عظمة كهذه العظمة • أذعت الحقيقة جهارا حتى لا يجهل أحد ما يتحلى به صاحب المعالى من نفس عظيمة وروح كبيرة • تكلمت بحماسة ، بحرارة ، دون أن يحمر وجهي • بالعكس : كنت فخورا بسرد هذه القصة • أفضيت لهم بكل شيء (الا ماتعلق بك طبعا ياماتوشكا) : حكيت لهم متاعبي مع صاحبة البيت ، ومع فالدوني ، وحدثتهم عن راتازايف ، وعن حذاءي ، وعن ماركوف • حدثتهم عن كل شيء ، كل شيء • صحيح ان بعضهم ابتسم في بعض اللحظات • بل الحقيقة انهم جميعا ابتسموا • حتى لقد ضحكوا قليلا • لا شك ان قد كان في هيئتي أو في وجهي ما يبعث على الضحك ، أو لعل قصة حذاءي هي التي أضحكتهم ••• نعم هي قصة الحذاءين قطعا • ذلك ان من غير المعقول أن يضحكوا بنية سيئة • أنا على يقين من هذا • وقد ضحكوا لأنهم شبان ، وربما لأنهم أغنياء أيضا • ولكن لم يخطر ببالهم أن يسخروا من أقوالي وأن يستهزئوا بكلامي • ما كان لهم أن يتخذوا من مدحي لصاحب عبث وهزء • هذا مستبعد تماما • ألا تظنين ذلك

هل حتى الآن الى كمال استردادي لهدوء نفسي ياماتوشكا •
هذه الأحداث كلها هزا عنيفا • هل عندك ما يكفيك من حطب
للتدفئة ؟ حاذري أن ينالك برد يا فارنكا • سرعان ما يصاب المرء بالزكام في هذا الجو • آه منك يا ماتوشكا ! هل تعلمين انك تقتلينني قتلابأفكارك السود الحزينة تلك ؟ انني أدعو لك الله بغير انقطاع • ليتك تعلمين كم أدعو لك وكم أصلي من أجلك يا ماتوشكا ! قولي : هل لديك أجربة من صوف ، وهل عندك ما تدثرين به جسمك اتقاء البرد على الأقل ؟

كونى حذرة يا يمامتى • اذا أعوزك شىء فلا تغفلى أن تذكرى لى ذلك : أناشدك الله لا تهينى شيخا مسكينا بالاحجام عن التوجه اليه فى مثل هذه الحال • لا تقلقى علىّ • المستقبل باسم مشرق ، ولن تكون أيامنا بعد الآن الا وضاءة سعيدة •

آه يا فارنكا ! ما كان أصعب وآلم تلك الأيام الشقية ! لقد انقضت الآن ، فلا تتحدثى عنها ، هى بضع سنين ثم ننسى هذه الفترة فما تخطر لنا على بال • اننى أتذكر سنى شبابى • يا لذلك العهد ! كان يتفق لى أن أظل أياما بلا قرش فى جيبى •• كنت أقاسى من البرد وأعانى من الجوع •• ومع ذلك ما أعظم الفرح الذى كان يملأ نفسى ! كنت أقوم أحيانا بنزهة فى الصباح على نهر نفسكى ، فاذا لمحت وجها جميلا ، كان يكفينى ذلك حتى أظل سعيدا النهار كله الى المساء ! ما كان أجمله عهدا ! ما كان أجمله عهدا يا ماتوشكا ! ما أمتع الحياة فى هذا العالم يافارنكا ! ماأمتعها فى بطرسبرج خاصة ! لقد تبت الى الله بالأمس باكيا ، وضرعت الى الرب أن يغفر لى الخطايا التى انجرفت اليها خلال هذه الفترة القاتمة ، من دمدمات تذمر وتمرد ، الى اتجاهات نحو اللبرالية ، الى فجور وفسق، والى قمار وميسر ••• ولقد ذكرتك فى صلواتى وأدعيتى منفعلا أعمق الانفعال • أنت وحدك ، يا ملاكى الصغير الرقيق ، بثثت فى نفسى القوة ، وواسيتينى ، وعزيتينى ، وخففت عنى ، ووجهتنى بنصائحك الحكيمة الى طريق الرشاد • لن أنسى هذا يا ماتوشكا ، لن أنساه أبدا • اليوم تناولت رسائلك فقبلتها جميعا واحدة بعد أخرى ! نعم يا يمامتى ! أودعك الآن ياماتوشكا • قيل لى ان هناك ، على مقربة منا ، رداء يراد بيعه • سأمضى أستطلع الأمر • وداعا ياملاكى الرقيق ، وداعا •

صديقك المخلص اخلاصا عميقا

ماكار دييفوشكين

١٥ أيلول (سبتمبر)

السيد العزيز جدا ماكار ألكسييفتش !

انني مضطربة اشد الاضطراب • اسمع ما حدث • يجب أن أذكر لك أولا انني كنت أوجس منذ زمن وقوع حادث محتوم • فانظر في الامر بنفسك يا صديقي العزيز : ان السيد بيكوف هو الآن في بطرسبرج •• لقد صادفته فيدورا • فلما لمحها استوقف عربته ودنا منها وأراد أن يعرف أين تسكن الآن • وقد رفضت فيدورا في أول الأمر أن تقول له شيئا • فصرح لها وهو يضحك ضحكة صغيرة ساخرة انه يعرف من تستضيف عندها (لا شك ان آنا فيدوروفنا هي التي قصت عليه كل شيء) وعندئذ لم تستطع فيدورا أن تكظم غيظها وأن تكبح جماح نفسها ، فأخذت تكيل له الشتائم في الشارع ، وتصب عليه أنواع التقريع ، قائلة [illegible] من ضروب العذاب
[illegible] يكون المرء شقيا حين
[illegible] أن أعيش من عملي ،
[illegible] وظيفة من الوظائف ، ولكن
[illegible] لابد ، وانني عدا ذلك مريضة مشرفة على
[illegible] شابة في مقتبل العمر ، وانني أضع في رأسي
[illegible] وان « فضائلنا قد حال لونها » فيما يظهر (تلك كلماته)•

قدرنا أنا وفيدورا انه يجهل عنوانها • ولكن تصور أنه بالأمس ، بعد خروجي من البيت لشراء بعض الأشياء من قناطر جوستيني ، دخل غرفتنا على حين فجأة • واضح انه كان يتمنى أن لا يجدني في منزلي • فأخذ يسائل فيدورا عن معيشتنا مسهبا ، وأخذ ينعم النظر في أرجاء الغرفة ، وأحب أن يعرف شيئا عن عملي في الخياطة ، ثم ألقى على

فيدورا فجأة هذا السؤال : « من هو ذلك الموظف الذى تقوم بيننا وبينه علاقات صداقة ؟ » واتفق أن كنتَ أنت مارا فى تلك اللحظة نفسها ، فدلته فيدورا عليك ، فنظر اليك وابتسم • وتوسلت اليه فيدورا عندئذ أن ينصرف قائلة له ان أحزانى قد هدت قواى وجعلتنى مريضة ، فحسبى مالقيته ، ولا داعى لأن أتألم مزيدا من الألم حين أعود فألقاه أمامى • فصمت لحظة ثم قال انه جاء عرضا ، فقد مر بالمكان مصادفة ، وكان فى وقته متسع ، فدخل بغير غاية يقصدها أو هدف يرمى اليه • وأراد أن يعطى فيدورا خمسة وعشرين روبلا ، ولكنها رفضت أن تأخذ منه شيئا بطبيعة الحال • ترى ماذا تعنى هذه الزيارة ؟ ماذا كان يريد منا ؟ لم أستطع أن أفهم من أين عرف عنا هذه الأخبار كلها • اننى أقلب الأمر على وجوهه وأفرض الفروض ، وأظن الظنون، فلا أهتدى الى جواب على هذا السؤال • تدعى فيدورا أن أكسينيا زوجة أخيها التى تأتى الينا أحيانا تعرف الغسالة آناستازيا ، وان ابن عم آناستازيا خفير فى وزاة يعمل فيها أحد أصدقاء ابن أخى آنا فيدوروفنا ، فلعل بعض الاشاعات قد تسربت عن هذا الطريق • ومن الجائز أن تكون فيدورا مخطئة على كل حال • والحق اننا لا ندرى كيف نفكر فى هـذا الأمر كله ولا كيف نعلله ونفسره • أمن الممكن أن يعود مرةأخرى ؟ ان تصور هذا وحده يملؤنى رعبا ! حين أطلعتنى فيدورا مساء أمس على ما جرى بلغت من الرعب اننى أوشكت أن يغمى على • ماذا يريدون فوق ما فعلوا ؟ اننى لا أريد أن أعرفهم بعد الآن • لماذا يصرون على الاهتمام بأمرى أنا المسكينة البائسة الشقية ؟ آه ما أشد المخاوف التى أشعر بها فى هذه الساعة ! يخيل الىّ أن بيكوف سيدخل علينا من لحظة الى أخرى • فما عسى يقع لى عندئذ ؟ ماذا يخبىء لى القدر أيضا ؟ أنا أناشدك محبة يسوع أن تجىء الىّ بغير ابطاء يا ماكار ألكسييفتش • تعال الى ، أضرع اليك ، تعال •

١٨ أيلول (سبتمبر)

ماتوشكا ، فرفارا ألكسييفنا !

حدث اليوم في منزلنا حادث حزين كل الحـــزن ، لا يعلل ولا يفسر ، ولا كان في خيال أحد أن يقع • ان صاحبنا المسكين جورشكوف (يجب أن أقول لك هذا عابرا ياماتوشكا) قد أمكن أن يرد اليه اعتباره• فقد قضت المحكمة في قضيته منذ مدة طويلة ، وذهب اليوم الى المحــكمة ليتبلغ قرارها النهائي • انتهت القضية نهاية ترضيه كل الرضى • ذلك انها برأته من جميع ما نسب اليه ، عدا انه ارتكب أخطاء اهمال وغفلة • وقضى قرار المحــكمة أن تدفع له من أمــوال التاجر المصادرة المبالغ الضخمة التي يستحقها ، وبذلك تحسنت حالته المادية أيضا تحسنا كبيرا• وأصبح شرفه غير ملطخ من جهة أخرى ، ومعنى هذا أن جميع شـئونه قد صلحت كثيرا • الخلاصة أن جميع ما كان يتمناه قد تحقق له • عاد الى البيت في الساعة الثالثة مضطرب الوجه شاحبا شحوبا شديدا • كانت شفتاه ترتجفان، ولكنه كان يبتسم• قبل زوجته وأولاده• وهرعنا جميعا الى غرفته نهنئه ، فبدت في وجهه علائم التأثر الشديد لهذه البادرة من جانبنا ، وراح يحيى ويسلم في جميع الجهات ويصافح كلا منا عـدة مرات • حتى لقد لاح لي أن جسمه نفسه قد كبر ، فكأن قامته انتصبت ، وأحسب أن العبرة الصـــغيرة المألوفة أصبحت غير عالقة بأهدابه • كان المسكين مضطربا اضطرابا شديدا ، فهو لا يستطيع أن يستقر في مكان دقيقتين • كانت يده ما تنفك تقبض على هذا الشيء أو ذاك ، ثم ما تلبث أن تنبذه بغير داع ، وكان يبتسم بلا انقطاع ، ويحيي، ويجلس، ثم ينهض ، ثم يعود الى الجلوس ، وهو بين هذا وذاك لا يكف عن الكلام ، وكان كلامه مشوشا لا تسلسل في معانيه ولا اتساق بين أفكاره • كان يقـول

كلاما من هذا النوع : « شرفي ، سمعتي ، أولادي ، صيتي الحسن بين الناس ••• » • حتى لقد أخذ ينتحب فجأة في لحظة من اللحظات •• وترقرقت في مآقي أكثرنا دموع أيضا • وأراد راتازاييف أن يعزيه وأن يقوي عزيمته فقال له وهو يربت على كتفه : « مالك تتكلم عن الشرف يا عزيزي وأنت لا تملك ما تسد به الرمق • المال يا عزيزي ! المال ! ذلك هو الأمر المهم ! احمد الله على أنه وهب لك هذا المبلغ الضخم ، ذلك ما يجب أن تحمد الله عليه ! » • وأحسست في تلك اللحظة أن جورشكوف قد استاء • لا أقول أنه أظهر امتعاضا، ولكنه رمى راتازاييف بنظرة غريبة ، وأبعد يده عن كتفه • ذلك وضع ما كان ليتخذه من قبل ياماتوشكا • لكل انسان طبعه على كل حال • فأنا مثلا ما كنت لأظهر شيئا من الزهو في مثل هذه اللحظة من السعادة • ألا يتفق لنا ياماتوشكا أن نسرف في التحية والسلام وأن نفرض على أنفسنا مزيدا من التواضـــع والتذلل لا لشيء غير شهامة شبت في النفس ، وحنان استولى على القلب ؟ ولكن دعينا من هذا الآن ، فما هو بالأمر الذي من أجله أكتب اليك في هذه اللحظة• قال جورشكوف : « نعم ، أنا مغتبط بالمال أيضا ، الحمد لله » ثم لم يزد بعد ذلك على أن ظل يردد طول الوقت قوله : « الحمد لله ، الحمد لله ! ••• » • وطلبت امرأته غداء أرقى نوعا وأكبر مقدارا ممـا اعتادت أن تطلب ، فلبتها صاحبة البيت ، حتى لقد أرادت أن تهيىء الطعام بنفسها • ان صاحبة البيت امرأة شهمة على طريقتها الخاصة ، في بعض الأمور على الأقل • وظل جورشكوف يذهب ويجيء قبل الغداء • كان يدخل على جميع من في البيت ، دعي أم لم يدع • يدخل الغرف مبتسماً ويجلس على كرسي ويقول بضع كلمات أو يلبث صامتا • ثم يتكلم على حين فجأة • حتى لقد مضى عند الضـــابط البحـار الى حد تناول ورق اللعب ، والمشاركة في اللعب طرفا رابعا • لعب بضع لحظات ، فتاه عقله

بين أوراق اللعب ، فقال ، « باس » عدة مرات ، ثم نهض بغتة وهو يدمدم : « لا ، لا ، لم أشأ أن ألعب جادا ، وانما أحببت أن أرى فحسب» ثم انصرف . فلما لقيني في الممر تناول يدي وحدق في عيني تحديقا غريبا بعض الغرابة ، ثم ابتعد وهو ما يزال مبتسما . لكن ابتسامته كان فيها شيء من ثقل ، فهي تخلف في نفس من يراها شعورا أليما ، فكأنها ابتسامة ميت . وكانت امرأته تبكي فرحا . لقد ظللت السعادة بيتهم مرة. كان جو غرفتهم يشبه أن يكون جو عيد. تناولوا غداءهم مسرعين . وقال الرجل لزوجه بعد الغداء : « اسمعي يا عزيزتي : أحب أن أرتاح قليلا» واضطجع في سريره . نادى ابنته ، فوضع يده على رأسها ، ولاعب شعرها مدة طويلة . ثم التفت الى امرأته يسألها : وابننا بتنكا ؟ أين هو ؟ فرسمت امرأته اشارة الصليب وأجابته خائفة مذعورة بأن ابنهما قد مات، وبأنه يعرف هو ذلك . فقال لها : « طبعا طبعا أنا أعرف ذلك ، أنا أعرف كل شيء ، أنا أعرف أن بتنكا هو الآن في ملكوت السموات » . فأدركت امرأته عندئذ أن زوجها ليس في حالة طبيعية ، فالحادث قد هزه هزا عنيفا عميقا ، فقالت له : « خير لك يا عزيزي أن تنام بضع لحظات » . فقال : « نعم نعم ، سأنام فورا ... أنا ... قليلا ... » وتحول عنها الى الجهة الأخرى ، فظل ساكنا دقائق لا يتحرك ، ثم لم يلبث أن التفت الى امرأته من جديد ، يحاول أن يقول بضع كلمات في أغلب الظن . فلما لم تسمع امرأته كلامه واضحا سألته قائلة : « ماذا تريد يا صديقي ؟ » . ولكنه لم يجب . فانتظرت بضع لحظات ، ثم قالت لنفسها : « لا شك انه غفا » . وذهبت الى صاحبة البيت تثرثر معها قرابة ساعة . حتى اذا عادت الى الغرفة وجدت أن زوجها لما يستيقظ بعد، وانه مايزال ساكنا في سريره. فقدرت أنه نائم ، وجلست على كرسي ، وأخذت تشتغل . قالت لنا فيما بعد انها غرقت عندئذ في تأملاتها ، فانقضى على ذلك نصف ساعة . انها

لا تتذكر الآن الموضوع الذى دارت عليه تأملاتها ، وكل ما تقوله هو أنها فى أثناء ذلك نسيت حضور زوجها نسيانا كاملا ، ولكنها ارتدت فجأة الى الواقع بسبب احساس مقلق انتابها على حين فجأة ، فأذهلها هذا الصمت الغريب ، هذا الصمت الذى يسود الغرفة ويشبه صمت القبور • ألقت نظرة على السرير فلاحظت أن زوجها لم يغير وضعه ، فاقتربت منه ورفعت عنه الغطاء ، فأدركت فى تلك اللحظة فقط ، أن جسمه كان قد برد • لقد مات جورشكوف ياماتوشكا • مات فجأة ، كأن صاعقة نزلت عليه • أما سبب موته فأنا أجهله كل الجهل • وقد بلغت من التأثر والاضطراب لهذا الحادث يافارنكا اننى لم أثب الى نفسى حتى هذه اللحظة • لا أستطيع أن أصدق أن من الممكن أن يموت انسان هذه الميتة ، من لحظة الى أخرى! مسكين جورشكوف ! مسكين ! ••• ما أكثر ما لقى من صنوف الشقاء والعذاب ! ياله من مصير ! ياله من مصير ! ان امرأته غارقة فى دموعها وان فى هيئتها الآن ذعرا لا يوصف • أما البنت فقد لطت فى ركن من أركان الغرفة ساكنة لا تتحرك • ان فى الغرفة حركة ذهاب واياب كبيرة ••• وهم يتكلمون الآن عن تحقيق طبى سيتم اجراؤه •• لاأدرى تماما ••• ولا أستطيع أن أزودك بتفاصيل عن هذا الموضوع • ولكننى أتألم لهم أشد الألم ، أشد الألم • انه لمما يحزن النفس أن يتصور المرء انه لا يعرف فى أى يوم ، فى أى ساعة ••• أن من الممكن أن يموت الانسان ميتة بلهاء فى لحظة كانت فكرة الموت فيها أبعد ما تكون عن خياله •

صديقك

ماكار ديفوشكين

١٩ أيلول (سبتمبر)

سيدتي العزيزة فرفارا الكسييفنا !

أسارع فأنبئك أن صديقي راتازاييف قد جاءني بعمل أقوم به لأحد الكتاب • هو مؤلف جاء يزوره فأعطاه مخطوطة كبيرة لأتولى أنا نسخها •• لن يعوزني العمل اذن • الحمد لله • ولكن المؤسف أن خط المؤلف يبلغ من الرداءة أنني لا أستطيع قراءته ، فأنا أتساءل كيف يمكنني أن أفكه • ثم انهم يطلبون أن أنجز نسخ المخطوطة في مهلة قصيرة جدا ، لأن الأمر مستعجل • يعالج الكتاب أمورا كثيرة أحس أنني لا أفهم منها شيئا ••• وقد اتفقنا على أجر هو أربعين كوبكا عن كل صفحة • أذكر لك هذه التفاصيل كلها يا صديقتي لتعلمي أن ما سأكسبه سيفيض عن حاجتي • أودعك الآن ياماتوشكا • وسأشرع في العمل فورا •

صديقك الوفي

ماكار دييفوشكين

٢٣ أيلول (سبتمبر)

صديقي العزيز جدا ماكار ألكسييفتش !

منذ سبعة أيام لم أكتب اليك ، وقد شغلت خلال هذه المدة بأمور كثيرة ، كما مرت بي أحداث تثير القلق والاضطراب • أول أمس ، زارني بيكوف • كنت عندئذ وحدي في البيت ، لأن فيدورا كانت قد خرجت • فتحت له الباب ، فلما رأيته انتابني رعب وذعر ، حتى انني

لم أستطع أن أقوم بأية حركة • وشعرت بوجهي يصفر • دخل وهو يطلق ضحكة صاخبة مدوية على عادته، وتناول كرسيا بنفسه فقعد عليه • لبثت مدة طويلة لا أستطيع أن أثوب الى نفسي وأن أملك شعوري • وأخيرا مضيت أعتصم بركن من الغرفة ، واستغرقت في شغلي فما لبث أن كف عن الضحك • أغلب الظن أن مظهري قد فاجأه • كنت قد نحلت نحولا شديدا في الآونة الأخيرة • خداى خاسفتان ، وعيناى غائرتان ، ووجهي شاحب شحوبا شديدا • لا شك أن الذين عرفوني منذ سنة يصعب عليهم أن يعرفوني الآن • أنعم النظر الىّ مدةً طويلة بانتباه شديد ، ثم عاد الى مرحه وضحكه • أبدى ملاحظة لا أتذكرها الآن ، ولا أدرى بماذا أجبته ، ولكنه استأنف ضحكه حين سمع جوابي• مكث عندي ساعة كاملة يلقي علىّ الأسئلة تلو الأسئلة • وأخيرا ، لحظةَ همّ أن ينصرف ، أمسك يدي وقال لى (وأنا أنقل اليك أقواله بنصها) : « فرفارا ألكسييفنا ، يجب أن أعترف ، بيني وبينك ، ان آنا فيدوروفنا التي هي قريبتك والتي تربطني بها صداقة ، هي امرأة حقيرة دنيئة شريرة » • (استعمل لفظة أخرى أيضا ، ولكنها لفظة غير لائقة) « لقد دفعت ابنة عمك الصغيرة في طريق سيئة ، وأدت بك أنت أيضا الى الضياع • أما أنا فقد سلكت في ذلك الظرف سلوك رجل جبان • ولكن ما العمل ؟ تلك قصة مبتذلة شائعة » • قال هذه الكلمات وانفجر ضاحكا• كان يقهقه ملء حنجرته•وقال أخيرا انه لا يجيد القاء خطب طويلة ، وانه ذكر الشيء الأساسي الذي أملى عليه ضميره أن يذكره ، لأن الشرف يقضي بذلك ، وانه سيوجز فيما سيضيفه من قول • وشرح لى عندئذ ، بغير اسهاب ولا لف ولا دوران ، انه يريد أن يتزوجني ، وانه يرى ان من واجبه أن يرد الىّ اعتباري وشرفي ، وانه غني ، وانه سيأخذني بعد الزواج الى أراضيه ، وانه ينوي أن يفرغ هناك لصيد الأرانب ، وأضاف

الى ذلك انه لن يعود الى بطرسبرج أبدا ، لأن بطرسبرج مدينـة مملة مضجرة موبوءة ، وان له هنا ابن أخ هو فى رأيه ولد حقير ، لذلك آلى على نفسه أن يحرمه من ميراثه ، حتى أن هذا هو السبب الذى يحرص من أجله على أن يتزوجنى ، وذلك ليكون له ورثة شرعيون ، فذلك هو الباعث الأساسى الذى دفعه الى القيام بهذا المسعى عندى • ولفت نظرى بعد ذلك الى إننى أعيش حياة فقيرة جدا، وانه ليس بالمستغرب أن أمرض وأنا أقيم فى مثل هذا الكوخ الحقير الذى أسكنه • وتنبأ لى بموت وشيك اذا أنا أصررت على البقاء هنا ولو شهرا واحدا آخر • وقال ان البيوت فى بطرسبرج سيئة ، وسألنى أخيرا هل أنا فى حاجة الى شىء ؟ •

بلغت من الانشداه لهذا العرض اننى أخذت أبكى ، لا أدرى لماذا ، فظن أننى أذرف دموع العرفان بالجميل • فقال انه كان دائما يعدنى فتاة طيبة القلب ، رقيقة العاطفة ، حساسة الشعور ، مثقفة ، ولكن ما كان له مع ذلك أن يقدم على ما يقدم عليه الآن لولا انه سأل عن سلوكى الراهن فعرف تفاصيله • قال انه مطلع على كل شىء ، وانك رجل فاضل الأخلاق، وأنه لا يريد أن يبقى مدينا لك ، فهو يريد أن يعرف هل يكفى خمسمائة روبل فى رأيك تعويضا لك عن كل ما صنعته فى سبيلى ؟ فلما قلت له ان خيراتك علىّ هى من تلك الخيرات التى لا يمكن أن يكافئها أى مبلغ من المال ، صاح يقول ان هـذا كله سخافات ، وان هـذا كله من باب الروايات ، واننى ما زلت شابة ، واننى أحب قراءة الشعر ولا شك ، وان الروايات تضيع الفتيات وتفسد أخلاقهن ، وانه يحتقر جميع الكتب على وجه الاجمال • ونصحنى أن أنتظر ان أكبر بضع سنين أخرى حتى أصدر أحكاما صحيحة فى حق الناس • وأضاف قوله : « سوف تتعلمين عندئذ كيف تعرفينهم» • وسألنى بعد ذلك أن أفكر فيما عرضه علىّ متمهلة غير متعجلة ، لأنه سوف يؤلمه كثيرا ان اتخذ قرارا خطيرا هذه الخطورة

دون أن أفكر فى الأمر تفكيرا عميقا • وقال ان الخفة والطيش والاندفاع مع الهوى تؤدى بالشباب الذين لم يخبروا الحياة الى الضياع ، ولكنه ، من جهته ، يتمنى من أعماق قلبه أن يجيء جوابى بالموافقة على عرضه • أما اذا رفضت هذا العرض فسيجد نفسه مضطرا أن يتزوج تاجرة من سكان موسكو ، لأنه آلى على نفسه أن يحرم ذلك الوغد ابن أخيه من ميراثه • وترك لى خمسمائة روبل أجبرنى على قبولها اجبارا ، لأستطيع أن أشترى لنفسى بها حلوى ••• كذلك قال • وأكد اننى لن ألبث أن أسمن فى قريته وأتربل ، واننى سأعيش عنده فى وفرة وبحبوحة • وأضاف الى ذلك انه كان في هذه الأيام الأخيرة مشغولا جدا ، فهنالك أمور كثيرة يجب أن يسويها ، وانه جاء الىّ عابرا ، منتهزا فرصة بين موعدين هامين • وانصرف بعد ذلك • فأخذت أفكر مليا • قلبت الامر على وجوهه المختلفة ، ولبثت أتأمل ساعات وساعات الى غير نهاية ، وعانيت من اضطراب الفكر ما عانيت ، حتى انتهيت أخيرا الى اتخاذ قرار • لقد قررت يا صديقي أن أتزوجه • لا بد أن أقبل ما عرضه علىّ • انه الرجل الوحيد الذى يمكنه أن يغسل عارى ، وأن يصلح سمعتى ، وأن يجنبنى البؤس وأنواع الحرمان وصنوف الشقاء فى المستقبل • ما الذى يمكن أن أطمع فيه بعد الآن ؟ ما الذى أستطيع أن أنتظره من القدر ؟ فيدورا تقول ان على المرء أن يعرف كيف يمسك السعادة من شعرها ؟ هى تؤكد أن ••• ولكن ما هى السعادة بعد كل حساب ؟ أما أنا فلا أتصور مخرجا آخر على كل حال ، فاعلم ذلك يا صديقى الغالى• ما العمل ؟ لقد أضنيت صحتى بالعمل، ولسوف يستحيل علىّ أن أواصل هذا العمل دائما • اما أن أوظف لدى أسرة ، فان ذلك سيميتنى حزنا وأسى • وما من أحد يريدنى على كل حال • ان جسمى عليل ، وسأكون لذلك عبئا على الآخرين • طبعا ليس ما اخترته هو

الجنة • ولكن ماذا يجب أن أعمل يا صديقى ؟ ماذا أستطيع أن أعمل ؟ الحق اننى ليس لى فى الأمر خيار •

لم أسألك نصحا • أردت أن أزن جميع جوانب القضية بنفسى • والقرار الذى أبلغتك اياه منذ هنيهة قرار مبرم لا رجوع عنه ، وسأبلغ بكوف هذا القرار فورا ، فهو يصر على أن أبلغه جوابى الحاسم • وهو لآن يستعجلنى ، قائلا ان أعماله لا تمكنه من الانتظار ، وان عليه أن يسافر ، وانه لا يستطيع أن يرجىء سفره لأسباب تافهة • لا يدرى الا الله هل سأجد السعادة هنالك ! ان مصيرى رهن بارادة الله المقدسة • ولكننى عزمت أمرى ، واتخذت قرارى • يقولون ان بيكوف رجل شهم • سوف يحترمنى ، وقد أتعلم ان أحترمه أيضا • هل يمكن أن نرجو من زواجنا أكثر من ذلك ؟

ها قد أطلعتك على الوضع يا ماكار ألكسييفتش • أنا واثقة انك ستفهم ما أنا فيه من حزن • لا تحاول أن تثنينى عن عزمى ، فسوف تضيع جميع جهودك فى هذا السبيل سدى • حاول أن تزن فى قرارة نفسك جميع الأسباب التى دفعتنى الى اتخاذ هذا القرار • لقد تعذبت كثيرا فى أول الأمر ، ولكننى هادئة كل الهدوء الآن • اننى أجهل ما يخبئه لى المستقبل • فليكن ما يكون ، ولتتم مشيئة الله ! ••• وصل بيكوف ، لذلك أقطع الرسالة قبل اكمالها • هناك أمور كثيرة كان يجب أن أقولها لك أيضا •

٢٣ أيلول (سبتمبر)

ماتوشكا ، فرفارا ألكسييفنا !

أسارع الى الرد على رسالتك يا ماتوشكا . أبادر فأقول لك ياماتوشكا انني قد ذهلت . كل هذا غريب متناقض ... أمس دفنا جورشكوف . نعم يا فارنكا . الأمر كذلك اذن . هو كذلك اذن يافارنكا. لقد تصرف بيكوف تصرف رجل شريف . وقبلت أنت دفعة واحدة يا صديقتي ... ولكن ... صحيح ان مقاديرنا بيد الله ... هي بيد الله ... أنا أعرف ذلك ... ولا بد أن يكون الامر كذلك ... أريد أن أقول ان مشيئته هي العليا ، ولا بد أن تنفذ مشيئة الله . والله العلي القدير مشيئة لا تجحد عدالتها ولا يجحد عمقها ، ولكننا لا نستطيع أن ننفذ الى سرها ... ومصائرنا كمشيئة الله أيضا . ان بيكوف يريد لك السعادة ... أنا واثق من ذلك . واضح انك ستسعدين الآن يا ماتوشكا ، وأنك ستعيشين في يسر ووفرة وبحبوحة يا يمامتي ، يا ملاكي الصغير المعبود ، يا طائري اللطيف ... ولكن يا فارنكا لم هذا التعجل كله ؟... الأعمال .. نعم .. الاعمال .. السيد بيكوف مشغول جدا .. صحيح.. كل انسان في هذا العالم مشغول .. وقد يكون السيد بيكوف مشغولا أيضا . لقد لمحته لحظة خروجه من عندك .. انه رجل مهيب ، مهيب جدا .. ولعله مهيب أكثر مما ينبغي .. ولكن هذا كله ليس واضحا وضوحا كاملا .. ليست القضية قضية هيئته المهيبة الآن .. ثم ان فكري مشوش مضطرب في هذه اللحظة .. فأنا لا أهتدي الى أفكاري ولا أعرف ماذا أريد أن أقول . هناك نقطة هامة بوجه خاص : ما الذي سنعمله من أجل أن نواصل التراسل ؟ وأنا ؟ وأنا ؟ أيجب أن أبقى وحيدا بعد الآن ؟ لقد وزنت كل شيء يا ملاكي الرقيق ... نعم وزنت كل شيء ..

نظرت في كل شيء ، كما طلبت مني ذلك ••• وزنت كل شيء في قرارة قلبي ، وزنت جميع البواعث التي تذكرينها • كنت على وشك الانتهاء من نسخ الصفحة العشرين من المخطوطة ، فاذا بهذه الأحداث كلها تسقط على رأسي فجأة • ستسافرين اذن يا ماتوشكا • ستحتاجين الى أشياء كثيرة استعدادا للسفر : أحذية ، ثوب ••• انني أعرف مخزنا في شارع جوروخوفايا • هل تتذكرين حديثي الذي وصفت لك فيه ذلك المخزن؟ ولكن لا •• لا •• ما هذا الذي تقولين يا ماتوشكا ؟ هلا فكرت في الامر قليلا ؟ انك لا تستطيعين أن تسافري الآن ••• مستحيل ••• مستحيل استحالة مطلقة ! هناك بضائع كثيرة يجب أن تشتريها قبل السفر ، وستكونين في حاجة الى عربة ، الى مركبة خاصة • ثم ان الجو قد ساء • انظري الى المطر كيف ينهمر غزيرا في هذه اللحظة ! انه مطر رديء ، انه مطر رطب •• ثم •• ثم •• سوف يصيبك برد يا ملاكي الرقيق ، وسوف يصيبك برد روحي • أأنت ، يا من تخشين الناس كل تلك الخشية ، تقررين أن تسافري ؟ وأنا ؟ مع من أبقى ، أأبقى وحيدا ؟ فيدورا تقول ان سعادتك هناك ! انها امرأة قاسية عنيفة ، انها لا تفكر الا في ضياعي • أأنت آتية الى الكنيسة لصلاة الغروب هذا المساء يا ماتوشكا ؟ سوف يطيب لي أن آتي لأراك هناك • ذلك صحيح كل الصحة يا ماتوشكا ، صادق كل الصدق : انت فتاة فاضلة الخلق ، حساسة الشعور مثقفة • ولكنني أرى أن زواجه بتاجرة موسكو خير له ••• ألا ترين هذا الرأي يا ماتوشكا ؟ ان من الأفضل أن يختار تلك التاجرة ، فليتزوجها اذن • سأثب اليك يا فارنكا الطيبة متى هبط المساء فأقضي عندك ساعة أو بعض ساعة • ان الغسق يهبط مبكرا في هذا الفصل • سأجيء اليك• أنت تنتظرين الآن بيكوف • فمتى انصرف ، سنرى ••• انتظري زيارتي يا فارنكا • سأجيء في هذا المساء •

ماكار ديفوشكين

٢٧ أيلول (سبتمبر)

صديقى العزيز ماكار ألكسييفتش !

يرى السيد بيكوف أن من الواجب حتما أن يكون عندى ثلاث دستات قمصان من الحرير الهولندى • فلا بد لنا اذن من خياطتين لتفصيل دستتين أخريين من القمصان ، لأنه لم يبق أمامنا الا وقت قصير • ان السيد بيكوف يستعجلنى نافدَ الصبر ، وهو يقول ان حكاية الحزن هذه قد طالت كثيرا • سيتم زواجنا بعد خمسة أيام ثم نسافر فى الغداة • ان السيد بيكوف يقول ان علينا أن نسرع ، ويقول ان علينا أن لا نضيع الوقت فى ترهات • أنا مهدودة القوى بسبب هذه الهموم • فلا أكاد أستطيع الوقوف على ساقى من الاجهاد • هناك أشياء كثيرة يجب أن أسويها ، أشياء كثيرة تغمرنى حتى الرأس ؛ وانى لأتساءل : ألم يكن من الأفضل أن أعدل عن هذه الحكاية كلها أساسا • بالمناسبة : ليس عندنا ما يكفى من النسيج المخرم والقماش الشبيك ، فيجب أن نشترى من هذين النوعين ، لأن السيد بيكوف يقول انه لا يطيق أن تكون ثياب زوجته كثياب طباخة ، وان علىَّ أن « أخرس جميع نساء المالكين فى الأراضى المجاورة لأراضيه » ، تلك هى كلماته • لذلك أرجوك يا ماكار ألكسييفتش أن تذهب الى مدام شيفون بشارع جوروخوفايا ، فتوصيها أولا بأن ترسل الينا خياطات ، وتوصيها ثانيا بأن تتكرم بالمجىء الىَّ • اننى متعبة اليوم • فالبرد شديد فى مسكننا ، وكل شىء فى البيت فوضى • ان عمة السيد بيكوف تبلغ من الشيخوخة والهرم انها لا تكاد تستطيع أن تتنفس • وأنا أخشى فى كل لحظة أن توافيها منيتها قبل سفرنا • ولكن السيد بيكوف يؤكد أن الامر بسيط ، وانها ستسترد قواها • كل ما فى البيت مقلوب رأسا على عقب • السيد بيكوف لا يعيش معنا ، حتى ان

الخدم يتغيبون كثيرا ، فلا أدرى أين يعثر المرء عليهم • وكثيرا ما يتفق أن لا يكون فى خدمتنا أحد غير فيدورا • أما وصيف السيد بيكوف الذى كان ينبغى أن يشرف على كل شىء ، فقد انصرف منذ ثلاثة أيام دون أن يقول شيئا • السيد بيكوف يزورنا كل صباح ، فما ينفك يلوم ويقرع ويؤنب ، حتى لقد أخذ بالأمس يضرب ناظر المبنى ضربا مبرحا نشأت عنه مصاعب مع الشرطة ••• لا أدرى بمن أستعين لايصال هذه الرسالة اليك ، لذلك أبعثها بواسطة البريد • ها ••• نعم ••• نسيت الشىء الأساسى : قل لمدام شيفون ان عليها حتما أن تبدل المخرمات وفقا للعينة التى درسناها أمس ، وأن تجىء بنفسها الىَّ لتريني اختيارا جديدا • قل لها أيضا اننى غيرت رأيى فيما يتعلق بالصدار ، فأنا أرى الآن أن يحاك بالابرة • ثم ان الأحرف الأولى من الاسم يجب أن تطرز فى المناديل على الطارة ، هل فهمت ما أقول ؟ على الطارة لا بالتقليب • انتبه الى ما أقول • اياك أن تنسى اننى أريد تطريزا على الطارة • ها ••• كدت أنسى أيضا : أوصها ، ناشدتك الله ، أن تخيط الأوراق عالية جدا على رداء الكتفين ، وأن تقويها بصفائح وأن تخيط الياقة بشبيك أو بتخريج عريض • لاتنس أن توصيها بهذا يا ماكار ألكسييفتش ، أرجوك •

صديقتك

ب•د

حاشية : يعذب ضميرى اننى أزعجك بهذه المهمات • لقد ظللت أول أمس تجوب المدينة طوال الصباح من أجلى • ولكن ماحيلتى؟ ليس فى منزلنا نظام ، وأنا نفسى مريضة • فلا تؤاخذنى يا ماكار ألكسييفتش • ما عسى يخرج من هذا كله ياصديقى

الشـــهم الطيب ماكار ألكسييفتش ؟ اننى أتهيب أن أسـأل المستقبل • اننى أوجس خيفة وأعيش فيما يشبه الضباب •

حاشـية : ناشدتك الله ياصديقى ، لا تنس شيئا مما عهدت به اليك• أخشى أن تخطىء أو أن تختلط عليك الأمور • تذكر جيدا : على الطارة لا بالتقليب •

ب٠د

٢٧ ايلول (سبتمبر)

المحترمة جدا فرفارا ألكسيفنا !

نفذت تنفيذا دقيقا جميع التوصيات التى كلفتنى بها • تدعى مدام شيفون انها فكرت من تلقاء نفسها فى التطريز على الطارة ، فذلك أليق ، اذا صح ما فهمته ، لأننى فى الواقع لا أعرف على وجه الدقة ماذا قالت لى فى هذا الموضوع • وهناك أيضا مسألة التخريج التى كتبت الىّ فيهـا • لقد كلمتنى هى أيضاً عن التخريج • ولكننى يا عزيزتى لا أستطيع أن أتذكر ما شرحته لى فى شأن التخريج هذا • كل ما يمكن أن أقوله هو انها أفاضت فى الكلام عليه وأسهبت •

امرأة عجيبة ، ما هـو الموضوع تماما ؟ على كل حال سـترددد على أسماعك ما قالته لى • يجب أن أعترف لك يا ماتوشكا اننى كالتائه • حتى لقد فوّت عملى اليوم • صدقينى يا عزيزتى اذا قلت لك انك مخطئة فيما تحسينه من حزن • ثقى أننى ، فى سبيل تهدئة خاطرك ، مستعد لأن

أجوب جميع مخازن المدينة • تقولين انك تخشين المستقبل • فلماذا هذه الخشية ما دمت ستعرفين كل شيء في الساعة السادسة من هذا المساء : سوف تجيئك مدام شيفون بنفسها • فلا تقلقي ، وأمّلي خيرا يا ماتوشكا • لسوف ترين ان جميع الأمور سترتب على أحسن وجه ، كما أقول لك• أما التخريج ، أما ذلك التخريج اللعين ، فسحقا للتخريج والتخريم والتطريز جميعا • كان يمكن أن أزورك يا ملاكي الرقيق ، كان يمكن أن أثب الى بيتك لحظة ، كان يمكن أن أجيء اليك حتما ••• حتى لقد دنوت من أبواب منزلك مرتين اثنتين •• ولكن هذا الرجل بيكوف ، عفوا ، أقصد السيد بيكوف متجهم الوجه جدا ••• لذلك لم أجازف••• ثم ماذا ؟

ماكار دييفوشكين

٢٨ أيلول (سبتمبر)

السيد العزيز ماكار الكسييفتش !

أتوسل اليك أن تركض فورا الى الصائغ ، فتقول له انني عدلت عن قرطي الأذنين اللذين أوصيته بصنعهما من لآلىء وزمرد • ان السيد بيكوف يرى ان هذا اسراف في البذخ ، وان الثمن باهظ خاصة • انه غضبان جدا • يقول اننا نبالغ في الانفاق ، واننا ننهبه نهبا • حتى لقد صرح أمس بأنه لو كان يتنبأ بجميع هذه المصاريف لتجنب ولوج هذا الطريق أساسا • وهو يقول اننا سنسافر فورا بعد الزفاف ، ولن يكون هنالك مدعوون ، ولا يجب أن أتوقع أن أرقص وأتسلى ، فما تزال أعياد

نهاية العام بعيدة • انظر كيف يتكلم ، والله يعلم مع ذلك هل كنت أنا في حاجة الى هذا كله ! ان السيد بيكوف نفسه هو الذى حرص على أن يوصى بها في البداية • ولست أستطيع أن أرد عليه بشيء ، لأنه سريع الغضب • ترى كيف ستكون حياتي ؟

ب•د

٢٨ ايلول (سبتمبر)

يمامتي فرفارا ألكسييفنا !

انني ـ أقصد ان الصائغ يقول انه قد نفذ أمرك • أما أنا فقد اردت أن أذكر لك في بداية هذه الرسالة انني مريض لا أستطيع أن أبارح سريري • لقد جاء المرض اللعين في غير أوانه ••• جاء في الوقت الذى يجب عليّ فيه أن أسوى أمورا كثيرة ••• في الوقت الذى أنت فيه محتاجة الى ، قاتل الله الزكام ••• يجب أن أخبرك أيضا أن خاتمه الرزايا ان صاحب السعادة رأى من اللازم اليوم أن يظهر شيئا من القسوة ، فصب غضبه الشديد على ايميليان ايفانوفتش ، وبلغ من ذلك أن قواه خارت أخيرا حتى تقطعت أنفاسه • مسكين ! هأنذا أخبرك بكل هذه المزعجات • وكنت أريد أن أبلغك شيئاً آخر ، ولكنني أخشى أن أزعجك وأعكر صفوك ، لأنني ، يا صديقتي ، لست الا رجلا بسيطا بغير ثقافة ، أكتب ما يخطر ببالي هكذا بغير تكلف • وقد تجدين هنا وهنالك ما ••• الخلاصة ••• ماذا بعد ؟

صديقك

ماكار دييفوشكين

٢٩ أيلول (سبتمبر)

فرفارا الكسييفنا ، صديقتي العزيزة !

رايت اليوم فيدورا ، يا يمامتي . قالت لى ان الزفاف سيتم غدا ، وانك مسافرة بعد غد ، وان السيد بيكوف قد هيأ الخيول . أما صاحب السعادة فقد حدثتك عنه في رسالتي الاخيرة . ها ... نعم ... لقد دققت فواتير مخزن شارع جوروخوفايا : الحسابات صحيحة ، ولكنني أرى أن الاسعار باهظة . لماذا يوجه اليك السيد بيكوف هذه الملامات ؟ كوني سعيدة يا ماتوشكا . أنا مغتبط لك ! نعم ! وسيبهجني دائما أن أعرف أنك سعيدة . كنت أود لو أجيء الى الكنيسة ، ولكن ذلك مستحيل ، لأنني أشعر بآلام في خاصرتي . أعود الى مسألة التراسل بيننا . ان هذه المسألة تقلقني وتقض مضجعي . من تُرى يتولى نقل رسائلنا يا ماتوشكا ؟ بالمناسبة ، لقد كنت كريمة جدا مع فيدورا يا صديقتي العزيزة . لقد أحسنت صنعا يا عزيزتي ، أحسنت جدا . ذلك منك عمل طيب خير ، وسيجزيك الله جزاء حسنا على جميع ما قدمت من خيرات وحسنات . ان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا . هذه عدالة الرب .. عاجلا أو آجلا . ماتوشكا ، هناك أمور كثيرة أود لو أكلمك فيها . انني أستطيع أن أكتب اليك كل ساعة بل كل دقيقة ، فأقص عليك كل شيء ، وأسر اليك بكل شيء . ما زلت محتفظا بكتابك (أقاصيص بيلكين) . لا تستردى مني هذا الكتاب يا ماتوشكا ! اهده الى يا يمامتي ! لا لأنني أشتهي قراءته كثيرا ، بل لأن الشتاء يدنو ، وليالى الشتاء طويلة كما تعلمين ، وسأشعر بسأم ، وقد أشعر بحزن ، فأتسلى عندئذ بقراءته . قررت يا ماتوشكا أن أترك غرفتي التي أسكنها ، وأن أنتقل الى بيتك القديم مستأجرا عند فيدورا . لن أرضى أن أنفصل عن هذه المرأة الشهمة بعد اليوم أبدا . ثم انها صاحبة همة ونشاط في العمل . لقد طفت أمس

بكل ركن من أركان بيتـك المهجـور المقفر ، أنعم النظـر فى كل شيء تفصيلا • ما يزال كل شيء في مكانه • منضدة الخياطة لم تتزحزح ، والشغل الذى كنت قد بدأته ما يزال عليها في زاوية الغرفة • نظرت فى الشيء الذى كنت تخيطينه • ان قصاصات من القماش مبعثرة هنا وهناك • كنت قد لففت خيطا على احدى رسائلى أيضا • وفى درج طاولتك عثرت على ورقة كتب عليها « السيد العزيز ماكار ألكسيفتش أسارع فـ ••• » ـ هذا كل ما كتب على الورقة • لا شك أن أحدا قطع عليك الكتابة فى أهم موضع • وفى ركن آخر وراء حاجز ، رأيت سريرك الصغير ••• أواه يا يمامتى ، أودعك الآن ، أودعك ! ••• ناشدتك الله ، أجيبى على رسالتى هذه ، أجيبى بأى شيء ، ولا تدعينى أنتظر طويلا •••

ماكار ديفوشكين

٣٠ أيلول (سبتمبر)

ماكار ألكسييفتش ، صديقي العزيز !

تحققت مشيئة الأقدار • تقرر مصيرى • أنا أجهل ما سيكون هـذا المصير • ولكننى أذعن لارادة الرب • سنسافر غدا • أودعك الآن آخر مرة يا صديقى العزيز ، يا من أحسنت الى وكنت لى بمثابة أب ! لا يؤلمنك سـفرى ! عش سعيدا • تذكرنى • أسأل الله أن يبـاركك وأن يكلأك برعايته • سأفكر فيك كثيرا ، كثيرا جدا ، وسأدعو لك فى صلواتى • لقد انتهت الآن ، انتهت تلك الفترة من حياتى • لست أحمل الى حيـاتى الجديدة كثيرا من الذكريات السعيدة • وهذا يجعل ذكرى ما صـنعته فى سبيلى أجمـل وقعا فى نفسى ، ويجعـل منزلتك فى قلبى أرفع مكانا

وأعظم شأنا • أنت صديقى الوحيد • انت وحدك أحببتنى هنا • لقد رأيت كل شيء ، وعرفت كم كنت تحبنى • كان يكفيك أن أبتسم حتى تصبح سعيدا • كان سطر واحد من رسائلى قادرا على أن يملأ نفسك فرحا • سيكون عليك الآن أن تتعود فراقى • ما عسى أن تكون حياتك المنعزلة بعدى ؟ من عسى يعتنى بك يا صديقى العزيز ، يا صديقى الوحيد ؟ أترك لك كتابى ، وأترك لك منضدة خياطتى ، وأترك لك الرسالة التى بدأت كتابتها ولم أكملها فوجدتها فى درجى • حين ستنظر الى هذه الاسطر التى لم تكمل ، سوف تستطيع أن تكملها بخيالك من عندك وان تضيف اليها كل ما كنت تود لو تقرؤه ، وكل ما كان يمكن أن أكتبه لك فى الواقع ، والله أعلم ماذا كنت أود لو أكتبه اليك اليوم ! ••• أذكر من حين الى حين صديقتك المسكينة فارنكا التى أحبتك كثيرا• رسائلك جميعها بقيت فى خزانة فيدورا ، بالدرج الأعلى • تقول انك مريض ، ولكن السيد بيكوف لا يريد أن أخرج الآن • سأكتب اليك يا صديقى ، أعدك بذلك • وأودعك اذن الى الأبد يا صديقى ، ياصديقى العزيز ، يا أخى ، الى الأبد ، ••• آه ••• ما أكثر ما كان يمكن أن أقبلك فى هذه اللحظة ! وداعا يا صديقى ، وداعا ، وداعا ، كن سعيدا ، وأسأل الله لك العافية • سأظل أدعو لك ما حييت • ما أشد حزنى فى هذه اللحظة ! ما أثقل الحمل الذى أحسه جاثما على صدرى • السيد بيكوف ينادينى •

صديقتك التى ستحبك دائما

ب•د

حاشية : روحي تفيض حـــزنا ، نفسي تطفح دموعا ... النحيب الذي
أكتمه في صــدري يخنقني خنقا . وداعا . رباه ! ما أقسى
الفراق ! لا تنس أبدا صديقتك الشقية فارنكا !

فارنكا ، عزيزتي ماتوشكا ، يمامتي ، معبودتي فارنكا !

لقد أخذوك وسوف تسافرين . لو انتزعوا قلبي من صدري لكان ذلك أهون عليّ من بعدك عني . كيف أمكن هذا ؟ انظري : انك تبكين، ومع ذلك سوف تسافرين . لقد استلمت رسالة منك منذ هنيهة ، رسالة مبللة بالدموع ! معنى هذا انك لا تحبين أن تسافري ، معنى هــذا أنهم يأخذونك عنوة . معنى هذا انك ترحمينني وتشفقين على ! معنى هـــذا انك تحبينني ! كيف ستعيشين الآن ومع من ؟ لسوف يذوب قلبك الصغير هنالك حزنا وضجرا وشعورا بالعزلة الروحية . لسوف تهد الكآبة قلبك الصغير هدا ، ولسوف يحطمه الأسى تحطيما . سوف تموتين ، وسوف يدفنونك عندئذ في تلك الارض الرطبة الباردة من ذلك المكان النــائي الغريب ، ولن يكون ثمة أحد يبكيك . السيد بيكوف لن يتســع وقتـه للبكاء . السيد بيكوف لن يفكر الا في صيد الارانب . أواه يا ماتوشكا ! أواه يا ماتوشكا ! لماذا اتخذت ذلك القرار ؟ كيف أمكن أن تعزمي على هذا الامر ؟ ماذا صنعت بنفسك ، ماذا صنعت بنفسك ؟ ماهذا الذي جنيته على نفسك ؟ ان القبر هو ما ستجدينه عندهم ، سوف يميتونك يا ملاكي الرقيق ! ... ذلك ان جسمك ضعيف واهن يا ماتوشكا ! أين كنت أنا الأحمق في هذه الآونة ؟ أين كانت عيناى ؟ انني بدلا من أن أعارض معارضة حاسمة ... نعم .... بدلا من ذلك كنت أبله لا يفكر ، وأعمى

لا يرى ••• كأن كل ما حدث كان عدلا لا اعتراض عليه وضرورة لا مناص منها ، وكأن ذلك كله لا يعنيني في شيء ! وكنت أثناء ذلك أذهب وأجيء هنا وهناك بحثا عن تخريمة أو تخريجة ••• لا يا ماتوشكا ، لا ، لن أسمح بهذا ، سوف أنهض من سريري • قد أبل من مرض غدا ، فأستطيع أن اخرج ••• فألقى بنفسى تحت عجلات العربة ، ولا أدعك تسافرين • هلا فكرت في الامر قليلا ؟ بأى حق ، بأى حق يفعلون هذا ؟ سأسافر معك ، سأركض وراء العربة اذا رفضت أن تأخذيني ، سأظل أركض وراء العربة الى أن ألفظ آخر أنفاسي وتزهق روحى • هل تتصورين ماذا ينتظرك هنالك ، ماذا ينتظرك في ذلك المكان الذى تسافرين اليه يا ماتوشكا ؟ اذا كنت تجهلين ماذا ينتظرك ، فاسأليني أنا • أنا أعرف• لن ترى من حولك الا فيافي مقفرة يا صديقتي ، الا فيافي مقفرة ، وسهولا جرداء ممتدة الى غير نهاية ، وأرضا عارية كراحة الكف • الفلاحات اللائى يعشن في تلك البلاد قاسيات القلوب ، لا حس لهن ولا شعور • والفلاحون غلاظ جفاة سكارى في كل لحظة • الاشـجار ذهبت عنها أوراقها في هذا الفصل ، والسماء ممطرة ، والبرد قارص ، فهل الى هذا المكان تسافرين ؟ للسيد بيكوف أن يسافر اذا شاء • فان له هنالك ما يشغله • سوف يعيش مع أرانبه • أما أنت ، أنت ، فما عساك تفعلين ؟ لن يكون لك هناك من دور الا دور زوجة مالك كبير يا ماتوشكا ؟ فانظرى الى نفسك : أأنت امرأة من هذا النوع ؟ ••• كيف أمكن أن يقع هذا كله يا فارنكا ؟ الى من عساني أكتب الآن يا ماتوشـكا ؟ هل ألقيت على نفسك هذا السؤال يا ماتوشكا : « الى من سيرسل رسائل بعد الآن ؟ » من ذا الذى سأناديه هاتفاً ماتوشكا ؟ على من سأطلق هـذا الاسم العـذب الرقيق ؟ وأين عسى أراك بعد ذلك يا ملاكى الجميل ؟ لسوف يميتنى هذا يا فارنكا ، سوف يميتنى حتما ، لن يحتمل قلبى عذابا كبيرا كهذا

العذاب • لقد أحببتك أكثر من ضوء النهار ، أحببتك كما لو كنت ابنتي، أحببت فيك كل شيء يا ماتوشكا ، ومن أجلك انما كنت أعيش على كل حال ، من أجلك أنت وحدك • كنت أعمل ، وأنسخ وثائق ، وأمشي ، وأتنزه ، وأكتب مشاعري على الورق رسائل صداقية ، كل ذلك لأنك كنت تسكنين قبالتي على مقربة مني • لعلك تجهلين هذا ، ولكن الامر كان كذلك • ولكن لا ، اصغي الي يا ماتوشكا ، فكري قليلا يا يمامتي : كيف يمكنك أن تسافري ، كيف يمكنك أن تتركينا ؟ مستحيل هذا ياصديقتي، مستحيل هذا يا صديقتي ، مستحيل هذا ، لست قادرة على القيام بهذه الرحلة • لا تستطيعين أن تقومي بها ، مستحيل ••• يجب استبعاد هذا الامر ••• يجب استبعاده استبعادا كاملا • المطر ينهمر الان ، وأنت ضعيفة واهنة ، وستصابين ببرد ، سوف تتبلل عربتك ، وسوف ترشح الى داخلها مياه الأمطار • هذا أكيد • ثم انها ستتحطم ، هذه العربة ، متى اجتزتم المدينة الى الضواحي • ستتحطم حتما • أأنت تجهلين ان العربات التي تبنى الآن في بطرسبرج متداعية الهياكل ؟ انني أعرف هؤلاء الذين يصنعون العربات : يكفيهم أن تكون المركبة جميلة المنظر ، وأن تشبه دمية حلوة المظهر ، ولا يعنيهم بعد ذلك أن تكون متينة أو متهالكة • يمينا انها تتحطم لأيسر سبب • سوف أركع أمام السيد بيكوف يا ماتوشكا ، فأبين له ذلك ، وأبرهن له عليه • وأنت أيضا يا ماتوشكا ، سوف تبرهنين له على ذلك ، سوف تشرحين له بحجج معقولة دامغة حاسمة ان عليك أن تبقي هنا ، وان من المستحيل عليك أن تسافري • لماذا لم يتزوج تلك المرأة ، تاجرة موسكو ؟ لقد كان من الأفضل أن يتخذها امرأة له • ان تاجرة خير له منك • ذلك أحسن له كثيرا • أنا أعرف هذا ، أعرفه حق المعرفة ، وأعرف لماذا ! أما أنت فكان يمكن أن أحتفظ بك هنا قريبة مني • ما هو عندك بيكوف هذا ؟ ما الذي أرضاك فيه على حين فجأة ؟

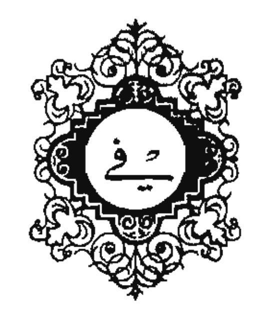
ألأنه اشترى لك كل ذلك التخريج ؟ أيكون هـذا هو السبب ؟ ولـكن ما قيمة التخريج ؟ ما نفع التخريج ؟ ذلك كله ترهات يا ماتوشكا ... الأمر أمر حياة انسان يا ماتوشكا ! أما التخاريم فما هى الا خـرق حقيرة يا ماتوشكا ، تلك هى التخاريم : خرق لا أكثر . اننى أنا أيضا ، أنا نفسى ، سأشترى لك تخاريم . سأشترى لك تخاريم متى قبضت راتبى . نعم نعم سأشترى لك تخاريم . اننى أعرف مخزنا تباع فيه التخاريم . انتظرى حتى أقبض راتبى فقط يا ماتوشكا ، يا طفلتى المعبودة ! رباه رباه ! أأنت مصرة قطعا على السـفر مع بيكوف الى الفيافى ؟ هـل قررت قرارا لا عودة عنه ، أن تسافرى بغير رجعة ؟ آه يا ماتوشكا ! لا ... لا ... سوف تكتبين الىّ : سوف تبعثين الىّ رسالة تصفين لى فيها كل شىء تفصيلا ... وحين ستكونين بعيدة ، ستكتبين الىّ من هنالك أيضا . والا ، يا ملاكى الصغير المشع المشرق ، فان هذه الرسالة ستكون الاخيرة ... مستحيل ، لماذا تكون الاخيرة ؟ لماذا هذه الرسالة بعينها ؟ أهكذا ، فجأة؟ لا ... لا ... سوف أكتب اليك أيضا ، وسوف تكتبين الىّ أنت كذلك ... هل تلاحظين ان أسلوبى أخذ يتحسن ؟ آه يا صديقتى ، اننى لا أعبأ بالأسلوب ، لا أحفل به ! فى هذه اللحظة نفسها ، أصبحت لا أعرف ماذا أكتب ، نعم أصبحت لا أعرف ماذا أكتب ، وأنا لا أعيد قراءة ما أكتب ، ولا أصحح عباراتى ولا أنقحها . وانما أكتب لأكتب فحسب ، لأحدثك أطول مدة ... آه يا يمامتى ، يا بنيتى ، يا ماتوشكا ....

المثل

١٨٤٦

« المثل » (Dvoinik) ،
كتبت هذه الرواية سنة ١٨٤٤ ـ
١٨٤٥ ، ونشرت سنة ١٨٤٦ فى
« حوليات الوطن » ، المجلد ٤٦ ،
فى شهر شباط (فبراير) ١٨٤٦

الفصل الأول



نحو الساعة الثامنة استيقظ ياكوف بتروفتش جولدياكين ، الكاتب في احدى الادارات الحكومية، بعد نوم طويل . فتثاءب ، وتمطى ، ثم فتح عينيه تماما اخر الأمر . ومع ذلك ظل مستلقيا على فراشه دقيقتين ، ساكنا لا يتحرك ، وكأنه لا يعلم علم اليقين اهو استيقظ حقا أم هو لا يزال نائما ، ولا يعلم علم اليقين أكل مايراه حوله هو جزء من العالم الواقعي ام هو امتداد الرؤى المضطربة التي رآها في حلم .

غير أن حواس السيد جوليادكين أخذت تستوعب شيئا فشيئا، بمزيد من الدقة والحدة ، مجال ادراكاته المألوفة . فها هو ذا يرى ما ألف أن يراه من نظرات محدقة اليه : نظرات جدران الغرفة التي يغشاها الغبار والدخان ، ويميل لونها الى خضرة متسخة ، ونظرات منضدته المصنوعة من خشب الأكاجو ، ونظرات كراسيه التي هي تقليد لكراسي خشب الأكاجو ، ونظرات منضدته المصبوغة باللون الأحمر وديوانه التركي

المغطى بقماش مشمع يضرب لونه الى حمرة وتزينه زهيرات خضراء ؛ ونظرات ثيابه التى خلعها بالأمس على عجل ورماها على الديوان كتلا مكورة • وها هو ذا يرى آخر الأمر ، من خلال نافذته ، نظرة حزينة كابية يلقيها عليه نهار عكر حائل اللون من نهر الخريف ، فتثقل هذه النظرة على صدره : ان فى هذه النظرة كثيرا من العبوس ، وان فى التقطيب الذى يصاحبها كثيرا من الحدة والشراسة ، فلم يبق فى ذهن السيد جوليادكين أى شك : ليس هو الآن فى عالم محدد من عوالم الرؤى والأحلام ، بل هو حقا فى العاصمة ، فى مدينة سان بطرسبرج ، فى شارع « الدكاكين الستة » ، فى مسكنه بالطابق الثالث من عمارة كبيرة• فلما اكتشف السيد جوليادكين هذا الاكتشاف الهام ، عاد يغمض عينيه ، كأنه يأسف على رؤى حلمه الأخير ويتمنى أن يرتد اليها ولو لحظة • ومع ذلك لم يلبث أن وثب عن سريره بعد هنيهة ، ربما لأنه اهتدى الى الفكرة المركزية التى كانت تدور حولها تهاويل فكره مضطربة مشوشة حتى ذلك الحين • وسرعان ما هرع نحو مرآة صغيرة مستديرة كانت موضوعة على المنضدة • ان الوجه الذى يتراءى فى المرآة رث بعض الرثاثة ، وعيناه اللتان تشبهان أن تكونا مغمضتين قد تورمتا من النوم • انه وجه من تلك الوجوه التى ليس لها طابع يميزها ، فلا يمكن أن تلفت النظر من أول وهلة • ومع ذلك فقد بدا على صاحب الوجه أنه راض عنه كل الرضا بعد أن تفرس فيه •

قال السيد جوليادكين بصوت خافت : « الحمد لله ! لو قد حدث لى شىء فى هذا الصباح ، لو قد وقع لى ما يزعج ، كأن تنبت فى أنفى دمل أو شىء من هذا القبيل ، اذن لكانت قصة سخيفة ••• ما ينبغى التشكى• ليس هنالك دمامة ؟ وكل شىء يجرى على خير ما يُشتهى حتى الآن » •

ابتهج السيد جولیادکین من حسن سير أموره ، فأعاد المرآة الى مكانها المالوف • ورغم أنه حافى القدمين ، ورغم أنه ما يزال فى ملابس الليل ، هرع نحو نافذة غرفته التى تطل على فناء العمارة ، وأخذ ينظر الى ما يجرى فيها ، بكثير من الاهتمام •

وقد لاح أنه راض كل الرضى عما رأى ، فقد أشرق وجهه بابتسامة غبطة • ثم اقترب من المائدة على رءوس الأصابع • وبعد أن ألقى نظرة على ما وراء الحاجز ، حيث يوجد مخدع خادمه بتروشكا ، فتاكد أن بتروشكا ليس هناك ، فتح أحد أدراج المائدة ، ومدّ يديه الى أعماقه ، فأخرج من تحت كومة من الأوراق المصفرة المتسخة محفظة خضراء اللون بالية بعض البلى ، وفتحها بكثير من الحذر والتأنى وألقى نظرة عجلى على جيبها الخفى • لا بد أن كدسة الأوراق النقدية الخضراء والشهباء والزرقاء والمتعددة الألوان ، قد أنعش منظرها نفس السيد جولیادکین ، اذا صدق ما ارتسم على وجهه من معنى حين وضع المحفظة مفضوضة على المائدة • وها هو ذا يفرك يديه منشرح القلب فرحا أشد الفرح •

وأخيرا أخرج كدسة الأوراق النقدية هذه التى كانت له موضوع آمال خفية كثيرة ، فأخذ يعدها مرة أخرى ، بعد أن عدها قرابة مائة مرة منذ أمس ، جاسا كل ورقة منها بالابهام والسبابة فى كثير من الجد والاجتهاد •

وتمتم يقول بعد أن فرغ من حسابها : « سبعمائة وخمسين روبلا ، أوراقا نقدية ••• يميناً انه لمبلغ عظيم ••• مبلغ جميل ممتع » • كذلك تابع يقول بصوت مرتجف يكسره انفعال اللذة ، قابضا على الكدسة بيديه ، مبتسما ابتسامة الجد والوقار « نعم ، مبلغ جميل جدا ••• مبلغ يسر له قلب كل انسان • وددت لو أرى انسانا يحسب مثل هذا المبلغ

تافها ، فى هذه اللحظة ! ان مبلغا كهذا يمكن أن يمضى بالمرء بعيـــدا بعيدا ... »

« ولكن ماذا جرى ؟ أين ذهب بتروشكا اللعين » . كذلك تساءل السيد جوليادكين ، ثم مضى بملابسه تلك نفسها يلقى نظرة على ما وراء الحاجز مرة أخرى . ليس بتروشكا هناك . ولكن ، فى مقابل ذلك ، ها هو ذا السماور الموضوع على الأرض ، المهجور ، يغلى غضبا ويهـدد فى كل لحظة بأن يطفح ، حتى لكأنه يريد أن يقول للسيد جولياد كين ، بلغته السرية اللثغاء الموشوشة ، شيئا من هـــذا القبيل : « هـلا تناولتنى يا سيدى الشهم . أنا مستعد . أنا مستعد كل الاستعداد » . قال السيد جولياد كين لنفسه : « لعنه الله ... هـذا الكسلان ، هـذا الأحمق الذى يثير الحنق . أين ذهب يتسكع ؟ » .

استاء السيد جولدياد كين استياء له ما يسوغه ، فمضى الى حجـرة المدخل ، وهى ممر بسيط صغير ينتهى بباب يطل على السلم ، فشق الباب فرأى خادمه عندئذ وقد أحاط به جماعة من سكان المنزل وأناس ممن يضيعون وقتهم فى الثرثرة . كان بتروشكا يقص عليهم حكاية وكانوا هم يصغون اليه . ولا بد أن الموضوع الذى كان يجرى عليه الحديث ، بل وجريان هذا الحديث أصلا ، لم يعجبا السيد جولياد كين قط ، لأنه سرعان ما نادى بتروشكا وعاد الى غـرفته مستاء استياء شـديدا بل قولوا غاضبا حانقا . قال لنفسه : « ان هذا الوغد لا يتورع أن يبيع انسانا فى سبيل كوبك واحد ، ولا سيما مولاه ... وقد فعل ذلك وانتهى الأمر ... باعنى ... أراهن على أنه باعنى بأقل من كوبك » .

سأل السيد جولياد كين خادمه :

ــ ماذا هناك ؟

ـ جيء بالبذلة يا سيدى •

ـ البسها وتعال •

ارتدى بتروشكا بذلته ودخل غرفة مولاه مبتسما ابتسامة بلهاء • كانت بذلته غريبة الى أبعد حدود الغرابة • انها البذلة العادية التى يلبسها الحجاب ، ولكنها مهترئة كثيرا ، خضراء اللون ذات شرائط مذهبة ، قد تنسلت خيطانها ، وبدا واضحا انها فصلت لرجل أطول من بتروشكا بنصف متر •

وكان بتروشكا يحمل بيده قبعة مزدانة بشرائط مذهبة وريش خضراء • وعلى فخذه يتدلى سيف له غمد من جلد • ويجب أن نذكر، اكمالا للوحة ، أن بتروشكا ، على عادته الراسخة المتأصلة ، وهى عادة التجول بملابس المنزل التى تستحق أن توصف بأنها أكثر من مهملة ، كان حافى القدمين •

فتش السيد جوليادكين خادمه من جميع النواحى ، فبدا راضيا عن هذا التفتيش • واضح أن البذلة قد استؤجرت لمناسبة ذات أبهة • ومن جهة أخرى كان بتروشكا ، أثناء هذا التفتيش ، يتابع بكثير من الانتباه ، كل حركة من حركات مولاه ، دالا على استطلاع شديد واهتمام غريب ينبىء بنفاد الصبر ، ولا شك فى أن هذا قد أربك السيد جوليادكين كثيرا •

ـ طيب • والعربة ؟

ـ العربة وصلت أيضا •

ـ للنهار كله ؟

ـ نعم للنهار كله • خمسة وعشرون روبلا •

ـ هل حذاءاى موجودان أيضا ؟

ـ نعم •

ـ يا أبله ! ألا تستطيع أن تتكلم بأدب ؟ ألا تستطيع أن تقول : نعم سيدى ؟ هات الحذاءين ••

لاح على السيد جـولیادکین أنه مبتهج أشـد الابتهاج بحذاءيه الجديدين • وأمر لنفسه بعد ذلك بشاى ، وطلب الى بتروشكا أن يعد له ما يجب اعداده للاغتسال والحلاقة • وأنفق فى الحلاقة وقتا طويلا ، ثم أنفق فى الاغتسال وقتا أطول ، واحتسى الشاى على عجل ، من أجل أن يفرغ بعد ذلك للمهمة الكبرى ألا وهى الباس شخصه • ارتدى سرواليه اللذين يشبهان أن يكونا جـديدين ، ولبس قميصـا ذا أزرار مذهبة ، وصديرة تزينها أزهار جميلة زاهية الألوان ، وعقد على عنقه ربطة من حرير مبرقش ، ثم ارتدى ردنجوته ، الجـديد أيضـا ، الذى أحسن تنفيضه بالفرشاة •

وكان وهو يرتدى ثيابه ما ينفك يلقي على حـذاءيه نظـرات حب وحنان • فهو فى كل لحظة يرفع هذا أو ذاك منهما ليعجب بشكله، مدمدما بين أسنانه بكلام متصل لا يتوقف ، ومضيفا الى هذا الحديث الداخلى من حين الى حين علامات فى وجهه تفيض رضى •

يجب أن نقول مع ذلك ان السيد جوليادكين كان فى ذلك الصباح ذاهلا بعض الذهول ولا شك ، لأن البسمات وحركات الوجه التى كان يرشقه بها بتروشكا وهـو يساعده فى ارتداء ثيـابه قد غابت عن انتباهه تماما • حتى اذا فرغ من ملبسه من القدمين الى الرأس ، وبعد أن أصلح زيه دون أن يغفل عن أيسر التفاصيل ، وضع محفظة نقوده فى جيب

ردنجوته • وكان بتروشكا أثناء ذلك قد دس قدميه فى حذاءيه وأصبح على أتم تهيؤ •

فلما تأكد السيد جوليادكين من أن جميع الاعدادات قد تمت ، وأنه لا شيء يوجب أن يبقيا فى الغرفة بعد ذلك ، خرج يهبط السلم بخطى محمومة سريعة ، وقلبه يخفق خفقانا شديدا من فرط الانفعال •

وتقدمت نحو باب المبنى عربة زرقاء مزدانة بأشعرة الشرف والنسب، محدثة ضجة كبيرة • تبادل بتروشكا بضع غمزات متواطئة مع الحوذى ومع المتسكعين الذين كانوا هنالك ، وهو يساعد مولاه فى ركوب العربة؛ ثم صاح بالحوذى ، وهو لا يكاد يستطيع حبس ضحكة بلهاء ، قائلا له : « هيا » ، ووثب يستقر على الدكة فى خلف • تحركت العربة وسط هدير الجلاجل وزمزمات العجلات متجهة نحو شارع نفسكى • فما ان تجاوزت العربة الزرقاء باب المنزل حتى أخذ السيد جوليادكين يفرك يديه بحركات متشنجة ، وحتى أفلتت منه ضحكة طويلة صامتة هى ضحكة رجل ذى مزاج مرح استطاع أن ينجح فى تدبير مكيدة موفقة ، فهو مبتهج بذلك من أعماق قلبه •

غير أن اندفاعة الفرح هذه قد انتهت بسرعة ، وظهر على وجه السيد جوليادكين تعبير غريب يفيض قلقا •

وها هو ذا ، رغم رطوبة الجو ورغم الضباب ، ينزل زجاج الباب، ويأخذ يتفرس المارة على جانبى الطريق وقد بان فى وجهه الهم • ولكنه ما ان أحس أن الناس يلاحظونه حتى اصطنع هيئة الثقة بالنفس وتقنع بمظهر الوقار • فلما وصل الى ملتقى شارع ليتانيايا وشارع نفسكى أحس بقشعريرة لعل سببها أن يكون احساسا مزعجا ، فاذا بوجهه يتصعر تصعر وجه رجل شقى داس أحد الناس على دمل فى قدمه سهوا ، ثم اذا

هو يرتمي الى أبعد ركن مظلم من العربة بحركة مباغتة تشبه أن تكون خائفة جزعة •

ذلك أن السيد جوليادكين قد رأى اثنين من زملائه هما موظفان شابان يعملان فى الدائرة التى يعمل هو فيها •

وقد أحس السيد جوليادكين احساسا واضحا بأن زميليه قد دهشا هما أيضا دهشة شديدة من الالتقاء بزميلهما فى ظروف كهذه الظروف، فهذا أحدهما يشير الى السيد جولياد كين بيده • وقد بدا للسيد جولياد كين أيضا أنه يسمع الآخر يناديه باسمه بصوت عال ، وذلك أمر لا محل له فى الشارع طبعا •

بقى صاحبنا فى ركن العربة دون أن يجيب • قال لنفسه : « يالهم من صبية صغار ! أى عجب فى هذا كله • رجل فى عربة ، فأى عجب فى هذا ؟ رجل فى حاجة الى الذهاب بعـربة ، فذهب بعربة ••• أمر بسيط ••• حقا انهم لمزبلة ، هؤلاء الصبية ••• أنا أعرفهم ••• صبية يستحقون السوط . كل ما يهمهم هو أن يقبضوا أجورهم ويتجولوا هنا وهناك • لو كان الامر بيدى لوضعتهم حيث يجب أن يكونوا ، ولكن حتى يكون لهذا نفع •••

ولم يكمل السيد جولياد كين جملته ••• فانه قد ذعر حتى كاد يموت ذعرا حين رأى عربة فخمة تمر على يمين عربته ، يجرها حصانان من قازان ، وقد ألف أن يراها • ان الشخص الجالس فى هذه العـربة قد لمح وجه السيد جولياد كين الذى كان فى تلك اللحظة قد أخرج رأسه من باب العربة طيشا • فبـدا على السيد أنه دهش دهشـة كبيرة لهذه المصادفة التى لم تكن فى الحسبان ، فمال ما استطاع الميل وأخذ يتفحص

بكثير من الاستطلاع والانتباه الركن الذى أسرع صاحبنا يقبع فيه من العربة •

كان هذا السيد هو اندره فيليبوفتش ، الرئيس الادارى للقسم الذى يعمل فيه جوليادكين مساعدا لمدير المكتب • فلما رأى جوليادكين أن آندره فيليبوفتش قد عرفه تماما وأنه يتفرس فيه بكل عينيه ، ولما أدرك من جهة أخرى أنه لا يستطيع الاختباء احمر احمرارا شديدا حتى الأذنين • قال فى نفسه : « أيجب علىّ أن أحييه ، أن أرد على علائم الاهتمام التى يبديها ، أن أكشف له عن نفسى ••• أم الأفضل أن أتظاهر بأننى لست أنا بل شخص آخر يشبهنى شبها قويا ، وفى هذه الحالة أنظر اليه كأن لم يكن شىء ؟ ••• » • ان السيد جوليادكين ما ينفك يلقى على نفسه هذه الأسئلة وقد تملكه ذعر لا يوصف • انه يدمدم قائلا : « نعم نعم ، لست أنا ، طبعا ، لست أنا » ، نازعا قبعته أمام آندره فيليبوفتش ناظرا اليه لا يحول بصره عنه ؛ وهو يتمتم بصوت يشبه أن يكون مختنقا: « أنا ، أنا ، ما أنا ، لا شىء ، يميناً لست أنا ، لست أنا حتما » • ولكن العربة الفخمة كانت قد تجاوزت عربة السيد جوليادكين ، وكانت الجاذبية المغناطيسية فى نظرة رئيس السيد جوليادكين قد غابت • ومع ذلك فان جوليادكين الذى ما يزال أحمر الوجه مبتسما ، ظل يدمدم ••• وقال لنفسه أخيرا :

« ما كان أغبانى حين تظاهرت بأننى لم أعرفه ••• كان يجب علىّ أن أحييه ، نعم ، أن أحييه صراحة ، من مستوى واحد ، بل بشىء من الرفعة والنبل •• تحية يمكن أن تقول له : « نعم يا آندره فيليبوفتش ، أنا أيضا مدعو الى العشاء ••• الأمر بسيط جدا كما ترى » • وتعاوده ذكرى غلطته ، فيحترق شعورا بالخجل والعار ، ويقطب حاجبيه ، وينظر

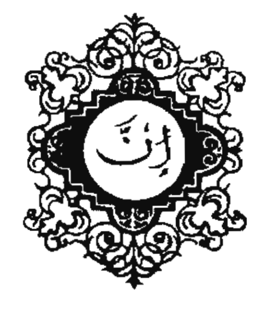
الى مقدمة العربة كأنه يلتهمها بنظراته التهاما ، حتى ليحس من يراه
يريد أن يسحق بهذه النظرات جميع أعدائه وأن يحيلهم الى رماد
وأوحى اليه بفكرة على حين فجأة ، فها هو ذا يشد الحبل المثبت فى كو
الحوذى ، فيأمر الحوذى بوقف العربة والعـــودة القهقـرى الى شار
ليتاينايا • وكان سبب هذه الرجعة بسيطا : فقد شعر جولیادکین فى تل
اللحظة برغبة لا سبيل الى مقاومتها في أن يبوح بشيء هام جدا لطبيب
كريستيان ايفانوفتش • وهو على كل حال لا يعرف طبيبه هذا الا منـ
زمن قصير جدا ، أو قل اذا شئت الدقة انه لم يره الا مرة واحدة ، وذا
فى الاسبوع الماضى • لقد استشاره يومئذ فى أمر طبى تافه • « ولـ
ألا يشبه الطبيب الكاهن من حيث أن على المرء أن يعترف له بكل شي
ان من الحماقة أن يخفى المرء عن طبيبـه أى شيء (كذلك كان بطلنـ
يقول لنفسه وهو يخرج من العربة أمام مدخل منزل مؤلف من خمسـ
طوابق بشارع ليتاينايا) « نعم ••• هو كذلك ••• أليس الأمر كذلك
هل الآمر كذلك ؟ هل يجوز هذا ؟ هل هذا مناسب ؟ ولكن ••• أى ضـ
فى هذا ؟ » • هكذا استمر جوليادكين يدمدم وهو يصعد السلم متقط
الأنفاس لا يستطيع أن يهدىء دقات قلبه الا بكثير من العناء ، وهو قا
ألف أن يدق دقا قويا جدا متى كان بطلنا يصعد الى أحد الناس •» نعم
[illegible] ؟ أنا آت اليه من أجل صحتى • لا لوم علىّ فى هذا
أكون غبيا اذا أخفيت عنه • سأتظاهر بأننى جئت اليه عابرا ••• وسو
يرى ما هو الأمر » • وفيما كان جوليادكين يفكر هذا التفكير وصـل ا
الطابق الثانى ووقف أمام باب الشقة رقم ٥ : هذه لوحة جميلة من نحا
قد نقش عليها :

كريستيان ايفانوفتش روتنشبيتس

دكتور فى الطب والجراحة

واستفاد بطلنا من زمن التوقف هذا ليشكل لنفسه وجها باشا ، هاشا ، بل ولطيفا محببا • وهم أن يشد حبل الجرس • غير أن فكرة برقت في ذهنه في هذه اللحظة نفسها، وهي فكرة في محلها جدا على كل حال • أليس من الأفضل تأجيل زيارته الى الغد ؟ ما من حاجة اليها في هذا اليوم نفسه في الواقع ••• ولكنه سمع وقع خطوات على السلم فجأة ، فاذا هو ينفذ نقيض ما نواه ، فيدق جرس كريستيان ايفانوفتش ، وقد بدا في وجهه العزم والتصميم •

الفصل الثاني



كريستيان ايفانوفتش روتنشبتس ، الدكتور في الطب والجراحة ، رجل قوى البنية جيد الصحة وان يكن متقدما في السن . ان حاجبيه الكثيفين ولحيتي وجنتيه قد أخذت تشيب . وان نظرة عينيه المعبرتين الساطعتين تبدو قادرة وحدها على أن تستأصل جميع الامراض . وهو يحمل على صدره وساما رفيعا . كان في ذلك الصباح جالسا على مقعد مريح في مكتبه يشرب فنجانا من القهوة جاءته به امرأته ، ويحرر في الوقت نفسه وصفات لمرضاه . لقد أمر منذ هنيهة بمرهم لرجل عجوز يعاني من البواسير ، فبعد أن شيعه حتى الباب ، عاد يجلس على مقعده منتظرا الزيارة القادمة . وفي تلك اللحظة انما دخل عليه السيد جوليادكين . ان كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن كريستيان ايفانوفتش لم يكن يتوقع هذه الزيارة قط ، بل وأنه لم يكن يرغب أبدا في رؤية السيد جوليادكين أمامه ، فهذا ما يدل عليه الاضطراب المفاجيء الذى ظهر فيه ، والتعبير

الغريب بل الغاضب الذى لاح فى وجهه • والسيد جولیادکین ، من جهته ، يشعر دائما بكثير من الضيق والحرج حين يكون عليه أن يواجه أحد الناس وأن يحدثه فى شئونه • واذ لم يتسع وقته لتحضير مقدمة يبدأ بها كلامه ـ وذلك يشكل عنده عقبة كبيرة دائما ـ فقد اضطربت حاله فدمدم ببضع كلمات مشوشة يعتذر بها عن مجيئه ؛ ولم يعرف بعد ذلك أى وضع يتخذ ، فجلس على كرسى ، ولكنه لم يلبث أن لاحظ أن أحدا لم يدعه الى الجلوس ، فشعر بأن عمله غير لائق ، فأراد أن يصلح ما اقترف من مخالفة للآداب الاجتماعية ، فأسرع ينهض عن الكرسى المغتصب ، ويقف على قدميه ؛ ثم ثاب الى رشده فشعر مضطربا بأنه قد ارتكب غلطتين متلاحقتين فاندفع يرتكب غلطة ثالثة • وأملا فى تبرير نفسه أخذ يجمجم بأقوال غير مفهومة تصاحبها ابتسامة شاحبة • وأخيرا احمر وجهه احمرارا شديدا ، واضطرب اضطرابا كبيرا ، فصمت ، وعاد الى مكانه على الكرسى ثم لم ينهض عنه • ومع ذلك فانه من أجل أن يسترد ثقته بنفسه لم ينس أن يرشق صاحبه بنظرة من تلك النظرات الثاقبة التى تمتاز بمزية خارقة هى أنها تسحق جميع أعدائه وتحيلهم رمادا • وفوق هذا ، فقد كانت تلك النظرة تدل على استقلال بطلنا استقلالا كاملا ، فهى تؤكد تأكيدا فصيحا أن السيد جولیادکین انسان سوى ، أنه رجل عادى ، كسائر الناس ، راض عن مصيره ولا يطلب المزيد •

تنحنح كريستيان ايفانوفتش ، علامة الاستحسان لسلوك بطلنا ، ثم حدق اليه بنظرة فاحصة • فقال جولیادکین مبتسما : « انما جئت يا كريستيان ايفانوفتش أطلب منك رحابة الصدر مرة أخرى •••

كان واضحا أن السيد جولیادکین يجد مشقة فى الاهتداء الى كلماته •••

قال كريستيان ايفانوفتش وهو ينفث نفثة كثيفة من الدخان ويضع سيجاره على المائدة :

ـ همم ••• نعم نعم ••• عليك مع ذلك أن تواظب على استعمال الدواء الذي وصفته لك • ولقد سبق أن اوضحت لك ان علاجك انما يكون بتغيير عاداتك ••• أنت في حاجة الى تسليات تسري عنك • أنت في حاجة الى أصدقاء تتردد اليهم ••• أنت في حاجة الى معاشرة الناس ومخالطة المجتمع • وعليك في الوقت نفسه أن لا تكون عدو الزجاجة وأن تصاحب أناسا يحبون الحياة ويقبلون عليها ويغرفون من مباهجها •

فأسرع السيد جوليادكين يقول ، وهو لما يزل مبتسما ، انه يرى أن سلوكه سوي جدا ، شبيه بسلوك الآخرين ، وان تسلياته هي التسليات التي يتعاطاها الآخرون ؛ وانه يستطيع خاصة أن يذهب الى المسرح ، وانه يملك ما هو في حاجة اليه من مال كسائر الناس ؛ وانه يعمل صباحا في مكتبه ويبقى مساء في بيته ؛ أي انه انسان كسائر البشر . حتى لقد انتهز السيد جوليادكين هذه الفرصة فألمع الماعا خفيا الى اعتقاده بأنه ليس دون غيره من الناس ، فهو يملك شقة في عمارة مناسبة ، حتى أن في خدمته خادما هو بتروشكا • ولكن السيد جوليادكين ، حين وصل الى هذا الموضع من حديثه ، توقف عن الكلام فجأة •

قال الطبيب :

ـ همم •• لا •• لا •• أنا لم أتكلم عن هذا •• ليس هذا ما أردت أن أطلبه منك • وانما أردت أن أعرف هل أنت على وجه العموم تحب صحبة الناس وتحب أن تنظر الى الحياة من جانبها الجميل ؟ ••• أي بكلمة واحدة : هل سلوكك في الحياة هو سلوك انسان سوداوي أم هو سلوك انسان متفائل ؟

ـ أنا يا كريستيان ايفانوفتش •••

قاطعه الطبيب قائلا :

ـ همم ••• أكرر : أنت في حاجة الى تغيير طراز حياتك تغييرا جذريا • ان عليك أن تتغلب على « طبعك »

شدد كريستيان ايفانوفتش تشديدا قويا على كلمة «تتغلب» ، وتجمع على نفسه في وضع ممتاز جدا ثم أردف يقول :

ـ عليك أن لا تهرب من التسليات ، عليك أن تختلف الى المسارح والحلقات ، وعليك خاصة أن لا تهمل الزجاجة • اياك والبقاء في بيتك ، فليس ينفعك في شيء أن تلازم بيتك •

دمدم جوليادكين يقول وهو يرشق محدثه بنظرة مفهومة ويبدو عاجزا عن العثور على الكلمات التي يفصح بها عن فكره :

ـ أنا أحب الهدوء يا كريستيان ايفانوفتش • نحن في البيت اثنان فقط : أنا وبتروشكا ••• أقصد خادمي يا كريستيان ايفانوفتش • أريد أن أقول بذلك يا كريستيان ايفانوفتش انني أسير في طريقي ، نعم ، في طريقي الخاص ، يا كريستيان ايفانوفتش • أنا مكتف بنفسي ، ولست رهنا بأحد ، هذا اذا لم يخطيء ظني • على أن ذلك كله لا يمنعني من التنزه يا كريستيان ايفانوفتش •

ـ ليس التنزه في هذه الأيام بالممتع كثيرا ، فان الجو أقرب الى أن يعد رديئا •

ـ صحيح يا كريستيان ايفانوفتش • ورغم أنني بطبعي شديد التحفظ والانكماش على نفسي ، كما سبق أن تشرفت بايضاح ذلك لك فيما أعتقد ، فانني أتابع طريقي ، وهو طريق انعزالي • أنا أعرف أن

دروب الحياة واسعة ••• أعني ••• أقصد ••• معذرة يا كريستيان ايفانوفتش ، لست قديرا فى مجال فصاحة اللسان •

ـ همم •• هكذا ؟

ـ أقول هذا يا كريستيان ايفانوفتش من أجل أن تعذرنى اذا لم أعبر عن نفسى بفصاحة كافية •

كذلك نطق السيد جوليادكين بلهجة فيها شىء من المطالبة ، وكان واضحا أنه يجد مشقة فى العثور على كلماته • وأردف يقول وهو يبتسم ابتسامة غريبة :

ـ من هذه الناحية ، لست كسائر الناس يا كريستيان ايفانوفتش • أنا لاأجيد الخطب الطويلة والجمل الرشيقة • ولكنى ، فى مقابل ذلك ، يا كريستيان ايفانوفتش ، أعمل ، نعم أعمل يا كريستيان ايفانوفتش •••

ـ همم ••• طيب ••• وماذا تعمل ؟

ساد الصمت لحظة • نظر الطبيب الى السيد جوليادكين نظرة فاحصة مرتابة • كما ألقى السيد جوليادكين على محدثه نظرة مثقلة بالحذر والشك •

تابع بطلنا يقول بلهجة شاكية تنم عن انزعاجه ، وقد بدا عليه الاضطراب ازاء هذا العناد القوى لدى محدثه :

ـ أنا يا كريستيان ايفانوفتش ••• أنا يا كريستيان ايفانوفتش ••• أنا ••• أنا أحب الهدوء والسكون والركون ••• وأكره ذلك التحرك الكثير الذى يتحركه المرء فى المجتمع بغير طائل • فهناك ، أقصد فى المجتمع الراقى ، يجب على المرء أن يعرف كيف يصقل خشب الأرض بنعليه (هنا ظهر على جوليادكين أنه ينقر الأرض بكعب حذائه) •••

نعم ••• ذلك أمر مطلوب هناك ••• ويجب على المرء هناك أن يحسن استعمال الجناس ••• أن يعرف كيف يجامل وكيف يمدح بحذق وبراعة ••• نعم ••• كل ذلك لا بد منه هناك • وأنا يا كريستيان ايفانوفتش لم أتعلم شيئا من هذا كله ••• لم أتعلم فى حياتى هذه الحيل ••• لم يتسع وقتى لتعلمها ••• أنا امرؤ بسيط ، بلا مكر ولا دهاء ، ولا طلاء خارجى • فى هذا المجال ، يا كريستيان ايفانوفتش ، ليس لى قدرة ؟ أنا هنا ألقى سلاحى وأتركه تماما •

نطق السيد جوليادكين بهذه الأقوال الأخيرة بلهجة تدل دلالة بليغة على أنه لا يأسف أى أسف لالقاء سلاحه فى ميدان الترهات السخيفة ، وعلى أنه لا يأسف أى أسف لكونه غير حاذق فى حيل المجتمع ومكر الناس • وكان كريستيان ايفانوفتش يصغى اليه مطرقا وقد أطال شفتيه تعبيرا عن عدم الاستحسان • كان كمن يتوجس شرا • وأعقب كلام بطلنا المسهب صمت طويل •

قال كريستيان ايفانوفتش أخيرا بصوت خافت :

ـ أحسب أنك ابتعدت قليلا عن موضوعك • أعترف لك بأننى لم أستطع أن أتابع تفكيرك الا بكثير من العناء •

ـ لست قديرا فى مجال الفصاحة يا كريستيان ايفانوفتش • لقد سبق أن تشرفت بذكر ذلك لك يا كريستيان ايفانوفتش • لا ••• لست قديرا فى ميدان الفصاحة (كذلك ردد السيد جوليادكين بلهجة غدت على حين فجأة قاطعة جازمة مستبدة) •

همهم الطبيب :

ـ همم •••

واستأنف بطلنا كلامه يقول بصوت مخنوق لكنه وقور رصين ، متوقفا على كل جملة :

ـ كريستيان ايفانوفتش ، حين دخلت عليك بدأت كلامي معتذرا • والآن أريد أن أكرر ما سبق أن قلته ، ومن أجل ذلك أسألك التسامح ورحابة الصدر • ليس هناك ما أخفيه عنك يا كريستيان ايفانوفتش • أنا انسان ليس له شأن يذكر يا كريستيان ايفانوفتش ، وأنت تعلم ذلك • ولكنني لا يؤسفني ، لحسن حظي ، أنني انسان ليس له شأن يذكر • بالعكس يا كريستيان ايفانوفتش • ومن أجل ان افصح عن كل فكرى أقول لك انني فخور بكوني انسانا ليس له شأن يذكر • ما أنا بالرجل الماكر الذي يدبر المكائد ••• وهذا أمر أعتز به أيضا • لا أقوم بعمل من الأعمال خفية ، بل أعمل صراحة ، في وضح النهار ، دون احتيال • ورغم أنني قادر ، نعم قادر ، أنا أيضا ، على الايذاء ، فانني لا أريد الايذاء يا كريستيان ايفانوفتش ، لا أريد أن ألطخ نفسي ، بل أفضل أن تبقى يداي طاهرتين • ومع ذلك فأنا أعرف وسائل الايذاء ••• لكنني لا أريد أن أوذي يا كريستيان ايفانوفتش • أقول لك على سبيل الحقيقة والمجاز معا ، انني أغسل يديّ وأطهرهما •

كان السيد جوليادكين منتعشا • وفي هذا الموضع من حديثه لزم لحظة من صمت بليغ جدا ، ثم أردف يقول :

ـ أنا أسير في طريقي قدما يا كريستيان ايفانوفتش ، في وضح النهار ، لا أبحث عن دروب ملتوية ، لأنني أحتقر الأساليب الملتوية وأتركها لغيري • ولست أرغب في اذلال أناس لعلهم أشرف منك ومني ••• عفوا ••• أقصد أشرف مني ومن غيري يا كريستيان ايفانوفتش ، لا أشرف منك ومني • انني أكره الفخر• انني أحتقر النفاق الدنيء ،

وأحتقر الوشايات والأقاويل والنمائم • انني ألبس قناعا فى حفلة تقنع ، لا فى جميع الأيام ، تجاه جميع الناس • وأريد فى الختام أن ألقى عليك سؤالا يا كريستيان ايفانوفتش ، سؤالا واحدا : كيف تنتقم أنت من عدو، من عدو رهيب ، أو من عدو تعده رهيبا على الأقل ؟

هنا توقف جوليادكين عن الكلام راشقا كريستيان ايفانوفتش بنظرة تحد • لقد صب كلامه المسهب المطنب بوضوح وجلاء وثقة لا يدانيها وضوح ولا جلاء ولا ثقة ، فكان يزن كل قول من أقواله ساعيا الى احداث أقوى تأثير ممكن • ولكن ما ان أنهى خطابه حتى أخذ يتفرس فى محدثه وهو يشعر بقلق شديد ، بقلق عظيم • انه يلتهمه الآن بنظراته التهاما ، ينتظر جوابه خائفا وجلا مشوشا نافد الصبر تفيض نفسه هما وغما • فما كان أشد استغرابه وذهوله حين لم يزد كريستيان ايفانوفتش على أن دمدم ببضع كلمات بين أسنانه ؛ ثم قرب كرسيه من المائدة وقال له بلهجة جافة ولكنها لا تخلو من أدب وتهذيب ، ان وقته ثمين جدا ، وانه لايفهم هذه الأقوال كلها فهما واضحا ؛ وانه يظـل مع ذلك فى خـدمته وتحت تصرفه ، ولكن فى حدود اختصاصه ، أما فى كل ما عدا ذلك فلا يتحمل أية تبعة • قال الطبيب ذلك ثم أخـــرج ريشة ، وتناول ورقة فثنـاها ثم قطعها على قد الورقة التى تكتب عليها الوصفات الطبية ، ثم أعلن لبطلنا أنه سيصف له علاجا مناسبا •

تمتم جوليادكين وهو ينتصب على قدميه ويخطف يد الطبيب اليمنى:

ــ لا •• لا •• يا كريستيان ايفانوفتش ••• لا حاجة الى هذا•• لا حاجة الى هذا البتة • حقا يا كريستيان ايفانوفتش لا ضرورة لهذا •

ولكن بينما كان السيد جوليادكين يقول هذا الكلام كان شخصـه يعانى تحولا غريبا • ان بروقا عجيبة تومض فى عينيه الرماديتين ، وان

ارتجافا اختلاجيا يهز شفتيه ، وان عضلات وجهه ترتعش • ان جسمه كله ينبض • واستطاع بالاستمرار فى حركته الأولى أن يوقف يد الطبيب ، ثم تسمر فى مكانه جامدا لا يتحرك ، ولاح عليه أنه يتردد منتظرا أن يوحى اليه بما يجب عليه أن يفعله •

مشهد غريب جرى عندئذ بين الرجلين • الطبيب متحير لحظة ، مسمر على كرسيه ، ثم فاقد صبره ، محملق فى السيد جولياد كين • وجولياد كين يحدق الى الطبيب هو أيضا بهذه الشدة نفسها وهذا العنف نفسه • وينتصب كريستيان ايفانوفتش أخيرا ، متشبثا بياقة ردنجوت زبونه • فيقف الرجلان وجها لوجه لحظات ، جامدين صامتين ، لا يحول أحد منهما بصره عن صاحبه • وعندئذ يظهر الرد الثانى لدى السيد جولياد كين ، يظهر ظهورا مباغتا غريبا ليس فى الحسبان • ان شفتيه تختلجان ، وان ذقنه ترتجف ارتجافات عنيفة ، وها هو ذا ينفجر آخر الأمر باكيا • انه يشهق ، ويهز رأسه ، ويلطم صدره بيده اليمنى ، بينما يده اليسرى متشنجة على ياقة سترة كريستيان ايفانوفتش • أراد أن يتمتم بضع كلمات ، أراد أن يقدم بعض الشروح ، ولكن ما من كلمة أمكن أن تخرج من فمه •

واستطاع كريستيان ايفانوفتش أخيرا أن يثوب من ذهوله الطارىء وأن يعود الى صوابه •

دمدم يقول وهو يدفع السيد جولياد كين الى المقعد :

ــ كفى ، أرجوك ، هدىء نفسك ، أقعد •

قال السيد جولياد كين بصوت أصم مهموم :

ــ لى أعداء يا كريستيان ايفانوفتش ، نعم ، لى أعداء • أعداء عتاة آلوا على أنفسهم أن يضيعونى •••

ـ هيا ... دعك من هذا ! ... أى أعداء هم هؤلاء ! ما ينبغى لك أن تفكر فى أعدائك . اقعد اقعد ..

بذلك ختم الطبيب كلامه وقد استطاع أخيرا أن يقعد السيد جولیادكين .

كف بطلنا عن الهيجان . ولكن عينيه ما تزالان ثابتتين على وجه كريستيان ايفانوفتش . وكان واضحا أن كريستيان ايفانوفتش منزعج فهو يذرع الغرفة طولا وعرضا . وساد صمت طويل .

قال السيد جوليادكين أخيرا ، وهو ينهض منكسر النفس مغلوبا :

ـ أشكرك يا كريستيان ايفانوفتش ، أشكرك شكرا لا حدود له . اننى متأثر أشد التأثر بكل ما صنعته من أجلى اليوم . لن أنسى فضلك ما حييت ، وسأظل معترفا بجميلك أبد الدهر .

فكان رد الطبيب على هذه المحاولة الجديدة من السيد جوليادكين أن قال له :

ـ كفى .. أقول لك كفى .. هدىء نفسك .

ثم أضاف وهو يدفعه مرة أخرى الى الكرسى :

ـ قل لى الآن : ما الذى يشغل بالك ، ما الذى يقلق نفسك ؟ حدثنى عن متاعبك .. وقل لى قبل كل شىء : من هم هؤلاء الأعداء الذين تشير اليهم ؟ ما الذى يجرى على غير ما تحب ؟

قال السيد جوليادكين مطرقا الى الأرض :

ـ لا .. يا كريستيان ايفانوفتش ، لا .. دعنا من هذا كله الآن .. سنتحدث فيه مرة أخرى .. دعنا من هذا كله ليوم آخر ، ليوم

أنسب من هذا اليوم يا كريستيان ايفانوفتش ، ليوم يصبح فيه كل شيء واضحا ، ليوم تسقط فيه الأقنعة عن بعض الوجوه .. نعم ، ليوم ينجلى فيه كل شيء . أما الآن ... أقصد ... بعد كل ما جرى بيننا ... تعرف ذلك بنفسك يا كريستيان ايفانوفتش ... فاسمح لى أن أتمنى لك يوما سعيدا يا كريستيان ايفانوفتش ..

بهذا ختم السيد جوليادكين كلامه ناهضاً متناولا قبعته ، وقد لاح فى وجهه الحزم .

ـ لك ما تشاء .. همم ..

وصمت الطبيب لحظة ثم أردف يقول :

ـ اعلم على كل حال أننى ، من جهتى ، سأفعل كل ما يمكننى أن أفعله ... اعلم اننى أريد لك الخير صادقا كل الصدق .

ـ أنا أفهمك يا كريستيان ايفانوفتش ، أنا أفهمك . نعم ، أفهمك كل الفهم اليوم ... ومهما يكن من أمر ، فأرجوك أن تغفر لى ازعاجى اياك يا كريستيان ايفانوفتش ..

ـ همم ... لا ... ليس هذا ما أردت أن أقوله . على كل حال ، افعل ما يحلو لك . وواظب على العلاج كالعادة .

ـ سأواظب على العلاج ، كالعادة ، كما أمرتنى ياكريستيان ايفانوفتش ، نعم ... سأواظب ... وسأشترى الدواء من الصيدلية نفسها ... ليست الصيدلة فى أيامنا هذه بالتجارة البسيطة ياكريستيان ايفانوفتش .

ـ بأى معنى تقول هذا ؟

بالمعنى العادى يا كريســـتيان ايفانوفتش ، أريد أن أقــول بذلك ان الأمور تجرى على هذا النحو فى هذه الأيام ..

ـ همم ...

ـ نعم ، وان أيسر شاب رقيع ، لا الصيادلة وحدهم ، يسمح لنفسه اليوم بجميع الوقاحات فى معاملة انسان خير .

ـ همم ... ماذا تقصد ؟

ـ أقصد يا كريستيان ايفانوفتش شــخصا بعينه نعــرفه جميعا يا كريستيان ايفانوفتش ، نعرفه حق المعرفة ، أنا وأنت ... أقصد فلاديمير سيميونوفتش ، اذا شئت أن أسميه ...

ـ ها ...

ـ نعم يا كريســتيان ايفــانوفتش ، ولكننى أعــرف كــذلك أناسا لا يتورعون عن مجافاة آداب المجتمع من أجل أن يقولوا ما يفكرون فيه.

ـ ها .. كيف ذلك ؟

ـ الأمر بسيط . ولكن هذه الحالة حالة خاصة فى حقيقة الأمر . هناك أناس يعرفون ، عند اللزوم ، أن يقــدموا لك طبقا من الطعام هو حسك بالقشدة !

ـ حسك بالقشدة ؟

ـ نعم .. حسك بالقشدة ... ياكريستيان ايفانوفتش ... هــذا تعبير شعبى ... نعم ، هناك أناس يعرفون كيف يخفون خبثهم وراء ستار من الملاطفة ... هناك أناس من هذا القبيل ياكريستيان ايفانوفتش .

ـ الملاطفة ؟

ـ نعم ، الملاطفة •• التهنئة •• اليك المثال : كان على أحد أصدقائى الحميمين ، فى هذه الأيام الأخيرة •••

ـ ماذا كان عليه ؟

كذلك سأل الطبيب وهو يتفرس وجه السيد جولياذكين بانتباه شديد :

ـ نعم ، كان على أحد أصدقائى الحميمين أن يهنىء صديقا آخر من أصدقائى ، وهو رجل محبب جدا ، لطيف جدا ، يمكن أن يسمى صديقا ممتازا • لقد رقى هذا الصديق الثانى الى درجة أعلى فى الادارة التى يعمل فيها ، فاليك العبارات التى قالها له الصديق الأول مهنئا : «يسعدنى أعمق السعادة يافلاديمير سيمينيوفتش أن أقدم اليك تهانى ، أن أقدم أصدق تهانى ، ومما يزيدنى سعادة أن الزمان الذى تعيش فيه ، كما لا يجهل ذلك أحد ، هو زمان أبناء ذوى الغنى والنفوذ » •

كان السيد جولياذكين يشفع كلماته الأخيرة هذه بتحريك رأسه تحريكا يفيض بمعانى الدهاء ، ويشفعها بغمزات مكر يوجهها الى محدثه :

ـ هممم ••• اذن هذا ما قاله له ؟

ـ نعم هذا ما قاله له ياكريستيان ايفانوفتش ، قاله له بهذا النص نفسه ، قاله وهو يحدق أيضا فى عينى آندره فيليبوفتش ، عمِّ صاحبنا ، عمِّ فلاديمير سيمينوفتش •

وفى الواقع يا كريستيان ايفانوفتش ، فيم يهمنى أن يرقى الى رتبة معاون قاض ، فيم يهمنى ذلك ؟ وأكثر من هذا أنه يريد أن يتزوج ، على أن حليب مرضعته لما يجف على شفتيه ، اذا أذنت لى بهذا التعبير ••

نعم ••• لقد قلت لهذا الفلاديمير سيمينوفتش ••• هاقد ذكرت لك كل شيء ••• فاسمح لى أن أنصرف •

ـ همم ••

ـ نعم ياكريستيان ايفانوفتش ، اسمح لى الآن أن أنصرف • وبعد الالماع الى أبناء ذوى الغنى والنفوذ ، أردت أن أصيب بحجر واحد طائرين • كنا عند أولسوفى ايفانوفتش • وكان ذلك أول أمس • فالتفت نحو كلارا أولسوفيفنا التى كانت قد غنت أغنية عاطفية ، وقلت لها : « لقد غنيت هذه الاغنية بكثير من العاطفة فى الواقع، ولكن الذين استمعوا اليك لم يعجبوا بك بقلب نقى جدا • » • كانت غمزتى واضحة جدا جدا يا كريستيان ايفانوفتش • أنت تفهمها حق الفهم • لقد أفصحت لها بهذه الغمزة افصاحا واضحا عن أن الذين يستمعون اليها لا ينشدونها هى ، بل ينشدون من ورائها شيئا آخر •

ـ آ ••• وماذا فعل هو ؟

ـ بلعها ••• ياكريستيان ايفانوفتش ••• على حد التعبير الشعبى •

ـ همم •••

ـ نعم •• تماما ياكريستيان ايفانوفتش • أما الشيخ ، أبو الآنسة ، فقد قلت له : « أولسوفى ايفانوفتش ، أنا أعرف كل ما أدين لك به ، وأقدر ما أسبغته علىّ من حسنات منذ طفولتى حق قدره • ولكننى أرجوك أن تفتح عينيك يا أولسوفى ايفانوفتش • انظر حواليك ! أما أنا فأحاول أن أخرج المسألة الى الضوء يا أولسوفى ايفانوفتش » •

ـ آ ••• هكذا •••

ـ تماما ياكريستيان ايفانوفتش •• هكذا ••

ـ وهو ، عندئذ ؟

ـ هو ؟ ماذا تتوقع أن يعمل يا كريستيان ايفانوفتش ؟ لقد أخذ يهرف ويخبط فى كلامه خبط عشواء ·· قال لى : « أنا أعرفك جيدا ··· ان صاحب المعالى انسان يفيض كرما وجودا ··· » ، ثم استرسل فى حديث غامض مبهم : ماذا تتوقع ؟ لقد أخرفت السنون عقله كما يقال ·

ـ ها ··· اذن هكذا جرت الأمور ·

ـ تماما يا كريستيان ايفانوفتش · ونحن جميعا كذلك · هو شيخ عجوز ، قلت لك ذلك · احدى قدميه فى القبر ، كما يقال ، ولكن يكفى أن تسترسل أمامه فى نمائم حتى يصبح آذانا مصغية ·

ـ نمائم ؟

ـ تماما ياكريستيان ايفانوفتش · انهم يحيكون الآن مؤامرة · والدب الكبير ، العم ، أسرع يضع يده فى العجين ، وكذلك ابن الأخ ، صاحبنا الصبى ، طبعا ! ··· لقد تواطئوا مع عدد من النساء العجائز ، ولا شك أنهم طبخوا طبقا على طريقتهم ··· هل تعرف ماذا اخترعوا من أجل أن يغتالوا انسانا ؟

ـ من أجل أن يغتالوا انسانا ؟

ـ تماما ياكريستيان ايفانوفتش ، من أجل أن يغتالوا انسانا · من أجل أن يغتالوه معنويا · أطلقوا شائعة ··· ما زلت أقصد صديقى الحميم فى الواقع ··· فهمته ؟

أنغض كريستيان ايفانوفتش رأسه ، علامة التأييد ·

ـ نعم ··· روجوا عنه اشاعة ··· أعترف لك ياكريستيان ايفانوفتش أننى أستحى أن أذكر لك الاشاعة التى روجوها ··

ـ همم •••

ـ أشاعوا عنه أنه قد تعهد تعهدا رسميا بالزواج •• أنه قد خطب أخرى ••• هل تتصور هذه الأخرى التى أشاعوا أنه خطبها ؟

ـ صحيح ؟

ـ صاحبة مطعم حقير ، ألمانية ، امرأة عامية ، يتناول وجباته فى مطعمها • زعموا أنه خطبها •• سدادا لديونها عليه •

ـ هم الذين يحكون هذا ؟

ـ هل تصدق يا كريستيان ايفانوفتش ؟ هذه الألمانية ، الحقيرة ، الدنيئة ، التى لا حياء لها ، هذه الكارولين ايفانوفنا ••• أتعرفها ؟

ـ أعترف أننى من جهتى •••

ـ أفهمك ياكريستيان ايفانوفتش ، أفهمك • أنا أيضا ، من جهتى، أحس أن •••

ـ قل لى من فضلك : أين تسكن الآن ؟

ـ أين أسكن ياكريستيان ايفانوفتش ؟

ـ نعم •• أريد أن أعرف •• أظن أنك كنت فى الماضى تعيش ••

ـ صحيح ياكريستيان ايفانوفتش ، كنت أعيش ، كنت أعيش ••• نعم ، كنت فى الماضى أعيش ••• هذا واقع ••• كنت أعيش •••

كان السيد جوليادكين يجيب بذلك مرفقا كلماته بضحكة نحيلة • ولاح أن جوابه قد بث القلق والاضطراب فى نفس محدثه •

قال الطبيب :

ـ لا ••• لقد أسأت فهم سؤالى ••• أردت أن أقول اننى من جهتى •••

ـ أنا أيضا أردت أن أقول ياكريستيان ايفانوفتش ، انني من جهتي ...

كذلك قال السيد جوليادكين ضاحكا . ولكن يظهر أنني أطلت زيارتي يا كريستيان ايفانوفتش . آمل أن تأذن لي بالانصراف الآن ..

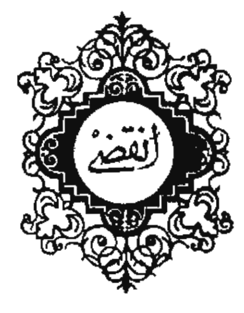
ـ همم ...

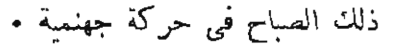
ـ تماما ياكريستيان ايفانوفتش ، أنا أفهمك ، أنا أفهمك كل الفهم ... وأخيرا اسمح لي أن أتمنى لك يوما سعيدا .

هكذا ردد السيد جوليادكين بغير أي كلفة أو حرج ازاء محدثه . ثم انحنى محييا وخرج من الغرفة ، تاركا الطبيب في ذروة الذهول .. هبط السلم وهو يبتسم ابتسامة مشرقة ، ويفرك يديه فرحا مرحا . حتى اذا صار عند باب العمارة استنشق الهواء النقي ، وشعر بتحرر وانطلاق. وأوشك أن يعد نفسه أسعد انسان على وجه الأرض ، وهم أن يتجه نحو مكتبه ، لولا أنه سمع فجأة قرقعة عجلات ورنين جلاجل ... انها عربة واقفة أمام الباب . فرفع عينيه وتذكر كل شيء . وفتح بتروشكا باب العربة . فشعر السيد جوليادكين في هذه اللحظة باحساس غريب أليم . واصطبغ وجهه بحمرة بضع لحظات . لكأن قلبه قد طعن .. ووضع قدمه على درجة العربة ، ثم التفت ينظر نحو نوافذ كريستيان ايفانوفتش . لقد حزر ! كان الطبيب واقفا هنالك يرقبه مستطلعا متعجبا ، يلاعب لحيته بيده اليمنى . قال جوليادكين لنفسه وهو يرتمي في ركن من العربة : « هذا الطبيب غبي . نعم ، غبي جدا . قد يكون بارعا في معالجة مرضاه . ولكن ذلك لا يمنع أنه غبي كأوزة » .

استقر السيد جوليادكين في العربة آخيرا . وعوى بتروشكا يقول للسائق : «هيا» . ودرجت العربة من جديد متجهة نحو شارع نفسكي.

الفصل الثالث





انقضى ذلك الصباح فى حركة جهنمية .

فحين وصلت العربة الى شارع نفسكى ، امر السيد جولياذكين بالوقوف على مقربة من جوسيتينى دفور ، ثم قفز من العربة وأسرع يدخل تحت القناطر يحاذيه خادمه الوفى بتروشكا ، وماهى الا لحظة حتى كان فى أحد مخازن المصوغات الذهبية والفضية ، ولم يلبث ، وقد بدا مرهقا بالهموم والتبعات الثقال ، يساوم على طقم كامل للمائدة ، وعلى طقم للشاى ، فاستطاع أن يحصل عليهما بألف وخمسمائة روبل ، وبهذا السعر نفسه حصل على علبة سيجار أخاذة المظهر وعلى طقم كامل من أمواس الحلاقة بالفضة ، واهتم أيضا ببعض الأشياء المفيدة والجميلة ، ووعد وعدا جازما فى آخر الأمر بأن يعود غدا ، بل بأن يرسل أحدا بعد الظهر لاستلام هذه المشتروات ، وحرص على أن يسجل عنوان المخزن دقيقا ، وأصغى بانتباه الى البائع الذى أثار مسألة العربون ، فوعده بأن يدفعها فى الوقت المناسب ، ثم ودع البائع المشدوه مسرعا وخرج . طاف

السيد جوليادكين الشارع دون أن يحول بصره عن بتروشكا، يتبعه رهط من أصحاب الدكاكين • وكان واضحا أنه يبحث عن مخزن آخر • وفيما هو يطوف الشارع توقف عند أحد « الصرافين » ، فأبدل أوراقه المالية الكبيرة بأوراق مالية صغيرة ، وبدا ، رغم خسارته في التبـــديل ، مغتبطا بهذه العملية اغتباطا كبيرا ، لأنها ضخمت حجم محفظته تضخما واضحا • وبعد ذلك دخل مخزن أقمشة للسيدات ، فأوصى هنالك أيضا على أشياء كثيرة ، متعهدا تعهدا قاطعا بأن يعود في الغداة ، وسجل كذلك العنوان ، وأجاب على سؤال البائع عن العربون بأنه سيدفعه في حينه • ثم دخل دكاكين أخرى ، فسأل عن أسعار أشياء شتى ، مساوماً في كل مكان ، تاركا مخزنا من المخازن ليعود اليه بعد قليل ، مناقشا التجار حول الأسعار مناقشة طويلة لا تنتهي ، باذلا نشاطا كبيرا على وجه العمــوم • حتى اذا ترك حي جوسيتيني دفور ، اتجه الى مخازن عرض الأثاث ، فسأل عن اثاث كامل لست حجرات ، وتلبث طويلا أمام مقعد طريف من المقاعد التي تعد « آخر صيحة » من صيحات الموضة ، ثم خرج من المخزن بعد أن تعهد للبائع بأن يرسل من يستلم هذه الأشياء كلها حالا ، وبعد أن وعد بدفع عربون على عادته •

وزار مخزنا آخر من مخازن عرض الأثاث أيضـا ، فأوصى على أشـاء أخ ر. • كان يبدو أن حاجته الى بذل النشاط لا ينضب لها معين•
سئم هذا المكر كله • حتى لقد
لا يدرى الا الله لماذا •• وهو ،
ظة ، على أية حال من الأحوال ، أن يجد
نفسه وجها لوجه امام اندره فيلبيتش ، أو حتى أمام كريستيان ايفانوفتش •• وفي أثناء ذلك دقت الساعة الثالثة • فاستقر الســـيد جوليادكين في

عربته • لقد أنهى أعمال الشراء التي سعى فيها ، فلم يشتر بعد نهار من البحث الا قفازين وزجاجة عطر بروبل ونصف روبل •

ولا يزال أمامه متسع من الوقت • لذلك أمر الحوذي أن يمضي به الى مطعم مشهور في شارع نفسكي كان لا يعرفه الا بالاسم • فلما وصل الى المطعم خرج من عربته وأسرع يدخل قاعته ، بنية الاستراحة قليلا ، وتناول أكلة خفيفة ، وانتظار « ساعته » خاصة • أكل كما يأكل امرؤ ينتظر عشاء هاما دسما ، فيقرر أن يطعم شيئا يخادع به الجوع • وشرب كذلك كأسا صغيرا من الفودكا ، ثم قبع في أحد المقاعد ، وبعد أن أجال بصره في القاعة ، استغرق بهدوء في قراءة جريدة وطنية صغيرة •

قرأ سطرين أو ثلاثة أسطر ، ثم نهض ينظر الى نفسه في المرآة ، فرتب شعره وهندامه قليلا ، ثم اقترب من النافذة فألقى نظرة ليتأكد من أن عربته لا تزال في مكانها ••• وعاد أخيرا الى مقعده وتناول جريدته من جديد ••

كان واضحا انه قلق مضطرب • وألقى نظرة على الساعة المعلقة في الحائط فعلم أن الساعة هي الثالثة والربع • لا يزال عليه أن ينتظر مدة طويلة • وقدر السيد جوليادكين أنه ليس من اللائق كثيرا أن يبقى أمام مائدة خالية ، فأمر لنفسه بفنجان من الشوكولاتة ، رغم انه لم تكن به أية رغبة في احتساء شيء من الشوكولاتة في تلك اللحظة والحق يقال• شرب الشوكولاتة • فلما لاحظ بعدئذ أن عقرب الساعة قد قطع مسافة طويلة نهض ليدفع الحساب • وفي تلك اللحظة نقره أحد على كتفه • فالتفت فرأى أمامه اثنين من زملائه هما اللذان التقى بهما صباحا في شارع ليتاينايا ــ وهما شابان مبتدئان في الحياة وفي الوظيفة الحكومية ، وكانت

علاقة بطلنا بهما علاقة ملتبسة ، فلا هى علاقة مودة ، ولا هى علاقةعداوة صريحة .

كان الطرفان كلاهما يحاولان أن يراعيا قواعد اللياقة ، ولكن كان يبدو أن قيام تقارب وثيق بينهما أمر مستحيل . أما فى اللحظة الحاضرة فقد لاح أن هذا اللقاء قد أزعج السيد جوليادكين كثيرا ، فهو يقطب حاجبيه ، بل يبدو مضطربا خلال بضع لحظات .

وسرعان ما أخذ الشابان الموظفان يزقزقان قائلين :

ـ يا كوف بتروفتش ، ياكوف بتروفتش ! أأنت هنا ؟ يالها من مصادفة !

فأسرع السيد جوليادكين يقاطعهما وقد انزعج قليلا بل استاء من هذه الدهشة التى أظهرها الموظفان على هذا النحو الفج ، وبهذه الطريقة التى ليس فيها تحرج ولا كلفة ، أسرع يقاطعهما قائلا :

السيدان .

هجة انطلاق كاذب وجرأة زائفة ، فقال :

ذن هاربان أيها السيدان ! هه هه هه !

أجل أن يبرز المسافة بينه وبينهما ، ومن أجل أن يرد هذين ين الطائشين الى مكانهما ، حرك يده بحركة من يريد أن يربت على كتفى واحد منهما . ولكن طابع الألفة الملاطفة التى أراد أن يطبع به حركته لم يوفق ، فبدلا من أن يقوم بحركة هادئة محتشمة فعل شيئا آخر تماما . وسأل الشابين :

ـ وبعد ... ألا يزال صاحبنا الدب فى المكتب ؟

ـ من تقصد يا ياكوف بتروفتش ؟

ـ الدب ... ألا تعرفان من يطلق عليه اسم الدب ؟

قال جوليادكين ذلك وأخذ يضحك، والتفت نحو المستخدم يتناول باقى الدراهم ، ثم أضاف :

ـ هو آندره فيليبتش طبعا !

وضع النقود فى جيبه ، ثم كرر سؤاله بلهجة جادة جدا هـــذه المرة . فتبادل الموظفان نظرة ذات دلالة ، وقال أحدهما يجيبه :

ـ نعم يا ياكوف بتروفتش ... انه لا يزال فى المكتب ، حتى لقد طلبك .

ـ ها ... لا يزال هنك .. طيب ... فليبق هناك . وقد طلبنى اذن ؟

ـ نعم طلبك يا ياكوف بتروفتش . ولكن ماذا جرى لك ؟ أراك متعطرا متدهنا ... أنيقا كل الأناقة !

ـ نعم ، أيها السيدان ، نعم ... الخلاصة ...

قال السيد جوليادكين ذلك وحول عنهما بصره محاولا أن يبتسم .. واذ رأى الموظفان انه يبتسم أخذا يضحكان مقهقهين قهقهة صاخبة . فقطب السيد جوليادكين وعبس ، ثم قال بعد لحظة صمت ، عازما ، فيما يظهر ، على أن يكشف لهما عن حقيقة هامة :

ـ أحب أن أقول لكما ، أيها السيدان ، على مودة وصداقة ، انكما لم تعرفانى حتى الآن الا فى ضوء معين ... ولست ألوم أيا منكما على ذلك . ولعلنى أنا المسئول عنه .

زم السيد جوليادكين شفتيه وتفرس فى محدثيه وقد بدا فى وجهه الجد والوقار • فتبادل الشابان مرة أخرى نظرة عجلى مختلسة •

ـ انكما ، أيها السيدان ، لما تعرفانى بعد • وليس من المناسب فى هذه الساعة وفى هذا المكان أن أشرح لكما من أنا • ولكننى أحب أن أقول لكما بضع كلمات عابرا • ان هناك ، أيها السيدان ، أناسا لايحبون الطرق الملتوية كثيرا ، ولا يلبسون قناعا الا حين يذهبون الى حفلة مقنعة، أناسا يؤمنون بأن حياتهم يجب ألا تنقضى فى تعلم اتقان تلميع البلاط بنعالهم • وان هناك أيضا ، أيها السيدان ، أناسا لا يعدون أنفسهم فى ذروة السعادة حين يرتدون سراويل جميلة التفصيل • وان هناك ، آخر الأمر ، أناسا يكرهون أن يتحركوا كثيرا فيما لا طائل تحته ، ويحتقرون الاستعراضات والدسائس والتملق ، ويتحاشون فوق ذلك كله ، أيها السيدان ، أن يحشروا أنوفهم حيث لا يجب أن تكون • والآن اسمحوا أن أستأذنكم بالانصراف •

توقف جوليادكين عن الكلام • وبدا على الشابين الموظفين أنهما مسروران بكلامه المسهب كل السرور، لأنهما لم يلبثا أن انفجرا ضاحكين فى كثير من الوقاحة • التهب السيد جوليادكين غيظا وقال :

ـ اضحكا أيها السيدان •• اضحكا ما اتسع وقتكما للضحك ••

ثم أضاف مستاءً وهو يتناول قبعته ويتجه نحو الباب :

ـ من يعش ير ••

ولكنه عاد يلتفت نحوهما مرة أخيرة ليقول :

ـ ومع ذلك أيها السيدان ، أحب أن أقول لكما أيضا ، أحب أن أذهب الى أبعد من ذلك ، مادمنا هنا بين أربعة جدران ، فأقول لكما :

هذه مبادئي في الحياة : « الصمود عند الاخفاق ، رباطة الجأش عند النجاح ، والامتناع عن الاضرار بأحد على أية حال من الأحوال». لست بالرجل الذي يحسن تدبير المكائد ، واني بذلك لفخور . لست أصلح للدبلوماسية . يقال أيها السيدان ان الطائر يطير نحو الصياد قدما . الا أن في هذا القول نصيبا من صدق ، واني لأصدقه على كل حال . ولكن قولا لي : من الصياد ومن الطائر في عالمنا هذا ؟ ... تلكما مسألة يجب أن تناقش أيها السيدان .

وبعد لحظة من صمت يفيض بلاغة ، اصطنع السيد جوليادكين هيئة أخرى جادة وقورة الى أبعد حدود الجد والوقار ، ثم حيا محدثيه مقطب الحاجبين مزموم الشفتين ، وخرج تاركا صاحبيه على أشد حالة من الذهول .

سأله بتروشكا بلهجة قاسية ، وقد بدا عليه السأم من التجول في هذا البرد القارص :

ـ الى أين نذهب الآن ؟

وكرر سؤاله ، فاذا هو يلتقي بنظرة رهيبة صاعقة ، بتلك النظرة التي سبق أن استعملها السيد جوليادكين مرتين في الصباح ، ولجأ اليها الآن مرة أخرى وهو يهبط درجات باب المطعم .

ـ الى جسر اسماعيلوفسكي .

صاح بتروشكا :

ـ الى جسر اسماعيلوفسكي . هيا ! ...

«المفروض ألا يبدأ العشاء عندهم قبل الساعة الرابعة ... وقد لا يبدأ قبل الخامسة ... ألست اذن ذاهبا قبل الأوان ؟ ولكن ماذا لو

وصلت قبل الموعد ! هذا عشاء عائلى . نعم ... أستطيع أن أسمح لنفسى بالمجىء دون التقيد « بالرسميات » ... « بغير كلفة » كما يقال فى أوساط الناس المهذبين . لماذا لا يكون من حقى أن أتصرف «بغير كلفة» ؟ لقد أنبأنا الدب أن كل شىء سيكون « بغير كلفة » فى منزلهم ... فلماذا لا أستعمل أنا هـذا الحق ؟ ... » ذلك كان مجرى خواطر السيد جوليادكين أثناء الطريق . ومع ذلك كان اضطرابه ما ينفك يزداد . كان واضحا أنه يتهيأ لمواجهة موقف حرج شائك ، اذا لم نقل أكثر من ذلك . كان السيد جوليادكين يهمس ، ويلوح بيده اليمنى ، وينظر من خلال باب العربة بغير انقطاع .

حقا ان من يراه فى هذه اللحظة على حالته تلك ، لا يمكن أن يتصور أنه ذاهب الى عشاء ، الى عشاء عائلى ، « بغير كلفة » ، كما يقال فى أوساط الناس المهذبين . ووصل أخيرا قرب جسر اسماعيلوفسكى ، فعين للحوذى احدى العمارات ، فاجتازت العربة باب العمارة مقرقعة ، وتوقفت عند سلم الجناح الأيمن من المبنى . ولمح السيد جوليادكين على نافذة الطابق الثانى وجه امرأة ، فبعث اليها بقبلة على راحة يده . والحق أنه لم يكن يدرك هو نفسه ماذا يفعل ... كان فى تلك اللحظة لا ميتا ولا حيا . وخرج من العربة ، شاحب الوجه ، مضطرب النفس ، وصعد درجات المدخل ، ونزع قبعته بحركة آلية ، وعدل ثيابه واندفع يصعد السلم مصطك الركبتين .

سأل الخادم الذى جاء يفتح له الباب :

ـ هل أولسوفى ايفانوفتش فى بيته ؟

فأجابه الخادم :

ـ نعم هو فى بيته ... بل ليس هو فى بيته ..

ـ كيف ؟ ماهذا الذى تقوله ياصديقى ؟ أنا آت للعشاء أيها الرجل الشهم • ثم انك تعرفنى •

ـ طبعا • ولكنى أُمرت أن لا أدعك تدخل •

ـ أنت ••• أنت مخطىء ••• ولا شك • هـذا أنا •• أنا مدعو ••• مدعو الى العشاء يا صاحبى ••

كذلكَ قال السيد جولياكين متدفقا فى الكلام ، نازعا عنه معطفه ، عازما على الدخول الى الصالون •

قال الخادم :

ـ معذرة • ممنوع • لقد أُمرت بأن لا أستقبلك ••• أمرت بأن أمنعك من الدخول • هذا كل شىء •

امتقع لون السيد جولياكين • وفى هذه اللحظة فتح باب احدى غرف البيت ، وأقبل منها الى حجرة المدخل الخادم العجوز الذى يعمل عند أولسوفى ايفانوفتش •

قال الخادم الأول يخاطب العجوز :

ـ يا ايميليان جيراسيموفتش ••• أنظر الى هـذا السيد ••• انه يريد الدخول ، وأنا •••

ـ أنت غبى يا ألكسى • امض الى الخـدمة فى الصالونات ، وابعث الىّ بذلك الوغد سيميوفتش •

قال جيراسيموفتش ذلك ، ثم التفت الى السيد جولياكين ، فأعلن له بلهجة مهذبة ولكنها قاطعة :

سيدى . مستحيل استحالة مطلقة يا سيدى . مولاى
، انه لا يستطيع أن يستقبلك .

دقة أنه لا يستطيع أن يستقبلنى ؟

بن خجلا . ثم أضاف :

موفتش ... ولكن لأى سبب هـذه الاستحالة

.. مستحيل استحالة مطلقة .. لقد أعلنت وصولك ، فقيل
ه أن يعذرنا » . الخلاصـــة ... لا يستطيع مولاى أن

ـ ولكن لماذا ؟ كيف ؟ كيف ؟

ـ عجيب ! اسمح لى ...

ـ ولكن لماذا ؟ هذا غير ممكن . قل لى ... ولكن ... لماذا ؟ أنا مدعو الى العشاء ... « على كل حال اذا كان يطلب أن أعذره فذلك أمر آخر .. وعلى ذلك يا جيراسيموفتش ... اشرح له ... أرجوك .

ـ عفوا ... اسمح ...

قال جيراسيموف ذلك وهو يبعد بيده السيد جوليـادكين جازما ، فاتحا بذلك ممرا عريضا لسيدين دخلا الدهليز . انهما آندره فيليوفتش وابن أخيه ، فلايمير سيميونوفتش . تفرس الرجـلان كلاهما فى السيد جوليادكين مذهولين . وأراد آندره فيليوفتش أن يقول شيئا ، ولـكن السيد جوليادكين كان قد عزم أمره، فها هو يغادر حجرة المدخل خافض العينين ، محمرّ الوجه ، مشعث الهيئة ، وعلى شفتيه ابتسامة حزينة .

ـ سأمر فيما بعد يا جيراسيموفتش • سأجيء أشرح الأمر ••• لا شك فى أن كل شىء سيتضح فى حينه •

دمدم بذلك وهو يجتاز العتبة منتقلا الى فسحة السلم •

ـ ياكوف بتروفتش ، ياكوف بتروفتش •••

كذلك نادى آندره فيليبوفتش وهو يهرع وراء بطلنا • وكان بطلنا قد أصبح على فسحة الطابق الأدنى • فالتفت بقوة نحو آندره فيليبوفتش•

سأله بصوت قاطع :

ـ ماذا تريد يا آندره فيليبوفتش ؟

ـ ما الذى جرى يا ياكوف بتروفتش ؟ ماذا بك ؟

ـ لا شىء يا آندره بتروفتش • لقد جئت الى هنا من تلقاء نفسى • هذا شأن من شئون حياتى الخاصة يا آندره فيليبوفتش •

ـ ماذا تقول ؟

ـ أقول ان هذا شأن من شئون حياتى الخاصة يا آندره فيليبوفتش، وأحسب أنه ليس لأحد أن يأخذ علىَّ شيئا من سلوكى فيما يتصل بعلاقاتى الرسمية •

ـ ماذا تقول ؟ فيما يتصل بعلاقاتك الرسمية ؟ ••• ولكن ماذا بك أيها السيد ؟ ماذا بك ؟

ـ لا شىء ••• يا آندره فيليبوفتش • لا شىء اطلاقا • بنيَّة وقحة •• ولا شىء غير ذلك •

ـ كيف ؟ كيف ؟

اضطرب آندره فيليبوفتش ، وذهل ، فأصبح لا يعرف ماذا يقول

•• وكان السيد جوليادكين أثناء ذلك الحوار ما يزال واقفا على فسحة سلم الطابق الأدنى ، محدقا ببصره الى رئيسه ، وكأنه يهم أن يثب عليه فى كل لحظة • واذ أدرك بطلنا اضطراب محدثه خطا خطوة الى أمام ، بغير شعور تقريبا • فتراجع آندره فيليبوفتش خطوة أيضا • فتقدم جوليادكين مزيدا من التقدم ، فنظر آندره فيليبوفتش حواليه وقد بدا فى وجهه القلق • وفجأة أخذ السيد جوليادكين يصعد السلم بخطى سريعة •• ولكن خصمه وثب أسرع منه ، فدخل البيت ، وأغلق الباب وراءه •

لبث السيد جوليادكين وحيدا على السلم • زاغت عيناه • ظل واقفا هنالك ، مصعوقا ، مسمَّرا ، يجتر خواطر غريبة • عادت الى خياله ذكرى • انها ذكرى تتصل بموقف عجيب وجد فيه منذ مدة قصيرة •

دمدم يقول وهو يحاول أن يبتسم :

ـ هه هه •••

وفى تلك اللحظة سمع وقع أقدام وصوت كلام فى الطابق الأدنى •• لا شك أنهم مدعوون آخرون من ضيوف أولسوفى ايفانوفتش • ثاب السيد جوليادكين الى رشده ، فأسرع يرفع ياقة فراء معطفه ، ويخفى وجهه فيها ما استطاع اخفاءه ، ثم أخذ يهبط السلم بخطى سريعة ، متواثبا متعثرا ، يوشك أن يسقط عند كل خطوة • كان يشعر بوهن ، ويحس بنوع من الخدر • وقد بلغ من الاضطراب أنه حين وصل الى درجات المدخل لم ينتظر أن تتقدم العربة اليه ، بل اتجه هو اليها مجتازا الفناء الموحل • وحين همَّ أن يصعد الى العربة أحس فجأة برغبة قوية فى أن يغور تحت الأرض أو أن يختبىء هو وعربته فى جحر من جحور الفئران • خُيِّل اليه أن جميع من كانوا فى هذه اللحظة عند أولسوفى

قد وقفوا ينظرون اليه ، أحس أنه لو التفت لحظة واحدة لمات على الفور في مكانه •

ـ ما الذى يضحكك أيها الغبى ؟

كذلك سأل بتروشكا بعنف بينما كان بتروشكا يساعده فى ركوب العربة :

ـ أنا ؟ لا شىء ! لست أضحك ••• الى أين نذهب الآن ؟

ـ الى البيت • بسرعة •

صاح بتروشكا وهو يستقر فى مؤخرة العربة :

ـ الى البيت !

« بوز غراب » • كذلك قال السيد جوليادكين فى نفسه •

وتحركت العربة ••• وقطعت جسر اسماعيلوفسكى ، فاذا بالسيد جوليادكين يشد الحبل شدا قويا بعد مدة على حين فجأة ، ويأمر الحوذى بالعودة القهقرى • فيدير الحوذى الحصانين ، ويصل بعد دقيقتين مرة أخرى الى الفناء من العمارة التى يقع فيها منزل أولسوفى ايفانوفتش •

صاح بطلنا :

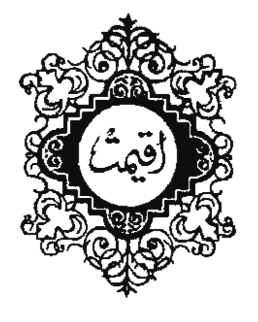
ـ قف • لا داعى • اخرج •

وكأن الحوذى كان يتوقع أن يصدر اليه هذا الأمر الجديد ، فلم يحتج ، بل دار فى الفناء دون أن يتوقف وخرج الى الشارع •

لم يأمره السيد جوليادكين بأن يعود به الى منزله ، بل أمره بأن يقطع جسر سيميونوفسكى ، ثم أمره بدخول شارع صغير ، ثم بالتوقف

عند حانة حقيرة المظهر . هنالك نزل من العربة ، فنقد الحوذى أجره ، وأمر بتروشكا أن يمضى ينتظره فى البيت . أما هو فقد دخل الحانة ، فاتخذ لنفسه مكانا خاصا وأمر بعشاء . كان فى حالة نفسية سيئة . ان رأسه مقر سديم لا يصدَّق . سار فى الصـــالون زمنا ، وهو نهب قلق شـديد . وجلس آخـر الأمر دافنا جبينه فى يديه ، وأخـذ يفكر بكل ما أوتى من قوة باحثا عن حل للمشكلة التى يطرحها الموقف .

الفصل السابع



فى ذلك اليوم الرائع الفخم ، وهو عيد ميلاد كلارا أولسوفيفنا ، البنت الوحيدة لمستشار الدولة بيرنديف ، الذى كان فى الماضى حاميا للسيد جوليادكين، أقيمت فى ذلك اليوم حفلة عشاء ذات أبهة وعظمة وجلال لم يُشهد لها مثيل منذ زمن طويل فى منازل كبار الموظفين من حى اسماعيلوفسكى وغيره ، حفلة عشاء لها مظاهر وليمة من ولائم بلتازار ، يذكر بذخها وترفها وتنسيقها بالمآدب البابيلونية الكبرى . لم يعوز هذه الحفلة شىء ، لا شمبانيا كليكو ، ولا المحار ، ولا الفاكهة التى تشترى من محلات ايليسييف وميلوتين الشهيرة . كانت الصالونات مزدحمة بجمهرة مرموقة متلألئة من الناس تضم جميع كبار موظفى الحكومة . وقد اختتم ذلك اليوم المشهود الذى تميز بتلك الوليمة الفاخرة ، اختتم بحفلة راقصة ، كانت عائلية طبعا ، ولكن ذلك لا يمنع أنها كانت رائعة فخمة الى أبعد حدود الروعة والفخامة ، سواء من ناحية حسن الذوق ومن ناحية علو مقام الشهود .

أنا أعلم ان الحفلات الراقصة التى من هذا النوع موجودة ، ولكنها نادرة. انها اعياد كبرى يحتفل بها احتفالا عائليا ، وهذه الاعياد لا تقوم عادة الا في بيوت راقية جدا ، كبيت مستشار الدولة بيرنديف مثلا . بل انني لأذهب الى أبعد من ذلك فأدعي أن مستشاري الدولة لا يقدرون جميعا على اقامة مثل هذه الحفلات ! اه ... يا ليتني كنت شاعرا ! ... شاعرا له مواهب هوميروس او بوشكين (ذلك انني بمواهب دون مواهب هذين الشاعرين لا اجازف ...) اذن لصورت لك ، أيها القارىء ، بريشة بارعة والوان زاهية ، الخطوط الكبرى من ذلك الاصيل المظفر !

لو كنت شاعرا املك تلك المواهب لبدأت قصيدتي بوصف العشاء ... ولألححت خاصة على تلك اللحظة الفذة الفريدة الفخمة ، التى رفع فيها أول كأس احتفاء بملكة ذلك اليوم : كنت سأظهرك أولا على المدعوين وقد تجمدوا انتظارا ، وصمتوا صمتا مهيبا ، صمتا هو الى بلاغة ديموستين أقرب منه الى البكم . ثم أقدم اليك آندره فيليبوفتش ، عميد هذا الحفل ، الذي يمتاز فوق ذلك بجميع حقوق التصدر ، اذ نهض مزين الصدر بالأوسمة ، تزينا ينسجم وشعره الأشيب ، فنطق بأولى التمنيات ، رافعا كأسه المملوءة بخمر نادر ، خمر يستورد من مملكة بعيدة للاحتفال بأحداث هي على هذا القدر من خطورة الشأن وعلو القيمة ، خمر هي شراب ثمين أشبه برحيق الآلهة منه بخمر البشر ؛ ولصورت لك بعد ذلك المدعوين وأبوى ملكة اليوم السعيدين ، لحظة رفعوا كئوسهم اقتداء بآندره فيليبوفتش ، وقد ثبتت نظراتهم عليه بانتظار خطابه .

ولأريتك آندره فيليبوفتش نفسه ، وقد تأثر تأثرا عميقا فذرف في كأسه دمعة خاطفة ، ثم لصورته لك يكيل المديح للجميلة ويعرب لها عن تمنياته ويقترح على المدعوين أخيرا أن يشربوا نخبها ، ويفرغ كأسه...

ولكنني أعترف لك بكثير من التواضع أيها القارىء أنني كنت سأعجز حتما عن وصف تلك اللحظة التي تمتاز بروعة قصوى ، أعني اللحظة التي رئيت فيها كلارا أولسوفيفنا ، ملكة هذا العيد ، يزهو وجهها كوردة من ورود الربيع ، وتحمر سعادة وخفرا ، ثم ترتمي بين ذراعي أمها الحنون وقد فاضت نفسها انفعالا . وكنت سأعجز كذلك عن تصوير هذه الأم الحنون ذارفةً دموع السعادة ، وعن تصوير الأب أولسوفي ايفانوفتش مستشار الدولة . لقد كان هذا الشيخ المحترم الوقور ينشج باكيا ؛ نعم لقد كان هذا الرجل الذي فقد خلال السنين الطويلة التي قضاها في الوظائف استعمال ساقيه ، ولكن كافاه القدر على ذلك مكافأة عادلة، فزوده بمال كثير ، ومنزل جميل ، وأملاك عدة ، ووهب له ، خاصة، ابنةً جميلة كالنهار ، أقول كان هذا الرجل ينشج باكيا كطفل ، ويؤكد من خلال الدموع ان « صاحب السعادة محسن عظيم ... » . لا ... ما كان لي بحال من الأحوال أن أصف الانفعال الشديد الذي استولى في تلك اللحظة على الحضور الذين تعلقت أبصارهم بشفتي آندره فيليبوفتش .

ان موظفا شابا من موظفي السجل (وكان مظهره في تلك الدقيقة أقرب الى مظهر مستشار محترم منه الى مظهر موظف بسيط في السجل)، لم يستطع أن يحبس عندئذ دموعه ، فعبر بذلك عن انفعال سائر الحضور .

وكان مظهر آندره فيليبوفتش ، من جهة ، لا يشبه في تلك اللحظة مظهر مستشار ، مظهر رئيس دائرة ... لا ... وانما كان مظهره مظهرا آخر ، مظهرا لا أستطيع أن أصفه ، ولكنه ليس مظهر مستشار على كل حال ... فلقد كان يحلق ... كان فوق كل هذا ...

وأخيرا ، لو كنت أملك تلك المواهب اذن لـ ... ولكن أين أنا من الأسلوب الناصع الرفيع ، أين أنا من الأسلوب القوي المشرق الذي يمكنني

من وصف الجو العاطفى المؤثر فى تلك اللحظات الرائعة التى تهيب بالمرء الى السمو الأخلاقى ، وهى لحظات من الحياة يبدو كل شيء فيها أنه يسهم فى تأكيد ظفر الفضيلة على الجمود والكفر والرذيلة والحسد ... لا .. اننى أوثر أن أصمت ، وأوثر بالصمت ، بصمت هو أبلغ من الكلام ، أن أصف لكم ذلك الفتى السعيد الذى شـارف على السادسة والعشرين من عمره ، فلاديمـير سيميونوفتش ؟ ابن أخى آندره فيليبوفتش . انه الآن واقف يقترح ، بدوره ، نخبا آخر .

جميع النظرات معلقة به : نظرات الأبوين المخضـــلة بالدمــوع ، ونظرات عمه الساطعتين اعتزازا ، والنظرات التى تفيض خفرا وحياء من ملكة اليوم ، والنظرات التى تشـــع حماسة من أكثر المدعوين ، وأخـيرا نظرات بعض زملاء هذا الشاب اللامع ، وهى نظرات تقرأ فيها شـيئا من حسد . أريد أن أصمت . ولكن هذا الفتى مليء بما يجذب اليه ويغرى فيه . والحق أن مظهره أقرب الى مظهر شيخ ، بالمعنى الحسن من معانى هذا التشبيه طبعا . ان وقفته ووجهـــه المحمر ورتبته (وهى رتبة معاون قاض) التى تلتحم به التحاما فكأنهما شيء واحد ، ذلك كله كان فى تلك اللحظة كأنه يهتف قائلا : « تلك هى الدرجات القصوى من السعادة التى يمكن أن تقود الفضيلة انسانا اليها .. » . لا ولا أريد أن أروى لكم تفصيلا كيف اقترح أنطون أنطونوفتش سيتوشكين ، الموظف برتبة رئيس دائرة، زميل آندره فيليبوفتش ، وزميـل أولســـوفى ايفـانوفتش فى المـاضى ، والصديق القديم للأسرة ، وعرّاب الفتاة فوق ذلك، نعم كيف اقترح هذا الشيخ العجوز ، ذو الجمجمة التى تشبه القمر ، نخبا آخر هو أيضـا ، وكيف غنى على طريقة الديك بعض الأمازيح المقفاة . ان هـذا التجرؤ الذى كان نسيانا لائقا للياقة ــ ان صح التعبير ــ قد أضحك جميع الحضور حتى الدموع ، وهذه كلارا أولسوفيفنا نفسها تنهض بموافقة أبويها فتقبله

وتشكره في كثير من اللطف والمرح . وحسبي أن أضيف أن المدعوين ، كما ينتظر ذلك في ختام وجبة كهذه الوجبة ، قد أخذوا يشعرون ، بعضهم نحو بعض ، بعواطف حارة جدا ، أخوية جدا .

ونهضوا أخيرا عن المائدة . فأما الرجال المتقدمون في السن بعض التقدم ، فانهم بعد أن تبادلوا كلمات تتسم بالمودة الحارة والصداقة الحميمة، انسحبوا في وقار الى الصالون القريب . وأما الشباب ـ وكان الوقت ثمينا ما ينبغي أن يضيع سدى ـ فلم يلبثوا أن جلسوا الى موائد القمار الخضراء شاعرين شعورا عميقا بقيمتهم الخاصة . وأما السيدات اللواتي مكثن في الصالون الكبير فسرعان ما تلطفن تلطفا نادرا فذا وأخذن يتحدثن في شئون الزينة . وهذا رب المنزل ، الشيخ المحترم الذي فقد استعمال ساقيه في خدمة العدالة والحقيقة وكوفيء على النحو الذي ذكرناه آنفا ، يطوف على حلقة ضيوفه متوكئاً على عكازين ، تسنده ابنته وفلاديمير سيميونوفتش . وتستبد بالشيخ النبيل على حين فجأة لطافة عجيبة فيقرر أن يقيم حفلة راقصة مرتجلة دون أن يهتم بالنفقات . وهذا فتى نشيط (هو ذلك الموظف في السجل ، الذي قلنا انه أشبه بشيخ محترم منه بمراهق) ، يرسل فورا للمجيء بموسيقيين على جناح السرعة .

وصل الموسيقيون بعد قليل ، وعددهم أحد عشر موسيقيا ، وفي الساعة الثانية والنصف تماما دوت أولى ألحان رقصة فرنسية ، ثم تبعتها رقصات أخرى ... لا داعي الى القول ان ريشتي لا تملك من الرهافة والقوة ما يمكنني من أن أصف وصفا أمينا هذه الحفلة الراقصة المرتجلة التي تكرم بها رب المنزل المبيض الرأس ، لما أوتي من لطف فذ وكرم نادر . وأني لي أنا القصاص المتواضع الذي يروي مغامرات السيد جوليادكين ـ وهي مغامرات عجيبة ، أعترف بذلك ـ أني لي أن أنقل الى

القاريء ذلك التألق الخارق والانسجام الرائع فى ذلك العيد الذى ائتلف فيه الجمال والتلألؤ والفرح والمرح ائتلافا موفقا مع الأناقة المحتشمة والاحتشام الأنيق . كيف أصف ألعاب وضحكات جميع هاته السيدات اللواتى كن أشبه بغادات أساطير منهن بنساء موظفين ـ وذلك مديح أزجيه لهن ـ كيف أصف وجناتهن وأكتافهن التى تشبه أن تكون ألوانها ألوان زهر الليلك ، كيف أصف قاماتهن المشوقة وأقدامهن الصغيرة الماكرة النشيطة ... وكيف أصف فرسانهن اللامعين ، هؤلاء الممثلين المحترمين للادارة الحكومية !

ان المراهقين والكهول ، الفرحين والوصيتين من الشبان ، والمرحين والحالمين ، والذين يمضون بين كل رقصة ورقصة الى الصالون الاخضر الصغير ليدخنوا غليونا والذين لا يدخنون بين كل رقصة ورقصة ... ان هؤلاء جميعا يحملون أسماء مجيدة . ان لهم جميعا ألقابا شريفة . انهم جميعا يفيضون لباقة ورشاقة وأناقة ، ويشعرون شعورا عميقا بقيمتهم ومنزلتهم . ويكادون يتخاطبون جميعا بالفرنسية ، وحتى الذين يستعملون منهم اللغة الروسية يعبرون عن أنفسهم بطريقة رفيعة راقية مزاوجين بين المرح وبين الجمل المثقلة بالمعانى . فى صالون التدخين ، فى صالون التدخين فقط ، كانوا يسمحون لأنفسهم بشيء يسير من الخروج على اللغة الراقية ، فتفلت من ألسنتهم جملة مألوفة لطيفة من هذا النوع : « هيه... يا بيرو التقى النقى ... لقد عرفت كيف تفضح صاحبتك » أو « مرحى أيها الوغد فاسيا ، لقد وصلت الى غاياتك ، عرفت كيف تتعب غادتك بغير رحمة .. » .

ولكن قلمى يخوننى أيها القاريء ، كما سبق أن تشرفت بأن قلت لك هذا . لذلك أوثر أن أصمت أو قل أن أعود الى السيد جوليادكين البطل الحقيقى لهذه القصة الصادقة .

يجب أن أقول ان حالته الآن غريبة بعض الغرابة ، اذا لم أقل أكثر من ذلك . انه حاضر هناك ، هو أيضا ، أيها السادة . ليس حاضرا فى حفلة الرقص ، ولكنه يشبه أن يكون حاضرا فيها . ليس لديه أية نية سيئة يا سادتى . انه لا يريد أن يسىء الى أحد . ولكنه مع ذلك فى منعطف سىء . هو الآن - وانه لغريب حتى أن نقول هذا - فى دهليز سلم الخدمة بمنزل أولسوفى ايفانوفتش . لا شىء فى ذلك يا سادتى ، لا شىء فى ذلك . ان السيد جوليادكين لم يفكر فى أى سوء . هو الآن قابع فى ركنه الصغير . لقد لطا فى ركن صغير غير دافىء جدا بطبيعة الحال ، ولكنه ركن مظلم فى مقابل ذلك ، تخفيه بعض الاخفاء خزانة ضخمة وحواجز قديمة . انه فى وسط كومة من الخرق العتيقة والأوانى القديمة . انه مختف فى هذه اللحظة ، يراقب ، ويتابع مجرى الأحداث مشاهدا محايدا . انه حتى الآن ، أيها السادة ، لا يزيد على أن يلاحظ . فى وسعه طبعا أن يدخل هو أيضا أيها السادة ... ولماذا لا يكون فى وسعه أن يدخل ! ليس عليه حتى يدخل الا أن يتقدم خطوة واحدة . سيعرف كيف يدخل برشاقة . انه قابع هناك منذ ثلاث ساعات ، فى البرد ، وراء الخزانة والحواجز ، وسط كل هذه الأكداس . انه ينتظر . ومن أجل أن يبرر نفسه أمام نفسه ، تذكر منذ لحظة جملة للوزير الفرنسى السابق فيليل : « من صبر ظفر » . لقد قرأ هذه العبارة سابقا فى كتاب لا قيمة له ، وهى تعود الآن الى ذاكرته فى وقتها تماما . انها تناسب وضعه الراهن جدا . ويجب أن نقول أيضا أن أفكارا كثيرة تراود خاطر انسان يمكث منتظرا ، فى دهليز بارد مظلم ، خلال ثلاث ساعات ، أن تنتهى الأحداث الجارية الى حل موفق .

هكذا ، بعد أن تذكر جملة الوزير الفرنسى فى الوقت المناسب ، خطر بباله - لا يدرى الا الله لماذا - الوزير التركى القديم مارزيميريس ،

ثم خطرت بباله مارجراف لويز الجميلة ، التى كان قد قرأ قصتها فى أحد الكتب . ثم خطر بباله بعد ذلك أن اليسوعيين قد اتخذوا مبدأً لهم أن يعدوا جميع الوسائل حسنة متى كانت تؤدى الى تحقيق الغاية المنشودة . ان تذكر هذه الحقيقة التاريخية قد بث فى نفس السيد جوليادكين شيئا من الثقة . حتى لقد استخرج منها على الفور أن هؤلاء اليسوعيين ، أن جميع اليسوعيين ، من أولهم الى آخرهم ، أغبياء أقصى الغباوة ، وانه قادر على أن يضعهم جميعا فى جيبه ! ... آه ... ليت الغرفة التى يوجد فيها البوفيه خالية ، ولو دقيقة واحدة (هى الغرفة التى تتصل رأسا بالدهليز الذى يقبع فيه السيد جوليادكين فى هذه اللحظة) ... لو كانت خالية اذن لاجتاز هذه الغرفة ، رغم جميع اليسوعيين ، ولانتقل بعد ذلك الى الصالون الكبير ، فالى غرفة القمار ، من أجل يدخل من هناك الى القاعة التى يقوم فيها رقص البولكا . نعم ، لو كانت الغرفة خالية اذن لمر حتما ، مهما كلف الأمر ... ان فى وسعه أن يتسلل خفية ... فما يلاحظه أحد ، وتنجح حيلته ... وسيعرف عندئذ ماذا بقى عليه أن يعمل ... تلك كانت ، فى هذه اللحظة ، الحالة النفسية لبطل قصتنا الصادقة ، رغم أنه ما يزال يصعب علينا كثيرا أن نصف عواطفه وصفا دقيقا .

طبعا ، لقد استطاع أن يصل الى سلم الخدمة والى الدهليز على أساس التفكير التالى : « ماداموا قد وصلوا هم ، فلماذا لا أصل أنا ؟ » . أما أن يمضى الى أبعد من ذلك ، فهذا أمر آخر ... انه لم يجرؤ أن يفعل ... لا عن جبن طبعا ، بل بمحض ارادته : انه يؤثر أن يتصرف خفية ... وهو الآن يرقب فرصة التسلل خلسة . انه يرقب هذه الفرصة منذ ثلاث ساعات . ولماذا لا يصبر ؟ ان فيليل نفسه قد صبر . « ولكن ما شأن فيليل هنا ؟ » . كذلك قال السيد جوليادكين لنفسه فجأة ،

«ثم من هو فيليل هذا ؟ ••• أما أنا فيجب عليّ الآن أن أتمكن من الدخول ••• فما العمل ؟ ألا انك أشبه بأولئك الممثلين الثانويين الذين لا يفعلون شيئا ولا يقولون شيئا على خشبة المسرح ••• ألا انك لشخص غبى أبله» • هكذا قال جوليادكين لنفسه وهو يقرص خده المتجلد بأصابعه المتخدرة من شدة البرد • « ما أنت الى جوليادكا مسكين ، لا أكثر من ذلك ••• أنت اسم على مسمى ! » •

يجب أن نذكر أن هذه المداعبات الصغيرة التى داعب بها جوليادكين شخصه قد نطق بها جوليادكين دون أى هدف معين ، بل تزجية للوقت فحسب • ولكن ها هو ذا يتقدم • لقد خلا البوفيه • لم يبق فيه أحد • لاحظ جوليادكين ذلك من كوة صغيرة ••• خطوتان ، فاذا هو على الباب • وهمّ أن يفتح الباب •••

« أأمضى أم لا أمضى ؟ نعم ، أأمضى أم لا أمضى ؟ بل سأمضى ••• لماذا لا أمضى ؟ الشجاع يجد طريقه دائما • » • بث هذا التفكير بعض الثقة فى نفس بطلنا • ولكن ها هو ذا يتراجع فجأة • « لا ••• لا يجب ••• هب أحدا دخل فى هذه اللحظة ••• هذا واحد يدخل فعلا • لماذا تكاسلت ببلاهة حين كانت الطريق خالية ؟ يجب أن أقتحم وأن أدخل مهما كلف الأمر ••• يجب أن أقتحم • الكلام سهل • جرب أن تقتحم وأنت على ما أنت عليه من طبع متردد ، ومزاج جبان • لقد خفت ••• كدجاجة مبللة • هو الهلع والجزع ••• ما فى ذلك شك ••• أنا أعرفك •• هو الجبن •• أعرفه فيك •• لا جدال فى هذا •• اذن ليس عليك الا أن تبقى حيث أنت ، كرزمة ، كرزمة لا أكثر •• لو كنت فى منزلى الآن لكنت بسبيل احتساء فنجان طيب من الشاى • واذا تأخرت عن العودة سيأخذ بتروشكا يفيق حتما ••• أليس الأفضل أن أعود الى

المنزل ؟ نعم ، والى جهنم كل ما عدا ذلك ! هيا ، سأعود • انتهى الأمر ••• » •

ما ان اتخذ جوليادكين هذا القرار حتى وثب وثبة مفاجئة الى أمام ، كأن نابضا قد انفلت فيه على حين بغتة • فاذا هو ، بخطوتين اثنتين ، فى القاعة المخصصة للبوفيه • وما لبث أن خلع معطفه بسرعة ، ونزع قبعته ، فدسهما فى ركن ، ثم رتب شعره وزينته بعض الترتيب ، و ••• و ••• أخيرا ، تقدم •• فاجتاز الصالون ، وتسلل من هناك الى غرفة أخرى ، فمر بين المقامرين المحمومين دون أن يلاحظه أحد ••• وبعدئذ ••• ابتداء من تلك اللحظة أصبح السيد جوليادكين لا يدرك شيئا مما يجرى حوله ، وها هو ذا يظهر فى قاعة الرقص منقضاً انقضاض الصاعقة •

وشاءت المصادفة التى تشبه التعمد ، أن يكون الرقص متوقفا فى تلك اللحظة بعينها • السيدات يتجولن فى القاعة جماعات متألقة•والرجال مجتمعون حلقات تتحدث ، وبعضهم يطوفون فى القاعة محتجزين حساواتهم للرقصة القادمة • ولكن السيد جوليادكين لم ير الا كلارا أولسوفيفنا ، والا آندره فيليبوفتش الى جانبها • ولاحظ أيضا فلاديمير سيميونوفتش ، ثم لاحظ ضابطين أو ثلاثة ، وشابين أو ثلاثة شبان لهم مظهر مليء بوعود كثيرة ••• وعود يكون بعضها فى بعض الأحيان قد تحقق ••• وكأن النابض الذى دفع جوليادكين دفعا الى دخول حفلة الرقص التى لم يُدع اليها كان ما يزال يحركه هو نفسه • فها هو ذا يتقدم ثم يتقدم ، فيصطدم فى طريقه بمستشار ويدوس على قدمه ؛ ثم يسير أثناء اندفاعه على أطراف من ثوب سيدة عجوز فيمزقه ، ويزحم خادما كان يطوف على المدعوين بطبق ، ويصدم سيدا آخر أيضا ، ولكن دون أن يلاحظ شيئا من هذا كله ، أو قل متظاهرا بأنه لا يلاحظ شيئا

ولا يرى شيئا ، وانما هو يتقدم ثم يتقدم الى أن وجد نفسه وجها لوجه أمام كلارا أولسوفييفنا •

لا شك أبدا ، نعم لا ريب اطلاقا فى أنه لو استطاع فى هذه اللحظة بعينها أن يغيب تحت الأرض الى الأبد ، لفعل ذلك بغير أى تردد، وبسرور عظيم • ولكن فات الأوان ، وما وقع فقد وقع •

أمر لا يغتفر ••• ما الذى بقى عليه أن يعمله ؟ قال السيد جوليادكين لنفسه : « الصمود عند الاخفاق ، والاستمرار عند النجاح »• ليس السيد جوليادكين انسانا ماكرا يدبر المكائد ، انه لا يملك فن تلميع خشب الأرض بنعليه ••• ذلك هو الأمر • وشر ما فى المسألة أن هؤلاء اليسوعيين يتدخلون ••• اليسوعيون ••• لا شأن له بهم الآن • وها هم جميع أولئك الناس الذين كانوا حتى تلك اللحظة يتجولون ويتحدثون ويضحكون ، ها هم أولاء يتوقفون فجأة بما يشبه السحر ، ويصمتون ويتحلقون دائرةً حول السيد جوليادكين •

أما بطلنا فكأنه كان لا يرى شيئا ولا يسمع شيئا ••• كان لايستطيع أن ينظر اليهم •• لا •• ما كان له أن ينظر اليهم بحال من الأحوال• كان واقفا هنالك ، مسمَّرا على قدميه ، مطرقا الى الارض •

قال فى نفسه « يمينا لأطلقن على رأسى رصاصة فى هذه الليلة •• أما الآن فليكن ما يكون • » • وما كان أشد دهشته وأعمق انشداهه هو نفسه حين أخذ يتكلم فجأة • بدأ السيد جوليادكين كلماته بالتهنئات والتمنيات المألوفة •

انطلق يزجى التهنئات بلا مشقة ، ولكنه حين وصل الى التمنيات أخذ يدمدم• وشعر فى ذات نفسه أنه اذا أخذ يجمجم بكلام غير مفهوم

فقد فسد كل شيء حتما • وذلك ما وقع • لقد تخبط لسانه ••• فتوقف عن الكلام ••• غاص فى الكلمات ، احمر وجهه ، فقد توازنه •• رفع عينيه •• طاف بها على الحضور طويلا •• تفرس فى الناس •• انهار •

المدعوون من حوله جامدون ، بكم ، ينتظرون النهاية • وأخذت دمدمات تسمع خارج الحلقة • وانطلقت ضحكات • نظر السيد جوليادكين الى آندره فيليبوفتش نظرة مذلة وخضوع • فرد عليه آندره فيليبوفتش بنظرة كانت خليقة أن تلقيه على الارض جثة هامدة بدون شك ، لولا أنه كان قد أصبح أقرب الى الموت منه الى الحياة قبل ذلك • وطال الصمت•

تمتم السيد جوليادكين يقول بصوت لا يكاد يسمع ، وهو يشبه أن يكون ميتا من شدة الذعر :

ـ مرد هذا كله الى ظروفى الخاصة ، الى حياتى الخاصة يا آندره فيليبوفتش • ليس هذا خطوة رسمية يا آندره فيليبوفتش •

أجابه آندره فيليبوفتش بصوت أجش :

ـ ينبغى لك أن تستحى أيها السيد ، ينبغى لك أن تستحى •

كان آندره فيليبوفتش فى ذروة الاستياء • وتناول يد كلارا أولسوفييفنا وأدار ظهره للسد جوليادكين •

ـ ليس لى أن أستحى يا آندره فيليبوفتش • مم أستحى ؟

كذلك تمتم السيد جوليادكين ، بينما كانت عيناه تطوفان على الحفل باحثتين بين أفراد هذا الجمهور المتجمد عن وجه معروف ، عن انسان من بيئته ، من منزلته الاجتماعية •

وأردف يقول بصوت ما يزال خافتا :

ـ ليس هذا بشيء يا سادتي ، ليس هذا بشيء ، أؤكد لكم ، ماهذا بشيء • ذلك أمر يمكن أن يقع لجميع الناس •

وحاول جوليادكين أن يخرج من الحلقة مترددا متعثرا فأفسح له ممر • واستطاع بطلنا أن يتسلل بين صفين من المشاهدين المبهوتين المستطلعين المتعجبين • لقد كان قدره يقوده • أدرك السيد جوليادكين ذلك ادراكا كاملا • لا شك أنه كان مستعدا لأن يدفع أغلى ثمن في سبيل أن يجد نفسه مرة أخرى في ركنه الصغير ذاك من دهليز سلم الخدم ، دون أن يكون عليه من أجل ذلك أن يخالف قواعد الحشمة والأدب • ولكن ذلك كان مستحيلا بعد الذي وقع • لذلك وجه جميع جهوده نحو العثور على ركن صغير هادىء ، ركن صغير يستطيع أن يندس فيه ، أن يلبد فيه • لو استطاع أن يقع على مثل هذا الركن لمكث هنالك متواضعا ساكنا مسالما لا يزعج أحدا ولا يلفت اليه نظر أحد ؛ ولاستطاع بسلوك لا مأخذ عليه أن يحظى بحسن معاملة المدعوين ورب المنزل •

ولكن جوليادكين شعر في تلك اللحظة بنوع من دوار • شعر أن قواه تخور ، وأنه يوشك أن يسقط • وكان قريبا جدا من الركن الصغير المنشود ، فالتجأ اليه واعتصم به ، واستقر هنالك ، ثم لم يلبث أن اتخذ وضع مشاهد يلاحظ ملاحظة محايدة • وفي الوقت نفسه اختطفت يداه ظهري كرسيين واستولتا عليهما استيلاء حازما ، وأخذت عيناه ، وقد استردتا نشاطهما تقتحمان أعين أصدقاء كلارا أولسوفيفنا المتجمعين حوله• كان على مقربة منه ضابط فارع القامة قوي الجسم جميل المظهر • فشعر جوليادكين ازاء أنه أشبه بذبابة صغيرة •

ـ سيدي الملازم ، ان هذين الكرسيين محجوزان ؛ فهذا لكلارا

أولسوفييفنا وهـذا للأميرة تشفتشيكانوف ، اللتـان ترقصـان الآن ، وأنا أحفظهما لهما .

كذلك تمتم السيد جولیادکین بلهجة ضارعة . فلم يجبه الملازم ، بل رشقه بنظرة صاعقة ، وأشاح وجهه عنه . واذ شعر بطلنا أنه صد من هذه الجهة وخذل ، جرب حظه في جهـة أخـرى ، فاستفرد سيدا خطيرا الشأن يزدان صدره بوسام من درجة عالية ، وهو مستشار دولة ، فكانت النظرة التي رد عليه بها هذا السيد تبلغ من تثبيط العزيمة أن أثرها كان أشبه بأثر قادوس من ماء بارد صب على رأسه. فصمت السيد جولیادکین.

قال لنفسـه : « فلنلزم الصمت . لا كلمـة بعـد الآن . يجب أن يدركوا تمام الادراك أنني واحد كسـائر النـاس ، أنني مدعـو كسائر المدعوين ، وأن مركزي لا يقل علوا عن مراكزهم » .

فلما اتخذ هذا القرار ثبت نظره على أقفية ردنجوته . ولكن بصره لم يلبث أن انتقل الى سيد ذي مظهر محترم كل الاحترام .

قال لنفسه : «هذا السيد يضع على رأسه شعرا مستعارا ، فاذا نزعت عنه الشعر المستعار لم تجد تحته الا جمجمة عارية ، نعم ، جمجمة لاتقل ملاسـة عن راحة كفي » . وما كاد السيد جولیادکین يقـوم بهـذا الاكتشاف الخطـير حتى اتجه فكره الى الأمراء العـرب . قال لنفسه : « يكفي أن تنزع العصبة التي يضعونها على رءوسهم تيمنـا بالنبي العظيم حتى لا تظهر تحتها الا جمجمة ملساء ، جمجمة عارية تماما » .

ثم انتقل فكره ، بتداعي المعاني من غير شك ، عن طريق التفكير في شئون المسلمين ، الى البوابيج التركية ، فلاحظ أن آندره فيليبوفتش كان ينتعل حذاءين هما الى البوابيج التركية أقرب منهما الى الأحذية .

ومهما يكن من أمر فقد بدا على جوليادكين أنه أخذ يألف وضعه قليلا قليلا • وبرق في ذهنه خاطر : قال لنفسه : ليت هذه الثريا تنفصل عن سلسلتها في هـــذه اللحظة ، ليتها تسقط ، اذن لهرعت أنقذ كلارا أولسوفييفنا على الفور • سوف أنقذها عندئذ ثم لا أزيد على أن أقول لها: « لا تجزعي ! ماهذا بشيء • أنا منقذك» • ثم أخذ السيد جوليادكين يبحث عن كلارا أولسوفييفنـا بين الحضـور ، ولكنه بدلا من أن يراها ، رأى جيراسيموفتش ، رئيس الخدم العجوز في منزل أولسوفي ايفانوفتش • كان الخادم العجوز مقبلا عليه ، وقد لاح في وجهه انشغال البال • ارتعش السيد جوليادكين • شعر باحساس غريب ، غامض ، لكنه مزعج ازعاجا واضحا على كل حال • جعد السيد جوليادكين وجهـــه ونظر حوله • تمنى لو يأفل ، تمنى لو يخرج من القـاعة ، خفية ، خلسـة ، محـاذيا الجدران ، لا يراه أحد ولا يسمعه أحد • تمنى لو يتبخر ••• ولـكن كان الأوان قد فات •• فقبل أن يتخذ قرارا ، كان جيراسيموفتش قـد أصبح أمامه •

قال بطلنا وهو يبتسم :

ـ اسمع يا جيراسيموفتش ••• يجب عليك أن ••• أنظر ••• هل ترى تلك الشمعة هناك على الشمعدان الكبير ؟ انها توشك أن تسقط ••• يجب عليك أن تأمر بعدلها يا جيراسيموفتش ، والا سـقطت ••• سقطت حتما •

ـ أية شمعة ؟ ولكنها معدولة ! ••• أما أنت فان شخصا يطلبـك هناك •

ـ من يطلبني يا جيراسيموفتش ؟

ـ لا أعرف من هو تماما • انه خادم مرسل من ••• سألني : « هل

ياكوف بتروفتش جوليادكين هنا ؟ قل له أن يأتي من فضلك • هناك أمر مستعجل وهام جدا •••» • ذلك ما قاله لى •

ـ لا يا جيراسيموفتش ، أنت مخطىء ، أنت مخطىء قطعا •

ـ أشك فى ذلك •

ـ لا يا جيراسيموفتش ، ليس هناك أى شك ، ليس هناك أى شك اطلاقا • لم يطلبنى أحد • لا يمكن أن يطلبنى أحد ، على كل حال •• وأنا هنا فى بيتى ، أقصد فى مكانى •

استرد جوليادكين أنفاسه ونظر حوله • انه يشتبه فى الامر • جميع الأعين مصوبة اليه ، جميع الآذان متجهة نحوه • ان كافة هؤلاء النـاس المجتمعين فى القاعة يظهرون معلقين به ، منتظرين ما سيقع • كأن الحضور جميعا كانوا يشاركون فى الحادث • السيدات يوشوشن قلقات ، وقـد ابتعدن قليلا • رب المنزل متلبث على مسافة من جوليادكين • انه لا يبدو مشاركا مشاركة فعالة فى محن بطلنا • كل شىء يجرى بكثير من اللبـاقة والرهافة على كل حال • ومع ذلك شعر بطلنا شعورا واضحا بأن اللحظـة الحاسمة قد حانت • ان عليه أن يضرب ضربة كبرى • آن له أن يبيـد أعداءه • كان السيد جوليادكين مضطربا اضطرابا عميقا • وأخـيرا واتاه الوحى • فها هو ذا يخاطب جيراسيموفتش قائلا بصوت مرتجف لـكنه حاسم :

ـ لاياصديقى ، لا ؛ مامن أحد يطلبنى • أنت مخطىء • أكثر من ذلك انك منذ هذا الصـباح قد أخطأت حين أكدت لى ••• نعـم ، حين تجرأت فأكدت لى (هنا رفع جوليادكين صوته) ان أولسوفى ايفانوفتش ، المحسن الى ، الانسان الذى كان لى منذ زمن طويل بمثابة أب ، قد أوصد

دونى بابه فى هذا اليوم الرائع ، فى هذا اليوم من أياه سعادة قلبه ، قلب الآب ...

تصفح جولیادكین الحضور . انه يبدو راضيا عن نفسه ، ويبدو فى الوقت ذاته منفعلا انفعالا عميقا . وظهرت دموع في أطراف أهدابه .

استأنف يقول :

ـ أعود فأقول يا صديقي انك قد ارتكبت خطأ لا يغتفر .

لحظة مؤثرة . أحس جولیادكین أنه قد أحدث أثرا محققا . وقف وقفة متواضعة ، متجمعا على نفسه ، غاضا بصره ، ينتظر أن تتدفق عليه عواطف أولسوفى ايفانوفتش ، أن يعانقه أولسوفى ايفانوفتش . بدا على الحضور الاضطراب والانشداه . حتى جيرا سيموفتش الرهيب ، الذى لا يرحم ، لاح عليه أن نفسه قد اهتزت ، فهو لا يستطيع أن ينطق بكلمة ... ها هى ذى الأوركسترا ، الأوركسترا اللعينة ، تأخذ على حين فجأة تعزف رقصة بولكا .

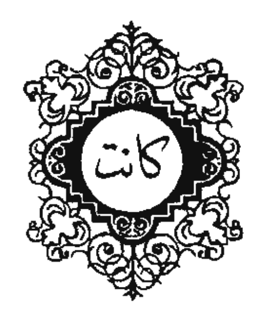
انقطع السحر . انتهى كل شىء . انتفض السيد جولیادكین . تقهقر جيراسيموف قليلا الى وراء . اندفع جمهور المدعوين يرقص كبحر مائج . ان فلاديمير سيميونوفتش هو الذى افتتح الرقص مع كلارا أولسوفييفنا . وتبعهما الملازم الجميل يراقص الأميرة تشفتسيكانوف . الذين لم يرقصوا أسرعوا يعجبون بأزواج الراقصين الذين اندفعوا يتحركون على أنغام البولكا . ما أجمل رقصة البولكا ! انها رقصة حديثة جدا ، مثيرة جدا . لا شىء مثلها يدير الرءوس . حتى لقد أنست الناس السيد جولیادكین الى حين . غير أن انقلابا كبيرا لم يلبث أن وقع فجأة . اضطرب الناس وتزاحموا ... وتوقفت الموسيقى وسط البلبلة الشاملة . لقد وقع حادث

غريب ليس فى الحسبان. ان كلارا أولسوفييفنا قد تهاوت على أحد المقاعد، متقطعة الأنفاس ، محمرة الخدين ، لاهثة الصدر خائرة القوى ... لاشك أن الرقص هو الذى أتعبها . خفقت جميع القلوب لها . وهرع الناس يحتشدون حولها . كل واحد منهم يريد أن يظهر اهتمامه بها وقلقه عليها وامتنانه من المتعة الكبرى التى هيأتها لهم جميعا . وفجأة ظهر جوليادكين أمامها . انه شاحب الوجه ، مضطرب اضطرابا عميقا ، يبدو خائر القوى تماما هو أيضا ... انه يجر نفسه جرا ... وها هو ذا يمد يده نحـوها ناظرا اليها نظرة ضارعة . كانت كلارا أولسوفييفنا مصعوقة فلم يتسع وقتها لسحب يدها . ونهضت تستجيب لدعوته كأنها آلة لا تعى ماذا تفعل. اهتز السيد جوليادكين ، وخطا خطوة الى أمام ، ثم خطوة أخرى ، ورفع ساقه ، وهم بخطوة ثالثة فضرب الارض بقدمه مترنحا فاقدا توازنه ... لقد أراد أن يرقص هو أيضا مع كلارا أولسوفييفنا ... أطلقت الفتاة صرخة. فهرع أصدقاؤها يخلصون يديها من قبضة يد السيد جوليادكين. فما هى الا لحظة حتى كان بطلنا مدفوعا ملقى على مسافة عشر خطوات من الجميلة . وسرعان ما تكونت حلقـة جديدة حوله . وسُمعت صرخات حادة . انهما سيدتان عجوزتان أوشك السيد جوليادكين أن يقلبهما أثناء تقهقره المفاجىء . وعمت فوضى شديدة . الناس يسائل بعضهم بعضا ، ويتناقشون ، ويزمجرون . الاوركسترا صمتت تماما . السيد جوليادكين يتحرك وسط الحلقة التى احتشدت حـوله ويدمدم كالآلة وهـو يبتسم ابتسامة ضعيفة قائلا : « نعم ... ولم لا ؟ البولكا فى رأيى رقصة حديثة. هى رقصة شائقة ، وُجدت لمتعة هاته السيدات ... ولكننى أرضى أن أجربها أنا أيضا ، بسبب الظروف ... » .

ولكنهم لم يحفلوا برضاه . فما هى الا لحظة حتى أحس بطلنا بيد تمسك ذراعه ، وأخرى تتناوله من ظهره ، فى كثير من الرفق مع ذلك .

وأحس أنه يدفع في اتجاه معين . وسرعان مالاحظ أنهم يقودونه قدما نحو الباب . أراد السيد جوليادكين أن يقوم باشارة ، أن يقول كلمة . ولكن لا ... لقد أصبح لا يريد شيئا البتة . أصبح يكتفي بأن يضحك ضحكا ضعيفا ، كأنه آلة لا ارادة لها . وشعر أخيرا بأنهم يلبسونه معطفه، ويغطسون رأسه في قبعته حتى العينين . وأدرك بعد ذلك أنه صار على فسحة السلم ، في البرد والظلام ... وأنه أخذ يهبط السلم . زلت قدمه . خيل اليه أنه يسقط في هاوية . أراد أن يصرخ . ولكنه كان قد أصبح في فناء الدار . شعر بنسمة طرية تهب على وجهه . توقف هنيهة . وفي تلك اللحظة نفسها ترامت الى أسماعه أصوات رقصة جديدة . لقد عادت الاوركسترا تعزف . فتذكر السيد جوليادكين كل شيء فجأة . بدا أنه يسترد قواه . انتزع نفسه من المكان الذي كان ثاويا فيه حتى ذلك الحين كالمسمر تسميرا . وثب . طار . ظل يركض لا يلوى على شيء . الى أين كان ذاهبا ؟ الى أي مكان ... الى أي مكان يوجد فيه هواء ... توجد فيه حرية ...

الفصل الخامس



الساعة تدق منتصف الليل فى جميع أبراج سان بطرسبرج ، حين وصل السيد جوليادكين الى رصيف نهر فونتاكا قرب جسر اسماعيليوفسكى. كان خارجا عن طوره . انه يهرب من أعدائه وما يوقعونه فيه من ضروب الاضطهاد . يهرب من وابل الضربات التى يمطرونه بها ، يهرب من صرخات النساء العجائز المذعورات ، ومن نظرات آندره فيليبوفتش القاتلة . كان السيد جوليادكين ميتا ، متلاشيا ، بأوسع معانى الكلمة . واذا كان لا يزال الآن قادرا على أن يركض، فما ذلك الا بمعجزة ، بمعجزة لايكاد يصدقها هو نفسه. وكانت الليلة رهيبة ، رطبة، يملؤها الضباب والمطر والثلج ، وتتموج فيها أنواع الزكام والرشح والحمى، ليلة مثقلة بجميع هبات شهر نوفمبر فى سان بطرسبرج . الريح تزأر فى الشوارع المقفرة ، وتجعل مياه نهر فونتاكا السوداء تثب الى مستوى أعلى من مستوى سلاسل الضفة ، وتأتى تناكد المصابيح الضئيلة المنثورة على

الرصيف ، فتستجيب المصابيح لزئيرها المشئوم بصرير نحيل حاد . أصوات شاكية موجعة الأنين ، ألحان لا نهاية لها يعرفها جميع سكان العاصمة حق المعرفة . المطر والثلج يهطلان فى آن واحد معا . والماء تحمله هبات الريح ، فيتساقط خطوطا كثيفة تكاد تكون أفقية ولا تقل غزارة عن الماء المنهمر من مضخة . وكانت القطرات تضرب وجه المسكين جوليادكين ضربا شديدا وتمزقه تمزيقا ، حتى لكأن ألوانا من الابر والدبابيس تنفذ فى جلده .

وفى وسط ظلام الليل ، الذى تخترقه قرقعات العربات البعيدة ويخترقه زئير الريح وصرير المصابيح ، كانت تسمع ضجة متصلة مشئومة هى ضجة الماء المتساقط على الأرض من الأسطح والأفاريز والمزاريب وما من انسان يرى فى الطريق ، وهل يمكن أن يرى فى الطريق انسان فى مثل هذه الساعة المتأخرة وفى مثل هذا الجو الرهيب ! كان السيد جوليادكين وحده يكردح على رصيف الفونتانكا بخطى صغيرة سريعة . انه يستعجل الوصول بأقصى سرعة الى بيته الواقع فى الطابق الرابع من عمارة بشارع « الدكاكين الست » . كان الثلج والمطر والريح وجميع عناصر الطبيعة الثائرة فى سماء تشرين الثانى (نوفمبر) بسان بطرسبرج، على ميعاد فى هذه الليلة الفظيعة ، تهاجم جوليادكين البائس من كل صوب بلا هوادة ، بعد أن هدته مصائبه الخاصة هدا كافيا ، فهى تنفذ الى عظامه، وتعمى بصره ، وترجحه وترنحه وتجعله يتعثر ويخرج عن طريقه ، وتسلبه فى الوقت نفسه آخر ما بقى له من عقل . كأن تحالفا قد قام بين قوى الطبيعة وبين أعدائه بغية افساد نهاره ومسائه وليله افسادا كاملا .

ولكن من الغريب أن السيد جوليادكين كان يبدو غير مكترث أى اكتراث بشىء مما كان يصيبه به القدر من أهوال شديدة فى ذلك الأوان.

فان ما جرى له قبل لحظات فى منزل مستشار الدولة بيرنديف كان قد قلب نفسه رأسا على عقب وهد روحه هدا • فلو رآه فى هذه اللحظة مشاهد محايد ، ورأى كيف كان المسكين يهرول على الرصيف ، اذن لأدرك على الفور مدى النوازل التى انصبت عليه منذ حين ؟ ولأدرك أن السيد جوليادكين لم يكن ينشد فى تلك اللحظة الا شيئا واحدا هو أن يهرب ، أن يختبىء ، أن يهرب من نفسه ، أن يختبىء عن نفسه • نعم، ذلك ما كان ينشده السيد جوليادكين فى تلك اللحظة • بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك • ان السيد جوليادكين لم يكن يحاول بكل ما أوتى من قوة أن يهرب من نفسه فحسب ، بل كان كذلك مستعدا لأن يبذل كل شىء فى سبيل أن يتلاشى تلاشيا تاما ، فى سبيل أن يصير الى رماد فورا • هو الآن لا يلوى على شىء ، ولا يلتفت الى شىء ، ولا يدرك شيئاً • انه يبدو غير حافل اطلاقا بجميع الحواجز التى تنتصب أمامه فى تلك الليلة المشئومة ، غير حافل لا بطول الطريق ، ولا بقسوة الجو والمطر والثلج والريح •

وعلى رصيف نهر الفونتاكا سقط الجرموق الذى كان يغطى حذاءه الأيمن ، وبقى غاطسا فى الوحل والثلج ، فلم يلاحظ السيد جولياد كين ذلك ، ولا خطر بباله لحظة أن يعود أدراجه باحثا عنه • كان السيد جولياد كين من شدة انشغال البال وشرود الذهن أنه رغم الاعصار توقف عدة مرات وظل على حافة الرصيف مسمرا كالوتد متجمدا بلا حراك ، يتذكر جميع تفاصيل ذلك السقوط القاسى الذى عاناه • كان يحس أنه يموت • وما هى الا ثانية واحدة حتى كان يستأنف ركضه المسعور ، هاربا من عدو خفى لا يرى ، محاولا أن يفلت من مصائب جديدة أشد هولا • كانت حاله رهيبة حقا ••

ووقف السيد جولياد كين أخيرا خائر القوى، فاتكأ على سور رصيف

النهر ، فى وضع انسان أخذ أنفه يرعف فجأة ؛ وراح السيد جوليادكين يتأمل مياه الفونتاكا السوداء العكرة • لا نستطيع أن نقول كم من الزمن لبث على هذه الحال • ولكن الأمر المحقق هو أنه قد بلغ غاية الحزن واليأس والارهاق ، حتى كاد يختنق • لقد نسى كل شيء ، كل شيء ، جسر اسماعيلوفسكى ، وشارع « الدكاكين الستة » ، ومصائبه الأخيرة ••• وأصبح لا يبالى شيئا ولا يحفل بشيء • لقد انتهت القضية ، وصدر الحكم ، وأبرم ••• ولا حيلة له فى دفع ما حدث •

وفجاة ••• فجأة ••• ارتعش جسمه كله من قمة الرأس الى أخمص القدم • وها هو ذا يتقهقر خطوتين الى وراء ، بوثبة غريزية ، ويجعل يلقى نظرات على ما حوله وهو فريسة قلق لا يغالب • ولكن ليس هنالك شيء خاص ، ليس هنالك أحد ••• ومع ذلك ، مع ذلك ، كان السيد جوليادكين قد اعتقد فى هذه اللحظة أنه لمح شخصا كان موجودا هناك ، قريبا جدا منه ، متكئا على سور الرصيف • والغريب أن هذا الشخص قد خاطبه ، وكلمه بصوت سريع متقطع • ان السيد جوليادكين لم يدرك تماما معنى أقواله ، ولكن لا شك أن أقواله كانت تدور على شيء يتصل به اتصالا وثيقا •

« ما هذا ؟ هل حلمت ؟ » كذلك تساءل السيد جوليادكين وهو يجيل بصره من جديد على ما حوله ••• « ولكن أين أنا فى الواقع ؟ آه •• آه •• » • بهذا ختم هتافه وهو يهز رأسه • ومع ذلك أخذ يتفحص الفضاء الممطر البارد الذى يحيط به وقد تملكه قلق شديد ، بل رعب قوى • حاول أن ينفذ بصره فى الظلمات التى يملؤها البخار من حوله • ولكنه لم ير شيئا • بدا له كل شيء على حاله لم يتغير • وتكاثر هطول الثلج غزارة وكثافة • فلا يستطيع المرء أن يميز شيئا أبعد من

عشرين خطوة • وكان صريف المصابيح قد اشتد أيضا ؛ وكانت الأغنية الحزينة الشاكية التى تغنيها الريح قد ازدادت كذلك حزنا وشكاة ••• فكأنها ضراعات شحاذ عاد يكرر استعطاءه مصرا على أن ينفح ما يسد به رمقه • « آه ••• ماذا جرى لى ؟ » ، كذلك تساءل السيد جولياـادكين وهو يستأنف سيره فى طريقه بعد أن أنعم النظر فيما حوله مرة أخيرة •

وفى أثناء ذلك ظهر شعور جديد فى نفس السيد جولياادكين • لم يكن هذا الشعور قلقا ولا رعبا ••• ان قشعريرة متشنجة تسرى الآن فى جسمه كله ••• لحظة أليمة ••• احساس لا يطاق •

« لا ضير •• ليس هذا بشىء ••• قد لا تكون لهذا أية نتائج ، وقد لا يسىء الى شرف أحد • لعل الأمور كلها تجرى على أحسن وجه ••• لعل جميع المسائل ستحل مع الزمن ، فلا يقول أحد بعد ذلك شيئا، ويبرر بعد ذلك كل شىء » • كذلك تابع السيد جولياادكين يقول لنفسه دون أن يفهم هو نفسه معنى أقواله • شعر السيد جولياادكين ببعض العزاء حين راودت نفسه هذه الخواطر • فانتصب قليلا ، ونفض ثيابه ، وأسقط الثلج الذى كانت طبقة كثيفة منه تغطى قبعته وياقته ومعطفه وربطة عنقه وحذاءيه • ولكنه لم يستطع أن يتخلص من ذلك الشعور الغريب الحاد ، من ذلك الغم الهائل ••• ودوت طلقة مدفع فى مكان ما ، بعيد جدا •

قال بطلنا :

« يا له من جو غريب ! ان طوفانا يوشك أن يحدث • يظهر أن الماء قد ارتفع ارتفاعا كبيرا » • فما ان عبر عن هذه الفكرة ، بل قل ما ان تصورها حتى رأى أمامه شخصا مقبلا عليه • لعله عابر أخرته ظروف طارئة ، كالسيد جولياادكين تماما • فلا شىء فى هذا خارق للعادة فيما

يبدو • ولكن السيد جوليادكين اضطرب اضطرابا شديدا وذعر ذعـرا قوياً ، لسبب نجهله ••• لا لأنه خشى أن يكون هـذا العابر رجلا سيىء الاخلاق ••• قال السيد جوليادكين لنفسه : « قد يكون وجود هذا الرجل المجهول هنا مصادفة من المصادفات لا أكثر ••• ولكن قد يكون لاقبـاله على سبب ، فهو يريد أن يقطع طريقي وأن يتحرش بى ••• » والحق أن السيد جوليادكين لم يعبر عن هذه الفكرة تعبيرا واضحا جدا ؛ فلعلها لم تكن أكثر من حدس خاطف يصاحبه احساس أليم • ثم ان أوان التفكير والشعور باحساسات كان قد فات • فالرجل قد أصبح على مسافة خطوتين من السيد جوليادكين • فسرعان ما عمد السيد جوليادكين ، على عادته التى يحرص عليها ، الى اصطناع وضع خاص جدا ، وضع يعبر تعبيرا بليغا عن أنه ، هو جوليادكين ، موجود هنا عرضا ، ماض فى طريقه انسـانا طيبا مسالما ، لا يفكر فى أى شر ولا يخطر بباله أى سوء ، وأن الطريق عريض يتسع لجميع الناس ، أما هـو ، جوليادكين ، فليس فى نيتـه أن يستفز أحدا أو أن يتحدى أحدا • وفجأة توقف جوليادكين متجمدا كأن صاعقة نزلت عليه • والتفت بغتة ليتفحص عابر السبيل الذى تجاوزه منذ هنيهة • لكأن حركته قد أحدثها نابض أدار رأسه الى الوراء كما تدير الريح كف المعدن التى تدل على اتجاهه • وكان الرجل المجهول قد غار بسرعة فى اعصار الثلج • كان يبدو هو نفسه مستعجلا أيضا • وكان هو نفسه غارقا فى معطفه حتى الرأس كذلك ، مثل جوليادكين تماما ، وكان يكردح هو أيضا على طول رصيف الفونتاكا بخطى صغيرة سريعة متقطعة بعض التقطع •

« ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ » • كذلك تمتم السيد جوليادكين وهـو يبتسم ابتسامة شك وحذر ، بينما كانت تسرى فى جسمه كله قشعريرة تهزه هزا ، وبينما أصبح ظهره كالجليد صقيعا • كان الرجل المجهـول

قد غاب ، حتى أن وقع أقدامه أصبح لا يسمع • ومع ذلك ظل السيد جوليادكين مسمرا فى مكانه لا يتحرك محدقا ببصره فى الاتجاه الذى سار فيه عابر السبيل • وأخيرا ثاب السيد جوليادكين الى رشده قليلا قليلا ، فقال لنفسه متحسرا : « ماذا دهانى ؟ أترانى أصبحت مجنونا ؟ » • ثم التفت واستأنف سيره معجلا ومضاعفا خطاه ، محاولا أن يخلى دماغه مما يغلى فيه ، حتى أنه أغمض عينيه فى سبيل أن يحقق هذا الهدف• وفجأة ، وسط زئير الريح وهمهمة العاصفة سمعت أذناه مرة أخرى وقع أقدام تقترب منه ، فارتعش ، وفتح عينيه ، فاذا هو يرى أمامه من جديد ، على مسافة عشرين خطوة ، شكلا انسانيا • كان الشكل يتقدم نحوه سريعا • كان الرجل يبدو مستعجلا • وكانت خطواته قوية متقطعة • ان المسافة التى تفصل بينهما تتناقص تناقصا سريعا• أصبح السيد جوليادكين يستطيع أن يميز قسمات وجه هذا العابر المتاخر تمييزا واضحا • وها هو ذا يتفرس فيه ••• فيطلق صرخة قوية من فرط الانشداه والرعب • اصطكت ركبتاه • ان العابر هو ذلك الرجل نفسه الذى التقى به جولياد كين قبل عشر دقائق ، يظهر الآن له فجأة من جديد • على أن ظهور هذا الرجل مرة أخرى على هذا النحو الذى يثير وحده الحيرة والاضطراب لم يكن مع ذلك هو السبب الوحيد فى انشداه السيد جولياد كين • وقد بلغ السيد جولياد كين من شدة الاضطراب أنه جمد فى مكانه وتنحنح بصوت أجش ، وأراد أن يقول شيئا ، ثم أسرع فجأة يلاحق الرجل المجهول معولا ، ربما ليحاول أن يوقفه بأقصى سرعة ممكنة • وتوقف الرجل المجهول فعلا ، ولبث على مسافة عشر خطوات من بطلنا • كان ضوء المصباح القريب ينيره كله • التفت نحو السيد جولياد كين وتهيأ للاستماع الى كلامه مهموم الوجه نافد الصبر •

قال بطلنا بصوت مرتجف :

ـ معذرة . لعلني أخطأت ...

كان واضحا أن الرجل المجهول قد ضاق ذرعا بإيقافه ، فلم يلبث أن أدار ظهره وابتعد مسرعا ، كأنه يريد أن يتدارك التواني التي أضاعها في صحبة السيد جوليادكين. أما بطلنا فكانت أنسجة جسمه كلها ترتجف، وكانت ركبتاه ترتجحان ، ثم خارت قواه فتهاوى على نصب على حافة الرصيف وهو يئن . يجب أن نذكر أن لانفعاله هذا سببا . ذلك أنه قد أحس أنه يعرف الرجل المجهول . بل يجب أن نقول أكثر من ذلك . نعم لقد كان يعرفه . هو على يقين من أنه يعرفه . لقد سبق أن رآه مرارا . في أية مناسبة ؟ أمس ؟ ولكن ليس الأمر الهام أنه رآه مرارا قبل الآن . ان هذا الرجل ليس فيه ما يمكن أن يلفت الانتباه من أول وهلة . انه رجل كسائر الرجال ، رجل ذو مظهر لائق كمظهر سائر الرجال . ولعله يمتاز بمزايا كبيرة . رجل طيب على وجه الاجمال ، لا يريد بأحد أذى .

ان السيد جوليادكين لا يحمل له أية عداوة ، لا يكن له أي بغض، بل لا يضمر له أي شعور من مشاعر الكره . بالعكس. ومع ذلك ـ وهذا مايبدو لنا على جانب عظيم من خطورة الشأن ـ فان السيد جوليادكين لا يريد بأية حال من الأحوال أن يلقى هذا الرجل ، ولا سيما في الظروف الراهنة . نعم ، ان السيد جوليادكين يعرف هذا الرجل معرفة تامة . بل انه يعرف اسمه واسم أسرته . ومع ذلك فانه لو أعطي ذهب العالم بأسره لما أراد أن يناديه بهذا الاسم ، ولا أن يعترف بأن هذا الرجل يسمى بهذا الاسم فعلا . أما كم قضى السيد جوليادكين من الوقت على هذه الحالة من الانشداه والانصعاق قاعدا على النصب ، فذلك ما لا أستطيع أن أحدده على وجه الدقة . كل ما أعرفه أنه بعد أن ثاب أخيرا الى صوابه

نهض عن النصب فجأة وأخذ يركض كمجنون ، بكل ما أوتي من قوة ، حتى تقطعت من الركض أنفاسه • وفي أثناء ذلك بارحه أحد حذاءيه تاركا الحذاء الثاني يتيما • لكن ركضه أخذ يتباطأ شيئا فشيئا ليستطيع أن يتنفس • ونظر فيما حوله فلاحظ أنه قد قطع رصيف الفونتاكا كله دون أن يشعر بذلك ، وأنه عبر جسر آينتشكوف ، وخلف وراءه جزءا كبيرا من شارع نفسكي • انه الآن في ناصية شارع ليتانيايا • فسار في هذا الشارع •

كان عندئذ في وضع انسان واقف على حافة هاوية : الارض تحت قدميه تتفتت ، تهتز ، تتحرك ، تتدحرج نحو قاع هوة تجر المسكين الذي أصبح لا يملك لا من القوة ولا من الشجاعة ما يمكنه من أن يثب وثبة الى الوراء ، ومن أن يحول بصره عن اللجة الفاغرة • ان الهوة تجذبه ، انه يثب فيها ، معجلا بنفسه لحظة ضياعه • كان السيد جوليادكين يحس ، يعرف ، يوقن أنه مقبل على مصيبة جديدة ما ، كأن يلتقي بالرجل المجهول مرة أخرى مثلا • ومن الغريب مع ذلك أنه كان يتمنى هذا اللقاء ، ويعده أمرا لا معدى عنه ولا مناص منه • انه لا يشتهي الا شيئا واحدا : أن يفرغ من هذا كله في أقرب فرصة ، وأن يوضح هذا الوضع أخيرا بأية وسيلة ، ولكن بأقصى سرعة ممكنة • وهو ما يزال يركض ، ما يزال يركض كأنما تحركه قوة غريبة غير منظورة • كان جسمه قد ضعف وتخدر • أصبح لا يستطيع أن يفكر في شيء ، ومع ذلك فان أفكاره تتعلق بكل شيء كأنها العوسج • وهذا كلب صغير تائه مبلل حتى العظام، مرتعش من شدة البرد ، يقتفي خطى بطلنا • انه يركض حذاءه ، جاعلا ذنبه بين قائمتيه ، لاصقا أذنيه برأسه ، ملقيا على السيد جوليادكين ، من حين الى حين ، نظرات تفيض خوفا وعطفا • وها هي ذي فكرة بعيدة ، كان بطلنا قد نسيها منذ زمن طويل ، فكرة دارسة من بقايا حادث قديم

ولا شك ، تعود الآن الى ذهنه • لم يستطع السيد جوليادكين أن يتخلص من هذه الفكرة • انها تمسك بخناقه ، تطرق دماغه طرقا ، تعذبه تعذيبا شديدا • « آه ••• يا للكلب الحقير القذر ؟ » • كذلك كان يردد السيد جوليادكين دون أن يفهم معنى كلماته • وأخيرا لمح الرجل المجهول عند ناصية شارع ايطاليا • ولكن الرجل المجهول لم يكن مقبلا عليه فى هذه المرة • كان يركض هو أيضا فى الاتجاه الذى يركض فيه بطلنا ، متقدما عليه بضعة أمتار • وهكذا وصل الرجلان الى شارع « الدكاكين الست»• كانت أنفاس السيد جوليادكين مقطوعة • توقف الرجل المجهول أمام المنزل الذى يسكنه السيد جوليادكين • وسُمع صوت رنين الجرس ، ثم سُمع صوت صرير المزلاج الحديدى ، وفُتح الباب ، فانحنى الرجل المجهول وتسلل وغاب • ووصل السيد جوليادكين الى الباب فى تلك اللحظة نفسها تقريبا ، فوثب اليه سريعا كالسهم ، واندفع الى الفناء غير حافل بهمهمات البواب ، فسرعان ما لمح رفيقه الغالى الذى غاب عن بصره هنيهة •

كان الرجل المجهول متجها نحو السلم المؤدى الى بيت السيد جوليادكين • فوثب بطلنا يتعقبه • ان السلم مظلم رطب وسخ ، وعلى فسحاته تتراكم أكوام من الخرق البالية ونفايات البيوت ، فمن كان غريبا عن هذا المكان لا يعرفه ، فلا بد أن يتوه فى الظلام وأن يقضى نصف ساعة فى صعود درجات السلم ، متعرضا عند كل خطوة لأن تنكسر ساقاه، متذمرا من السلم بهاجر القول تذمره من أصدقائه الذين شاءت عقولهم السخيفة أن تسكن فى عمارة كهذه العمارة • ولكن الرجل المجهول كان كمن ألف المكان واعتاد عليه ، فهو يصعد درجات السلم بخفة ورشاقة ، دون عناء ، عارفا كل موضع من مواضعه •

وأوشك السيد جوليادكين أن يدركه ، حتى أن حافة معطف الرجل المجهول قد لطمت أنف بطلنا عدة مرات . كان قلب بطلنا لا يكاد يخفق.

وتوقف الرجل السري أمام باب بيت جوليادكين ، فطرقه ، فما لبث بتروشكا أن فتح الباب ، وذلك أمر كان يمكن أن يثير دهشة بطلنا في أي ظرف غير هذا الظرف . لم يكن بتروشكا قد نام . لكأنه كان ينتظر هذه الزيارة انتظارا خاصا . دخل الرجل المجهول وتبعه الخادم حاملا شمعته بيده . اندفع بطلنا في الدهليز خارجا عن طوره ، واجتاز الممر الضيق دون أن ينضو معطفه أو أن يخلع قبعته ، ووقف على عتبة غرفته مصعوقا مشدوها كأن صاعقة نزلت عليه . لقد تحققت جميع نبوءاته التي أوحى بها اليه احساسه . ان كل ما خشيه ، وكل ما قدره فكره هو الآن بسبيل التحقق في الواقع . لقد انقطعت أنفاسه ، وأصاب رأسه دوار . كان الرجل المجهول جالسا أمامه ، على سريره هو ، يبتسم له ، ويغمز بعينه ، ويحرك له رأسه باشارات صداقة ومودة . انه هو أيضا لم يخلع معطفه وقبعته . أراد السيد جوليادكين أن يصرخ ، ولكنه لم يستطع . أراد أن يحتج ، ولكنه لم يقو على ذلك . انتصب شعره فوق رأسه . جلس دون أن يشعر أي شعور بما يفعل ، فكأنه ميت ذعرا ورعبا . وكان هنالك ما يدعو الى الذعر والرعب على كل حال . لقد عرف رفيق ليلته معرفة تامة آخر الأمر . ان رفيقه ذاك لم يكن الا هو نفسه . نعم ، انه هو نفسه ، هو جوليادكين بشخصه ، هو جوليادكين ثان ، لكنه شبيه به شبها مطلقا ، مماثل له تماما ، أو قل بكلمة واحدة انه ما يطلق عليه اسم « المثل » ، هو « مثل » السيد جوليادكين من جميع النواحي .

الفصل السادس



في الساعة الثامنة تماما من الغداة استيقظ السيد جوليادكين في سريره • فما لبثت الأحداث الخارقة التي وقعت له أمس ووقعت له في الليلة البارحة ، في تلك الليلة المضطربة التي لا يصدقها عقل، تلك الليلة الحافلة بمغامرات لا يتصورها خيال ، أقول ما لبثت تلك الاحداث أن غزت ذاكرته وخياله بكل ما فيها من تعقد مروع • ان ذلك الخبث كله وذلك الشر كله وتلك القسوة الجهنمية كلها، وذلك الكره كله ، من جانب أعدائه ، ولاسيما آخر مظهر من مظاهر ذلك الكره ، قد جمدت بطلنا حتى لكأنه الجليد صقيعا • ثم ان كل شيء كان يبلغ من الغرابة ومن البعد عن المعقول ، ومن الشذوذ ، ومن الاستحالة أن بطلنا لا يكاد يستطيع أن يصدقه • حتى لقد كان السيد جوليادكين مستعدا لأن يعزو ذلك كله الى كابوس نادر ، الى اختلال طرأ على خياله حينا ، الى جنون أصاب عقله فجأة • غير أن خبرة طويلة مرة بالحياة كانت قد علمته أن الكره يمكن أن

يحنق البشر الى أبعد حد ، وأن يدفعهم الى أنواع من القسوة ليس لسوئها نهاية ، انتقاما لكرامة مطعونة أو ثارا لطموح خائب • ثم ان ما يحسه من ألم فى أطرافه وصداع فى رأسه وأوجاع فى كليته وزكام شديد يدل دلالة بليغة على أن نزهة الامس ومحن الليلة البارحة أقرب الى الصدق •

هذا الى أن السيد جوليادكين كان يعلم منذ زمن طويل أن شيئا ما يدبر هنالك ، عندهم ••• وأنهم يتآمرون على أحد • فماذا عليه أن يفعل ؟ وبعد أن فكر السيد جوليادكين فى الأمر تفكيرا طويلا ناضجا قرر أن يذعن ، أن يخضع ، أن لا يرفع صوته بأى احتجاج فى هذا الأمر ، حتى « اشعار » آخر على الأقل •

« أليس من الجائز فى الواقع أن لا يكونوا قد قصدوا الا الى تخويفى ؟ لذلك فانهم متى رأوا أننى لا أرد ، ولا أحتج ، بل أخضع خضوعا تاما ، وأتحمل كل شىء بمذلة ، تراجعوا أول المتراجعين من تلقاء أنفسهم • • »

تلك هى الخواطر التى دارت فى ذهن السيد جوليادكين ، حين كان متمددا على فراشه يتمطى ويحاول أن يخفف آلام أعضائه المحطمة ، وينتظر ظهور بتروشكا على عادته •

انه ينتظر منذ ربع ساعة• وها هو ذا يسمع أصوات حركة بتروشكا الكسول وراء الحاجز بسبيل اعداد السماور• ومع ذلك قرر أن لايناديه •

أكثر من ذلك أن السيد جوليادكين كان يخشى فى هذه الساعة أن ينفرد بخادمه بتروشكا • كان يقول لنفسه : « ما عسى يدور فى خلد هذا الوغد الآن حول هذه القضية كلها ! صحيح أنه صامت لا يتكلم ، ولكن هذا لا ينفى أنه يفكر » • وظهر بتروشكا حاملا بيديه طبقا • ألقى عليه السيد جوليادكين نظرة وجلى • كان السيد جوليادكين ينتظر أن يرى

أفعال بتروشكا وأن يسمع أقواله نافذ الصبر . « أتراه يجيء على ذكر أحداث الأمس ؟ ... » ولكن بتروشكا لم ينبس بكلمة واحدة ، حتى لقد كان أعمق صمتا وأكثر عبوسا وأشد تجهما منه في العـــادة . كان واضحا أنه منزعج . ان عينيه المخفوضتين تفيضان اشمئزازا . لم يلق على مولاه نظرة واحدة ؛ ولنذكر عابرين أن هذا قد ساء بطلنا قليلا .

وضع بتروشكا الطبق على المائدة ، ثم استدار وانصرف الى ما وراء الحاجز صامتا كأنه أخرس . تمتم السيد جوليادكين يقـول وهو يصـب الشاى لنفسـه : « انه يعرف ، انه يعرف ، انه مطلع على كل شيء ، هـذا الكسول ... »

ومع ذلك تحاشى السيد جولياد كين أن يلقى على خادمه أى سؤال ، رغم أن الخادم عاد الى الغرفة عدة مرات لشـئون تتعلق بخدمة مولاه . كان بطلنا قلقا غاية القلق . وكان ينقبض صـــدره أشد الانقبـاض حين يتصور أن عليه أن يذهب الى مكتبه .

كان يوجس أن الأمور هنالك ليست على ما يجب أن تكون . وهـو يقول لنفسـه : « لو ذهبت الى المكتب لعرضت نفسى لمتاعب جديدة ، أفليس من الأفضل أن أتريث قليلا ، أن أصبر قليـلا ؟ ليفعـلوا ما يحلو لهم أن يفعلوه . أما أنا فمن مصلحتى أن أقضى نهارى هنا لأسترد قواى ، ولأبل قليلا من مرضى ، ولأفكر فى هذه القضية كلهـا ولو قليلا . وبعد ذلك أختار اللحظة المناسبة ، فأسقط عليهم سقوط حبات البرد على الرءوس.. بذلك تنجح مكيدتى وأخرج من الأمر ظافرا ... » وكان السيد جولياد كين أثناء استرساله فى هذه التأملات يدخن غليونا بعد غليون ؛ والزمن ينقضى، حتى صارت الساعة هى التاسعة والنصف .

قال السيد جولياد كين لنفسه : « الساعة التاسعة والنصف ؟ لقد فات

أوان الذهاب الى المكتب . ثم اننى مريض ، نعم ، مريض ، مريض فعلا. من يستطيع أن يدعى غير ذلك ؟ ولست أبالى على كل حال ! فليجيئوا مستطلعين اذا أرادوا ! ليرسلوا طبيبا يتحقق من مرضى ! لست أبالى قط. ان فى ظهرى أوجاعا شديدة ، وأنا أسعل ؛ ان بى زكاما . ثم اننى لا أستطيع الخروج فى مثل هذا الجو السيىء . ذلك مستحيل ، مستحيل تماما .. والا فقد يصيبنى مرض خطير .. قد أموت .. نعم .. لم لا ؟ ما أكثر الذين يموتون فى هذه الأزمان ! ... » .

هذه الخواطر هدأت ضمير السيد جوليادكين تهدئة كاملة ، وأمدته فى رأيه بتسويغ للتقريع الذى لا بد أن يوجهه اليه آندره فيليبوفتش لوماً له على قلة نشاطه ونقص همته . يجب أن نذكر أن السيد جوليادكين كان يحرص حرصا مطلقا ، حين يوجد فى ظروف كهذه الظروف ، على أن يبرر نفسه أمام نفسه بحجج لا سبيل الى دحضها . فلما وصل فى هذه المرة أيضا الى تبرير كامل ، تناول غليونه فحشاه وأخذ يدخنه . ولكنه ما ان نشق منه بضعة أنفاس حتى وثب عن سريره فجأة ، ورمى غليونه بعيدا ، ومضى يغسل وجهه ويحلق ذقنه ويمشط شعره ويلبس رداءه الرسمى ؛ حتى اذا فرغ من ذلك جمع بعض الأوراق ، وهرع يمضى الى مكتبه راكضا .

دخل السيد جوليادكين مكتبه وهو يشعر بخجل شديد ووجل قوى. ان قلبه يخفق خفقانا محموما بانتظار أن يقع له حادث مشئوم . كان ذلك فى نفسه احساسا غامضا لا شعوريا ، ولكنه فى الوقت نفسه احساس مزعج. استقر فى مكانه المألوف خائفا ، قرب رئيسه فى العمل أنطون أنطونوفتش سيتوشكين . ولم يلبث أن غرق فى الأوراق الموضوعة أمامه لا يرفع بصره ، ولا يدع لنفسه أن يذهل عن عمله . كان قد قرر جازما وآلى على نفسه أن يتحاشى ، بكل ما أوتى من قوة ، أى احتكاك أو أى تحريض من

شأنه أن يعرضه لسوء بأسئلة وقحة أو أمازيح أو غمزات تتناول مغامرة الأمس ؛ حتى لقد عزم أمره على أن يتجنب الملاحظات المعتادة من أسئلة وأجوبة عن الصحة يتبادلها مع زملائه • ولكن المحافظة على هذا الوضع لم تكن بالأمر السهل كثيرا •

أضف الى ذلك أن السيد جـوليادكين ، حين يواجه حادثا أليما ، لا تعذبه نتائج هذا الحادث بقدر ما تعذبه الشكوك ويعذبه القلق والخوف والهم • لذلك لم يستطع أن يفى بالعهد الذى قطعه على نفسه وهو أن يتحاشى أى احتكاك أو أى تحريض ممكن •

فها هو ذا يرفع رأسه من حين الى حين خلسة ، متصفحا وجوه زملائه ، محاولا أن يكتشف علامة من شأنها أن تطلعه على حادث جديد خاص يتعلق به ، وأن تطلعه على مؤامرة جديدة تحاك له •

كان يحاول أن يربط بين أحداث الأمس وسلوك من هم حوله الآن• وانتهى آخر الأمر ، وقد استبد به قلق شديد ، الى أن يتمنى نهاية لهذا الموقف الذى لا يطاق ، نهاية سريعة ، ولو أدى ذلك الى أسوأ النمائم وأخبث الاشاعات ! انه لا يبالى ! ولم يلبث القدر أن استجاب لرغبته • فما كاد السيد جوليادكين يعرب عن أمنيته هـذه ، حتى تبددت شكوكه على أغرب نحو يمكن أن يخطر ببال •

لقد فتح باب الغرفة المجاورة فجأة بصرير ضعيف وجل يدل على أن الداخل شخص لا قيمة له • وهذه قامة يعرفها بطلنا حق المعرفة تمر أمام منضدته خرقاء متحيرة ، فلا يرفع السيد جوليادكين رأسه ، وانمايكتفى بأن يلقى على هذا الشخص الجديد نظرة خاطفة ، فاذا هو يعرف كل شىء ويفهم كل شىء بأدق التفاصيل دفعة واحدة • شعر بالعار يضنيه ،

فأغرق المسكين رأسه في أوراقه ، تماما كما تفعل النعامة التي تخفي رأسها في الرمل المحرق حين يطاردها صياد •

انحنى القادم الجديد أمام آندره فيليبوفتش ، ولم يلبث أن سمع صوت آندره فيليبوفتش رسميا ملاطفا كالصوت الذي يعمد الى اصطناعه رؤساء العمل عادة في مخاطبة مرءوسيهم الجدد • قال آندره فيليبوفتش وهو يشير الى طاولة أنطون أنطونوفتش : « اجلس هنا ، أمام السيد جوليادكين • سيُعهد اليك بعمل فورا » • وختم آندره فيليبوفتش كلامه باشارة موجزة وقورة تحمل للقادم الجديد معنى التشجيع ، ثم استغرق في قراءة كدسة الأوراق الضخمة التي كانت أمامه •

رفع السيد جوليادكين عينيه أخيرا • ولئن لم يسقط مغشيا عليه فورا ، فما ذلك الا لأنه كان قد أوجس هذا المشهد • كان قد تنبأ في الواقع بكل شيء ، وكان قد حزر جميع نيات القادم الجديد • ان أول حركة قام بها السيد جوليادكين هي أنه ألقى نظرة حواليه ليرى هل أخذ الموظفون يتهامسون في الأركان ، وهل أخذت مزحة من الأمازيح المألوفة في المكتب تطوف في القاعة ، وهلا فغر أحد الأفواه ذهولا وانشداها ، وهلا تهاوى أحد الحضور تحت الطاولة ذعرا ورعبا • فما كان أشد دهشة حين لم يلاحظ شيئا من ذلك البتة ! لقد أدهشه وضع زملائه ادهاشا كبيرا ، وبدا له هذا الوضع غير معقول • انخلع قلب السيد جوليادكين هلعا من هذا الصمت المطبق الخارق • ما هذا الصمت والوقائع ظاهرة واضحة كل الوضوح ! •••

أمر غريب ، شاذ ، قاس! •• شيء يبعث في الجسم قشعريرة! •• هذه هي الخواطر التي مرقت في ذهن السيد جولیادكين سريعة كالبرق • كان السيد جولیادكين يحترق • وهناك ما يدعو الى ذلك • ان القادم الجديد

الذى كان فى تلك اللحظة جالساً أمام السيد جوليادكين ، هو بعينه ذعر السيد جوليادكين ، هو بعينه عار السيد جوليادكين ، هو بعينه الكابوس الذى وافى السيد جوليادكين فى ليلته تلك : انه السيد جولياد كين نفسه.

صحيح أنه ليس جولياد كين الذى كان فى تلك اللحظة جالسا على كرسيه، فاغراً فاه ، حاملا قلمه . صحيح انه ليس جولياد كين الذى يقوم بوظيفة مساعد لرئيس مكتبه ، والذى يجب أن يمحى ، أن يذوب فى الجمهور ، والذى يعبر سلوكه كله تعبيرا واضحا عن أن لسان حاله يقول : « لا تمسونى ولن أمسكم » أو يقول : « لا تمسونى فاننى لا امسكم ... » .. لا .. ليس هو جولياد كين ذاك .. وانما هو جولياد كين آخر ، جولياد كين آخر تماما ، ولكنه مع ذلك مثل الأول ، له قامة الأول نفسها ، وله جسم الأول نفسه ، وله صلعة الاول نفسها ، وهو يرتدى الملابس نفسها التى يرتديها الاول .. فلا شىء ينقص هذا التشابه الكامل وهذا التماثل التام . فلو وضع أحدهما الى جانب الآخر لما استطاع أحد فى العالم أن يدعى أن فى وسعه أن يميز بين جولياد كين الصادق وجولياد كين المزيف ، أن يميز بين القديم والجديد ، أن يميز بين الأصل والصورة .

كان بطلنا فى تلك اللحظة ـ وليُسمح لنا بهذا التشبيه ـ فى وضع انسان جاءه مازح خبيث فأمرّ أمام وجهه مرآة لمناكدته وازعاجه . قال جولياد كين لنفسه : « ماذا جرى ؟ أأنا فى حلم ؟ أأنا فى حالة يقظة أم أنه كابوس الأمس يستمر الآن ؟ كيف يكون هذا ممكنا ؟ بأى حق يفعلون هذا ؟ من ذا الذى أذن باستخدام هذا الموظف الجديد ؟ نعم ، من ذا الذى أصدر الأمر بذلك ؟ أأنا نائم ؟ أأنا أحلم ؟ » ومن أجل أن يمتحن السيد جولياد كين حالته قرص نفسه ... حتى لقد نوى على الفور أن يقرص أحد زملائه ... ليس هناك أى ريب ! لا ... ما هو بنائم . أحس السيد جولياد كين بالعرق يتصبب منه قطرات كبيرة ... أدرك أن

شيئا خارقا يحدث له ... شيئا لم يُر له نظير من قبل ، شيئا هو لذلك على جانب رهيب من الخطر ، وتلك مصيبة المصائب ... أحس جوليادكين وأدرك جميع سيئات هذا الموقف الجديد ، موقف المهزلة التى هو الآن بطلها الأول ونموذجها .

وشيئا فشيئا أخذت تراوده شكوك حول وجوده نفسه ، ورغم أنه كان مستعدا لكل شىء ، راغبا فى أن يرى تبدد جميع هذه الشكوك بصورة من الصور آخر الأمر ، فقد كان يحس أن ظـرفا يعادل تعقـده المفاجأة التى ليست فى الحسبان كان قد تجاوزه . انه مرهق معذب . ان قلقـا رهيبا يهد نفسه هدا ، حتى ان فكره وذاكرته يبارحانه تماما فى بعض اللحظات . فلما ثاب الى رشده بعد احدى هذه الغيبوبات لاحظ أنه كان بسبيل الجرى بقلمه على ورقة من الأوراق على نحـو آلى لا شـعورى ؛ فسرعان ما أخذ يعيد قراءة ما كتبه ، لفقدانه ثقته بنفسه ، فلم يستطع أن يفهم شيئا مما كتب بطبيعة الحال .

وفجأة نهض جوليادكين الثانى الذى كان جالسا أمام بطلنا جلسـة هادئة الى تلك اللحظـة ، نهض ومضى الى المكتب المجـاور ، ربما لطلب بعض المعلومات . نظر السيد جوليادكين حواليه . ان كل شىء هادىء . ليس يُسمع الا صرير الأقلام خفيفا ، والا حفيف الأوراق تُقلب ، والا همسات قليلة فى الأركان البعيدة عن طاولة آندره فيليبوفتش . رفع السيد جوليادكين عينيه نحو أنطون أنطونوفتش . لا شك أن تعبير وجهه الذى يفصح افصاحا أمينا عن حالته النفسية وعن الهموم التى تسببه لها الاحداث الراهنة ، قد بدا غريبا لرئيسه ، لأن أنطون أنطونوفتش الشهم لم يلبث أن وضع قلمه ، وسأله عن صحته فى كثير من العطف والشفقة .

ثانيا جولیادكين يقول :

ـ صحتى جيدة جدا يا أنطون أنطونوفتش . الحمد لله يا أنطون أنطونوفتش . صحتى الآن حسنة يا أنطون أنطونوفتش ...

كذلك أخذ السيد جولیادكين يكرر متهيبا ، مرددا اسم رئيسه لدى كل كلمة يقولها .

لما يجرؤ بعد على البوح لأنطون أنطونوفتش بما فى نفسه .

ـ ها .. طيب .. كنت أحسب أنك تشكو ألما ما .. ولا غرابة فى هذا على كل حال ، لا سيما فى هـــذه الآونة التى تتكاثر فيهـا الأمراض السارية ... هل تعلم أن ...

ـ نعم يا أنطون أنطونوفتش ، نعـم ، أعرف أن هـــذه الأمراض موجـودة ... ولكن يا أنطـون أنطونوفتش ، ليست هـذه هى المسـألة (كذلك أضاف يقول السيد جولیادكين وهو يتفرس فى محدثه محدقا) ... لا أدرى يا أنطون أنطونوفتش كيف أستطيع ... أعنى لا أعرف تماما من أين أبدأ يا أنطون أنطونوفتش ...

ـ لا أفهم ماذا تقول .. أعترف لك بأننى لا أفهم مـاذا تريد أن تقول ... عليك أن تشرح ما تريد قوله بمزيد من الوضوح .

واذ لاحظ أنطـون أنطونوفتش شدة اضـطراب السيد جولیادكين الذى امتلأت عيناه بالدموع ، ارتبك هو أيضا ، فأضاف يسأله :

ـ قل لى ما الذى ...

ـ الحقيقة يا أنطـون أنطونوفتش ... يوجد هنا ... يا أنطـون أنطونوفتش ... موظف .

ـ نعم ••• صحيح ••• يوجد موظف هو سميُّك •••

صاح السيد جوليادكين :

ـ ماذا ؟ هو سميِّي ؟ هل اسمه أيضا جوليادكين ••

ـ نعم ••• هو سميُّك ••• اسمه أيضا جوليادكين ••• أليس هو أخاك ؟

ـ لا يا أنطون أنطونوفتش ، أنا •••

ـ غريب ••• خيِّل الىَّ أنه لا بد أن يكون أحد أقربائك ••• هل تعلم أن بينك وبينه بعض الشبه ؟ لكأنكما من أسرة واحدة •••

ظل السيد جوليادكين متجمدا من الدهشة • حتى لقد عُقل لسانه بضع لحظات ، فلم يستطع أن يقول شيئا • وهناك في الواقع ما يدعو الى ذلك • ماذا ؟ كيف يمكن لأنطون أنطونوفتش أن ينظر بهذا القدر من قلة الاكتراث وعدم المبالاة الى ظاهرة غريبة هذه الغرابة كلها ، ظاهرة فريدة حقا في نوعها ، ظاهرة لا بد أن تخطف بصر أي مشاهد عادي ؟ كيف يمكن لأنطون أنطونوفتش أن يتحدث بصدد هذه الظاهرة عن تشابه كالتشابه الذي يكون بين أفراد أسرة واحدة ؟ ان الأمر أمر تماثل كامل بل وحدة تامة ، كالوحدة بين انسان وصورته في المرآة •

أردف أنطون أنطونوفتش يقول :

ـ اسمع يا ياكوف بتروفتش ! أحب أن أسدي اليك بنصيحة • عليك أن تذهب الى طبيب ، فتستشيره في أمر صحتك • انك لا تبدو في حالة طبيعية تماما • ولاسيما عيناك ••• ان لهما تعبيرا غريبا •••

ـ لا يا أنطون أنطونوفتش ••• طبعا أنا لا أشعر بأنني ••• أعني ••• أريد أن أسألك عن هذا الموظف •

ـ هه ؟

ـ ألم تلاحظ فيه شيئا غير عادي يا أنطون أنطونوفتش ؟ شيئا مميزا على نحو خاص ؟

ـ مثلا ؟

ـ مثلا ، أريد أن أسألك يا أنطون أنطونوفتش : ألم تلاحظ أن فيه شبها غريبا بأحد .. بي أنا مثلا ؟ لقد ذكرت منذ هنيهة أنه يشبهني كما يشبه أفراد الأسرة بعضهم بعضا ... ذكرتَ هذا عرضا دون الحاح ... ولكن هل في علمك أنه يوجد أحيانا شخصان يتشابهان تشابها كاملا كتشابه قطرتي ماء ، حتى ليستحيل تمييز أحدهما عن الآخر ؟ ... ذلك ما أحببت أن أحدثك فيه ...

قال أنطون أنطونوفتش بعد لحظة من تفكير ، وكأنه يدرك لأول مرة ظاهرة لها هذه الخطورة :

ـ نعم ... صحيح ... ان تشابهكما يثير الدهشة حقا ، ورأيك في محله تماما. ان من الممكن فعلا أن يخلط المرء بينكما فلا يميز أحدكما عن الآخر (كذلك قال أنطون أنطونوفتش وهو يحملق مزيدا من الحملقة) انه تشابه يشبه أن يكون معجزة ... تشابه خرافي يا ياكوف بتروفتش، كما يقال أحيانا ... انه مثلك تماما . حقا انه مثلك تماما . هل لاحظت ذلك يا ياكوف بتروفتش ؟ ولقد كان في نيتي أن أحدثك في هذا الأمر من تلقاء نفسي ، ولكن يجب أن أعترف لك أنني في البداية لم أول هذه القضية كبير اهتمام . هذه معجزة ... معجزة حقا ... بالمناسبة يا ياكوف بتروفتش : أظن أنك لم تولد هنا ، أليس كذلك ؟

ـ نعم لم أولد هنا .

ـ هو أيضا لم يولد هنا ، لعلكما كلاكما من اقليم واحد ؟ هل أستطيع أن أسألك أين كانت تقيم والدتك فى العادة ؟

ـ قلت •• يا أنطون أنطونوفتش ••• قلت انه ليس من هنا •

ـ نعم ليس من هنا •

وتابع أنطون أنطونوفتش المهذار الذى يفرح لكل ثرثرة ، تابع يقول :

ـ حقا انها لمعجزة • حقا ان فى الأمر ما يثير الدهشة • كثيرا ما يتفق لنا أن نصادف هكذا أشياء جديرة بالاهتمام ، فنلامسها ونصطدم بها ثم لا نلاحظها • ليس عليك أن تضطرب كثيرا على كل حال • فتلك أمور تحدث • لذلك سأقص عليك قصة مشابهة وقعت لاحدى خالاتى : انها هى أيضا قد رأت نفسها مثلين قبيل وفاتها •

ـ معذرة اذا قاطعتك يا أنطون أنطونوفتش ••• ولكننى أريد أن أعرف يا أنطون أنطونوفتش كيف استطاع هذا الموظف ••• أقصد كيف دخل الى هنا ؟

ـ انه يحل محل المرحوم سيميون ايفانوفتش • لقد شغرت الوظيفة بوفاة سيميون ايفانوفتش ، فبحثوا عمن يحل محله ، ثم عينوه هو • بالمناسبة : هل تعرف أن سيميون ايفانوفتش ، هذا الشهم ، قد خلف فيما يقال ثلاثة أطفال صغار ؟ لقد ارتمت زوجته المسكينة عدة مرات على قدمى صاحب السعادة متوسلة ضارعة • يقال مع ذلك انها تمثل ، فهى تملك مالا ولكنها تخفيه •••

ـ ولكننى أريد أن أعود الى موضوعنا يا أنطون أنطونوفتش •••

ـ أى موضوع ؟ ها ••• نعم ••• ولكن لماذا تهتم بهذه المسألة هذا

الاهتمام كله ؟ ... أعود فأقول لك : لا تصـــدع رأسـك . ذلك كله موقت . ثم ماذا آخر الأمر ؟ ليس الذنب ذنبك . ان الله هو الذى دبّر الأمور على هذا النحو . هى مشيئة الله . والاحتجاج على مشيئة الله اثم . حكمة الله العظمى هى التى أرادت ذلك . أما أنت يا ياكـوف بتروفتش فما أحسب أنك مسئول عن هذا كله فى شىء . المعجزات فى هذا العـالم كثيرة . ان أمنا الطبيعة كريمـة سخية ... ولن يحاسبك أحد على شىء يوما ... بالمناسبة : أظن أنك قد سمعت عن ذينك الأخوين الـ ... ماذا يسميان ؟ ها ... نعم ... ذينك الأخوين السياميين اللذين ولدا ملتصقى الظهرين ، فهما يعيشان هكذا معا . يظهر أن ذلك يدر عليهما مالا كثيرا.

ـ اسمح لى يا أنطون أنطونوفتش ...

ـ أنا أفهمك .. أنا أفهمك .. طيب .. ماذا أخيرا ؟ ليس الأمر بذى بال . أعود فأقول لك اننى بعد أن فكرت فى المسـألة مليـا لا أرى ما يوجب أن تصدع رأسك . ماذا تريد ؟ هو موظف كأى موظف آخر ، وهو فيما يظهر رجل نشيط . لقد قدم نفسه قائلا ان اسمه جوليـادكين ، وانه قادم من اقليم آخر ، وانه كان يعمل كاتبا فى احدى دوائر الدولة . وقد تمت بينه وبين صاحب السعادة مقابلة خاصة .

ـ وصاحب السعادة ؟

ـ جرت الأمور على خير نحو . قدم لصاحب السعادة شروحا كافية . قال : « ذلك هـو وضعى على حقيقته يا صاحب السـعادة . ليس لى ثروة شخصيـة . وأحب أن أعمل ، لا سيما تحت الأوامر النيّرة التى يصدرها صاحب السعادة » ، وهلم جرا ... وتدفق يكيل المديح لصاحب السـعادة بكثير من الحذق والبراعة . ولا شك أنه كان يحمل توصية على كل حال، والا لما تم تعيينه طبعا .

ـ ومن الذى أوصى به ؟ ... أقصد من الذى وضع يده فى هـذه القضية المخجلة ؟

ـ يظهر أنه كان يحمل توصية جيدة جدا . حتى أن صاحب السعادة وآندره فيليبوفتش قد ضحكا قليلا فيما يقال .

ـ صاحب السعادة وآندره فيليبوفتش ضحكا قليلا ؟

ـ نعم .. أقصد .. ابتسما ، وقالا له ان هذا يبدو لهما كافيا ، وانهما من جهتهما موافقان تماما ، شريطة أن يعمل بصدق واخلاص ...

ـ ثم ؟ وبعد ذلك ؟ اننى متحير قليلا يا أنطون أنطونوفتش . أكمل، أرجوك أن تكمل ...

ـ معذرة ... مرة أخرى ، أنا لا أفهمك ... قلت لك ليس فى الأمر كله شيء خارق . أعود فأقول : عليك أن لا تصدع رأسك . ليس فى هذه القضية ما يهددك .

ـ ليس هـذا هو الموضـوع . وانما أردت أن أسألك يا أنطون أنطونوفتش ألم يضف صاحب السعادة الى ذلك بضع كلمات .. عنى أنا مثلا ؟

ـ نعم ؟ طبعا ... حتما ... ولكن ليس هناك شيء ذو بال . فى وسعك أن تكون مطمئنا كل الاطمئنان . هى مصادفة غريبة ، أسلم لك بذلك . لاحظ أننى لم أنتبه الى الأمر من أول نظرة فى البداية . لاأدرى كيف لم ألاحظ هذا الشبه قبل أن تنبهنى اليه . على كل حال ، تستطيع أن تطمئن كل الاطمئنان . لم يقولا شيئا ذا خطر ، لم يقولا شيئا من ذلك البتة (كذلك أضاف يقول أنطون أنطونوفتش اللطيف وهـو ينهض عن كرسيه) .

ـ أريد أيضا يا أنطون أنطونوفتش •••

ـ اعذرني ••• لقد أفرطت في الثرثرة حتى الآن ، بينما هنالك عمل مستعجل هام جدا يجب أن أقوم به • ثمة معلومات يجب أن أحصل عليها •

وفجأة انطلق صوت آندره فيليبوفتش العذب ينادي قائلا :

ـ أنطون أنطونوفتش ! صاحب السعادة يطلبك •

ـ حالا ، حالا يا آندره فيليبوفتش ، أنا ذاهب اليه فورا •

تناول أنطون أنطونوفتش كدسة من الأوراق ، فهرع أولا نحو طاولة آندره فيليبوفتش ، ثم مضى الى مكتب صاحب السعادة •

« ها ••• هذه هي المسألة اذن ، تلك هي اللعبة التي يدبرونها في هذه اللحظة••• الآن أرى الاتجاه الذي تسير فيه الريح ••• ليس هذا كله بالأمر السيء ••• ان الأمور تجري مجرى حسنا » • كذلك قال السيد جوليادكين لنفسه وهو يفرك يديه احديهما بالأخرى • لقد بلغ من الفرح أنه أصبح لا يحس بوجود الكرسي تحته • « انهم يعدون قضيتنا مسألة عادية • كل شيء يغدو اذن ترهات وسفاسف ••• وفعلا لا أرى أحداً يحتج •• ان جميع هؤلاء الأوغاد غارقون في أعمالهم • عظيم •• عظيم ••• انني لأحبهم جميعا هؤلاء الناس الطيبين ••• ولقد أحببتهم دائما ••• انني مستعد لأن أقدرهم وأن أحترمهم ••• ومع ذلك يبدو لي ••• حين أفكر في الأمر مليا ••• هذا الأنطون أنطونوفتش ••• من الخطر أن أبوح له بما في نفسي ••• لقد أثقلته السنون ••• وأفرط شعره في المشيب ••• على كل حال ، فالأمر الأساسي الهام في الموضوع أن صاحب السعادة لم يقل كلمة واحدة في هذه المسألة ••• عظيم ••• أنا أؤيد ذلك • ولكن ما شأن آندره فيليبوفتش في هذا كله هو وضحكاته

الصغيرة ؟ فيم يتدخل ؟ ياللحية العتيقة ! ••• انه دائما فى طريقك ، هذا الرجل • انه مؤهب فى كل لحظة لأن يجتاز الطريق أمامك ، كنقطة سوداء ••• نعم ••• دائما أمامك ووراء ظهرك ! ••• » •

مرة أخرى أجال السيد جوليادكين بصره فى القاعة • ومرة أخرى شعر بالأمل يملأ نفسه • ومع ذلك كان ثمة شيء ينغص عليه صفوه • هو فكرة بعيدة ، فكرة تنذر بشؤم • قرر فى لحظة من اللحظات أن يستبق الأمور ، أن يبادر الى شيء ، أن يسائل بعض زملائه بطريقة من الطرق • ان فى وسعه أن يفعل هذا عند الخروج من المكتب مثلا ، بل فى وسعه أن يفعله هنا ، بحجة الاستفسار عن أمر من الأمور التى تتصل بالعمل • فى وسعه مثلا أن يدس بين جملتين قولا كهذا القول : « أمر عجيب • هل رأيتم الى هذا التشابه الغريب ؟ محاكاة كاملة ! » • فاذا تظاهر بأنه يمزح هو نفسه ، استطاع أن يقدر مدى الخطر • « يجب على المرء دائما أن يخشى الماء الصافى ، فرب شيطان يثوى فيه ! » • تلك هى النتيجة التى خلص اليها بطلنا • ومع ذلك تدارك نفسه فى الوقت المناسب ، فلم تنتقل نياته الى حيِّز التنفيذ • لقد أدرك أنه ان فعل ذلك كان يمضى بعيدا جدا• قال لنفسه وهو يلطم جبينه لطمة خفيفة : « تلك هى طبيعتك : ما ان تدخل اللعب حتى تتحمس • نفس ظمأى الى العدل ! لا ••• الأفضل أن ننتظر قليلا يا ياكوف بتروفتش • يجب أن نتريث قليلا ولو تحملنا فى سبيل ذلك بعض العذاب • » • ورغم هذه النتيجة التى خلص اليها فقد شعر بالأمل يملأ نفسه • خيل اليه أنه يبعث من بين الموتى •

قال لنفسه : « تحسنت حالى الآن • لكأن ثقل طنين قد أزيح عن صدرى • غريب • لقد كان كل شيء بسيطا كتحية • فُتح الصندوق من تلقاء نفسه • كان كريلوف على حق ••• يا لكريلوف هـــذا من ماكر خبيث يحسن تأليف القصص ••• أما القادم الجديد فليعمل ••• فليعمل

ما شاء أن يعمل ، شريطة أن لا يجور على أرض غيره ، وأن لا يسيء الى أحد . نعم ، هو كـذلك ... أنا موافق على أن يعمـل ، أنا أؤيد ذلك تأييدا تاما ... » .

كانت الساعات أثناء ذلك تنقضي ... كانت تطير طيرانا . هي الساعة الرابعة منذ الآن . المكاتب تغلق . تناول آندره فيليبوفتش قبعته ، وحذا جميع الموظفين حذوه كالعادة . تأخر السيد جوليادكين قليلا ، من أجـل أن يخرج آخر الخارجين .

تفرق الموظفـــون ومضى كل منهم الى منزله . فلمـا صـار السيد جوليادكين في الشارع أحس أنه سعيد كما لو كان في الجنة . حتى لقد شعر برغبة في أن يقوم بجولة قصيرة ، في أن يتنزه بشارع نفسكي .

قال لنفسه وهو يسير : « ما أعجب المقادير ! ... لقد تغير الوضـع تغيرا جذريا على حين فجأة ... حتى الجو تحسن تحسنا واضحا . هذه هي الزلاقات وهذا هو الجليد ! ... الجليد يناسب الروس . وأنا أحب الروس ... لو شاهد صياد هذا لهتف يقول : هذه طلائع البرد والثلج ... يجب عليّ أن أصطاد أرنبا طيبا على هذه الثلجة الاولى ... يمينا ليس ثمة ما يزعج ... كل شيء يجـرى مجـرى حسنا ... » . هكذا تجلت حماسة جوليادكين . ومع ذلك كان هنالك شيء ما يزال يدغدغ داخل رأسه . أهو قلق ؟ أهو خوف ؟ لا ... غير أن قلبه لا يزال فيه من الفـــزع ما يجعله عاجـــزا عن التغلب على نفسه . قال : « لا داعي الى التعجـــل على كل حال . فلننتظـر المســـتقبل ... صبر من ظفر ... يضحك جيدا من يضحك أخيرا . وما هي المسألة في الواقع ؟ هلا فكرنا قليلا ! هلا حللنا قليلا ! نعم علينا أن نحلل يا صديقي الشـاب ، علينا أن نحلل . أنا رجل مثلك ، نعم ، أنا رجل شـــبيه بك ، شبيه بك

من جميع النواحي • طيب • ثم ماذا ؟ هل في هذا ما يدعوني الى الشكوى والنواح ؟ هل في هذا ما يدعوني الى البكاء ؟ أى ضير في هذا كله ؟ انني بعيد عن هذه القضية كلها ، أغسل منها يدى وكفي ! ••• لقد قررت ، لقد اتخذت قرارا حاسما الى الأبد » •

« أما هو فليؤمِّن عمله • يقولون انها معجزة ، يقولون انها ظاهرة عجيبة ••• يشبهونها بظاهرة الأخوين السياميين ••• لماذا يستشهدون بالاخوين السياميين ؟ هما توأمان طبعا ••• ولا كذلك نحن ••• ثم ان الحياة مليئة بالغرائب ، حتى لدى عظماء الرجال • فالتاريخ يروى أن سوفوروف الشهير نفسه كان يغني كما يغني ديك ••• صحيح انه يدعى أن هذا كان من قبيل الدبلوماسية ••• ولكن ما القول في كبار القادة ؟ ••• انني ، من جهتي ، أسير في طريقي هادئاً مسالماً ، أظل في ركني ، لا أريد أن أعرف شيئا عن الآخرين ، أحب أن أكون بريئا كل البراءة ••• لا أحفل بعدوى ••• لست بمن يدبر المكائد ويضع المؤامرات ••• وأنا بهذا فخور • انني طاهر نقي ، مهذب ، دمث ، لا أعرف الحقد•••»

وفجأة صمت السيد جوليادكين ، وتوقف مختلجا مرتجفا كورقة في في مهب الريح •• حتى لقد أغمضت عيناه بضع لحظات • ومع ذلك تأمل أن يكون الشيء الذى أثار رعبه سرابا ووهما من أوهام الحواس ، ففتح عينيه وألقى نظرة وجلى على يمينه ••• لا ••• لم يكن ما رآه سرابا أو وهما ••• فالى جانبه كان يكردح الرجل الذي رآه في صبيحة ذلك اليوم • انه يبتسم له ، ويتفرس فيه بوقاحة ، وكأنه ينتظر فرصة مواتية ليجرى معه حديثا • ولكن الفرصة تأخرت •••

وهكذا ظل الرجلان يسير أحدهما الى جانب الآخر قرابة خمسين خطوة •

ان طاقة السيد جوليادكين منصبة كلها على هدف واحد : هـو أن يغطس فى معطفه اكمل غطس وأعمق غطس ، وأن ينزل قبعته على رأسه حتى تصـل الى عينيـه • ولكنه رأى فجـأة ـ وتلك غاية الوقاحة ـ أن معطف صاحبه وقبعته كمعطفه وقبعته هو تماما •

تمتم بطلنا أخيرا يقول وهو يحاول أن يتكلم بصوت خافت دون أن ينظر الى صاحبه :

ـ أحسب أيها السيد أن طريقينا مختلفان ••• بل أنا موقن من ذلك (أضاف هذا بعد لحظة صمت) • ثم اننى أعتقد أنك فهمتنى حق الفهـم (هكذا ختم كلامه بلهجة قاطعة) •

فدمدم صاحب السيد جوليادكين يقول أخيرا :

ـ كنت أود ••• كنت أود ••• رجائى من كرمك أن يغفر لى•• أن يسامحنى •• اننى لا أعرف أحدا أتجه اليه هنا •• فوضعى •• آمل أن تعفو عن جـرأتى ووقاحتى •• لقـد بدا لى أنك تعطف علىّ ، أنك أظهرت شيئاً من الاهتمام بى فى هذا الصباح ••• ولقد شعرت أنا أيضا بشىء من الانجذاب نحوك •• اننى ••

هنا تمنى السيد جوليادكين لزميله الجديد أن يغور تحت الأرض الى الأبد •

استأنف صاحبه يقول :

ـ ليتنى أسـتطيع أن آمـل يا ياكوف بتروفتش أن تصغى الىّ فى تسامح ورحابة صدر •

فأجابه السيد جوليادكين قائلا :

ـ هنا ؟ نحن؟ هنـا ؟ نحن ؟ لا •• لا ••• لنـذهب الى بيتى •••
لنقطع أولا شارع نفسكى ، فنكون فى الجهة الأخرى أكثر ارتياحا ، ثم نمضى فى الشارع الصغير •

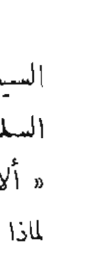
قال صاحب السيد جوليادكين طيعا خائفا :

ـ طيب • لنسر فى الشارع الصغير •

كان واضـحا من لهجته أنه بسبب وضـــعه يرى أن لا فائدة من المناقشة ، وأن الشارع الصغير يكفيه •

أما السيد جوليادكين فكان لا يفهم شيئا مما يجرى اطلاقا • انه لم يثب الى رشده بعد • انه يشك فى حواسه وفى عقله •

الفصل السابع



السيد جــوليادكين بعض صــوابه وهو يصعد السلم • حتى اذا وصل امام باب بيته قال لنفسه : « ألا ما أصغر عقلى ! لكأنه عقل عصفور ! ••• لماذا أجىء به الى هنا ؟ اننى أضع الحبل فى عنقى بنفسى ؟ ما عسى يقول بتروشكا حين يرانا معا ؟ ما عسى يظن هذا الجــرو بعد اليوم وهو كثير الظنون والشكوك منذ الآن ؟ •••• » • ولكن الندم قد فات أوانه • وطرق جوليادكين الباب فانفتح ، وأخذ بتروشكا يساعد السيد جوليادكين وصاحبه فى خلع معطفيهما •

وجازف السيد جوليادكين بنظرة مختلسة على خادمه محاولا أن ينفذ الى وجهه وأن يحزر ما يجول فى خاطره • فما كان أشــد دهشــته حين لاحظ أن خادمه لم يظهر أى استغراب • حتى لكأنه قد أعد نفسه لهــذا الاحتمال اعدادا تاماً • كانت هيئته على عادتها ، هيئة ذئب جائع ، موارب النظرة ، متأهب فى كل لحظة للانقضاض على أول قادم وافتراسه • قال

بطلنا لنفسه : « لا شك أنهم قد ألقي عليهم اليوم جميعا سحر ؛ لا شك أن ان جنياً قد مر من هنا • نعم هذا اكيد • لا شك انهم جميعا قد وقع لهم شيء خاص في هذا اليوم • لعنهم الله ! ••• يا للورطة ! ••• » • تلك كانت أفكار السيد جوليادكين وخواطره لحظة كان يدخل ضيفه الى الغرفة ويدعوه الى الجلوس ملاطفا • كان يبدو على صاحبه أنه مرتبك ارتباكا شديدا ، وجل وجلا واضحا ، فهو يحاول أن يختطف نظرات السيد جوليادكين عسى أن يقرأ فيها ما يجول في ذهنه • كانت حركاته واشاراته تنبيء عن الحيرة والخشية والمذلة • وكان مظهره في تلك اللحظة مظهر رجل ارتدى ثياب غيره لأنه لا يملك ثياباً لنفسه (وليغفر لنا هذا التشبيه) ، فأكمامه قصيرة حتى لتكاد تصل الى كوعيه ، وهو يحاول في كل لحظة أن يعدل صديرته المسرفة في القصر ؛ وهو تارة يدور في مكانه ويمحي ويحاول أن يختفي ، وتارة يتفحص نظرات من يحيطون به ويصيخ بسمعه ، ويحاول أن يلتقط أحاديثهم ليعرف هل هم يتحدثون عنه ، وهل هم يضحكون منه ••• صفوة القول أن الرجل كان على نار ، فهو يحمر، ويفقد سيطرته على نفسه ، ويقاسي من مذلة كبريائه مقاساة رهيبة •

وضع السيد جوليادكين قبعته على حافة النافذة ، فأسقطتها حركة مفاجئة ، فهرع الضيف يلتقطها ، وأخذ ينفض عنها الغبار ، ثم أعادها الى موضعها ، تاركا قبعته هو على الارض ، قرب الكرسي الذى جلس على طرفه خجلا وجلا • ان هذا الحادث الصغير قد أزال الغشاوة عن عيني السيد جوليادكين ، فأدرك أن الرجل خاضع لمشيئته ، فلا حاجة به الى أن يكلف نفسه عناء ، لا حاجة به الى أن يبحث عن موضوع حديث ، وانما يترك الأمر للضيف يحمل تبعته •

وكان الضيف من جهته لا يجرؤ أن يشرع في شيء ، فهو ينتظر أن يقوم رب البيت بالخطوات الأولى • ترى أكان هذا خجلا أم خفرا أم

أدبا ؟ انه ليصعب أن تجيب عن هذا السؤال اجابة قاطعة . وفى أثناء ذلك عاد بتروشكا . انه الآن واقف على العتبة ، متجه ببصره الى عكس الجهة التى كان فيها مولاه والضيف ، وها هو ذا يسأل بصوت أبح ولهجة مهملة: « هل عليّ أن آمر بعشاءين ؟ » . وهذا جوليادكين يدمدم مترددا : « أنا .. أنا .. لا أدرى .. نعم ، يا صديقى نعم ، مر لنا بعشاءين .. » .

غاب بتروشكا . وتصفح السيد جوليادكين وجه ضيفه خفية . فاحمر وجه الضيف حتى الأذنين . ان السيد جوليادكين رجل طيب . لذلك سرعان ما انتهى بفضل طيبة قلبه الى هذه النتيجة : « مسكين هذا الرجل . لقد تسلم وظيفة فى هذا الصباح ، وكان قبل ذلك يعيش حياة قاسية من غير شك . ولعل كل ما يملكه هو هذا الرداء الذى يستر به جسمه . أتراه يملك ما يدفعه ثمن وجبة طعام ؟ مسكين هذا الرجل ! ان وجهه مهدم منهار يدل على المذلة . ولكن لا ضير ... فلربما كان هذا أفضل ... » .

قال يخاطب صاحبه :

ـ اسمح لى . هل يمكننى أن أعرف اسمك ؟

ـ يا ... يا ... ياكوف بتروفتش .

كذلك تمتم الضيف يقول وقد لاح فى وجهه الاضطراب والخجل ، حتى لكأنه يهم أن يعتذر عن كونه يحمل اسم السيد جوليادكين نفسه .

فردد بطلنا يقول وهو عاجز عن السيطرة على اضطرابه :

ـ ياكوف بتروفتش ؟

فأجاب الضيف الطيع بقوله :

ـ نعم ، هذا هو اسمى . أنا سميُّك .

وهمّ الضيف أن يرسم على شفتيه ابتسامة ، وأن يجازف بقول كلمة طيبة ، ولكنه لم يلبث أن توقف عن ذلك ، مصطنعا هيئة الجد ، مرتبكا بعض الارتباك ، حين لاحظ أن محدثه لا يرغب في شيء من المزاح في هذه اللحظة .

قال السيد جوليادكين :

ـ هل لى أن أعرف السبب الذى شرفنى بـ ...

فبادر الضيف يقاطعه بصوت خجول وهو ينهض قليلا عن كرسيه :

ـ انني وقد عرفت عظمة نفسك ، وكرم روحك قد أذنت لنفسى ان أتجه اليك ... ملتمساً صداقتك ... وحمايتك .

هكذا ختم الضيف عبارته ، وكان واضحا أنه مرتبك بالعثور على الكلمات المناسبة التى لا تكون مسرفة فى التملق والتزلف ، ولا تكون مسرفة فى اذلال كرامته ، ولا تكون كذلك مفرطة فى رفع الكلفة بحيث تعبر عن تكافؤ فى غير محله . كان مثله فى التصرف كمثل شحاذ يرتدى رداء رسميا مرقعا ويحمل فى جيبه وثائق مشرفة ، ولكنه شحاذ لما يتسع وقته بعد لمدّ اليد فى طلب الصدقة .

أجابه السيد جوليادكين وهو ينقل بصره بين ضيفه وجدران غرفته ونفسه :

ـ انك تحرجنى ... فكيف ... أقصد فيم أستطيع أن أنفعك ؟

ـ لقد شعرت ، يا ياكوف بتروفتش ، بانجذاب نحوك منذ لقيتك أول مرة . فليكن كرمك شفيعي عندك فتغفر لى .. نعم ، لقد عقدت بعض الآمال ... لقد تجرأت فأملت يا ياكوف بتروفتش ... أنا رجل نازح عن وطنه يا ياكوف بتروفتش ، أنا رجل فقير قاسى ماقاسى يا ياكوف

بتروفتش •• وأنا هنا غريب • ولقد عرفت أنك تحمـــل ، عدا المزايا الكبيرة التى فطرت عليها نفسك العظيمة ، نفس الاسم الذى أحمله أنا ••

قطب السيد جوليادكين حاجبيه • وأضاف الضيف يقول :

ـ لقـد علمت أنك سميى ، وأنك من نفس الاقليم الذى أنا منه • لذلك قررت أن أتجه اليك أعرض عليك وضعى المربك •

فأجابه السيد جوليادكين بصوت مضطرب :

ـ طيب طيب • ولكننى لا أدرى حقا ماذا أقول لك ••• سنتحدث فى هذا كله بعد الغداء •••

انحنى الضيـف ممتثلا • وكان الغداء قد حضر • فقد وضع بتروشكا المائدة • فأخذ الرجلان يأكلان كمن يقوم بواجب من الواجبات المفروضة• لم يدم الغداء طويلا • كانا كلاهما متعجلين • ان السـيد جوليادكين غير مرتاح • انه خجل من هذه الوجبة الفقيرة التى يقدمها لضيفه ، خجل من ناحيتين : الأولى أنه كان يود لو يولم له وليمة لائقـة ، والثانية أنه كان يحب أن يظهر له انه لا يعيش حياة شحاذ •

وكان صاحبه غير مرتاح كذلك ، وكان يبدو خجلا الى أبعد حدود الخجل • انه بعد أن تناول وأكل قطعة من الخبز لم يجرؤ أن يمد يده لتناول قطعة أخرى ؟ وكان متحرجا كذلك من تناول قطعة كبيرة ؟ وكان يردد فى كل لحظة أنه ليس بجائع قط ، وأن الغداء فاخر ، وأنه راض كل الرضى ، وأنه سيظل شاكرا مدى الحياة • فلما انتهى الغداء أشعل السيد جوليادكين غليونه ، واقترح على ضيفه اشعال غليون آخر يحتفظ به للأصدقاء خاصة • جلس الرجلان أحدهما أمام الآخر ، وأخذ الضيف يروى مغامراته •

دام كلام جوليادكين الثانى ثلاث ساعات أو أربعا • والحق أن ماوراه

لم يكن الا سلسلة من أحداث تافهة عادية • تحدث عن عمله في ادارة حكومية بالأقاليم ، وعن قضاة تحقيق ، وعن رؤساء محاكم ، وعن مكائد مألوفة في دوائر الدولة • وتحدث كذلك عن فساد أحد الموظفين المرتشين، وعن وصــــول مفتش من المفتشين ، وعن تغيير رئيس الادارة ، وعما أصابه هو من مصائب لا يستحقها • وأشار أيضا الى العمة العجوز بيلاجيا سـيموتوفنا ، ثم أفاض في الكلام تفصـيلا على آخر ما بقي من متاعب : ضياع وظيفته على أثر مكائد دبرها له أعداؤه ، مجيئه الى سان بطرسبرج سيرا على القدمين ، الشدائد والمكاره التي عاناها ، صنوف البؤس وألوان الشقاء التي قاسى منها في العاصمة ، مساعيه الطويلة العقيمة في البحث عن وظيفة • لقد أنفق آخر قرش مما كان قد ادخره ، حتى أصبح مضطرا الى أن يعيش في الشارع فعلا ، يأكل خبزا يابسا مبللا بدموعه ، وينام على الأرض • ومن حسن حظه أن وجد رجل محسن عنى بأمره ، وأوصى به خيرا ، فاستطاع أن يحصل على هذه الوظيفة آخر الأمر • وكان أثناء كلامه يبكي ويجفف دموعه بمنديل أزرق مخطط يمكن أن يحسبه الناظر قماشا مشمعا • وفي الختام فتح قلبه تماما للسيد جوليادكين ، فاعترف له بأنه لا يملك الآن أي مورد من أجل أن يعيش ويسكن ، ولا من أجل أن يكتسي • حتى أنه لم يستطع أن يجمع مبلغا يكفيه لشراء حذاءين • أما الرداء الرسمي الذي يرتديه فقد استأجره بضعة أيام •

تأثر السيد جوليادكين تأثرا شديدا من سماع هذه القصة ، ورق قلبه لصـاحبه وأشفق عليه اشفاقا عميقا • صحيح أن قصـــة الرجل كانت من القصص العادية المألوفة الى أبعد حد ، غير أن كل كلمة من كلماته قد استقبلها قلب السيد جوليادكين كأنها كلام الله ، كأنها القربان المقدس •

لقد تبددت جميع الشكوك التي غزت نفسه في الساعات الأخيرة • فقلبه الآن حر طليق يفيض فرحا • حتى لقد عد السيد جوليادكين نفسه

غبيا ، فكل شيء يبدو طبيعيا ، ولم يكن ثمة ما يوجب أن يعذب نفسه وأن يخاف ذلك الخوف كله في غير طائل • صحيح أن في الأمر نقطة شائكة•• هي هذا التشابه ••• ولكن لماذا يعد هذا التشابه كارثة من الكوارث • ليس الانسان مسئولا عما تفعله الطبيعة • وليس في هذا التشابه ما يحطم حياة انسان ، أو ما يلطخ شرف انسان ، أو ما يعيب سمعة انسان • زد على ذلك أن ضيفه يلتمس منه الحماية •وهو يبكي ويندب ويشكو مصيره؛ ولا يبدو مؤذيا ، بل هو رجل مسكين تافه مبرأ من الكره والمكر • وكان يبدو هو نفسه خجلاً من هذا التشابه الخارق ، ولو لأسباب قد تكون مختلفة • ليس في وضعه ما يمكن أن يؤخذ عليه • انه لا يطلب الا أن ينال رضى صاحب البيت الذي قدم له غداء • ان له نظرة انسان يعـذبه ضميره ، انسان يحس أنه آثم في حق آخر • كان أثناء الحديث يعـود فيوافق السيد جوليادكين على رأيه ، متى دار الكلام على موضوع يمكن أن يثير خلافا في الرأي • فاذا اتفق له ، عن سهو أو غفلة ، أن وجد نفسه يناقض مخاطبه مناقضة واضحة ، لم يلبث أن تدارك خطأه وصحح رأيه ، واندفع في شروح جديدة مؤكدا أن رأيه يتفق ورأيالسيد جوليادكين من جميع النواحي وفي جميع النقاط ، وأنه يفكر كما يفكر السيد جوليادكين تماما ، وأنه ينظر الى الامور نظرته اليها : لقد كان يفعل كل مايستطيع أن يفعله من أجل أن يكون على وفاق مع السيد جوليادكين • وقد خلص السيد جوليادكين من هذا كله الى أن الرجل لطيف محبب الى القلب من جميع الوجوه • وفي أثناء ذلك جيء بالشاي • وكانت الساعة قدتجاوزت الثامنة • فكان السيد جوليادكين يشعر بارتياح كبير ، وقد طابت نفسـه وأشرق مزاجه •

انه الآن منتعش يفيض قلبه حماسة ، فلم يلبث أن أخذ يسترسل مع صاحبه في حديث حار متدفق • ان من عادة السـيد جوليادكين حين

يطيب يومه أن يحب الكلام كثيرا على الأمور الشائعة . فكذلك كان في هذا المساء : تحدث عن العاصمة ، عن ألوان الجمال التي تتمتع بها ، عن ضروب التسليات التي تحفل بها ، عن النوادي ، عن آخر لوحة رسمتها ريشة برولوف . وروى قصة ذينك الانجليزيين اللذين جاءا من لندن الى سان بطرسبرج خصيصا من أجل أن يعجبا بجمال سور « حديقة الصيف » ، ثم لم يلبثا أن غادرا سان بطرسبرج بعدئذ على الفور . وتحدث بعد ذلك عن عمله في الدائرة ، وعن أولسوفي ايفانوفتش وعن أندره فيليبوفتش ، ثم أعلن أنه يرى أن روسيا تسير في طريق التقدم من ساعة الى ساعة ، واستشهد في هذا الصدد بهذا البيت من الشعر :

في كل يوم تزهر الآداب

وذكر كذلك واقعة أخرى كان قد قرأها أخيرا في جريدة « نحلة الشمال » ، وتكلم عن أفعى من أفاعي البيتون بالهند تملك قوة خارقة ، وتكلم عن البارون برابيئوس ، الخ ... الخلاصة أن السيد جولياد كين كان راضيا كل الرضى في ذلك المساء ؛ أولا لأنه كان ينعم بهدوء كامل وطمأنينه تامة ، وثانيا لأنه أصبح لا يخشى أعداءه ، حتى لقد أصبح يحس أنه متأهب لأن يواجههم في معركة حاسمة ، وأخيرا لأنه كان هو نفسه في ذلك المساء في موقف الحامي والمحسن .

ومع ذلك فلقد كان يحس في قرارة نفسه بأن هذه السعادة ليست كاملة تماما في تلك اللحظة ؛ كان يحس في قرارة نفسه بوجود سوس ينخر فيها ، سوس صغير طبعا ، لكنه سوس نشيط ؛ وكان هذا السوس يأكل قلبه في تلك اللحظة . كانت ذكرى السهرة التي انقضت في الليلة البارحة عند أولسوفي ايفانوفتش تعذبه . لقد كان مستعدا لأن يضحي بأشياء كثيرة في سبيل أن لا تقع بعض الاحداث التي وقعت أثناء تلك

السهرة • قال لنفسه أخيرا وقد عزم عزما قاطعا على أن يسلك فى المستقبل سلوكا لا مأخذ عليه ، وأن يتحاشى ارتكاب أخطاء كتلك الأخطاء : « ليس الأمر بذى بال على كل حال ••• » • واذ شعر عندئذ بتحسن حالته النفسية حتى ليشبه أن يكون سعيدا ، أحب السيد جوليادكين أن يتمتع بالحياة قليلا • فجاء بتروشكا يحمل زجاجة من خمر الروم ، فصنع منها شرابا ، فأفرغ الرجلان فى جوفيهما منه كأسا ، ثم كأسا أخرى ؟ فازداد الضيف تلطفا وتوددا ، حتى لقد برهن غير مرة على انطلاق سجيته وسعادة مزاجه ، وشارك السيد جولياد كين انشراحه ومرحه ، وبدا عليه أنه شديد الابتهاج بفرح جولياد كين ، وأنه يعده صديقه الوحيد الحق •

وتناول قلما وورقة على حين فجأة ، وأخذ يكتب طالبا الى السيد جولياد كين أن لا ينظر اليه • حتى اذا فرغ من الكتابة مدّ الى صديقه ما أنجبته قريحته • هى رباعية عاطفية بعض الشىء ، لكنها رائعة من ناحية الشكل والخط • وقد نظمها الصاحب اللطيف بنفسه طبعا • وهذه هى :

وهبك نسيت عهد الود لن أنسى لك الودا
صروف الدهر ألوان ولـكن لا تخن عهـدا

فعانق السيد جولياد كين ضيفه والدموع فى عينيه من فرط التأثر ، وأخذ يفضى الى صديقه الجديد بأخفى أسراره ، فأشار مرارا الى آندره فيليبوفتش والى كلارا أولسوفيفنا ، وما فتىء يكرر له قوله : « آ ••• لسوف ترى يا ياكوف بتروفتش ••• سوف نتفاهم أحسن تفاهم أنا وأنت • سوف نعيش كما يعيش أخوان حقا ••• كالأسماك فى الماء••• وسنمكر ، يا أخى ، سنمكر • سنكيد لهم ، نعم سندبر لهم مكيدة على طريقتنا ••• واياك خاصة أن تثق بهم أو أن تطمئن اليهم أو أن تسر لهم بشىء • أنا أعرفك يا ياكوف بتروفتش ••• أنا أعرف طبعك ••• قد

لا تتورع عن أن تقص عليهم كل شيء ، لأنك انسان حساس النفس مستقيم الخلق • فاجعلهم دائما على مسافة منك يا أخي ••• » • ووافق الضيف السيد جوليادكين موافقة تامة ؛ وأجزل له الشكر حارا ، حتى لقد ذرف بضع عبرات • وأردف بطلنا يقول بصوت مرتجف ضعيف : « اسمع يا ياشا ، اسمع ، تعال فاسكن معي الى حين أو الى الأبد • سنسعد بالسكنى معا • ما رأيك أيها الأخ ؟ ثم لا تعبأ بهذا التشابه بيننا ، لا تحفل بهذه المصادفة الغريبة ! لا تعذب نفسك بهذا الأمر ، ولا تثر عليه ! انها الطبيعة ••• والتمرد كفر • ان أمنا الطبيعة سخية كريمة ، فافهم هذا حق الفهم يا أخي ياشا • أقول لك ذلك عن حب ، عن حب أخوى • سوف يكيدون لنا يا ياشا • ولكننا سنعرف كيف نمد لهم الشباك، وكيف نوقعهم في الفخ ••• سوف ترى ••• » •

وكان الرجلان قد وصلا من الشراب الى الكأس الرابعة • وكان يسيطر على السيد جوليادكين شعوران : فأما الأول فهو أنه لا يستطيع الوقوف على قدميه ، وأما الثاني فهو سعادة ليس لها حدود •

وكان طبيعيا أن يدعو صاحبه الى المبيت في مسكنه • فكذلك فعل • وأمكن اعداد سرير للضيف يضم صفين من الكراسي كيفما اتفق • وقال السيد جوليادكين الجديد ان المرء ليحلو له أن يبيت عند صديق ولو افترش الأرض ، وانه مستعد لأن ينام في أي ركن شاكرا ممتناه وأضاف يقول انه يشعر الآن أنه في الجنة ، بعد سلسلة طويلة من المكاره والمصائب والآلام • آه ما أكثر ما رأى وما قاسى ! ولعل المستقبل ما يزال يخبيء له آلاما أخرى أيضا ! فرأى جوليادكين الأكبر أن يحتج على هذه المزاعم احتجاجا قويا ، وأن يبرهن لصاحبه على ضرورة الايمان بعدالة الله ••• فأمّن صاحبه على قوله مطنبا مسهبا في القول ، وأعلن هو أيضا أن « عدالة

الله لا نظير لها » ••• وبهذه المناسبة ، استشهد جوليادكين الأكبر بالأتراك قائلا انهم على حق حين يبتهلون الى الله حتى أثناء النوم •

وخالف بطلنا آراء كثير من العلماء الذين يتنكرون للنبى « التركى » محمد ، فقال انه يعده رجلا عظيما • ولم يلبث السيد جوليادكين أن انتقل من الكلام على الأتراك الى الكلام على « صالون » جزائرى من صالونات الحلاقة ، فوصفه وصفا حيا جميلا كان قد قرأه فى أحد الكتب • وضحك الرجلان طويلا من سذاجة الأتراك ، ولكنهما لم ينسيا أن يشيدا بتعصبهم الذى يزيده الأفيون قوة وحرارة • وأخذ الضيف يخلع ملابسه • فانسحب السيد جوليادكين الى ما وراء الحاجز • فهو يخشى أولا أن لا يكون قميص ضيفه لائقا ، فمن المستحسن أن يغيب حتى لا يشعر بشىء من المذلة ؛ وهو يريد ثانياً أن يتأكد من سلوك بتروشكا ، أن يسبره قليلا ، أن يبث فى نفسه شيئا من الفرح اذا أمكن ذلك ، أن يلاطفه بعض الملاطفة • كان السيد جوليادكين يرغب رغبة قوية فى أن يسود السلم وأن تسود السعادة فى بيته هذا المساء • ولنلاحظ أيضا أن وضع بتروشكا كان ينعم دائما بالقدرة على جعل السيد جوليادكين قلقا غير مرتاح •

قال بطلنا بصوت عذب رخيم وهو يدخل الحجرة المخصصة لخادمه :

ـ عليك أن تنام الآن يا بطرس • ارقد الآن وأيقظنى غدا فى الساعة الثامنة • هل فهمت يا بتروشكا ؟

كان فى لهجة السيد جوليادكين عذوبة قصوى ورقة عظمى ، ولكن بتروشكا ظل أخرس لا يتكلم ، وظل يتحرك مشغولا حول سريره ، ولم يتنازل حتى أن يلتفت نحو مولاه ، وذلك أيسر مظهر من مظاهر الاحترام •

تابع السيد جوليادكين يقول :

ـ هل سمعتنى يا بتروشكا ؟ ارقد الآن يا بتروشكا ، وفى غد صباحا ، أيقظنى فى الساعة الثامنة • هل فهمت ؟

فدمدم بتروشكا يقول متململا :

ـ فهمت فهمت • هل هذا سحر يصعب فهمه ؟

ـ طيب طيب يا بتروشكا • أنا ما قلت لك هذا كله الا من أجل راحتك وسعادتك • نحن الآن سعداء ، وقد أردت أن تكون أنت أيضا سعيدا • وأنا الآن أتمنى لك ليلة طيبة • نم جيدا يا بتروشكا ، نم جيدا • العمل مقسوم علينا جميعاً ••• واياك خاصة ياعزيزى أن ينصرف ذهنك الى تخيل أشياء •••

قال السيد جوليادكين ذلك ثم توقف فى منتصف جملة مسائلا نفسه : « ترى ألم أسرف فى القول ؟ ألم أبالغ ؟ أنا دائما هكذا ••• أتجاوز الحدود • » • ثم انصرف تاركا حجرة بتروشكا ، مستاء من نفسه بعض الاستياء • ثم انه كان عدا ذلك منزعجا من فظاظة خادمه وانغلاقه • قال لنفسه : « يا للوغد الحقير ! ••• يشرفه مولاه بمخاطبته متلطفا هذا التلطف ، ثم هو لا يحس ذلك ولا يشعر به ••• على أن هذا سجية عامة فى جميع هؤلاء الخدام • » • وعاد السيد جوليادكين الى غرفته وهو يترنح قليلا ، فلما رأى ضيفه مضطجعا جلس لحظة قربه •

بدأ يقول بصوت خافت وهو يرجح رأسه :

ـ اعترف يا ياشا ، اعترف بأنك مذنب فى حقى أيها الخبيث • أأنت ••• ياسميِّى ••• أأنت •• لا داعى الى الكلام ! » •

قال ذلك بلهجة مرحة فى غير كلفة ؛ ثم مضى الى غرفته بعد أن تمنى لصاحبه ليلة هانئة بكثير من المودة والصداقة • ولم يلبث أن اضطجع

هو أيضا ، مبتسما يخاطب نفسه : « أنت اليوم سكران يا عـــزيزى ياكوف بتروفتش ، أنت سـكران أيهـا اللئيم ••• آه منك أيهـا الوغد يا جولبادكين ••• نعم ذلك هو الاسم الذى تستحقه ••• أنت الليـلة فرحان ••• ولكن لماذا ؟ لسوف تسكب فى غد دموعا أيهـا البكّاء ••• لا أمل فيك ! » •

وأحس بطلنا فى هذه اللحظة بشعور غريب واخـز هو مزيج من الندم والشك • قال لنفسـه : « أترانى أسرفت فى الحماسـة ! أنا الآن سـكران • ان فى رأسى دوارا ••• آه ••• اننى لم أعرف كيف أضبط نفسى ••• ان أنا الا أبله ••• ولا شك أننى قلت سخافات كثيرة ••• كبيرة كجبل ••• يا لى من شخص تافه ••• صحيح أن الغفران ونسيان الاساءة هما من الفضائل الحميدة ••• ولكن هذا لا ينفى أننى أخطأت • ذلك واضح وضوح ماء الصخر » • قال السيد جوليادكين ذلك ثم نهض فتناول شمعة واتجه نحو سرير ضيفه سائرا على رءوس الأصابع • كان يريد أن يلقى نظرة أخيرة على وجهه• فظل مائلا عليه مدة طويلة يتفرس فيه غارقا فى تأمل عميق • ودمدم يقول لنفسه أخيرا : « منظر لا يسر••• محاكاة مضحكة ، محاكاة مضحكة لا أكثر ولا أقل ••• »

وعاد السيد جـوليادكين الى سريره فـرقد فى هذه المرة رغم كل شىء • وما لبث رأسه أن أصبح مقر صخب حقيقى : ان أنواعا من قرقعة، ورنين ، وصرير تغزو دماغه • وفقد شعوره بالأشياء قليلا قليلا ••• أراد أن يسترد وعيه ، أراد أن يثبت فكره على نقطة بعينها ، أراد أن يتـذكر أمرا يتعلق بمسألة ذات شأن هام خطير ، مسألة حرجة دقيقة الى أبعـد حدود الحرج والدقة ••• ولكنه لم يظفر بذلك • لقد استولى الكرى على رأسه المسكين فنام ••• نام كما ينام رجل لم يألف الشراب ثم شاءت له المصادفة فى ليلة صداقة أن يفرغ فى جوفه خمس كئوس •

الفصل الثامن

في الغداة ، استيقظ السيد جولياد كين في الساعة الثامنة على عادته • فلم تلبث أحداث الليلة البارحة أن عادت الى ذهنه • صعر وجهه • قال لنفسه وهو ينهض عن سريره وينظر نحو ضيفه « لقد تصرفت أمس تصرف أحمق • • » • ولكن ما كان أشد دهشته حين لاحظ أن ضيفه والسرير الذى لا بد أن ضيفه كان نائما عليه قد تبخرا ! • • • فلم يكد يستطيع أن يمتنع عن اطلاق صرخة تعجب ! قال لنفسه : «ماهذا ! ما معنى هذه الظاهرة الجديدة ؟ » • كان بطلنا يتأمل المكان الخالى مشدوه العقل فاغر الفم • صرّ الباب وظهر بتروشكا حاملا صينية الشاى • تمتم بطلنا بصوت لا يكاد يسمع وهو يشير بأصبعه الى المكان الذى كان يحتله بالأمس سرير صاحبه : « أين هو ؟ أين هو اذن ؟ » • فلم يجب بتروشكا فى أول الأمر بشىء ؛ حتى أنه لم يتنازل أن يرفع عينيه الى مولاه ، وانما اتجه ببصره الى ركن من الغرفة على يمينه ، فلم يسع السيد جولياد كين

الا أن يحدق بصره الى ذلك الركن هو أيضاه وأخيرا بعد صمت طويل، أجاب بتروشكا يقول بصوت أجش فظ : « ليس مولاى فى البيت » •

قال جوليادكين بصوت لاهث وهو يلتهم خادمه بنظرته التهاما :

ـ أنا مولاك يا غبى !

فلم يجب بتروشكا ، ولكنه ألقى على مولاه نظرة لم يملك مولاه ازاءها الا أن يحمر احمرارا شديدا حتى الأذنين • كانت نظرته مثقلة باستياء جارح يعدل اهانة مباشرة • وسقطت ذراعا السيد جوليادكين ، على حد التعبير الرائج • وأخبره بتروشكا أخيرا أن الثانى قد انصرف منذ ساعة ونصف ساعة ، وأنه لم يشأ أن ينتظر • بدا قول بتروشكا جائزاً ومعقولاً ، فلا داعى الى الشك فى صدقه • أما نظرته المهينة ، واستعماله تعبير « الثانى » فهما من النتائج المحتومة لهذه المصادفة العجيبة ، لهذا التشابه المذهل •

أدرك السيد جوليادكين ، ولو فى غموض وابهام ، أن الأمور لن تقف عند هذا الحد ، وأن القدر ما يزال يدخر له مفاجآت لن تكون سارة •

قال لنفسه : « طيب طيب • سوف نرى • سوف نرى كل شىء فى حينه ، فنعرف أين نحن وماذا يجب أن نفعل ••• » ثم أردف يدمدم بصوت مختلف كل الاختلاف ، بصوت متأوه هو الى الأنين أقرب : « آه يا رب ! لماذا دعوته ؟ لماذا أنا هكذا ؟ لأى هدف فعلت هذا كله ؟ ألا اننى لأدس رأسى فى الشوطة التى هيأها لى هؤلاء المجرمون قطاع الطرق • نعم ، اننى أعقد الحبل على عنقى بنفسى • آه منى ، آه من عقلى ، عقل المجانين ! انك يا جوليادكين لا تستطيع أن تقاوم شهوة ارتكاب الخطأ ، لا تستطيع أن تقاوم الرغبة فى أن تكذب كتلميذ ، ككاتب فى الدواوين ،

كفندلفت تافه ••• ان أنت الا خرقة رخوة عفنة ••• ان أنت الا ثرثار ••• ان أنت الا امرأة مهذار ••• ذلك أنت ••• آه يا رب ! ولقد نظم الوغد أشعارا أيضا ! ••• أعرب لى عن صداقته • سأعرف كيف أريه الباب اذا تجاسر أن يعود • سأقول له مثلا : أنظر يا صاحبى ••• ان مرتبى ضئيل ••• أو لعلنى أستطيع أن أخيفه اذا قلت له : لما كانت حالتى العامة على ما ترى ، فيجب أن أذكر لك أنك لا بد أن تدفع نصف أجر المسكن ونصف نفقات الطعام ••• وأن تدفع المبلغ مقدما • آه ••• لا ••• يا للفكرة السخيفة ! لا ••• هذا مستحيل ••• هذا يسىء الى سمعتى ، هذا فظاظة ••• لعلنى أستطيع أن أحاول وسيلة أخرى ••• أن أوحى الى بتروشكا مثلا بأن يكون وقحا فى معاملته ، بأن لا يظهر له شيئا من الاحترام ، بأن يندفع غاضبا فى وجهه على نحو من الأنحاء بفظاظة ••• نعم يمكن طرده بهذه الطريقة • هذا ما يجب أن يعمل • ولكن أأدعهما يصطرعان هما الاثنين ؟ ••• لا ••• ليس هذا باللائق أيضا ••• ليس هذا باللائق أبدا ••• ليس هذا بالخير ••• واذا لم يعد ؟ لن يكون هذا خيرا كذلك• آه ••• لقد أسرفت فى الحديث معه أمس•• آه ••• الأمور لا تجرى كما يجب أن تجرى ••• انها تجرى مجرى سيئا • ما أخف عقلى ! ما أشد حماقتى ! اننى عاجز عن تحقيق شىء من الترتيب فى أفكارى ••• عاجز عن تحقيق شىء من النظام فى رأسى المسكين ••• وماذا اذا عاد ليرفض ما عرضته عليه ؟ آ ••• ليته يعود ••• لسوف يسرنى كثيرا أن يعود ••• » •

كان السيد جوليادكين غارقا فى هذه الخواطر وهو يبتلع الشاى ويراقب ساعة الحائط فى الوقت نفسه •

« هى الساعة التاسعة الا ربعا الآن • آن لى أن أذهب • ما الذى سيقع لى ؟ ما الذى سيقع لى ؟ وددت لو أعرف ماذا يحاك لى الآن من

المكائد ! ما هى خطتهم ؟ ما هى نياتهم ؟ ما هى وسائل عملهم ؟ نعم يحسن أن يعرف المرء على وجه الدقة الى أين يريد أن يصل هؤلاء السادة من ذلك كله ، وما هى الخطوات الأولى التى سيقومون بها ! ... » .

نفد صبر السيد جوليادكين . فها هو ذا يرمى غليونه الذى لا يزال ملآن الى النصف ، ثم يسرع فيرتدى ثيابه ، ويهرع الى مكتبه راكضا ، يريد أن يجتنب ما يمكن اجتنابه ، أو يريد على كل حال أن يتحقق بنفسه مما سيجرى . الخطر قائم لا محالة ؛ هو لا يجهل ذلك .

« هيا هيا ، سننفذ الى السر حالا ، سنوضح الأمر كله قريبا » ، كذلك كان يردد السيد جوليادكين فى الدهليز وهو ينضو معطفه ويخلع جرموقيه . لقد قرر بطلنا أن يباشر العمل ، فها هو ذا يعدل ثيابه ويصطنع وضعاً لائقا مهيبا . وفيما هو يهم أن يدخل المكتب ، اذا به يجد نفسه ، عند عتبة الباب ، أمام صاحب الليلة البارحة ، صديقه الجديد ، وجها لوجه ، أنفا لأنف . بدا على السيد جوليادكين الأصغر أنه لا يتعرف السيد جوليادكين الأكبر ، رغم أنهما متقابلان . كان الموظف الجديد مشغول البال جدا ، على عجلة من أمره ، نافد الصبر ، يكفى أن يرى المرء وجهه حتى يقول لنفسه على الفور : « لا شك أن الرجل مكلف بمهمة خاصة ... » .

قال بطلنا ، وهو يتشبث بيد ضيف الليلة البارحة :

ــ ها ... هذا أنت يا ياكوف بتروفتش !

فصاح السيد جوليادكين الأصغر يقول متملصا :

ــ بعد قليل ، بعد قليل ، معذرة ، ستقول لى هذا كله فيما بعد .

ــ اسمح لى مع ذلك يا ياكوف بتروفتش ، يخيل الى يا ياكوف بتروفتش أنك كنت تنوى أن ...

ـ ماذا تقول ؟ اسرع فى ذكر ما تريد أن تذكره ...

لقد توقف ضيف السيد جوليادكين وهو ظاهر الانزعاج والتململ والتبرم . وجعل أذنه عند أنف محدثه .

ـ يجب أن أعترف لك يا ياكوف بتروفتش بأننى مستغرب أن تستقبلنى هذا الاستقبال ... لقد كان من حقى أن أتوقع منك موقفا غير هذا الموقف ...

ـ لكل طلب أصول معينة لا بد من التقيد بها . فاذهب الى سكرتير صاحب السعادة ثم قدم عريضة مستوفية الشروط الى السيد مدير مكتبه . ان لك طلبا ، أليس كذلك ؟

ـ لست أفهمك يا ياكوف بتروفتش . انك تذهلنى يا ياكوف بتروفتش . ألست تعرفنى ؟ أم أن ذلك مزاح يتفق ومزاجك المرح ؟

قال السيد جوليادكين الأصغر وكأنه لم يتعرف السيد جوليادكين الأكبر الا فى هذه اللحظة :

ـ آ ... هذا أنت ؟ هذا أنت ؟ ... قل لى اذن : هل نمت نوما طيبا ؟

قال الموظف الجديد ذلك ثم حرك شفتيه بابتسامة رسمية مؤدبة ، ولكنها لا محل لها فى الظروف الراهنة ، ما دام مدينا للسيد جوليادكين بالفضل ، حتى هذه اللحظة فى أقل تقدير . وشفع ابتسامته الرسمية المهذبة بكلمة قصيرة أعلن فيها لمخاطبه أنه يسره أن يعرف أنه نام نوما طيبا ؟ ولم يلبث أن انحنى انحناءة خفيفة ، وتحرك فى مكانه ، ونظر مرة الى يمين ومرة الى شمال ، ثم خفض عينيه ، وحدق الى باب قريب ، وتمتم يقول انه مكلف بمهمة خاصة مستعجلة جدا ، وهرع يدخل الى الغرفة المجاورة سريعا كومض البرق .

قال السيد جوليادكين بصوت بهيم وقد صقع لحظة : « قصة عجيبة ... قصة عجيبة حقا ... أهذا هو الامر اذن ؟ » . وهنا شعر السيد جوليادكين برعدات تجتاح جسمه كله . تابع يناجي نفسه ، وهو يتجه نحو مكتبه : « على أنني قد أوجست هذا كله منذ زمن طويل ... انه مكلف هنا بمهمة خاصة ... هذه هي المسألة . أمس ، لا أكثر ، قلت ان هذا الرجل موجود هنا للقيام بمهمة خاصة عهد به اليها أحدهم » .

ـ هل أنهيت نسخ نص الأمس يا ياكوف بتروفتش ؟ أهو معك الآن ؟

كذلك سأله أنطون أنطونوفتش بينما كان السيد جوليادكين يجلس على كرسيه .

فأجابه السيد جوليادكين مدمدما وهو يلقي على رئيسه نظرة مهدمة :

ـ نعم هو معي !

ـ طيب ... لقد سألتك عنه لأن آندره فيليبوفتش قد طلبه مرتين حتى الآن . وأحسب أنه لا بد أن يطلبه بعد قليل ...

ـ النص جاهز على كل حال ...

ـ طيب طيب ... عظيم !

ـ أحسب يا أنطون أنطونوفتش أنني قد قمت بواجبي دائما باخلاص ، وانني انجزت دائما الاعمال التي يعهد بها الي رؤسائي بحماسة ونشاط .

ـ أكيد ... ولكن ماذا تريد أن تقول بهذا ؟

ـ أنا ؟ ... لا شيء يا أنطون أنطونوفتش ... وانما أردت أن أشرح لك يا أنطون أنطونوفتش ... أقصد ... أردت أن أنبهك الى

أن الشر والحسد ، وهما الرذيلتان الساعيتان أبدا في طلب رزقهما اليومي الكريه ، لا يوفران أحدا ...

ـ اعذرني ... لست أفهم عنك تماما . الى من تشير في هــذه اللحظة ؟

ـ أريد أن أقول بهذا يا أنطون أنطونوفتش انني في هذه الحيــاة قد اتبعت الطريق القويم دائما ، وانني أكره الطرق الملتوية ، وانني لست بالشخص الذي يدبر المكائد ... وذلك أمر أستطيع أن أعتز به ويمكنني أن أبرهن عليه اذا أتيحت لي الفرصة .

ـ نعم ، هذا جائز ، بل انني اذا فكرت في الأمر مليا أســتطيع أن أوافقك على صدق ما تقول موافقة تامة كاملة . ولكن اسمح لي يا ياكوف بتروفتش أن ألفت نظرك الى أن المجتمع الراقي لايتسامح دائما في حق غمزات عنيفة تتناول شخصيات مرموقة . أنا من جهتي قد أغفر لأحــد الناس أن يقول عني سوءا من وراء ظهري ـ وما أكثر ما يقول الناس من وراء الظهر ! ... ـ أما أن يواجهني أحد بوقاحات ، فذلك أمر لا يمكن أن أسمح به أبدا أيها السيد ! لقد شاب شعري في خدمة الدولة أيهــا السيد ، ولست أسمح لأحد أن يهينني في هذه السن الوقور .

ـ ليس هذا ما أقصده يا أنطون أنطونوفتش .. ليس هذا ما أقصده يا أنطون أنطونوفتش ... يخيل الي يا أنطون أنطونوفتش أنك لم تفهم عني حق الفهم ... أنا من جهتي يا أنطون أنطونوفتش لا يمكن الا أن أتصور أن من الشرف ...

ـ وأرجو أن تعذرنا نحن أيضا . لقــد نشأنا وتربينا على الطراز القديم . وقد فات الأوان الآن ، فلا نستطيع أن نتبنى أساليبكم الجديدة . ويخيل الي من جهة أخرى أننا قد أظهرنا قدرا كافيا من حسن الفهــم

وسداد الرأى في خدمة الوطن • وأنت لا تجهل أيها السيد أننى أحمل وساما ، جزاء ما قدمت من خدمات خلال خمسة وعشرين عاما فى العمل موظفا فى الدولة •

ـ أعرف هذا يا أنطون أنطونوفتش ، وأنا من جهتى أشاركك شعورك مشاركة كاملة • ولكننى كنت أتكلم عن شىء آخر ••• كنت أتكلم عن القناع يا أنطون أنطونوفتش •••

ـ عن القناع ؟

ـ أقصد ••• أخشى أن تفسر كلامى تفسيرا خاطئا مرة أخرى •• ان معنى ما أقوله يتفق وآراءك كل الاتفاق يا أنطون أنطونوفتش • أنا لا أزيد على أن أفصل القول حول الفكرة الرئيسية ، ابرازا لها ، وهى أن لابسى الأقنعة ليسوا قلة فى زماننا هذا يا أنطون أنطونوفتش ، حتى أصبح يصعب على المرء أن يتعرف الشخص وراء القناع •••

ـ لا ••• ليس يصعب هذا كثيرا ، حتى لقد يكون فى بعض الأحيان سهلا سهولة كافية ، فما يحتاج المرء الى المضى بعيدا •••

ـ عفوك يا أنطون أنطونوفتش ••• اننى أتكلم الآن عن حالتى الخاصة • فأنا مثلا يا أنطون أنطونوفتش لا أضع على وجهى قناعا الا حين تقتضى الظروف ذلك ••• كأن أحضر عيد كرنفال ••• أو أن أحضر اجتماعات مفرحة من هذا القبيل ••• هذا بالمعنى الحقيقى لا المعنى المجازى طبعا • أما فى علاقاتى اليومية بالناس فأنا لا أضع على وجهى قناعا قط ، هنا بالمعنى المجازى، بالمعنى الرمزى• ذلك ما أردت أن أقوله لك يا أنطون أنطونوفتش •

ـ طيب طيب ، ولكن دعنا من هذا كله الآن • ثم ان وقتى لا يتسع للمناقشة •

قال أنطون أنطونوفتش هذا وهو ينهض عن كرسيه ويجمع الأوراق اللازمة للتقرير الذى كان عليه أن يقدمه لصاحب السعادة ؛ ثم أردف :

ـ أما عن حالتك الخاصة ، فسوف يوضح لك الأمر قريبا ، فتعلم عندئذ من هو الذى يجب أن تحمَّله التبعة، من هو الذى يجب أن تتهمه. وعلى هذا فأنا أرجوك ملحا أن تعفينى فى المستقبل من الشروح الخاصة والثرثرات التى تسىء الى العمل .

اصفر السيد جوليادكين ، وجمجم يقول :

ـ لا يا أنطون أنطونوفتش ... لم يكن فى نيتى يا أنطون أنطونوفتش ...

ولكن رئيسه كان قد ابتعد . فلما صار السيد جوليادكين وحيداً استمر يناجى نفسه فى خياله سائلا : « ما الذى يحدث هنا ؟ ما هذه الرياح التى تهب الآن هنا ؟ ما معنى هذه الغمزة الجديدة ؟ » .

أصبح صاحبنا أقرب الى الموت منه الى الحياة ، وراح يتأهب لحل هذه المشكلة الجديدة ، حين سمع ضجة تقوم فى الغرفة المجاورة على حين فجأة . وفتح الباب ، وظهر آندره فيليبوفتش على العتبة نافد الصبر . كان قد ذهب الى مكتب صاحب السعادة قبل برهة قصيرة لبعض الأعمال . صاح آندره فيليبوفتش ينادى السيد جوليادكين . واذ كان السيد جولیادکین يعرف الأمر سلفا ولا يريد أن يضطر آندره فيليبوفتش الى الانتظار ، فقد هب واثبا عن كرسيه ، وأخذ يتحرك مسرعا ، فتناول الملف المطلوب منه، فنفض عنه الغبار مداريا اياه مدللا له. وفيما كان يتأهب للسير وراء آندره فيليبوفتش الى مكتب صاحب السعادة متأبطا ملفه ، اذا به حين صار قرب آندره فيليبوفتش الذى كان ما يزال واقفا عند فتحة الباب ، يفاجأ بظهور السيد جولیادکین الأصغر بغتة . لقد تسلل هذا الى الغرفة تسللا ، وكان

يبدو مشغول البال متقطع الأنفاس ، غارقا في الأعمال • وها هو ذا يصطنع هيئة وقورة رسمية ، ويقبل قدما نحو السيد جوليادكين الأكبر الذي كان على بعد مائة فرسخ من توقع مثل هذا الهجوم •

ـ الأوراق يا ياكوف بتروفتش ، الأوراق ••• لقد شرفنا صاحب السعادة بسؤالنا عن أوراقك هل هي جاهـــزة ؟ ان آندره فيليبـوفتش ينتظرك !

كذلك هذر بصوت خافت وسرعة كبيرة ، الصديق الجديد للسيد جوليادكين • فأجابه السيد جوليادكين يدمدم بصوت خافت وسرعة كبيرة أيضا :

ـ لست في حاجة الى أن أعرف أنه ينتظرني •

ـ ليس هذا ما أردت أن أقوله يا ياكوف بتروفتش ، لا ، ليس هذا ما أردت أن أقوله ، ليس هذا أبدا • أنا معك يا ياكوف بتروفتش ، أنا معك بكل قلبي •••

ـ أرجوك أن تعفيني من هذا ••• اسمح لي ، اسمح لي •••

ـ عليك طبعا أن تحرص على أن تضع الملف في غلاف يا ياكوف بتروفتش • ولا تنس أن تضع شريطة صغيرة في الصفحة الثالثة • اسمح لي يا ياكوف بتروفتش •••

ـ وبعد ؟ ••• بل اسمح لي أنت •••

ـ ولكن ها هنا بقعة حبر يا ياكوف بتروفتش ! هـل لاحظت أن ها هنا بقعة حبر ؟

وفي هذه اللحظة صاح آندره فيليبوفتش ينادي السيد جوليادكين مرة ثانية •

ـ أنا آت يا آندره فيليبوفتش ، فورا ؛ هناك شيء صغير عليّ أن ..
وأخيرا أيها السيد ، ألا تفهم الروسية ؟

ـ خير طـريقة أن تحك البقعة بمـــوسى ، يا ياكوف بتروفتش .
صدقنى ... هذا أفضل ... ودع هذا لى أنا يا ياكوف بتروفتش ...
ثق بى ... سأحك البقعة بموسى حكا بسيطا .

وصاح آندره فيليبوفتش ينادى السيد جوليادكين مرة ثالثة .

ـ ولكن أرجوك ... أين ترى بقعة هنا ؟ يخيل الىّ أنه لا أثر
لأية بقعة هنا .

ـ بل توجد بقعة .. بقعة كبيرة .. انظر .. هى ذى .. اسمح
لى .. هنا رأيت البقعة ، أنظر .. هل تسمح ؟ هات الملف قليلا يا ياكوف
بتروفتش ... لا يحتاج الأمر الى أكثر من حك قليل بالموسى ... أنا
أفعل عنك ذلك حبا بك يا ياكوف بتروفتش ... أفعله بطيب خاطر ...
أحك البقعة قليلا بالموسى ، وينتهى كل شيء .

وهنا وقع شيء لم يكن فى الحسبان ، ولا كان يمكن أن يخطر ببال .
ان السيد جوليادكين الأصغر الذى استطاع أن يتغلب على بطلنا فى هـذه
المناقشة الصغيرة التى شبت بينهما ، قد استولى على الأوراق التى كان يطلبها
صاحب السعادة ، استولى عليها رغم مقاومة السيد جوليادكين ؛ ولكنه بدلا
من أن يحك بقعة الحبر المزعومة بموسى حبا بخصمه كما ادعى ذلك كذبا
ونفاقا ، طوى الأوراق بسرعة ، ووضعها تحت ابطه ، ومضى يدرك آندره
فيليـــوفتش بوثبتـين . ان آندره فيليبوفتش لم يلاحظ مناورات السـيد
جوليادكين الأصغر . وهرع الاثنان الى مكتب المدير .

لبث بطلنا مسمرا فى مكانه ممســكا بيده الموسى التى كان يتأهب
لاستعمالها فى حك بقعة الحبر فيما يبدو . انه لم يفهم بعد كل ما جرى .

انه لما يثب الى رشده • لقد تأثر بهذه الضربة الأخيرة تأثرا شديدا ، ولكنه ما يزال يعتقد أن المسألة مسألة سوء تفاهم • واستبد به قلق رهيب لا يوصف ، فاذا هو ينتزع نفسه من مكانه انتزاعا ، ويسير مسرعا نحو مكتب المدير • وكان وهو يجرى نحو مكتب المدير يسأل الله العلى القدير مخرجا موفقا من هذا المأزق •••

وفى القاعة الأخيرة ، قبل مكتب المدير ، التقى بطلنا وجها لوجه بأندره فيليبوفتش وسميّه • لقد كانا عائدين من مكتب صاحب السعادة امحى السيد جوليادكين • كان آندره فيليبوفتش يتكلم مرحا وهو يبتسم• وكان السيد جوليادكين الأصغر يبتسم أيضا ، ويتغنج متزلفا ، ويسير بخطى قصيرة على مسافة من آندره فيليبوفتش من قبيل الاحترام ، ويوشوشه من حين الى حين مشرق الوجه فيجيبه أندره فيليبوفتش هازا رأسه بكثير من الملاطفة • يجب أن نقول ان عمله (كما علم بذلك فيما بعد) قد أرضى صاحب السعادة كثيرا ، حتى لقد تجاوز الآمال التى كان يعقدها صاحب السعادة ، فهو قد أنجز العمل فى المهلة المحددة ، وصاحب السعادة مرتاح الى هذا كل الارتياح ، راض عنه كل الرضى • بل يظهر أن صاحب السعادة قد كال المديح للسيد جوليادكين الأصغر ، وشكر له صنيعه شكرا حارا ، وأضاف الى ذلك أنه سيحسب حساب هذا فى المستقبل ، وأنه لن ينساه قط •

كان طبيعيا أن تكون أول حركة يقوم بها بطلنا هى أن يحتج ، أن يحتج بكل ما أوتى من قوة ، فى حدود الامكان • لذلك أسرع نحو آندره فيليبوفتش ، وقد امتقع لون وجهه حتى صار فى صفرة الموتى ، وهو لا يكاد يعى ما يصدر عنه من أفعال • ولكن آندره فيليبوفتش ، ما ان علم أن المسألة التى كان السيد جوليادكين الأكبر يريد أن يحدثه فيها

مسألة شخصية خاصة ، حتى رفض أن يصغى اليه ، وحتى نبهه بقسوة الى أنه لا يملك لحظة من فراغ يقفها على الاهتمام بشئون شخصية .

وقد بلغت لهجة الرفض من الخشونة والجفاف أنها أحدثت فى بطلنا تأثيرا عميقا . فقال لنفسه : « ربما كان من مصلحتى أن أجىء اليه مواربا ، عن طريق أنطون أنطونوفتش مثلا . . » . ولكن شاء سوء حظ بطلنا أن كان أنطون أنطونوفتش غائبا . فلقد نودى هو أيضا ، فهو فى هذه اللحظة مشغول .

قال بطلنا لنفسه : « لقد كان على حق حين طلب الى أن أعفيه من الشروح والثرثرات . نعم ، ذلك ما كان يقصد اليه هذا الفاسق . طيب ... لم يبق علىّ والحالة هذه الا أن أمضى أتوسل الى صاحب السعادة » .

وتهاوى السيد جوليادكين على أحد الكراسى ، وهو ما يزال ممتقع اللون ، مضطرب العقل ، نهبا للشكوك ، لا يدرى ماذا يفعل ... وكان ما ينفك يردد فى ذهنه قائلا لنفسه : « لا شك أن من الأفضل أن لايكون لهذا كله أى دلالة . فالحق أن وضعا كهذا الوضع أمر لا يصدقه العقل من أية ناحية نظرت اليه . هذه ترهات حتما ... ذلك مستحيل قطعا . لا .. لا شك أن هذا كان رؤيا .. لاشك أننى ذهبت بنفسى الى المدير .. ثم حسبت نفسى شخصا آخر ... على كل حال .. هذا كله مستحيل» .

وما كاد السيد جوليادكين ينتهى الى استحالة هذه القضية أساسا حتى ظهر سميُّه فى المكتب بغتة ، وهو يحمل تحت ذراعه وفى يديه مقدارا كبيرا من الملفات .

وفيما كان يمر أسرّ الى اندره فيليبوفتش ببضع كلمات لاشك أنها كانت ضرورة لا غنى عنها ، وتبادل بضعة أقوال مع موظف آخر ، ولاطف هذا قليلا ، ومازح ذاك شيئا . كان واضحا أن وقته لا يتسع لمشاغل

تافهة • وشاء حظ بطلنا أن جوليادكين الأصغر ، بينما كان يهم أن يجتاز عتبة الباب ليخرج من المكتب ، استوقفه موظفان أو ثلاثة موظفين شباب دخلوا الغرفة فأخذوا يتحدثون معه • فما كان من السيد جوليادكين الا أن هرع نحوه • ولكن السيد جوليادكين الأصغر أدرك حيلة بطلنا فورا، فلم يلبث أن أخذ يبحث عن مخرج ليتملص من الحديث وهو قلق النظرة • غير أن بطلنا كان قد أمسك بكمه • ابتعد الموظفون الذين كانوا على مقربة من صاحبنا يرقبون نتائج الأحداث مستطلعين •

كان السيد جوليادكين يعرف حق المعرفة أن جميع عواطف المودة كانت متجهة نحو خصمه ؛ وكان يدرك أن مكيدة قد دبرت له • وذلك سبب آخر يدعوه الى تأكيد حقوقه • لقد كانت اللحظة حاسمة •

قال سميّه وهو يرشقه بنظرة تفيض احتقارا :

ـ نعم ؟

وكان السيد جوليادكين الأكبر لا يكاد يستطيع التنفس • بدأ يقول :

ـ لا أدرى ، أيها السيد ، كيف أفسر سلوكك الغريب معى •

فأجابه السيد جوليادكين الأصغر وهو يلقى نظرة حوله ، ويشفع النظرة بغمزة للموظفين الذين يحيطون به ، كأنما لينبههم الى أن التمثيلية الهزلية ستبدأ :

ـ طيب ، أكمل كلامك •

ـ ان مايظهر فى أساليبك من وقاحة واستهتار واستخفاف يدينانك مزيدا من الادانة فى الحالة الراهنة ••• يدينانك ادانة يعجز عنها ما قد

أقوله أنا من كلام ... لا تعقد آمالا كثيرة على حيلك فهي خرقاء لا تنطلي على أحد .

ـ دعك من هذا الكلام يا ياكوف بتروفتش ! أليس الأحرى أن تقول لي كيف نمت البارحة ؟

كذلك قال السيد جوليادكين الأصغر لمحدثه وهو يحدق في عينيه .

فأجابه بطلنا وقد نفد صبره وأصبح لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه من فرط الاضطراب :

ـ لا تنس نفسك أيها السيد ، وآمل أن تغير لهجتك ...

فقال له جوليادكين الأصغر وهو يصعر وجهه تصعيرة استفزاز :

ـ ها ... يا عزيزي ...

ـ ثم اذا هو يقوم بحركة مفاجئة لا يمكن أن يدفع أي شيء على التنبؤ بها .. فيمسك باصبعيه الخد اليمنى الربلة من وجه بطلنا ، على سبيل المداعبة .

اشتعل بطلنا غيظا . انه الآن أخرس من شدة الحنق ، أحمر اللون كالجنبري ، مرتعد الأعضاء جميعا . أدرك خصمه أن بطلنا عيل صبره فهو يوشك أن يهجم . لذلك سارع يسبقه الى ذلك على أوقح صورة ، فها هو ذا يربت على خده اليمنى مرتين ، ويدغدغه مرتين ، ملاعبا خصمه الجامد من الذهول ، الطائش اللب من الحنق ، مرضيا بذلك من كانوا يحيطون بالرجلين من الموظفين الشباب ؟ ثم ها هو يمضي الى قمة الغطرسة فيلكز كرش خصمه ويقول له وهو يبتسم ابتسامة تفيض لؤما وغمزا : « يا لك من ماكر يا عزيزي ... لسوف ندبر لهم مكائد يا ياكوف بتروفتش ، نعم سوف ندبر لهم مكائد ... » . ثم ها هو ذا ، دون أن

يدع لبطلنا فرصة الأوبة الى رشده بعد هذه الهجمة الجديدة ، يبتسم ابتسامة جديدة على المشهد ، ثم ما يلبث أن يصطنع هيئة رسمية ، هيئة رجل مشغول جدا ، فيخفض عينيه ، ويتقلص ، ويدمدم بقوله مسرعا : « هناك مهمه مستعجلة يجب أن أقوم بها » ، ثم يحرك ساقيه القصيرتين منسلا الى الغرفة المجاورة •

لبث بطلنا على حاله مبهورا مشدوها • انه لا يصدق عينيه ، ولا يستطيع التخلص من انفعالاته •••

وثاب أخيرا الى صوابه • فسرعان ما أدرك أنه قد ضاع ، أنه قد صار أضحوكة ، أن شرفه قد تلطخ ، أن العار أصبح يجلله • لقد استهزىء به على مرأى من الناس ، والشخص الذى استهزأ به هو الرجل الذى كان يعده فى الليلة البارحة خير صديق له • لقد ساءت سمعته الى الأبد •

واندفع السيد جوليادكين يلحق بعدوه ، لا يحفل بمن شهدوا الاهانة ولا يعبأ بهم • قال يردد لنفسه : « انهم متواطئون ، يسيرون جميعا يدا بيد ، ولا يفكر أحد منهم الا فى تحريض الآخر علىّ • » • ومع ذلك ما كاد السيد جوليادكين يقطع عشرة أمتار حتى أدرك أن كل ملاحقة باطلة لا طائل تحتها ولا خير منها ، فعاد أدراجه •

قال يخاطب غريمه بينه وبين نفسه : « لن تفلت منى • سوف تقع فى فخى عاجلا أو آجلا ••• سوف يسأل الذئب عن دموع الحمل • » • ووصل الى كرسيه فجلس عليه وهو يفيض حقدا باردا وتصميما قويا •

« لن تفلت منى ! » كذلك ردد السيد جوليادكين • لم يبق الأمر عنده أمر دفاع ، بل أصبح أمر هجوم •

لو رأى أحد السيد جوليادكين فى هذه اللحظة ، وقد احمر وجهه

من الغضب وأصبح لا يكاد يستطيع أن يسيطر على انفعاله ، لو رآه يغمس ريشته في الحبر ويأخذ يكتب حانقا ، لقال حتما ان القضية لن تقف عند هذا الحد ، وان بطلنا لن يكتفي قط بحل مبتذل بسيط • ان قرارا جازما قاطعا قد قام في أعماق نفسه • ولقد حلف ليضعنّه موضع التنفيذ لامحالة ••• الحق أنه لما يعرف تماما أى سلوك يجب عليه أن يسلك ، أو قل انه لا يعـــرف ما الذى يجب عليه أن يفعله أصـــلا • ولكن لا ضير •••

« لا ياسيدى ، ان الاغتصاب والوقاحة لا ينجحـان فى هـــذا الزمان • الاغتصاب والوقاحة سوف يوصلانك الى القوة لا الى السعادة يا سيدى • ان جريشكا أوتريبييف وحده قد وصل الى أغراضه باغتصاب اسم ولقب• لقد خدع شعبا أعمى ، ولم يخدعه زمنا طويلا على كل حال • • » •

ورغم هذه الاعتبارات قرر السيد جوليادكين ، حتى يرد ، أن ينتظر اللحظة التى تسقط فيها جميع الأقنعة من تلقاء ذاتها ، فتنكشف عنـدئذ حقيقة الناس والأشياء • وكان عليه أولا أن ينتظر ساعة انتهاء العمل ، فلا يشرع فى شىء قبل ذلك • هناك اجراءات معينة عليه أن يتخذها عند الخروج من المكتب • حتى اذا اتخذ هذه الاجراءات أصبح يعرف الخطة التى يجب عليه أن يتبعها لتحطيم هذا الصنم الوقح ، لسحق هذه الأفعى التى تقضم الجثة ، هذه الأفعى التى تحتقر الضعفاء • ومهما يكن من أمر، فان السيد جوليادكين لن يسمح أبدا بأن يعامل كخرقة بالية لا تصـلح الا لتنظيف الأحذية المتسخة ؛ انه لن يسمح أبدا بهذا ، ولا سيما فى الظروف الراهنة • لولا هذه الوقاحة الأخيرة ، لكان يمكن لبطلنا أن يقرر ضبط نفسه وكبح جماحه ، ولكان يمكن أن يلتزم الصمت وأن يتجه الى المصالحة دون أن يصر على احتجاجات صاخبة كثيرة ••• ولكان يمكن أن يكتفى بمناقشة قصيرة يؤكد بها حقوقه التى لا تجحـد : كان يمكن عندئذ أن يقبل بعض التنازلات فى أول الأمر ، وأن يقبل تنازلات أخرى

بعد ذلك ، وأن ينتهي أخيرا الى قبول تسوية كاملة ، اذا اعترف أعداؤه صراحة بأنه على حق •

ويميناً انه ليكون مستعدا بعدئذ لمصالحة تامة ، حتى لقد يرق قلبه قليلا • ومن يدري ، فقد يكون هذا بداية صداقة جديدة ، صداقة وطيدة حارة ، أقوى وأوسع من صداقة الليلة البارحة أيضا • وفي وسع هذه الصداقة الجديدة أن تمحو السيئات الناشئة عن هذا التشابه المشئوم بين شخصيهما محوا تاما ؛ وفي وسعها أن تحمل السعادة الى هذين الموظفين اللذين يستطيعان أن يعيشا عندئذ في سلام وطمأنينة مائة سنة و ••• أكثر من ذلك أن السيد جوليادكين قد أخذ يندم على تدخـــله دفاعا عن حقه تدخلا كان لا بد أن تكون له عواقب سيئة •

قال السيد جولياد كين لنفسه : « يكفي أن يتراجع ، يكفي أن يعترف أن هذا كله لم يكن الا سفاسف ، حتى أغفر له وأعفو عنه ••• لا سيما اذا أعلن ذلك جهارا على رءوس الاشهاد • ولكنني لن أسمح أبدا بأن أعامل كخرقة بالية • انني لم أسمح بذلك لأحد في حياتي : لم أسمح به حتى لأشخاص أقوى منه ، فكيف أحتمل مثل هذه الاهانة من رجل فاسد مثله • لست خرقة بالية أيها السيد ، لا لست خرقة بالية • » • ويمكن تلخيص النتيجة التي انتهى اليها السيد جولياد كين في جملة هي التالية : أنت ، أيها السد ، المسئول الآثم الوحيد عن حالة الامور هذه كلها • • • لقد قرر السيد جولياد كين الآن أن يحتج ، أن يدافع عن نفســه ، بجميع الوســائل ، الى النهاية القصوى • ذلك طبعه • انه لا يســتطيع الرضوخ للاهانة • انه لا يقبل أن يداس كما تداس خرقة بالية • انه لا يقبل هذا ، ولا سيما من شخص جدير بالاحتقار كهذا الشخص • قد يقبل مثل هذا من شخص يريد بل يعزم عزما أكيدا على أن يعـامل الســيد جولياد كين معاملة أتان ، ويتوصل الى ذلك بدون كبير مقاومة منه ، وبدون كبير خطر

على كل حال • هذا أمر كان السيد جوليادكين يقبله هو نفسه أحيانا • كان في وسع الرجل أن يجعل من بطلنا خرقة بالية ، خرقة يرثى لها ، خرقة متسخة ، ولكنها خرقة يمكن أن يكون لها مع ذلك شيء من كرامة، ومن حماسة ، ومن عواطف : هي كرامة صغيرة طبعا، وهي طبعا عواطف فقيرة مكبوتة في الثنايا العميقة المتسخة من الخرقة البالية التعيسة أيضا ••• ولكنها عواطف على كل حال •••

وكانت الساعات تجرى بطيئة بطئاً يبعث في النفس الحزن واليأس • ودقت الساعة الرابعة اخيرا • فما هي الا لحظات حتى أخذ الموظفون ينهضون ويتركون المكتب وراء رئيسهم ليمضي كل منهم الى منزله • اندس السيد جوليادكين بين الجمهور • كانت عينه ترقب الشخص الذى كان عليه أن لا يدعه يفلت منه • ورأى بطلنا سميَّه يتجه نحو حراس المعاطف • كان السيد جوليادكين الأصغر يثرثر على عادته الكريهة مع الحارس بانتظار أن يأخذ معطفه • انها لحظة فاصلة • واستطاع السيد جوليادكين أن يشق لنفسه طريقا بين الجمهور ، لأنه لا يريد أن يكون بعيدا عن غريمه ، وطلب معطفه هو أيضا ؛ ولكن صديقه ، صديق الليلة البارحة ، أُعطى معطفه قبله • لا شك أن صاحبه قد عرف كيف يتسلل الى الحارس ويتزلف اليه ويتملقه خفية ، بما عهد فيه من خسة وصغار •

ارتدى الغريم معطفه بسرعة ، وألقى على السيد جوليادكين نظرة ساخرة • ذلك تحد سافر واستفزاز مباشر على رءوس الأشهاد • ثم ألقى نظرة على ما حوله ، بالغطرسة المألوفة فيه ؛ وأراد أن يحتفظ بما حصل من تفوق على خصمه أمام جميع الناس ، فأسرع يختلط بالموظفين ، يقول لهذا كلمة ، ويوشوش ذاك لحظة ، ويزجى الى الثالث ملاطفة ، ويتجه نحو الرابع بابتسامة ، ويصافح يدا من الأيدى ، ثم يهبط السلم خفيفا مرحا • هرع بطلنا يجرى في أثره ، فما كان أشد اغتباطه حين استطاع

أن يدركه عند آخر درجة من درجات السلم ! ••• وها هو ذا يمسكه من ياقة معطفه ••• بدا على السيد جوليادكين الأصغر غير قليل من الحيرة والارتباك ، ونظر فيما حوله نظرة مروعة ؛ ثم دمدم أخيرا يقول بصوت منطفىء :

ـ ما معنى هذا ؟

فقال بطلنا :

ـ أيها السيد ، اذا كنت رجلا محترما، فعليك أن تتذكر ما كان بيننا من علاقات الود والصداقة بالأمس •

ـ ها ••• نعم ••• بالمناسبة ، هل نمت نوما طيبا ؟

لم يستطع السيد جوليادكين أن ينطق بكلمة واحدة من شدة حنقه وغيظه • ثم قال :

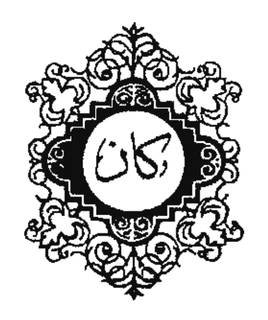
ـ نعم ••• لقد نمت نوما طيبا جدا ••• ولكن اسمح لى أن أنبهك أيها السيد الى أن لعبتك مرتبكة ارتباكا فظيعا •

ـ من ذا الذى يدعى هذا ؟ ان أعدائى هم الذين يقولونه •••

كذلك أجاب الرجل الذى سمى نفسه للناس جوليادكين• وبحركة مفاجئة عنيفة تملص من قبضة بطلنا الضعيفة •

ولم يلبث أن وثب الى الشارع بسرعة ، وأخذ ينظر هنا وهنـاك ، فلما لمح عربة جرى نحوها مسرعا ، واختفى عن عينى السيد جوليادكين الأكبر • بقى بطلنا وحيدا ، مهجورا من جميع الناس ، فريسة غم شديد وحزن رهيب • نظر فيما حوله ، ولكنه لم يبصر أية عربة • أراد أن يركض ولكن ساقيه ترنحتا • استند بجسمه الى عمود من أعمدة الغاز ، منقلب الرأس ، فاغر الفم ، متقلص الظهر ، خائر القوى • ولبث على هذه الحال فى وسط الرصيف لحظات طوالا • كان يبدو للسيد جوليادكين أن كل شىء قد ضاع •

الفصل التاسع



جميع الناس متواطئون على السيد جوليادكين ، وكأن الطبيعة نفسها متواطئة عليه . ولكن السيد جوليادكين ظل واقفا لا يريد أن يعترف بالهزيمة. لا ... انه لم يهزم ... انه لم يغلب ... ذلك شيء يحسه ... وهو مستعد لأن يصارع ... ولقد بلغ من القوة والحماسة فى حك يديه احديهما بالأخرى ، بعد انقضاء لحظة الذهول الأولى ، انه يكفى المرء أن يرى وضعه حتى يصبح على يقين من أنه لن يذعن بحال من الأحوال . ولقد كان الخطر واضحا مع ذلك . ان السيد جوليادكين يدرك هذا حق الادراك .

وكيف كيف السبيل الى تفاديه ؟ هذا هو السؤال . ولمعت فى رأسه فكرة فى لحظة من اللحظات : « أليس الأفضل أن يدع الأمور تجرى على أعنتها ، وأن يتراجع لا أكثر ولا أقل ؟ لماذا ؟ ولماذا لا ؟ أبتعد ...

كأن الأمر لا يعنيني في شيء ••• أترك القضية تجرى من تلقاء ذاتها ، فلا أتدخل ••• الأمر لا يعنيني وكفى ! ••• ولعله يرضخ ويذعن هو أيضا ••• يدور كمايدور الخذروف ، هذا الفاسق ، ثم يدور ويدور ، ثم يتوقف راضخا مذعنا ••• نعم ، هو كذلك ، سأنتصر عليه بالاذعان• ولكن أين الخطر في الواقع ؟ أي خطر هنالك ؟ ليت أحدا يقول لي أين يوجد الخطر ! •• قضية تافهة •• قضية مضحكة •• لا أكثر » •

هنا توقف السيد جوليادكين • جمدت الكلمات على لسانه • أنَّب نفسه أشد التأنيب على هذه الخواطر • وسرعان ما اتهم نفسه بالحقارة والجبانة • ولكن هذا لا يقدم أموره خطوة واحدة • كان يحس احساسا واضحا بأنه لا بد في هذه اللحظة من اتخاذ قرار • وكان يحس أيضا بأنه مستعد لأن يدفع أي ثمن لمن يرشده الى حل • ولكن كيف يستطيع أن يجد هذا الحل بنفسه ؟ ثم ان وقته لا يتسع للبحث عن هذا الحل • وها هو ذا يستأجر عربة ويأمر سائقها بأن يقوده الى بيته ، حتى لا يضيع كثيرا من الوقت سدى • سأل نفسه : « والآن ، كيف حالك ؟ كيف حالك في هذه اللحظة يا ياكوف بتروفتش ؟ ما الذي ستفعله ؟ ما الذي تنوي أن تفعله الآن أيها الجبان ، أيها الرعديد ؟ لقد صنعت كل شيء حتى وصلت الى ما وصلت اليه ، وهاءنت ذا تأخذ تباكى وتتشكى ! » • هكذا كان السيد جوليادكين يستهزىء بنفسه بينما كانت رجات عربته العتيقة تهزه وتتقاذفه يمنة ويسرة • ان هذه الاستهزاءات المرة الكاوية التي تنكأ جروحه تحدث الآن في نفسه أقوى لذة بل أكبر متعة •

قال يخاطب نفسه : « تصور لحظة أن ساحرا ظهر أمامك الآن فجأة ــ ساحرا أو أي انسان آخر يملك قدرات فوق الطبيعة ــ فقال لك: اعطني اصبعا من أصابع يدك اليمنى يا جوليادكين فأسوى لك الأمور ، فلا يكون هنالك بعدئذ جوليادكين آخر ، وتعيش سعيدا بغير اصبع •••

ألا انني مستعد لأن أعطيه الاصبع التي يطلبها ... لسوف أعطيه اياها حتما ... لسوف أعطيه اياها دون أن تطرف لي عين ... » .

وصاح الموظف المسكين أخيرا يقول وقد أخذ منه اليأس كل مأخذ: تباً لهذا كله ... لماذا هذه المصائب جميعها ؟ لماذا يجب أن يقع لي كل هذا ، لماذا يجب أن يقع لي هذا بعينه ، لا أي شيء آخر غيره ؟ وكان كل شيء يجرى على ما أحب قبل ذلك ... كنت راضيا وكنت سعيدا ... فهل كان لا بد أن يقع لي ما وقع ؟ ... مهما يكن من أمر فلن نصل الى شيء بالأقوال وحدها ، وانما يجب أن تقرن الأقوال بأفعال . » .

وبينا هو يهم أن يتخذ قرارا دخل الى مسكنه ، فتناول غليونه دون أن يضيع لحظة واحدة ، وأخذ ينشق بكل ما أوتي من قوة ، نافثا سحائب الدخان في كل اتجاه هنا وهناك ، سائرا في الغرفة جيئة وذهابا ، وقد تملكه انفعال شديد . وفي أثناء ذلك أخذ بتروشكا يعد المائدة . فما هي الا لحظات حتى كان بطلنا قد اتخذ قراره الحازم الذي لا رجعة عنه . فرمى غليونه ، وأسرع يرتدي معطفه ويخرج من المنزل قائلا لخادمه انه لن يتغدى اليوم في البيت . وفيما كان يهبط السلم أدركه بتروشكا لاهثا وهو يمد اليه قبعته التي نسي بطلنا أن يأخذها من فرط تعجله . فتناول جوليادكين القبعة وأراد أن يقول بضع كلمات عرضا من أجل أن يبرر هذا النسيان حتى لا يظن بتروشكا الظنون في تعليل اضطرابه ، ولكن بتروشكا لم يتنازل أن يلقي عليه نظرة واحدة ، بل عاد أدراجه . فلم يسع السيد جوليادكين الا أن يضع القبعة على رأسه مستغنيا عن أي تبرير ، وأسرع يهبط السلم وهو يدمدم بأن كل شيء يمكن أن يسوى على أحسن وجه . وكان يحس مع ذلك برعدات تسري في جسمه كله من الرأس الى القدمين . واستوقف حوذيا وأمره أن يمضي به الى منزل أندره فيليبوفتش .

قال لنفسه فجأة وهــو يهم أن يشــد حبــل جــرس منزل آندره فيليبوفتش : « ولكن أليس الأفضل أن أرجيء هذه الزيارة الى الغد ؟•• ثم ماعساني قائلا له ؟ ليس ثمة شيء ذو بال أقوله له ••• ماذا اقول له ؟ المسألة تافهة في الواقع ، المسألة تافهة لا قيمة لها ••• هي مسألة تافهــة تفاهة مطلقة ••• هي مســألة صغيرة حقــيرة ليست بذات شأن ••• أو لا يكاد يكون لها شأن ••• وما هي بالمسألة الخطيرة على كل حال •••»

وفجأة شد السيد جولياذكين حبل الجرس • فسمع صوت الجرس يرن في داخل البيت ، ثم سمع وقع خطوات تتجه نحو الباب • لعن السيد جولياذكين نفسه على هذا التعجل وهذا التهور• وسرعان ماتذكر مشكلاته الأخيرة ومشاداته الأخيرة مع آندره فيليبوفتش ، التي كانت قد انتقلت الى المحل الثاني من اهتمامه ، بسبب وجود ما هــو أشد منهــا لجاجة عليه • ولكن أوان الهروب كان قد فات ، فها هو ذا الباب يفتح • وشاء حسن حظ بطلنا أن يقال له ان آندره فيليبوفتش لما يعد من المكتب ، وانه لن يتغدى اليوم في المنزل • قال صاحبنا يخاطب نفسه هاذيا من شدة الفرح: « أنا أعرف أين يتغدى•• لاشك أنه يتغدى قرب جسر اسماعيلوفسكي». وسأله الخادم هل من رسالة ينقلهــا منه الى مولاه ، فأجابه جوليــادكين بقوله : « لا يا صديقي ، شــكرا ، ليس هنــاك شيء ••• ســأعود مرة أخرى ••• » • قال جوليــادكين ذلك وأسرع يهبط الســلم فرحا كل الفرح •

حتى اذا صار في الشارع نقد الحوذي أجره وطلب اليه أن ينصرف فطالبه الحوذي بزيادة قائلا : « لقد انتظرت مدة يا ســيدي ، ولم أرحم حصاني في سبيل خدمتك » ، فكافأه السيد جولياذكين بخمس كوبكات مبتهجا ، ومضى يسير على قدميه •

قال لنفسه وهو في الطريق : « المسألة حرجة ••• ولا يسع المرء

أن يهملها . ولكننى اذا فكرت فى الأمر مليا أرى أنه من غير المفيد أن أقلق نفسى الآن . ما فائدة أن أجتر الحكاية نفسها فأعكر صفوى وأخنق نفسى ؟ ما فائدة هذا العذاب وهذا الاضطراب وهذا الألم أسببه لنفسى ؟ ما جدوى أن أمزق قلبى ؟ ما كان فقد كان ... ولا حيلة لى فى العودة عنه ... ولا فائدة من الرجوع اليه .. هلا فكرت قليلا : هذا انسان.. أقول هذا انسان حمل رسائل توصى به خيرا .. وهو فيما يقال من معدن طيب خليق بأن يجعله موظفا ناجحا ... وسلوكه لا غبار عليه . وهو الى ذلك فقير ... قاسى فى حياته آلاما كثيرة ، ولقى متـــاعب جمة من كل نوع . والفقر ليس بعيب . فما شأنى أنا فى الأمر ؟ ... » .

« وما هى القضية فى الواقع ؟ لقد شاءت نزوة من نزوات الطبيعة أن يكون بينى وبين هذا الانسان تشابه كبير كتشابه قطرتى ماء ، حتى لكأنه نسخة منى حقا ؟ فهل يرفضون توظيفه لهذا السبب ؟ اذا كان القدر ، نعم اذا كان القدر الأعمى هو المسئول عن هذا التشابه ، فهل يداس الرجـل كما تداس خرقة بالية ، وهل يمنع من حق العمل ؟ ... أين العـدالة فى هذا ؟ ... انه رجل فقير مهجور أعزل ، ينفطر القلب لرؤيتـه . فالبر والاحسان والمحبة توجب حمايته وتأمر برعايته . نعم ، ذلك هــو الأمر تماما . هل على رؤسائنا أن يفكروا فى القضية على نحو ما فكرت أنا فيها من قبل ؟ يا لغبائى ! يا لحماقتى ! ألا اننى حيوان كعشر حيوانات بلاهة ... من حسن الحظ أن رؤساءنا قد أحسنوا عملا فضموا الفقـير المسكين ... لأفرض أننا توأمان ، نعم ، لأفرض أننا أخوان توأمان منذ الولادة ، وكفى ! ... هل فى هذا شىء خارق للمألوف ؟ أبدا ... ومن الممكن تعويد الموظفين الآخرين على هذه الفكرة ... أنا واثق أنه اذا دخل الى مكتبنا شخص غريب لما رأى فى هذا التشابه ما يسىء الى الكرامة أو يجرح الشعور ... حتى لقد يكون فى ذلك جانب يبعث على المحبة ،

وذلك على أساس الفكرة التالية : لقد أرادت مشيئة الله أن تخلق مخلوقين متشابهين تشابها كاملا فأحدهما « مثل » الثانى .. والرؤساء الكرام فهموا مشيئة الله فضموا التوأمين فى كنفهم ومنوا عليهما بالرعاية والحماية .. »

واسترد جوليادكين أنفاسه ، ثم عاد يقول وقد خفض صوته قليلا : « صحيح أنه كان من الأفضل أن لا يقع شيء من هذا أصلا ... لا تلك المصادفة التى تثير عاطفة المحبة ، ولا قصة التوأمين هـــذه ... ما كانت حاجتنا الى كل هذا ؟ لقد كان فى الامكان أن يستغنى عن القضية كلهـا أساسا ... رباه ! ما هذه الورطة التى أقحمنا فيها هؤلاء الجن ، هـؤلاء الشياطين ! ويجب الاعتراف على كل حال أن سلوكه لا يدل على شيء من خلق كريم ... ثم انظر الى وجهه الباش الذى ينم عن النفاق ... انه لانسان ماكر حقا ... انسان متجسس ، عبد متزلف حقـــير ، هـــذا الجوليادكين ! ... انه لن يتورع عن تلطيخ شرفى بسلوكه الدنىء ، هذا الوغد ! .. يجب علىّ أن أراقبه ! يا لهذا العمل من سخرة !... ولكن هل هذا مفيد حقا ؟ انه حتما غير مفيد ... هـو رجـل نذل ما فى ذلك ريب ... أما أنه نذل فهو نذل ... وسيظل نذلا . ولكن الآخر رجل شريف . طيب .. فليبق هو نذلا ولابق أنا شريفا . وسيقول الناس : جوليادكين هذا نذل جبان فلنشح عنه ولا نخلطن بينه وبين الآخر ! أما جوليادكين داك فهو شريف فاضل دمث مسالم فيمكن الاعتماد عليه فى العمل ، ويستحق ترقية من غير شك . هذه هى المسألة ... ولكن ... ماذا لو خلطوا بيننا ! هو لا يتورع عن شيء ... هو لا يتورع عن انتحال شخصية رجل آخر ... نعم هو لا يتورع عن ذلك أبدا ... وهـــو لا يتورع عن احالة ذلك الرجل الآخـــر الى خرقة بالية ... آه ... يا رب ! يارب ! ما هذه النازلة ! ... » .

وفيما كان السيد جوليادكين ممتلئاً بهذه الخواطر كان يضرب فى

الأرض على غير هـــدى ، لا يعرف الى أين تقـوده قدماه • ولم يثب الى رشده الا حين صار فى شارع نفسكى • وكان لابد أن يثوب الى رشده فى الواقع ، لانه اصطدم بأحد المارة اصطداما عنيفا ، فنمتم ببضع كلمـات اعتذار دون أن يرفع رأسه وكان الرجل الذى اصطدم به قد ابتعد بعد أن نطق ببعض الشتائم • رفع السيد جوليادكين رأسه ونظر فيما حوله • فلاحظ عندئذ أنه على مقربة من المطعم الذى استراح فيه قبيل ذهابه الى تلك السهرة فى منزل أولسوفى ايفانوفتش • فسرعان ما أحس بقرصات فى معدته ، فتذكر أنه لم يتناول غداءه بعد ؛ واذ كان من جهة أخرى غير مدعوا الى الغداء عند أحد فقد أسرع يصعد درجات سلم المطعم وقد قرر أن يأكل لقمة على عجل •

الأسعار غالية قليلا ، ولكن غبنا يسيرا كهذا ليس من شأنه أن يوقف السيد جوليادكين ، فلا قيمة لمثل هذه السفاسف عنده فى لحظات كهـذه اللحظات • فى قاعة تتلألأ فيها الأنوار كان حشد كبير من الزبائن يزدحم حول البسطة التى مدت عليها ألوان من المقبـلات ترضى أشد الأذواق رهافة • وكان القيم على البسطة غارقا فى العمـل لا يكاد يستطيع خدمة الزبائن جميعا ، فهو يسكب الشراب ، ويقدم الأطباق ، ويتقاضى الأثمان، ويرد البواقى • اتخذ السيد جوليادكين مكانه فى الصف ، حتى اذا جاء دوره مد يده الى فطيرة صغيرة فتناولها ، ثم مضى الى أحد الأركان يأكلها بشهية كبيرة مديرا للحضور ظهره • فلما فرغ من التهامها عاد الى البسطة فردَّ الطبق • واذ كان يعرف الأسعار فقد أخرج قطعة من النقد بعشرة كوبكات ووضعها على البسطة وهو يبحث بنظره عن البائع ليدله على أن هذه الكوبكات العشرة هى ثمن فطيرة صغيرة أكلها •

فهمهم البائع يقول بين أسنانه :

ـ عليك روبل وعشرة كوبكات •

فدهش السيد جوليادكين دهشة شديدة .

ـ أتخاطبني أنا ؟ يخيل الى أنني لم آخذ الا فطيرة واحدة .

فقال البائع مؤكدا :

ـ بل أخذت احدى عشرة فطيرة .

ـ ماذا تقول ؟ ... يخيل الى أنك على خطأ ... فانني واثق تقريبا من أنني لم آخذ الا فطيرة واحدة .

ـ عددت الفطائر التي أخذتها . لقد أخذت احدى عشرة فطيرة . على الانسان حين يتناول طعامه بنفسه أن يعرف كيف يدفع ثمن ما أخذ . نحن لا نقدم هنا هدايا ! ...

صعق السيد جوليادكين .

وسأل نفسه : « أتراني سحرت ؟ »

وكان البائع في أثناء ذلك ينتظر قرار بطلنا . وكان الناس قد أخذوا يتحلقون حوله . فدس يده في جيبه وأخرج منها قطعة فضية بروبل واحد ، مقررا أن يدفع على الفور ، حتى لا يتعرض لارتكاب خطيئة ...

قال لنفسه وقد احمر وجهه حتى صار بلون الجنبري : « طيب .. فلأدفع ثمن احدى عشرة فطيرة ما دام يصر على ذلك ... لا غرابة في أن يأكل امرؤ احدى عشرة فطيرة ... هنيئاً مريئاً ... ومهما يكن من أمر فليس في هذا ما يثير الدهشة أو يبعث على الضحك ... »

وفجأة ساور السيد جوليادكين حدس سريع . فما ان رفع عندئذ بصره حتى فهم كل شيء ، وأدرك سر السحر ... تبددت الشبهات كلها دفعة واحدة ... فعلى عتبة الباب المؤدي الى الغرفة المجاورة ، وراء ظهر

البائع ، أى أمام بطلنا تماما ، عند فرجة الباب الذى كان السيد جوليادكين يظنه حتى ذلك الحين مرآة ••• هنالك كان يقف رجل قصير لا شك فى أنه السيد جوليادكين نفسه ••• لا جولياديكن الأصلى ، لا جولياديكن القديم ، بطل هذه القصة ، بل جولياديكن الآخر ، جولياديكن الجديد • وكان واضحا أنه مبتهج جدا • انه يبتسم ابتسامة وقحة ، ويتجه الى بطلنا باشارات من رأسه وغمزات من عينيه • وهو يتحرك فى مكانه متهيئا للهروب الى الغرفة المجاورة عند أول بادرة ، وللانسلال من هنالك الى الخارج عن طريق سلم الخدمة ، فتستحيل عندئذ مطاردته •• وكان يمسك بيده آخر قطعة من الفطيرة العاشرة ، وها هو ذا يلتهمها على مرأى من بطلنا مطقطقا بلسانه تعبيرا عن الغبطة والحبور ••

قال السيد جولياديكن لنفسه وقد احمر وجهه احمرارا شديدا ، واحترقت نفسه شعورا بالخجل والعار : « استغل الحقير التشابه بيننا ولم يستح أن يفعل هذا أمام الناس ••• أتراهم أدركوا ذلك ؟ أتراهم يبصرونه ؟ يظهر أن أحدا لم يشعر بهذا الانتحال ••• » • قذف السيد جولياديكن قطعة النقد الفضية على البسطة كما لو كانت تحرق أصابعه ، ثم انسل من خلال الحشد وخرج ، حتى دون أن يلاحظ الابتسامة الوقحة التى ظهرت فى وجه البائع ، وهى ابتسامة تعبر عن ظفره وتشهد بسيطرته الهادئة على نفسه •

قال جولياديكن لنفسه : « هو سعيد لأنه لم يذهب بكرامتى تماما • نعم ، يجب أن أشكر لهذا اللص وان أشكر للقدر أن الأمور قد سويت أخيرا • صحيح أن هذا البائع كان فظاً • ولكن يجب الاعتراف بأنه كان على حق • ان له روبلا وعشرة كوبات حقا • هذا طبيعى ••• ما من أحد يعطى شيئاً بالمجان فى بلادنا • ومع ذلك كان فى وسعه أن يكون أكثر دماثة ، هذا المتحذلق ! ••• » •

بهذا كان السيد جوليادكين يحدث نفسه وهو يهبط السلم . حتى اذا بلغ الدرجة الأخيرة من درجات المدخل توقف على حين فجأة متجمدا. صعد الدم الى وجهه ، وظهرت فى عينيه الدموع . كان فى ذروة الألم والشعور بالذل . وظل جامدا على هذه الحال قرابة نصف دقيقة ، ثم قرع الأرض بقدمه قرعة قوية ، وقفـز الى الرصيف بوثبة واحـــدة ، وأخذ يركض كمجنون لا يلتفت الى وراء ولا يلوى على شيء . ركض نحو بيته فى شارع « الدكاكين الست » لاهثا دون أن يشـعر بالتعب ، فما ان وصل حتى جلس على الديوان وتناول محبرة وريشة وأخرج ورقة وأخذ يكتب بيد ترتعش انفعالا (فعل ذلك قبل أن يخلع معطفه ، خلافا لعاداته اللطيفة ، وقبل أن يحشو غليونه) . واليكم الرسالة التى حررها .

السيد المحترم ياكوف بتروفتش ،

« ما كان لى أن أتناول القلم لولا أن الظروف الراهنة بالاضافة الى سلوكك يا سيدى تجبرنى على ذلك اجبارا . فصدقنى اذا قلت لك ان الضرورة وحدها هى التى تلزمنى بأن أدخـل معـك فى شروح كهذه ؟ لذلك أرجوك أولا أن لا تعد عملى هذا جوابا على ما بدر منك من اهانات، جوابا فكرت فيه مليـا ثم عزمت عليه أخـيرا ، بل نتيجـة لا معدى عنها للظروف التى تحيط بمصيرنا المشترك » .

قال السيد جوليادكين لنفسه وهو يعيد قراءة ما كتب : « يبـدو لى أن هذا جيد جـدا . فهو محتشم ومهـذب ، ولا يخلو مع ذلك من قوة وصلابة ... لا شيء فيه يؤذى الشعور أو يهين الكرامة فيما يخيل الى . ثم ان هذا من حقى ..»

واستأنف يتم كتابة رسالته :

« ان ظهورك المفاجىء الغريب فى تلك الليلة العاصفة التى كنت أنا فيها ضحية هجوم وحشى وعدوان آثم من أعدائى الذين أترفع عن ذكر أسمائهم الآن احتقارا لهم ، كان نواة جميع أنواع سوء التفاهم القائمة بيننا الآن ...

« ثم ان اصرارك يا سيدى على أن تركب رأسك وعلى أن تتدخل عنوة فى حياتى ، العامة والخاصة ، أمر يتجاوز الحدود التى تفرضها أبسط مبادىء الأدب وأدق قواعد التعامل بين الناس فى هذه الحياة . من نافل القول أن أذكرك بما فعلت يا سيدى حين اغتصبت أوراقى وحين غششت وخادعت على حساب سمعتى ، بهدف الحصول على رضى رؤسائنا وهو شيء لا تستحقه البتة . ومن نافل القول أيضا أن أفيض فى الكلام على أسلوبك المهين المقصود الذى عمدت اليه للتهرب من مفاتحتك فى الأمر مفاتحة كان لا بد منها .

« ولا أريد أخيرا أن أشير الى تصرفك الغريب فى المطعم ـ أقول الغريب حتى لا أقول الشاذ ـ ولست أحب طبعا أن أندب روبلا لا قيمة له عندى ، ولكنى لا أستطيع أن أكظم استيائى حين أتذكر تلك الطعنة التى وجهتها الى شرفى يا سيدى ، وذلك بحضور أشخاص لا شك فى أنهم أناس ينتمون الى بيئة راقية رغم أننى لم أشرف بمعرفتهم ... » .

قال جوليادكين يخاطب نفسه : « أترانى لم أسرف ؟ أترانى لم أبالغ ؟ هذه الاشارة الى البيئة الراقية ، أليس لها وقع مهين ؟ ... ولكن لا بأس ... فلا بد من اظهار شيء من الحزم والصلابة . ومع ذلك أستطيع لتخفيف وقع ذلك فى نفسه أن أدس فى آخر الرسالة ملاطفة من الملاطفات تتملقه وترضيه . فلنر ماذا نستطيع أن نفعل من أجل هذا.».

« ما كنت لأسمح لنفسى أن أزعجك برسالتى هذه يا سيدى لولا

اقتناعي العميق بأن نبل عواطفك واستقامة خلقك سيمليان عليك الاجراءات التي ينبغي لك اتخاذها اصلاحا لما أفسدت حتى تعود الأمور الى ما كانت عليه في الماضي •

« واني ، والأمل يملؤني ، لأسمح لنفسي أن أعتقد أنك لن ترى في رسالتي هذه ما يؤذي شعورك أو يخدش كرامتك ، وأنك لن تضن عليّ برسالة تبعث اليّ بها مع خادمي شارحا الأمر •

« وبانتظار جـوابك يشرفني يا سـيدي أن أكون خادمك المخلص جدا :

ي جوليادكين

ما ان فرغ جوليادكين من كتابة رسالته حتى قال لنفسه : « عظيم !• سويت المسألة ••• وصلنا في الأمر الى مرحلة المراسلة • ذنب من هذا ؟ هو ذنبه طبعا ! انه هو الذي ألجأني الى ضرورة مفاتحته كتابة • أنا على حق ••• »

وأعاد السيد جوليادكين قراءة رسالته مرة أخيرة، ثم طواها ووضعها في ظرف ، ونادى بتروشكا • دخل الخادم متورم العينين من النعاس على عادته • وكان يبدو عليه أنه منزعج انزعاجا شديدا •

قال له مولاه :

ـ سوف تحمل هذه الرسالة يا صديقي ••• هل تفهم ؟

ولكن بتروشكا ظل أبكم لا ينطق •

ـ سوف تأخذ هذه الرسالة فتحملها الى القسم الذي أعمل فيه من المكتب ؛ وهناك سوف تسأل عن الحاجب المناوب ، وهو اليوم فاخرامايف ••• هل تفهم ؟

ـ أفهم .

ـ أفهم ... ألا تستطيع أن تقول : نعم أفهم ياسيدى ؟ طيب ... ستسأل اذن عن المستخدم فاخرا مايف ، فتقول له ، اسمع : ان مولاى يبعث اليك بتحياته ويرجوك ضارعا أن تبحث فى دفتر العناوين الموجود فى دائرتنا عن المكان الذى يسكن فيه الموظف جوليادكين .

ظل بتروشكا أخرس لا ينبس بحرف. وخيل الى السيد جولیادكين أنه رأى ابتسامة تلم بشفتيه .

ـ طيب . اذن ستسأله عن عنوان ذلك الموظف الجديد الذى يسمى جولیادكين .

ـ حاضر .

ـ ستسأله عن هذا العنوان، فمتى حصلت عليه مضيت تحمل الرسالة الى ذلك العنوان الذى سيذكره لك . هل تفهم ؟

ـ أفهم .

ـ فاذا وصلت الى المكان .. أقصد المكان الذى حملت اليه الرسالة، فرأيت أن السيد الذى عليك أن تسلمه الرسالة ... أعنى جوليادكين هذا ... مالك تضحك يا أبله ؟

ـ لست أضحك . ليس هناك ما يدعو الى الضحك . ذلك أمر لا يعنينى . لا شأن لى أنا . لا شىء فى نظرى بمضحك .

ـ طيب ... فى هذه الحالة ، اذا رأيت أن ذلك السيد قد أخذ يسألك عن مولاك كيف حاله ، أقصد كيف صحته ... أعنى اذا ألقى عليك أسئلة من هذا النوع ... فلا تجبه بشىء ، وحسبك أن تقول له : « مولاى بخير ... وهو يرجوك أن تبعث اليه بجواب مكتوب . » . هل فهمت ؟

ـ فهمت •

ـ الأمر واضح اذن • تقول له : « مولاي بخير ••• صحته جيدة ••• وهو يتهيأ لزيارة بعض الأصدقاء ، وينتظر منك جوابا مكتوبا • • »

••• وهو يتهيأ لزيارة بعض الاصدقاء ، وينتظر منك جوابا مكتـــوبا • • » فهمت ؟

ـ اذن فاذهب • آه من هــذا الأبله كم يتعبني ! انه يقضي وقتـه مستهزئا ••• مم يضحك ؟ ألا انني في مأزق رهيب ! أنا حقا في مأزق رهيب ! على كل حال ، قد تكون الخاتمة حسنة ••• ان هذا الوغد سينفق ساعتين كاملتين متسكعا في الطريق ••• لا شك أنه سيتوقف في مكان ما ••• يستحيل على المرء أن يعهد اليه بمهمة • آه ••• ما هذه المصـيبة ، ما هذه المصيبة التي تسقط على رأسي ! •••

كان بطلنا شاعرا بجميع المصائب التي نزلت عليه ، فقرر أن يهدىء روعه قليلا ، خلال ساعتين على الأقل ، بانتظار عودة بتروشكا • وظـل يضطرب في الغرفة ساعة برمتها : دخن غليونا ثم تركه ، وحاول أن يقرأ ، واضطجع أخـيرا على الأريكة وتناول غليـــونه مرة أُخرى ، ثم استأنف طوافه المسعور في الغرفة • ودّ لو يتأمل ، لو يفكر ، ولكنه كان عاجزا عجزا مطلقا عن تركيز ذهنـه • كان وضع الانتظار هـــذا أشبه باحتضار • فقرر أن يغير خطته • قال لنفسه : « ان بتروشكا لن يعـود قبل انقضاء ساعة • فأستطيع أن أضع المفتاح عنـــد بواب العمارة ، وأن أستفيد من هذا الوقت في القيام بتحريات ••• في القيام بتحريات أتولاها بنفسي • • » • ثم لم يلبث ، لرغبته في القيام بهذه التحـــريات على وجه السرعة دون أن يضيع لحظة من وقت ، لم يلبث أن تناول قبعته وخـرج الى فسحة السلم فأغلق الباب بالمفتاح دورتين ، ومضى الى البواب فأودعه

المفتاح وأعطاه مع المفتاح « بقشيشا » عشر كوبكات • يجب أن نذكر في هذه المناسبة أن السيد جوليادكين قد أصبح في هذه الآونة الأخيرة كريما كرما لم يعهد مثله فيه • وخرج السيد جوليادكين الى الشارع وانطلق الى الهدف الذي رسمه لنفسه • سار أولا نحو جسر اسماعيلوفسكي فلما بلغه بعد نصف ساعة ، دخل بغير تردد الى فناء العمارة التي كان يعرفها حق المعرفة ، ورفع عينيه نحو نوافذ مسكن مستشار الدولة بيرنديف •••

كانت جميع النوافذ مظلمة الا ثلاثا تحجبها ستائر حمر • فقال بطلنا لنفسه : « ليس لدى أولسوفي ايفانوفتش مدعوون في هذا المساء ، والأسرة كلها باقية في المنزل • » •

لبث السيد جوليادكين لحظة طويلة في فناء العمارة مترددا لا يدري ماذا يفعل • وأوشك أن يتخذ قرارا لكنه غير رأيه في آخر لحظة ، فحرك يده باشارة تدل على التململ ، وغادر المكان • قال لنفسه وهو في الفناء : « لا ••• ما الى هنا يجب أن أجيء ! ما عساني فاعلا هنا ؟ ••• الأفضل أن أمضي أقوم بتحرياتي بنفسي ••• » • فلما اتخذ هذا القرار اتجه نحو مكتبه • كان عليه أن يسير مسافة طويلة شاقة في الوحل • وكان الثلج المبلل يتساقط أسناخاً كبيرة • ولكن بطلنا كان في ذلك اللحظة لا يبالي العقبات • لقد تبلل حتى العظام ، وتلوث بالطين ، ولكنه لم يكن يعبأ بذلك كله • « المهم أن أبلغ الهدف المرسوم » ، كذلك كان يردد لنفسه • وكان السيد جوليادكين يقترب من غايته فعلا • فها هو ذا يبصر من بعيد أمامه تلك الكتلة القاتمة ، ذلك المبنى الضخم الذي تشغله الادارة العامة • قال لنفسه : « قف •• الى أين أنا ذاهب ؟ ما عساني فاعلا هنا ؟ ••• هبني عرفت العنوان ! ••• ان بتروشكا سكون أثناء هذا الوقت قد عاد الى

البيت حاملا جوابه ... فأنا اذن أضيع وقتا ثمينا ... لقد بددت وقتي سدى ! على كل حال ، لا ضير ... ما زلت أستطيع أن أتدارك كل شيء ... ولكن ألا يكون من المفيد حقا أن أذهب الى فاخرامايف ؟ ... لا ... لا داعي الى ذلك .. سأذهب اليه في آن آخر .. اه .. لم يكن بي أية حاجة الى الخروج من البيت .. هـذه خصلة في طبعي .. دائما متعجل ، سواء أكان هناك ضرورة أم لم يكن هناك ضرورة .. دائما متعجل الى استباق الأحداث ... هممم .. كم الساعة الآن ؟ انها تقارب التاسعة ولا شك .. فماذا اذا عاد بتروشكا فلم يجد أحدا ؟ حقا لقـد ارتكبت بالخروج حماقة ... آه ... ما كان أغناني عن هذه المغامرة ! »

بعد هذا الاعتراف الصادق بأن سلوكه كان حمـاقة ، أخذ بطلنا يركض نحو مسكنه فوصل اليه لاهثا يكاد يختنق ، فأعلمه الخفير أنه لم ير حتى الآن أثرا لبتروشكا .

قال بطلنا لنفسه : « تماما ... هذا ما توقعته ... ومع ذلك فالساعة الآن هي التاسعة ! .. يا للوغد الدنيء ! .. انه لا ينفك يسكر ! رباه رباه ! ما هذه الأقدار! يا لهذا اليوم من يوم ! .. » .

وصعد السيد جوليادكين السلم ممتلىء الرأس بهذه الخواطر وهذه الشكاوى ، ففتح باب بيته ، وأشعل شمعة ، وخلع ملابسه ، ثم اضطجع على الديوان جائعا مرهقا مكدودا محطم الأعضاء ، ينتظر عودة بتروشكا . الشمعة تسكب ضياءها الشاحب على الجدران ... لبث السيد جوليادكين زمنا طويلا يفكر وينظر حواليه ، الى أن نام آخر الأمر نوما كالرصاص ثقلاً .

ثم لم يصح من نومه الا في ساعة متأخرة . كانت الشمعة قد ذابت تقريبا فهي الآن تدخن وتوشـك أن تنطفىء . نهض السـيد جوليادكين

بوثبة ، وشخف وانتفض ، فسرعان ما تذكر كل شيء ، نعم كل شيء •
انه يسمع شخير بتروشكا قويا من وراء الحاجز • وهرع نحو النافذة •
ما من ضياء في الأفق • وفتح كوة من الـكوى • ان كل شيء صامت •
المدينة نائمة ، كأنها ميتة • لا شك أن الساعة هي الثانية ، وربما الثالثة
••• وانطلقت ساعة الحائط تدق دقتين • أسرع السـيد جوليـادكين الى
حجرة خادمه •

فاستطاع بعد جهود كثيرة أن يوقظه ويوقفـه • وكانت الشمعة قد
انطفأت أثناء ذلك • فأنفق السيد جوليادكين ما يزيد على عشر دقائق في
البحث عن شمعة أخرى وفي اشعالها • فلما عاد الى بتروشكا وجده قد
نام من جديد •

« وغد دنيء ، خليع حقير •• هلا صحوت ؟ هلا قمت ؟ » كذلك
أخذ يردد السيد جوليادكين وهو يحاول أن يوقظ بتروشكا • واستطاع
بعد نصف ساعة من جهود متصلة أن يوقظه آخر الأمر • فنقله الى غرفته،
فلاحظ عندئذ أنه منطفيء سكرا ، لا يكاد يستطيع الانتصاب على ساقيه :

ـ يا كسلان ، يا وغد ، يا لص ! هل تعرف أنك تطعن قلبي ، هل
تعرف انك تقتلني قتلا ؟ آه يا رب ! ترى ماذا صنع برسالتي يارب ! ماذا
صنع بها ؟ ولماذا كتبت أنا هذه الرسالة ؟ ماذا كانت حاجتي الى كتابتها ؟
اندفعت مرة أخرى في حماسة لا داعي اليها ! غروري هو الذي حضني!
غروري هـــو الذي ورطني ••• ماذا صـــنعت برسالتي يا لص ؟ لمن
أعطيتها ؟

ـ ما أعطيتها لأحد ••• ثم لم يكن معي رسالة •••

عض السيد جوليادكين يديه من شدة حنقه ؟ ثم قال لخادمه :
••• استمع الى يا بطرس ! أنت سكران ؟

ـ سأسمع •

ـ الى أين ذهبت ؟ أجبنى !

ـ الى أين ذهبت ؟ ••• ذهبتَ الى عند أناس طيبين ••• ليس هذا عيبا •••

ـ رباه رباه ! ولكن قل لى الى أين ذهبت أولا؟ هل مررت بالادارة؟ •••• إستمع الى يا بطرس ! أنت سكران ؟

ـ أنا ، سكران ؟ أبـ •• أبـ •• أبدا ••• فلأمت اذا كنت أكذب !

ـ لا •• لا •• لا مانع أن تكون سكران •• أنا ألقيت عليك هذا السؤال عرضا ، بل حسن أن تكون سكران •• ليس عيبا أن تكون سكران يا بتروشكا •• ليس عيبا أبدا • لا شك أنك نسيت الآن مؤقتا •• ولكنك ستتذكر •• قل لى : هل تتذكر أنك ذهبت الى الموظف فاخرامايف ؟ هل ذهبت اليه ؟ نعم أم لا ؟

ـ لا •• لم أذهب اليه ••• لم أضع قدمى عنده ••• وهذا الموظف لا وجود له •• أنا مستعد لأن ••

ـ لا يا بطرس ، أقول لك : لا •• اسمع يا بطرس •• أنا لست غاضبا منك •• أنت ترى أننى لست غاضبا •• ما الذى حدث ؟ لا شك أن الجو بارد ورطب فى الخارج ، لذلك شربت قليلا ••• لا مانع ••• أنا لست غاضبا • أنا أيضا شربت قليلا يا أخى •• هيا ••• ابذل بعض الجهد ••• حاول أن تتذكر ، قل لى كل شىء يا أخى •• هل ذهبت الى الموظف فاخرامايف ؟

ـ طيب ••• ما دام الأمر كذلك ••• فأنا أحلف لك بشرفى أننى ذهبت اليه •• وأنا مستعد لأن ••

ـ طيب .. طيب جدا يا بتروشكا ... حسن جدا أنك ذهبت اليه .. أنا لست غاضبا .. أنت ترى أنني لست غاضبا .. هيا .. هيا (كذلك تابع بطلنا يخاطب خادمه ، مظهرا ثقته به ، مبتسما له ، رابتا على كتفه) هيا قل لى ، اعترف لى .. لقد شربت قليلا يا عفريت ... قليلا فقط .. شربت بعشرة كوبكات لا أكثر.. آه منك ياشيطان . طيب .. لا بأس. أنت ترى أننى لست غاضبا . لست بزعلان يا أخى ، لست بزعلان أبدا ...

ـ لا .. أنا لست شيطانا .. أؤكد لك .. وأنا ذهبت الى أناس طيبين .. أنا لست شيطانا .. ولم أكن شيطانا فى يوم من الايام ..

ـ ولكن لا .. يا بتروشكا .. اسمعنى يا بطرس .. أنا لم أقصد سوءا . واضح أننى لم أقصد سوءا . ليس شتيمة أن يوصف امرؤ بأنه سيطان . أقول لك هذا لأطمئنك . أنت تعلم يا بتروشكا أنهيقال لأحد الناس فى بعض الأحيان انه شـــيطان أو لئيم أو خبيث من قبيل المـدح لا الذم .. معنى هذه الصفات عندئذ هو أنه حاذق ، هو أنه لا يســتطيع أحد أن يخدعه . بعض الناس يحبون هذا النوع من التعابير . هيا هيا ليس هذا بشيء . هيا قل لى الآن يا بتروشكا ، قل لى باخلاص وصدق ، دون أن تخفى شيئا ، هل ذهبت الى الموظف فاخرامايف ، وهـل أعطاك العنوان المطلوب ؟

ـ نعم أعطانى العنوان . انه رجل طيب . ثم لقد قال لى : «مولاك رجل شريف ، رجل شهم جدا . أبلغه تحياتى .. أبلغ مولاك تحياتى وقل له اننى أحبه وأحترمه . هو رجل شهم يا بتروشكا ، وأنت كذلك يا بتروشكا ، أنت فتى شهم حقا » . هذا ما قاله لى ..

صاح السيد جوليادكين بصوت مختنق :

ـ آه يا رب يا رب ! والعنوان •• العنوان يا يهوذا ؟

ـ العنوان ؟ أعطانى العنوان ••

ـ أعطاك العنوان ؟ طيب •• فأين يسكن اذن جوليادكين هذا ••• أين يسكن هذا الموظف جوليادكين ؟

ـ قال لى : «جوليادكين يسكن فى شارع « الدكاكين الستة » ، على اليمين فى هذا الشارع ، بالطابق الثالث • هناك يسكن جوليادكين ••• »•

أعول جوليادكين صائحا وقد خرج عن طوره من فرط الحنق :

ـ يا لص ، يا مجرم •• عنى انما تتكلم أنت ، عنى أنا • أما أنا فأكلمك عن شخص آخر ، عن جوليادكين آخر يا لص !

ـ كما تحب • أنا لا فرق عندى • لك ما تشاء •

ـ والرسالة ؟ ماذا فعلت بالرسالة يا قليل الحياء ؟

ـ الرسالة أعطيتها ، أعطيتها ••• وقال لى : « بلغ مولاك تحياتى • ان مولاك رجل شهم •• أبلغه سلامى ••• » •

ـ من قال لك هذا ؟ أهو جوليادكين ؟

صمت بتروشكا لحظة ، ثم ابتسم كاشفا عن جميع أسنانه ، وتفرس فى مولاه محدقا •

قال جوليادكين وهو يختنق حنقا :

ـ اسمع يا لص •• أجبنى •• ماذا فعلت ؟ ما صنعت بى ؟ لقد قتلتنى يا شقى ، قتلتنى •• دققت عنقى •• ذبحتنى يا يهوذا !

قال بتروشكا بلهجة حازمة وهو يتراجع خلف الحاجز :

ـ كما يحلو لك •• أنا لا فرق عندى •

ـ تعال هنا •• ارجع الى هنا يا لص •

ـ لا لن أرجع ، لا داعى الى الرجوع • أفضل أن أذهب الى عند ناس طيبين •• ناس طيبين يعيشون عيشة شريفة •• ناس طيبين لا يغشون ولا يزيفون •• لا يزدوجون •• لا يصبح أحدهم اثنين •• لا يصبح مثلين ••

هنا أحس السد جولیادكين بأن يديه وقدميه تجمدت كالجليد •

أصبح لا يستطيع أن يتنفس • وتابع بتروشكا يقول :

ـ تماما •• لا يزدوجون •• لا يصبح أحدهم اثنين •• لا يصبح أحدهم مثلين • لا يسيئون الى الله ولا الى البشر الشرفاء •

ـ أنت سكران يا حقير •• نم الآن يا لص • وغدا أؤدبك •

كذلك دمدم جولیادكين بصوت لا يكاد يسمع • أما بتروشكا فكان يجمجم بأقوال لا تفهم •

سمعه بطلنا يضطجع على سريره • لقد صرت نوابض السرير • تثاءب بتروشكا تثاؤبا طويلا ذا صوت ، وتمطى ، وغط أخيرا فى نوم عميق شاخرا •

ان السيد جولیادكين أقرب الى الموت منه الى الحياة • ان سلوك خادمه وتلميحاته الغريبة ـ وهى فى الحق أغمض وأبعد من أن تسبب هذا الغضب كله لدى السيد جولیادكين، لاسيما وأنها صادرة عن سكران ـ قد قلبت نفسه رأسا على عقب • لا شك أن الأمر أخذ يجرى مجرى سيئا •

دمدم السيد جولیادكين يقول لنفسه بينما كان جسمه كله يرتعد بتأثير احساس غريب مزعج : « ماذا دهانى حتى أيقظته هكذا فى قلب الليل ؟ ماذا دهانى حتى مضيت أتشاجر مع رجل سكران ؟ ماعسى ينتظر

من رجل سكران ؟ انه يكذب فى كل لحظة • ولكن الى ماذا كان يلمح هذا اللص ؟

« آه ••• يا رب ! ولكن قل لى يا جوليادكين ! لماذا كتبت هـذه الرسالة ؟ انك أنت قاتل نفسك • ألم يكن في وسعك أن تصمت ؟ هل كان حتما عليك أن تخطىء ؟ أما من وسيلة لديك للاستغناء عن ارتكاب الخطأ تلو الخطأ ؟ انك على مسافة اصبعين من ضياعك ؛ أوشكت أن تصير الى خرقة بالية ، وهأنت ذا لا تزال تنهض محاولا أن تؤكد غرورك • لقد أســـاءوا الى شرفك ، فما بالك لا تحـاول أن تنقذ شرفك يا قاتل نفسه ؟ ••• » •

بهذا كان السيد جوليادكين يخاطب نفسه جالسا على أريكته لايجرؤ من رعب أن يتحرك • وفجأة جذب عينيه شيء سرعان ما رأى أنه جدير بأكبر انتباه وأعظم اهتمام ؛ فاضطرب اضطرابا شديدا ومدّ يده الى هذا الشيء وهو يمتلىء أملا وخوفا وحيرة • ترى ألم يكن هذا سرابا ؟ ألم يكن مجرد وهم من أوهام الحواس ؟ ألم يكن ثمرة كاذبة من ثمـرات الخيال ؟ ••• لا لم يكن هذا سرابا • لم يكن هذا وهما • هى رسـالة ، رسالة حقا ، رسالة مرسلة اليه شخصيا • تناول السيد جوليادكين الرسالة، خافق القلب حتى ليكاد قلبه ينخلع •

قال لنفسه : « لاشك أن هذا اللص هو الذى أتى بها • لا شـك أنه وضعها على الطاولة ثم نسيها • نعم لا شك أن هـــذا هو ما حدث ، لا شك أن هذا بعينه هو ما حدث ••• » •

كانت الرسالة من الموظف فاخرامايف ، وهو زميل شاب كان فى الماضى صديقا لبطلنا •

« لقد تنبأت بهذا كله ، كما أتنبأ الآن بما تضمه هذه الرسالة » .
قال جوليادكين هذا لنفسه وأخذ يقرأ :

عزيزي السيد ياكوف بتروفتش ،

ان خادمك سكران ، ولا يمكن أن يتفاهم المرء مع سكران . لذلك أوثر أن أرد عليك كتابة . وأسارع فأؤكد لك أن المهمة التي كلفتني بها ، أعني ايصال الرسالة الى الشخص المرسلة اليه بواسطتي ، ستنفذ بأمانة في الموعد المطلوب . وهذا الشخص الذي تعرفه أنت حق المعرفة هو الآن أحد أصدقائي . لن أسميه لأنني لاأحب أن أسيء الى انسان بريء كل البراءة . ان هذا الشخص هو الآن واحد من رفاقنا في بنسيون كارولين ايفانوفا ، يسكن في الغرفة التي كان ينزلها ، أيام كنت واحـــدا منا ، ضابط المدفعية ذاك الآتي من تامبوف . وأذكر لك عرضا أنك تستطيع أن تلقى هذا الشخص حيثما يوجد أناس شرفاء مخلصون ، وتلك من الخصال التي لا يوصف بها جميع البشر . ثم انني قد عقدت النية جازما على أن أقطع كل صلة بك منذ هذا اليوم . فانه ليستحيل بعد الآن أن نحتفظ بما كان بيننا في الماضي من لهجة الود وعلاقات الصداقة .

« لذلك أرجوك ، ياسيدي ، أن تبعث الي فور استلام هذه الرسالة بما لي عليك من دين ، وهو مبلغ روبلين هما ثمن موسى الحلاقة المستوردة من الخارج التي بعتك اياها دينا منذ سبعة أشهر . آمل أن تتذكر هـذا من عهد سكنانا معا عند كارولين ايفانوفنا التي أحترمها من كل قلبي . والسبب الذي يدعوني الى سلوك هذا المسلك معك هو أنك في رأي جميع الناس العقلاء قد فقـدت كل معنى من معـــاني الشرف والكرامة ، وأن صحبتك أصبحت خطرا على أخـلاق الناس الأســوياء الأبرياء . ان في الحياة أشخاصا يعيشون بعيدين عن مبادىء الحق والخير ، فكل كلمة من

كلماتهم كذب وكل موقف من مواقفهم نفاق مشبـــوه • أما الدفاع عن شرف كارولين ايفانوفنا الفاضلة التي لا غبار على سلوكها ، والتي هي فتاة بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، رغم أنها تقدمت في السن ، والتي هي سليلة أسرة أجنبية محترمة ، فسيبقى هنا لك أناس يتولونه في كل زمان ومكان ؛ وقد رجاني بعض أصدقائي أن أذكر لك ذلك في رسالتي ، وأنا أتحمل تبعة ما يقولون •

« ومهما يكن من أمر فستعلم بهـذا الأمر في حينه اذا كنت لم تعلمه بعد • وقد بلغني من ذلك المصدر نفسه على كل حال أن المجد يكللك في هذه الآونة الأخيرة في مختلف أحياء العاصمة، لذلك افترض أنك أصبحت تعرف منذ الآن رأى الناس فيك • ولا يسعني في ختام رسالتي هـــذه ، يا سيدى ، الا أن أبلغك أن الشخص الذي تعرفه والذي أغفل ذكر اسمه في رسالتي عن عمد حياءً يحظى بتقدير عظيم من جميع كرام الناس ؛ فهو يجمع الى دماثة الخلق وبشاشة الطبع نشاطا كبيرا وهمة قعساء في العمل ، لذلك يقدره رؤساؤه وسائر خيار القوم الذين يعيش بينهم • انه مخلص لما يقول ، وفي للصداقة ، لا يسمح لنفسه يوما أن يغتاب أولئك الذين تربطه بهم صلات الصداقة على علم جميع الناس •

« وفي الختام ، أظل خادمك المخلص •

ن • فاخمارايف

حاشية : يجب عليك أن تصرف خادمك • انه سكير ، ولا شك أنه يسبب لك متاعب كثيرة • استخدم في مكانه أوستاس الذي كان يخدمنا في الماضي وهو الآن بغير عمل • ان خادمك ليس سكيرا فحسب ، بل هو لص أيضا • ففي الاسبوع الماضي باع كارولين ايفانوفنا رطلا من قطع

السكر بسعر بخس ، وهذا يحمل على الاعتقاد بأنه قد اختلس هذا السكر من بيتك قليلا قليلا كلما سنحت فرصة .

« أذكر لك هذا حرصا مني على مصلحتك . فلست كبعض الناس الذين لا يهمهم الا أن يهينوا وأن يخدعوا من يحيطون بهم ، ولاسيما الشرفاء الذين لا يسيئون الظن بل يسارعون الى التصديق وتنطلى عليهم الأكاذيب ؟ لست كبعض الناس الذين لا ينفكون يغتابون هؤلاء ويسيئون اليهم خفية ، بدافع واحد هو الغيرة منهم وشعورهم بالعجز عن أن يكونوا مثلهم .

ن.ف.

ظل بطلنا ساكنا على أريكته لحظة طويلة بعد قراءة رسالة فاخرامايف . ان ضياء جديدا ينفذ الآن الى الضباب الكثيف العجيب الذى يلفه منذ يومين . أخذ يرى رؤية واضحة ... أراد أن ينهض ، أن يسير بضع خطوات عسى أن ينعش فكره ويجمع خواطره ويركزها على نقطة وحيدة ، ويتخذ هكذا فى الهدوء قرارا .

ولكنه ما ان همّ أن يقوم حتى عاد يتهاوى على مكانه نفسه مهدود القوى عاجزا .

« لقد تنبأت بكل شيء .. هذا أكيد .. ولكن ماذا يريد أن يقول فى رسالته ؟ ما هو المعنى الحقيقى الذى يكمن فى هذه الرسالة ؟ الحق أننى أعرف هذا المعنى . ولكن الى أين يقودنا هذا ؟ لو قد قال لى بوضوح افعل كيت أو كيت .. لو قد أعلن لى بوضوح : يطلب منك هذا أو يطلب منك ذاك ، اذن لأطعت ... ألا ان المسألة أخذت تجرى مجرى مزعجا .

« آه ... ليتنى فى الغد ... وددت لو أصل الى حل العقدة بأقصى سرعة ممكنة . اننى أعرف الآن ماذا يجب علىّ أن أفعل . سأقول لهم ما يلى : اننى موافق على آرائكم ، ولكننى أرفض أن أضيع شرفى .. اما الآخر .. فسنرى .. ثم كيف أمكن لهذا الآخر ، لهذا الشخص المشكوك فيه ، أن يكون له فى هذه المسالة ضلع ؟ ما الذى أقحمه فى هذه القضية ؟ آه .. تعال أيها الغد ! انهم الان يغتابوننى ويتواطئون علىّ ويحاولون أن يدهورونى .. المهم ألا اضيع الوقت سدى .. يستحسن فيما اظن ان أكتب رسالة على الفور ، أن أظهر بعض التسامح ، أن أقدم بعض التنازل .. ثم أبعث بالرسالة فى أول ساعة من ساعات الصباح ، وأتخذ من جهتى ما يجب أن أتخذه من اجراءات . نعم ، ذلك ما ينبغى أن أفعله .. سأشن حملة مضادة وسيرون النتائج ، هؤلاء الطيور ... والا فلسوف يجروننى فى الوحل وينتهى أمرى .. » .

تناول السيد جوليادكين ورقا وقلما ، وحرر الرسالة التالية جوابا على رسالة السكرتير الحكومى فاخرامايف :

عزيزى السيد نستور اجنانيفتش !

« قرأت رسالتك بدهشة عميقة وحزن صادق . فقد أدركت أنك حين كنت تلمح الى أشخاص أشرار منافقين انما كنت تقصدنى أنا . اننى لأشعر بمرارة صادقة حين أرى أن النميمة سرعان ما مدت جذورها الطويلة الكثيرة فأفسدت هدوئى وأساءت الى شرفى وسمعتى . وانه ليحزننى ويحز فى نفسى أن أدرك أيضا أن الشرفاء من الناس ، أن أولئك الذين يملكون أنبل المشاعر وأسمى الأفكار ، ويتصفون باستقامة الخُلق والطبع ، يتخلون عن مؤازرة الشرف والفضيلة ويتزاحمون بكل قواهم وبكل ما أوتوا من مزايا حول الغدر المؤذى الذى ما ينفك ينتشر ويمتد

بمزيد من القوة في هذا الزمان القاسي الفاسد ، وا أسفاه ! أما عن دينك علىّ ، فانني أرى أن من واجبي المقدس أن أرد اليك هذين الروبلين •
وأما عن تلميحاتك ، يا سيدي العزيز ، عن تلميحاتك المتصلة بشخص من الجنس اللطيف ، وكذلك عن النيات والأهداف والمطالب التي تنسبها اليه ، فانني أعلن لك يا سيدي أنها ما تزال غامضة في ذهني لم أستطع الى فهمها سبيلا ، فاسمح لي ، يا سيدي العزيز، أن أربأ بسمعتي المحترمة وبعواطفي الرفيعة أن تلطخ • واني مع ذلك لمستعد أن تتكاشف في الأمر بالتخاطب كلاما متى شئت ؛ فذلك في نظري خير من تبادل الرسائل • واني لمستعد أيضا لقبول أية خطوة في سبيل المصالحة شريطة أن تتوافر النية الصادقة المخلصة من الطرفين •

« ومن أجل ذلك أرجوك ياسيدي أن تبلغ الشخص المذكور موافقتي على أن يقوم بيني وبينه حديث شخصي خاص ؛ وأنا أدع له أن يحدد لاجتماعنا الزمان والمكان اللذين يناسبانه •

« وقد قرأت بكثير من المرارة يا سيدي ما ألمعت اليه من أنه كانت لي معك مواقف تزعم أن فيها اهانة لك أو اساءة اليك • وكأنك تعتب علىّ أنني خنت صداقتنا القديمة وأنني اغتبتك وقلت فيك سوءا • انني أعتقد أن مرد هذه الاتهامات الى سوء تفاهم ، أو قل الى سعايات دنيئة والى الغيرة والكره لدى أولئك الذين يحق لي ، واعيا كل الوعي ، أن أعدهم من أعدائي الألداء العتاة • ولا شك عندي في أن هؤلاء يجهلون أن البراءة تحمل قوتها في ذاتها ، وأن الدناءة والوقاحة والاستهتار المثير لدى بعض الناس لا بد أن تلقى عقابها احتقارا عاما في يوم من الأيام ؛ وسيهلك هؤلاء الناس يومئذ جزاء ما جنت أيديهم من سيئات وما حملته قلوبهم من شر • لذلك أرجوك يا سيدي أن تبلغ هؤلاء الأشخاص أن أطماعهم

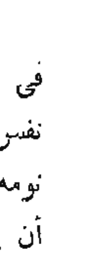
الغريبة ورغباتهم الدنيئة العجيبة فى أن يغتصبوا بالقوة المكان الذى يحتله غيرهم حقا من حقوقه ، لا يستحقون الا الاستغراب والاحتقار والاشفاق، ولا يستحقون خاصـــة الا أن يحجـزوا فى مستشـفى من مستشفيات المجانين .

« وأضيف الى هذا أن محاولات من هـــذا القبيل ممنوعة بحـكم القوانين ، وذلك فى رأيى أمر سليم له ما يسوغه ، لأن على كل انسـان ان يقنع بالمكان الذى خصص له . ان لكل شىء حدودا ، واذا كان الأمر فى الحالة الراهنة أمر مزاح ، فانتى أؤكد لك أنه مزاح كريه يدل على سوء ذوق صاحبه ، بل يدل على سوء خلقه . وفى وسعى أن أؤكد لك ، يا سيدى العزيز ، أن المعانى التى عبرت لك عنها منذ هنيهة بشأن المكان المخصص لكل انسان ، مشتقة من أنبل مبادىء الأخلاق .

« وفى الختام ، يشرفنى أن أبقى خادمك المطيع :

ى . جوليادكين

الفصل العاشر



في أن أحداث اليومين الاخيرين قد أحدثت في نفس السيد جوليادكين اضطرابا عميقا • كان نومه في تلك الليلة قلقا • والحق أنه لم يستطع أن يغمض جفنيه أكثر من خمس دقائق • لكأن مارحا خبيثا قد نثر على سريره شوكا • قضى ليلته بين اليقظان والوسنان ، يتقلب على سريره بغير انقطاع من جنب الى جنب ، ويئن ويدندن ، فما يكاد يغفو لحظة حتى يستيقظ • انه نهب غم شديد وخوف هائل ، ماتنفك تحاصره ذكريات غامضة ورؤى عجيبة •

انها ليلة « كوابيس » لا ينقصها شيء ••• فتارة يتراءى له وجه آندره فيليبوفتش في ظلام سرى ، متجهما قاسيا ، عنيف النظرة ، لايرحم ، وعلى شفتيه تقريع خشن بارد يهم أن ينطلق ••• فيريد السيد جوليادكين أن يقترب منه محاولا أن يبرىء نفسه بطريقة من الطرق ويحاول أن يبرهن له على أنه ليس كما يصوره أعداؤه ، وأنه انسان كسائر الناس ، بل وأنه يملك عدا ذلك مزايا كثيرة كبيرة فطر عليها ••• وفيما هو كذلك

اذا بوجه آخر يتراءى له على حين فجأة، وجه يعرفه بسهولة من فرجة فمه الوقحة ، واذا بهذا الوجه يدمر جميع محاولات بطلنا فى لحظه واحدة ، متوسلا الى ذلك بحيلة من الحيل الحقيرة الدنيئة ، فهو يأخذ يلطخ سمعة بطلنا على مرأى منه ومسمع ، وهو ياخد يسيء الى كرامته ، ويجره فى الوحل ، ويغتصب فى آخر الامر مكانه في الوظيفة وفي المجتمع ... وتارة يشعر بطلنا بأكال فى جمجمته ، نتيجة لطمة بالاصبع أصابه بها أحدهم ؛ والمشهد يجرى على مرأى من الناس ؛ وربما فى مكاتب الادارة نفسها ؛ وهو عاجز عن دفع الاهانة ... وفيما يحفــر بطلنا في دماغه محاولا أن يفهم سبب عجزه عن الاحتجاج على مثل هــذه الاهانة ؛ اذا بذكرى اللطمة تتخذ شكلا جديدا ، شيئاً بعد شيء .

فهو الآن ذكرى جبانة من الجبانات تحاصر ذهنه ، جبانة تافهة أو ذات بال ... وهو لا يعرف تماما هل الأمر أمر شيء شهده أو أمر شيء حدثوه عنه . ولكن لعل هذه الجبانة قد صدرت عنه هو ، ولعلها تصدر عنه كثيرا ، مرة تلو مرة ، لأغراض حقيرة وأهداف مخجلة ... أو لعلها تصدر عنه مصادفة بغير سبب ، عن حياء أو عن عجز ... فلماذا صــدرت عنه هذه الجبانة ، نعم لماذا ؟ ... الحق أن السيد جوليادكين كان يعرف حق المعرفة لماذا .

وهنا يحمر السيد جوليادكين وهو نائم ، ويحاول أن يسكت خجله، فيؤكد متمتما « أن عليه أن يظهر شيئا من قوة الارادة ، أن عليه أن يظهر كثيرا من قوة الارادة ... نعم .. عليــه ذلك .. ولكن ما معنى قوة الارادة الآن ؟ ...» . ولكن الشيء الذى يخنق السـيد جولیادکین خنقا شديدا الآن هو أن ذلك الشخص الكريه نفسه يعود الى الظهور فى تلك اللحظة نفسها . هل دعى الى ذلك ؟ هل جاء من تلقاء نفسه ؟ أليس الأمر

مدبرا ؟ المهم أنه يظهر مرة أخرى بفرجة فمه الكريهة ، ويأخذ يدمدم هو أيضا قائلا بابتسامة وقحة : « ما قوة الارادة هذه ؟ هل نملك شيئا من قوة الارادة أنا وأنت يا ياكوف بتروفتش ؟ ... » .

ورأى جوليادكين نفسه بعد ذلك فى صحبة أناس عرفوا بذكائهم ورقة شعورهم ورهافة ذوقهم . ورأى نفسه لامعا مرموقا بتهذيبه الراقى وبديهته الحاضرة . لقد ملك على الحفل قلوبهم . حتى لقد استطاع أن يفتن عقول عدد من أعدائه الذين كانوا حضورا فى الحفل ، فسره ذلك سرورا عظيما . كان سيد السهرة غير منازع ... وبلغ السيد جوليادكين ذروة المجد حين سمع رب البيت يمدحه لأحد المدعوين على انفراد ... فطار صوابه فرحا بذلك . ولكن سرعان ما ظهر ذلك الشخص الكريه القاسى مرة أخرى على حين فجأة . فما هى الا لحظة حتى كان السيد جوليادكين الأصغر يقلب الوضع رأسا على عقب . فذهب ما حصله بطلنا من انتصار ومجد أدراج الرياح . ان سميَّه يكسف نجمه ويمرغه فى الوحل . وأسوأ من ذلك أنه يجعله فى نظر الناس نسخة هو أصلها اللامع ، ويبرهن جازما على أن بطلنا ليس ذلك الرجل الذى قد توهم به المظاهر ، وأن من الواجب ابعاده اذن من كل مجتمع لامع راق . وقد جرى هذا المشهد بسرعة بلغت من الشدة أن بطلنا لم يتسع وقته لأن يفتح فمه بكلمة . كان شبيهه الدنىء قد استولى على عقول المدعوين استيلاء كاملا ، فاذا هم ينأون عن السيد جوليادكين المسكين باحتقار شديد . لم يستطع أحد منهم أن يقاوم سحر الغاصب . لقد استأثر بهم جميعا ، واحدا بعد آخر ، من ألمعهم الى أتفههم . كان هـذا الشخص المزيف الصلف يعرف كيف يتملق الناس للوصول الى مآربه . كان من النعومة والحذق فى التملق أن مخاطبه ما يلبث أن يرق قلبه وتهتز عاطفته فاذا هو يأخذ ينشج ساكبا دموع الانفعال دليلا على عمق رضاه وقوة انشراحه . وذلك

كله يتم فى لحظة كومض البرق • ان ما يتصف به تاثير هـــذا الشخص الخبيث الماكر من سرعة لأمر يذهل العقل • فما ان يفرغ من الالتفـاف على أحد الناس وأسره بالزلفى حتى تراه ينتقل الى اخر ، فما هى الا بضع كلمات من تملق تكافئها ابتسامة ودود ، اذا هو يثب بساقيه القصيرتين الصلبتين نحو ثالث ، وهكذا دواليك : مزيد من عبارات التزلف وجديد من مظاهر الود ؟ فما يكاد المرء ينشق نسمة هواء حتى يكون صاحبنا قد التفت على رابع فظفـــر به • لكأن الأمر ســحر •• ان جميـــع الناس يستقبلونه باشين فرحين ، ويعطفون عليه ويميلون اليــه ، ويحملونه الى السحب•وهم جميعا يعلنون على رءوس الأشهاد انه بآدابه الرفيعة وروحه الفكهة وفكره النقاد يتفوق على السيد جوليادكين الأصلى تفوقا عظيما • لقد أذل بطلنــا المســكين ، بطلنا البرىء ، وأهانه خصــمه وسامه ســوء العذاب • ان الناس الآن ينبذون هذا الانسان الذى يفيض قلبه رحمــة ومحبة لأخيه الانسان ، ويرهقونه ، ويمطرونه بوابل من المطمات بأطراف سباباتهم •

ويسرع بطلنا المسكين هاربا الى الشارع وهو يرتعد خوفا ورعبـا وحنقا • وها هو ذا يبحث عن عربة • انه يريد أن يطير فورا الى صاحب السعادة يشكو اليه أمره ، فان لم يجده فليطر الى آندره فيليبوفتش • ولكن ما من حوذى يرضى أن يقله وا أســفاه ••• فالحوذيون جميعـا يقولون له : « لا يا سيدى ••• يستحيل علينا أن نقل رجلين متشـابهين تشابها مطلقا ••• وما ينبغى لرجل شريف يريد أن يعيش حياة شريفة، ما ينبغى أن يكون له مثل ••• » • وينظر السيد جوليادكين حواليه وهو يهذى من فرط الغيظ ، فيلاحظ أن الحوذيين وبتروشكا الذى كان منضما اليهم هم جميعا على حق ما فى ذلك ريب • ذلك أن شبيهه الدنىء كان على مسافة خطوتين منه ، يتهيأ لمقارفة وقاحة جـديدة على عادته المقيتة •

نعم ، ان هـــذا الدجال الكريه الذى يتظاهـر فى كل مناسبة بأدبه الجم وعواطفه النبيلة سيرتكب الآن فعلا حقيرا لا يدل حتما على شيء من حسن التهذيب ورهافة الذوق •

فما كان من بطلنا المسكين ـ السيد جوليادكين الأصلى ـ الا أن فر هاربا وقد امتلأ قلبه شعورا بالعار والحزن ••• انه يركض الآن قـدما على غير هدى لا يدرى أين يذهب • ولكنه كلما خطا خطوة وكلما قرعت قدمه أسفلت الرصيف مرة ، انبجس الى جانبه عدو جديد كأنه يخرج من بطن الأرض ، انبجس جوليادكين جديد ، انبجس ذلك الدجال نفسه رهيبا حقـيرا باعثا على التقـزز والاشمئزاز كما كان • ويأخـذ هـؤلاء الأشخاص ، المتشابهون جميعا ، يأخذون يركضون واحدا وراء آخـر ، فكأنهم سرب من الأوز يطارد بطلنا ويلاحقه • أصبح بطلنا لا يعرف الى أين يهرب • أصبح لا يعرف كيف ينجو من هؤلاء الجوليادكين الذين يجرون وراءه • تقطعت أنفاس بطلنا المسكين • وسرعان ما حاصره هؤلاء الاشخاص المتشابهون من كل جهة • انهم ألوف • انهم مبثوثون فى كل مكان • انهم يجتاحون جميع شوارع العاصمة • وهـذا رجل من رجال الشرطة يرى نفسه مضطرا أمام هذا التراكم الفاضح الىأن يمسك بتلابيبهم فيقبض عليهم ويحبسهم فى مركز مجاور من مراكز الشرطة • واستيقظ بطلنا وقد تجمد من الخوف والذعر وتخدرت أعضاؤه ••• فاذا ••• فاذا هو يرى أن الواقع ليس خيرا من المنام •• ان حلقه يختنق •• خيل اليه أن أحدا يريد أن يلتهم قلبه •• وأصبح السيد جـــوليادكين عاجزا عن احتمال هذا العذاب مزيدا من الاحتمال •

« لا •• لن يتم هذا » ، كذلك أعول يقول عن اقتناع ، وهو ينتفض ناهضا على سريره ، فما ان صاح هـــذه الصيحة حتى استيقظ من نومه تماما ••

الوقت يبدو ضحى • الضوء يغمر الغرفة على غير عادة • أشـعة كبيرة من الشمس تتسلل من زجاج النوافذ الذى تشقق بجليده عن أشكال كأشكال الازهار ، وتنتشر فى الحجرة • دهش السيد جوليادكين • انه لم يألف ان تزوره الشمس قبل الظهر ، ولا يذكر أنها خالفت هذه القاعدة اكراما له فى يوم من الأيام ، اذا صدقت ذاكرته • وما ان راودته هـذه الدهشه حتى سمع ساعة الجدار ينفلت نابضها الذى يؤذن بانها ستدق • فقال لنفسه وهو يترقب دقات الساعة مغموما : « ها •• سنعرف الآن كم الساعة » • فما كان أشد دهشته حين لم تدق الساعة الا دقة واحـدة • صاح بطلنا وهو يثب عن سريره قائلا : « ما هذا ؟ » • وكأنه لم يصـدق أذنيه ، فها هو ذا يهرع الى ما وراء الحاجز ، حتى دون أن يتدثر بشىء : كان عقرب الساعة يشير فعلا الى الواحدة ••• ألقى السـيد جوليادكين نظرة على سرير بتروشكا ••• فلم يجد أثرا لخادمه لا على السرير ولا فى الغرفة • كان السرير مرتبا • ولم يجـد السيد جـوليادكين حذاءى خادمه ، وذلك دليل على أن الخادم قد خرج • مضى السيد جـوليادكين نحو باب المدخل مسرعا ، فوجده مقفلا ، فأخـذ يردد بصـوت خافت وقد تملكه انفعال شديد وأخذت أعضاؤه جميعها ترتعش : « ولكن أين بتروشكا ؟ » • وانه لكذلك اذا بفكرة مفاجئة تومض فى ذهنه كالبرق ، فيثب نحو الطاولة ، فيفتشها وينبش كل ركن من الأركان • نعم ، لقـد صدق ظنه • ان الرسالة التى كتبها فى الليل الى فاخمارايف قد اختفت •• وبتروشكا غائب •• وعقرب الساعة يشـير الى الواحـدة •• ثم ان الرسالة التى تلقاها أمس من فاخمارايف تشتمل على نقاط غامضة هاهى ذى تتضح الآن •• لم يبق أى شك فيما يتصل بخادمه بتروشكا : لقد رشوه •• لقد رشوه حتما •• رشوه ما فى ذلك ريب •

« ها •• هذه هى عقدة القضية كلها اذن » ، كذلك صاح السـيد

جوليادكين وهو يلطم جبينه • أصبح الآن يرى الأمور رؤية أوضح • « اذن فى مغارة هذه الألمانية الغادرة انما تدبر جميع المؤامرات • الآن فهمت • فحين حثتني نحو جسر اسماعيلوفسكى انما كانت تقوم اذن بمناورة تضليل ، فهى تموه الأمور ، وتحرف انتباهى ، وتمد الفخاخ فى أثناء ذلك • يا لها من ساحرة غدارة ! نعم ، هذه هى المسألة • كل شيء يصبح واضحا تماما متى نظرنا الى الأمور من هذه الزاوية • وظهور هذا الوغد يصبح واضحا أيضا • الأشياء مترابطة • كانوا يدخرونه منذ زمن طويل ، كانوا يهيئونه ويعدونه للخروج فى اللحظة المناسبة• نعم ، أصبح لكل شيء تعليل ••• أصبح كل شيء مفهوما •• هذه هى المسألة اذن • طيب •• لا ضير •• لم يضع بعد كل شيء ، لم تفت كل فرصة .. ما يزال فى الوقت متسع •• » • وهنا ، فى هذه اللحظة تماما ، تذكر بطلنا مذعورا أن الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد الظهر : « ما عسى يكون الحال اذا كان وقتهم قد اتسع منذ الآن ل ••• » ، كذلك قال السيد جوليادكين لنفسه وأفلت من صدره أنين • فقال يطمئن نفسه : « لا ••• انهم يكذبون ••• لما يتسع وقتهم بعد •• سوف نرى على كل حال •• » • ثم أسرع يرتدى ملابسه ، وتناول ورقة وريشة ، فحرر الرسالة التالية :

السيد المحترم ياكوف بتروفتش !

اما أنا واما أنت • يستحيل أن نكون كلانا فى وقت واحد معا ! لذلك أعلن لك أن دعواك الغريبة ، المضحكة ، المستحيلة التحقيق فى الوقت نفسه ، أعنى أن تظهر بمظهر الأخ التوأم لى وأن تستغل هذا الظرف ، فذلك لن يزيد فى آخر الأمر على أن يلطخ شرفك بالعار وعلى أن يضيعك • لذلك أناشدك ، فى سبيل مصلحتك أن تنسحب ، وأن تخلى المكان للناس الشرفاء العقلاء حقا ! والا رأيتنى مضطرا الى اتخاذ اجراءات

قصوى • وعلى هذا أضع قلمي منتظرا جوابك ••• وأظل تحت تصرفك في جميع الأمور ـ ومنها المسدسات •

ى • جوليادكين

فلما انتهى بطلنا من رسالته فرك يديه بقوة ، ثم ارتدى معطفه على عجل ، ولبس قبعته ، وفتح باب بيته بالمفتاح ، ومضى نحو مكتبه •

حتى اذا بلغه تردد عن الدخول•كانت الساعة هي الثانية والنصف• لقد فات الأوان • غير أن حادثا لا يدل ظاهره على أن له قيمة لم يلبث أن ذهب بتردده • ففي ركن من مبنى الادارة ظهر شخص لاهث أحمر الوجه يمشي ملامسا الجدار مشية فأر ثم يتسلل الى درجات المدخل ، ويتسلل من هناك الى الدهليز • انه كاتب المحكمة أوستافياف • ان السيد جوليادكين يعرفه حق المعرفة • فهو رجل يمكن الانتفاع به ، مستعد لكل شيء في سبيل عشرة كوبكات •

ان السيد جوليادكين لا يجهل هذا الوتر الحساس في أوستافياف الذي لا شك أن تغيبه القصير الذي حمله عليه ظمأ قاهر قد زاد ميله الى النقود الرنانة • واذ قرر بطلنا أن يبذل كل ما يجب أن يبذله من تضحيات ، وثب الى درجات المدخل وتوغل في الدهليز يلاحق أوستافياف وناداه ، ثم انتحى به ركنا مظلما وراء مدفأة ضخمة ، وقد لاح في وجهه السر ، حتى اذا صار الرجلان هنالك أخذ السيد جوليادكين يسائله :

ـ هيه يا صديقي ••• ماذا يحدث فوق ؟ هل أدركت ما أريد أن أقول ؟

ـ أنا أصغي اليك يا صاحب النبالة ، وأتمنى لصاحب النبالة صحة جيدة •

ـ حسن جدا يا صديقى ، حسن جدا ، سأكافئك يا صديقى • والآن قل لى يا صديقى ماذا يجرى هنالك فوق !

قال كاتب المحكمة وهو يخفى بيده قليلا فمه الذى أوشك أن ينفرج :

ـ ما هو السؤال الذى تشرفنى بالقائه على ؟

ـ أنا ؟ طيب •• اسمع •• أسألك عن •• ولكن اياك أن يذهب بك الظن الى أشياء خارقة •• بالمناسبة : هل آندره فيليبوفتش هنا ؟

ـ نعم هو هنا •

ـ والموظفون الآخرون ؟

ـ هم هنا ، كالعادة •

ـ وصاحب السعادة •

ـ صاحب السعادة أيضا •

قال كاتب المحكمة ذلك ، وعاد يغلق فمه بيده • وخيل الى بطلنا أن أوستافياف يتفرس فيه بنظرة غريبة تفيض استطلاعا وتعجبا •

ـ اذن يا صديقى لا شيء خارقا يحدث هنالك فوق ؟

ـ لا •• لا شيء البتة •

ـ طيب يا صديقى ، ألم يأت أحد على ذكرى بشيء ؟ ••• هه ؟ ولو عرضا •• أأنت تفهم عنى يا صديقى ؟

ـ لا •• حتى الآن لم أسمع شيئا •

ومرة أخرى وضع كاتب المحكمة يده على فمه ، وشفع هذه الحركة

بنظرة غريبة ألقاها على مخاطبه • وكان السيد جوليادكين يتفرس هو أيضا فى وجه أوستافياف ، محاولا أن يلتقط أية علامة تكشف عما يخفيه رأس الرجل من أفكار • لا شك فى أن هناك سرا • ثم ان لهجة أوستافياف قد تغيرت • فبينما كان الحديث يجرى فى أول الأمر بتودد ظاهر ولطف واضح أصبحت لهجة أوستافياف الآن خشنة متكبرة • كان يبدو أنه غير حافل بمصالح السيد جوليادكين •

قال بطلنا لنفسه : « هذا من حقه • ما أنا عنده ؟ لعله أخذ مكافأة من الطرف الآخر •• فتغيب من أجل أن •• هذه قوة قاهرة •• يجب على أن أعطيه أنا أيضا •• » •

وأدرك السيد جوليادكين أن ساعة الكوبكات قد دقت •

ـ خذ •• هذا لك •• يا صديقى •

ـ أشكر لك كرمك من كل قلبى يا صاحب النبالة •

ـ سأعطيك المزيد •

ـ أنا تحت أمرك يا صاحب النبالة •

ـ سأعطيك اليوم مزيدا ، وسأعطيك أيضا حين تسوى هذه القضية كلها • هل تفهم ؟

وكان كاتب المحكمة ، المتصلب كأنه وتد ، يتفرس فى السيد جوليادكين صامتا •

ـ والآن تكلم •• هل سمعت شيئا يتناولنى ؟

ـ يخيل الى أننى حتى الآن •• أقصد •• حتى الآن لم أسمع شيئا •

كان أوستافياف يجيب على الأسئلة مقطرا كلامه كما كان يفعل السيد جوليادكين ، محتفظا بهيئة السر ، محركا حاجبيه ، مطرقا الى الأرض ، باحثا عن التعبير المناسب ؛ أى أنه كان يجهد بجميع الوسائل أن يستحق المكافأة الموعودة ، معتقدا أن المال الذى تلقاه قد أصبح منذ الآن ملكا له لا يمكن أن ينازع فيه •

سأله السيد جوليادكين :

ــ ولم يتخذ أى قرار حتى الآن ؟

ــ حتى الآن •• لم يتخذ أى قرار •

ــ طيب •• اسمع •• قد نعرف شيئا بعد قليل •

ــ سنعرف شيئا بعد قليل ما فى ذلك ريب •

قال السيد جوليادكين لنفسه : « الأمور تجرى مجرى سيئا •• » • وأردف يخاطب صاحبه :

ــ خذ •• خذ هذا لك أيضا يا صديقى •

ــ شكرا من كل قلبى يا صاحب النبالة •

ــ هل كان فاخمارايف موجودا مساء أمس ؟

ــ نعم •• كان موجودا •

ــ ولم يكن أحد معه ؟ •• حاول أن تتذكر يا صديقى •

غرق كاتب المحكمة دقيقة طويلة بين ذكرياته ، ولكنه لم يظفر بطائل : لم يستطع أن يتذكر شيئا خاصا •

ــ لا •• لم يكن هناك أحد غيره •

ـ همممم ..

وأعقب ذلك صمت .

ـ اسمع يا صديقى .. خذ هذا لك أيضا . والآن قل لى الحقيقة.. الحقيقة كلها .

ـ أنا تحت أمرك .

لقد تأنس أوستافياف الآن . وهذا ما كان يتمناه بطلنا .

ـ والآن قل لى يا صديقى : كيف يعاملونه الآن ؟

ـ معاملة عادية ، معاملة جيدة جدا .

بهذا أجاب كاتب المحكمة وهو يلتهم مخاطبه بعينيه التهاما .

ـ ماذا تعنى بقولك جيدة جدا ؟

ـ أعنى .. أقصد ..

ومرة أخرى أخذ أوستافياف يحرك حاجبيه . الحق أنه أصبح يشعر بأنه محاصر فى طريق مسدود محاصرة ما تنفك تضيق ، فهو لا يعرف بماذا يجيب ليخرج من هذه الطريق .

قال جوليادكين لنفسه : « الامور تجرى مجرى سيئا » .

ـ ألا تعتقد أنه يدبر شيئا مع فاخمارايف ؟

ـ طبعا ... كالعادة .

ـ فكر جيدا .

ـ يقال انهما يدبران شيئا .

ـ ماذا يدبران ؟ قل .. أسرع ..

وعاد كاتب المحكمة يضع يده على فمه من جديد .

ـ أليس ثمة رسائل مرسلة الىّ من هناك ؟

ـ لقد ذهب الخفير ميخايف فى هذا الصباح الى فاخمارايف ... نعم ... فى البنسيون الألمانى . لذلك سأمضى أسأله بعد قليل اذا شئت.

ـ نعم اذهب يا صديقى . قدم لى هذه الخدمة ... أرجوك ... ناشدتك الله .. أقول هذا هكذا .. فلا يذهبن بك الظن الى أى شىء غير عادى . قلت هذا عرضا .. اتفقنا اذن يا صديقى .. اسأله .. حاول أن تعرف هل يدبر شىء ضدى هناك . ماذا يهيىء هو ؟ ذلك هو ما يهمنى أن أعرفه . اذهب وسأعرف كيف أكافئك بعد ذلك يا صديقى ..

ـ أنا تحت أمرك يا صاحب النبالة. ان ايفان سيميونوفتش هو الذى حل محلك فى المكتب هذا الصباح .

ـ ايفان سيمونوفتش ! ها .. نعم .. هل هذا ممكن ؟

ـ آندره فيليبوفتش هو الذى أمره بأن يحل محلك ..

ـ أهذا ممكن ؟ ولكن لماذا ؟ حاول أن تعلم يا صديقى .. ناشدتك الله .. حاول أن تعلم يا صديقى .. حاول أن تعلم ، وأنا سأعرف كيف أكافئك يا عزيزى . ذلك هو ما يهمنى .. ولكن اياك خاصة أن يذهب بك الظن يا صديقى الى ...

ـ تحت أمرك .. تحت أمرك .. سأذهب اليه حالا .. ولكن أليس فى نية صاحب النبالة أن يدخل المكتب اليوم ؟

ـ لا يا صديقى .. لا .. لقد جئت الى هنا عابرا ، لا لشىء غير أن

ألقى نظرة يا صديقى • اذهب وسأعرف كيف أكافئك فى المستقبل ؟ هيا يا رئيسى •

ـ تحت أمرك ••

قال كاتب المحكمة ذلك ثم اندفع يصعد السلم وقد امتلأ همة ونشاطا • وبقى السيد جوليادكين وحده •

قال لنفسه : « الأمور تجرى مجرى سيئاً ، سيئاً جدا ، آه ! ان وضعنا معرض للخطر • ماذا يعنى هذا كله ؟ ترى ماذا كان المعنى الدقيق لتلك التلميحات التى قالها هذا السكير ؟ من هو الممسك بالأسلاك فى هذه القضية ؟ •• آ •• الآن عرفت من هو الممسك بالأسلاك • الآن فهمت القضية كلها • لا شك أنهم علموا •• و •• عندئذ أحلوه محلى •• لقد أحلوه هناك ، وبعد ذلك ؟ ان آندره فيليوفتش هو الذى أحل ايفان سيميونوفتش محلى • فلأى غرض ؟ لا شك أنهم علموا •• هذا من فعل فاخمارايف ••• لا بل هو من فعل غيره •• ان فاخمارايف غبى ، قليل الذكاء ، بليد ! انهم هم أطلقوا على هذا الكلب المسعور ، للأسباب نفسها •• هم الذين دفعوا تلك الالمانية العوراء الى رفع شكوى علىّ • ولقد تنبأت دائما على كل حال بأن هناك أسبابا خفية تحملهم على تدبير هذه المكيدة كلها ، وأن ثمة شيئا يحاك وراء هذه الثرثرات التى تشبه ثرثرات العجوز الشمطاء ••• لقد قلت لكريستيان ايفانوفتش ، قلت له انهم آلوا على أنفسهم أن يغتالونى ، بالمعنى المجازى لهذه الكلمة طبعا ، وانهم يستخدمون فى سبيل ذلك كارولين ايفانوفنا • ان المرء يشعر بأن هناك يد معلم فى هذه القضية يا سادة • لا ••• ليس هو فاخمارايف • سبق أن قلت ذلك : ان فاخمارايف غبى ، أما ••• أنا أعرف من يدبر هذا كله لهم •• انه ذلك الوغد الحقير ، ذلك الدجال المخادع • وهذا مايفسر

تأثيره في الناس ونجاحه بينهم . الحق أن من المهم أن أعرف دوره وامتيازاته على وجه الدقة .. وأن أعرف على أى قدم يعامل هناك ؟ ولكن لاى سبب أخذوا ايفان سيميونوفتش ؟ ما حاجتهم الى ايفان سيميونوفتش؟ ألم يكن في وسعهم أن يجدوا أحدا غيره ؟ النتيجة واحدة على كل حال ، سواء آأخذوه أم أخذوا غيره . الشيء المحقق أنني أشتبه منذ زمن طويل في ايفان سيميونوفتش هذا . انني أراقبه منذ مدة طويلة . يا له من عجوز رهيب ، عجوز يبعث على الاشمئزاز والتقزز ! يظهر أنه يقرض بالربا وأنه جنى أرباحا كبيرة كأرباح يهودي ! ولكن الدب هو الذي يدبر ذلك كله من وراء ! هو روح المؤامرة . كذلك بدأت المسألة .. بدأت من جسر اسماعيلوفسكى .. نعم لقد انطلق كل شيء من هناك ! » .

جعد السيد جوليادكين خده كأنه عض قشرة ليمونة . لا شك أن ذكرى مزعجة قد استيقظت في ذاكرته . قال لنفسه : « أوه .. على كل حال .. ليس لهذا كله كبير شأن . لنعد الى أعمالنا . لماذا تأخر أوستافياف ؟ لا شك أن أحدا قد استوقفه . أحسب أن من حقى أن أمكر أنا أيضا ، وأن أنصب بعض الشباك . يكفى أن أعطى أوستافياف بضعة نقود أخرى ... فينحاز الى جانبى . ومع ذلك يجب أن أعرف هل هو حقا في جانبى .. لعلهم رشوه هو أيضا .. ربما كان ضالعا في المؤامرة منذ الآن ! ان هيئته هيئة لص ، لص عريق . انه يخفى لعبته هذا الوغد! ما ينفك يقول لك : « لا .. لا يوجد شيء قط .. أشكرك من كل قلبى يا صاحب النبالة .. لك كل امتنانى .. » . آه ... يا له من لص عريق ! » .

وفجأة سمع السيد جوليادكين وقع خطوات . فأسرع يلطو وراء المدفأة . نزل أحدهم على السلم ، وخرج الى الشارع . تساءل بطلنا :

« من عساه يخرج فى هذه الساعة ؟ » • وبعد بضع لحظات سمع مرة أخرى وقع خطوات على السلم • فلم يستطع أن يصبر ، بل جازف فمدّ أنفه •• لكنه لم يلبث أن سحبه كأن ابرة وخزته• ان الرجل الذى كان هابطا على السلم ليس الا ذلك الوغد الحقير ، ذلك النصاب المغتصب، ذلك الفاجر المكار ! كان يتقدم بخطاه القصيرة المعهودة ، بمشيته الوقحة المكردحة ، رافعا قائمتيه القصيرتين عاليا ، كمن يريد أن يضرب بهما أحدا • دمدم بطلنا يقول : « سافل •• دنىء » • ولكن بطلنا لم يفته ان يلاحظ أن « السافل الدنىء » كان يتأبط المحفظة الخضراء الضخمة ، محفظة صاحب السعادة • قال السيد جوليادكين لنفسه : « وهذه مهمة خاصة أخرى » ، قال ذلك وقد احمر وجهه غضبا ، وأقعا مزيدا من الاقعاء • وما كاد الوغد يختفى ، دون أن يخطر بباله أن يكون بطلنا حاضرا ، حتى سمع بطلنا وقع خطوات على السلم مرة ثالثة •• انه كاتب المحكمة • لقد شعر السيد جوليادكين بذلك فورا • وما هى الا لحظة حتى ظهر خلفه وجه مدهش هو وجه كاتب آخر من كتاب المحكمة اسمه بيسارنكو • صعق السيد جوليادكين من ذلك • قال لنفسه : « لماذا يقحم فى هذه القضية ! آه من هؤلاء الهمج ! •• لا حرمة عندهم لشىء ! ••• » •

ثم قال يخاطب بيسارنكو :

ـ هيه يا صديقى ، هل من جديد ؟ من ذا أرسلك يا صديقى ؟

ـ جئت من أجل قضيتك الصغيرة • حتى الآن ما من نبأ جديد • وسنبلغك متى جاءنا نبأ جديد •

ـ وأوستافياف ؟

ـ يستحيل أن يتغيب يا صاحب النبالة • لقـــد قام صاحب السعادة بجولة على المكاتب مرتين • ثم ان وقتى لا يتسع أنا أيضا •••

ـ شكرا يا عزيزى شكرا ، ولكن قل لى ••••

ـ ليس فى وقتى متســـع ، أحلف لك ••• انهم ينادوننا فى كل لحظة ••• ابق هنا لحظة •• فاذا علمنا شيئا جديدا يتصل بقضيتك ••• أبلغناك •••

ـ طيب يا صديقى طيب • اقتراحك جيد جدا يا صديقى العزيز • والآن شىء آخر : اليك هذه الرسالة يا صديقى ، وسأكافئك يا عزيزى •

ـ تحت أمرك •

ـ حاول أن توصلها الى السيد جولياد كين •

ـ جولياد كين ؟

ـ نعم الى السيد جولياد كين يا صديقى •

ـ حاضر • متى انتهيت من الأعمال المستعجلة ، سأحمل الرســالة اليه • أما أنت فابق هنا الى حين • ما من أحد يمكن أن يراك هنا •••

ـ ولكن ياصديقى لاتصدق هذا •• أنا لا أبقى هنا حتى لا يرانى أحد • لاياصديقى ، لن أنتظر هنا ، بل فى الشارع الصغير ، على جانب • يوجد هناك مقهى • فسأنتظر فيه فاذا بلغك شىء فلا تتأخر عن نقله الى • هل فهمت ؟

ـ طيب ، فهمت • والآن دعنى أنصرف •

ـ وسأكافئك يا عزيزى

كذلك هتف جوليادكين يقول لكاتب المحكمة الذى تملص وابتعد . قال بطلنا لنفسه وهو يخرج من وراء المدفأة : « ان هذا الوغد يصبح أكثر وقاحة .. آ .. ان وراء الأكمة ما وراءها .. هـذا واضح . فى أول الأمر لم يكن هنـاك الا شيء من كتمـان ... على كل حال ربمـا كان مستعجلا حقا . لا شك أنه مشغول كثيرا . اذن لقد تفقد صاحب السـعادة المكاتب مرتين .. لماذا ؟ .. لا بأس .. قد لا يكون لهذا كبير شأن . ننتظر فنرى ... » .

وهم السيد جوليادكين أن يفتح الباب ليخرج ، ولكنه سمع فى هذه اللحظة قرقعة عربة تقف أمام المدخل . انها عربة صاحب السعادة . ولم يكد السيد جوليادكين يثوب الى رشده حتى كان باب العربة قد فتح ، فاذا برجل ينزل من العربة ويصير على درجات المدخل بوثبة واحدة . ولم يكن هذا الرجل الا جوليادكين الأصغر نفسه ، الذى كان قد غادر الوزارة منذ عشر دقائق . تذكر بطلنا عندئذ أن منزل صـاحب السعادة قريب من الوزارة ، على مسافة خطوتين منها .

قال بطلنا لنفسه : « هى مهمة خاصة . ذلك واضح لاريب فيه» . ولكن الدجّال كان قد فتح باب المدخل بعد أن أصدر الى الحوذى بعض الأوامر . انه ما يزال يتأبط المحفظة الضخمة الخضراء ، محفظة صاحب السعادة ، مع أوراق أخرى . وحين فتح الباب أوشك أن يصدم بطلنا ، ولكنه تظاهر بأنه لم يلاحظ وجوده ، فكان هذا اهانة جديدة لبطلنا . واندفع يصعد السلم راكضا .

قال بطلنا لنفسه : « الأمور تجرى مجرى سـيئا ... ان وضعى معرض للخطر ... أما هذا ... آه يا رب ! ... » وظل بطلنا ساكنا فى مكانه نصف دقيقة . ثم لم يلبث أن اتخذ قرارا ، فاذا هـو يجـرى

صاعدا السلم ملاحقا سميَّه • كان قلبه يخفق خفقانا شديدا • وكان يحس برعدات تسرى فى جميع أعضائه • « لا بأس ••• من لم يجازف بشىء لم يظفر بشىء • ثم اننى فى هذه القضية كلها لست الا مشاهدا • » ••• كذلك كان يردد السيد جوليادكين وهو يخلع قبعته ومعطفه وجرموقيه فى حجرة المدخل •

كان الغسق يرين على جو المكتب ، حين دخل السيد جوليادكين • لم يبصر لا آندره فيليبوفتش ولا أنطون أنطونوفتش • كانا كلاهما فى اجتماع بمكتب المدير • وكان المدير من جهتــه يستعجل الذهاب الى صاحب السعادة فيما يظهر • وكان معظم الموظفين ، ولا سيما الشـباب منهم ، قد استغلوا فرصة هذا الغياب وهذه العتمة ، فقعدوا عن العمل واستسلموا للفراغ بانتظار ساعة اغلاق المكاتب • وقد تألفت منهم جماعات تثرثر وتتمازح وتضحك • حتى أن بعض الموظفين الشباب ، وهم أدناهم رتبا ، قد أخذوا يلعبون قرب النافذة لعبة « الطرة والنقش » فى غمرة هذه الفوضى العامة • وهذا بطلنا الذى يعرف شئون الادارة حق المعرفة ، ويرغب فى التقاط بعض المعلومات النافعة ، يقترب من عدد من الموظفين هم الذين بينه وبينهم مودة ، محاولا أن يسلم عليهم • فما كان أشد دهشته وأقساها حين لاحظ ما فى لهجة أجوبتهم من غرابة وتهرب ! •• لقد بدا له وضعهم باردا جافا بل قاسيا • لم يمد أحد له يده • واكتفى بعضهم برد التحية مختصرة ثم ابتعد عنه ، ولم يزد بعضهم الأخر على أن رد التحية بحركة صغيرة من الرأس • حتى أن أحد زملائه أشاح بوجهه عنه دون أن يرد التحية أصلا • ثم كانت الاهانة الكبرى ، وهى أن عددا من الصبيان السعاة المغترين الذى ليس لهم رتب البتة والذين لا يجيدون شيئا غير لعبة « الطرة والنقش » وغير التسكع فى الأماكن المشبوهة على حد تعبير السيد جوليادكين قد تجمعوا حوله ثم أحـاطوا به احاطة تامة فلا

يستطيع أن يخرج من النطاق الذى أحكموا ضربه عليه ، وأخذوا يتفرسون فيه باستطلاع وتعجب واحتقار •

ذلك نذير سيىء • لقد أدرك السيد جوليادكين ذلك ، فقرر أن لا يوليه أى انتباه • غير أن حادثا لم يكن فى الحسبان قط ، جاء يفسد عليه خططه فجأة ، ويبدد آماله كلها جملة •

فمن جمع الشبان الموظفين الذين تحلقوا حول بطلنا فى هذه اللحظة المشئومة ، لم يلبث أن ظهر له سميُّه على حين بغتة • كان السيد جوليادكين الأصغر مرحا فرحا نشيطا على عادته • نعم ، كان كثير الحركة ، متواثب الخطى ، ساحر اللهجة ، شديد التملق ، حاضر البديهة ، سريع الجواب ، خفيف الساقين ، على عهده به ، على ما كان دائما ، ولا سيما أثناء تلك الجلسة التى ما يزال بطلنا يحتفظ منها بذكرى كاوية جدا • انه يدور ويطير مبتسما ابتسامة تكشف عن أسنانه ، ابتسامة تحيى الجميع • فما هى الا ثوان حتى كان فى وسط الجماعة يصافح الأيدى ويربت على الأكتاف ، يمسك بذراع هذا بينما هو يشرح لذاك المهمة التى عهد بها اليه صاحب السعادة • تكلم عما قام به من مساع وما بذله من نشاط وما حصل عليه من نتائج • حتى لقد مضى به الأمر الى حيث قبَّل أحد الموظفين على شفتيه ، وهو خير أصدقائه ولا شك ••• الخلاصة أن كل شىء جرى على نحو ما رآه السيد جوليادكين فى منامه • وبعد هذه الأنواع من الرياء المتصنع والسلام الكاذب والتقبيل المتملق مع جميع الناس ، بدا للسيد جوليادكين الأصغر ، على حين فجأة ، أنه نسى أن يحيى أقدم أصدقائه ، عن سهو بدون شك ، فسرعان ما مد يده الى بطلنا مسلما ، وسرعان ماتناول بطلنا هذه اليد ، عن سهو بدون شك أيضا ، لأنه كان قد استطاع خلال ذلك الوقت كله أن يلاحظ مكائد هذا الرجل الدجال ، أقول سرعان ما تناول بطلنا هذه اليد التى مُدت اليه فجأة على غير توقع ، تناولها

بشراهة ، وصافحها بقوة ، وأقبل يرد التحية بعاطفة قوية وصداقة خالصة. لقد صافح بطلنا يد صاحبه باندفاع روحي وحنان قلبي • أتراه فعل مافعل لان هذه البادرة من صديقه الوقح قد خدعته ، أم لانها فاجأته سرعتها ، أم لانه شعر في هذه اللحظه بعجـزه لا أكثـر من ذلك ولا أقل ؟ من الصعب على ّ آن أقطع فى هذا برأى • وانما المهم أن السيد جولیادكين ، بكامل صحوه وملء ارادته ، قد صافح مصـــافحة قوية ، على مرأى من الناس ، يد ذلك الانسان الذى كان يعد عدوه اللدود •

فما كان أشد الذهول والحنق ، والهول والعار الذى شعر به بطلنا حين رأى خصمه ، حين راى عدوه اللدود يغير موقفه فجأة • لقد أدرك الدجال الكريه الخطأ الذى ارتكبته ضـحيته المسكينة البريئة ، فاذا هــو ينتزع يده من يد بطلنا بحركة مفاجئة فظة متعجرفة ، وببرود كامل لا تخالطه أية عاطفة من عواطف الرحمة الانسانية ، ثم اذا هو ينفض يده كمن يريد أن يطهرها من رجس علق بها نتيجة للملامسة تثير الاشمئزاز والتقزز ، واذا هو يشفع هذه الحركة ببصقة على الارض وبحركة كريهة وقحة ، واذا هو يزيد على ذلك فيخرج منديله ويأخذ يمسح به أصابع يده التى صافحها بطلنا • وكان المغتصب الدنىء يشفع هذه الحركات كلها بنظرات يجيلها حوله على عادته ، كأنه يريد أن يتخـــذ من الحضور شهودا على سلوكه الحقير ، وهو يتفرس في الأعين كأنه يريد أن ينفخ فيها الـكره والاحتقار للسيد جولیادكين • غير أن هذا الموقف المستفز المتحدى الذى وقفه هذا الشخص المقيت بدا أنه أثار اسـتنكار الحضـــور واستياءهم ، فقامت هنا وهناك دمدمات واحتجاجات • وسمع السيد جولیادكين هــذه الضجة • ولكن الدجال لم يلبث أن طلع على الحضـــور بمـزحة فكهة موفقة ، فاذا بالمزحة تحطم وتبدد آخر آمال بطلنا • لقد مالت كفة الميزان مرة أخرى الى جهة عدوه القاسي الحقير •

« انظروا الى فوبلاس الروسى ، الى فوبلاسنا القومى • اسمحوا لى أن أقدم اليكم ، ايها السادة ، الفتى فوبلاس • » • كذلك دوى صوت الغاضب رنانا وقحا على عادته المألوفة ، وهو يتطاير وسط الموظفين مشيرا الى جوليادكين الأصلى ، الواقف ساكنا متجمدا • ثم أضاف الى ذلك يقول بلهجة ألفة لا تطاق ، وهو يتقدم نحو الشخص الذى يستهزىء به : «هيا نتعانق يا حبيبى • » • ووجدت مزحة هذا الشخص الدنيء صدى حسنا لدى بعض المشاهدين ، لا سيما وأنها تومىء ايماء مباشرا وقحا الى حادث يبدو أن جميع الناس يعرفونه •

أحس بطلنا بيد أعدائه ثقيلة على كتفيه • فلم يلبث أن اتخذ قرارا ، فاذا هو ، وقد اتقدت عيناه ، واصفر وجهه ، وانفرجت شفتاه فى جانب ، يتملص من الجمهور على نحو من الانحاء ويتجه نحو مكتب صاحب السعادة بخطى مترنحة صغيرة • فلما وصل الى حجرة المدخل وجد نفسه وجها لوجه أمام آندره فيليبوفتش الذى كان خارجا من مكتب المدير • كان فى الحجرة عدد من الأشخاص ليس لهم أى شأن بهذه القضية ، ولكن ذلك لم يؤثر فى صاحبنا ، فسرعان ما عزم أمره ، وجمع شجاعته (وهو يكاد يدهش من جرأته ويغبط نفسه عليها) ، واتجه الى آندره فيليبوفتش الذى بهتته هذه الهجمة التى لم تكن فى الحسبان •

سأله آندره فيليبوفتش دون أن يصغى الى كلامه المضطرب :

ـ ها ••• هذا أنت ••• ماذا تريد ؟

فقال بطلنا بصوت واضح رصين وهو يحدق الى مخاطبه صامدا :

ـ آندره فيليبوفتش ••• أريد ••• هل أستطيع أن ألتمس حديثا خاصا مع صاحب السعادة يا آندره فيليبوفتش ؟

ـ ماذا تقول ؟ ... طبعا ... لا .

ونظر آندره فيليبوفتش الى بطلنا من رأسه حتى قدميه :

ـ أقول لك ذلك يا آندره فيليبوفتش لأنه يدهشني أنه لما يحسر أحدا حتى الآن القناع عن وجه الدجال الحقير !

ـ كيف ؟

ـ أقول : الحقير ، يا آندره فيليبوفتش !

ـ من تعني ؟

ـ أعني شخصا بعينه ياآندره فيليبوفتش ، أعني شخصا بعينه ياآندره فيليبوفتش ... وأنا على حق ... أعتقد يا آندره فيليبوفتش أن رؤساءنا لا بد أن يشجعوا مثل هذه المبادرات (أضاف جوليادكين ذلك خارجا عن طوره) ... وأنا على يقين من أنك تفهم معنى مبادرتي هذه الكريمة الشريفة .. ان علينا كما يقال أن نعد رئيسنا أباً لنا يا آندره فيليبوفتش . وأنا أحب أن يكون هذا الرئيس العادل بمثابة أب لي أضع مصيري بين يديه يتصرف فيه كما يشاء . سوف أقول له ... (هنا أخذ صوت السيد جوليادكين يرتجف ، واحمر وجهه ، وسقطت دمعتان من عينيه) ...

بُهت آندره فيليبوفتش من أقوال السيد جوليادكين ، وبلغ من الدهشة والذهول أنه تراجع خطوتين على غير شعور منه ، وأخذ ينظر حواليه خائفا قلقا .

كان يصعب على المرء أن يتصور لهذا المشهد مخرجا ... ولكن باب مكتب صاحب السعادة فتح فجأة ، وظهر صاحب السعادة في العتبة يصحبه عدد من الموظفين . هب جميع الحضور واقفين . ونادى صاحب

السعادة آندره فيليبوفتش • وترك الرجلان الحجرة سائرين جنبا الى جنب متحدثين فى شئون تتصل بالعمل • وتبعهما الآخرون • فلما بقى السيد جوليادكين وحيدا استرد شعوره وثاب الى رشده ، ثم مضى يلطو خاضعا طائعا تحت جناح أنطون أنطونوفتش الذى كان يسير فى آخر الموكب مهدم الهيئة متجهم الوجه •

قال السيد جوليادكين لنفسه شاكيا : « آ ••• لقد أخطأت مرة أخرى ••• غلطت مرة أخرى ••• على كل حال ، لا ضير ••• » • ثم قال يخاطب أنطون أنطونوفتش مدمدما بصوت ناعم مرتجف من الانفعال بعض الارتجاف :

ـ آمل أن لا ترفض أنت على الأقل أن تستمع الى كلامى وأن تنظر الى حالتى بعين الاعتبار • انى حتى الآن لا أستطيع أن أفهم أقوال آندره فيليبوفتش • فهلا شرحتها لى يا أنطون أنطونوفتش اذا كان ذلك فى وسعك !

فأجابه أنطون أنطونوفتش بلهجة قاسية وهو يفصل كلماته :

ـ ستعرف كل شىء فى حينه •

أدرك السيد جوليادكين أن رئيس دائرته لا يحب أن يواصل الحديث معه • وأضاف أنطون أنطونوفتش قوله :

ـ على كل حال ، ستكون على علم بالأمر قريبا • ستبلغ رسميا فى هذا اليوم نفسه •

ـ ماذا تعنى بقولك « رسميا » يا أنطون أنطونوفتش ؟ لماذا تقول : « رسميا » ؟

كذلك سأل السيد جوليادكين خائفا وجلا ••

ـ ليس لنا أن نناقش فى قرارات رؤسائنا يا ياكوف بتروفتش •••

ـ ما علاقة الرؤساء بهذا الأمر يا أنطون أنطونوفتش ؟ ما شأنهم فى هذه القضية؟ اننى لاأرى أى داع الى ازعاج رؤسائنا باأنطون أنطونوفتش؟ أتراك تقصد حوادث الأمس يا أنطون أنطونوفتش ؟

ـ لا •• ليس الأمر أمر ما جرى بالأمس • ان فى قضيتك شيئاً آخر يعرج !

ـ ما الذى يعرج يا أنطون أنطونوفتش ؟ يخيل الىَّ يا أنطون أنطونوفتش أنه ما من شيء يعرج !

قاطعه أنطون أنطونوفتش يقول بلهجة خشنة :

ـ مع من كان فى نيتك أن تتآمر ؟

فقد السيد جوليادكين رباطة جأشه ، وارتعش ، واصفر وجهه اصفرارا شديدا • قال ثائراً :

ـ طبعا يا أنطون أنطونوفتش ••• اذا لم يُستمع الا الى وشايات الأعداء ، دون الاصغاء الى أقوال المتهم ، فمن الطبيعى عندئذ •••

كذلك تمتم السيد جوليادكين بصوت مختنق ، وأردف يتم كلامه :

ـ نعم من الطبيعى فى هذه الحالة يا أنطون أنطونوفتش أن يُدان برىء وأن يتألم ظلما وعدوانا •

ـ ها •• وما قولك فى فعلك الدنىء مع فتاة شريفة أوشكتَ أن تدنس سمتعها ؟ فتاة غمرتك أسرتها الكريمة السخية التى يجمع الناس على احترامها بأنواع الخيرات •••

ـ عن أى فعل تتكلم يا أنطون أنطونوفتش ؟

ـ ها ... ولا شك أنك تريد أن تنكر أيضا الأذى الذى ألحقته بفتاة أخرى ، متواضعة المركز الاجتماعى طبعا ، ولكنها من أسرة أجنبية محترمة !

ـ اسمح لى يا أنطون أنطونوفيتش ... اصغ الى كلامى من فضلك يا أنطون أنطونوفتش !

ـ وما قولك فى موقفك الدنىء من شخص آخر ، فى وشاياتك عليه ، فى اتهاماتك اياه بأفعال أنت وحدك مقترفها ؟ هـه ؟ ما قولك فى هذا ؟

تمتم بطلنا مبهورا لاهثا :

ـ أنا يا أنطون أنطونوفتش ؟ ولكننى لم أطرده أبدا من بيتى ... لم آمر بتروشكا أبدا ... أقصد لم آمر خادمى أن يطرده .. لقد أكل من خبزى يا أنطون أنطونوفتش ... استفاد من ضيافتى (أضاف السيد جوليادكين ذلك بصوت أجش يفيض انفعالا ، وكانت ذقنه ترتعش ، وامتلأت عيناه مرة أخرى بالدموع)

أجاب أنطون أنطونوفتش ساخرا :

ـ تلك حكايات يا ياكوف بتروفتش !

فهزت لهجته الساخرة السيد جوليادكين هزا عميقا .

ـ اسمح لى يا أنطون أنطونوفتش أن ألقى سؤالا أخيرا : هل صاحب السعادة على علم بهذه القضية كلها ؟

ـ طبعا ... والآن دعنى ... لا أملك من الوقت ما أضيعه معك . سوف تُبلَّغ اليوم كل ما يتصل بك .

ـ ناشدتك الله يا أنطون أنطونوفتش ... أتوسل اليك ... دقيقة واحدة أخرى ...

ـ سيتسع وقتك لقص كل شيء .

ـ لا لا يا أنطون أنطونوفتش ... أنا ... استمع الى ّ .. أرجوك يا أنطون أنطونوفتش ... أنا لا أناصر الافكار الهدامة ... أنا أتحاشى الأفكار الهدامة . أنا مستعد كل الاستعداد لأن أسلم بأن ... حتى لقد أعلنت رأيي قائلا ...

ـ طيب طيب ... لقد سمعت هذا ..

ـ لا لا . هذا لم تسمعه يا أنطون أنطونوفتش . لا ... أقصد هنا شيئا آخر يا أنطون أنطونوفتش ، شيئاً حسنا ، حسنا جدا ، يسرُ سماعه .. لقد أعلنت رأيي يا أنطون أنطونوفتش ، وشرحته قبل الآن . اليك رأيي الذي أعلنته وشرحته : قلت ان الله قد شاء أن يخلق شخصين متماثلين تماثلا كاملا مطلقا ، فأحدهما عين الآخر تماما ، وان رؤساءنا الكرام الذين يملكون البصيرة الصادقة قد أدركوا مشيئة الله ، فشملوا برعايتهم وحمايتهم التوأمين كليهما ... هذه فكرة حسنة يا أنطون أنطونوفتش ... أنت ترى أنها فكرة حسنة يا أنطون أنطونوفتش . انني بعيد عن الأفكار الهدامة ، كما ترى . وأعتقد أن قلوب رؤسائي تفيض محبة ورأفة كقلوب الآباء . هذا هو رأيي : فهناك من جهة أولى رؤساء تفيض قلوبهم كرما ورأفة ، وهناك من جهة أخرى شاب يحتاج الى عمل ... كن لي عونا وسندا يا أنطون أنطونوفتش . دافع عني واحمني يا أنطون أنطونوفتش . أنا لم أفعل سوءا يا أنطون أنطونوفتش . أرجوك ... دعني أقول كلمة أخرى يا أنطون أنطونوفتش ..

ولكن أنطون أنطونوفتش كان قد ابتعد . أما بطلنا فقد أصبح لا يعرف أين هو ، ولا يعرف ماذا يسمع ، ولا ماذا يصنع ، ولا ماذا يصنع به ، ولا ماذا سيصنع به ... لقد اضطربت نفسه اضطرابا عميقا مما سمعه ومما وقع حتى الان ..

أخذ يبحث فى جمهرة الموظفين عن أنطون أنطونوفتش ، بنظرة ضارعة متوسلة . كان يريد أن يبرىء نفسه فى نظره . كان يريد أن يقول له بضع كلمات اخرى ، كلمات جميلة بريئة طاهرة ، كلمات يمكن أن تدل على نبل نياته .

وفى أثناء ذلك كان شعاع جديد يتسلل شيئا فشيئا الى قلب هذا الاضطراب فى عواطف بطلنا ، شعاع جديد رهيب يكشف له فجأة عن آفاق فسيحة لأحداث ليست فى الحسبان ، أحداث لم يكن بطلنا قد تصور أنها ممكنة حتى الآن .

وفى هذه اللحظة صدمه أحدهم فى خاصرته .

فالتفت فرأى أمامه بيسارنكو .

ـ هذه رسالة لك يا صاحب السعادة .

ـ ها ... لقد أوصلت اذن رسالتى ؟

ـ لا بل جىء بهذه الرسالة الى هنا فى الساعة العاشرة من الصباح . ان الخفير سرجى ميكايف هو الذى حملها من السكرتير فاخمارايف .

ـ طيب يا صديقى ، طيب جدا ، سوف أكافئك يا عزيزى .

قال السيد جوليادكين هذه الكلمات ودس الرسالة فى جيب ردنجوته عاقدا أزراره بكثير من العناية . ونظر حواليه ، فما كان أشد دهشته حين

رأى أنه قد أصبح فى الدهليز الكبير وسط سائر الموظفين • انها ساعة انصراف الموظفين واغلاق المكاتب • لم يكن السيد جوليادكين قد شعر بذلك أبدا ، لا ولا فهم ما هى الظروف التى جعلته الان موجودا فى الدهليز ، لابسا معطفه منتعلا جرموقيه حاملا قبعته بيده • كان الموظفون جامدين ساكنين ينتظرون فى وضع يدل على الاحترام • ذلك أن صاحب السعادة كان واقفا فى أسفل السلم ينتظر عربته ، ويتحدث فى كثير من الحماسة مع اثنين من مستشارى الدولة ومع آندره فيليبوفش • وعلى بضع خطوات من تلك الجماعة كان يقف أنطون أنطونوفتش مع اثنين أو ثلاثة من الموظفين يبتسمون وهم يرون صاحب السعادة ضاحكا ممازحا ، وكان سائر المستخدمين المحتشدين فى أعلى السلم يبتسمون هم أيضا، ويرصدون كل ضحكة جديدة يطلقها صاحب السعادة • كان هنالك رجل لا يبتسم: انه البواب الضخم فيدوسئتش • انه واقف وقفة التأهب العسكرى ، قابض على مقبض الباب ، ينتظر بفارغ صبر أن ينال نصيبه اليومى من المتعة • وكانت متعته هى هذه : أن يفتح أحد مصراعى الباب عريضا بدفعة واحدة ثم يدع لصاحب السعادة أن يمر وقد حنى هو ظهره كالقوس احتراما واجلالا ••• أما الشخص الذى كان يشعر بأكبر فرح أثناء هذا الانتظار العارض ، فلا شك أنه ذلك العدو الكريه الفاجر اللدود ، عدو السيد جوليادكين •

كان فى هذه اللحظة لا يعرف أحدا من سائر الموظفين • كان فى هذه اللحظة لا يتواثب بينهم ولا يدور ، على عادته المقيتة الحقيرة • كان لا يحاول أن ينتهز الفرصة المواتية للتحبب اليهم وكسب مودتهم • هو الآن أبصار وأسماع كله •• انه متجمع على نفسه فى وضع غريب ، ليرهف السمع من غير شك • انه يلتهم صاحب السعادة بعينيه ؟ ولا تظهر

على وجهه الا بضع جعدات تشنجية من حين الى حين تكشف عما فى قرارة نفسه من حركات عميقة خفية •

قال بطلنا لنفسه : « يا للوغد ! انه يصطنع هيئة من له حظوة ! يا له من لص ! ••• وددت لو اعرف اسباب نجاحه بين الناس • انه لا يملك شيئا ، لا فكرا ولا ثقافة ولا خلقا ولا ارادة ولا عاطفة ••• انه محظوظ هذا الفاسق ! رباه رباه ! ما اعجب ما يمكن أن يحصل عليه انسان من نجاح سريع ومن ثقة كبيرة ! ولسوف يمضى فى هذا الطريق قدما • يمينا انه سوف يمضى فى هذا الطريق قدما ، هذا الوغد ••• لسوف يحقق هدفه • ان الحظ معه ، هذا اللص ! ليتنى أعرف بماذا كانوا يتهامسون منذ هنيهة ! ما هى الأسرار التى بينه وبين الاخرين ؟ بماذا كانوا يتهامسون خفية ؟ رباه ! ماعساى أصنع ؟ ما عساى أفعل ؟ ••• أأمضى أقول له : « لقد تبت ••• اننى أعترف بخطئى •• ففى زماننا هذا لابد لرجل شاب من أن يعمل يا صاحب السعادة •• ولست أشعر بخجل من هذه المصادفة التى تبعث الاضطراب فى النفس • أعدك بأن لا أرفع صوتى بعد الآن باحتجاج • أعدك بأن أحتمل بعد الآن كل شىء طائعا صاغرا صابرا • ترى أهذا ما يجب أن أفعله ؟ ••• لا •• ان هذا لا يجدى مع شخص فاجر كهذا الشخص • ليس للكلمات من تأثير فى نفسه • يستحيل رد عقل غبى كعقله الى سبيل الصواب والرشاد• ولكن فلنحاول • قد تواتينى فرصة مناسبة • لماذا لا أجرب حظى ؟ ••• » •

أحس السيد جوليادكين ، وهو فيما هو فيه من حيرة واضطراب وقلق أنه لا يستطيع أن يلبث فى مكانه هذا على هذه الحال • أحس أن اللحظة الحاسمة تقترب ، فلا بد له أن يكاشف أحدا بالأمر • وشيئاً شيئا أخذ يشق لنفسه طريقا الى المكان الذى يقف فيه ذلك الرجل الدنىء العجيب الذى كان رفيقه فى ذات مساء •

ولكن قرقعة عربة تقف لم تلبث أن سمعت في هذه اللحظة نفسها. انها العربة التي كان صاحب السعادة ينتظرها منذ مدة طويلة . شد فيدوستش الباب ، وفتح الطريق لصاحب السعادة منحنيا كالقوس . وأسرع الموظفون الآخرون نحو الباب في الوقت نفسه . فانفصل السيد جولیادكين عن سميّه في غمرة هذا الاندفاع .

انسل السيد جولیادكين في صفوف الجمهور مرددا لنفسه دون أن يحول بصره عن الرجل الذي يريد أن يدركه « لا ... لن تفلت مني» . وتبعثر الجمهور أخيرا ... فأصبح بطلنا حرا طليقا ، فأسرع يطارد عدوه .

الفصـــل الحـــادي عشر

تقطعت أنفاس السيد جوليادكين في صدره . كان يطير ، كأن له جناحين ، ملاحقا عدوه الذي يبتعد سريعا .. ان بطلنا يشعر بحماسة عظيمة وحميا شديدة. ومع ذلك فان كل شيء يحمل على الاعتقاد ، رغم هذا الاندفاع القوي ، أن في وسع ذبابة أن تقلبه على الأرض بسهولة اذا هي لطمته بجناحها لطمة صغيرة ، هذا اذا وجد ذباب في بطرسبرج في مثل هذا الفصل من السنة . كان السيد جوليادكين يحس بأنه عاجز عن مواصلة السير ، وكان يحس في الوقت نفسه أن قوة غريبة مستقلة عن جسمه استقلالا تاما كانت تجره جرا ، فلولا هذه القوة الغريبة عن جسمه لما استطاع أن يخطو أيسر خطوة ، لأن ساقيه كانتا تصطكان وترفضان أن تسعفاه . وظل يتابع جريه متقطع الأنفاس وهو يردد لنفسه كالآلة :

« ما يزال يمكن أن يسوى كل شيء على أحسن وجه ، نعم على أحسن وجه ، أو على أسوأ وجه ...

« ومهما يكن من أمر فقد ضاعت قضيتى ، ما فى ذلك ريب
لقد دمرت .. دمرت تماما .. هذا أكيد .. محقق .. لا عفو ولا غ
.. ليس فى الامكان اجراء أى تغيير .. » . ومع ذلك ففى اللحظة
استطاع فيها بطلنا أن يمسك بحافة معطف عدوه ، أحس كأنه يبعث
جديدا دفعة واحدة . لكأنه حقق نصرا عظيما . لقد نادى العدو ال
عربة ، وهم أن يركبها ، فصاح بطلنا يقول : « سيدى ، سـيدى ،
منك أن ... » . فأجابه عدوه القـاسى الذى وضـع احدى قدمي
العربة :

ـ لا ... لا تأمل منى شيئا ، أرجوك ...

فلما حاول أن ينقـل الى العـربة قدمه الثانيـة ، حركها فى ا
مضطربا ، ولم يستطع أن يحافظ على توازنه الا فى كثير من العناء ، و
فى الوقت نفسه ، يحـاول أن يتملص من تشبث جوليـادكين به ، و
بطلنا تمسك بمعطف خصمه بكل ما وهبته الطبيعة من قوى .

ـ ياكوف بتروفتش ، عشر دقائق فقط ..

ـ آسف .. ليس فى وقتى متسع .

ـ أرجوك يا ياكوف بتروفتش ، أرجوك ، أتوسل اليك ...
فضلك يا ياكوف بتروفتش .. من فضلك .. هى مفاتحة صريحة
بلا مواربة .. بلا لف ولا دوران .. لحظة واحدة يا ياكوف بتروفت

ـ ليس فى وقتى متسع يا صديقى العزيز جدا .

كذلك أجاب الدجال المرائى المنافق .

وكان تلطفه المتصنع يكشف عن مودة وفظاظة كلتاهما جارحة

وأردف يقول :

ـ دع هذا ليوم اخر •• صدقني •• سيسرني أن أستمع بقلب مفتوح •• احلف لك •• أما اليوم فمستحيل فعلا •

قال السيد جوليادكين لنفسه : « ما أجبنه ! » • ثم أعول يقول وقد فاض قلقا وخوفا :

ـ ياكوف بتروفتش ، ياكوف بتروفتش ، أنا لم أكن عدوك في يوم من الأيام • ان ألسنة سوء قد اتهمتني ظلما •• أما انا فمستعد لأن •• ياكوف بتروفتش ، هلا دخلنا لحظة الى هذا المقهى فتكاشفنا بصراحة ، بقلب مفتوح على حد تعبيرك الصحيح جدا • سنتكلم لغة صريحة رفيعة •• وسوف ترى : سوف يصبح كل شيء واضحا • نعم يا ياكوف بتروفتش، سوف ترى ، سوف يتضح كل شيء حتما •

ـ في هذا المقهى ؟ موافق •• ولم لا أوافق ؟ لندخل هذا المقهى • ولكني أضع شرطا ، شرطا واحدا ، يا عزيزي ، هو أن يتضح كل شيء آخر الأمر ، مرة واحدة • نعم ، مرة واحدة الى الأبد ، يا صديقي اللطيف •

كذلك قال جوليادكين الأصغر وهو ينزل من العربة ويلطم كتف بطلنا بدون حياء • وأضاف يقول :

ـ آه منك أيها الرفيق القديم ، انني مستعد في سبيلك لأن أسير في هذا الطريق الضيق ، كما اقترحت عليّ هذا في المساء الأول ، هل تتذكر ؟ ••• آه ما أخبث هذا الياكوف بتروفتش ! انه يصنع بي مايشاء (هذا ما أضافه الرفيق المنافق المرائي ، وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، ويدور حول بطلنا ويلتف) •

كان المقهى يقع فى زقاق صغير بعيد عن الشوارع الكبرى بالعاصمة. فلما دخلاه كان خاليا خلوا كاملا ، الا من المانية سمينة ظهرت لهما وراء البسطة حين سمعت رنين فتح الباب . مضى السيد جوليادكين ورفيقه الشرير الى الغرفة المجاورة حيث كان هناك صبى بدين حليق شعر الرأس يتحرك حول المدفأة محاولا أن يؤجج النار بقبضة من نشارة . وجىء للزبون بقدحين من الشكولاته تنفيذا لطلب السيد جوليادكين .

قال جوليادكين الأصغر لصديقه وهو يغمز غمزة خبيثة :

ـ امرأة بضة شهية .. هه ؟

فاحمر وجه بطلنا وحاذر أن يجيب .

ـ ها ... معذرة .. لقد نسيت تماما .. أنا أعرف ذوقك . نحن من عشاق الألمانيات النحيلات الرشيقات يا سيدى . نعم يا عزيزى الشهم ياكوف بتروفتش ، نحن ، أنا وأنت ، ميالون الى الالمانيات النحيلات ، شريطة أن لا يعوزهن شىء من فتنة واغراء طبعا : نستاجر فى بيوتهن غرفا ، ثم نغويهن ، وفى مقابل أطباق الطعام الصغيرة التى يقدمنها لنا ، وفى مقابل صحون الحساء بالبيرة وصحون الحساء باللبن التى نطعمها عندهن ، نعطيهن قلبنا وبضع سندات .. هذه طريقتنا فى العمل . آه منك أيها الناوى الذى يسحر قلوب النساء ويفتن عقولهن ! آه منك يا فوبلاس !

قال السيد جوليادكين الأصغر هذه الغمزات واللمزات الموجهة الوقحة مصحوبة بابتسامات لطيفة ومداعبات . وكان هذا المنافق يبسط عواطف الصداقة ويعرب عن فرحته بوجوده مع السيد جوليادكين . ولكن بطلنا لم يكن من الغباء والسذاجة وقلة الخبرة بحيث تنطلى عليه هذه الأحابيل ، فلما لاحظ صاحبه المقيت الكريه ذلك أسرع يبدل أسلوبه

ويلعب باوراقه مكشوفة • فما ان نطق الدجال الحقير بتلك الكلمات الدنيئة حتى بادر يضع يده على كتف جاره طويلا غير متحرج أى تحرج، رافعا الكلفة الى حد يثير الحفيظة ويبعث على السخط والحنق ؛ ثم لم يكفه ذلك فاندفع فى أمازيح أخرى غليظه بذيئة ، ثم أراد أن يكرر فعلته الكريهة التى فعلها أمس حين قرص وجه بطلنا ، رغم ما اظهره بطلنا من مقاومة وأعلنه من احتجاج واستياء • فغلى الدم فى عروق بطلنا ازاء هذه الوقاحة • ومع ذلك كبح جماح نفسه ولزم الصمت •• كان ينتظر ساعته •

أجاب بصوت مضطرب بعض الاضطراب ، ولكنه ما يزال مسيطرا على نفسه :

ـ هذه مزاعم أعدائى •

وفى هذه اللحظة نفسها ألقى بطلنا نظرة قلقة نحو الباب • كان يخشى أن لا يندفع مخاطبه الذى كان واضح المرح والارتياح فى مزاحة مزعجة ثقيلة فى مكان عام ، مزاحة لا يمكن احتمالها فى مجتمع محترم على كل حال •

أجاب الدجال على قول السيد جوليادكين وهو يضع قدحه الذى أفرغه فى جوفه بشراهة لا حياء فيها :

ـ فى هذه الحالة أوافق • فى هذه الحالة أوافق ، ولم يبق ما يقوله أحدنا للآخر •• كيف صحتك الآن يا ياكوف بتروفتش ؟

قال بطلنا بهدوء ووقار :

ـ لن أقول لك الا شيئا واحدا يا ياكوف بتروفتش ، هو أننى لم أكن عدوك فى يوم من الأيام •

ـ همم ••• هذا شيء يجب التثبت منه ! وبتروشكا ؟ ما اسم ذلك القرد ؟ بتروشكا ، أليس كـذلك ؟ نعم هـو كذلك • كيف هو الآن ؟ أحسب أن حالته جيدة ! أهو على ما كان عليه دائما ؟

قال السيد جوليادكين مدهوشا بعض الدهشة :

ـ حالته حسنة ، مثلما كان دائما يا ياكوف بتروفتش • لا أدرى ماذا يجب ان اقـول يا ياكـوف بتروفتش ••• ولكنني من جهتي ••• بكل صدق وبكل صراحة •• اخيرا أنت تعرف يا ياكوف بتروفتش •

قال السيد جوليادكين الاصغر بصوت شجيٍ معبر ، مصطنعا هيئة انسان حزين اعمق الحزن ، نادم اشد الندم ، هيئة انسان جدير بالاشفاق والرثاء والرحمة :

ـ ولكنك تعلم أنت نفسك يا ياكوف بتروفتش ، تعلم أنت نفسـك أن هذا الزمان صعب •

ثم أضاف وقد عقد النية واضحة على أن يتملق بطلنا :

ـ انظر يا ياكوف بتروفتش ، سوف أُشـهدك أنت نفسـك : انك رجل ذكي تستطيع أن تحكم حكما منصفا •• هل الحياة سهلة ؟ ••• لا يا ياكوف بتروفتش •• ليست الحيـــاة لعبا •• انك تعـرف ذلك حق المعرفة يا ياكوف بتروفتش •

بهذا ختم الماكر المنافق كلامه بلهجة سيد ذكي مثقف ، أهل لان يناقش أخطر مشكلات الحياة وأرفع مسائل الوجود •

قال بطلنا بحماسة :

ـ سوف أخاطبـك من جهتي يا ياكوف بتروفتش بلغـــة صريحة

جريئة لا احاول ان الف وان ادور • ساقول لك يا ياكوف بتروفتش ، بكل صدق واخلاص واستقامة وشرف ، انني بريء كل البراءة ••• نعم يا ياكوف بتروفتش ، اؤكد لك ذلك • ثم انك تعرفه بنفسك يا ياكوف بتروفتش • المسألة ، في حياتنا نحن ، يا ياكوف بتروفتش مسالة سوء تفاهم متبادل ـ وكل شيء ممكن في هذه الحياة ـ سوء تفاهم فاقمته احكام المجتمع ، احكام اناس رعاع عمي عبيد •• أنا أكلمك بصراحة يا ياكوف بتروفتش : اعود فاقول لك ان كل شيء ممكن في هـــذه الحيـاة ••• وأضيف الى ذلك أننا اذا ارتضينا أن ننظر الى القضية كلها نظرة صادقه رفيعة سامية ، كان في وسعي أن أؤكـد لك ، بغير خجـل زائف ، أنه يكاد يسرني أن أعترف لك ببعض ما ارتكبت من أخطاء وما وقعت فيـه من ضلالات ••• نعم ، ولسوف يبهجني أن أكشف عن هذه الأخطـاء والضلالات • أنت انسان ذكي شريف • وانك لتـدرك بنفسـك حق الادراك كل ما اعترفت لك به • نعم أنا أؤكد لك أنني مستعد لأن أبوح بكل شيء ، لأن أعترف بكل شيء ، اعترافا شريفا صادقا لا يخالطه حياء كاذب ولا خجل زائف •

هكذا ختم بطلنا كلامه وقد لاحت في وجهه رفعة ونبالة ووقار •

ـ مصير ! قدر ! ياكوف بتروفتش ••• دعنا من هذا كله الآن • ولنستعمل هذه اللحظات القصار التي تهيأت لنا في حديث أمتع وأفيـد • ذلك أليق بزميلين ••• ثم انك لم تتح لي أن أقول كلمتين طـوال هذه المحادثة •• وليس الذنب في هذا ذنبي يا ياكوف بتروفتش •

فقاطعه بطلنا يقول بحماسة :

ـ ولا هو ذنبي ، ولا هو ذنبي ••• أشهد على ذلك قلبي يا ياكوف بتروفتش ••• قلبي يؤكد لي أنني غير مسئول عن هذه القضية كلها •

ثم أضاف يقول بلهجة المصالحة :

ـ فلنحمل القدر تبعة ذلك كله •

وكان صوته ما ينفك يزداد ضعفا •

قال المنافق بصوت رقيق عذب :

ـ ماذا بك ؟ وكيف حالك عامةً في هذه الأيام ؟

قال السيد جوليادكين بصوت أرق وأعذب أيضا :

ـ أعاني من سعال قليل •

ـ يجب أن تحاذر• هذا أوان الأمراض المعدية • ماأسرع مايصاب المرء بالتهاب في الحلق في هــذه الأيام ! أنا من جهتي لا أكتمك أنني ألبس قميصا داخليا من صوف •

ـ أنت على صواب يا ياكوف بتروفتش • ما أسرع ما يصاب المـرء بالتهاب في الحلق !

وأضاف بطلنا بعد صمت قصير :

ـ ياكوف بتروفتش ، انني أدرك الآن أخطائي ••• وأتذكر بكثير من الحنان تلك اللحظات الجميلة التي سعدت بقضائها معك في مسكني الذي أصفه بأنه متواضع ولكنني أتجرأ فأصفه أيضا بأنه مضياف •

فأجابه مخاطبا بلهجة فيها شيء من العتب ، المسوَّغ على كل حال :

ـ ليس هذا ما عبرت عنه في رسالتك •

(والواقع أن السيد جوليادكين الأصغر كان في هذه اللحظة ، في هذه اللحظة فقط ، صادقا كل الصدق منصفا كل الانصاف) •

ـ كنت مخطئا يا ياكوف بتروفتش ••• اننى أرى اليوم بوضوح أننى كنت مخطئا حين كتبت لك تلك الرسالة اللعينة • اننى أستحى أن أنظر اليك الآن يا ياكوف بتروفتش •• أقسم لك •• اسمع •• أعد الى تلك الرسالة •• سوف أمزقها أمامك يا ياكوف بتروفتش •• اقرأها معكوسة ، معكوسة تماما ، أقصد حملها معانى صداقة ومودة ، افهم كل كلمة من كلماتها على غير معناها ، افهم كل كلمة من كلماتها بضد معناها• لقد أخطأت خطأ كاملا ، خطأ قاسيا يا ياكوف بتروفتش •

قال الصاحب المرائى وقد لاح فى وجهه ذهول وعدم اكتراث :

ـ ماذا تقول ؟

ـ أقول اننى قد أخطأت خطأ كاملا يا ياكوف بتروفتش ، واننى مستعد ، بغير حياء زائف أو خجل كاذب ، لأن •••

ـ آ •• نعم •• صحيح •• لقد أخطأت أنت •• صحيح جدا •

كذلك قال جوليادكين الأصغر بلهجة خشنة •

قال بطلنا بوقار وصدق دون أن يدرك الازدواج الرهيب فى سلوك صاحبه الوقح :

ـ حتى لقد خطرت ببالى فكرة يا ياكوف بتروفتش •• نعم خطرت ببالى الفكرة التالية : « لقد خلق الله انسانين متماثلين تماثلا مطلقا •• » •

ـ آ •• أهذه هى الفكرة ؟

قال الشخص الحقير ذلك ثم نهض متناولا قبعته • ونهض السيد جوليادكين أيضا • انه لم يدرك المناورات الوقحة التى يقوم بها عدوه • كان يبتسم فى نبل ومودة • كان البرىء يحاول أن يلاطف عدوه ، أن يواسيه ، أن يعقد بينه وبينه صلات صداقة جديدة •••

صاح الدجال فجأة يقول :

ـ وداعا يا صاحب السعادة •

ارتجف بطلنا حين راى فى وجه عدوه ذلت التعبير المسعور الساخر، المعربد •

ومن أجل ان يتخلص السيد جوليادكين من هـــذا الشعور وضع اصبعين فى اليد التى مدها اليه الشخص الكريه • وفى هذه اللحظة •• فى هذه اللحظة تجاوزت وقاحة السيد جوليادكين الاصغر كل الحدود . فها هو ذا يقبض على الاصبعين ، ويضغطهما ، ثم ما يلبث أن يكرر مزاحة الصباح امام بطلنا مرة أخرى بسرعة • هنا نفدت مدخرات جميع الصبر الانسانى •

أعاد جوليادكين الأصغر الى جيبه المنديل الذى مســح به يديه ، وخرج •• واسترد السيد جوليادكين أخيرا صـــوابه ، فاسرع يلحق بعدوه • ولكن عدوه كان قد انسل على عادته ، فأصبح فى الحجرة الأولى• انه الآن واقف قرب البســطة ، مرتاحا ، يلتهم بعض الفطـائر فى غـير اضطراب ، ويتحدث مع الالمانية بائعة الفطائر بلطف وأدب •

قال بطلنا لنفسه : « لا داعى الى فضيحة أمام سيدة •• » • واقترب هو أيضا من البسطة منفعلا أشد الانفعال •

قال جوليادكين الاصغر :

ـ حقا ان هذه المرأة اللطيفة لا بأس بها •• ما رأيك ؟

وعاد يكرر مزاحاته البذيئة معتمدا على صبر بطلنا •

كانت الألمانية السمينة تنظر الى زبونها بعينين شهباوين لاتعبران عن

شيء ، مع ابتسامة تودد وتلطف • و ذان واضحا انها لا تفهم الروسية • نفد صبر بطلنا ، واصبح من فرط اســتيائه من كلمات الدجال الوقحة لا يستطيع كبح جماح نفسه ، فاسرع نحو صاحبه ملتهب الوجه حنقا ، يريد أن يمزقه اربا وأن يجهز عليه مرة واحدة • ولكن الشخص الجبان كان قد ابتعد على عادته في الكيد والحيلة • لقد وثب فجاة فاصبح الان على درجات المدخل • ذهل السيد جوليادكين ولكنه لم يلبث أن أفاق من ذهول اللحظة الأولى ، فهرع يجرى وراء الشخص الذى أهانه جـريا سريعا • ولكن خصمه لم يلبث أن ركب عربة كانت واقفة في الشارع • لا شك أن حوذى العربة كان متواطئا مع الرجل المخادع الدجال •

وفي هذه اللحظة نفسها اطلقت الالمانية البدينة ، وقد رات زبونيها يهربان ، أطلقت صرخة حادة وهزت جرس الباب بكل ما اوتيت من قوة فالتفت السيد جوليادكين الى خلف وهو يركض ، فرمى اليها مالا ثمن ما شرب هو وصاحبه ، وتابع ركضه نحو العربة دون أن ينتظر أن ترد اليه البقية ؟ واستطاع رغم تاخره أثناء ذلك أن يدرك خصمه من جديد ، وقد تحركت العربة •

تشبث السيد جوليادكين بجناح العربة بكل قواه ، وظل يجـرى معها على هذه الصورة محاولا أن يتسلق الى داخلها ، حيث كان عـدوه يجهد أن يصده بكل ما أوتى من قوة أيضا • وفي أثناء ذلك كان الحوذى يستحث فرسه الضعيفة الهزيلة بضربات من سوطه والزمام والقـــدم ، وكذلك بشتائم وسباب ؟ فاذا بالفرس الضعيفة الهزيلة تأخذ تعدو عـدوا سريعا على غير توقع ، عاضة زمامها رافسة بقائمتيها • واستطاع بطلنـا أخيرا أن يصعد الى العربة ، فأصبح أمام عدوه وجها لوجه ، مديرا ظهره لمقعد الحوذى • تداخلت ركب الرجلين ، وأمسك السـيد جوليـادكين

بيده اليمنى ياقة الفراء المهترىء من المعطف الذى كان يرتديه خصمه العانى الدنى ..

العربة تعدو بسرعة شديدة . والخصمان المتماسكان صامتان لا يتكلمان . الشارع محفر فالمركبة تهتز، ويوشك بطلنا أن ينكسر ظهره فى كل لحظة . وعدوه ، من جهته ، لا يعترف بأنه غلب ، فهو يستميت فى سبيل أن يدحرج السيد جوليادكين الى الوحل . ومن تمام المصيبة ان الجو كان رهيبا . فالثلج يتساقط أسناخا كبيرة ، ويتسرب الى داخل معطف صاحبنا . ولم يكن فى وسع المرء أن يرى شيئاً من شدة كثافة الثلج والضباب . كان يستحيل على المرء أن يعرف الشارع الذى تجرى فيه العربة سريعة سرعة شديدة . وفجأة شعر السيد جوليادكين بذلك الشعور الذى يحس صاحبه أنه « سبق له أن رأى ما يراه الآن » ... فظل بضع لحظات يحاول أن يتذكر .

ترى ألم يوجس هذا كله فى الليلة البارحة ، فى الحلم مثلا ؟ ... وأخذ قلقه يزداد شدة بغير انقطاع . هو الآن فى ذروة القلق . انه يحتضر . أراد أن يصرخ وهو متشبث بعدوه الذى لا يرحم ... ولكن صرخته فنيت على شفتيه ... ثم جاءت لحظة نسيان كامل . شعر السيد جوليادكين شعورا غامضا بأن كل ما يقع له أمر لا سبيل الى فهمه ... أمر لا فائدة منه .. أمر لا طائل تحته .. أمر لا شأن له به .. باطل وسخف أن يحتج .. وفى هذه اللحظة ، حدثت رجة شقية فغيرت وجه الأشياء .. سقط بطلنا كسقوط كيس طحين ، وتدحرج فى الوحل وهو يردد لنفسه أن كل شىء باطل ، وأنه أخطأ حين تحمس .

فلما نهض أبصر أن العربة كانت تقف فى فناء منزل من المنازل .

وأدرك من أول نظرة أنهم الآن فى فناء المنزل الذى يسكنه أولسوفى

ايفانوفتش • فتملكه اضطراب لا يوصف ، وهمّ أن يلاحق عدوه الدجال ولكنه توقف في الوقت المناسب لحسن الحظ • ودفع للحوذى أجره ، وخرج الى الشارع ، وأطلق ساقيه للريح يجـــرى قدما ولا يلوى على شيء • الثلج ما يزال يتساقط أسناخا كثيفة • والجو مظلم رطب يملؤه الضباب • ان السيد جوليادكين يطير طيرانا ، فيصـــدم المارة ، ويقلب الفلاحين والنساء والأطفال ، ويتلقى بدوره صدمات تلو صدمات ••• ومن حوله ، ووراءه ، ترتفع صرخات ، وتعلو صيحات ذعر ، ويقوم عياط وشياط ••• ولكن السيد جوليادكين لا يريد أن يرى شيئا ، ولا يريد أن يفهم شيئاً •• فلما صار قريبا من جسر سيميونوفسكى استرد صوابه وثاب الى رشده بعد أن صدم بائعتين وما تعرضان ، فقلبهما على الأرض ، وانقلب معهما في الوقت ذاته • قال لنفسه : « ما هذا بشيء ••• كل أمر يمكن أن يسوى على أحسن نحو • » • ودس يده في جيبـه باحثا عن روبل يعوض به للبائعتين ما فقدتاه من فطائر وتفاح وجوز وغير ذلك من بضائع انسفحت على الارض • غير أن نورا جديدا ظهر في دماغه عندئذ على حين فجأة • لقد مست يده الرســـالة المغلفة التى حملها اليه كاتب المحكمة في ذلك اليوم •

وسرعان ما تذكر السيد جوليادكين أن هناك ، غير بعيد عن المكان الذى هو فيه ، مطعما حقيرا يعرفه حق المعرفة • فأسرع يمضى الى المطعم ثم أسرع يجلس الى احدى موائده التى تضيئها شمعة ملطخة ، دون أن يضيع من وقته لحظة واحدة •

كان لا يشعر بما حوله ، حتى أنه لم ينتبه الى الخادم الذى جاء يسأله عن طلبه ؛ فض غلاف الرسالة بسرعة ، وأخذ يقرأ مشدوه الفكر مذهول اللب أعمق الذهول :

« أيها الانسان النبيل ، العزيز على قلبي الى الأبد ،

« أنت يا من تتألم في سبيلي !

« انني اتالم ، انني اتعذب ، انني اموت عذابا ، فانقذني •• انرجلا محتالا ، رجلا تماما ، رجلا معروفا بغروره وتفاهته قد أحاطني بشباكه • نصب لى فخا ، فوقعت في الفخ • لقد ضعت • ولكنني أكرهه وأمقته •• أما أنت •• لقد باعدوا بيننا •• وحجزوا الرسائل التي كنت أكتبها اليك • وذلك كله من صنع الانسان الدنىء الذي استغل ميزته الوحيدة ، وهى أنه يشبهك •

« أنا أعلم على كل حال أن في وسع انســـان غير جميـل ان يفتن بسمو فكره وكرم عواطفه ورفعة أخلاقه وآدابه •

« لقد سقطت •• انهم يزوجونني رغم ارادتي •• وان أبي ، نعم ، أبي ، مستشار الدولة ، أولسوفي ايفانوفتش ، هو الذي يقود الامر كله • أهي الرغبة في أن يستفيد من مكانتي في المجتمع ، ومن علاقاتي بعليـة القوم ؟ » •

« ولكنني قد عزمت أمرى ، وسأحتج بكل ما أوتيت من قوة معتمدة على جميع الوسـائل الممكنة • انتظرني هــذا المساء ، ابتداء من الساعة التاسعة في فناء المنزل ، تحت نوافذ مسكننا تماما • سيقام احتفال راقص عندنا • وسيأتي ضابط ملازم جميـل • سأنسل من الاحتفـال ، وأجيء اليك ، فنهرب معا • ان في بلادنا وظائف كافية ينفع المرء فيها وطنه • وفوق هذا كله يجب أن تتذكر يا صديقي أن البراءة تستمد قوتها من ذاتها • الى اللقاء • انتظرني في الفناء هذا المساء مع عربة • سآتي أحتمي بذراعيك في الساعة الثانية تماما •

« وسأظل لك حتى الممات •

كلارا اولسوفيفنا

بعد أن قرأ بطلنا هذه الرسالة ظل برهة طويلة مشدوه العقل ذاهلا عن نفسه • ثم أخذ يذرع الحجرة جيئة وذهابا مضطرب النفس قلقا ممتقع اللون ، ممسكا الرسالة بيده •

ومن تمام سوء الحظ انه لم يلاحظ ان الانظار جميعها اصبحت متجهة اليه • كانت ملابسه فوضى ، وكان انفعاله ظاهرا ؛ وكان كل ما يراه الناس فيه ، من مشيته في القاعة او قل ركضه في ارجائها ، الى حركات يديه ، الى الكلمات الغريبة القليلة التي كانت تفلت من شفتيه على غير شعور ، كل ذلك كان لا يهيىء الناس لان ينظروا اليه نظرة حسنة • حتى الخادم كان يتامله مرتابا محاذرا •• فلما ثاب الى رشده ، لاحظ أنه كان في وسط القاعة ، وأنه كان يحدق في رجل عجوز قصير وقور المظهر تحديقا غير لائق ، أو تحديقا لا محل له في أقل تقدير • كان الشيخ القصير قد فرغ من تناول غدائه ، وانحنى أمام الأيقونة ، فهو الآن جالس على كرسيه لا يحول بصره عن السيد جوليادكين • أجال السيد جوليادكين عينيه في أرجاء القاعة حائرا قلقا • فرأى عندئذ أن جميع الأعين كانت مصوبة اليه ، وهي أعين تفيض احتقارا وعداوة • وهذا ضابط متقاعد يرتدي بزة ذات ياقة حمراء ، يأخذ يصيح طالبا أن يؤتى بجريدة « رسول الشرطة » •

ارتعش السيد جوليادكين • واحمر وجهه احمرارا شديدا • وخفض عينيه بحركة آلية ملاحظا أن مظهره غير لائق ولا محتشم • ما كان لرجل محترم أن يرتضي لنفسه أن يرتدي هذه الملابس في بيته

فكيف بين الناس ! كان حذاءاه وسرواله وكل الجانب الأيسر من ردنجوته ، كان ذلك كله ملطخا بالوحل • وكانت الثنية اليمنى من سرواله منزوعة • وكان الردنجوت ممزقا فى مواضع عدة • فما ان رأى السيد جوليادكين ذلك كله حتى تملكه خوف كاو ، فأسرع يجلس الى المائدة التى كان جالسا اليها حين قراءة الرسالة • فلم يلبث أن رأى الخادم مقبلا عليه • كان فى وجه الخادم وقاحة وشراسة • فاضطرب بطلنا وتحير وتفرس فى المائدة ، فرأى عليها أطباقا وسخة ، ومنشفة ملطخة ، وسكينا وشوكة وملعقة •

تساءل بطلنا : « من ذا أكل هنا ؟ أنا ؟ أهذا ممكن ؟ آه ••• كل شىء ممكن • لقد تغديت دون أن أشعر • فما الذى يجب أن أفعله الآن ؟ » • ورفع عينيه ، فرأى الخادم واقفا أمامه يهم أن يتكلم •

ـ كم الحساب يا صاحبى ؟

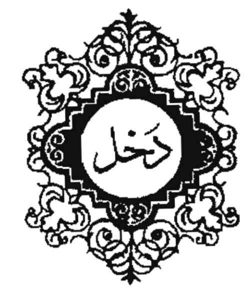
كذلك سأل بطلنا الخادم • فسمع من حوله قهقهات صاخبة • حتى لقد سمح الخادم لنفسه أن يبتسم • ففهم السيد جوليادكين على الفور أنه ارتكب غلطة فاحشة ، أنه قارف خطيئة كبيرة • فاضطرب أشد الاضطراب ودس يده فى جيبه باحثا عن منديل • كان فى حاجة الى أن يفعل شيئا ما، الى أن يقوم بحركة ما ، رجاء أن يغطى اضطرابه • ولكن ما كان أشد دهشته وما كان أشد دهشة الحضور أيضا حين لم يخرج من جيبه منديل وانما خرجت زجاجة فيها الدواء الذى وصفه له كريستيان ايفانوفتش منذ بضعة أيام • وهذه فكرة تلمع فى رأسه « جميع الأدوية فى صيدلية واحدة » ؟ وارتعش وهو لا يكاد يستطيع أن يكظم صيحة ذعر • لقد أضاء فكره فجأة • ان السائل الذى تضمه الزجاجة كثيب اللون قاتم الحمرة ، تلألأ حزينا أمام بطلنا • وفجأة أفلتت الزجاجة من يديه وتحطمت •

أطلق السيد جوليادكين صرخة ، ووثب وثبة الى وراء • ان أعضاءه كلهـا ترتجف • وان العرق يتقاطر على جبينه وصدغيه • « لا شك أن حياتى فى خطر » • كذلك قال لنفسه • وكان يسود الغرفة صـــخب شديد وصياح قوى • أحاط الناس بالسيد جوليادكين • كلموه • أمسكوا بذراعيه ، بكتفيه • ظل هو ساكنا صامتا ، لا يرى شيئا ولا يسمع شيئا ولا يحس بشىء •• وأخيرا انتزع نفسه من مكانه ، وأسرع يخرج من المطعم • أرادوا أن يستبقوه • ولكنه أبى ومضى فى طريقه يصـدم كل ما يلقاه أمامه • فلما صار فى الشارع ارتمى فى عربة من العربات خائر القوى على غير وعى ، وأمر الحوذى أن يقوده الى بيته • وفى الدهليز صادف ميخايف ، خفير الادارة ، حاملا اليه رسالة عمل ••• تمتم بطلنا يقول له مصعوقا ، بصوت كامد شاك : «أعرف مضمون الرسالة ياصاحبى ••• أعرف كل شىء •• هى تبليغ رسمى » • قال ذلك وتناول الرسالة وأعطى الخفير عشرة كوبكات • وكانت الرسالة تتضمن مذكرة رســمية فعلا • انها مذيلة بتوقيع آندره فيليوفتش ، وهى تأمر السيد جوليادكين أن يسلم ايفان سيميونوفتش جميع الملفات والاوراق التى فى عهدته •

فلما دخل السيد جوليادكين بيته رأى بتروشكا منهمكا فى تكديس ملابسه وخرقه وأسماله • ما من شك البتة • ان بتروشكا يستعد لترك مولاه ويتهيأ لمغادرة البيت •

لا شك فى أن كارولين ايفانوفنا قد أغرته ، وأنه ذاهب اليهـا يحل محل أوستاش •

الفصل الثاني عشر



بتروشكا مترنحا . كان غير عابىء ، وكان فى وجهه تعبير غريب عن مرح وفرح ، وعن شعور فظ غليظ بالانتصار .

واضح أنه كان قد وضع خطته . انه يتصرف الآن تصرف انسان حر طليق ، غريب كل الغرابة عن المكان الذى هو فيه ! أو قل انه يتصرف تصرف خادم لواحد من الناس ليس هو جوليادكين حتما .

قال بطلنا لاهثا :

ـ هأنذا يا عزيزى ! كم الساعة الآن يا صديقى ؟

ذهب بتروشكا الى ما وراء الحاجز دون أن يجيب ، ثم عاد يقول هادئا بلهجة طليقة :

ـ قريبة من السابعة والنصف .

ـ آ ... طيب ... جيد جدا يا صديقى الشهم . اذن اسمح لى أن أقول لك يا صديقى .. أخيرا .. أظن أن كل شيء قد انتهى بيننا الآن .

لم يجب بتروشكا بكلمة واحدة .

ـ طيب .. أما وقد انتهى بيننا كل شيء ، فقل لى بصراحة ، قول صديق لصديق ، أين كنت يا عزيزى الطيب ؟

ـ أين كنت ؟ عند أناس طيبين .

ـ أعرف يا صديقى أعرف . لقد كنت راضيا دائما عن خدماتك يا عزيزى ، وسأعطيك شهادة بذلك ... اذن ستعمل بعد اليوم عندهم ؟

ـ والله يا سيدى .. أنت نفسك تعرف : ما من انسان شريف يفعل فعلا سيئا .. هذا معروف .

ـ نعم ، أعرف يا صديقى الشهم أعرف . الشرفاء قلة فى هذا الزمان . ويجب علينا أن نقدرهم حق قدرهم يا صديقى . كيف الحال هناك الآن ؟

ـ كما كانت دائما .. أما أنا يا سيدى فلا أستطيع أن أبقى فى خدمتك بعد اليوم . وأنت تعرف ذلك جيدا على كل حال .

ـ أعرف يا عزيزى أعرف . أنا أعرف همتك ونشاطك وحماستك فى العمل . لقد لاحظت فيك هذه المزايا دائما ، وقدرتها حق قدرها دائما يا صديقى . اننى أقدرك كثيرا يا صديقى . لقد قدرت دائما الناس الطيبين الشرفاء ، ولو كانوا خدما .

ـ والله هذا شيء معروف . أنت تعلم أن شبانا مثلنا ليس لهم نظير..

هكذا • أما أنا يا سيدى فأجد أن من الصعب أن أعيش بدون أناس شرفاء • هذا أكيد •

ـ حسن جدا يا صديقى الشهم ، حسن جدا • أنا متفق معك فى الرأى •• طيب •• اليك أجرك وشهادتك •• والآن فلنتعانق ياصديقى الشهم ولنفترق •• ولكننى سأطلب منك خدمة صغيرة أخرى ، خدمة صغيرة أخيرة ، يا عزيزى (قال السيد جولياد كين ذلك بلهجة وقورة)• ان كل شىء يمكن أن يقع فى هذه الحياة يا عزيزى • الشقاء موجود فى كل مكان يا صديقى الطيب ، حتى فى المساكن المذهبة • ما من أحد يستطيع أن يفلت منه • يخيل الىّ ياعزيزى أننى كنت دائما لطيفاً معك ، أليس كذلك ؟

ظل بتروشكا صامتا لا يجيب •

ردد جولياد كين يقول :

ـ لقد كنت لطيفا معك دائما ياعزيزى •• قل لى بالمناسبة ياعزيزى: كم بقى لى من ملابس ؟

ـ ملابسك كلها موجودة : ستة قمصان ، ثلاثة أزواج أجربة ، أربع صدرات ، صديرة من صوف ، وهناك أيضا سروالان داخليان • أنت تعرف هذا كله على كل حال • أما أنا يا سيدى ، فلا آخذ منك شيئا البتة فى يوم من الأيام •• اننى أحافظ على كل ما يخصك •• وبالنسبة اليك يا سيدى •• على كل حال •• من المؤكد •• لست ألوم نفسى على شىء يا سيدى ، لست ألوم نفسى على أى شىء •• أنت تعرف ذلك يا سيدى •

ـ أنا أصدقك يا صديقى ، أصدقك •• ما عن هذا أردت أن أتكلم •• اسمع يا صديقى ••

ـ هذا معروف يا سيدى •• جميع الناس يعـرفونه •• حين كنت في خدمة الجنرال ستوليبيناكوف •• كان يمنحنى اجازة كلما ذهب الى ساراتوف التى يملك فيها أطيانا •

ـ لا يا صديقى •• ما عن هذا أريد أن أكلمك •• أنا لا الومك على شىء •• لا تعبىء رأسك هكذا يا صديقى العزيز •

ـ هذا معروف تماما : ان اناسا من طبقتنا يسهل اتهامهم •• انت تعرف ذلك بنفسك يا سيدى •• أما انا فقد ارضيت دائما أسيادى ، وزراء كانوا او جنرالات او اعضاء فى مجلس الشيوخ أو كونتات •• لقد خدمت فى كل مكان : خدمت فى منزل الامير سفنتشاتكين ، وفى منزل الكولونيل بيربوركين ، وفى منزل الجنرال نيدوباروف ، وكان ياخذنى معه الى أملاكه •• هكذا ••

ـ صحيح يا صديقى •• هذا حسن جدا ، حسن جدا • والآن فقد جاء دورى أنا للسفر •• لكل انسان طريقه يا عزيزى ، وما من أحد يعرف الطريق التى رسمها له القدر • طيب •• ساعدنى الآن فى ارتداء ثيابى يا صديقى •• ضع بزتى الرسمية مع باقى الأشياء •• وكذلك السراويل ، والمفارش ، والأغطية ، والمخدات •

ـ هل يجب أن أجعل هذا كله فى رزمة ؟

ـ نعم يا صديقى ، هذا ما يجب أن تفعله •• تحزم جميع الأشياء فى رزمة • من ذا الذى يعلم ما يخبىء لنا المستقبل ؟ والآن يا صديقى ، انزل فاستدع لى عربة •

ـ عربة ؟

ـ نعم يا صديقى عربة • استأجرها لوقت طويل ، واحرص على أن

تكون العربة واسعة • ولكن اياك أن تذهب بك الظنون يا صـديقى الى تصور أشياء •••

ـ هل تسافر الى بعيد ؟

ـ لا أعرف يا صديقى •• حقا لا أعرف •• ومن المستحسن أن تضع فى العـــربة لحافا • ما رأيك يا صـديقى ؟ اننى أعتمـــد عليك يا عزيزى •••

ـ أأنت مسافر فورا ؟

ـ نعم يا صديقى نعم ••

ـ أفهمك يا سيدى • فى الكتيبة التى كنت فيها حدثت هذه المغامرة نفسها لملازم أول • خطف ابنة أحد كبار الملاكين •

ـ خطف ؟ ماذا تقول ؟ ولكن يا عزيزى •••

ـ نعم ، خطفها وتزوجا فى أبرشية مجاورة • أعد كل شىء سلفاه ولقد لاحقوهما ولكن الأمير ، نعم الامير المتوفى ، قد تدخل وسوّى كل شىء •

ـ اذن تزوجا •• ولكن كيف علمت يا صديقى الشهم بما عقـدت عليه النية ؟

ـ الأمر معروف • الاشاعات تسرى سريعة على هذه الارض • نحن على علم بكل شىء ، نعم بكل شىء •• طبعا ، ما من انســان معصـوم من الزلل ، مبرأ من الخطايا •• ولكن يجب أن أقـول لك يا سـيدى ••• اسمح لى أن أقول لك ، لأننى خادم طيب •• ما دامت الأمور قد وصلت الى هذه المرحلة الآن ، فيجب أن أقول لك يا سيدى ان لك عدوا ، ان

لك منافسا ، نعم يا سـيدى ، ان لك منافسا خطـرا يا سـيدى •• نعم يا سيدى •

ـ أعلم ذلك يا صديقى ، أعلم • أنت نفسك تعلم يا صديقى ••• طيب •• على كل حال أنا أعتمد عليك • ماذا نفعل الآن يا صـــديقى ؟ بماذا تنصحنى ؟

ـ والله يا سـيدى ، أما وقد اخترت هذا الحـل فيجب عليـك أن تشترى أشياء كثيرة •• مفارش ، مخدات ، لحافا آخر لشخصين ، غطاء جيدا •• وهذه الأشياء كلها تستطيع أن تجدها عند الجارة •• هناك ••• تحت •• وعندها أيضا فراء ثعلب جيد • فى وسعك أن تراه وأن تشتريه فورا • ليس عليك الا أن تنزل اليها •• هو معطف جميل مغطى بالساتان وله فروة ثعلب •

ـ طيب طيب يا صديقى ، أنا موافق، وأنا أعتمد عليك اعتمادا كاملا يا صديقى • وأنا موافق أيضا على شراء الفروة يا عزيزى • ولكن أسرع أرجوك ، أسرع ، أسرع؛ أنا مستعد لشراء المعطف، ولكن أسرع أرجوك •• لقد اقتربت الساعة من الثامنة • يجب أن نسرع يا صديقى أرجوك يا صديقى ، أسرع •

ترك بتروشكا كدسة المـلابس والأغطية والمخدات وغير ذلك من الأثواب التى كان بسبيل جمعها وهرع يخرج من الغرفة •

وأخرج السيد جوليادكين الرسالة مرة أخرى ، ولكنه لم يستطع أن يقرأ •

فأمسك رأسه المسكين بين يديه وأسند ظهره الى الحائط شارد اللب• انه لا يستطيع لا أن يفكر ولا أن يقوم بأية حركة • كان لا يدرى هـو

نفسه ماذا يحدث فى نفسه ... فلما لاحظ أخيرا أن الدقائق تجرى ، وأن بتروشكا والمعطف لم يحضرا ، قرر أن ينزل ، ففتح باب المدخل ، فسمع ضجة .. انها أصوات كلام ومناقشة وصياح تحت .. هن الجارات يثرثرن ويعولن ويشتجرن . ان السيد جوليادكين يعرف حق المعرفة بصدد أى شيء كن يختصمن . وسمع أيضا صوت بتروشكا ، ثم سمع وقع خطوات تصعد السلم .

« آه .. يا رب ... يا رب ... لسوف يصعدون الى هنا بالعالم كله .» كذلك تنهد بطلنا يقول وهو يعض يديه حزنا وكمدا ، ثم أسرع عائدا الى غرفته وارتمى على الديوان دامسا رأسه فى المخدة .

أصبح لا يعرف ماذا يفعل . وظل على هذه الحال دقيقة كاملة ، ثم نهض بوثبة واحدة دون أن ينتظر بتروشكا ، فدس قدميه فى جرموقيه وارتدى معطفه ووضع قبعته على رأسه ، وتناول محفظته واندفع يهبط السلم ، فلما صادف بتروشكا على السلم تمتم يقول له : « لست فى حاجة الى شيء يا عزيزى . سأفعل كل شيء بنفسى . لست فى حاجة اليك الآن . مايزال يمكن أن يسوى كل شيء على خير وجه ... » . ووصل الى فناء المنزل ، وأسرع الى الشارع . كان قلبه يوشك أن يتوقف عن الخفقان .. وهو ما يزال مترددا : ما عساه يصنع ؟ ما الذى يجب عليه أن يقرره ؟ على أى شيء يجب أن يعقد عزمه فى هذه اللحظة الحاسمة ؟ وصاح أخيرا يقول وقد استبد به الكمد واليأس : « ماذا يجب أن أفعل ؟ لكأنه لم يكن فى الامكان الاستغناء عن هذا كله ! .. »

كان ما يزال يجرى قدما بخطى قصيرة لا يلوى على شيء . وتابع يخاطب نفسه : « نعم .. ما كان أغنانى عن هذا كله ! لولا هذه القصة ، نعم لولا هذه القصة لكان يمكن أن يسوى كل شيء ... كان يمكن أن

يسوى كل شيء دفعة واحدة ، كان يمكن أن يسوى كل شيء بضربة قوية محكمة واحدة .. قطعت يدى اذا لم يمكن ان يسوى عندئذ كل شيء ، وانا اعرف حق المعرفة كيف كان يمكن ان يسوى عندئذ كل شيء . كنت سانفرد بهذا الرجل فاقول له : « اسمح لى أن أصرح لك ياسيدى.. أن المرء ، على وجه العموم ، نعم على وجه العموم ، لايتصرف هكذا .. نعم يا سيدى نعم .. ما من أحد يتصرف هذا التصرف . الاغتصاب لا ينجح هنا .. وأنت امرؤ محتال دجال يا سيدى ، أنت رجل لا قيمة له ولا فائدة منه للوطن . نعم ، هل فهمت هذا الكلام ؟ وكان فى وسعى أن أضيف الى ذلك ... ولكن فيم أضيف الى ذلك شيئا ..ذلك كل شيء . ماذا أقول ؟ يا لى من أبله ! يا لى من أبله ؟ أأكون اذن قاتل نفسى ؟ لا لا .. بلى بلى .. انت امرؤ مستهتر .. ما العمل الان ؟ ما عساى أصبح ؟ لأى شيء أصلح ؟ نعم ، لأى شيء تصلح يا جوليادكين؟ ياجوليادكين الدنيء ! والآن ؟ يجب استئجار عربة . لقد طلبت منى عربة . اذن لا بد أن تكون العربة مهيأة . فاذا لم يكن هنالك عربة تبللت أقدامنا الصغيرة ؟ من ذا الذى كان يمكن ان يتصور هذا ؟ آه ... يا آنسة .. يا آنسة .. ان سلوكك مشين .. ان سلوكك معيب .. ما هذا كله الا ثمرة تربية سيئة .. نعم لقد فهمت كل شيء منذ رأيت ما يجرى .. لا شك فى أن هذا كله نتيجة مباشرة لتربية غير أخلاقية.. كان ينبغى أن تستعمل معها الشدة والقسوة منذ طفولتها .. وكان لابد لها من سوط تجلد به من حين الى حين .. ولكنهم بدلا من ذلك كانوا يحشون فمها بأنواع المربيات والحلوى ! .. وهذا العجوز الذى لا ينفك يتباكى أمامها ويقول لها : آه يا حبيبتى الغالية .. انك فى غاية اللطف والظرف ، انك فى غاية الحسن والجمال .. يمينا لأزوجنك بكونت ...» وها هى ذى الآنسة تخرج من الظل وتلقى بأوراقها قائلة : اليكم لعبتى

ايها السادة ، فاعجبوا بى ما شاء لكم آن تعجبوا .. انهم بدلا من أن يلزموها البيت وضعوها فى مدرسة داخليه لدى امرأة فرنسية ، مهاجرة، امرأة لا يعرف لها أصل يقال لها مدام فالبالا .. فلا غرابة اذا هى لم تسر فى الطريق القويم ! انحنوا لها أيها الناس ! وما هى النتيجة ؟ هى ما ترون : « انتظرنى فى عربة ، فى الساعة كذا ، تحت نوافذ بيتنا ، وآنا أعتمد عليك لتغنى لى أغنية عاطفية اسبانية ... اننى أنتظرك . أنا أعرف انك تحبنى . سوف نمضى معا . سوف نعيش فى كوخ ... »

« ولكن هذا مستحيل .. نعم يا سيدتى ، هذا مستحيل استحالة مطلقة .. هذا شيء تمنعه القوانين .. ليس من حق انسان أن يختطف فتاة عفة طاهرة من بيت أبيها دون موافقة أهلها. وفيم هذا على كل حال؟ فيم هذا ؟ ما كان عليك الا أن تتزوجى الرجل الذى هيأه لك القدر وكفى ! أنا ... ماذا أنا ؟ أنا موظف .. وأنا مهدد بفقد وظيفتى بسبب ذلك كله . نعم يا آنسة .. اننى أعرض نفسى للمثول أمام المحاكم بسببك . فاعلمى هذا يا آنسة .. ان الألمانية هى التى تدبر هذه المكائد .. كل المصائب مصدرها هذه الألمانية الشمطاء .. انها هى التى تضع النار فى البارود . يشون بانسان ، ويسلطون عليه أقاويل ثرثارة نمامة بايعاز من آندره فيليبوفتش ، وتنجح المكيدة . لولا أن الألمانية وراء هذا كله ، أكان يتدخل بتروشكا فى هذه القضية ؟ ما شأنه فى هذا الأمر ؟ ما علاقته بهذه المسألة ، هذا الوغد الحقير ؟! .. لا يا آنسة ، لا أستطيع أن أفعل فى سبيلك شيئا ، لا أستطيع قطعا ! .. معذرة هذه المرة يا آنسة .. أرجو أن تسامحينى .. والحق أنك أنت سبب البلاء كله ، يا آنسة، لا الألمانية ! أنت سبب البلاء رأسا . الألمانية الساحرة امرأة طيبة ، الألمانية الساحرة بريئة من الذنب آنسة .. هذه هى الحقيقة . أنت وضعتنى فى أسوأ ورطة آنسة .. رجل أصبح من ضياعه قاب قوسين .. انه يهوى

الى العدم .. ولا يملك أن ينقذ نفسه .. ثم تجيئن أنت تحدثينه عن زواج . كيف يمكن أن ينتهي هذا كله ؟ كيف يمكن ان يسوى هذا كله ؟ ليتني أعلم ذلك ... » .

وفيما كان جولياد كين يستطرد على هذه الصورة وقد استبد به الحزن والكمد ، عاد فجأة الى الواقع ، فلاحظ أنه قد أصبح في شارع ليتانيايا . كان الجو رهيبا : مطر وثلج وجليد يذوب . كل شيء يشبه تماما تلك الليلة التي لا تنسى ، تلك الليلة التي بدأت فيها جميع مصائب بطلنا في الظلام . وراح السيد جولياد كين يجتر خواطره : « الزواج ؟ ألا انها نهاية العالم .. أين عساي واجدا عربة ؟ ها .. هاهي ذي عربة ... هناك عند الناحية فيما أظن .. فلأذهب الى هناك لأرى عن كثب . آه .. يارب يارب ! .. » .

اتجه السيد جولياد كين بخطاه المترنحة صوب ناصية الشارع ، حيث حسب أنه أبصر عربة . قال لنفسه : « لا لا .. هذا ما يجب أن أفعله : سأذهب الى هناك ، فأخر ساجدا عند قدميه ، قائلا له : أنظر الى حالتي .. انني أضع مصيري بين يديك ، بين يدى رؤسائي .. أتوسل اليك يا صاحب السعادة ، أناشدك الله أن تدافع عني ، أن تحميني . هذه هي المسألة .. فعل يحرمه القانون .. لا تتركني .. لا ترهقني .. انني ألجأ اليك كما يلجأ ابن الى أبيه .. أنقذ كرامة انسان شقي ، وشرفه وسمعته . انقذني من هذا الرجل العاتي المنحط الذي لا خلاق له . نحن ، أنا وهو ، شخصان اثنان يا صاحب السعادة .. هو يعيش على هواه ، وأنا من جهتي أحيا حياة بسيطة هادئة يا صاحب السعادة لا أسيء الى أحد ولا أوذي أحدا ، أؤكد لك يا صاحب السعادة أنني لا أنال أحدا بسوء قط .. أنا لا أشبهه ، أنا لا يمكن أن أشبهه ! فأضرع اليك يا صاحب السعادة ، رحماك يا صاحب السعادة ، غير لي وظيفتي فتنتهي

هذه المشكلة ، ينتهى هذا الاحتيال الوقح وهذا الاغتصاب الدنىء •• حتى لا يكون هذا قدوة سيئة للآخرين يا صاحب السعادة • اننى أعدك أبا يا صاحب السعادة • ان الرؤساء الذين يملكون صدرا رحبا وذمة سامية لا بد أن يشجعوا مثل هذه المبادرات • بل ان فى مبادرتى هذه لروحا فروسية • اننى أتوجه اليه كتوجهى الى أب •• أضع مصيرى بين يديه ، وأعده بأن لا أعترض على ما يتخذه من قرار ، أنصاع لارادته وأمحى أمامه •• هذه هذه المسألة •• » •

ـ قل لى يا عزيزى •• أأنت حوذى ؟

ـ نعم •

ـ أأنت حر طوال السهرة ؟

ـ هل المسافة طويلة ؟

ـ أنا أستأجر العربة للسهرة ، للسهرة كلها • لا تسأل عن المكان الذى أقصد اليه • ليس لهذا من قيمة •

ـ هل فى نيتك الخروج من المدينة ؟

ـ نعم يا صديقى • هذا ممكن • لا أدرى أنا نفسى بعد • لا أستطيع أن أقطع بذلك يا عزيزى • ومن الممكن أن يسوى كل شىء على خير وجه يا صديقى الشهم • وهذا أفضل يا صديقى •

ـ طبعا هذا أفضل يا سيدى • أنا أتمنى ذلك لجميع الناس •

ـ هو كذلك يا صديقى ، هو كذلك • شكرا يا عزيزى • فما هو الأجر الذى تطلبه يا صديقى الطيب ؟

ـ أأنت مسافر حالا ؟

ـ نعم حالا • أقصد ••• سوف نذهب أولا الى مكان ما ننتظر فيه

برهة •• يجب أن ننتظر برهة •• برهة قصيرة يا عزيزى ••

ـ اذا كنت تكترى العربة لليلة كلها، فالأجر ستة روبلات• يستحيل أن أرضى بأقل من هذا فى مثل هذا الجو •

ـ طيب طيب يا صديقى • اتفقنا، وساعطيك مكافأة أيضا ياعزيزى• طيب • والان هيا بنا يا صديقى •

ـ اجلس •• بل انتظر لحظة • سارتب بعض الترتيب • هه ••• تفضل بالجلوس الآن ! الى أين تأمر بأن أذهب بك ؟

ـ الى جسر اسماعيلوفسكى يا صديقى •

صعد الحوذى الى مقعده ، ولكز الحصانين اللذين لم يمكن انتزاع كيس العلف منهما الا فى عناء • واتجهت العربه صوب جسر اسماعيلوفسكى • ولكن السيد جولياد كين لم يلبث أن شد الحبل فجاة ، واستوقف الحوذى وطلب اليه بصوت ضارع ان ينثنى الى وراء وأن يقوده الى عنوان آخر عينه له • دار الحوذى • وبعد دقيقتين كانت العربة تقف أمام العمارة التى يسكن بها صاحب السعادة • نزل السيد جولياد كين وطلب من الحوذى بكثير من الالحاح ، أن ينتظره • ثم اندفع خافق القلب يصعد السلم • فلما وصل الى الطابق الأول ، شد حبل الجرس ، ففتح الباب ، ووجد بطلنا نفسه فى حجرة المدخل •

ـ هل صاحب السعادة فى البيت ؟

كذلك سأل السيد جولياد كين الخادم • فأجابه الخادم وهو ينظر اليه من قمة رأسه الى أخمص قدميه :

ـ ماذا تريد منه ؟

ـ انما جئت يا صديقى من أجل ••• أنا اسمى جولياد كين •• أنا

موظف ، نعم ، أنا الكاتب جوليادكين جئت لأشرح لصاحب السعادة بعض الأمور ...

ـ انتظر لحظة . صاحب السعادة مشغول .

ـ ولكننى لا أستطيع الانتظار يا صديقى . المسألة هامة لا تحتمل أى تأخير .

ـ من أرسلك ؟ هل تحمل أوراقا ؟

ـ لا ياصديقى ، فانما جئت فى زيارة شخصية ... أبلغ صاحب السعادة أننى جئت لشرح بعض الأمور . وسأكافئك يا صديقى ...

ـ مستحيل . لقد مُنعت من ادخال أى انسان . هناك ضيوف . ارجع غدا فى نحو الساعة العاشرة .

ـ أبلغ عنى يا صديقى .. اننى لا أستطيع الانتظار ، فان لم تبلغ عنى كنت مسئولا .

، هيا أبلغ عنه . ماذا يمنعك من ذلك ؟ أأنت خائف على نعليك أن يهترئا ؟

كذلك صاح خادم آخر كان غائصا فى أحد المقاعد ، ولم ينطق قبل ذلك بكلمة واحدة .

ـ المسألة مسألة نعلين حقا ! أنت تعلم أننى مُنعت من ادخال أحد. لا يستقبل أحد الا فى الصباح .

ـ هيا أبلغ عنه . أأنت خائف أن تبلع لسانك ؟

ـ طيب سأبلغ عنه . ولن أبلع لسانى . ولكننى قلت لك اننى مُنعت من ادخال أى انسان ، مُنعت من ذلك منعا باتا . تعال . ادخل الى هنا .

دخل السيد جولیادکین الى الحجرة المجاورة • وكان على المنضدة ساعة يشير عقربها الى الثامنة والنصف • خفق قلب السيد جوليادكين • حتى لقد همّ أن يخرج ، ولكن الخادم كان قد وقف على عتبة قاعة الاستقبال ، وصاح يعلن بأعلى صوته :

« السيد جولیادکین » • قال بطلنا يخاطب نفسه وقد تملكه خوف شديد :

« ما هذا الصوت ؟ ألم يكن في وسعه أن يبلغ عني خفية ؟ لقد كان يمكنه أن يقول : ان هذا الرجل يا صاحب السعادة جاء يشرح بعض الأمور متذللا متوسلا •• فهلا تفضلت باستقباله •• أما الآن فان الأمور تجرى مجرى سيئا • لقد غرقت قضيتي في الماء ••• على كل حال ، ليس هذا بشيء ••• » • غير أن أوان التفكير قد فات • فهذا هو الخادم يعود فيقول لبطلنا : « أدخل » ، ثم يدخله الى صالون صاحب السعادة •

شعر بطلنا وهو يدخل أنه أصبح أعمى • فهو لا يرى شيئا • كل ما هنالك أنه أبصر قامتين أو ثلاثاً أمام عينيه • قال لنفسه : « هؤلاء ضيوف ولا شك • » • واستطاع أخيرا أن يميز نجمة على رداء الفراك الأسود الذى كان يرتديه صاحب السعادة • وبعد رؤية النجمة ، رأى الرداء • وأخيرا عادت الى بطلنا قدرته على الابصار •••

ـ ماذا هنالك ؟

كذلك سأل صوت يعرفه السيد جولیادکین جيدا •

ـ أنا الكاتب جولیادکین يا صاحب السعادة •

ـ وبعد ؟

ـ جئت لأشرح أمرى ؟

ـ كيف .. ماذا ؟

ـ جئت لأراك وأشرح لك أمرى يا صاحب السعادة .

ـ ولكن من أنت ؟

ـ أنا جوليادكين يا صاحب السعادة ، كاتب فى الادارة .

ـ طيب .. وماذا تريد ؟

ـ المسألة يا صاحب السعادة أننى أعدك أبا . أنا لن أثبت وجودى ، أنا سأنسحب . فاحمنى أنت من أعدائى يا صاحب السعادة . هذه هى المسألة .

ـ ما هذا الذى تقوله ؟

ـ أصبح معروفا ...

ـ ما الذى أصبح معروفا ؟

صمت بطلنا . وأخذت ذقنه ترتجف .

سأله صاحب السعادة :

ـ وبعد ؟

ـ كان قصدى أن أقوم ببادرة فروسية يا صاحب السعادة . أنا أرى من الفروسية أن يعد المرء رئيسه أبا له ... فأنا أرجوك أن تحمينى .. أتوسل اليك ضارعا ذليلا .. ان بادرات من هذا النوع لابد أن تشجع... أن تشجع ...

أشاح صاحب السعادة وجهه عنه. اضطربت عينا بطلنا برهة. اختنق صدره . أخذ يلهث . بل أصبح لا يعرف أين هو .. كان يشعر بالخجل

والعار . لقد صعق وانهار .. والله وحده يعلم ماذا حدث بعد ذلك .
فلما ثاب بطلنا الى رشده سمع صوت صاحب السعادة يتكلم . كان صاحب السعادة يكلم ضيفين من ضيوفه في حرارة وحماسة . وسرعان ما عرف السيد جوليادكين أحد الضيفين : انه آندره فيليبوفتش . ولكنه لم يستطع ان يتعرف الثاني . ومع ذلك فقد بدا له وجهه مالوفا معروفا . انه فارع القامة ، بدين الجسم . وهو يبدو متقدما فى السن . وله حاجبان كثيفان. نظرته قاسية معبرة . وهو يحمل وساما يتدلى من عنقــه . كان يدخن سيجارا . السيجار لا يترك فمه . وكان هذا الرجل المجهول يهز رأسه فى وقار وهو يلقى على بطلنا نظرة من حين الى حين . شــعر السيد جولیادكين بارتباك شديد . حول عينيه ، فسرعان ما لمح ضيفا آخر عجيبا. ففى فرجة الباب التى كان السيد جولیادكين قد حسبها مرآة حتى ذلك الحين ، تماما كما حدث له ذلك فى المطعم ، ظهر الرجل المعروف جيدا ، الصديق الحميم للسيد جولیادكين . كان الدجال قد مكث حتى ذلك الحين فى حجرة صغيرة مجاورة ، يكتب تقريرا على عجل . كانوا فى حاجة اليه ما فى ذلك ريب ... وها هو ذا يجيء الآن . انه يحمل ملفا تحت ابطه. اقترب من صاحب السعادة ؛ وبانتظــار اللحظة التى يلفت فيهـا أنظـار المتخاطبين اليــه ، انضــم الى الجماعة بمهارة كبــيرة . وقف وراء آندره فيليبوفتش تماما ، الى جانب الرجل المجهول الذى يدخن السيجار . كان يبدو على السيد جولیادكين الأصغر أنه يتابع الحديث باهتمام كبير . لقد اتخذ وضعا مناسبا ، فهو يهز رأسه علامة الموافقة والتأييد ، ويحرك قدميه ويبتسم ولا يتحول ببصره عن صاحب السعادة ؛ وكأنه يتوسل اليــه أن يتيح له ، هو أيضا ، أن يقول كلمة . قال السيد جولیادكين بينــه وبين نفسه وهو يتقدم خطوة الى أمام دون أن يشعر : « يا للجبان ! » . وفى

هذه اللحظة نفسها ، التفت صاحب السعادة ، واتجه نحو بطلنا • كان يبدو مترددا بعض التردد •

« طيب ، طيب ، انصرف الآن ، والله يرعاك • سأدرس حالتك ، وسآمر بأخذك الى ••• » • قال الجنرال ذلك وألقى على الرجل المجهول نظرة ذات دلالة• فرد الرجل على النظرة بحركة من رأسه علامة التأييد• أدرك السيد جوليادكين رأسا أنهم أخطأوا فى معرفة شخصه ، وأنهم يعاملونه معاملة غير لائقة به • قال لنفسه : « لا بد لى من أن أشرح أمرى بطريقة من الطرق • يجب أن أقول له : يا صاحب السعادة ••• اليك المسألة ! » • ولكنه تحير وطاش صوابه فغض بصره ، فما كان أشد دهشته حين لاحظ على كل حذاء من حذاءى صاحب السعادة بقعة بيضاء• قال لنفسه : « هل يعقل أن يكون حذاءا صاحب السعادة ممزقين ؟ » • ولكنه لم يلبث أن أدرك أن ما حسبه بقعة لم يكن فى حقيقة الأمر الا تلألؤا • فان الحذائين الملمعين بالشمع كانا يتلألآن تلألؤاً ساطعا ، وذلك هو سبب خطأ السيد جوليادكين • قال بطلنا لنفسه : « هذا ما يسمى حقا بالبريق • ان الكلمة مستعملة كثيرا فى ورشات التصوير • أما فى غير ورشات التصوير فيستعمل اصطلاح آخر ••• » •

رفع السيد جوليادكين عينيه ، فأدرك أن عليه أن يتكلم بأقصى سرعة ، والا فان الأمور ستجرى مجرى سيئا ••• فتقدم خطوة الى أمام •

ــ اليك المسألة يا صاحب السعادة ، يجب أن أقول لك •• ما من أحد يستطيع فى أيامنا هذه أن يصل الى شيء بالاحتيال والاغتصاب !

لم يجب الجنرال ، واكتفى بأن شد حبل الجرس شدا قويا • فتقدم بطلنا خطوة أخرى الى أمام •

ـ انه رجل جبان لا خلاق له يا صاحب السعادة •

كذلك قال السيد جوليادكين وهو يختنق خوفا وذعرا ، ولا يدرى ماذا يصنع • وفى الوقت نفسه أومأ باصبعه الى سميّه الذى كان يدور حول الجنرال •

ـ نعم يا صاحب السعادة ، اننى أقصد بهذا الكلام شخصا تعرفه••

قامت جلبة عامة شاملة • حرك أندره فيليبوفتش والرجل الذى يدخن السيجار رأسيهما • أمسك صاحب السعادة بحبل الجرس يشده ثم يشده ، وينادى الخادم بلهجة صارمة •

وفى الوقت نفسه تقدم السيد جوليادكين الأصغر وقال : «يا صاحب السعادة ، أتوسل اليك متذللا أن تسمح لى بأن أتكلم » • كانت لهجته قاطعة جازمة • لا شك أن هذا الرجل كان يحس أنه يتصرف تصرفا هو حق من حقوقه •

وقال متجها بالكلام الى بطلنا ، مستبقا جواب الجنرال :

ـ اسمح لى أن أسألك : أأنت تعرف فى حضرة من تتكلم هـذا الكلام ؟ أأنت تعرف أمام من تقف الآن ، وفى غرفة من توجد الآن ؟

كان الدجال يبدو منفعلا انفعالاً شديدا • ان وجهه المحمر يشتعل استياء وحنقا وغيظا • حتى لقد ظهرت فى أهدابه دموع •

صاح الخادم ملء حنجرته وهو واقف على عتبة الصالون يعلن عن وصول ضيفين : «السيد والسيدة باسافريوكوف»• فقال السيد جوليادكين لنفسه : « اسم جميل • هى أسرة نبيلة من الأسر الروسية » • وفى تلك اللحظة نفسها شعر بيد تحط على كتفه وتضغط عليها بمودة وصداقة • وما هى الا لحظة حتى كانت يد أخرى تحط على ظهره • كان المحتال

الوقح يتحرك أمامه مشيرا للخادمين الى الطريق التى كانا يدفعان فيها بطلنا• أدرك السيد جوليادكين أنه يقاد نحو أبواب الصالون• قال لنفسه: « هذا عين ما حدث عند أولسوفي ايفانوفتش » • كان قد وصل الى الدهليز • التفت فرأى الى جانبه خادمين من خدم صاحب السعادة و«مثله» الحقير الذى كان يزقزق قائلا : « المعطف ، المعطف ، هاتوا معطف صديقى ، معطف خير صديق لى • » • وانتزع المعطف من يدى الخادم، فرماه من قبيل المزاح ، المزاح الدنيء الجبان ، على رأس بطلنا • وسمع السيد جوليادكين ، بينما كان يحاول التخلص من المعطف ، سمع قهقهات الخادمين تدوى واضحة متميزة • ولكنه أصبح لا يحب أن يسمع شيئا ، وأصبح لا يولى ما يجرى حوله أى انتباه • خرج من الدهليز ، ووجد نفسه على السلم المضاء • وتبعه « مثله » يصيح وراءه :

- الى اللقاء يا صاحب السعادة •

- جبان •••

كذلك جمجم السيد جوليادكين •

- فلنسلم بأننى جبان •

- فاجر عاهر •

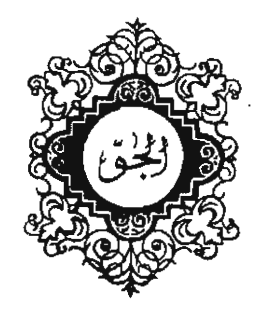
- فلنسلم بأننى فاجر عاهر •••

بهذا أجاب العدو اللدود الدنيء بطلنا المحترم ، وهو يرشقه من أعلى الدرج بنظرة تفيض غطرسة على عادته • انه يتفرس فيه دون أن يتحرك ، محدقا الى عينيه ، كأنه يريد بوضعه هذا أن يتحداه وأن يستفزه • فما كان من بطلنا الا أن بصق احتقارا واستياء ، وأسرع يهبط السلم ، وخرج الى درجات الباب •

كان قد بلغ من الانهيار والانعدام أنه لم يشعر كيف ركب العربة ، ولا عرف من الذى ساعده فى ركوبها .

فلما عاد الى رشده ، لاحظ أن العربة تسير على طول نهر فونتاكا. قال لنفسه: « لا شك أن الحوذى يقودنى الآن الى جسر اسماعيلوفسكى». وأراد بطلنا فى هذه اللحظة أن يفكر فى شىء ما ، ولكنه لم يستطع . وكان هذا الشىء مع ذلك أمرا رهيبا لا يتصوره عقل . فما كان منه الا أن خلص من ذلك كله الى أن قال : « لا ضير .. لا بأس .. » . وترك للحوذى أن يقوده نحو جسر اسماعيلوفسكى .

الفصل الثالث عشر



يبدو أنه سيتحسن . فالثلج المبتل الذى كان يهطل غزيرا حتى ذلك الحين أصبح نادرا شيئا بعد شيء ، ثم لم يلبث ان انقطع عن الهطول انقطاعا تاما . وأصبح المرء يستطيع أن يرى السماء التى تتلألأ فيها بضع نجوم هنا وهناك . كل ذلك كان يرهق السيد جوليادكين الذى لا يكاد يستطيع أن يتنفس . ان معطفه المبتل يثقل على كتفيه ويبدو انه يبلل أعضاءه برطوبة فاترة ؟ وساقاه المتعبتان تنثنيان تحت وطأة ملابسه المبتلة . ورعشات حمى تسرى فى جسمه كله كأنها بعوض ظامىء كاو . وجسمه المنهد يفرز عرقا باردا مرضيا . وقد بلغ بطلنا من الكمد أنه نسى أن يردد جملته الأثيرة بذلك الحزم القوى المعهود : « ما يزال فى الامكان أن يسوى كل شيء على خير وجه . . » . ومع ذلك استطاع بطلنا أن يتغلب على انهياره وأن يحتفظ بشجاعته فعاد يقول مدمدما : « حتى الآن ليس لهذا كله من قيمة » . ومسح وجهه الذى تسيل عليه قطرات الماء

منهمرة فى كل اتجاه من قبعته المدورة التى بلغت من الابتلال أنها أصبحت لا تستطيع ان تحجب المطر • « ليس لهذا كله من قيمة » • كذلك ردد بطلنا القول • وجلس على قطعة ضخمة من الخشب كانت قرب كومة من الحطب فى فناء العمارة التى يسكنها أولسوفى ايفانوفتش • لم يبق مجال الآن لاغنيات غرامية اسبانية يحلم بها بطلنا • فانما هو يبحث الآن عن ركن صغير مريح بعض الشىء ان لم يكن دافئا جدا ، ركن صغير مظلم يعتصم به • ولنقل عابرين انه كان يغريه كثيرا أن يكون الآن فى تلك الزاوية الصغيرة من دهليز سلم الخدم ، التى لطا فيها قرابة ساعتين ، فى أولى مغامراته ، بين خزانة الملابس والحواجز العتيقة ، وسط أكوام من الأسمال والثياب الرثة والخرق البالية •

ولنذكر أن السيد جوليادكين ينتظر ههنا منذ أكثر من ساعتين ، فى فناء المنزل الذى يسكنه أولسوفى ايفانوفتش • ولنذكر أيضا أن الركن الصغير المريح الذى سبق أن لطا فيه يشتمل الآن على عيوب لم يكن يشتمل عليها فى الماضى • أول هذه العيوب أنه قد لوحظ واكتشف حتما ، فلا بد أنه محروس حراسة جيدة منذ الفضيحة التى وقعت ليلة الحفلة الراقصة • والثانى أن التجاء بطلنا الى ذلك الركن يبعده عن المكان الذى يجب عليه أن يبقى فيه انتظارا للاشارة التى ستأتى من كلارا أولسوفيفنا•

كان بطلنا على يقين من أنها ستنبهه باشارة ما • ذلك محقق لا ريب فيه : « ثم اننا لسنا من أثار هذه القضية كلها ، ولسنا من يجب عليه أن يختمها • » • قال السيد جوليادكين ذلك لنفسه ثم تذكر جزءا من رواية كان قد قرأها منذ زمن طويل ، وفى ذلك الجزء كان الاتفاق بين بطلة الرواية وحبيبها « ألفرد » ، فى ظروف مماثلة لهذه الظروف مماثلة تامة، أن تنبهه باشارة هى شريط وردى اللون تعلقه على النافذة • أما اليوم ،

فى الليل ، مع هذا الظلام وهذه الرطوبة فى جو سان بطرسبرج ، فليس شريط وردى اللون باشارة مناسبة ، لذلك ليس على بطلنا ان يتوقع ان يرى شريطا وردى اللون تعلقه حبيبتـه على النـافذة بمثابة اشارة • قال بطلنا لنفسه : « الافضل ان الطو فى ركن من الفناء مظلم مختف ••• »• واعتصم فعلا فى ركن من الفناء يقع امام النوافذ قرب كومة من الحطب • لا شك أن حركة الذهاب والاياب لا تنقطع فى هذا الفناء : فثمة حوذيون وخدم يتجولون وسط صرير العجلات وصهيل الخيول ••• ولكن المكان مريح مع ذلك • كان السيد جوليادكين قابعـا فى الظـل ، وليس يهمـه كثيرا أن يلاحظه أو أن لا يلاحظه حوذيون • كان يستطيع أن يرى كل شىء فى المنزل ، دون أن يراه من أهل المنزل أحد • النوافذ تسـطع بالأنوار • لا شك أن فى منزل أولسوفى ايفانوفتش سهرة كبرى • ومع ذلك لا تسمع موسيقى • « ما هى حفـلة راقصـة ، بل اجتماع من نوع آخر » ؛ كذلك قال بطلنا لنفسه قلقا • ثم تساءل : ولكن هل المـــوعد المضروب هو هذه الليلة ؟ أليس ثمة خطأ فى يوم الموعد ؟ ذلك جائز • كل شىء جائز ••• وأغلب الظن أن ماحدث هو التالى : 'كتبت الرسالة وأرسلت أمس ، ولكننى لم أستلمها الا اليوم ، بسبب اهمال بتروشكا ، هذا الوغد الدنىء ••• أو لعل الرسالة كتبت غدا ••• أقصد أن الموعد حدد للغد •• فكان علىَّ أن أجىء أنتظرها مع العربة غدا •• » •

تجمد الدم فى عروق السيد جوليادكين حين تصور هذا الاحتمال• ومن أجل أن يتحقق من صدق الافتراض دس يده فى جيبه • فما كان أشد دهشته حين لم يجد فيها الرسالة ! ••• تمتم بطلنا يقول وقد كاد ينهد : « ماذا جرى ؟ أين عسانى وضعتها ؟ أترانى أضعتها ؟ » ثم أضاف متنهدا : « آه •• هذا ما كان ناقصا ! •• وما عسى يحـدث لو وقعت فى أيدى أعدائى ؟ لعلها وقعت فى أيديهم وانتهى الأمر ! آه ••• يارب !••

ما الذى سيقع ؟ لسوف يكون هذا فضيحة فظيعة ! آه .. يا للشقاء ...
يا للشقاء الرهيب ! .... » . وسرعان ما خطر بباله « مثله » ، فأخذ
يرتعش كورقة فى مهب الريح . لعل عدوه الدنىء ، حين رمى معطفه
على رأسه ، قد انتهز فرصة اضطرابه ليسرق الرسالة التى تسرب اليه
نبأها بواسطة أعداء السيد جوليادكين .. قال بطلنا لنفسه : « لا سيما وأنه
ألف أن يستولى على الأدلة ... ولكن فيم الأدلة ؟ ... » . وبعد أن
انتابته نوبة أولى من الذهول والرعب ازدحم الدم قويا عنيفا فى رأس
بطلنا . فأطلق صرخة من بين أسنانه ، وأمسك رأسه المحترق بيديه ،
وتهاوى على قطعة الخشب الضخمة . وغرق فى التأمل .. دون أن يصل
الى تركيز أفكاره . ان وجوها كثيرة تتخاطر الآن أمام عينيه ، غامضة تارة
واضحة تارة أخرى ... وأخذت تتخاطر أمام بصره كذلك أحداث كان
قد نسيها منذ زمان طويل ، وأخذت تتوافد على ذاكرته ألحان بعض الأغانى
التافهة .. كان فى ذروة الخوف والقلق ، كان فى حالة من الخوف
والقلق لا سبيل الى وصفها . « آه ... يارب ، يارب ! » كذلك أخذ
بطلنا يردد ، عائدا الى رشده ، خانقا نشيجا قويا فى حلقه : « يا رب ..
يارب ، هب شيئا من القوة والعزيمة لروحى الغارقة فى هوة من الشقاء
ليس لها قرار ! لقد ضعت ، لقد تلاشيت ، ما فى ذلك ريب . هذا من
طبيعة الأمور . لا يمكن أن يكون الأمر على غير هذا النحو . لقد فقدت
وظيفتى .. فقدتها حتما .. ما كان يمكن الا أن أفقدها . طيب ...
فلنفرض الآن أن الأمور يمكن أن تسوى بطريقة من الطرق .. لنفرض
أن ما أدخره من مال يكفينى للايام الأولى .. سيكون علىّ أن أستأجر
مسكنا آخر ... ولن أستطيع الاحتفاظ بتروشكا ... طيب .. فى
وسعى أن أستغنى عن هذا الوغد .. سأستأجر غرفة لدى بعض الناس..
ذلك أمر يمكن تدبيره .. وسأستطيع أن أخرج وأن أعود متى شئت .

لن يكون هناك بتروشكا الذى يصعر لى وجهه اذا رجعت فى ساعة متأخرة. هذا ميزة من ميزات السكنى عند آخرين • ذلك شىء معروف • طيب • فلنقل اذن أن الأمور حسنة هكذا • ولكننى ما زلت أتكلم فى شىء آخر، فى شىء آخر تماما ••• » • فى هذه اللحظة برقت فى ذهنه صورة وضعه الراهن • فنظر حواليه ، فأخذ يئن قائلا : « آه ••• يا رب ، يا رب ! آه •• يا رباه ! ولكن فيم كنت أفكر منذ هنيهة ؟ » • كذلك سأل بطلنا نفسه مرهقا متحيرا ، وهو يضغط بيديه رأسه المحموم •

خاطبه صوت من فوقه يقول :

ـ هل فى نيتك أن تمضى قريبا ؟

فارتعش السيد جوليادكين ، ورفع عينيه ، فرأى أمامه الحوذى • كان الحوذى مبللا هو أيضا حتى العظام ، مرتعد الفرائص • لقد دفعه نفاد الصبر وفراغ الوقت الى أن يلقى نظرة على السيد جوليادكين القابع وراء كومة الحطب •

ـ لا أعرف لا صديقى •• أنوى أن أمضى بعد قليل ، نعم ، بعد قليل ، يا صديقى •• ولكن عليك بشىء من الصبر ••

انسحب الحوذى وهو يدمدم بكلام بين أسنانه • فسأل بطلنا نفسه دامع العينين : « ما له يتململ ؟ لقد استأجرت عربة للسهرة بطولها ••• ويخيل الى أننى لا أتعدى حقوقى ••• أليس كذلك ؟ لقد استأجرته للسهرة كلها وكفى ! ••• والأجر واحد سواء أبقى هنا أم مضى بى الى مكان آخر •• ذلك رهن بارادتى • أنا حر •• اذا شئت مضيت واذا شئت لبثت هنا وراء كومة الحطب •• وهذا لا يعنيك •• ليس من حقك أن تحتج • مولاك يريد أن يبقى هنا وراء كومة الحطب ••• فليبق ما شاء له هواه أن يبقى ••• انه لا يجور على حقوق أحد • نعم •• نعم ••

تماما ••• يجب أن يكون هذا ماثلا في ذهنك يا آنسة ••• أما الكوخ فاعلمي يا آنسة أنه ما من أحد يسكن أكواخا في هذا الزمان • اعلمي هذا • واعلمي أيضا ان التخلي عن الاخلاق لا حظ له من النجاح في عصر النور الذي نعيش فيه • وأنت فيه مثال على ذلك ••• انت على ذلك مثال محزن • لقد قدرت الآنسة أنني ساعمل في أحد المكاتب ، وأننا سنعيش على شاطيء البحر •• فاعلمي اذن يا آنسة أنه ما من مكاتب على شاطيء البحر •• أما أن تجعلي مني رئيسا فذلك أمر يجب أن لا نفكر فيه • طيب •• لنتصور مثلا أنني تقدمت بطلب ومضيت أقول :

« اليك هذا الطلب يا سيدي ، فعينّي رئيس مكتب •• واحمني من أعدائي » • طيب يا آنسة لسوف يكون الجواب هو التالي : « عندنا عدد كاف من رؤساء المكاتب هكذا • » • وأما أنت يا آنسة فلست الآن عند مدام فالبالا الذي كانت تلقنك دروسا في الأخلاق أنت الآن خير مثال حي محزن عليها •• الأخلاق تقضي يا آنسة أن تبقي في المنزل يا آنسة ، وأن تشرفي أباك وأن لاتتسرعي في نشدان الزواج • سيبحث لك عن خطيب متى آن الآوان • يجب أن تعرفي هذا • طبعا يجب على الفتاة أن تنمي بعض المواهب • من المستحسن أن تتعلم الفتاة العزف على البيانو ، وأن تتكلم الفرنسية ، وأن تعرف التاريخ والجغرافيا بعض المعرفة ، وأن تعرف تاريخ الكنيسة وأن تتعلم الحساب ـ هذا أمر لا جدال فيه ••• ولكن لا ينبغي للفتاة اكثر من ذلك •• ها •• هناك أيضا مسألة المطبخ • ان فن المطبخ يجب أن يكون جزءا من تربية كل فتاة لائقة • والآن فلنعد الى مشروعنا • أولا لن يدعوا لك أن تسافري يا آنستي الجميلة • واذا هربت فسيلاحقونك • وبعد ذلك يحجرون عليك ، ويضعـــونك في دير من الأديرة • فماذا عساك تأمرينني عندئذ ؟ هل يجب علي في هذه الحالة ، على غرار بعض أبطال الروايات السخيفة ، أن آتي كل يوم أتأمل من

أعلى أحد التلال المجاورة جدران سجنك المتجمدة ؟ وهل يجب على ازاء هذا المنظر أن انفجر باكيا ، كما تفعل شخصية من شخصيات أحد أولئك الشعراء والروائيين الألمان السخفاء ؟ أهذا ما تريدينه يا آنسة ؟ فاسمحى أن الفت نظرك يا آنسة ، على مودة وصداقة ، أولا الى أن القصص التى من هذا النوع لم يبق لهـا رواج عنـدنا ؛ وثانيـا الى أنك أنت وأبويك تستحقون بضع ضربات جزاء هذه الرويات الفرنسية التى قرأتموها والتى أعطيت لك من أجل أن تقرئيها .. اعلمى أن هذه الروايات الفرنسية لا تعلم شيئا خيّرا .. فليس فيهـا الا سم .. ليس فيهـا الا سم زعاف يا آنسة . لعلك تتصورين أن فى وسعنا أن نهرب فلا ينالنا عقاب ، وأن نمضى نعتصم فى كوخ على شاطىء البحر .. حتى اذا صرنا هنالك أخذنا نهدل هديل الحمام ، ونتساقى عواطف الحب ، وقضينا حياتنـا سـعيدين يغمرنا الفرح وتشيع فى قلوبنا البهجة .. وربما تصـورت الى ذلك أن يولد لنا فرخ صغير ، عصفور جميل .. فنمضى نقول لأبيك ، مستشار الدولة أولسوفى ايفانوفتش : « هـذا عصفورنا الجميـل ، فانس غضبك علينا وباركنا يا أبتاه ! » .. لا يا آنسة .. أعود فأقول لك : لا يا آنسة ما هكذا يكون التصرف السـليم ! ... أما أحاديث الهـوى والغرام فلا تعوّلى عليها ياآنسة . الزوج فى أيامنا هذه سيد يا آنسة . وعلى الزوجة الشريفة التى أحسن تأديبها أن تحاول جعل حياته ناعمة رضية بجميع ما تملك من وسائل . فى عصر التقدم الذى نعيشه الآن لا يحرص أحد على مظاهر العاطفة الرقيقة والحنان الشديد يا آنسة . لقد ولى عصر جان جاك روسو . عصرنا غير ذلك العصر . الرجل فى عصرنا يعود من عمله فاذا كان جائعا قال لزوجته : « يا عزيزتى أحب أن آكل لقمة أسكت بها جوعى ، أحب أن آكل قطعـــة من السمك المدخن مثلا ، مع قدح من الفودكا . » . فعليك اذن يا آنسة أن تكونى متأهبة فى كل لحظة لتقـديم

شيء من السمك المدخن ومن الفودكا لزوجك متى طلب اليك ذلك • وهذا زوجك يقبل على طعامه يأكله حتى دون أن يرمقك بنظرة يا آنسة وانما هو يكتفي بأن يقول لك : « هيا اذهبي الى المطبخ ، فحضري طعام العشاء يا عزيزتي • • » • سقبلك مرة في الاسبوع ، ولن يكون في قبلته كثير من الهوى المتاجج يا عزيزتي • ذلك ما يحدث اليوم يا آنسة • نعم، أعود فأقول لك : هي قبلة قصيرة ليس فيها هوى متأجج • هذا ما سيحدث لك ، اذا نحن أردنا أن نحسن التفكير ، اذا نحن أردنا أن نرى الأشياء كما هي• وما شأني أنا في هذا كله ؟ لماذا تجعلينني شريكا لك في نزواتك الخيالية يا آنسة ؟ أنت تدعين طبعا أنني « رجل كريم مخلص عـزيز على قلبك ••• » • ولكن اعلمي أولا يا آنسة أنني لم أخلق لك • فما أنا بالرجل الحاذق في فن الملاطفة والمجاملة ، وأنت تعرفين ذلك حق المعرفة •• انني أكره السفاسف المعطرة الصغيرة التي يزجيها الرجال للسيدات •• انني لا أصلح لأن أمثل دور العاشق الموله •

« ثم ان شكلي نفسه لا يصلح لذلك • فلن تجدي فيّ لا حبا في الظهور ولا طموحا ولا نفاقا يا آنسة •• اننا نعترف لك بذلك صادقين كل الصدق مخلصين كل الاخلاص ! ، نعم ، هكذا نحن ! ان لنا طبعا مستقيما وفكرا سليما • والمكائد لا تعنينا البتة • لست بالرجل الماكر ، وأنا بهذا فخور • تلك هي الحقيقة • انني لا أضع على وجهي قناعا حين أكون بين أناس شرفاء • والخلاصة هي أن •••

ارتعش السيد جوليادكين فجأة • ان لحية الحوذي ، الحمراء المبللة ، قد ظهرت له مرة أخرى من فوق كومة الحطب •

قال السيد جوليادكين للحوذي متأثثا :

ـ سآتي حالا يا صديقي ، نعم يا صديقي ، أنا آت حالا •

حك الحوذى نقرته ، وطاف بيده على لحيته ، وتقدم خطوة الى أمام ، ثم وقف ونظر الى السيد جولياذكين نظرة تفيض شكا وحذرا ! •

أنا آت يا صديقى • أنا آت • علىّ أن أنتظر قليلا أيضا • لحظة واحدة يا عزيزى الشهم •• هل فهمت يا صديقى ؟

قال الحوذى أخيرا وهو يقترب من بطلنا حازما :

ـ أليس فى نيتك أن تغادر هذا المكان ؟

ـ بل أنا آت يا صديقى أنا آت • اننى أنتظر قليلا يا صديقى •• أرأيت ؟

ـ رأيت •

ـ أرأيت يا صديقى ؟ يجب علىّ •• بالمناسبة : من أية قرية أنت يا عزيزى ؟

ـ لقد ولدت فى منزل أسيادى ؟

ـ هل هم أسياد طيبون ؟

ـ والله ••

ـ طيب يا صديقى • ابق هنا برهة يا عزيزى • أأنت فى سان بطرسبرج منذ زمن طويل ؟

ـ منذ سنة •

ـ أأنت مسرور بها راض عنها ؟

ـ والله ••

ـ طيب يا صديقي ، طيب . يجب علينا أن نحمد الله على ذلك يا عزيزى . اليك هذه النصيحة يا صديقي : ابحث دائما عن الناس الطيبين . لقد أصبحوا قلة في هذا الزمان يا عزيزى . الرجل الشهم الشريف يوفر لك شرابك وطعامك ، ويعتني بك ، ويغسلك . أرأيت يا صديقي ؟ رب دموع تظهر أحيانا وسط الذهب . رب انسان يبكى رغم ثرائه . وأمامك الآن مثال محزن على هذه الحقيقة . أرأيت كيف تجرى الأمور يا عزيزى ؟

بدا على الحوذى أنه يشعر نحو السيد جوليادكين بشفقة . قال :

ـ طيب . سأنتظرك . أأنت باق هنا مدة طويلة ؟

ـ لا يا صديقي ، لا .. هل تعرف ؟ لقد بدأ صبرى ينفد منذ الآن يا عزيزى . لم يبق فى نيتى أن أنتظر طويلا .. ما رأيك يا صديقى ؟ اننى أثق بسلامة رأيك وصدق حكمك . أحسب أنه لا فائدة من الانتظار هنا ...

ـ اذن فأنت عدلت عن السفر .

ـ نعم يا صديقي نعم . ولكننى سأعطيك مكافأة حسنة مع ذلك . هذا وعد . كم علىّ لك يا صديقى الشهم ؟

ـ ما وعدتنى به يا سيدى . لقد انتظرت مدة طويلة يا سيدى . لا أظن أنك ترضى لى غبنا يا سيدى .

ـ خذ هذا لك يا عزيزى . خذ ...

أعطى السيد جوليادكين الحوذى الروبلات الستة الموعودة . لقد قرر قرارا حازما أن لا يضيع وقته سدى . انه يريد الانصراف مهما كلف الأمر . ثم ان الجسور مقطوعة الآن . لقد صرف الحوذى . ولم

يبق ثمة أى سبب يدعوه الى الانتظار • خرج من الفناء ، وتجاوز باب الدخول ، ودار نحو اليسار • ثم أخذ يركض مشرق الوجه لاهث الأنفاس لا يلوى على شيء ، ولا يلتفت الى وراء • قال لنفسه : « ما يزال في الامكان أن يسوى كل شيء على خير وجه • أما أنا فقد تفاديت بهذه الطريقة مصيبة كبرى • • »

والحق أن السيد جوليادكين قد شعر فجأة بهدوء وطمأنينة ، وشعر بارتياح وتخفف • وتنهد يقول : « آه •• شريطة أن يسوى كل شيء على خير وجه » ، دون أن يجرؤ مع ذلك على الاعتقاد بأن كل شيء سيسوى على خير وجه • وأردف يخاطب نفسه : هذا ما سأفعله ••• لا بل الأفضل أن ••• أو يمكن مع ذلك أن ••• بل هذا ما يجب أن أفعله •••

وفيما هو يستطرد هذا الاستطراد محاولا أن يخرج من حالة الشك والتردد التى هو فيها ، وصل بطلنا الى جسر سيميونوفسكي • فلما صار هنالك اتخذ هذا القرار الحكيم العاقل ، وهو أن يعود أدراجه • قال لنفسه : « هذا أفضل •• من مصلحتي أن أتخذ هذا الموقف ، موقف المشاهد المحايد •• المشاهد لا أكثر •• سأكون مجرد مشاهد ، مشاهدا غريب عن هذه القضية كلها • ومهما يحدث ، فسأظل خارج القصة لا أسأل عن شيء •• ذلك ما يجب عليّ أن أفعله بعد الآن ••• » •

حتى اذا اتخذ بطلنا هذا القرار قفل راجعا • ان هذه الفكرة الموفقة ، وهى أن يتخذ في المستقبل موقف المشاهد ، قد عززت ثقته وطمأنينته • فأخذ يردد قوله : « هذا أفضل ••• هذا أفضل ••• أكون مسئولا عن شيء ، وفى الوقت نفسه أشهد كل شيء ••• نعم •• هذا خير حل ولا جدال ••• » •

عاد السيد جـــوليادكين يقبع وراء كومة الحطب وقد اطمـأن كل الاطمئنان .. انه ملجأ مريح يعصم من كل ســوء . وركز انتباهه على النوافذ . ولم يطل نظره وانتظاره هذه المرة . فما هي الا برهة قصيرة ، اذ باضـــطراب غريب يظهر وراء جميـع النـوافذ بمسكن أولسـوفى ايفانوفتش . هذه وجوه تظهـر ، وهـذه هي الســتائر تزاح . وما هم الضيوف يهرعون جماعات يحتشدون على زجاج النوافذ . كان يبدو عليهم جميعا أنهم يبحثون عن شيء في الفناء . ظل السيد جوليادكين معتصـما وراء كومة الحطب يراقب بانتبـــاه واســـتطلاع ، حـــركات هـــؤلاء الناس . وهو يمد رأسه تارة الى يمين وتارة الى شمال ، بمقدار ما كان الظل الذي ترخيه عليه كومة الحطب يسمح له بذلك . وفجأة تجمد الدم في عروقه ؛ وارتعش ارتعاشا شديدا ، وكاد يسقط مغشيا عليه من فرط الذعر . لقد أحس فجأة أنهم لا يبحثون عن أى شيء ، بل يبحثون عنه هو ، هو السيد جوليادكين . كانت جميـع الأنظار مصـوبة نحوه ... وكان يستحيل عليه أن يهرب . ولو هرب لاستطاعوا أن يقبضوا عليه .. تجمد من فرط الرعب ، وتجمع على نفسه ، وشد جسمه الى الأحطاب وأدرك في تلك اللحظة نفسها أن الظل الخائن قد أخذ يفضحه ، فهـو لا يستر كل جسمه . ما أشد ما كان يفرحه في تلك اللحظة أن ينقلب الى فأرة حتى يستطيع التسلل بين الأحطاب ، فيختفى فيها هادئا مطمئنا. آه .. ليت هذا كان ممكنا ! ولكنه مستحيل وا أسفاه ! وقرر بطلنا أخيرا، وقد تملكه أشد الرعب ، أن يرفع عينيـه وأن ينظر الى النـوافذ . قال لنفسه : هذا أفضل .. ولكن ما هي الا لحظة واحدة حتى كان متلاشـيا تلاشيا كاملا . انه الآن يحترق شعورا بالعار . لقد أدرك أنهم اكتشفوه. نعم لقد عرفوه . عرفوه جميعا ، فهم جميعا يلوحون له بأيديهم ؛ هم جميعا

ينادونه • وسمع صرير النوافذ وهى تفتح • وسمع أصـــواتا تهتف له بكلام •••

دمدم بطلنا يقول وقد بلغ ذروه اليأس : « يدهشنى أنهم لم يجلدوا هاته البنات بالسوط منـــذ الطفولة ! •••» • وفجأة ظهـر « الرجـل » (والقارىء يعلم من « هو ») على درجات المدخل • كان بغير قبعة ، وبغير معطف • وكان يبدو أنه يلهث • هبط الدرجات وأسرع نحو السـيد جوليادكين ، نشيط الحركة متواثب الخطى ، مظهـــرا أشد الفـرح بلقاء صديقه الحميم •

قال الرجل التافه مزقزقا :

ـ ياكوف بتروفتش ! أأنت هنا ؟ أخشى أن يصيبك برد يا ياكوف بتروفتش • الجو هنا صقيع • تعال ادخل الى البيت •

فأجاب بطلنا بصوت مذعن :

ـ لا ••• ما هذا بشىء يا ياكوف بتروفتش ، ما هذا بشىء !

ـ ولكن •• مستحيل•• يا ياكوف بتروفتش• انهم ينادونك ، انهم يدعونك اليهم باحترام ، انهم ينتظرون حضورك بشوق • لقـد قالوا لى : « من فضلك ائتنا ياكوف بتروفتش • » •

غمغم السيد جوليـادكين يقول ، محترقا متجمـدا فى آن واحـد ، محترقا من الشعور بالعار ، ومتجمدا من الشعور بالذعر :

ـ لا يا ياكوف بتروفتش •

قال الرجل الكريه بصوت يزقزق :

ـ نينى نينى ! •• مستحيل ••

ثم أضاف بصوت آمر وهو يجر بطلنا نحو باب المدخل :

ـ هيا •• تعال ••

أراد السيد جوليادكين أن يقاوم ، ولكن بدا له أن من غير اللائق أن تنشب بينه وبين الرجل مشاجرة على مرأى من جميع الضيوف . فتقدم . لا نستطيع أن نقول انه كان يمشي ، لأنه كان هو نفسه لا يعلم ماذا يصنع وما الذي يجرى . ثم ان هذا كله لا قيمة له .

وقبل أن يثوب الى رشده وأن يسترد شعوره وجد نفسه في وسط قاعة الاستقبال الكبرى . كان شاحب الوجه ، مشعث الثياب ، منفوش الشعر ، زائغ البصر . ألقى على الحضور نظرة شاملة . يا للهول ! كانت القاعة والغرف المجاورة مكتظة بالناس .. رجالا ونساء . وها هم أولاء جميعا يخفون اليه ويتقدمون نحوه ويحتشدون حوله ، فاذا بهذا البحر المائج الهائج من البشر يدفع بطلنا الى ركن من القاعة . وأدرك هو ذلك. وبرقت في ذهنه فكرة : « انهم لا يدفعونني نحو الباب ... » . والحق أنهم لم يكونوا يدفعونه نحو الباب ، بل نحو المقعد المريح الذى كان يجلس عليه أولسوفي ايفانوفتش هادئا . وقرب المقعد رأى بطلنا كلارا أولسوفيفنا .

كانت شاحبة الوجه تبدو حزينة متعبة رغم تألق زينتها . وانتبه بطلنا ، خاصة ، الى الأزهار الصغيرة البيضاء التى كانت مغروسة في شعرها الأسود .. انه لمنظر جميل . والى الجانب الآخر من المقعد رأى بطلنا فلاديمير سيميونوفتش مرتديا رداء فراك أسود على عروته وسامه الجديد. اقتيد السيد جوليادكين الى أمام أولسوفي ايفانوفتش . كان يمسكه من احدى يديه سميه الذى اصطنع لهذه المناسبة هيئة الوقار والرصانة ، وهذا أمر سر له بطلنا كثيرا ؛ ويمسكه من اليد الأخرى آندره فيليبوفتش الذى كان وجهه يعبر عن الأبهة والفخامة .

تساءل بطلنا : ما معنى هذا كله ؟ ، ولكنه حين أدرك أنهم يقودونه

الى امام اولسوفي ايفانوفتش أشرفت في ذهنه فكرة • لقد خطرت بباله الرسالة المسروقة ••• وهاهو ذا الآن آمام مقعد أولسوفي ايفانوفتش •

تساءل بطلنا وقد تملكه غم لا سبيل الى التغلب عليه : « ماذا يجب على ان افعل ؟ ينبغي آن آتخذ موقفا فيه كبرياء ، موقفا صريحا فيه نبل وفيه رفعة • ومع ذلك عليّ أن آقول : هذه هي القضية أيها السادة •••

غير أن الامر الذي كان يخشاه كثيرا لم يحدث في الواقع • فقد استقبله اولسوفي ايفانوفتش استقبالا لطيفا • ولئن لم يمد له يده مصافحا، فقد نظر اليه طويلا وهو يهز رأسه الاشيب المهيب • هز راسه بوقار وجلال ، ولكن هيئته لم تكن تخلو من لطف وتودد • ذلك كان شعور بطلنا على الأقل • حتى لقد تراءى لبطلنا التماع دمعة في عين الشيخ المضطربة • وحين رفع السيد جوليادكين عينيه تراءت له كذلك دموع على أهداب كلارا أولسوفيفنا • وظهر له فلاديمير سيميونوفتش متأثرا أشد التأثر أيضا • وحتى آندره فيليبوفتش الذي ظل وقورا رصيناً لاتبدو عليه ملامح الاضطراب ، كان وضعه يدل على شيء من شفقة يشعر بها نحو بطلنا • أما الفتى الذي ألمنا اليه حين تحدثنا عن الحفلة الراقصة ، وقلنا عنه انه يشبه كل الشبه مستشارا من مستشاري الدولة ، فقد انتهز فرصة هذا الانفعال العام الشامل فانفجر باكيا في نشيج مسموع ••• على أن هذا كله ربما كان وهما من أوهام الحواس لدى بطلنا • لقد كان هو نفسه يبكي ويحس بدموعه تجري سخية على خديه الباردتين كالصقيع • وبصوت يقطعه النشيج أراد أن يخاطب حاميه القديم وأن يفتح له قلبه •

هو يشعر الآن بأنه تصالح مع الانسانية بأسرها ومع قدره ذاته • انه يحس بالحب يملأ جوانحه ، لا بالحب للشيخ الوقور فحسب ، بل لجميع ضيوفه أيضا ، وحتى لسميّه الشرير الذي أصبح لا يرى الآن أنه

سميّه ولا أنه شرير ، بل انسان عادى محبب لطيف . أراد السيد جوليادكين أن يكلم أولسوفى ايفانوفتش ، ولكن ازدحام نفسه بالمشاعر حال بينه وبين ذلك . فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ، واكتفى بأن وضع يده على قلبه بحركة عريضة ذات دلالة ... ومن أجل أن يوفى آندره فيليبوفتش الشيخ الحساس من الانفعالات العنيفة قاد بطلنا الى ركن من القاعة وتركه فيه ، لكنه ترك له حرية مطلقة . وهذا بطلنا يشق لنفسه طريقا بين الجمهور الكثيف وهو يبتسم ويدمدم بكلام بين أسنانه. ان الأحداث قد حيرته ، ولكنه يشعر بأنه تصالح مع البشر والقدر تصالحا كاملا . وها هو ذا يتقدم . وها هم الناس يصطفون فى طريقه صفين ، وهم ينظرون اليه نظرة استطلاع غريب وشفقة عجيبة .

وصل بطلنا الى غرفة مجاورة . فاستقبل فيها بمثل هذا الترحيب. وكان يشعر شعورا غامضا بأن جمهرة كبيرة تسير وراءه صفا . كان يحس أن الناس تراقب كل حركة من حركاته وكل اشارة من اشاراته . وكان يسمعهم يتجادلون خفية فى أمر هو على جانب عظيم من خطورة الشأن. كان يراهم يتكلمون ويحركون رءوسهم ويتهامسون ويعارض بعضهم بعضا ويشتجر بعضهم مع بعض اشتجارا حادا ... تمنى لو يعرف فيم يتناقشون ولماذا يتهامسون ويتشاجرون . والتفت فرأى سميّه الى جانبه . فشعر فجأة برغبة جارفة فى أن يمسك يد هذا الرجل وأن ينتحى به جانبا . وكذلك فعل . رجاه أن يساعده فى جميع الظروف المقبلة ، وأن لا يتركه أبدا فى لحظة حرجة هذا الحرج . فهز السيد جوليادكين الأصغر رأسه بوقار وصافح يد بطلنا ، فشعر بطلنا بقلبه يخفق خفقانا شديدا ويكاد يختنق من فرط الانفعال . كان بطلنا يلهث ويحس أنه مسحوق من كل جهة ، ولا يطيق احتمال جميع هذه النظريات التى تخترقه وتلتهمه وتلاشيه .. ولاحظ السيد جوليادكين ، عرضا ، المستشار الذى

يضع على رأسه شعرا مستعارا، فحدجه المستشار بنظرة قاسية فاحصة لاتتفق وعطف سائر الآخرين •• أراد السيد جوليادكين أن يذهب اليه ، أن يبتسم له ، أن يكاشفه بكلمة • ولكنه لم يستطع • ونسي الواقع خلال لحظة، وفقد الذاكرة والشعور •• فلما ثاب الى رشده لاحظ أنه كان يطوف في وسط حلقة عريضة من الضيوف • وفجأة نادى أحدهم من الغرفة المجاورة صائحا : السـيد جوليادكين • كانت صيحة مباغتة تجاوزت الجموع • فتحرك جميع النـاس في صخب واضـطراب ، وأسرعوا نحـو أبواب الصالون الأول ، وكادوا يحملون اليه السيد جوليـادكين حمـلا • كان المستشار الذى يضع على رأسه شعرا مستعارا والذى يملك قلبا بغير رحمة، كان قرب السيد جوليادكين • وتنـاول المستشار يد السـيد جـولياكين وأجلسه الى جانبه ، أمام مقعد أولسوفي ايفانوفتش ، ولكن على مسـافة منه من قبل الاحترام • وأحاط الضيوف بالسيد جولياكين وآولسـوفي ايفانوفتش صفوفا عدة ، وجلسوا حولهما، صمتوا وهدأوا • كان السكون مطبقا • انهم ينظرون الى أولسوفي ايفانوفتش وكأنهم يتوقعون حدثا هاما. ولاحظ السيد جولياكين أن السيد جولياكين الآخر وآندره فيليبوفتش قد جلسا الى جانبي مقعد أولسوفي ايفانوفتش ، أمام المستشار ••• وطال الصمت • انه الانتظار •

قال بطلنا لنفسه : « هكذا في الأسر حين يكون على أحد الأقرباء أن يسافر في رحلة بعيدة • لم يبق الآن الا أن ينهضوا ويصلوا • » • غير أن خواطره سرعان ما قطعها تحرك الضيوف • فها هم أولاء يرددون جميعا : « لقد وصل ••• لقد وصل ••• » • ولكن لم يبد على أحد أنه دهش •

تساءل السيد جولياكين وقد هزه احساس غريب ، ارتعش له : « من ذا الذى وصل ؟ » •

قال المستشار الذى يضع على رأسه شعرا مستعارا وهو ينظر الى آندره فيليبوفتش بانتباه : « حان الوقت » . فما كان من آندره فيليبوفتش الا أن رفع عينيه نحو أولسوفى ايفانوفتش ، فهز الشيخ الوقور رأسه برصانة علامةَ الموافقة . قال المستشار وهو ينهض السيد جوليادكين :

ـ قوموا .

فقام جميع الناس . وتناول المستشار يد السيد جوليادكين الأكبر . وكذلك فعل آندره فيليبوفتش بالسيد جوليادكين الأصغر . وسار الموظفان بالتوأمين متقابلين وجها لوجه ، سيرا هادئا وقورا ، وسط الجمهور المنتبه القلق . وطاف بطلنا ببصره المدهوش على ما حوله ، ولكن سرعان ما نُبِّه الى ضرورة المحافظة على النظام ، اذ نُبِّه الى سميِّه الذى كان يمد له يده .

« انهم يريدون المصالحة بيننا » ، كذلك قال بطلنا لنفسه ومد يده هو أيضا فى رقة وحنان ؟ ثم مد رأسه بعد يده .. وكذلك فعل سميُّه .

خيل الى بطلنا أن صديقه الغدار كان يبتسم له ، ويغمز المشاهدين الذين كانوا يحيطون بهما غمزاً وقحاً . نعم ، تراءى لبطلنا فى وجه الدجال الدنىء تعبير سىء لا يبشر بخير ، فلقد صعر الخائن خده فى اللحظة التى كان يهم فيها أن يقبل صاحبه قبلة يهوذا .

وسمع السيد جوليادكين قرع أجراس يدوى فى رأسه .وزاغت نظراته واضطربت عيناه . وخيل اليه أنه يرى جمهرة ضخمة من أشخاص هم جميعا جوليادكين تظهر فجأة فى القاعة متشابهة كل التشابه متماثلة كل التماثل ، تتدفق من جميع الأبواب فى لحظة واحدة .. ولكن كان الأوان قد فات .. فان القبلة المدوية الخائنة الغادرة كانت قد أخذت أصداؤها تترجع .

وهنا وقع حادث لم يكن فى الحسبان .. فقد انفتح مصراعا باب

الدخول مقرقعين ، فاذا برجل يظهر على العتبة ، واذا بالسيد جوليادكين يتجمد فيمكانه من فرط الذعر حين يراه. تسمرت قدما السيد جوليادكين على الأرض . واختنقت في حلقه المنقبض صرخة رعب .

يجب أن نقول مع ذلك ان السيد جوليادكين كان قد تنبأ بهذا كله منذ زمن طويل . لقد سبق أن أوجس هذا الموقف . تقدم الرجل مهيبا وقورا ذا أبهة وجلال . ان بطلنا يعرف هذا الوجه حق المعرفة . لقد رآه مرارا كثيرة ، رآه في هـــذا اليوم نفسه . كان الرجل فارع القامة بدين الجسم . وكان يرتدي رداء أســود . وكانت عنقــه تزدان بصليب كبير . كان لا ينقصه الا سيجار بين شفتيه ، حتى يكون الشبه كاملا.. ان نظرته ، كما قلنا ، قد جمدت السيد جوليادكين ذعرا ورعبا . اقترب من بطلنا المسكين رصيناً ذا فخامة وأبهة . مد اليه السيد جوليادكين يده. فتناول الرجل اليد الممدودة اليه ، وجر بطلنا الشقي وراءه . نظــر بطلنا فيما حوله متحيرا قلقا مشوه الوجه من الذعر .

« انه كريستيان ايفانوفتش روتنشبتس ، دكتور في الطب والجراحة. هو صديقك القديم يا ياكوف بتروفتش » ؟ كذلك زقزق يقول صــوت كريه في أذن بطلنا . فالتفت بطلنا ، فرأى أن الشخص الذي كلمه لم يكن الا سميّـه الدنيء ذا النفس الحقيرة الخـوانة الغدارة . كان وجهــه يتألق فرحا ، فرحا عاتيا مشئوما . وكان يفرك يديه منتشيا ، ويدير رأسه في جميع الجهات مرحا ، وينتقل بين الناس مفتتنا منتصرا . كان مســتعدا لأن يرقص من فرط الحماسة .

ووثب فجأة الى أمام ، فانتزع شـمعة من يد أحد الخــــدم وتقدم يضيء الطريق لكريستيان ايفـــانوفتش والسيد جوليادكين اللذين تبعــاه يسيران خلفه .

وسمع بطلنا وقع خطوات المشاهدين جميعا يسيرون وراءهما موكبا كبيرا • كانوا يغذون الخطى ، ويدوس بعضهم بعضا ، ويرددون جميعا أقوال الدجال جوقة كبيرة واحدة : « لا تخف يا ياكوف بتروفتش ••• ما هذا بشيء •• هـــو صديقك القديم ، هو صاحبك القديم كريستيان ايفانوفتش روتنشبتس •• » •

وخرجوا الى الدهليز ، ثم الى السلم المضاء اضاءة ساطعة • واندفع جمهور غفير الى السلم • انفتح باب مدخل العمارة مقرقعا • ووجد السيد جوليادكين نفسه على درجات المدخل يصحبه الطبيب • وكانت تقف في الفناء مركبة تجرها أحصنة أربعة كانت تكدف من نفاد صبرها • وبوثبات ثلاث صار الدجال الكريه أمام العربة يفتح بابهـا • وأشـار كريستيان ايفانوفتش الى بطلنا باشارة مقنعة أن يركب العَربة • والحق أن اقنـاع بطلنا لم يكن بذى فائدة • فهناك عدد كاف من الناس ليحمله اليها حملا•

التفت السيد جوليادكين وهو يهذى رعبا وذعرا • كان السلم المضاء يعج بالناس • وهذه عيون مستطلعة تحدق اليه من كل جانب • وهــذا أولسوفى ايفانوفتش نفسه يرأس الاحتفال من على فسحة السلم فيالطابق الأول • كان جالسا على مقعده ، مقعد المشلول ، يتأمل المشهد فى انتبـاه وشفقة • وكان جميع الناس ينتظرون • فلما التفت بطلنا سرت فى الحشد دمدمة تدل على التململ ونفاد الصبر •

« أرجو أن لا يكون في هذا كله ما يبعث على لوم •• أو ما يثير القسوة ويلفت الى انتباه كافة الناس ••• فيما يتعلق بحياتى العامة » بهذا دمدم بطلنا وقد أعيته الحيلة واضطرب اضطرابا شديدا • وقامت من حوله ضوضـــاء صاخبة • هؤلاء أناس يهزون رءوســهم علامة الاستنكار • وانبجست دموع من عينى السيد جوليادكين •

« اذا كان الأمر كذلك فأنا موافق ••• انني أعهد بمصيري كله الى كريستيان ايفانوفتش» ، كذلك قال جوليادكين ، فما ان نطق بهذه الاقوال التي يعبر بها عن انه يضع مصيره بين يدي كريستيان ايفانوفتش ، حتى أطلق جميع الشهود صيحات وصرخات رهيبة تصم الاذان ، هي صرخات فرح وانتصار • وسرى صدى هذه الصرخات في الحشد كله •

امسك كل من كريستيان ايفانوفتش واندره فيليبوفتش باحدى ذراعي السيد جوليادكين ، وأخذا يركبانه العربة • وكان سميّه يدفعه من خلف على عادته الجبانة • ومرة أخيرة ، التفت السيد جوليادكين المسكين الى وراء ، وأجال بصره في الحضور • فأحس برعدة تسري في أعضائه كلها ، كهرة صغيرة سكب عليها قادوس كبير من ماء بارد ، اذا سُمح لنا بهذا التشبيه • وصعد العربة • فسرعان ما تبعه كريستيان ايفانوفتش • فأغلق عليهما الباب • وسمعت قرقعة السوط على خواصر الأحصنة التي تحركت تجر المركبة ••• وهرع جميع الناس وراء العربة •

ان الصرخات المسعورة التي يطلقها جميع أعدائه تشيع رحيله • وظل بضع لحظات يميز بعض الوجوه حول بابي العربة التي تقله •

ولكن أعداءه أصبحوا بعيدين شيئا بعد شيء • فأصبح لا يرى أحدا منهم ، الا سميّه الدنيء الذي لبث يرافق العربة مدة أطول • كان يركض على يسار العربة واضعا يديه في جيبي سرواله الأخضر من ردائه الرسمي. وتشبث بالعربة عدة مرات يرسل قبلات في الهواء الى صديقه التعيس من قبيل الوداع •

ولكن التعب غلبه آخر الأمر • فأصبح ظهوره أندر فأندر الى أن غاب غيابا تاما •

ان ألما أصم يخنق قلب السيد جوليادكين ، وان دمه الذي يغلي

ويفور ينبض فى صدغيه نبضا قويا . كان يلهث مختنقا . ود لو يفك أزرار سترته ، ود لو يعرى صدره ، لو يدلكه بالثلج ، لو يرشه بماء بارد . ولم يلبث أن غاب عن وعيه غيابا كاملا ... فلما ثاب الى رشده لاحظ أن العربة كانت تجرى على طريق لا يعرفه . ان على شماله ويمينه غابات . والبرية خالية مقفرة قاحلة ... وانهار فجأة حين لاحت له عينان من لهب تحدق اليه فى الظلام ، عينان يشرق فيها فرح جهنمى مشئوم .

« ليس هذا كريستيان ايفانوفتش . من عسى يكون هذا ؟ أيكون «هو» ؟ «هو» ؟ لا ... انه كريستيان ايفانوفتش ، ولكنه كريستيان ايفانوفتش آخر ... انه كريستيان ايفانوفتش مرعب .

قال بطلنا بصوت وجل مرتجف مرتعش ، محاولا بطواعية ومذلة أن يرق له قلب الطبيب الرهيب :

ـ كريستيان ايفانوفتش .. أنا لم أصنع شيئا .. يخيل الىَّ أن ..

فقاطعه كريستيان ايفانوفتش يقول :

ـ سيكون لك حق فى مسكن بالمجان ، مع تدفئة واضاءة وخدمة ، وذلك كله لست جديرا به ولا أنت تستحقه .

دوى جوابه القاسى فى أذنى بطلنا دوى حكم لا رحمة فيه . أطلق السيد جوليادكين صرخة ، وأمسك رأسه بيديه . وا أسفاه ! لقد تنبأ بهذا كله منذ زمن طويل .

١

قلبٌ ضعيفٌ
١٨٤٨

« قلب ضعيف » (Slaboé Serotsé) ، نشرت هـذه القصـة فى « حوليـات الوطن » ، المجلد ٥٦ ، فى شـهر شباط (فبراير) ١٩٤٦



شــــابان ، موظفــــان في ادارة واحـــــدة ، كانا يقيمان معا في الطابق الثـالث من احـــدى العمارات . أحدهما اسمه أركادي ايفـانوفتش تيفيديفتش ، والثاني اسمه فاسيا شومكوف ...

ان كاتب هذه القصة يشعر طبعا بأن عليه أن يشرح للقارىء لماذا كانت احدي شخصيتيه تسمى باسمها الـكامل ، بينما لا يطلق على الشخصـية الثانية الا اسم تصغير ، وهو يشعر أن عليه أن يفعـل ذلك حتى يتحاشى على الأقل أن يؤخذ عليه أنه يتصرف تصرفا غير لائق . وسوف يـكون عليه ، في هذه الحالة ، أن يعين لكل شخصية من هاتين الشخصيتين رتبتها، ثم سنها ، ولقبها ، ووضعها ، وحتى طبعها ...

ولكن كاتب هذه القصة يسمح لنفسه بأن يدخل في الأحداث رأسا (وهذا يدل طبعا في نظر بعض الناس على أنانية مفرطة) ، فها هو ذا بعد هذا التمهيد يبدأ قصته ، وتلك طريقة يعمد اليها كثير من الكتاب على كل حال .

عشيةَ عيد رأس السنة ، عاد شومكوف الى بيته في نحو الساعة السادسة من المساء . فاستيقظ أركادي ايفانوفتش الذى كان راقدا على سريره ، ونظر الى صديقه من خلال عينيه نصف المغمضتين ؛ فرأى أنه مرتد أحسن حلة ، وأنه لابس قميصا نظيفا غاية النظافة . حيَّره هذا الأمر طبعا ، وتساءل : ما لفاسيا « مهندما » هذا الهندام ... ولكنه تذكر أن صاحبه لم يتناول غداءه اليوم فى المنزل . وفى أثناء ذلك أشعل شومكوف شمعة ، فأدرك أركادى ايفانوفتش أن صاحبه يتهيأ لايقاظه من نومه .

وها هو ذا يتنحنح فعلا عدة مرات ، ويدور في الغرفة دورتين ، ثم يُسقط من يده ـ عرضا ـ غليونه الذى كان قد حشاه بالتبغ ، يسقطه فى ركن قرب المدفأة . ضحك أركادى ايفانوفتش بينه وبين نفسه . وقال :

ـ طالت هذه التمثيلية الهزلية يا فاسيا !

ـ ألست نائما يا أركاشا ؟

ـ لا أستطيع أن أؤكد ذلك ، ولكن يخيل الىَّ أن لا .

ـ يومك سعيد يا أركاشا ، يا صديقي العزيز ... ايه يا رفيقى الطيب ، ايه يا رفيقى الشهم ... انك لا تستطيع أن تحزر ما أريد أن أقوله لك .

ـ لذلك أجهله كل الجهل . ولكن هلا اقتربت قليلاً !

وكأن فاسيا لم يكن ينتظر الا أن يدعى الى الاقتراب ، فسرعان ما اقترب من صاحبه دون أن يسيء الظن فى أركادى ايفانوفتش . ولكن أركادى ما يلبث أن يمسكه من رسغيه بحركة محكمة ، ثم يفتله فيرميه

على السرير ويبقيه على هـــذا الوضع المزعج مبتهجا بذلك ضاحكا منه •
وهتف أركادى يقول :

ـ ها قد أمسكتك •• ها قد قبضت عليك •

ـ أركاشا ، أركاشا • ما هذا الذى تفعله ؟ اتركنى •• أرجوك ••
لسوف تفسد ردائى !•

ـ وما قيمة أن يفسد رداؤك ؟ وما حاجتك الى هذا الرداء ؟ لمـــاذا
كنت مطمئنا هذا الاطمئنان كله فاتحت لى أن أقبض عليك ؟ قل لى : أين
كنت ؟ أين تغديت ؟

ـ أركاشا ، اتركنى •• أرجوك •• أناشدك الله •

ـ أين تغديت ؟

ـ ولكن ذلك بعينه هو ما أريد أن أقصه عليك !

ـ هيا قص اذن !

ـ ولكن اتركنى أولا !

ـ لا •• لن أتركك قبل أن تقص علىّ كل شىء !

ـ أركاشا ، ألا تحس أن هذا مستحيل ، مستحيل تماما ! هنـالك
أمور ••

كذلك صاح فاسيا الذى لم يكن قوى الجسم ، محاولا أن يخلص
نفسه من بين يدى خصمه القادرتين دون أن يظفر بطائل •

ـ أى أمور ؟

ـ هناك أمور لا يمكن أن يتحدث فيها المرء وهو على هذا الوضـع
والا كان يفقد كل كرامة •• لعلك تضحك من هذا الكلام •• ولكن
الأمر الذى سأحدثك فيه هام جدا •••

ـ دعنى من الأمور الهامة ! ••• ما عساك مخترعا أيضا ؟ أفضـل

أن تروى لى رواية مضحكة • أما الأمور الهامة فلست أحرص عليها • والا فأين الصداقة ؟ قل لى ماذا تفعل بالصداقة ! هيا هيا •• حدّث ••

ــ أؤكد لك يا أركاشا أن ذلك مستحيل •

ــ وأنا لا أريد أن أسمع حديثك •

بدأ فاسيا حديثه يقول ، وهو على تلك الحال من الاضطجاع مقلوبا فوق السرير ، محاولا أن يسبغ على كلامه ما يطيق اسباغه عليه من جد ورصانة :

ــ طيب يا أركاشا ••• ربما قلت لك •• ولكن •••

ــ ما هي المسألة أخيرا ؟

ــ طيب •• المسألة أننى خطبت !

عندئذ رفع أركادى ايفانوفتش صاحبه كما يُرفع طفل ، دون أن ينطق بكلمة ، رغم أن فاسيا ليس قصير القامة ، بل أميل الى الطول ، وان يكن نحيلا • ثم أخذ يطوف به الغرفة حاملاً اياه على ذراعيه ، ماضيا به من أولها الى آخرها ، متظاهرا بأنه يؤرجحه ، مردداً على مسامعه من حين الى حين قوله :

ــ ما رأيك اذا وضعتك في القماط أيها الخطيب الجميل ؟

لكنه ، وقد لاحظ أن فاسيا أصبح لا يتحرك ويرفض أن يفتح فمه، غيّر رأيه ، قائلا لنفسه انه ربما يكون قد بالغ فى المزاح قليلا ، فأوقفه على قدميه وسط الغرفة ، وطبع على خده قبلة مودة •

ــ هل زعلت يا فاسيا ؟

ــ استمع الىّ يا أركاشا •••

ــ كان هذا من قبيل الاحتفال برأس السنة •

ــ لست أقول شيئا •• ولكن لماذا تقوم بأفعال المجانين هذه ؟ قلت

لك مرارا : أركاشا ليس فى أفعالك هذه شىء من فكاهة ؟ صدقنى : ليس فيها شىء من فكاهة البتة •

ـ ولكن أأنت حاقد على ؟

ـ طبعا لا ••• وهل زعلت يوما من أحد ؟ لقد آلمتنى ••• هذا كل مافى الامر •

ـ آلمتك ؟

ـ طبعا ••• كنت آتيا اليك كما يأتى المرء الى صديق ، طافحَ القلب ممتلىء النفس ، أريد أن أحدثك عن سعادتى •

ـ ولكن أية سعادة هذه ؟ لماذا لا تقول شيئا ؟

ـ ألم أقل لك اننى سأتزوج ؟

هكذا أجاب بلهجة حادة ، لأنه كان فى الواقع غاضبا بعض الغضب•

هتف أركاشا يقول :

ـ ستتزوج ؟ صحيح ؟ •• لا •• ما هذا الكلام ؟ أنظروا ماذا يقول والدموع فى عينيه ••• هيا يا فاسيا •• دعك من هذا الكلام يا صغيرى فاسيوك •• أصحيح ما تقول ؟

وراح أركادى ايفانوفتش يقبل صاحبه من جديد •

قال فاسيا :

ـ هل فهمت الآن ماحدث لى ؟ أنا أعرف أنك طيب ، أنك صديقى، فجئت اليك فرح القلب مشرق النفس ، فاذا أنت تجبرنى أن أحدثك عن سعادتى مقلوبا على السرير موثق اليدين ، مهان الكرامة •

ثم أضاف فاسيا يقول مبتسما :

ـ طبعا ••• ذلك مشهد يضحك يا أركاشا ••• ولكننى كنت فى

تلك اللحظة لا أملك نفسي بمعنى من المعاني • لذلك لم أستطع أن أهون من شأن القضية •• لم يكن ينقصك الا أن تسألني عن اسمها ••• يمينا انني لأوثر أن أُقتل على أن أذكر اسمها وأنا على ذلك الوضع •

ـ ولكن لماذا لم تقل لي شيئا قبل ذلك يا فاسيا ؟ لو قد أبلغتني الأمر من قبل ، لما تصرفت تصرف المجانين ذاك !

كذلك هتف أركادي ايفانوفتش آسفاً أصدق الأسف • فقال له فاسيا :

ـ طيب •• طيب •• لا تزعل •• لست حاقداً عليك •• أبدا • أنت تعلم أن مرد هذا كله الى أنني طيب القلب •• لذلك آلمني جدا انني لم أستطع أن أروي لك الأمر على نحو ما كنت أحب أن أرويه •• وأن أقص عليك كل شيء بهدوء ، وأن أطلعك على المسألة في صورة لائقة•• انني أحبك كثيرا يا أركاشا ، ويبلغ حبي لك أنني ما كنت لأتزوج لولا وجودك معي ، بل لعلني ما كنت لأوجد أيضا !

كان أركادي ايفانوفتش ، وهو انسان ذو طبيعة حساسة جدا ، يضحك ويبكي أثناء سماعه كلام صديقه • وكذلك كان يفعل فاسيا • تعانق الصديقان ، ناسيين مشاجرتهما الصغيرة •

ـ ولكن احك لي الآن كل شيء ! كيف تم ذلك يا فاسيا ؟ معذرة يا عزيزي ، ولكنني مدهوش ، بل مصعوق ! ••• هل صحيح ما تقول ؟ ألم تلفق شيئا ؟ بلى بلى ••• لا شك أنك تمزح •

بهذا صاح أركادي ايفانوفتش وهو يلقي على صديقه نظرة شك • لكنه ، وقد قرأ في وجه صديقه تأكيدا لعزمه القاطع على الزواج بأقصى سرعة ، ارتمى على السرير وأخذ من فرط فرحه « يتشقلب تشقلبات » بلغت من القوة أن اهتزت لها جدران الغرفة •

قال أخيرا وقد هدأ :

ـ فاسيا ، تعال اجلس !

ـ حقا يا عزيزى •• لا أدرى من أين أبدأ •••

نظر الصديقان أحدهما الى الآخر منفعلين فرحين •

ـ من هى يا فاسيا ؟

قال فاسيا بصوت يرتجف سعادة :

ـ أسرة آرتميف •

ـ لا ••• صحيح ؟

ـ صحيح •• ألم أحدثك عنهم دائما ؟ ثم انقطعت عن الاتيان على ذكرهم ••• ولم تلاحظ أنت شيئا ••• آه ياأركاشا ! لكم تحملت من عناء فى سبيل أن أكتم عنك الحقيقة ! كنت أقول لنفسى : ربما انهار كل شىء•• لكننى أحبها يا أركاشا •• نعم أحبها •• واليك القصة (كذلك بدأ يروى القصة متوقفا وقد غلبه الانفعال) • منذ سنة كانت ما تزال مخطوبة • ولكن خطيبها أرسل الى مكان ما فى الأقاليم ، بمهمة رسمية • وقد عرفته أنا •• الخلاصة : ما لنا ولهذا ! •• كان رجلا لا أدرى ما قيمته •• وها هو ذا ينقطع عن الكتابة فجأة ، ويغيب غيابا تاما • انتظروه •• ثم انتظروه •• ثم أخذوا يتساءلون ما عسى تكون دلالة هذا الانقطاع • وفجأة ، منذ أربعة أشهر تقريبا ، عاد •• ولكنه عاد متزوجا ، ولم يجىء اليهم مرة واحدة ! •• شىء لا وفاء فيه ولا نبل •• شىء يبعث على الاشمئزاز ! وما من أحد يدافع عنهم ، أو يقتص لهم ! لقد بكت المسكينة كثيرا • أما أنا فكنت أحبها منذ زمن طويل ! بل كنت أحبها منذ الأبد !

فأخذت أواسيها وأعزيها .. أخذت أتردد عليها كثيرا .. الخلاصة : أنا نفسي لا أعرف كيف تم الأمر .. ولكنها تعلقت بي هي أيضا . ومنذ ثلاثة أيام لم أستطع أن أملك زمام نفسي ، فأجهشت باكيا وقلت لها كل شيء ، أي قلت لها انني أحبها .. قلت لها كل شيء .. فأجابتني بقولها : « وأنا أيضا يا فاسيلي بتروفتش ، مستعدة لأن أحبك .. ولكنني فتاة فقيرة فلا تضحك علي .. لقد أصبحت لا أجرؤ أن أدع لهذه العاطفة أن تنشأ في نفسي .. » . هل فهمت يا صاحبي ؟ هل فهمت ؟ .. وهكذا تعاهدنا . ثم أخذت أفكر ، باحثا عن وسيلة لابلاغ أمها . قالت لي : « الأمر صعب . انتظر قليلا .. ذلك أنها تخاف .. فقد تأبى الموافقة على خطوبتنا . » . وطفقت تبكي . ومضيت الى السيدة العجوز أصارحها بالأمر دون أن أقول للفتاة شيئا . حدث هذا اليوم . وجثونا أنا وليزانكا عند قدميها ... فاذا هي تبارك خطوبتنا .. اسمع يا أركاشا ، يا صديقي ، سنسكن معا .. لن أرضى أن أنفصل عنك بأية حال من الأحوال .

ـ رغم كل شيء لا أكاد أصدق أن هذا صحيح ! يمينا لا أكاد أصدق ! .. ما يزال يخيل الي أن .. هل صحيح أنك ستتزوج يا صاحبي ؟ كيف لم أعرف عن هذا الأمر شيئا ؟ يجب أن أعترف لك يا فاسيا أن فكرة الزواج قد راودتني أنا أيضا .. على كل حال ، مادمت تريد أن تتزوج ، فليكن . أتمنى لك السعادة يا صاحبي ، أتمنى لك السعادة !

قال فاسيا منفعلا وهو ينهض ويأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا :

ـ ليتك تعلم يا صاحبي مدى ما أشعر به من فرح في قلبي وغبطة في نفسي . أنت تشعر بهذا الشيء نفسه ، أليس كذلك ؟ طبعا سنعيش عيشة بسيطة متواضعة ، ولكننا سنكون سعداء . وليس ذلك وهما . لن تكون سعادتنا سعادة خيالية .. ستكون حقيقة ..

ـ اسمع يا فاسيا !

ـ ماذا تريد ؟

سأل فاسيا هذا السؤال وهو يتوقف أمام أركادى ايفانوفيتش .

ـ تراودنى فكرة ... ولكننى أخشى أن أنقلها اليك . اعذرنى . ولكن يجب أن تبدد شكوكى . مم وكيف ستعيش ؟ انه ليسعدنى طبعا أن أعلم أنك ستتزوج ، بل ان هذا ليملأ قلبى فرحا ... ولكن كيف ستعيش ؟

أجاب فانيا وهو يتأمل نيفيديفتش مدهوشا :

ـ أهذا سؤال يا أركاشا ؟ ماذا دهاك يا صاحبى ؟ ان الأم نفسها لم تتردد أكثر من دقيقتين حين شرحت لها الوضع بوضوح . أحرى بك أن تسألنى كيف عاشوا حتى الآن ؟ خمسمائة روبل فى السنة ، لثلاثة أشخاص ، ذلك دخلهم كله . ذلك كل ما خلفه الأب حين توفى . فهى ، والسيدة العجوز ، والأخ الصغير الذى ما يزال تُدفع له أجور المدرسة ، هؤلاء جميعا يعيشون من هذا المبلغ ... وهم يعيشون مع ذلك ! أنا وأنت نُعد من الرأسماليين بالقياس اليهم ! أنا مثلا يصل كسبى حين يواتينى الحظ الى سبعمائة روبل فى السنة !

ـ معذرة يا فاسيا .. أقسم لك ان خوفى من أن أرى الأمور تتعثر هو الذى يدفعنى الى هذا الكلام ... كيف تحسب سبعمائة ؟ ... أنا لا أرى منها الا ثلاثمائة ..

ـ ثلاثمائة ؟ وجوليان ماستاكوفتش ؟ هل نسيته ؟

ـ جوليان ماستاكوفتش ؟ ولكن هذا العمل يا صاحبى ليس بمضمون .. ليس كالمرتب الثابت البالغ ثلاثمائة روبل ، والذى يُعد كل روبل منه

صديقا أمينا وفيا • لا شك أن جوليان ماستاكوفتش رجل مرموق • وأنا أضمر له كثيرا من الاحترام ، وأفهمه ، رغم أنه يحتل منصبا كبيرا •• بل انني لأحبه أيضا ، لأنه يحبك فيدفع لك أجر عمل اضافى كان فى وسعه أن يعده عملا رسميا وأن يكلف به أى موظف •• وافقنى يا فاسيا، استمع الى • أنا لا أمزح• صحيح أنه ليس من السهل العثور فى بطرسبرج على شخص يضارع حظه حظك ••• أنا أسلم بذلك (صرح نيفيديفتش بذلك متحمسا أشد التحمس) ••• ولكن ماذا لو أصبح غير راض عن عملك ، أو لم يبق ثمة عمل يعهد به اليك ، أو استعاض عنك بشخص آخر ! ••• لا يعلم الا الله ما قد يحدث ••• الخلاصة أنه اذا كان هناك اليوم جوليان ماستاكوفتش ، فمن الجائز أن لا يكون هناك شيء البتة غدا !

ـ اسمع يا أركاشا ، من الجائز أيضا أن ينهار السقف على رأسينا الآن •••

ـ طبعا طبعا ، أنا لا أقول •••

ـ استمع الىّ • لماذا تتصور أن يكف عن الاستعانة بخدماتى ؟ اننى أقوم بعملى بهمة ونشاط ••• ومن جهة أخرى فهو انسان طيب ياأركاشا •• لقد أعطانى فى هذا اليوم نفسه خمسين روبلا فضة !

ـ ماذا تقول يا فاسيا ؟ أكان هذا مكافأة ؟

ـ أبدا ••• دفع لى هذا المبلغ من جيبه • قال لى : « انك لم تتقاض شيئا منذ خمسة أشهر يا عزيزى ، فخذ هذا • » تلك كانت كلماته هو نفسه • ثم أضاف : « لا يعقل أن تقوم لى بهذا العمل عبثا • » ترقرقت الدموع فى عينىّ يا أركاشا •••

ـ قل لى يا فاسيا ، هل أكملت كتابة النسخة ؟

ـ لا ، لم أكملها بعد •

ـ فاسنكا ، عزيزى ، ماذا عملت اذن ؟

ـ لا تخف يا أركادى • المسألة بسيطة • بقى لى يومان • هناك متسع من الوقت •

ـ ولكن كيف لم تنسخ شيئا حتى الآن ؟

ـ دعك دعك! انك لتنظر الىّ بعين يبلغ تعبيرها عن الأسف والحسرة أن قلبى ينقلب فى صدرى ! ما قيمة هذا التأخر ؟ انك تحزننى دائما بأوضاعك هذه ! فكر قليلا : أين ما يخيف كل هذا الخوف ؟ سأنجز كل شىء ••• أحلف لك •••

صاح أركادى وهو ينهض واثبا :

ـ واذا لم تنجز ؟ ومن ذا الذى أعطاك مكافأة فى هذا اليوم نفسه ؟ وتروح تتزوج ••• آه •• آه ••

ـ أقول لك لا تخف ••• المسألة بسيطة • سأقوم الى العمل فورا •• أقول لك ان المسألة بسيطة !

كذلك صاح شومكوف هو أيضا •

ـ كيف أهملت هذا الاهمال يا فاسيونكا ؟

ـ هوه ••• أركاشا ••• هل أستطيع أن أظل لاصقا بكرسيى ؟ هل كان عقلى فى هذا ؟ اننى فى المكتب نفسه لا أكاد أستطيع الاستقرار فى مكانى من فرط خفقان قلبى ! ••• أما الآن ، فأحلف لك •• سوف أعمل طول الليل ••• ثم سوف أعمل فى الليلة القادمة ، ثم فى الليلة التى بعدها ، فأكمل كل شىء •

ـ هل بقي عمل كثير ؟

ـ أرجوك ، لا تضايقني ، لا تشغلني عن العمل ، اسكت •

اقترب أركادي ايفانوفتش من سريره على رءوس الاصابع ، وقعد عليه • ولم يلبث أن أراد النهوض من جديد ، ولكنه لم ينهض ، خشية أن يزعج صديقه • ومع ذلك فانه لا يكاد يستطيع الاستقرار في مكانه • كان منفعلا انفعالا شديدا • واضح أن نبأ الزواج قد أقلقه كثيرا • لم تكن قد خمدت حماسته بعد • وها هو ذا يلقي نظرة على شومكوف • ونظر اليه صديقه ، وابتسم له ، وهدده باصبعه ، ثم حدّق الى الأوراق مقطبا حاجبيه تقطيبا رهيبا (كأن شدة العمل ونجاح العمل متوقفان على ذلك) •

ان من يراه يحس انه لمّا يستطع أن يسيطر على انفعاله بعد • تناول ريشة أخرى ، واضطرب في مكانه ، وغيّر جلسته ، وعاد يكتب• لكن يده ترتجف وتأبى أن تسعفه •

صاح فجأة يقول كأنما تذكر الأمر في هذه اللحظة نفسها :

ـ أركاشا ! لقد حدثتهم عنك •

ـ صحيح ؟ لقد أردت أن ألقي عليك هذا السؤال نفسه •

ـ صحيح ••• ولكنني سأروي لك كل شيء فيما بعد •• هذه خطيئتي •• نسيت نسيانا تاما أنني آليت على نفسي أن لا أحكي لك شيئا قبل أن أنجز نسخ أربع صفحات • لكنني فكرت فيك وفيها فجأة ••• عجيب يا صاحبي ••• انني لم أقدر أن انكب على الكتابة ••• انني أفكر فيكما طول الوقت !

قال فاسيا ذلك وابتسم • وأعقب ذلك صمت •

صاح فاسيا وهو يضرب الطاولة ويتناول ريشة أخرى :

ـ ما أسوأ هذه الريشة •

ـ فاسيا • اسمع • كلمة واحدة لا أكثر •

ـ ولكن اسرع ••• هذه آخر مرة ••

ـ هل بقي عمل كثير ؟

أجاب فاسيا وقد تقبض وجهه كأنه لا يمكن أن يوجد سؤال مروّع صاعق كهذا السؤال :

ـ هوه ••• أركاشا ••• لا تكلمني في هذا • ما يزال هنالك مقدار فظيع •

ـ هل تعلم ماذا يخطر ببالي ؟

ـ ماذا يخطر ببالك ؟

ـ بل دعنا من هذا ، واستمر في الكتابة •••

ـ ما هي المسألة ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ انقضت الساعة السادسة يا فاسيوك !

قال نيفيدفتش ذلك وابتسم وغمز بعينه غمزا ماكرا • لكنه يبدو خجلا بعض الخجل ، لا يدري كيف سينظر فاسيا الى الأمر •

ـ ماذا تعني ؟

سأل فاسيا هذا السؤال وقد اصفر وجهه من نفاد صبره ، وانقطع عن الكتابة شاخصا ببصره الى صديقه •

ـ أتعرف ماذا سنفعل ؟

ـ ولكن هلا أفصحت أخيرا ! هلا قلت !

ـ أرأيت ؟ انك في حالة عصبية ، ولا أحسب أنك قادر على أن تنجز شيئا كثيرا وانت في هذه الحالة •• انتظر •• دعني أكمل كلامي•• اسمع •• (كذلك قال نيفيديفتش ملحا وهو ينهض بوثبة ويقطع طريق الكلام على فاسيا) • قبل كل شيء يجب أن تهدىء روعك ، وأن تستجمع قواك • أأنا على حق ؟

صاح فاسيا وهو يدفع الكرسي :

ـ أركاشا ، أركاشا ، أحلف لك لأعملن طول الليل ، أحلف لك •

ـ أعرف ، أعرف ، ولكنك ستنام عند الفجر •

ـ لا •• لن أنام •• لن أنام بحال من الأحوال •••

ـ وأنا أقول انك لن تستطيع المقاومة • ثم انه يجب عليك أن تنام قليلا ، من الخامسة الى الثامنة مثلا • وسأوقظك في الثامنة • وغدا عيد • فتجلس وتكتب طول النهار ••• ثم تكتب في الليل •• ولكن كم صفحة بقي أن تنسخ ؟

ـ أنظر •

قال فاسيا ذلك وأظهر صديقه على الدفتر مضطربا من الفرح ونفاد الصبر ••

ـ اسمع يا صاحبي ••• ليس هذا بالأمر الضخم !

ـ ويوجد أشياء أخرى هناك يا صاحبي ••

بهذا أجاب فاسيا ، وهو يلقى على نيفيدفتش نظةر تائهة ، كأن الاذن بالخروج رهن بمشيئة صاحبه .

ـ كم صفحة هناك ؟

ـ صفحتان ... صغيرتان !

ـ طيب .. سيكون لدينا متسع من الوقت لانجاز هذا كله . سيكون لنا متسع من الوقت .

ـ أركاشا !

ـ فاسيا ، نحن الآن فى عشية رأس السنة الجديدة . جميع الناس فى هذا المساء مع أسرهم ، الا نحن ... نحن وحدنا يتامى منعـزلون ، أليس كذلك يا فاسنكا ؟

قال نيفيدفتش ذلك وضمّ فاسيا بذراعيه القويتين .

ـ طيب يا أركاشا ... قررنا ...

ـ فاسيوك .. عزيزى فاسيوك .. ولكننى أريد أن أقول لك شيئا ، فاصغ الىّ ..

غير أن أركادى توقف عن الكلام فاغر الفم ، طافحا حماسة ، عاجزا عن اكمال جملته. كان فاسيا قد وضع يديه على كتفى صاحبه. انه يحدق اليه ويحرك شفتيه كأنه يريد أن يكمل ما لم يستطع صاحبه أن يكمله .

ـ هيه !

ـ عرفنى بهم هذا المساء !

ـ أركادى .. فلنمض اليهم لتناول الشاى . لن نبقى الى أبعد من منتصف الليل ، بل قد ننصرف قبل منتصف الليل .

بذلك صاح فاسيا وهو في ذروة الافتتان •

ـ أي نمكث عندهم ساعتين ، لا أكثر ولا أقل !

ـ ثم لا نزورهم ثانية الا بعد أن أكون قد أنجزت كل شيء ••

ـ فاسيوك !

ـ أركادي !

بعد بضع دقائق كان أركادي في أجمل حلة ، وأبهى هندام • أما فاسيا فلم يحتج الى أكثر من المرور على ردائه بالفرشاة ، لأنه كان قد ظل مرتديا ثياب الخروج من فرط اسراعه الى الاكباب على العمل •

خرجا الى الشارع ، وسارا بخطى متواثبة ، سعيدين كل السعادة • الطريق أمامهم طويل ، من بطرسبرجسكايا الى كولومنا • كان أركادي ايفانوفتش يتقدم بخطى كبيرة وقوة واضحة ، فكانت مشيته وحدها تفضح سروره برؤية فاسيا سعيدا مزيدا من السعادة في كل لحظة • أما فاسيا فلم تكن خطاه كبيرة الى هذا الحد ، ولكنه كان رغم اسراعه يحتفظ بهيئة وقورة ومظهر رصين • لم يسبق لأركادي أن رآه يوما على مثل هـذه الصورة من المهابة • انه يشعر نحوه الآن باحترام خاص • ان آفة جسمية ما يزال يجهلها القارىء (ان فاسيا مخلّع الوركين قليـلا) كانت تثير دائما في نفس أركادي شيئا من شفقة وحزن • أما الآن فان هذه العاهة اليسيرة قد زادت حب أركادي له ، وزادت حنانه عليه ، وتلك عاطفـة لا شك أن فاسيا يستحقها من جميع النواحي • ان أركادي ليبلغ الآن من السعادة أنه يوشك أن يجهش باكيا • ولكنه استطاع أن يسيطر على نفسه وأن يمسك عن البكاء •

صاح يقول وقد لاحظ أن صاحبه يتهيأ للسير في شارع فوزنسنكي:

ـ الى أين أنت ذاهب يا فاسيا . الطريق من هنا أقصر .

ـ اسكت يا أركاشا ، اسكت !

ـ أؤكد لك يا فاسيا أن الطريق من هنا أقصر .

قال فاسيا وقد لاح فى وجهه سر ، وارتعش صوته من الانفعال :

ـ هل تعلم يا أركاشا اننى أريد أن أهدى الى ليزانكا هدية صغيرة ؟

ـ هدية ؟

ـ اسمع يا صاحبى ، هنا تقع دكان مدام لورو ، وهى دكان أنيقة جدا ...

ـ طيب ؟ ...

ـ قبعة صغيرة يا صاحبى ، قبعة صغيرة ... اليوم رأيت عند مدام لورو قبعة رائعة . سألت عنها فقيل لى ان طرازها يسمى طراز « مانون ليسكو » . انها تحفة ! لها شرائط بلون الكرز ... فاذا لم تكن باهظة الثمن ... بل حتى لو كانت غالية يا آركاشا ..

ـ فاسيا ، يمينا لانت تفوق جميع الشعراء .. هيا بنا ..

استحثا الخطى ، فما هى الا دقائق حتى كانا فى مخزن مدام لورو.

هى فرنسية كحلاء العينين ، مضفورة الشعر . انها تقبل عليهما ، فما تكاد تلقى على الزبونين نظرة حتى تغدو فى مثل فرحهما وسعادتهما ، بل تغدو أسعد منهما اذا جاز التعبير . كان فاسيا ، وهو فى غمرة الحماسة، مستعدا لأن يقبّل مدام لورو .

قال فاسيا بصوت خافت ، وقد أجال بصره على القبعات الرائعة المعلقة على مساند ، والمصفوفة فوق المنضدة الكبيرة بالمخزن :

ـ يا للروائع ... وتلك ! هل تراها ... تلك السكَّرة ؟

قال فاسيا ذلك وهو يشير الى قبعة صغيرة غير التى كان ينوى شراءها فى أول الأمر . ذلك أنه لاحظ من بعيد والتهم بعينيه قبعة أخرى تخطف البصر وتأخذ باللب ، أجمل من سائر القبعات ، موجودة فى الطرف الآخر من المنضدة . بلغ فاسيا من شدة الاشتهاء حين نظر اليها أن من يراه فى تلك اللحظة يخيل اليه أنه يخشى أن يسرقها أحد ، أو أن تطير القبعة من تلقاء نفسها ، لا لشىء الا مكرا بفاسيا وكيدا له .

قال أركادى ايفانوفتش وهو يشير الى قبعة أخرى :

ـ فى رأيى أن هذه أجملهن !

ـ مرحى كا أركاشا ! اختيارك هذا دليل على حسن ذوقك ! حتى لقد أخذت أشعر نحوك باحترام خاص . القبعة التى اخترتها فتانة حقا . ولكن تعال انظر هنا .

كذلك صاح فاسيا مبيحا لنفسه أن يمكر بصاحبه هذا المكر البسيط البرىء .

قال أركادى بلهجة الشاك :

ـ هذه ؟

ولكن حين شالها فاسيا عن مسندها الخشبى ، عاجزا عن ضبط نفسه ، حين شالها عن مسندها الخشبى فكأنها تطير من تلقاء نفسها طيرانا لشدة فرحها بزبون متحمس لها هذه الحماسة ، وحين خفخفت أشرطتها وزخارفها وتخريماتها فرحة ، انطلقت صيحة اعجاب من صدر أركادى ايفانوفتش القوى . وها هى ذى مدام لورو نفسها (وقد لزمت طوال

عمل الاختيار كل وقارها وحافظت على جميع ميزات حسن الذوق التى تتمتع بها ، ولم تصمت الا من قبيل التسامح) ، ها هى ذى تكافىء فاسيا الآن بابتسامة تحبيذ كبيرة • ان كل ما فيها ، من نظراتها ، الى اشاراتها ، الى ابتسامتها نفسها ، يأتى مصدقا لحسن هذا الاختيار وروعة هذا الانتقاء •• ان كل ما فيها يقول : « نعم لقد أصبت ، وأنت جدير بالسعادة التى تنتظرك ••• »

صاح فاسيا يقول ، ناقلا كل حبه الى القبعة :

ـ ألم تكن كأنها ترمقنا من ركنها القصى ؟ أليس يبـدو أنها كانت تختبىء عنا عمدا ، هذه الشيطانة !

وقبّل فاسيا القبعة ، أعنى قبل الهواء الذى يحيط بها ، مخافة أن تفسد قبلته كنزه •

أضاف أركادى يردد ، على سبيل الضحك ، قولا مأثورا كان قد قرأه فى ذلك الصباح نفسه :

ـ كذلك تختفى الفضيلة الصادقة عن أعيننا دائما• وبعد ، ألا ننصرف يا فاسيا ؟

ـ مرحى ••• أركاشا ! أنت اليوم فكه اللسان خفيف الروح ••• لسوف تحدث جنونا بين السيدات ، كما يقال ••• أتنبأ لك بهـذا ••• مدام لورو ، مدام لورو !

ـنعم يا سيدى ؟

ـ عزيزتى مدام لورو !

استقبلت مدام لورو حماسة فاسيا متسامحة •

ـ لن تصدقى ما أقوله ... ولكننى أعبدك فى هذه اللحظة ... اسمحى لى أن أقبلك .

قال فاسيا هذا وقبّل صاحبة المخزن .

كان لا بد طبعا ، فى هذا الظرف ، من احتفــاظ مدام لورو بــكل رصانتها ووقارها ، حتى لا يسقط اعتبارها أمام فتى أحمق كهذا الفتى ! وأنا أؤكد أنه كان لا بد أيضا من ذلك اللطف الناعم الرشيق الذى فطرت عليه مدام لورو واستقبلت به حماسة فاسيا . لقد عذرته مدام لورو ، ولم تلبث أن عادت الى هــدوئها بالذكاء واللبــاقة كلتيهما . وهل يمكن أن يغضب أحد من فاسيا ؟

ـ مدام لورو ، ما ثمن هذه القبعة ؟

قالت مدام لورو وقد ثابت الى هدوئها وعادت تبتسم :

ـ خمسة روبلات فضة .

سأل أركادى مشيرا الى القبعة التى كان قد وقع عليها اختياره :

ـ وتلك يا مدام لورو ؟

ـ ثمانية روبلات فضة .

ـ من فضلك من فضلك يا مدام لورو ... قولى أنت ، أرجوك ، أى القبعتين أجمل ، أيهما أرشق ، أيهما أفتن ؟

ـ تلك أثرى ، ولكن التى اخترتها أنت أغنج .

ـ اذن آخذها !

تناولت مدام لورو ورقة ناعمة كل النعومة ، فلفت بها القبعة ، وثبتت

الورقة بدبوس ، حتى لكأن الشيء الذي تحمله الورقة أصبح الآن أخف مما كان عليه .

تناول فاسيا اللفة بكثير من التأني والحذر ، وهو لا يكاد يستطيع أن يتنفس من شدة الهيجان . ثم حيا مدام لورو ومدحها وخرج من المخزن .

ـ أنا انسان يحب الحياة ومباهجها يا أركاشا ! لقد خلقت محبا لمتع الحياة !

كذلك هتف فاسيا وهو يطلق ضحكة صغيرة عصبية لا تكاد تسمع ، ويدور ويلف كثيرا حتى يتحاشى المارة الذين يتصور أنهم يريدون جميعا أن يصدموا قبعته فيجدوها . وردّد بعد دقيقة يقول بصوت فيه الحنان والقوة معا :

ـ اسمع يا اركادى .. أنا سعيد جدا ، سعيد جدا .

ـ وأنا يا فاسنكا ، وأنا يا عزيزى ، أتحسبنى غير سعيد ؟

ـ لا يا أركاشا ... أنا أعرف أنك متعلق بى تعلقا كبيرا .. ولكنك لا تستطيع أن تحس بعشر معشار ما أحس به أنا فى هذه اللحظة . ان قلبى يطفح فرحا ! اركاشا ! أنا لا أستحق كل هذه السعادة ! .. أشعر بذلك ، أعرف ذلك (قال هذا بصوت مخنوق ، وهو لا يكاد يستطيع السيطرة على انفعاله) . قل لى : ما الذى يجعلنى جديرا بهذه السعادة كلها . أنظر حولنا : ما أكثر الناس والدموع والآلام والايام الحزينة الكالحة التى لا تعرف الاعياد ! ... وأنا ... أنا تحبنى فتاة حلوة عذبة .. ستراها بنفسك بعد هنيهة . ستعرف كيف تقدر قلبها النبيل وروحها الكريمة .. لقد ولدتُ فى بيئة متواضعة ، ولكننى الآن أملك رتبة ،

وأملك دخلا مستقلا ، أملك مرتبا ! وقد ولدتُ مع عاهة في جسمي ، فأنا مخلعً الوركين قليلا ، ومع ذلك فهي تحبني على ما أنا عليه كما ترى. واليوم كان جوليان ماستاكوفتش لطيفا في معاملتي كل اللطف ، كريما كل الكرم ، يحمل لى أحسن النيات وأطيب المشاعر ! لقد اقترب مني وقال لى : هيه فاسيا (أقسم لقد خاطبني هكذا : فاسيا !) ، أليس في نيتك أن تمتع نفسك أثناء الاجازة ؟ » . قال ذلك وضحك . فأجبته : « كلا يا صاحب السعادة . لديَّ أعمال يجب أن أنجزها ... » . ثم تجرأت فأضفت قولى : « مع ذلك ربما تسليت قليلا يا صاحب السعادة » . يشهد الله انني جاوبته هكذا . وعندئذ انما أعطاني المال ، ووجَّه اليَّ كلمات أخرى . غرقت في دموعي يا صاحبي . يمينا لم أستطع أن أضبط نفسي، وأعتقد أنه تأثر هو أيضا . فقد ربت على كتفي وقال لى : « أرجوك يا فاسيا أن تظل حساسا كما أنت الآن ، وأن تظل قادرا على أن تقدِّر...»

صمت فاسيا . وكفكف أركادى دمعة هو أيضا .

تابع فاسيا يقول :

ـ ثم ... اليك ما كنت أريد أن أقوله أيضا يا أركادى ... ولم أقله في يوم من الأيام . أركادى ! ان صداقتك تملأ قلبي وتغمر نفسي .. وأنا من شدة سعادتي بذلك أشعر أنني ما كان لى أن أستطيع الحياة على هذه الأرض بدونك ... لا .. لا ... لا تقل شيئا يا أركاشا . اسمح لى أن أصافحك وأن أشد ... كرك !

واضطر فاسيا أن يقطع كلامه من جديد ، فقد كان أركادى يتهيأ لتقبيل فاسيا ، وكانا يقطعان الشارع من رصيف الى رصيف ، فاذا بصرخة حوذى تدوِّى على مقربة منهما ، فيهرعان الى الرصيف مروَّعين . والحق أن أركادى قد سرَّ بهذا . فان اكثار فاسيا هذا لم يكن له ما يسوِّغه غير

ظروف خارقة • أما هو فكان يشعر بشيء من الضـيق • انه يدرك أن ما فعله في سبيل فاسيا حتى اليوم كان قليلا • حتى لقد أحس بالخجل حين شكره فاسيا من أجل ترهات كهذه ! على أن الحياة ما تزال أمامهما! •• فتنفس أركادي الصعداء ، وأطلق من صدره آهة تخفف وفرح •

لا شك أن وصولهما لم يكن متوقعا • والدليل على ذلك أن الاسرة كانت قد بدأت تناول الشاى • ومع هـذا فما أكثر ما يحـدث أن يكون المسنّون أبصر بالأمور من الشباب ••• وأى شباب ! كانت ليزانكا تؤكد أنه لن يجيء • فهى تقول لأمها : « لن يجيء يا ماما ، قلبي يقـول لى ذلك » • أما أمها فكانت تردد دائما أن قلبها هي يقـول لها خلاف ذلك تماما ، فلا بد أن يجيء ، ولن يستطيع أن يستقر في مكانه هادىء البال، وسيهرع اليهم حتما ، لا سيما وأن المكاتب مغلقة ، فاليوم عشية عيد رأس السنة ! وحتى حين فُتح الباب لم تكن ليزانكا تتوقـع أن تراه • فلما رأته لم تصدق عينيها ، واستقبلته لاهثة الأنفاس خافقة القلب كعصـفور أسير ، محمرّة الوجه كثمرة كرز (وهي تشبه الكرز على كل حال) •

رباه ! يا للمفاجأة الجميلة الممتعة ! وانطلقت من شفتيها الصغيرتين آهات فرحة ••• قالت وهى ترتمى على عنق فاسيا : « يا لك من مخادع يا حبيبي ! » ••• ولكن تصوروا دهشتها واضطرابها حين رأت أركاديا واقفا وراءه ، خجولا وجلا كأنه يريد أن يختبيء • يجب أن نذكـر في هذه المناسبة أن أركاديا شاب تعوزه الثقة بنفسه في حضور النساء ، تعوزه كثيرا ، حتى انه في ذات مرة ••• ولكننا سنتحدث عن هذا في حينه • ضعوا أنفسكم في مكانه مع ذلك ، تروا أن خجـله ليس فيـه شيء من سخف • لقد كان هناك ، واقفافي حجرة المدخل ، غريب الملابس بحذائيه المطاطين وردائه العريض وطاقيته التى من فراء ، وعمرته التى تغطىالعنق والأذنين والتى أسرع يخلعها كيفما اتفق من جهة أخرى • ثم لقد كان

حلقه ملفوفا بعصبة تغطي الأنف ، عصـــبة صفراء من صوف محبوك ، دميمة جدا ، كان قد عقدها ، فوق ذلك ، في ظهره ! كان لا بد له أن يخلع هذه الأشياء كلها ، وأن ينضوها عنه بأقصى سرعة ، وأن يقدم نفسه تقديما لائقا ، فما من انسان الا ويجب أن يظهر للناس بأحسن منظر • وهناك ، مع ذلك ، فاسيا ، فاسيا الذى لايطاق ، فاسيا المزعج ، فاســيا المنير الذى لا يحتمل رغم أنه لطيف وطيب جدا •

صاح فاسيا يقول :

ـ هذا صديقي أركادى يا ليزانكا • ما رأيك فيه ؟ هو خير صديق لى • قبليه يا ليزانكا ••• قبليه ما دمت أقول لك ذلك ••• لسوف تقبلينه راضية مختارة حين تعرفينه مزيدا من المعرفة •

ما العمل في مثل هذه الحالة ؟ قل لى ناشدتك الله ؟ ما عسى يكون رد أركادي ايفانوفتش ، هو الذى لمّا يكمل نزع منديله بعد ! أؤكد لك أن هذه الحماسة الطافحة في فاسيا تربكني • صحيح أنها دليـل على أنه امرؤ طيب القلب ، ومع ذلك فان المرء ينزعج منها ، بل يضيق بها !

وأخيرا دخل الشابان كلاهما • أظهرت العجــوز أنها سعيدة جدا بمعرفة أركادي ايفانوفتش • لقد سمعت عنه كثيرا • وهى ••• لكنها لم تستطع أن تكمل جملتها ، لأن صيحة فرحة قد دوّت في الغرفة ، فقطعت كلامها • رباه ! ما أجملها !

كانت ليزانكا واقفة أمام القبعة بعد أن نزعت عنها ورقتها الحريرية •• انها ضامة يديها الصغيرتين وقد لاح في وجهها معنى مؤثر ، برىء ، ساذج ، كأنه بسمة للملائكة ••• لماذا لم يوجد عند مدام لورو قبعة أجمل من هذه القبعة أيضا ؟

دعك من هذا الكلام ! أين يمكن أن تجد قبعة أجمل منها ؟ حقا

انها لتتجاوز كل حد • ان مثل هذا العقوق لدى العشاق يغضبني قليلا، بل يحزنني أيضا • انظروا بأنفسكم : أين يمكن أن توجد قبعة في مثل هـذه الفتنة والروعة ! أنظـروا ! •• ولكن لا •• ان ملاحظـاتي هذه لا لزوم لها • هم الآن جميعا من رأيي • لم يكن ذلك الا ضلالا عارضا، الا ضبابا مضللاً ، الا خطأ طارئا ••• أنا مستعد كل الاستعداد لان اغفر لهم ذلك •• هلا نظرتم (لا تؤاخذوني ، فأنا ما زلت أتكلم على القبعة) : هي من نسيج دقيق خفيف ، لها عصبة بلون الكرز ، مغطاة بتخريم ، مارة بين القبة والحواشي ؛ وفي الخلف عصبتان أخـريان طويلتـان عريضـتان تسقطان على النقرة وتتهدلان حتى العنق ••• ولكن يجب دفع القبعـه قليلا الى الوراء لتكشف عن الجبين ••• هلا نظرتم ! ولكنكم لا تنظرون •• فيما أرى • أحسب أنكم لا تحفلون بالأمر •• ثم ان انتباهكم مشدود الى جهة أخرى • انكم ترون دمعتين كبيرتين ، كأنهما لؤلؤتان ، تلتمعان فجأة في عينين سوداوين مخمليتين ، ترتعشان لحظة على الأهداب الطويلة ثم تسقطان برفق على النسيج الخفيف خفة الهـواء ، الذي صـنعت منه تحفة مدام لورو •• ولكنني أهم أن أزعل مرة أخرى •• ذلك أن هاتين الدمعتين لم تتساقطا من أجـل القبعة وحدها • ليس هـذا هـو الأمر في نظري •• لا •• حتما •• يجب على المرء أن يقدم هدية كهذه الهـدية هادىء البال ، غير مهتاج العاطفة •• وحينئذ فقط يمكن أن تُقدر حق قدرها •• على أنني أعترف بأنني أرى أن المسألة مسألة القبعة خاصة •

جلس الجمع • اتخذ فاسيا مكانا له قـرب ليزانكا ، وقعـدت المرأة العجوز الى جانب أركادي ايفانوفتش • ودار الحديث • برهن أركادي ايفانوفتش على أنه في مستوى الموقف • انه ليسرني أن أنصفه • ما كان يُنتظر أن يكون لبقاً هذه اللباقة كلها • فبعد أن قال بضـع كلمـات عن فاسيا ، أخذ يتحدث حديثا رائعا عن جوليان ماستاكوفتش ، المحسن اليهم؛

وبلغ حديثه من الحسن والذكاء أن الموضوع لم يُستنفد حتى بعد انقضاء ساعة من الزمان •

ليتكم رأيتم كم بلغ أركادى ايفانوفتش من اللباقة والرهافة فى وصف بعض خصائص جوليان ماساكوفتش ، وهى خصائص تتصل بفاسيا اتصالا مباشرا أو غير مباشر • لذلك سُحرت العجوز بكلام آركادى ؛ حتى لقد اعترفت بذلك لفاسيا : نادته جانبا وقالت له ان صديقه فتى فذ ، وانه من أحب الشباب الى القلب ، وانه قوى جاد على وجه الخصوص • فبلغ فاسيا من السرور بهذا الكلام أنه لم يستطع أن يمتنع عن الانفجار ضاحكا ضحك الفرح الا فى كثير من العناء • لقد تذكر كيف استطاع أركاشا « القوى جدا » أن يقلبه على سريره مفتولاً منذ نصف ساعة •

وبعد ذلك غمزت العجوز الطيبة فاسيا طالبة منه أن يلحق بها الى الغرفة المجاورة • يجب أن نعترف أنها بهذا قد مكرت بابنتها ليزانكا • ولا شك أنها قد غدرت بها ، من فرط طيبتها ، ذلك أنها قررت أن تظهر فاسيا ، خفية ، على الهدية التى أعدتها له ليزانكا بمناسبة عيد رأس السنة• ان الهدية محفظة خيطت بها لآلىء دقيقة وقصب مذهب ، وازدانت برسم بديع خلاب ، فمن جهة تُرى صورة وعل يشب ، صورة جميلة تشبه الوعل كثيرا ؛ ومن جهة أخرى تُرى صورة جنرال شهير ، وهى صورة جميلة أيضا تشبه الجنرال شبها كبيرا • ولن أتكلم عن حماسة فاسيا حين رأى الهدية •

وفى أثناء ذلك ، فان الذين لبثوا فى الصالون لم يضيعوا وقتهم سدى • اقتربت ليزانكا من أركادى ايفانوفتش ، وأمسكت كلتا يديه تشكره شكرا حارا • فاستطاع أركادى ايفانوفتش أن يفهم أخيرا أن الأمر يتعلق مرة أخرى بصديقه العزيز فاسيا • كانت ليزانكا تبدو منفعلة

انفعالا شديدا • لقد سمعت عن أركادى ايفانوفتش أنه شديد الاخلاص لخطيبها ، وأنه يحبه كثيرا ، وأنه يعتنى به عناية كبيرة ، وأنه بنصائحه الحكيمة يسدد كل خطوة من خطواته ، وأنها ، هى ليزانكا ، لا يسعها الا أن تعبر له عن عظيم امتنانها وعميق شكرها • وانها لتأمل أن يحبها أركادى ايفانوفتش هى أيضا ، وأن يخصَّها بجزء يسير من حبه لفاسيا • ثم أخذت تلقى عليه الأسئلة تلو الأسئلة ، تريد أن تعرف هل يعنى فاسيا بصحته ؟ وأعربت عن بعض مخاوفها من فرط الحماسة والحرارة فى طبعه، ومن جهله بالناس والحياة حوله • وصرحت بعد ذلك أنها ستسهر عليه فى كثير من الاهتمام ، وأنها ستحميه وستدلله ، وأنها أخيرا تأمل من أركادى ايفانوفتش أن لا يتركهما ، بل تأمل منه أيضا أن يقيم معهما •

صاحت تقول بسذاجة وهى فى غمرة من الحماسة :

ــ لن نكون نحن الثلاثة الا واحدا •

وكان لا بد من الانصراف مع ذلك • حاولوا منعهما من الانصراف طبعا ، ولكن فاسيا صرح بلهجة قاطعة أن بقاءهما مستحيل• وأكد أركادى ايفانوفتش قول صاحبه • وكان طبيعيا أن يسأل أهل الدار عن سبب ذلك، فسرعان ما عرفوا أن هناك عملا عهد جوليان ماستاكوفتش الى فاسيا بانجازه ، وهو عمل مستعجل ، خطير غاية الخطورة ، يجب الفراغ منه بعد غد فى الصباح ، وأن فاسيا لم يكمل هذا العمل حتى الآن ، بل لقد أهمله اهمالا تاما • فلما سمعت الأم هذا الكلام أطلقت صرخة كبيرة • أما ليزانكا فقد ظهر فى وجهها الجزع والهلع ؟ وأخذت من فرط قلقها تحث فاسيا على الانصراف • غير أن القبلة الأخيرة لم تفقد من ذلك شيئا غير الطول ، أما حرارتها فلم تنقص •

ما ان خرج الصديقان حتى أخذا يتبادلان التعبير عن مشاعرهما

وانطباعاتهما • وذلك أمر طبيعي على كل حال • فأما أركادي ايفانوفتش فقال انه جُن حبا بليزانكا •• وهل غير هذا الصديق المحظوظ ، فاسيا ، يمكن أن يُسرَّ اليه صديقه بذلك ؟ وكذلك كان : صرح أركادى لفاسيا بكل شيء ، دون أى تحرج • فضحك فاسيا كثيرا ، وأظهر سروره بذلك وابتهاجه له ؛ بل أضاف أن هذا حسن جدا ، فان صداقتهما ستقوى الآن مزيدا من القوة •

قال اركادي ايفانوفتش :

ـ هل فهمت يا فاسيا ؟ انني أحبها بقدر ما أحبك • ستكون ليزانكا ملاكي الحارس ، كما هي ملاكك الحارس ، لأن سعادتكما سترتد الىَّ ، فتبث الدفء وتشيع الحرارة فى نفسى • ستكون لى ربة البيت ، وستثوى سعادتى على كفيها • أرجو أن تقودنى كما تقودك أنت، أرجو أن توجهنى كما توجهت أنت • لن تكون صـداقتى لها وصـداقتى لك بعد الآن الا صداقة واحدة • أنتما فى نظرى واحد • سيكون لى بعد اليوم صديقان أحبهما لا صديق واحد ••

قال أركادى ذلك ثم صمت وقد غلبه الانفعال• شعر فاسيا باضطراب شديد فى أعماق نفسه • الحق أنه لم يكن يتوقع تصريحا كهذا التصريح من أركادى ايفانوفتش • لقد كان أركادى لا يجيد الكلام كثيرا ، وكان يبدو عدوا لكل نوع من أنواع الاسترسال فى الأحلام • أما الآن ، فقد أخذ يحلم ، وان أحلامه لمن أكثر الأحلام اشراقا وتفاؤلا •

وتابع أركادى كلامه يقول :

ـ سوف ترى كم أرعاكما وكم أعتنى بكما كليكما ! أولا سـأكون عرّاب جميع أولادك •• ثم يا فاسيا يجب الاهتمام بالمستقبل ! •• يجب

شراء أثاث واستئجار مسكن .. ويجب الحرص على أن يضم المسكن ثلاث غرف صغيرة ، اثنين لكما وواحدة لى . سوف أشرع فى البحث عن مسكن منذ الغد يا فاسيا . سأنظر فى كل مكان الى اللافتات الصغيرة الملصقة على أبواب العمارات .. ثلاثة غرف ؟ بل يكفى اثنتان . لا نحتاج الى أكثر من غرفتين .. وانى لأعتقد يا فاسيا أن كلامى اليوم كان سخفا: سوف نملك مالا كافيا ! لقد أدركت منذ رأيت نظرتها أن ما نملكه من مال يكفينا ! سيكون كل شىء لها ! ما أكثر ما سنعمله كلانا يا فاسيا ، حقا يافاسيا .. نستطيع أن نجازف بخمسة وعشرين روبلا أجر المسكن .. ذلك أن المسكن يا صاحبى هو الأمر الأساسى ! غرف جميلة ... ذلك يجعل الانسان فرحا متفائلا . ثم ان ليزانكا ستكون هى أمينة الخزنة لنا : ما من قرش واحد سيبذّر ! هل تعلم أننى لن أضع قدمى بعد الآن فى دكان بائع الخمور ؟ من تحسبنى ؟ لا .. لن أضع قدمى فى دكانه بحال من الأحوال . ثم هناك الترقية ، والمكافآت ، لأننا سنعمل فى جد واجتهاد .. كثيران تحرث الأرض ! تصور (وهنا ضعف صوت أركادى ايفانوفتش وتحطم من شدة الانفعال) ، تصور أن يحصل كل منا فجأة على مكافأة تبلغ ثلاثين روبلا أو خمسة وعشرين ! كلما حصلنا على زيادة ما اشترينا بها تارة قبعة صغيرة ، وتارة وشاحا ، وتارة أجربة ، وهكذا دواليك .. ويجب عليها حتما أن تحيك لى عصبة للعنق .. انظر الى عصبتى هذه ما أبشعها : لقد اصفر لونها وانسلت خيوطها ... لقد فضحتنى اليوم ، هذه العصبة .. وأنت أيضا فضحتنى يا فاسيا ! اخترت اللحظة المناسبة لتقديمى اليها قبل أن أنضو عنى لفعتى ! على كل حال ، ليس لهذا من قيمة !.. لاحظ يا فاسيا أن شراء الفضيات سيقع على عاتقى أنا . فعلا .. لا بد أن أهدى اليكما شيئا .. هذا واجبى .. الشرف يقضى بذلك ! .. ولن يطول أمر حصولى على المكافأة .. هل تظن أنهم

سيعطونها سكوروخودوف! هه! ثم انهذا اللقلق لن يتخلف عن دفعهالى متى أردت • سأشترى لكما يا صاحبى ملاعق من فضة ، وسكاكين جيدة (لا من فضة طبعا ، ولكن متينة) ، وصديرة •• أعنى صديرة لى أنا ، لأننى سأكون وصيفكما •• ولكن عليك الآن يا صاحبى أن تشد عزيمتك• وسأكون اليوم وغدا ، وطوال هذه الليلة ، واقفا وراءك أحمل عصا •• سوف أجعلك تفطس من كثرة العمل • يجب انجاز العمل يا فاسيا ، يجب انجازه بأقصى سرعة يا صاحبى ! حتى اذا فرغت منه عدنا نسهر عندهم ، وسعدنا بذلك كلانا ! •• سنلعب هناك لعبة اللوتو •• هكذا سنقضى سهراتنا •• آه ما أحلى هذا ! لكم يحز فى نفسى أننى لا أستطيع معاونتك فى عملك ! لشد ما أتمنى لو أستطيع أن آخذه عنك ، واكتبه لك ! لماذا ليس خطنا واحدا أيضا ؟

قال فاسيا :

– نعم نعم •• يجب أن نحث الخطى ! أحسب أنها الحادية عشرة الآن ••• يجب أن نحث الخطى •• الى العمل !

ان فاسيا الذى كان الى ذلك الحين يبتسم تارة ، ويحاول أن يقاطع تدفق صديقه بملاحظة فرحة تارة أخرى ، أى كان متحمساً تحمساً كاملا ، قد صمت فجأة بعد أن قال ذلك الكلام ، أصبح كالأخرس لاينطق بحرف ، وأخذ يغذ الخطى كأنه يركض ركضا حتى يصل الى مسكنه بأقصى سرعة • لكأن خاطرا مشئوما قد راوده على حين فجأة ، وسقط على رأسه المحترق سقوط كتلة من ثلج ، فانقبض صدره انقباضا أليماً •

شعر أركادى ايفانوفتش من ذلك بقلق • لقد أصبح فاسيا لايكاد يجيب على أسئلته المستعجلة ، فهو يكتفى بكلمة واحدة قد لا تمت الى

موضوع السؤال بصلة من الصلات فى بعض الأحيان ، بل قد لا يزيد على أن يطلق صوت تعجب •

هتف أركادى أخيرا :

ـ ولكن ماذا دهاك يا فاسيا ؟ هل يمكن أن تستبد بك الهموم الى هذا الحد ؟

ـ حسبك يا صاحبى ، حسبك ثرثرة •

كذلك قال فاسيا بلهجة حانقة بعض الحنق •

فقاطعه أركادى يقول :

ـ لا تهتم •• لقد لاحظت أنا نفسى أنه يتفق لك أحيانا أن تنسخ صفحات أكثر فى وقت أقصر •• فأى ضير فى هذا ؟ انك تقدر على ذلك •• فى وسعك أن تكتب بسرعة اذا اقتضى الأمر •• ليس من الضرورى أن تجوّد نسخ النص بخط رائع ••• سوف تستطيع انجاز العمل ••• قد تكون الآن مضطربا بعض الاضطراب ، ذاهلا بعض الذهول ، فالعمل يبدو لك أصعب وأشق •

لم يجب فاسيا بشىء ، بل اكتفى بأن تمتم بين أسنانه ببعض الكلام ، ووصل الشابان مسكنهما وهما فى حالة عصبية ثقيلة •

أكب فاسيا على العمل فورا • وصمت أركادى ايفانوفتش • خلع ثيابه ساكتا ورقد على سريره لا يحول بصره عن فاسيا • انه يشعر بنوع من الخوف يغزو نفسه • تساءل أركادى وهو ينظر الى وجه فاسيا الشاحب والى عينيه الملتمعتين والى حركاته التى تدل على قلق محموم : « ماذا به ؟ ان يديه ترتعشان •• أليس من الخير أن أنصحه بأن يرتاح ساعتين ؟ •• لا شك أن قليلا من النوم سيريحه •• » •

أنجز فاسيا كتابة صفحة • ورفع عينيه عرضا الى ناحيـة صديقه ، فلم يلبث أن خفض جفنيه وعاد يتناول القلم •

قال أركادى ايفانوفتش فجأة :

ـ اسمع يا فاسيا ! ألا تعتقـد أن قليلا من النوم ينفعـك الآن ؟ ان مظهرك يدل على أن بك حمى •••

ألقى فاسيا على أركادى نظرة متجهمـة ، بل وحانقـة ، ولم يقـل شيئا •

ـ عليك بشىء من الراحة يا فاسيا ! •• فيم هذا العناد ؟

ظهر على فاسيا فجأة أنه غيـّر رأيه • فقال :

ـ ما رأيك فى تناول قليل من الشاى ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأسترد قواى • لا أريد أن أنام • لن أنام • سأظل أكتب طول الوقت • ولكننى أتمنى لو أتنفس قليلا بشرب قدح من الشاى ، فلعـل هذا أن يبدد ما أنا فيه من حالة عصبية •

ـ طيب يا صاحبى •• فكرة عظيمة •• ذلك بعينه ما كنت أريد أن أقترحه عليك ! يدهشنى أن هذه الفكرة لم تخطر ببالى •• ولكن مافرا لن تنهض بحال من الأحوال • يستحيل ايقاظها فى مثل هذه الساعة !

ـ نعم ، صحيح ••

ـ لا ضير •• سأضع السماور بنفسى ! ما أنا بالغر على كل حال •

بهذا هتف أركادى ايفانوفتش ناهضا عن سريره بوثبة • وأسرع

الى المطبخ يتحرك حول السماور • واستمر فاسيا يكتب أثناء ذلك• وهرع أركادى ايفانوفتش يرتدى ثيابه ويركض الى الخباز حتى يستطيع فاسيا أن يقتات لليل • فما انقضى ربع ساعة الا كان السماور على المائدة يتصاعد منه البخار • صب الصديقان الشاي • ولكنهما لم يتوصلا الى الانخراط فى حديث • كان فاسيا يبدو ذاهلا • وفجأة قال كمن ثاب الى نفسه :

ـ نعم •• يجب أن أذهب غدا لتقديم تمنياتى بمناسبة عيـــد رأس السنة •

ـ ما أنت في حاجة الى ذلك •

ـ بل لا بد من ذلك يا صاحبى •

ـ ولكننى سأوقّع عنك لدى الجميــع ! لا تهتم ! غـدا ستعمل • لو كنت فى محلك لعملت اليوم حتى الساعة الخامسة ، ثم نمت • والا فما عسى تكون حالتك غدا • وسوف أوقظك فى الساعة الثامنة •

قال فاسيا وقد اقتنع نصف اقتناع :

ـ ولكن هل يليق أن توقّع عنى ؟

ـ لمَ لا ؟ الناس جميعا يفعلون ذلك •

ـ مع ذلك أخشى أن •••

ـ ولكن ماذا تخشى ؟

ـ لا أعارض فى أن توقع عنى لدى غيره ••• أما لديه هو ، لدى جوليان ماستاكوفتش •• فذلك •• لاحظ انه المحسن الىّ يا أركاشا •• فماذا يكون وضعى لو لاحظ أن التوقيع ليس توقيعى ؟

ـ لو لاحظ •• انك لغريب الأطوار حقا يا فاسيوك ! كيف يستطيع أن يلاحظ ذلك ؟ أنت تعلم أننى أقدر أن أوقع اسـمك بتقليد خطـك

تقليدا تاما . سوف أرسم توقيعك نفسه ، توقيعك نفسه تماما ، أحلف لك . لن يلاحظ أحد شيئا ، أنا أضمن لك هذا .

أفرغ فاسيا قدحه بسرعة دون أن يجيب ، ثم هز رأسه علامة الشك والريب .

ـ فاسيا ! المهم هو أن ننجح فى انجاز العمل ! ولكن ما بك يا فاسيا ؟ هل تعلم أنك تخيفنى ؟ لن أرقد فى فراشى يا فاسيا ! لن أستطيع أن أنام . أرنى كم صفحة بقى عليك أن تنسخ .

ألقى فاسيا على أركادى نظرة انقبض لها صدره انقباضا شديدا ، حتى لم يستطع أن يحرك لسانه . وقال أخيرا :

ـ ولكن ماذا بك يا فاسيا ؟ لماذا تنظر الىّ هكذا ؟

ـ أعتقد يا أركادى أننى سأذهب أهنىء جوليان ماستاكوفتش رغم كل شيء .

قال أركادى وهو يرمق صاحبه بنظرة تدل على القلق :

ـ لك ما تشاء .. افعل ما دمت تحرص على ذلك . ولكن اسمع يا فاسيا : عجل كتابتك قليلاً . يمينا لست أسدى اليك نصيحة سيئة . ألم يقل جوليان ماستاكوفتش مرارا ان ما يحبه فى خطك أكثر من أى شيء آخر هو أنه خط مقروء ؟ انه ليس مثل سكوروبليخين الذى يتطلب خطا مقروءا وجميلا فى آن واحد ! ... لا لشىء الا ليخطف الورقة كيفما اتفق ، ثم يحملها الى أولاده من أجل أن يتمرنوا على حسن الخط باعادة نسخها .. كأن هذا الأحمق لا يستطيع أن يشترى لهم دفاتر تمرين على حسن الخط .. ولا كذلك جوليان ماستاكوفتش ، فانه لا يطلب الا شيئا واحدا هو أن يكون الخط مقروءا ، مقروءا ! ... فلماذا تصدع

رأسك اذن ، وترهق نفسك من أمرها عسرا ؟ حقا يا فاسيا •• لا أعرف ماذا أقول •• بل انني لأخشى أن ••• فاسيا •• ان حزنك يهدني هـدا رهيبا !

قال فاسيا :

ـ الأمر بسيط •• الأمر بسيط •

ثم خارت قواه ، فتهالك على كرسيه •

هبّ أركادي يتحرك حوله :

ـ هل تريد ماء ؟ فاسيا ! فاسيا !

قال فاسيا ، وهو يشد على يده :

ـ دعني يا أركادي •• ليس بي شيء • كل ما هنالك أنني حـزين قليلا يا أركادي •• وأنا نفسي لا أعرف لحزني هذا سببا • دعنا نتحـدث في أمر آخر •• لا تذكّرني ••

ـ هدىء نفسك يا فاسيا ، ناشدتك الله •• هدىء نفسك ! لسـوف تنجز عملك ، أحلف لك • وهبك لم تنجزه ، فأين الكارثة في هـذا ؟ أفي الأمر جريمة ؟

ـ أركادي !

نطق فاسيا بذلك ، ونظر الى صديقه نظرة فيها من التعبير ما جعـل أركادي يرتعش ، لأنه لم ير صديقه في يوم من الأيام نهبا لقلق يبـلغ هذا المبلغ من الشدة •

وتابع فاسيا يقول :

ـ أركادي •• لو كنت وحيدا ، كما كنت كذلك في الماضي •••

لا •• ليس هذا ما أردت أن أقوله •• اننى أشعر دائما بالحاجة الى أن أفضى اليك بما يعتلج فى نفسى ، وأن أبوح لك بكل شىء ، كما يبوح صديق لصديقه•• ولكن فيم اقلاقك وازعاجك ؟ بعض الناس ، يا أركادى، قد وهب لهم فى هذه الحياة شىء كثير ، بينما لم يوهب لغيرهم ، مثلى أنا ، الا أن يقوموا بمهمة هينة الشأن • قل لى : ما عساك تفعل لو كان عليك أن تبرهن على امتنانك ، على شكرك ، ثم رأيت نفسك عاجزا عن ذلك ؟
ـ لا أفهمك يا فاسيا !

تابع فاسيا يقول بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه :

ـ لم أكن فى يوم من الأيام عاقا ينكر الجميل ، ولكننى عاجز عن التعبير عن كل ما أشعر به ••• ذلك يا أركادى •• أمر يشعرنى بأننى عاق فى الواقع ، وهذا بعينه هو ما يقتلنى قتلا •

ـ ما هذا الكلام يا فاسيا ؟ أأنت تظن حقا أن كل امتنانك يجب أن يكون بتقديم منسوختك فى المهلة المحددة ؟ هلا راقبت نفسك يا فاسيا ؟ ما هذا الذى تقوله ؟ أبهذا يعبّر المرء عن شكره ؟

صمت فاسيا فجأة محملقا فى أركادى ، كأن هذه الحجة التى لم يكن يتوقعها قد بددت شكوكه • حتى لقد ابتسم ، ولكن وجهه لم يلبث أن استرد تعبيره عن التفكير •

رأى أركادى فى هذه الابتسامة دليلا على أن جميع المخاوف قد زالت ، ورأى فى الهم الذى أعقب الابتسامة دليلا على أن صاحبه قد اتخذ قرارا جديدا ، فابتهج لذلك ابتهاجا عظيما •

قال فاسيا :

ـ طيب يا أركاشا ؟ اذا اتفق ان استيقظت ، فألق نظرة على • لسوف

يكون الأمر كارثة اذا نمت . والآن سأكب على العمل . أركاشا !

ــ ماذا ؟

ــ لا ... لا شيء .. وانما أردت ..

استقر فاسيا على كرسيه صامتا ، ورقد أركادى على فراشه ، ولم ينطق هذا ولا ذاك بكلمة عن جماعة كولومنا ، ولعلهما كانا يشعران كلاهما بأنهما آثمان لأنهما « بذّرا » فى غير أوان التبذير . نام أركادى بعد قليل ، وهو ما يزال قلقا على فاسيا . وما كان أشد دهشته حين لم يستيقظ الا بعيد الساعة السابعة . كان فاسيا نائما على كرسيه ، ممسكا ريشته بيده . انه أصفر الوجه متعب . وكانت الشمعة قد ذابت الى النهاية . وفى المطبخ كانت مافرا تتحرك حول السماور .

صاح أركادي مروعا :

ــ فاسيا ، فاسيا ، فى أية ساعة نمت ؟

فتح فاسيا عينيه ، ونهض عن كرسيه بوثبة ، قائلا :

ــ اذن لقد نمت مع ذلك .

وأسرع الى أوراقه ، ولكن كل شيء كان على خير حال ، فلا بقع حبر ، ولا بقع دهن من الشمعة .

قال فاسيا :

ــ أظن أنني نمت فى نحو الساعة السادسة . ما كان أشد البرد فى الليل ! سنشرب الشاى ، ثم استأنف العمل .

ــ هل ارتحت قليلا ؟

ــ نعم ، أشعر الآن بتحسن .

ـ عاما سعيدا يا عزيزى فاسيا •

ـ صباح الخير يا صاحبى •• عاما سعيدا لك أيضا •

وتعانق الصديقان • كانت ذقن فاسيا ترتجف ، وكانت الدموع تترقرق فى عينيه • وأركادى لا يقول شيئا • انه يشعر بمرارة شديدة • تناول الصديقان الشاى على عجل •

ـ أركادى ! قررت أن أذهب الى جوليان ماستاكوفتش بنفسى •

ـ ولكنه لن يعلم بذلك •

ـ ضميرى يدفعنى الى ذلك يا صاحبى •

ـ أنت تسهر فى سبيله ، وترهق نفسك من أجله ••• أما أنا يا صاحبى ، فسأذهب لحظة الى هناك •••

ـ الى أين ؟

ـ الى أسرة أرتمييف ، أقدم لهم تمنياتى وتمنياتك •

هتف فاسيا يقول :

ـ ما أحسنها فكرة يا صديقى العزيز • سأبقى أنا فى البيت ، وتذهب أنت اليهم ••• فكرة رائعة •• لا عن اهمال منى لهم طبعا ، بل لأننى أعمل • انتظر ، سأحمّلك اليهم رسالة قصيرة •

ـ على مهلك يا عزيزى ! سأغسل وجهى أولا وأحلق ذقنى وأنظف ردائى • هل رأيت يا صاحبى فاسيا ؟ لسوف نكون مبتهجين سعيدين مع ذلك ! قبلنى يا صاحبى !

ـ ليت هذا يكون صحيحا يا صديقى !

وهنا دوى صوت على فسحة السلم أمام الباب :

ـ هل هنا يسكن السيد الموظف شومكوف ؟

أجابت مافرا ، وهي تدع المزائر أن تدخل :

ـ نعم هنا ياسيدى •

صاح فاسيا وهو يهرع نحو حجرة المدخل :

ـ ماذا هناك ؟ من ؟

ـ يومك سعيد يا فاسيلى بتروفتش • يشرفنى أن أتمنى لك عاما طيبا سعيدا •

كذلك قال صبى لطيف أسمر، فى نحو العاشرة من عمره ، مضفور الشعر • وأضاف الصبى يقول :

ـ أختى تبعث اليك بتحياتها ، وكذلك ماما • وقد كلفتنى أختى بأن أقبلك •

أنهض فاسيا الرسول الصغير فى الهواء ، وطبع قبلة طـــويلة حارة على شفتيه اللتين تشبهان كثيرا شفتى ليزانكا • ثم قال لصاحبه أركادى وهو يمد اليه بنيا :

ـ قبّله يا أركادى •

فانتقل الصبى ، دون أن يلامس الأرض ، الى الذراعين القـــويتين الحانيتين ، ذراعى أركادى ايفانوفتش •

ـ هل لك بقليل من الشاى يا حبيبى ؟

ـ شكرا كثيرا• لقد أفطرنا• استيقظنا فى ساعة مبكرة هذا الصباح• ماما وأختى ذهبتا الى الكنيسة • أختى غسلتنى وألبستنى ومشطتنى خلال

ساعتين • وخاطت ما تفتق أمس من سروالى فى الشـارع حين لعبت مع ساكشا بالثلج نتراشق كراته •••

ـ هكذا ؟

ـ نعم ، ألبستنى وجملتنى لأجىء اليك • ثم قبلتنى مائة مرة وقالت لى : « اذهب الى فاسيا ، وهنئه بعيد رأس السنة ، واسأله هل هو راض سعيد ، وهل نام نوما هادئا مريحا •• » ، وطلبت منى أن أسألك أيضـا هل أنجزت العمل الذى •• ولكنى سجلت ما طلبته منى على ورقة صغيرة (هكذا قطع الفتى كلامه ثم أخرج من جيبه ورقة وقرأ : ••• العمـل الذى كان يشغل بالك • » •

ـ نعم •• نعم ، سينجز •• سينجز حتما ! لا تنس أن تقول لهـا اننى سأنجزه قطعا ، بشرفى !

ـ نعم •• ها •• كدت أنسى •• حملتنى أختى اليك رسالة قصيرة وهدية •• كدت أنسى أن أعطيكهما !

ـ أين هما يا حبيبى ؟ أين هما ؟ شكرا •• اسمع يا أركاشا ماذا تقول لى ليزانكا الغـالية ••• أنت تعـلم اننى رأيت هنـاك أمس محفظة ستهدى الى • ان المحفظة لما يكمل شغلها بعد • لذلك تقـول ليزانكا : « أبعث اليك بخصلة من شعرى • أما الهدية الأخرى فسوف تستلمها بعد مدة قصيرة • » • أرأيت يا صاحبى ؟

قال فاسيا ذلك وقد جُن فرحا ، وهو يُرى صديقه خصلة شـعر أسود رائع • قبَّل فاسيا خصلة الشعر ، ثم أودعها جيبه قرب القلب •

قال أركادى بلهجة حازمة :

ـ سوف أوصى لك بنيشان لهذه الخصلة •

قال الصبى :

ـ وسنأكل شواء ومخا فى الغد • وقد أرادت أمى أن تصنع شيئا من البسكويت ••• ولكنها لم تجد دقيقا (كذلك استرسل الصبى فى كلامه بعد أن تردد قليلا وهو لا يعرف كيف يكمل ثرثرته) •

صارح أركادى ايفانوفتش :

ـ ما ألطف هذا الصبى • أنت يا فاسيا أسعد أهل الأرض طرا ، ما فى ذلك ريب !

شرب الزائر الصغير نصيبه من الشاى ، وأخذ من فاسيا رسالة الى أخته ، وقَبَّل ألف مرة ، ثم انصرف خفيف الخطى مشرق المزاج كما جاء •

قال أركادى فرحا :

ـ هل رأيت يا صاحبى ؟ ان الأمور جميعها تجرى على ما تحب • فلا تحزن وخاصة لا تدع لخور العزيمة أن يتسرب اليك ! الى الأمام ! أنجز عملك يا فاسيا ! سأعود فى الساعة الثانية • أذهب اليهم أولا ، ثم أذهب الى جوليان ماستاكوفتش •

ـ الى اللقاء يا صديقى الى اللقاء ! آه ••• ليتنى فقط •• طيب •• اذهب •• أما أنا فقد قررت : لن أذهب الى جوليان ماستاكوفتش •

ـ الى اللقاء •

ـ انتظر يا صاحبى •• قل لهم•• الخلاصة •• قل لهم ما تستحسن أن تقوله •• وقبّلها •• وستحكى لى كل شىء بعد ذلك يا صاحبى ، ستصف لك كيف جرت الأمور •••

ـ طبعا • ثم انني أعرف الان ماذا أصابك أمس : ان السعادة هي التي شوشتك ذلك التشويش كله •• منذ أمس حالتك غير طبيعية ••• انك لما تتخلص من مشاعر الأمس • أما الآن فقد انتهى كل شيء • عد الى هدوئك يا فاسيا •• الى اللقاء •• الى اللقاء ! ••

افترق الصديقان أخيرا • ظل أركادى ايفانوفتش ذاهلا طوال الصباح • كان لا يفكر الا في فاسيا • انه يعرف طبيعته الضعيفة السريعة الى الهيجان •

قال أركادى لنفسه : « نعم لقد أقلقت هذه السعادة نفسه اقلاقا كاملا ذلك واقع لا شك فيه • وما أشد ما أحزنتني أيضا • ان الانسان قادر على أن يجعل من أيسر الأمور مأساة ضخمة ! ما هذه الحمى التي انتابته ؟ لا •• لا •• يجب انقاذه •• يجب انقاذه حتما » • كذلك كان يردد أركادى دون أن يلاحظ أن هموما منزلية صغيرة يسيرة قد تضخمت في قرارة نفسه هو حتى صارت في نظره أشبه بكارثة !

لم يدخل أركادى حجرة حاجب جوليان ماستاكوفتش الا في الساعة الحادية عشرة ، ليضيف اسمه المتواضع الى العمود الضخم الذي تؤلفه أسماء شخصيات مرموقة تغطي ورقة بكاملها مبقعة بالحبر • فما كان أشد دهشته حين رأى فوق توقيعه توقيع فاسيا شومكوف بخط يده ! شعر أركادى باضطراب شديد • « ماذا يحدث في رأسه ؟ » كذلك تساءل وهو يزداد احمرارا من فرط القلق • اختفت آماله المشرقة • أدرك أن هناك نازلة تهم أن تقع • ولكن أين عساها تقع وكيف ؟

ووصل الى كولومنا متجهم النفس • كان يبدو في أول الأمر خائفاً على فاسيا حقا • أسرع يعود الى البيت راكضا • ولكن ها هو ذا ، على جليد نهر نيفا ، يصطدم بشكوموف ، أنفا بأنف • كان هذا يركض هو أيضا •

صاح أركادى يسأله :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

وقف فاسيا وقفة من قبض عليه متلبسا بالجرم ، وقال :

ـ خ .. خرجت أقوم بجولة قصيرة .

ـ لم تستطع أن تستقر في مكانك ، هه ؟ أنت ذاهب الى كولومنا أليس كذلك ؟ يا فاسيا .. يا فاسيا ! ثم لماذا ذهبت الى جوليان ماستاكوفتش ؟

لم يجب فاسيا بشيء . وفجأة حرك يده باشارة يأس وقال :

ـ أركادى .. لا أعرف ماذا يحدث في نفسي .. انني ..

ـ هيا هيا ، يا فاسيا .. أنا أعرف ، أنا أعرف ماذا . هدىء نفسك. أنت مهتاج مضطرب منذ أمس . وكيف يمكن أن يكون المرء غير ذلك لو كان فى مكانك ؟ ولكنهم جميعا يحبونك ، وهم جميعا يدارونك ، وستنجز عملك حتما ، ستنجزه ، أحلف لك . ان في ذهنك وساوس غريبة ، ومخاوف غامضة .. هل أدرى ؟

ـ لا .. لا شيء ..

ـ هل تتذكر يا فاسيا ؟ لقد مررت بحالة نفسية كهذه حين حصلت على تعيينك . فقد جننت يومئذ فرحا ، فأخذت تجوّد خطك أكثر مما اعتدت أن تجوده ، فاذا أنت خلال ثمانية أيام لا تزيد على أن تفسد عملك ! والآن يحدث لك هذا الشيء نفسه !

ـ نعم نعم يا أركادى ، ولكن الامر الآن مختلف !

ـ كيف .. مختلف ؟

ـ لا .. لا .. لا قيمة لهذا .. لنعد الآن الى المنزل !

ـ ألا تريد أن تذهب اليهم ؟

ـ لا ياصاحبي .. هل أستطيع أن أدخل عليهم بهذه السحنة ؟ لقد غيرت رأيي .. اذا لم أستطع أن أبقى في البيت ، فلأنك لم تكن معي ، أما وقد عدت ، فسأستأنف الكتابة ! هيا بنا !

سارا بعض الوقت صامتين . وكان فاسيا مسرع الخطو .

قال أركادي ايفانوفتش :

ـ ألا تريد أن تسألني عن أخبارهم ؟

ـ ها .. نعم .. كيف كان الحال ؟

ـ فاسيا .. انك تخيفني !

ـ لا .. لا .. لا شيء .. احك لي كل شيء ، هل تريد ؟

قال فاسيا ذلك بصوت ضارع ، كمن يريد أن يتحاشى الشروح المملة المضجرة .

تنهد أركادي ايفانوفتش . واضح أنه أصبح ، وهو يتأمل فاسيا ، لا يدري ماذا يعمل ولا كيف يتجه .

روى أركادي لصديقه تفاصيل زيارته ، فبدا على فاسيا أنه يُفيق من ذهوله ، حتى لقد أصبح كثير الكلام . وتناول الصديقان غداءهما . وكانت الأم العجوز قد حشت جيوب أركادي ايفانوفتش بالبسكويت ، فلما أخذ الصديقان يقضمانها انتعشت روحاهما وعاد اليهما مرحهما . وبعد الغداء ، وعد فاسيا بأن ينام قليلا حتى يستطيع السهر طول الليل . وها هو ذا يستلقي على فراشه فعلا . وكان أحد الناس الذين لا يمكن أن ترفض دعوتهم قد دعا أركادي ايفانوفتش في الصباح أن يجيء لشرب الشاي عنده . فافترق الصديقان . وقرر أركادي أن يعود الى البيت

باقصى سرعة ، في الساعة الثامنة اذا أمكن ذلك • بدت له الساعات الثلاث التي غاب أثناءها عن البيت كأنها ثلاث سنين ؛ واستطاع أن يتحرر أخيرا فهرول يعود الى المنزل • فلما دخل الغرفة لاحظ أنه ليس فيها نور • ثم لم يجد فاسيا • فلما سأل مافرا قالت انه ظل يكتب طول الوقت ، وانه لم يرقد في فراشه ، وانه أخذ بعد ذلك يسير في الغرفة طولا وعرضا ، ثم في نحو الساعة الواحدة ، أسرع يخرج قائلا انه عائد بعد نصف ساعة • وختمت مافرا حكايتها بقولها : « وقد طلب مني أن أقول لك ، متى رجعت ، انه خرج يتنزه قليلا ، وقد كرر هذا الطلب ثلاث مرات أو أربعا •

قال أركادي لنفسه وهو يهز رأسه : « انه عند أسرة أرتمييف » •

وبعد دقيقة نهض عن كرسيه بوثبة • لقد لمع في قلبه أمل • قال لنفسه : « أغلب الظن أنه أنجز الكتابة ، فلما لم يستطع بعد ذلك أن يبقى في البيت ، هرع الى هناك •• ولكن لا •• لو صح ذلك لانتظرني ••• سوف ألقي نظرة على عمله •• »

أشعل شمعة وأسرع الى مكتب فاسيا • لقد تقدم فاسيا في عمله ؛ ويبدو أنه يوشك أن ينهيه • وفيما كان أركادي ايفانوفتش يريد أن يستمر في تحرياته ، اذا بفاسيا يدخل فجأة ••

صاح مذعورا :

ـ أأنت هنا ؟

صمت أركادي ايفانوفتش • لقد خاف أن يلقي أسئلة على فاسيا • وأخذ فاسيا ، هو أيضا ، يقلب أوراقه خافضا بصره • والتقت نظرات الشابين أخيرا • فكان في نظرات فاسيا من التعبير عن الفاجعة والضراعة ما جعل أركادي يرتعش • لقد فاض قلبه شفقة ورحمة •

صاح وهو يسرع الى صديقه ويضمه بين ذراعيه :

ـ فاسيا، عزيزى ، ماذا بك ؟ ماذا حدث لك ؟ صارحنى .. أصبحت لا أفهمك ، لا أفهم ما أنت فيه من حزن ! ماذا بك يا عزيزى ؟ ماعذابك؟ قل لى كل شيء ، لا تخف عني شيئا . لا يعقل أن يكون هذا الأمر وحده هو الذى ...

شد فاسيا جسمه الى صاحبه ، ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة . كان حلقه يختنق، وكانت أنفاسه محبوسة .

ـ مابك يا فاسيا ؟ هلا انتهيت ؟ أى شقاء حل بك ؟ اننى لا أفهم يا فاسيا ! قل لى : ما الذى يقلقك هذا الاقلاق كله ؟ أنت تعلم أننى فى سبيلك ، أستطيع أن ... آه يا رب يا رب ! (كذلك أخذ يردد أركادى وهو يمشى في الغرفة طولا وعرضا ، يمسك تارة بشيء ، ويمسك تارة بشيء آخر ، كأنه يبحث لفاسيا من دواء مباشر) . سأذهب غدا بنفسى الى آخر ، كأنه يبحث لفاسيا عن دواء سريع) . سأذهب غدا بنفسى الى جوليان ماستاكوفتش ، فأتوسل اليه أن يمهلك يوما آخر . سأشرح له كل شيء ، كل شيء ، اذا كان هذا هو ما يقلقك الى هذا الحد حقا ...

صاح فاسيا وقد اصفر وجهه ، وترنح حتى ليكاد لا يستطيع الثبات على قدميه :

ـ اياك !

ـ فاسيا ! فاسيا !

ثاب الفتى الى رشده . كانت شفتاه تختلجان . أراد أن يقول شيئا ، ولكنه لم يفعل ، بل اكتفى بأن شد على يد أركادى بحركة عصبية متشنجة . كانت يده باردة . وكان أركادى واقفا أمامه وقد استبد به هم رهيب . ومرة أخرى نظر اليه فاسيا متفرسا .

ـ فاسيا •• ما بك يا عـزيزى المسكين فاسـيا ؟ انك تمزق قلبى يا عزيزى ، يا صديقى البائس ••

تمتم فاسيا يقول :

ـ لقد خدعتك يا أركادى •• لقد خدعتك ! اغفر لى ، سامحنى•• لقد كذبت عليك •••

كذلك قال أركادى مذعورا مروعا •

ـ أنظر !

قال فاسيا ذلك ، وأخـرج من الدرج ستة دفاتر ضـخمة ، شبيهة بالدفتر الذى كان ينسخه ، ثم رماها واحدا واحدا على المائدة ، وقد بدا على وجهه يأس شديد •

ـ ما هذا ؟

ـ هذا هو العمل الذى يجب أن أفرغ منه بعد غد • وأنا لم أنجز حتى الآن ربعه • لا تسألنى كيف حدث هذا (كذلك تابع فاسيا كلامه يشرح من تلقاء نفسه الموضـوع الذى يقلقه) • أركادى ، صـديقى ! لا أدرى ما الذى أخذنى عن نفسى •• لكأننى أخرج الآن من حلم • لقد ضيعت ثلاثة أسابيع كاملة • كنت أذهب كل يوم ••• اليها •• كان قلبى يتمزق ••• كنت أعانى عذابا شديدا •• من عدم الثقة ••• ولم أستطع أثناء ذلك أن أكتب شيئا •• حتى لقد كانت الكتابة لا تخطر لى على بال• ولم أستيقظ الا الآن ، أى حين جاءتنى السعادة •

قال أركادى ايفانوفتش بلهجة حازمة :

ـ فاسيا .. سوف أنقذك . فهمت الآن كل شيء . الأمر خطير . سوف أنقذك . اصغ الى : سوف أذهب الى جوليان ماستاكوفتش غـدا ؛ لن أتأخر عن الغد . بل اصغ الى . سوف أحكى له كل شيء . اسمح لى أن أفعل ذلك .. سوف أشرح له كل شيء ، مسترسلا حتى النهـاية . سوف أقول له كيف أنك تقتل نفسك .

قال فاسيا وقد جمده الرعب :

ـ هل تعلم أنك تقتلنى منذ الآن ؟

اصفر وجه أركادى ايفـانوفتش ، ولكنه لم يلبث أن سـيطر على نفسه ، فانفجر يضحك قائلا :

ـ حقا ؟ هيا هيا يا فاسيا .. ألا تستحى ؟ اسـمع : أنا أرى أننى أضايقك . وأنا أفهمك . أنا أعرف ما يجرى فى نفسك . لقد انقضى على سكنانا معا خمس سنوات . أنت انسان طيب القلب ، مرهف الشعور، ولكنك ضعيف جدا ، ضعيف ضعفا يدعو الى اليأس . ليزافيتا ميخائيلوفنا لاحظت هى نفسها ذلك . وأنت فوق هذا انسان حالم ... وليس فى ذلك خير أيضا . فاذا واصلت سيرك على هذا النحو كنت تتعرض للجنون يا صاحبى . اسمع . أنا أعرف ماذا تريد . أنت تتمنى مثـلا أن يطير صواب جوليان ماستاكوفتش فرحا ، بل وأن يقيم حفلة راقصة ، احتفالا بزواجك . انتظر قليلا . هأنت ذا تصعر وجهك اذ ساءك أن آتى على ذكر جوليان ماستاكوفتش ! طيب ... دعنا منه . لاحظ مع ذلك أننى أحترمه كمـا تحترمه ! ولكنـك لن تسـتطيع أن تبرهن لى على نقيض ما أقول ، ولن تستطيع أن تمنعنى من الاعتقاد بأنك ترى أنه ما ينبغى أن يكون على وجه الأرض أشقياء ما دمت تتزوج أنت ... صادق على ما أقول يا صاحبى .. انك تود أن أصبح ، أنا خير صديق لك ، رأسماليا على حين

فجأة ، أن أملك ألف روبل ؟ تتمنى أن يتصافح جميع الناس الذين يكره بعضهم بعضاً فى هذه الحياة الدنيا ، فاذا هم يتعانقون فى وسط الشارع ، ثم اذا هم يجيئون يزورونك هنا .. يا عزيزى ، يا صديقى الطيب ، لست أسخر منك .. أبدا .. ولكن الأمر كذلك . انك تعرض على نظريات من هذا القبيل منذ زمن طويل ، على تنوع فى صور هذه النظريات ! ... فلأنك سعيد ، تريد أن يصير جميع الناس سعداء بين عشية وضحاها . يؤلمك أن تكون وحدك سعيدا . لذلك تبذل جهدا كبيرا من أجل أن تكون جديرا بهذه السعادة . لا شك أنك مستعد للقيام بعمل بطولة ، لا لشىء الا لترضى ضميرك !.. طيب.. أنا أفهم أن تكون مستعدا لتعذيب نفسك تعذيبا روحيا كبيرا ، معاقبة لنفسك على أنها خارت حيث كان ينبغى أن تنشط .. أو حيث كان ينبغى أن « تعترف بالجميل » على حد تعبيرك ! فحين تتصور أن جوليان ماستاكوفتش سيصعر وجهه اذ يدرك أن الآمال التى عقدها عليك لم تكن فى محلها تنهار قواك وتقلق قلقا رهيبا . انك تتألم حين تتصور أنك ستسمع لوما من فم الانسان الذى تعده محسنا اليك وأنك ستسمع هذا اللوم فى لحظة يكون فيها قلبك طافحا فرحا وسعادة ، وفى لحظة تكون فيها أنت لا تدرى لمن تظهر شكرك وتعبر عن امتنانك . ألست على حق ! أليس الأمر كذلك ؟

أخذ صوت أركادى ايفانوفتش يرتجف، فتوقف عن الكلام وتنفس تنفسا قويا .

وكان فاسيا ينظر الى صديقه فى رقة وحنان . وارتسمت على شفتيه ابتسامة .

كأن طيفا من أمل قد مر بوجهه . فتشجع أركادى لهذه النتيجة ، فاستأنف كلامه يقول :

ـ اسمع يا فاسيا • ما ينبغى لجوليان ماستاكوفتش أن يمنع عنك الآن ما كان يحمله لك من عطف • أليس كذلك يا صديقى ؟ أليست هذه هى المسألة ؟ فاذا كانت هذه هى المسألة ، فسأضحى أنا بنفسى (قال ذلك وهو يهب واقفا) •• سأذهب الى جوليان ماستاكوفتش غدا •• ولكن لا تعارضنى ! ذلك أنك يافاسيا تضخم خطأك فتجعله جريمة ! مع أن جوليان ما ستاكوفتش انسان كبير النفس رحيم القلب • ثم انه ليس مثلك أبدا • سوف يصغى الى كلامنا يا عزيزى فاسيا ، فينقذنا من المأزق •• هل هدأت الآن ؟

شد فاسيا على يد أركادى والدموع فى عينيه • ثم قال :

ـ طيب يا أركادى ، دعنا من الحديث فى هذا الموضوع الآن ! لقد حُلت المشكلة •• لم أنجز العمل •• طيب •• لم أنجزه •• تأخرت •• هذا كل شىء . لا داعى الى أن تزعج نفسك . سأذهب اليه بنفسى ، فأشرح له الأمر •• لقد هدأت نفسى الآن ، واطمأن بالى اطمئنانا كاملا • ولكن لا تذهب اليه •• أطعنى ••

هتف أركادى يقول فرحا :

ـ فاسيا ، عزيزى • أنا لم أقل ما قلته الا استنادا الى كلامك نفسه• يسعدنى أنك هدأت بالا وطبت نفسا • تذكر مع ذلك أننى الى جانبك دائما ، مهما يحدث • ان فكرة تحدثى الى جوليان ماستاكوفتش تخيفك •• طيب •• لن أكلمه أنا ، بل تكلمه أنت ذاكرا له كل شىء • تذهب اليه غدا •• أو تبقى أنت فى البيت لتكتب ، وأمضى أنا أستطلع الخبر اليقين فى المكتب : هل الأمر مستعجل حقا أو لا ؟ هل يجب تسليم العمل فى تاريخ محدد قطعا ؟ وما هى النتائج التى تترتب على تأخر قد يحدث ؟ ثم أعود اليك بأقصى سرعة ممكنة أحمل اليك الخبر اليقين • هل رأيت

الآن أن هناك أملا ؟ قد لا يكون الأمر مستعجلا، ان فى وسعنا أن نتخلص من المأزق عندئذ فى يسر • وقد لا يطلب اليك جوليان ماستاكوفتش تسليم العمل فى اليوم المحدد له ؟ ان كل شىء يكون عندئذ قد أنقذ •

هز فاسيا رأسه علامة الشك والريب ، ولكنه ظل يلقى على صديقه نظرة شكر واعتراف بالجميل •

قال لاهثا :

ـ دعنا من هذا الموضوع الآن ! اننى ضعيف جدا ، متعب جدا ، فلا أحب أن أفكر فى هذا الموضوع قط • هلا تكلمنا فى شىء آخر ؟ ثم اننى أوثر أن لا أعمل الآن •• لن أنسخ الا صفحة أو صفحتين ، أى الى أن أبلغ فاصلا ما •• اسمع يا فاسيا : اننى أريد منذ مدة طويلة أن ألقى عليك هذا السؤال : كيف استطعت أن تعرفنى هذه المعرفة الصحيحة الصادقة ؟

وتساقطت دموع فاسيا على يدى أركادى •

قال أركادى :

ـ لو عرفت يا فاسيا مدى حبى لك وتعلقى بك لما ألقيت علىّ سؤالا كهذا السؤال •

ـ نعم يا أركادى أنا لا أعرف ذلك ، لأننى •• لأننى أجهل لماذا تحبنى هذا الحب كله • هل تعلم يا أركادى أن ما تحمله لى من حب قد عذبنى كثيرا ؟ هل تعلم أننى فى كثير من الأحيان ، ولا سيما فى المساء ، حين أفكر فيك (وأنا أفكر فيك دائما لحظة أستلقى على فراشى لأنام) ، أهمُّ أن أبكى وأشعر بارتجاف فى قلبى لأننى •• لأننى •• لأنك تحبنى هذا الحب كله ، ثم أنا عاجز عن أن أفتح قلبى وأن أبرهن لك على امتنانى •

ـ هل رأيت يا فاسيا ماذا أنت ؟ هدىء نفسك اذن هأنت ذا تضطرب اضطرابا شديدا من جديد ! (لاحظ أركادى ذلك وهو يرتجف لذكرى المشهد الذى جرى الليلة البارحة فى الشارع) .

ـ دعك من هذا الكلام يا صاحبى ! تريد منى أن أهدأ وانا لم اكن فى يوم من أيام حياتى أهدأ منى الان ولا أسعد ! لشد ما تمنيت أن احكى لك كل شىء ، ولكننى أخاف دائما أن أسبب لك ألما . فانت تقلق على ، فتصيح وتخيفنى .. أنظر .. حتى فى هذه اللحظة ارتجف .. لا أدرى لماذا ؟ اليك ما أحب أن أقوله لك : يخيل الى أننى كنت فى الماضى أجهل نفسى .. أما الآخرون فاننى لم أعرفهم ولم أفهمهم الا منذ أمس . كنت حتى هـذا اليوم لا أفهم .. ولا أقدّر .. كان قلبى جافا يابسـا . اليك كيف حدث ذلك : أنا لم أستطع أن أحسن الى أحد فى يوم من الأيام ، لأننى كنت عاجزا عن أن أحسن الى أحد .. فحتى مظهرى ليس فيـه ما يبهج النظر .. ومع ذلك كان جميع الناس يحملون لى عاطفة طيبة ! وأنت أولهم .. طبعا .. أما أنا فلم يكن فى وسعى أن أفعل شيئا غـير

ادى :

ـ ـ ـذا يا فاسيا ؟ فاسيا ... ماهذا ؟

فقاطعه فاسيا بقوله ، وهو لا يكاد يستطيع أن يلفظ كلماته من كثرة الدموع التى تخنق صوته :

ـ ماذا ؟ لا شىء .. أمس ، كلمتـك عن جوليـان ماستاكوفتش . أنت تعلم أنه قاس بل انه قاتم النفس ، وأنه قرعنى عدة مرات . ولكن ها هو ذا يخطر بباله أمس أن يمازحنى ، وأن يكون لطيفا معى ، وأن يظهـر طيبـة قلبه ، تلك الطيبـة التى يخفيهـا اخفـاء عاقلا حكيما عن الآخرين .

ـ طيب يا فاسيا ! •• ان دل هذا على شيء ، فانمـا يدل على أنك جدير بسعادتك •

ـ آه يا أركاشا ! لشد ما أتمنى لو أستطيع انجاز هذا العمل ! •• لا •• لا •• ان سعادتي ستتحطم •• أنا أوجس ذلك ! •• ولكن لابسبب هذا (كذلك قاطع نفسه اذ لاحظ أن أركادي يختلس النظر الى كـومة الدفاتر المتكدسة على المائدة قناطير) •• لا بسبب هذا •• هذا لا شيء •• ما هذا الا ورق •• ترهات •• هذه المسألة قد حُلَّت •• أركاشا ، لقد ذهبت اليها اليوم •• لكنني لم أدخـل • كان قلبي مثقـلا ، يفيض حزنا ومرارة ! لبثت واقفا أمام الباب بعض الوقت • كانت تعزف على البيانو ' فأنصت •• أرأيت يا أركادي ؟ لم أجرؤ أن أدخل •

هكذا أنهى فاسيا كلامه بصوت خافت •

ـ ما بك يا فاسيا ؟ انك تنظر اليَّ نظرة غريبة •

ـ لا شيء •• لا شيء •• أشـعر بأنني مريض قليـلا •• سـاقاي تصطكان •• ذلك لأنني سهرت طول الليل • نعم ، وان شرارات خضراء تلتمع أمام عيني •• هنا انما ••••

قال فاسيا ذلك مشيرا الى قلبه ، ثم أغمي عليه •

فلما أفاق من غشيته أراد فاسيا أن يتخذ اجراءات حاسمة • كان يتهيأ لأن يرقده في فراشه بالقوة • ولكن فاسيا احتج احتجاجا عنيفا • انه الآن يبكي ويعض يديه ويصر اصرارا قاطعا على أن ينجز الصفحتين• فسمح له أركادي أن يقترب من المائدة حتى لا يسرف في معارضته •

قال فاسيا وهو يجلس الى مكتبه :

ـ اسمع •• عندي فكرة •• هناك أمل ••

وابتسم فاسيا لصاحبه ، فكان وجهه الشاحب يضيئه شعاع من أمل حقا • وتابع كلامه يقول :

ـ اليك ما عقدت النية عليه • لن أحمل اليه بعد غد الا جزءا ••• أما الباقى فسألفق من أجله حجة ما •• أقول مثلا انه احترق او انه تبلل أو انه ضاع أو أقول له اننى لم أستطع أن أكمله •• ذلك أننى لا استطيع أن أكذب •• سأشرح له كل شىء بنفسى • هل تعلم ؟ ساروى له كل شىء •• سأقول له مثلا : لم أستطع وكفى ! سأحدثه عن حبى • لقد تزوج هو نفسه منذ زمن طويل • سوف يفهمنى ! طبعا سأتكلم بهدوء ، واحترام •• وسوف يرى دموعى ، فيتأثر قلبه •

ـ طيب •• اذهب اليه ، قابله ، اشرح له •• ولكن لا فائدة من الدموع يا فاسيا ! لماذا البكاء ؟ أؤكد لك يا فاسيا أنك تثير فى نفسى ذعرا رهيبا •

ـ نعم نعم ، سأذهب اليه • أما الآن فدعنى أكتب ، دعنى أكتب يا أركاشا • لن أسىء الى أحد • ولكن دعنى أكتب •

ارتمى أركادى على سريره • واضح أنه فقد اطمئنانه الى فاسيا ، وثقته به • ان فاسيا لن يتورع عن شىء •• لماذا طلب العفو ، وكيف ؟ ليست هذه هى المسألة فى الواقع • المسألة هى أن فاسيا لم يف بالتزاماته ، فهو يشعر من ذلك بأنه مذنب فى حق نفسه • هو يشعر بأنه عاق مع القدر • يشعر أنه غير جدير بسعادته ، فهذه السعادة هى التى تهز نفسه وتحطمها وتقلبها رأسا على عقب • انه لا يبحث الا عن حجة لينحرف الى هذا الاتجاه • انه لما يثب من دهشته بالأمس • قال أركادى فى داخله : « هذه هى المسألة • يجب أن نصالحه مع نفسه ؟ انه بسبيل تأبين نفسه •»•

وبعد أن اجتر أركادى ايفانوفتش المسألة طويلا ، قرر أن يذهب منذ الغد الى جوليان ماستاكوفتش دون ابطاء ، فيروى له كل شىء •

وكان فاسيا يكتب • واستلقى أركادى على السرير من جديد ، وقد هذه التعب ، من أجل أن يتأمل فى الأمر مرة أخرى • فاذا هو ينام ثم لا يستيقظ الا فى الفجر •

فلما ألقى نظـرة على أركادى ، رأى أنه ما يزال يكتب ، فهتف يقول :

ـ هوه •• ألى الآن ؟

وهب أركادى نحو صـديقه ، فأحاطه بذراعيـه وقاده الى السرير بالقوة • كان فاسيا يبتسم • وكانت أجفانه تطبـق من شـدة التعب • انه لا يكاد يستطيع الكلام • قال :

ـ كنت أنوى من تلقاء نفسى أن أرقد • هل تعلم يا أركادى ؟ عندى فكرة • سأنجز عملى • لقد استعجلت فى الكتابة • ولكننى تعبت الآن • أيقظنى فى الساعة الثامنة •••

وما كاد ينهى جملته حتى نام •

همس أركادى مخاطبا مافرا التى كانت آتية بالشاى :

ـ انه يطلب ايقاظه بعد ساعة • ولكن اياك أن توقظيه ! فلينم عشر ساعات اذا أراد • هل فهمت ؟

ـ فهمت يا سيدى •

ـ لا تحضرى غداء ولا تحدثى ضوضاء • الضوضاء خاصة ••• حاذرى الضوضاء •• اذا سأل عنى فقولى له اننى ذهبت الى المكتب • هل فهمت ؟

ـ فهمت يا سيدى •• فلينم ما شاء أن ينام •• ماذا يضيرنى هذا • ان نوم سيدى يسرنى •• وأنا أحافظ على ما يملكه أسيادى • أما الفنجان الذى كسرته أمس فقرعتنى من أجله ، فلم أكسره أنا ، بل كسرته القطة

ماشكا • كل ما هنالك أنني لم أنتبه اليها •• وحين طردتها كان قد فات الأوان •

ـ هست •• اسكتي !

صرف أركادى الخادمة الى المطبخ ، وطلب منها المفتاح ، فأقفل به الباب ، ثم ذهب الى مكتبه • وتساءل في الطريق كيف يجب أن يفعل حتى يمثل أمام جوليان ماستاكوفتش ؟ أليس في هذا افراطاً في الجرأة منه ؟ ودخل المكتب ، فسأل وجلا هل صاحب السعادة موجود • فقيل له انه غير موجود ، وانه لن يأتي في هذا اليوم • فأراد أركادى ايفانوفتش في أول الأمر أن يذهب الى منزله الخاص ، ولكنه سرعان ما انتهى الى أن جوليان ماستاكوفتش لا بد أن يكون مشغولا في منزله ما دام قد تغيب عن المكتب • لذلك بقي أركادى في عمله •• بدا له الوقت طويلا طويلا لا ينتهي • حاول أن يستطلع سرا أمر العمل الذى عهد به الى شومكوف، ولكن لم يكن أحد على علم بالموضوع • كل ما كانوا يعلمونه هو أن جوليان ماستاكوفتش شاء أن يكلفه ببعض الأعمال الخاصة فعلا ' ولكن ما من أحد يعرف طبيعة هذه الأعمال التي أراد أن يكلفه بها • وفي حجرة المدخل أوقفه أحد الكتبة وقال له ان فاسيلي بتروفتش شومكوف قد جاء في نحو الساعة الواحدة فسأل هل أركادى ايفانوفتش وجوليان ماستاكوفتش موجودان • فلما سمع أركادى هذا النبأ استأجر عربة وأسرع الى المنزل قلقا أشد القلق •

كان شومكوف هناك ، يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وهو مهتاج اهتياجا محموما • فلما ألقى نظرة على أركادى ايفانوفتش بدا عليه أنه هدأ ، أو هو أسرع يخفي اهتياجه على الأقل • وبدون أن يقول كلمة ، جلس الى مكتبه واستأنف الكتابة • كان يلوح عليه أنه يريد أن يتحاشى

أسئلة صاحبه التي أصبحت تزعجه ، اذ كان واضحا أنه اتخذ قراره وآلى على نفسه أن يحتفظ به سرا لا يفضى به الى أحد ، لأنه أصبح لا يعول على الصداقة ولا يثق بها • تأثر أركادى تأثرا شديدا • فجلس على السرير وفتح كتابا (هو الكتاب الوحيد الذى يملكه) ، دون أن يحول بصره عن فاسيا المسكين • وظل فاسيا صامتا لا ينطق بكلمة • واستمر يكتب لا يرفع رأسه • وانقضت على ذلك عدة ساعات • أصبحت آلام أركادى لا تطاق • وأخيرا ' فى نحو الساعة الحادية عشرة ، رفع فاسيا رأسه وألقى على أركادى نظرة كابية جامدة • انتظر أركادى ، غير أن عدة دقائق انقضت وفاسيا ما يزال صامتا • صاح أركادى :

ـ فاسيا •

فلم يجب فاسيا • فعاد أركادى يردد وهو ينهض ببطء :

ـ فاسيا ! ماذا بك ؟ ماذا دهاك ؟

كذلك صاح وهو يقترب من صديقه :

أنهض فاسيا رأسه ثانية ، وحدق الى صاحبه من جديد بنظرة بلهاء جامدة •

قال أركادى لنفسه مذعورا : « هذه نوبة عصبية ! » • وأسرع يتناول أبريق الماء ، وينهض رأس فاسيا ، ويأخذ يصب على جمجمته ماء، ويبلل صدغيه ، ويفرك يديه • فعاد فاسيا الى وعيه •

صاح أركادى باكيا ، لأنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه :

ـ فاسيا ' فاسيا ، فاسيا ، لا تدع لنفسك أن تهوى ••• تذكر •• تذكر •••

وأخذه بين ذراعيه قبل أن يتم جملته • كان فى وجه فاسيا غم

وقلق وألم • فرك فاسيا جبينه ، ثم رفع يديه الى رأسه كأنه يخشى على رأسه أن ينفجر • واستطاع أخيرا أن يقول :

ـ لا أدرى ما الذى بى • أظن أننى أجهدت نفسى • على كل حال، تحسنت الآن ، تحسنت •• هيا يا أركادى •• لا تقلق •• هيا (كذلك ردد وهو يرشق صديقه بنظرة حزينة) •• لا داعى الى القلق •• فيم القلق ؟

هتف أركادى نازف القلب من الرحمة :

ـ ما هذا ؟ أأنت الذى تعزينى وتواسينى الآن ؟ ارقد يا فاسيا •• لا تعذب نفسك فيما لا طائل تحته • ستستأنف عملك بعد •

فردد فاسيا كلام صاحبه يقول :

ـ نعم نعم ، أنت على حق • نعم ، سأرقد • سأرقد • لقد قررت فى أول الأمر أن أنجز العمل دفعة واحدة ، أما الآن فقد غيرت رأيى •• نعم ••

قاده أركادى الى السرير • وقال له بصوت جازم :

ـ اسمع يا فاسيا ، يجب أن تتخذ قرارا حاسما بشأن هذه المسألة • قل لى ماذا قررت •

قال فاسيا وهو يحرك يده باشارة ضعيفة ويحول رأسه :

ـ أواه ••

ـ هيا يا فاسيا ••• يجب أن تتخذ قرارا • لا أحب أن أكون قاتلك • لا أستطيع أن أسكت بعد الآن • أنا أعلم أنك لن تنام ما لم تتخذ قرارا حاسما •

قال فاسيا بلهجة كأنها سر أو لغز :

ـ ليكن ما تريد ، ليكن ما تريد .

قال أركادي لنفسه : « أذعن » . وأردف يلح قائلا :

ـ اتبع نصيحتي يا فاسيا . تذكر ما قلته لك . غدا أنقذك ، غدا أقرر مصيرك .. ولكن فيم الكلام على المصير ؟ لقد بلغت من تخويفي يا فاسيا انني أخذت أستعمل تعابيرك . أي مصير هذا الذي تتكلم عليه ؟ ما الأمر الا ترهات يسيرة ! أنت لا تريد ان تخسر عطف جوليان ماستاكوفتش ، أليس كذلك ؟ طيب.. لن تخسر عطفه .. سوف ترى.. أنا ...

كان يمكن أن يتكلم أركادي طويلا أيضا ، ولكن فاسيا قاطعه ، انه ينهض عن مكانه ، ويعانق أركادي ، ويقبله . ثم يقول بصوت واهن ضعيف :

ـ كفى .. كفى .. لا تتكلمن بعد الآن في هذه الأشياء !

ثم دار الى جهة الحائط من جديد .

قال أركادي لنفسه : « يا رب ! يا رب ! ماذا به يا رب ! انه خارج عن طوره تماما . ماذا قرر أن يفعل ؟ لسوف يضيع نفسه ! » .

ونظر أركادي الى صديقه في حسرة وأسى ؛ ثم قال لنفسه : « لعل الأمور أن تنحل اذا هو مرض . اذا مرض فقد تزول همومه . ويكون في وسعنا أن ندبر المسألة بعد ذلك على الوجه المناسب . ولكنني أهذر.. آه .. يا رب ؟ »

وفي تلك الأثناء كان يبدو على فاسيا أنه ينام . فاغتبط أركادي من ذلك . قال لنفسه : « هذه علامة طيبة » . وقرر أن يسهر عليه طول الليل . كان نوم فاسيا مضطربا . فهو في كل لحظة ينتفض ، ويلتفت الى الجهة الأخرى ، ويفتح عينيه . وغلبه التعب آخر الأمر ، فبدا في نحو

الساعة الثانية من الصباح انه يغيب فى نوم عميق • فنام عندئذ اركادى على كرسيه مسندا ذراعه الى المنضدة •

فرأى فيما يرى النائم حلما غريبا مقلقا • كان يتراءى له انه غير نائم ، وان فاسيا ما يزال راقدا على السرير • ولكن الامر الغريب هو أنه كان يحس ان فاسيا يمثل تمثيلا ، وانه يحاول ان يخدعه ، فها هو ذا ـ أى فاسيا ـ ينهض عن سريره صامتا ويتسلل نحو المكتب على رءوس الاصابع مراقبا صاحبه بطرف عينه •

شعر أركادى عندئذ بالم شديد يقبض قلبه • احزنه واشجاه ان يرى فاسيا لا يثق به بل يخفى عنه أفكاره • أراد أن يوقفه ، أراد أن يزجره ، أراد أن يرده الى السرير عنوة •• فاذا بفاسيا يطلق صرخة هى آخر زفرة من زفراته ، واذا باركادى يحمل الى السرير جثة ميتة لا انسانا حيا • تبلل جبين أركادى بالعرق ، وأخذ قلبه يخفق خفقانا شديدا حتى ليكاد ينفجر • فتح عينيه فاذا هو يرى فاسيا جالسا الى المنضدة أمامه يكتب •

ظن أركادى أنه ما يزال يحلم ، فنظر الى السرير ، فلم يجد عليه فاسيا • فنهض بوثبة واحدة وهو ما يزال تحت وطأة الكابوس الذى ألم به أثناء نومه • لم يتحرك فاسيا ، بل ظل يكتب • وفجأة لاحظ أركادى، مذعورا ، أن صاحبه يجرى على الورق ريشة بغير حبر ، وأنه يقلب صفحات بيضاء مسرعا فى ملء الصفحات اسراعا رهيبا ، كأن هذا خير وسيلة لانجاز العمل الذى يجب عليه أن ينجزه • قال أركادى ايفانوفتش لنفسه وهو يرتعش : « لا •• ليس هذا الا نوبة عصبية • » •

هتف يقول وهو يمسك صديقه عن كتفه :

ـ فاسيا ، فاسيا ، أجبنى !

ولكن فاسيا ظل صامتا لا يتكلم ، وظل يرسم على الورق خطوطا لا ترى ، بريشة من غير حبر •

قال دون أن يرفع بصره :

ـ أخيرا استطعت أن اعجّل كتابتي •

أمسك أركادي يده ، وانتزع منه الريشة •

أطلق فاسيا أنة ضعيفة • وتهاوت ذراعاه • ورفع عينيه صوب أركادي • وحرّك جبينه بحركة حزينة يائسة كأنه يحاول أن يزيح ثقلا ضخما يسحق كيانه كله • ثم خفض رأسه ببطء ، شارد الذهن •

صاح أركادي :

ـ فاسيا ! فاسيا !

انقضت لحظات قبل أن ينظر اليه فاسيا • كانت عيناه الزرقاوان تفيضان دموعا ، وكان وجهه الحلو يعبر عن عذاب لا يغالب ••• وكان يتمتم ببعض كلام •

سأله أركادي وهو يميل عليه :

ـ ماذا ؟ ماذا ؟

فهمس فاسيا يقول :

ـ لماذا يحقدون عليّ ؟ ماذا صنعت بهم ؟

صاح أركادي وهو يعقف ذراعيه بحركة يائسة :

ـ ما بك يا فاسيا ؟ مم تخشى ؟

قال فاسيا وهو يحدق الى عيني صديقه :

ـ لماذا يريدون أن يجندوني ؟ لماذا ؟ ما هي جريمتي ؟

ـ انتصب شعر أركادى على رأسه . لم يشأ أن يصدق أذنيه . ظل مائلا على صديقه وقد استبد به يأس رهيب شديد .

ثم ثاب الى رشده بعد دقيقة فقال لنفسه : « ليس هذا الا عرضا طارئا ثم ينقضى . . » . قال لنفسه ذلك وقد اصفر وجهه وارتجفت شفتاه. وأسرع يرتدى ثيابه كالمحموم ، لأنه يريد أن يركض باحثا عن طبيب . ناداه فاسيا فجأة . فهرع اليه ، وقبله قبلة أم يريدون أن ينتزعوا منها ابنها ...

ـ أركادى .. أركادى .. أرجوك خاصة أن لا تبلغ أحدا .. هل تفهمنى ؟ ان الذنب ذنبى .. فيجب أن أتحمل نتائجه وحدى .

ـ هيا يا فاسيا ، هيا ، ثب الى رشدك ، عد الى نفسك ، ابرأ مما بك!

تنهد فاسيا ، وأخذت عبرات صامتة تسيل على خديه .

ـ لماذا نقتلها هى ؟ ماذنبها هى المسكينة ؟ .. انها خطيئتى أنا ... خطيئتى أنا !

كذلك قال فاسيا بصوت مخنوق يمزق القلب حزنا .

وصمت بضع لحظات . ثم همس يقول وهو يهز رأسه المسكين :

ـ الوداع يا حبيبتى ، الوداع يا حبيبتى !

ثاب أركادى الى نفسه ، وأراد أن يركض الى الطبيب . فلما لاحظ فاسيا حركة صاحبه قال :

ـ هيا بنا .. لقد آن الأوان .. هيا بنا يا صاحبى .. أنا مستعد . اصحبنى .

ثم لم يقل شيئا ، بل ألقى على أركادى نظرة حزينة مرتابة .

قال أركادي يكرر فاقدا صوابه ، وهو يتناول قبعته ليمضي باحثا عن الطبيب :

ـ فاسيا •• لا تتبعني •• أرجوك •• أتوســل اليك •• انتظرني هنا • سأعود حالا •

فلم يلبث فاسيا أن قعد • كان يبدو وديعا طيعا ، ولكن قرارا يائسا كان يسطع في نظرته • عاد أركادي أدراجه ، فأخذ الموسى التي كانت مسلولة على المنضدة ، وألقى نظرة أخيرة على صديقه المسكين ، ثم أسرع يخرج راكضا •

كانت الساعة قريبة من الثامنة • وكان ضــوء النهار قد أخذ ينير الغرفة منذ وقت •

لم يجد أركادي أحدا • طاف المدينة ساعة بكاملها ، ولكن جميــع الأطباء الذين عرف عناوينهم من البوابين الذين يسألهم كانوا قد خرجوا، بعضهم الى دوائرهم ، وبعضهم الى أعمالهم • غير أن واحدا من الأطباء كان قد أخذ يستقبل مرضاه • سأل الطبيب خادمه طويلا عن نيفيدفتش : من أرسله ولأي غرض جاء ، حتى لقد أراد أن يوصف له هذا الزائر المبكر • ثم صرح أخيرا بأن أعمــاله كثيرة ، فلا يســتطيع الذهاب الى المريض، وبأن المرضى الذين هم من هذا القبيل يجب نقلهم الى المستشفى.

فحزن أركادي أشد الحزن ، لأنه لم يكن يتوقع حلا كهذا الحل ، فاستغنى عن الطب والأطباء ، واندفع راجعا الى المنزل ، يرتجف خــوفا على فاسيا ، ودخل البيت راكضا • كانت مافرا تكسر حطبا لاشعال المدفأة كأن شيئا لم يحدث • فلما صار أركادي في الغرفة لم يجد فاسيا • فان فاسيا كان قد خرج •

تساءل أركادي متجمدا من الذعر : « أين هــو المسكين ؟ الى أين

يمكن أن يكون قد ذهب ؟ » • وأخذ يسأل مافرا ، لكن المرأة الطيبة لا تعلم شيئا ، بل انها لم تسمع خطواته حين خرج • هرع نيفيدفتش يذهب الى جماعة كولومنا • الله يعلم لماذا خطر بباله أنه قد يجد فاسيا هناك •

وصل اليهم فى نحو الساعة التاسعة والنصف • وكانوا جاهلين بكل شيء • فأخذ أركادى يسألهم هل فاسيا عندهم ، وقد لاح عليه التردد والهلع •

كادت العجوز تتهاوى ، فجلست على الأريكة • وأخذت ليزانكا تسائله مرتجفة من قمة الرأس الى أخمص القدم • ولكن ماذا كان يستطيع أركادى أن يقول ؟ ها هو ذا يلفق قصة لم يشأ أحد أن يصدقها طبعا • ثم انصرف كما جاء ، تاركا أهل الدار فى حزن شديد وقلق عظيم • أسرع الى مكتبه حتى لا يصل متأخرا عن الميعاد تأخرا كبيرا • وخطر على باله أثناء الطريق أن فاسيا قد يكون عند جوليان ماستاكوفتش• هذا جائز • حتى لقد فكر أركادى فى ذلك قبل أن يذهب الى كولومنا•

لما وصل بالعربة أمام منزل صاحب السعادة أراد أن يتوقف ، ولكنه سرعان ما غير رأيه وتابع طريقه • لقد قرر أن يستطلع الأمر فى المكتب أولا • فاذا لم يطلع هنالك على شيء ، عاد يمثل أمام صاحب السعادة ، ليبلغه ما حدث لفاسيا فى أقل تقدير • ذلك أنه لا بد من تقديم تقرير لأحد •

فما ان صار فى حجرة المدخل حتى رأى زملاءه يحيطون به ويتجمعون حوله ، وأكثرهم من رتبته ، يسألونه عما جرى لفاسيا • وأبلغوه جميعا فى الوقت نفسه أن فاسيا أصبح مجنونا ، وأن قوام جنونه اعتقاده بأنه سيجند فى فرقة تأديبية من الجيش لاهماله عمله •

أجاب أركادى ايفانوفتش جميع الناس ، أو قل انه لم يجب أحدا

بعينه • فانه لم يكن يريد الا شيئا واحدا هو أن يدخل المكاتب • فلما طاف بمختلف الدوائر عرف أن فاسيا موجود عند جوليان ماستاكوفتش، وأن كثيرا من الموظفين هناك ، وأن اسبر ايفانوفتش قد ذهب الى هناك أيضا • وسأله واحد من كبار الموظفين الى أين هو ذاهب وماذا يريد ، فنطق ببضع كلمات ذاكرا اسم فاسيا ، واتجه رأسا الى غرفة الرئيس الكبير • كان صوت جوليان ماستاكوفتش يصل الى سمعه • سأله أحدهم أمام الباب :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

وانه يتهيأ لأن يرجع القهقرى ، اذا هو يلمح فاسيا المسكين من خلال الباب المشقوق ؟ فلا يسعه الا أن يدفع المصراع ، فيتسلل الى الغرفة بغير قليل من العناء • كان جو مضطرب يسيطر على الغرفة : ان جوليان ماستاكوفتش يبدو منزعجا أشد الانزعاج ، يحيط به جميع أصحاب الرتب العالية من الموظفين ، وهم جميعا يتناقشون ثم لا يصلون الى اتخاذ قرار• وكان فاسيا منتحيا جانبا • انقبض صدر أركادى حين رآه على هذا الحال• كان فاسيا أبيض الوجه من فرط الشحوب ، منتصب القامة رافع الرأس مشدود الساقين ضاما ذراعيه الى الفخذين ، تماما كما يفعل المجندون أمام رئيسهم • وكان شاخصا ببصره الى عيني جوليان ماستاكوفتش • وسرعان ما لوحظ وجود نيفيدفتش • فاذا بواحد يجهل أن الصديقين يسكنان معا ، يقترب من صاحب السعادة فيلفت نظره اليه • فاقتيد أركادى الى الرئيس • وفيما كان أركادى يتهيأ للاجابة على الأسئلة التى يطرحها عليه جوليان ماستاكوفتش ، نظر الى وجهه فلاحظ أنه يعبر عن تأثر وعطف صادق • فاذا هو يشعر بقشعريرة تسرى فى جسمه ، ثم اذا يأخذ يبكى منتحبا كطفل • بل لقد فعل أكثر من ذلك : وثب نحو الرئيس الكبير ، فتناول يده وحملها الى شفتيه يقبلها ويغرقها بالدموع • فاضطر

جوليان ماستاكوفتش نفسه ان يسحب يده بسرعة ، وأن يجرى حركة خفية ، ويقول : « هيا يا عزيزى هيا •• أرى أن لك قلبا طيبا • • » • كان آركادى ينتحب ويرشق الحضور بنظرات متوسلة ضارعة • كان يبدو له أنهم جميعا كالخوة لصديقه المسكين فاسيا ، وأنهم جميعا متألمون لحاله ، حزانى عليه •

سأله جوليان ماستاكوفتش قائلا :

ـ ولكن كيف حدث له هذا ؟ لماذا أصبح مجنونا ؟

فدمدم أركادى يقول :

ـ اع •• اعترافا بالجميل •

ثم لم يستطع أن يزيد على ذلك شيئا •

دهش جميع الحضور حين سمعوا هذا الجواب ، ووجدوا أنه أمر ن يفقد انسان عقله اعترافا بالجميل • وشرح أركادى ع •

قال جوليان ماستاكوفتش أخيرا :

ـ مسكين ••• مع أن الأمر الذى عهدت به اليه لم يكن لا هاما ولا مستعجلا ! هذا انسان ضاع فى سبيل لا شىء ••• طيب •• خذوه •

واتجه جوليان ماستاكوفتش بالكلام بعد ذلك الى أركادى فألقى عليه بعض الأسئلة •

قال مشيرا الى فاسيا :

ـ هو يرجو أن لا يذكر من الأمر شىء لاحدى الفتيات ، فهل هى خطيبته ؟

فقدم أركادى بعض الايضاحات• وكان فاسيا أثناء ذلك يبدو فريسة

فكرة تحاصر ذهنه . كان كمن يبذل جهدا كبيرا من أجل أن يتـذكر شيئا خطير الشأن ، بل لا بد منه ولا غنى عنه في هذه اللحظة . وكان في بعض الأحيان يطوف ببصره على الحضور كأنه يأمل أن يسعفه أحـدهم فيذكره بما كان يحاول أن يتذكره . وتوقفت نظراته على أركادي . فاذا بشعاع من أمل ينير وجهه فجأة . واذا هو يتقدم الى الأمام خطوة بقدمه اليسرى ، ثم يسير بضع خطوات سيرا عسكريا ، لا يفوته حتى أن يقرع الأرض بكعب قدمه اليمنى كما يفعل الجنـــود حين يقتربون من ضابط ناداهم . فأخذ الجمع ينتظر ما سيعقب ذلك . قال فاسيا بصوت متقطع :

ـ يا صاحب السعادة ، ان بي عاهة جسمية ، فأنا ضعيف وقصـير القامة ولا أصلح للخدمة العسكرية .

فشعر جميع من في الغرفة بانقباض في قلوبهم ، حتى أن جوليان ماستاكوفتش نفسه لم يملك أن يحبس دمعة سالت من عينيه رغم صلابة طبعه وقوة ارادته . قال وهو يشير بيده :

ـ خذوه ..

قال فاسيا بصوت خافت :

ـ الى الجبهة ...

ثم استدار الى الوراء يسرة . وخرج من الغرفة .

أسرع جميـع من يهمهم مصيره يجـرون وراءه . وتبع أركادي الآخرين . أجلس فاسيا في قاعة الانتظار ، وأخذ المختصون يعدون أمرا بقبوله في المستشفى ، ويسألون عن العربة التي ستحمله اليه .

ان فاسيا صامت لا يتكلم . انه يبدو مشغول البال الى أقصى حد . وهو يحيي جميع من يعرفهم بانحناءة يسيرة كأنه يودعهم ، وينظر الى

الباب في كل لحظة منتظرا أن يقال له : آن أوان الانصراف • ان حلقة ضيقة من الناس تحيط به • وهم جميعا يهزون رءوسهم حسرة ، ويرثون لحاله ، ويحزنون لما آل اليه ؟ وما أكثر الذين تأثروا أشد التأثر لقصته التي شاعت في المكتب كله فجأة •• فبعضهم يناقش الأمر ، وبعضهم يمدح فاسيا ويعبر عن أساه • قالوا انه كان فتى هادئا متواضعا يعد بمستقبل مشرق • وقالوا انه كان يحرص على الاستزادة من العلم وكان يعمل جاهدا في سبيل استكمال ثقافته • وقال أحدهم : « انه بوسائله وحدها انما استطاع أن يخرج من ظرف وضيع جدا • » • وأشاروا ، بكثير من الحنان ، الى العطف الذي كان يحمله له صاحب السعادة • وأخذ بعضهم يشرح لماذا تحاصر ذهن فاسيا فكرة زجه في الجيش عقابا له على عدم انجازه عمله • قالوا ان الفتى ينتمي في أصله الى طبقة الأقنان ، وان الفضل في وصوله الى الحصول على رتبة موظف انما يرجع الى جوليان ماستاكوفتش وحده • ذلك أن جوليان ماستاكوفتش قد رأى فيه علائم موهبة حقيقية ، كما رأى فيه طواعية كاملة ، وأدبا جما ••• الخلاصة أنهم تكلموا كثيرا وتناقشوا طويلا • وكان من أكثر الناس تأثرا رجل طيب قصير القامة جدا ، أقصر كثيرا من متوسط طول الرجال • انه أحد زملاء فاسيا ؛ وما هو الآن فتى في ريعان الشباب • فلعله بلغ الثلاثين من عمره • كان شاحب الوجه كميت • كانت أعضاؤه جميعها تختلج ، وكان يبتسم ابتسامة غريبة ••• ربما لأن أي حادث رهيب أو أي أمر فاضح يمكن أن يملأ قلوب شهوده خوفا شديداً ولذة عجيبة في آن واحد • كان الرجل القصير يركض بين الجماعة التي تزدحم حول فاسيا من أقصاها الى أقصاها ، وكان لقصره ينتصب على رءوس الأصابع ، متشبثا بزر هذا أو ذاك من زملائه (الذين كان يحق له أن يقاربهم) ؛ وما ينفك يردد أنه يعرف كيف وقع ما وقع ، غير أن الأمر معقد ، ولا يمكن ترك الأمور على ما هي عليه•

واتصب على رءوس أصابعه مرة أخرى فهمس فى أذن أحدهم ببعض الكلام ، ثم هز رأسه عدة مرات ، ومضى يهرول الى مكان آخر •

وانتهى أخيرا كل شيء : جاء الحارس والممرض • فاقتربا من فاسيا، وقالا له ان أوان الانصراف قد آن • فنهض فاسيا ببطء ، واضطرب بعض الاضطراب ، ومضى يتبعهما ناظرا حوله • كان يبحث عن أحد • هتف أركادي باكيا ناشجا : « فاسيا ، فاسيا ! » • فتوقف فاسيا ، واستطاع أركادي أن يشق لنفسه طريقا الى صاحبه • فتعانق الصديقان آخر عناق ••• كان منظرا محزنا يمزق القلب • أية نازلة وهمية كانت تسيل عبراتهما ؟ لماذا كان يبكيان ؟ أين هى تلك النازلة ؟ لماذا لم يستطيعا أن يتفاهما ؟

قال فاسيا لصاحبه وهو يدس في يده ورقة مطوية :

ـ خذ •• خذ هذا •• خذ هذا•• احتفظ لى به • والا أخذوه منى. جئنى به بعد • جئنى به • احتفظ لى به •

ولم يستطع فاسيا أن يكمل كلامه • فقد نودى • فهبط السلم مسرعا وهو يحيى الناس ويحنى رأسه • ان ألما قاتلا كان يرتسم فى وجهه • ووُضع فى العربة أخيرا ، وسارت العربة •

فض أركادى الورقة على عجل • انها الخصلة السوداء من شعر ليزا ، التى كان يحملها فاسيا دائما معه • انبجست دموع مرة أخرى من عينى أركادي ، وتمتم يقول : « مسكينة أنت يا ليزا » •

فلما انصرف الموظفون ذهب أركادى الى جماعة كولومنا • لا داعى الى وصف ما جرى هنالك ! حتى الصغير بتيا الذى لم يفهم كثيرا ما وقع لفاسيا الطيب انزوى في ركن وغطى وجهه بيديه وطفق يبكى بكاء يمزق القلب •

كان الليل قد أخذ يهبط حين سار أركادى فى طريق العودة الى البيت . فلما وصل الى ضفة نهر نيفا ، توقف لحظة ، فحدق الى الأفق البعيد عند منحدر النهر . هنالك ، كان الهواء الكثيف والضباب البـــارد الكابى يلتهبان فجأة بأواخر الشعل من أول الغروب . كان الليل يهبط على المدينة . وكانت صفحة الماء المتجلدة المحدودبة المخددة بحلقات من ثلج قاس تعكس على كل امتدادها الواسع أواخر أشعة الشمس الغاربة تراقصا متلألئا على صفائح الجليد التى لا يحصى عددها .

كانت درجة الحرارة قد هبطت الى العشرين تحت الصفر ... ان بخارا أبيض يحيط بالخيول المتوقفة عجـزا عن متابعة السـير ، وبالناس الماشين بخطى سريعة . والهـواء الكثيف يرجع أيسر صـوت . وفوق سطوح جميع المنازل المصطفة على الأرصفة تتصاعد فى السماء البـاردة أعمدة عالية من دخان ، يختلط بعضها ببعض ، ثم يفترق بعضـــها عن بعض . لكأن مبانى أخرى كانت تنبثق فى الجو فتشكل مدينة جديدة فوق المدينة القديمة . كان العالم ـ بجميع ساكنيه ، الأقوياء منهم والضعفاء ، وبجميع مساكنه ، أكواخ الفقراء منها وقصور العظماء على هذه الأرض ـ كان هذا العالم كله يبدو فى تلك الساعة من المساء أشبه بسراب عجيب ، أشبه بحلم مصيره الى الزوال هو أيضا ، مصيره الى أن يتبخر دخانا فى السماء الزرقاء الداكنة .

وهذه فكرة غريبة تنبثق فجأة فى ذهن رفيق المسكين فاسيا ، فى ذهن الرفيق الذى أصبح الآن وحيدا . ارتعش أركادى . كأن دما أشد حرارة يتدفق الآن الى قلبه ، تحركه عاطفة قوية لم يعرفها قبل اليوم . لقد بدا له أنه يفهم الآن كل ذلك القلق الذى دفع فاسيا الى الجنـــون ، ويدرك السبب الذى جعل فاسيا يفقد عقله من عجزه عن احتمال سعادته.

اختلجت شفتا أركادى ، وسطع لهيب فى عينيه •• واصفر وجهه ، وشعر أنه عرف فجأة ، فى هذه اللحظة نفسها ، حقيقة جديدة •

أصبح أركادى حزين النفس متجهم الطبع • فقد مرحه القديم • كره منزله ، فاتخذ لنفسه سكنا آخـر • ولم يطق أن يذهب بعـدئذ الى جماعة كولومنا • وبعد سنتين صادف ليزانكا فى الكنيسة • كانت الفتـاة قد تزوجت • هذه مرضعة تسير وراءها حاملة على ذراعيها طفلا صغيرا • حياها وحيته ، ولكنهما تجنبا الحديث عن الماضى • قالت ليزا انها سـعيدة ولله الحمد ، وأن العسر قد زاولها ، وان زوجها رجل طيب شهم ، وانه يحبها •• ولكن عينيها فاضتا بالدموع فجأة قبل أن تكمل جملتها ، وتحطم صوتها ، فحولت وجهها ومالت على عمود من أعمدة الكنيسة تخفى ألمها ••

حواش

الفقراء

صفحة

٥٩ ــ النص مستمد من قصة « الميت الحى » (١٨٣٨) التى كتبها الأمير فلاديمير ف أودويفسكى ، الكاتب الرومانسى ·

٦٠ ــ « فرفارا » هو النطق الروسى لاسم بربارا · ويصغره الروس على سبيل التودد قائلين : فاريا ، فارنكا · و «ماتوشكا» كلمة روسية معناها « الأم الصغيرة » ، تخاطب بها الفتيات تحببا وتوددا ·

٦٢ ــ محاكاة مضحكة للبيت الأول من قصيدة لرمونتوف : « ليتنى كنت طائرا ، ليتنى كنت غرابا من غربان الفيافى » ·

٦٣ ــ « البارون برامبئوس » ، هو الاسم الأدبى المستعار للأستاذ أوزيب سنكوفسكى ، المستشرق البولونى الأصل ، الذى كان اديبا خصبا ، وكان يصدر مجلة « غرفة القراءة » ·

٦٦ ــ « دييفوشكين » اسم مشتق من كلمة دييفوشكا ومعناها الفتاة ·

٦٩ ــ « دوبروزيولوفا » اسم منحوت من كلمتى « دوبروى » و «زيلو» ومعناهما « القرية الجميلة » ؛ ويمكن أن نرى فى ذلك اشارة الى الطفولة السعيدة فى الريف ·

٧٨ ــ « تيريز » و « فالدونى » ، هما من أبطال رواية نيكولا ليونار (١٧٤٤ ــ ١٧٩٣) التى ترجمت الى الروسية سنة ١٨٠٤ ·

٨١ ــ « بيكوف » اسم مشتق من كلمة « بيك » ومعناها الثور ، اشارة الى ما يتصف به طبع السيد بيكوف من قسوة وشراسة ·

صفحة

٨٢ – « فولكوفو » مقبرة فقيرة تقع فى جنوب سان بطرسبرج ·

٩٤ – « بوكروفسكى » اسم مشتق من اسم عيد « بوكروف » الذى يحتفل به فى أول تشرين الأول (أكتوبر) · ان هذه الاسماء نموذجية عند أتباع الكنيسة الارثوذكسية ·

١٠١ – « باتنكا » ، مصغر بيتر (بطرس) ، والتصغير للتحبب ·

١١٤ – ظهرت الطبعة الأولى من « أعمال بوشكين الكاملة » بعد وفاته فى أحد عشر مجلدا (١٨٣٨ – ١٨٤١) ·

١٣٤ – « راتازايف » اسم مشتق من كلمة راتازى ، ومعناها المتسكع ، فكذلك سخر دوستويفسكى من الكاتب الصغير باطلاق هذا الاسم عليه ·

١٤٠ – ارماك تيموفيفتش ، قائد قوزاق الدون الذى احتل سيبيريا الغربية سنة ١٥٨٣ ·

١٤٤ – ترجمت روايات بول دوكوك (١٧٩٤ – ١٨٧١) كثيرا وقرئت كثيرا فى روسيا · وكان الناقد الشهير بيلنسكى يقدر اتجاهها الواقعى ·

١٤٦ – « أقاصيص بيلكين » ، تأليف بوشكين ، ظهرت سنة ١٨٣١ ·

١٥٣ – استاذ الفلسفة جالتش ، نشر بسان بطرسبرج سنة ١٨٣٤ كتابا جامعا بعنوان : « صورة الانسان ، دراسة تستبطن النفس البشرية وتنفع قراءتها جميع الطبقات المستنيرة » ·

١٥٣ – « الصبى الذى يلعب بالأجراس الصغيرة » ، بهذا العنوان صدرت بموسكو سنة ١٨١٠ الرواية العاطفية التى كتبها دكرى دومينيل (١٧٦١ – ١٨١٩) ، وكان عنوانها الأصلى « فكتور أو صبى الغابة » ، وقد نالت هذه الرواية فى حينها نجاحا كبيرا ، وأعيد طبعها بالروسية مرارا ·

١٥٣ – « طيور ايبيكوس » ، قصيرة لشيللر ، ترجمها الى الروسية الشاعر ف· جوكوفسكى سنة ١٨١٣ ·

صفحة

١٥٣ — « ناظر المحطة » قصة من « حكايات بيلكين » للشاعر الروسى الكبير بوشكين . وهى تروى قصة مؤثرة عن ناظر المحطة المسكين ، صمصون فيرين ، الذى اختطف ضابط غنى بنته .

١٥٥ — فى شارع نفسكى وعلى أرصفة النهر كانت تقوم الأحياء الارستقراطية بالعاصمة .

١٥٦ — « المعطف » قصة جوجول الشهيرة ، ظهرت سنة ١٨٤٢

١٥٩ — « الجنرال » هو رئيس المكتب : كان الموظفون المدنيون الذين ينتمون الى الطبقات العليا يحق لهم أن يخاطبوا بلقب صاحب المعالى أو صاحب السعادة ، وكانوا يشبهون بالجنرالات ، وكانوا يسمون أحيانا بالجنرالات المدنيين .

١٩٦ — « لوفلاس » اسم الشاب الذى يغوى الفتيات فى الرواية العاطفية « كلاريسا هارلو » (١٨٤٧) التى كتبها ريشارد مون . وقد ترجمت هذه الرواية الى الروسية وقرئت كثيرا

٢٠٩ — « فونتانكا » قناة متفرعة من نهر نيفا فى وسط العاصمة .

٢١٠ — « جوروخوفايا » ، شارع كبير فى وسط سان بطرسبرج .

٢٣١ — أغلب الظن أنها « نحلة الشمال » ، الجريدة السياسية الأدبية التى كان يصدرها الكاتب الرجعى فاداى بولفارين ، البولونى الأصل .

المثل

٢٦١ — «جولياد كين» اسم مشتق من اسم قبيلة جولياد التى ورد ذكرها فى التاريخ الروسى فى القرن الحادى عشر ، على أن الصلة التى بين هذا الاسم وبين كلمة « جون » (أى الفقير أو العريان) يمكن أن تكون اشارة الى فقر شخصية الرواية .

٢٧٠ « روتنسبتس » مقلوب كلمة سبتسروتن الالمانية ومعناها « الأسواط المدببة » وهى ذلك القصاص الرهيب الذين استورده الجيش

صفحة

الروسى من ألمانيا فى القرن الثامن عشر · ان فى تسمية الطبيب بهذا الاسم اشارة الى شراسة طبعه ·

٣٠٩ ـ الكونت جوزيف دو فيليـل (١٧٧٣ ـ ١٨٥٤) ، هو رئيس الوزراء فى عهد « الاصلاح » من عام ١٨٢١ الى عام ١٨٢٨ ·

٣٠٩ ـ الوزير مارزيميريس ـ هو شخصية « قصة مغامرات ميلورد جورج مع المركيزة فردريكا براندنبورج والملكة تيريز دوساردينى » ، والقصة من تاليف م كوماروف ، وقد نشرت سنة ١٧٨٢ وراجت رواجا كبيرا (ظهرت الطبعة التاسعة منها سنة ١٨٣٩) ·

٣٥٠ ـ آ · ف · سوفوروف (١٧٢٩ ـ ١٨٠٠) جنرال روسى عرف بانتصاراته وغرائب سلوكه ·

٣٦٠ ـ « آخر أيام بومبئى » ، لوحة للرسام شارل برولوف ، وهو روسى من أصل فرنسى · واللوحة صورة مؤثرة رسمت فى ايطاليا ونقلت الى سان بطرسبرج وعرضت بها سنة ١٨٣٤ ؛ وقد حظى هذا العرض باعجاب شديد ، وكتبت فى اللوحة مقالات تقريظ كثيرة ، من بينها مقالة كتبها جوجول ·

٣٨٣ ـ جرشكا (جريجورى) أوتربيف ، هو « ديمتريوس المزيف » الذى استولى على العرش سنة ١٦٠٥ بدعوى انه ابن حنا الرهيب ، وقتل سنة ١٦٠٦ ·

٤٣٥ ـ ترجمة روسية لكتاب لوفى دو جوفرى المعنون « مغامرات الفارس دو فوبلاس العاطفية » ، وكان قد ظهر بين سنتى ١٧٩٢ و ١٧٩٦ فى أحد عشر جزءا صغيرا ·

٤٥٩ ـ « رسول شرطة سان بطرسبرج » ، جريدة تاسست سنة ١٨٣٩ ، وأصبحت تصدر يومية منذ سنة ١٨٤٤ ·

٤٧٠ ـ المهاجرة فالبالا ، مديرة مدرسة داخلية للبنات ، والاسم قد اخترعه بوشكين ساخرا فى قصيدته الهجائية «الكونت نولين» ·

صفحة

قلب ضعيف

٥١٤ – ليزا ، ليزانكا ، هما تصغير اسم ليزافتا (اليزابت) ·

٥١٥ – جوليان ماستاكوفتش هو رئيس المكتب الذى يعمل فيه فاسيا· وقد اشتق دوستويفسكى اسم ماستاكوفتش من كلمة ماستاك الروسية ومعناها الرجل الحاذق الماكر ، اشارة الى طبع هذه الشخصية ·

٥٢٢ – بطرسبرجسكايا ستورونا » ، حى فى شمال نهر نيفا ·

٥٢٢ – « كولومنا » ، ضاحية فى الجنوب الشرقى من العاصمة ·

٥٢٣ – « مانون ليسكو » ، بطلة الرواية الشهيرة التى كتبها الكاهن بريفو ، وقد ظهرت سنة ١٧٣١ ، وترجمت الى الروسية وأصابت نجاحا كبيرا ·

فهرس

الموضـــوع | **الصفحة**

الموضـــوع	الصفحة

الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الأول

الفقراء
المثل
قلب ضعيف

المجلد الثاني

نيتوتشكا نزفانوفنا
الليالي البيضاء
بروخارتشين
الجارة
المهرج
السارق الشريف
البطل الصغير
قصة في تسع رسائل
شجرة عيد الميلاد والزواج
زوجة آخر، ورجل تحت السرير

المجلد الثالث

قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها
حلم العم

المجلد الرابع

مذلون مهانون

المجلد الخامس

ذكريات من منزل الأموات

المجلد السادس

في قبوي
قصة اليمة
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف
التمساح

المجلد السابع

المقامر
الزوج الابدي

المجلد الثامن

الجريمة والعقاب -١-

المجلد التاسع

الجريمة والعقاب -٢-

المجلد العاشر

الأبله -١-

المجلد الحادي عشر

الأبله -٢-

المجلد الثاني عشر

الشياطين -١-

المجلد الثالث عشر

الشياطين -٢-

المجلد الرابع عشر

المراهق -١-

المجلد الخامس عشر

المراهق -٢-
قصص

المجلد السادس عشر

الاخوة كارامازوف -١-

المجلد السابع عشر

الاخوة كارامازوف -٢-

المجلد الثامن عشر

الاخوة كارامازوف -٣-

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعيا يدافع عن "الفقراء" "والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف